

نورمان ف. كانتور

التاريخ الوسيط

قصة حضارة البداية والنهاية

الجزء الثانى

ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم


mohamed khatab

التاريخ الوسـيط

قصة حضارة: البداية والنهاية

القسم الثانى

ترجمة وتعليق

دكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
بجامعة الزقازيق

مع دليل للقراءة فى موضوعات التاريخ الوسيط

١٩٩٧م



MEDIEVAL HISTORY
THE LIFE AND DEATH OF A CIVILIZATION

BY

NORMAN F. CANTOR

SECOND EDITION

Macmillan Publishing Co, nc.
New York
Paper Back 1975

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى ا

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتم

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون :

PublisherEIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

المحتويات

الصفحة

الصفحة

فهرس الخرائط

الصفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

إننى إذ أحمد الله أن أعاننى على استكمال ترجمة هذا السفر الهام ، ليكون فى خدمة الطلاب والباحثين العرب على امتداد وطننا الكبير ، فإننى أحب أن أذكّر القارئ الكريم بأن القسم الأول من هذه الترجمة قد صدر قبل عامين تقريبا ، وهو يتناول فترة العصور الوسطى الباكرة وينتهى عند منتصف القرن الحادى عشر . وهذا هو القسم الثانى من الترجمة العربية لكتاب : The Medieval History : The Life and Death of Civilization للأستاذ الأمريكى المعاصر كانتور Norman F . Cantor . وهذا القسم يتناول الفترة من منتصف القرن الحادى عشر حتى القرن الخامس عشر ، وهى الفترة التى اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى العالية ، والعصور الوسطى المتأخرة . وبهذا يكون فى متناول القارئ العربى صورة متكاملة عن الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى . والأهم من ذلك أنه سيجد تحليلا ذكيا ، ورؤية شاملة لقيام هذه الحضارة وسقوطها .

وعلى الرغم من أننا لانوافق المؤلف فى بعض آرائه ، ولاسيما ماذكره من أن حضارة العصور الوسطى قد سقطت لأنها فقدت إرادة الحياة فأقبلت على الانهيار ، فإن تحليله لكافة الظواهر التاريخية (اجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ، ودينية ، واقتصادية ، وفنية) يكشف عن قدر كبير من الذكاء والنظرة الثاقبة . وهذا القسم الثانى حافل بالمعلومات المتنوعة فى شتى جوانب الحياة الأوربية فى العصور الوسطى العالية والمتأخرة ، فى نسق فكرى شامل . وربما لاأكون مبالغا إذا قلت أن هذا الكتاب ضرورى لكل دارس أو باحث فى تاريخ العصور الوسطى وحضارتها .

وقد سرت فى ترجمة هذا القسم على نفس المنهج الذى انتهجته فى ترجمة القسم الأول ؛ من حيث الالتزام الحرفى بالنص الأصلى مع الحرص ، قدر الإمكان ، على سلامة الأسلوب

العربى . وأرجو أن أكون قد وفقت إلى إضافة هامة للمكتبة العربية فى مجال دراسات العصور الوسطى . ولقد أعد خرائط هذا القسم الصديق الأستاذ الدكتور / أحمد سالم صالح ، الأستاذ بآداب الزقازيق فله منى الشكر والتقدير .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الخامس

عصر الإصلاح الجريجورى

أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر

« كأنما تلقينا مملكتنا منك أنت ؛ وكأنما
بيدك أنت المملكة والإمبراطورية لابيد الرب
... لقد وضعت يدك علىّ أنا الذى توجت
على العرش ، على الرغم من عدم جدارتى
بأن أكون بين المتوجين » .

– هنرى الرابع إلى جريجورى السابع

« إن الجميع ليعرفون أن الملوك والأمراء
ينحدرون من نسل رجال لايعرفون الرب » .

– جريجورى السابع



الفصل الحادى عشر
على مشارف العصور الوسطى العالية

١ - حضارة العصور الوسطى العالية فى المنظور التاريخى :

لقد حظيت الفترة التى تمتد على مدى قرنين ونصف قرن فى التاريخ الأوربى ، من منتصف القرن الحادى عشر حتى بداية القرن الرابع عشر ، بدراسة أكثف من الدراسة التى حظيت بها أية فترة أخرى فى العصور الوسطى . وقد جرت عادة الكتب الدراسية التى تتناول التاريخ الوسيط على اعتبار الفترة السابقة ، الأكثر طولاً ، بمثابة فترة تمهيدية للسنوات المائتين والخمسين التى كونت العصور الوسطى العالية . وتميل المعالجة التاريخية (الهستوجرافية) لحضارة العصور الوسطى إلى اعتبار فترة العصور الوسطى العالية فترة النضج والإبداع فى ثقافة العصور الوسطى ، على حين تعتبر الفترة السابقة مجرد فترة واعدة ولكنها غير ناضجة. أما الفترة التى تلت سنة ١٣٠٠ فهى مرحلة اضمحلال وذبول وتحلل . والحقيقة أن العصور الوسطى العالية High Middle Ages تعتبر هى العصور الوسطى « الحقيقية » : إذ أنها هى الفترة التى تكشف عن تلك الخصائص والأخلاقيات والمثل التى تنطبق بحق على مصطلح ومفهوم كلمة « وسيط » .

والأصل فى أن الفترة مابين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٢٥ قد استرعت انتباه العلماء والأدباء هو أن الشواهد الباقية من حضارتها ماتزال واقعًا ملموسًا فى غرب أوربا ، مثل الكاتدرائيات التى ماتزال ، حتى اليوم ، تمثل ثقافة العصور الوسطى . لقد بدأ الكُتَّاب الرومانسيون فى مطلع القرن التاسع عشر هذه النزعة لتبجيل ماخلفته العصور الوسطى من آثار ، متخذين بذلك موقفًا مناقضًا تمامًا لموقف الإنسانيين الإيطاليين وكُتَّاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر الذين كانوا يرون فى فن البناء « القوطى » فنًا يعج بمظاهر الهمجية والبربرية التى تستفز فيهم مشاعر الاحتقار . واكتشف الأدباء الرومانسيون وأسلافهم الثقافيون ، الذين أدانوا مظاهر الثورة الصناعية والحضارة الميكانيكية فيما بعد ، فيما خلفته العصور الوسطى من آثار فنية ، عالما مثاليًا يحفل بالجمال والإخلاص والصوفية . فبالمقارنة إلى مغزل القطن ، أو أية منشأة جديدة ، تبدو بنايات الكاتدرئيات فى نوتردام ، وشارتر ، وسالزبورى ،

وكولونى ، وغيرها من البنايات الكنسية الباقية من القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، انعكاسًا حقيقيًا لحضارة أكثر وداعة ، ومثالية ، وإنسانية .

لقد جاء اكتشاف ما فى أدب العصور الوسطى وموسيقاها من جاذبية فى أعقاب اكتشاف قيمة الآثار المعمارية الكبرى المتخلفة عن العصر القوطى . كم كانت المشاعر العامة نبيلة ومخلصة فى ذلك العصر الذى أفرز أبطال المؤلفات الأدبية من طراز ملحمة الملك آرثر ، وكم كانت جياشة ومنظمة روح التدين فى تلك الحضارة التى تمثلت أروع إنجازاتها الموسيقية فى التراتيم الجريجورية ! كان هناك كثيرون من ذوى العقول الحساسة فى القرن التاسع عشر ، وعرف القرن العشرون منهم عدداً أقل ، وقد تمرد هؤلاء وأولئك على المجتمع الصناعى وأداروا له ظهورهم ناجين بأنفسهم من الطمع والفساد الذى استشرى فى الدول الحديثة ليجدوا لأنفسهم الملجأ والعزاء فى الماضى ؛ أى فى العصور الوسطى . مثل هذه المواقف تتجسد فى كتاب هنرى آدمز Henry Adams الذى يحمل عنوان Mont St. Michel and Charters وهو كتاب يشي بأن ثقافة فرنسا فى القرن الثانى عشر كانت محكومة بالشخصية الرمزية للعذراء . كما أن كتاب تيلور H.O.Taylor عن العقل فى العصور الوسطى Medieval mind تعبير باكر عن موقف مشابه تجاه العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى مايزالون يوصون بهذا الكتاب حتى الآن ، فإنه لايقدم سوى القليل من المعلومات عن التاريخ الثقافى للعصور الوسطى .

وهناك فئات أخرى اجتذبتها حضارة العصور الوسطى العالية بقوة . فقد كان علماء الكنيسة الكاثوليكية عمومًا أشد اهتمامًا بالقرنين الثانى عشر والثالث عشر منهم بالعصور الوسطى الباكرة ، ولا غرو فإنهم رأوا فيها ازدهاراً للمسيحية الوسيطة فضلاً عن تحقيق الزعامة الكنسية فى المجتمع الغربى . ذلك أن الدور الهام الذى لعبته الفلسفة التوماسية والقانون الكنسى فى الحياة الثقافية والإدارية فى الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ، جعل من الضرورى أن يقوم العلماء الكاثوليك بدراسة مكثفة حول أصول هذه النظم الفلسفية والقانونية، وكيفية نموها فى الفترة مابين ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠ . لقد تأسس فهمنا للحياة الثقافية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بدرجة كبيرة ، على بحوث العلماء الكنسيين الذين عكفوا على البحث والدراسة بحمية وإخلاص قلما يوجد له نظير بين المؤرخين العلمانيين المتخصصين فى العصور الوسطى . وهناك من الكتاب الكاثوليك من تخطى حدود الدراسة

العلمية بحيث أعلنوا أن القرن الثالث عشر هو « أعظم القرون » . وأن هذا القرن أسعد فترات التاريخ لما اتسم به من الوحدة ، والتوافق ، والتقدم والرضا .

كذلك وجد المؤرخون الوطنيون في العصور الوسطى العالية حقلاً خصبًا للدراسة . إذ أن المؤرخين الألمان ركزوا اهتمامهم بالفترة الواقعة مابين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠ بسبب الإنجازات المجيدة التي حققتها الإمبراطورية الألمانية في العصور الوسطى ، وأيضًا بسبب العناصر التي حسمت مجرى التاريخ الألماني في الفترة التالية . أمّا بالنسبة لمؤرخي فرنسا ، فكانت العصور الوسطى العالية مرحلة هامة لغاية ، لأن هذه هي القرون التي شهدت تكوين فرنسا . ففي سنة ١٠٥٠ لم تكن فرنسا أكثر من مجرد تعبير جغرافي ، ومن غمار الفوضى التي سادت إبان السنوات المائتين وخمسين التالية خرجت فرنسا الدولة ، وبرزت اللغة والثقافة الفرنسية . فكيف حدث هذا التحول بين الإمارات الإقطاعية غرب الراين ؟ إن المؤرخين الفرنسيين مايزالون عاكفين على البحث عن إجابة لهذا السؤال . أما مؤرخو إنجلترا ، فإنهم يعطون للقرنين الثاني عشر والثالث عشر أهمية توازي أهميتهما بالنسبة لمؤرخي فرنسا . فقد افترض هؤلاء أن السنوات المائتين والخمسين التي أعقبت معركة هاستنجز Hastings في سنة ١٠٦٦[1] تمثل الفترة التشكيلية للتقاليد السياسية الإنجليزية المتمايزة في مجال القانون العام والبرلمان ، وهو الأمر الذي أكده المؤرخون في القرن التاسع عشر ، ولأن المؤرخين الإنجليز تأثروا بالاتجاه المستمد من الداروينية الاجتماعية Social Darwinism[2] وهو الاتجاه الذي يرجع

---

١ - تنسب هذه المعركة الهامة في تاريخ إنجلترا إلى مدينة هاستنجز في جنوب شرق إنجلترا على ساحل القنال الإنجليزي . وفي هذه المعركة استطاع النورمان بقيادة وليم الفاتح أن يهزموا الأنجلو - سكسون وأن يقتلوا ملكهم هارولد الثاني ملك وسكس Harold II of Wessex وترتب على هذه المعركة نجاح الغزو النورماني لانجلترا وما أعقبه من نتائج - انظر مايلي عن تأثيرات الغزو النورماني . (المترجم) .

٢ - رائد هذا الاتجاه في التفسير الاجتماعي هو هربرت سبنسر H . Spencer (١٨٣٠ - ١٩٠٣) ، الذي يعتبر ثاني الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع . ويعد المبدأ التطوري هو الأساس الحقيقي لمذهب سبنسر . وقد نشر أول مقالاته في هذا الصدد في مجلة The Non Conformist سنة ١٨٤٢ عبر فيها عن وجهة النظر التي تذهب إلى أن تكييف الإنسان لوظائفه الاجتماعية يتطور بشكل أسرع حينما لايحدث تدخل مصطنع في حياته . وحين نشر تشالز داروين في سنة ١٨٥٩ م كتابه عن أصل الأنواع ، استوعب سبنسر المفاهيم الجديدة التي نشرها داروين لقربها من أنكاره بل إنه أشار إلى أنه سبق داروين في التوصل إليها .

عن هذا العالم الاجتماعي وآرائه انظر : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها (ترجمة الدكتور محمد الجوهري وآخرين ، دار المعارف ١٩٧٤) ، ص ٦٣ - ٧٨ . (المترجم) .

كل شئ إلى أصوله الأولى ، فإنهم أحسوا منذ القرن التاسع عشر ، وحتى الآن ، بأن عليهم أن يقوموا بتحليل دقيق للغاية لما مرت به بلادهم من تطورات سياسية وقانونية خلال العصور الوسطى العالية .

أما المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى ، فقد مالوا إلى دراسة القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأغفلوا العصور الوسطى الباكرة ، التى كانت دراستها فى الجامعات الأمريكية وقفًا على المهاجرين الألمان فى غالب الأحوال . وبالإضافة إلى النزعة الهروبية الرومانسية التى يمثلها كل من هنرى آدامز ، وتيلور ، ظهر حافز جديد فى عشرينيات القرن العشرين دفع بالعلماء الأمريكيين إلى تركيز الدراسة فى فترة القرنين الثانى عشر والثالث عشر . أما الواقعيون أصحاب الرؤوس الصلبة من أمثال تشارلز هاسكينز وتلاميذه ، والكثيرون ممن ساروا على دربه ، فقد خلبت مؤسسات العصور الوسطى ونموها ألبابهم . لقد تميزت العصور الوسطى الباكرة بالمجتمع الزراعى والتفكك السياسى . وما أن تطلع شمس سنة ١٣٠٠ حتى يستطيع المؤرخون أن يجدوا البرهان الساطع على ظهور دولة بيروقراطية ذات طابع حديث ، فضلاً عن أشكال الرأسمالية التى تعدت طور النشأة . وبذلك وجد المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى فى الفترة مابين سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١٣٠٠ بدايات العالم الحديث ، وعكفوا على كشف المسارات الأولى للحكومة البيروقراطية والمجتمع الرأسمالى عن طريق تحليل المؤسسات والنظم الحكومية ، والقانونية ، والإدارية ، والمالية . وأبطال العصور الوسطى الذين احتلوا صفحات كتبهم ، لم يعودوا هم القديسيين ، وشعراء التروبادور ، والفنانين الرومانسيين ، بل هم كبار الإداريين ، والمشرِّعين ، وجباة الضرائب ، وقد يُقال إن المدرسة الأمريكية ، فى تناولها للعصور الوسطى ، إنما تعكس التجربة والحاجات الاجتماعية ، مثل أية مدرسة أخرى فى مجال دراسة التاريخ فى أوربا . ذلك أن هذه المدرسة جاءت انعكاسًا لاهتمامات الفرد الأمريكى المتوسط التعليم بكافة أشكال النشاط السياسى ، وربما تكون دراسة أوربا فى العصور الوسطى العالية قد اجتذبتهم لأن هذه الفترة شهدت نفس التطور السريع من الفوضى السياسية إلى الحكومة المركزية الذى يميز الولايات المتحدة . فلا غرو أن نجد « هاسكنز » ، وواحداً من ألمع تلاميذه هو سترايَر J . R . Strayer قد كرسا بعض مؤلفاتهما الأولى فى التاريخ الأمريكى لدراسة الفترة الاستعمارية .

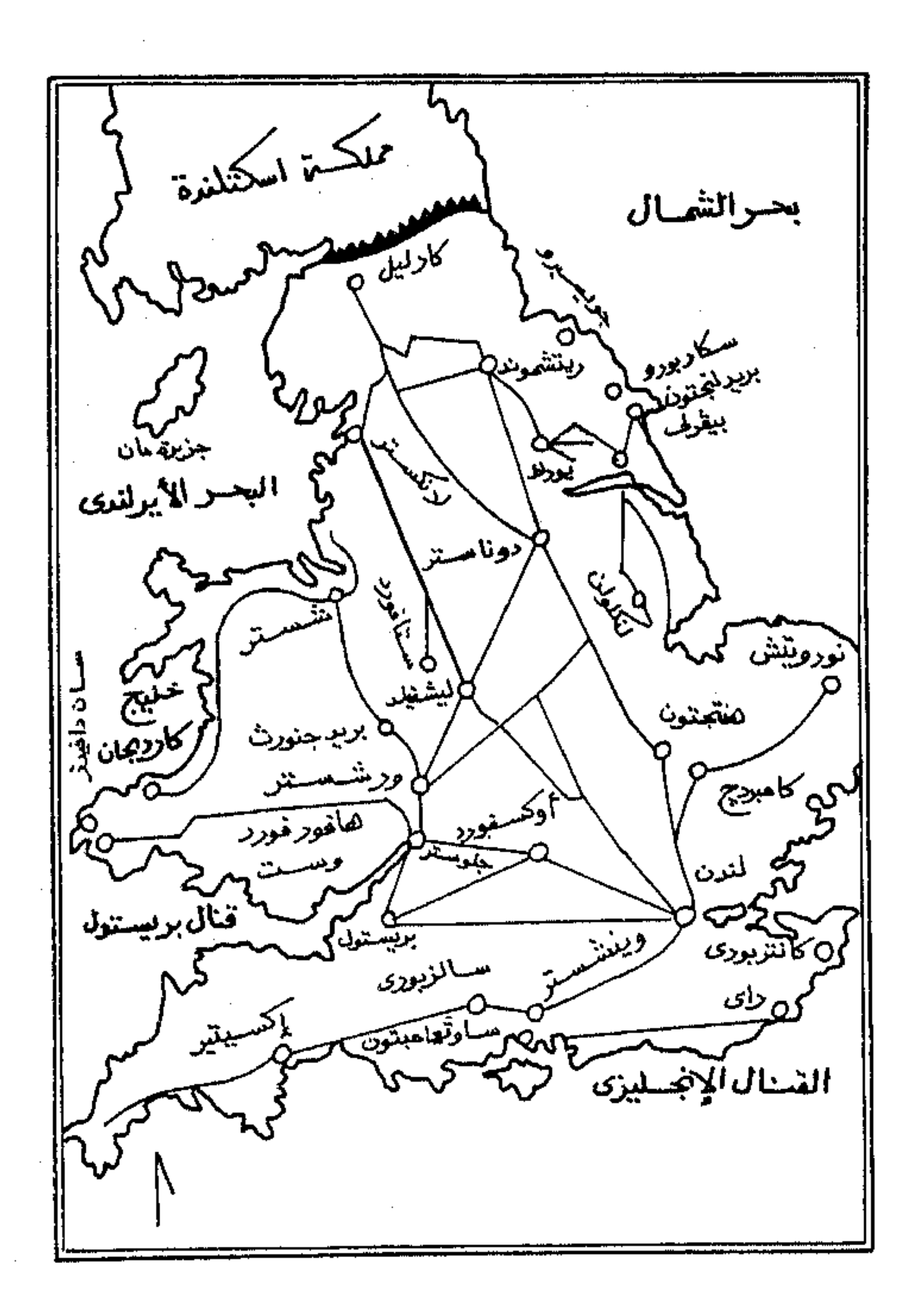
والقيم التى اكتشفتها هذه المجموعات المختلفة من المؤرخين فى العصور الوسطى العالية قيم لايمكن إنكارها ؛ على الرغم من أنه يجب تقييم كل منهم تقييمًا كليًا . فلا يمكن لأحد أن

ينكر الجمال ، والتدين ، والنظام ، والإبداع ، والإنجازات السياسية التى تمت فى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ ولكن السؤال هو : إلى أى مدى استمرت هذه الصفات فى الوجود ، ومامدى أهميتها فى البنيان الكلى لحضارة العصور الوسطى ؟ فضلاً عن أنه ينبغى وضع الصفات المحببة والإنجازات التى تمت إبان العصور الوسطى العالية فى مواجهة جوانب القصور والإخفاق . ولايجب أن يغيب عن البال أن حضارة العصور الوسطى قد تحللت وانهارت فى النهاية . إذ أن الكنيسة لم تتمكن من الاحتفاظ بزعامتها ، بل إن الدول الوطنية تعثرت ، ولو مؤقتًا ، وإلى جانب الجمال والنظام وجدت الفوضى والعنف . وإذا ما قرأنا ما كتبه الناس فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر لتأكدنا أن أكثرهم تدينًا لم يكونوا قديسين ؛ وإنما كانوا بشراً حقيقين غالبًا ما أضنتهم هموم المشكلات المحيرة ، فخلف واجهة كنيسة نوتردام ، أو شارتر ، لايوجد قدر من السلام والرضى أكثر من ذلك الذى يكمن خلف قصر فرساى ، أو قصر الأمم فى جنيف ، أو مبنى الأمم المتحدة - بل إنه يمكن أن يكون أقل . إن العصور الوسطى العالية تقدم صورة معقدة للمجتمع ، وهى صورة حقيقية ذات تفاصيل كاملة ، وليست مجرد صورة سطحية للإنجازات البارزة . لقد تم تقييم مغزى هذا الإبداع وأهميته بالنسبة لمجتمع العصور الوسطى ، كما جسدت دلالته على المدى الطويل ، بيد أن هذا تم فى الغالب بفضل أولئك الذين لم تلهمهم فلسفة العصور الوسطى وفنونها . ومن الصعب ، بطبيعة الحال ، أن نعمم مثل هذه الأحكام على حضارة العصور الوسطى العالية، التى فُسِّرت فى أغلب الأحوال على ضوء بعض القيم ذات المقاييس الأحادية . بيد أن على المؤرخ أن يتساءل عن السبب فى أن حضارة ما استطاعت أن تحقق هذا القدر الكبير من الإنجازات ، ثم عجزت عن حل بعض المشكلات الجوهرية التى كانت واضحة منذ البداية ، وأن يتساءل أيضًا عن السبب فى تفكك هذه الحضارة وتحللها بمثل هذه السرعة .

وبينما تكشف الفترة بين منتصف القرن الحادى عشر ومطلع القرن الرابع عشر عن بعض الخصائص التى تجعل منها فترة واحدة متمايزة فى التاريخ الأوربى ، يكشف الفحص الدقيق عن أن هذه السنوات المائتين والخمسين تنقسم إلى أقسام أربعة . أول هذه الأقسام هو عصر الإصلاح الجريجورى منذ حوالى سنة ١٠٥٠ حتى حوالى سنة ١٣٠٠ . وكان ذلك العصر شبيهًا بعصر الثورات العالمية فى التاريخ الحديث (ثورة البروتستانت ، الثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية) من عدة وجوه ، كما أنه تميز بالكثير من الجدال والمناقشات التى دارت حول طبيعة المجتمع المسيحى . أما القسم الثانى من العصور الوسطى العالية فإنه يتميز بازدهار التعليم ، والتدين ، والسلطة من سنة ١١٣٠ حتى سنة ١٢٠٠ . وعلى الرغم من أن

هذا التقدم كانت قد بدأت إرهاصاته قبل سنة ١١٣٠ ، فإن أهميته احتجبت خلف المنازعات التى أثارها الإصلاح الجريجورى ، ولم يحدث قبل نهاية السنوات السبعين ، التى ميزها السكون النسبى عقب نهاية الثورة الجريجورية ، أن تجلت واضحة تلك القوى الهائلة التى تمثلت فى الروح الإبداعية والإنجازات التى تمت فى القرن الثانى عشر .

لقد تأثرت كل جوانب الحياة بهذا النمو الإبداعى فى مجالات : الدين ، والأدب ، والفلسفة والاقتصاد ونظم الحكم . بيد أن هذه القوى الإبداعية جلبت معها مشكلات خطيرة للغاية ، وبينما كانت شمس القرن الثانى عشر تميل نحو الغروب كان على الحضارة الأوربية أن تواجه المشكلة الأساسية حول إمكانية التوفيق بين نتائج التعليم ، والتدين ، والسلطة ، أو احتمال أن تقضى التقلصات المتصارعة فى هذه المجالات علي وحدة الحضارة الوسيطة وتدمرها . ويتسم القسم الثالث من العصور الوسطى العالية ، منذ حوالى سنة ١٢٠٠ إلى حوالى سنة ١٢٧٠ بالجهود الجهيدة ، بل واليائسة ، التى بُذلت لحل هذه المشكلة الأساسية ، وإقامة توازن جديد في مجتمع العصور الوسطى . لقد كانت هذه الفترة محكومة بالبرامج والأهداف التى حددها البابا إنوسنت الثالث ، ومن الممكن أن نسمى الاستقرار النسبى والهدوء الذى تميز به القرن الثالث عشر « سلام إنوسنت الثالث » دون أن نكون قد تجاوزنا حدود العدل . هذه الفترة تتميز أيضًا ببعض من أعظم الإنجازات فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى ، واللاهوت ؛ وهى الإنجازات التى نربطها باسم كل من سان فرنسيس الأسيسى St. Francis of Assisi وسان توماس أكويناس Thomas Aquinas . أما القسم الأخير من العصور الوسطى العالية فيمتد على طول نصف القرن الذى أعقب وفاة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٧٠ . فقد حدث انهيار فى الزعامة ، بدأ بطيئا فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن صار سريعًا للغاية ، وفشل الوفاق ليبدأ عهد جديد من العنف . ولكن هذا العنف لم يعد هو نفس الشراسة الفردية التى عرفتها العصور الوسطى الباكرة ، وإنما كان عنفًا أكثر عقلانية وتنظيما تقوم به دولة ضد دولة ، أو تقوم به الدولة ضد الكنيسة . ومن ثم فإنه يتعين على من يؤرخ للعصور الوسطى العالية أن يفسر أصول الثورة الجريجورية العالمية ويؤكد على نتائجها ، كما ينبغى عليه أن يوضح ماتحمله إبداعات وإنجازات القرن الثانى عشر من دلائل ومضامين ، فضلا عن تجسيد النظام الجديد الذى شاده إنوسنت الثالث ، وتفسير الإنهيار السريع الذى حاق بهذا النظام فى أخريات القرن الثالث عشر .



الطرق الرئيسية فى إنجلترا العصور الوسطى

(وفقًا لمعلومات وردت فى خريطة ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى)

٢ - أوربا سنة ١٠٥٠ :

كيف كانت أوربا تبدو سنة ١٠٥٠ ؟ ماهى الملامح والقسمات اللافتة للنظر فى ذلك العصر؟ وما الذى كان يسترعى انتباه الرحالة الذى كان يجوب أنحاء أوربا فى تلك السنة ؟ من الممكن أن يتاح لنا قدر من الرؤية الداخلية فى إجابات هذه الأسئلة من خلال مصاحبتنا لراهب أنجلو - سكسونى قام برحلة من ديره فى يوركشاير البعيدة المقفرة إلى المدينة (روما) سنة ١٠٥٠ .

ذات يوم ، وبينما كان صاحبنا الراهب عاكفًا على العمل فى حجرة النسخ بالدير ، ينسخ المخطوطات ، استدعاه رئيس الدير ليخبره أنه قد أختير للقيام برحلة إلى روما لغرضين :

أولهما : أن يبلغ احترام رئيس الدير وتبجيله إلى البابا ليو التاسع الذى كان يقوم بتغييرات شاملة فى الإدارة البابوية ، ليعيد للبابوية هيبتها التى كانت قد تدهورت كثيراً طوال قرنين من الزمان .

وثانيهما : أن رئيس الدير أراد من الراهب الشاب أن يحصل على الطلاق لابن عمه الذى كان من النبلاء ، وكان لابد من الترخيص البابوى بهذا الطلاق . وفى ذلك الوقت كان يمكن الحصول على الطلاق على أساس وجود قرابة من الدرجة السابعة بين الزوجين (فى القرن الثالث عشر اقتصر على قرابة الدرجة الرابعة) ، ولأن كثيرين من نبلاء أوربا كانوا يتزوجون قريبات لهم داخل نظطق درجة القرابة هذه ، فإن الحصول على الطلاق لم يكن صعبا بشرط موافقة البابا .

وانطلق صاحبنا الراهب الشاب على الطريق الرومانى القديم المتجه جنوبا عبر حدود مقاطعة يوركشاير الموحشة ، حيث كانت معظم المستوطنات الدينية التى ازدهرت فى القرن الثامن قد باتت خرابًا بسبب غزوات الفيكنج . وحين وصل إلى المناطق البعيدة فى جنوب انجلترا ، راعه حجم حركة البناء والتشييد التى كانت تجرى فى تلك الأنحاء . والواقع ، أنه فى شتى أرجاء أوربا سنة ١٠٥٠ ، كانت الأصوات التى تطرق أذن المرء هى الأصوات الناتجة عن بلطة تقطع أخشاب الأشجار ، أو منشار يعمل فى البنايات الجديدة . وفى أماكن قليلة ، ولاسيما فى المدن الكاتدرائية الكبرى فى القارة ، كانت الأبنية الحجرية قد بدأت تحل محل الأبنية الخشبية المعتادة ، على الرغم من أن الصناع الأوربيين كانوا مايزالون يفتقرون إلى الكثير من الخبرة فى البناء بالأحجار ، وفى سنة ١٠٥٠ كانت الغابات تغطى مناطق كثيرة من أوربا ، كما كانت

الغابات أكثر بكثير من الغابات الموجودة اليوم ، على حين كان النمو السكانى يفرض ضغطا متزايداً على طلب الغذاء . وكان لابد من إزالة الغابات وتعمير الأراضى الجديدة . وعلى أية حال ، فإن الأخشاب التى كانت تتوفر عن إزالة الغابات كانت مطلوبة جداً لبناء المساكن ، والقلاع ، والكنائس فى المناطق الريفية والحضرية على السواء .

وبعد رحلة دامت عدة أيام وصل راهب يوركشاير الشاب إلى كانتربورى ، التى كانت أول كنيسة لاتينية فى انجلترا ، والتى كان أسقفها بالتالى هو رأس الكنيسة الإنجليزية . وحين وصل صاحبنا الراهب إلى كاتدرائية كنيسة المسيح ، أى كانتر بورى ، لم يدهش كثيراً حين وجد جمعًا كبيراً من الناس هناك ، بينهم الملك إدوارد المعترف Edward the Confessor . كان إداورد ، كما يستدل من اسمه ، رجلاً تقيا وقديسا إلى أبعد الحدود ، على الرغم من أنه كان ، مثل كل القديسيين الجالسين على العروش ، ضعيفا عاجزاً . ووجد راهب يوركشاير الملك إداورد مشغولا بأحب الأعمال إلى قلبه ؛ أى وضع ذخائر مقدسة جديدة فى كنيسة المسيح. وقد لاحظ الراهب نظرات الاحتقار والازدراء فى عيون النبلاء الإنجليز وهم ينظرون إلى مليكهم العاجز عن القيام بوظيفة الملك كما يراها الجرمان ، أى أن يكون قائداً حربيا . وحين واصل رحلته جنوبا لاحظ أيضا الفوضى المستشرية والحروب المستعرة بين النبلاء الإنجليز، مما كان دليلا على أن المملكة كانت على شفا حفرة من التدهور والانحلال .

وعبر راهب يوركشارير القنال الإنجليزى لينزل على ساحل نورماندى . وهناك وجد عالما يختلف عن انجلترا ، خاصة من حيث التنظيم الحكومى والحيوية الثقافية . ذلك أن حاكم نورماندى لم يكن قديسا بأى حال ، فهو الدوق وليم ابن الزنا Wiliam the Bastard ، على الرغم من أنه أثبت أنه صديق عظيم للكنيسة ، كما كانت علاقته بالبلاط البابوى وطيدة للغاية . وكان على النقيض من إداورد المعترف ، إذ كان يسيطر تمامًا على النبلاء فى دوقيته، واستغل المؤسسات الاقطاعية لتدعيم سلطته ولتوحيد أراضيه . وفى نورماندى تأثر راهب يوركشاير كثيراً بالبناء الذى يجرى على قدم وساق ، ولاسيما بناء الكاتدرائيات والأديرة الكبرى . ولقد لفت انتباه الراهب أن كثيرين من زعماء الكنيسة فى نورماندى كانوا من أصول إيطالية أو من مناطق الراين ؛ وفى أى من الحالين فإنهم وفدوا من مناطق خاضعة للإمبراطورية الألمانية ، إسميا على الأقل . وقد جندهم الدوق ، كما فعل أسلافه من قبله لتحسين وتطوير الخصال الثقافية لرجال الكنيسة النورمانديين ولكى يساعدوه فى الأعمال

الإدارية والقانونية . كان الراهب معتاداً على الكنائس الخشبية في انجلترا لدرجة أنه لم يكن هناك أي مبنى حجري في وطنه ، وإذا وجدت مباني حجرية فإنها حقيرة صغيرة . وقد أدهشته كثيراً المحاولات التي كانت تجري لإقامة المنشآت الكنسية العالية ، والاهتمام الجديد بالخط الرأسي في البناء . ولاشك في أن هذا كان أمراً جديداً في عمارة الكنائس في شمال أوربا ، ولم يكن له مثيل في انجلترا ، على الرغم من أن أنماطا معمارية مشابهة كانت قائمة في شمال إيطاليا حيث وفد كثيرون من زعماء الكنيسة النورماندية .

وفي نورماندي تقابل الراهب الإنجليزي مع قس كان عائداً من جنوب إيطاليا ، حيث كان قد ذهب موفداً من قبل بارون نورماني . وكان هذا الأخير قد انضم إلى حملة للنهب قبل عدة سنوات ، وكان آنذاك مشغولا بغزو هذه البلاد الثرية . وسمع الراهب الأنجلو - سكسوني من القس النورماني عن عالم غريب ، أي مناطق البحر المتوسط النائية الغريبة ، التي يسكنها المسلمون ، الذين كان الغرب يخشاهم ويكرههم ، والبيزنطيون الخطاة . وكان هذا العالم ينعم بحياة حضرية مريحة تفوق أحلام الشماليين وجشعهم . ففي سنة ١٠٥٠ كانت السيادة الإسلامية والبيزنطية على هذه البلاد الأسطورية تواجه التحدي من جانب الفرنجة الهمجيين للمرة الأولى ، وكان معروفا كذلك أن أمراء أسبانيا المسيحيين كانوا قد بدأوا في دفع أعدائهم المسلمين حتى في أسبانيا ، حيث كان حكم الصليب محصوراً في إمارات جبلية ضئيلة لفترة طويلة ، على حين تمتع المسلمون بثروات ومباهج قرطبة وغيرها من المدن الذهبية في أيبيريا[1].

ومن نورماندي عبر الراهب الإنجليزي إلى أراضي الفلاندرز ، حيث كانت هناك عدة أديرة كبيرة قام بزيارتها وفي أثناء وجوده في الفلاندرز أدرك لأول مرة وجود نوع من الناس لم يعرفهم من قبل ، قوم يعيشون في مدن مسورة ويطلق عليهم اسم « البورجوازيون Bour-geois . ولم يكن هؤلاء من الاكليروس ، أو الأقنان العاملين في خدمة السادة الإقطاعيين ؛ وفي مدن مثل غنت Ghent ويبرس Ypres كانوا يؤلفون طائفة جديدة في مجتمع العصور

---

١ - استخدم المؤلف عبارات قاسية في وصف المسلمين للدلالة على هذا المعنى نفسه . وهنا ينبغي أن نشير إلى أن المسلمين في الأندلس كانوا يتمتعون بثمار حضارة هم الذين أرسوا دعائمها ولم يرثوها عن الفيزيقوط (القوط الغربيين) الذين كانوا على حال من الجهل والتخلف لم تمكنهم من الصمود أو حتى المساهمة في حضارة شبه الجزيرة على الرغم من مساندة الكنيسة الكاثوليكية لهم . وفي هذا المقام اكتفى بماذكره كانتور نفسه عن القوط الغربيين في الفصل الرابع من كتابه . (المترجم)

الوسطى ، كان الراهب الإنجليزى يعرف ثلاث طبقات اجتماعية لاغير - أولئك الذين يحاربون، والذين يُصلون ، والذين يعملون - ولكن هؤلاء البورجوازيين كانوا يتكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات الصوفية والاتجار فيها . وكان يأخذون بعض هذه المنسوجات إلى معارض فى شمبانى Champagne حيث تباع وتصدر إلى إيطاليا وغيرها من البلاد البعيدة . وقد خرج العديد من البورجوازيين من خلفية اجتماعية غامضة ومجهولة ؛ إذ أن بعضهم جاءوا من الشرائح الدنيا من طبقة الفرسان ، وقيل إن البعض كانوا أقنانا فى الأصل . ولم يكن البورجوازيون قوما يتميزون بالبشر والسرور ؛ ذلك أنهم كانوا يفتقرون إلى الأمن ، وقد لفهم الخوف بردائه البغيض . إلا أنهم فى الوقت نفسه كانوا على قدر كبير من المهارة وقوة الشكيمة . فقد كانت بنيتهم النفسية والثقافية أكثر عقلانية من بنية طبقة النبلاء والفرسان ، بل إنها كانت أشد تعقيداً من بنية كثيرين من رجال الكنيسة . كانوا يبدون جشعين غير أمناء، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا أتقياء ومتدينين كأفراد وجماعة بدرجة حيرت الراهب البسيط القادم من يوركشاير . ولم تكن لهؤلاء البورجوازيين ، الذين يقفون خارج نطاق البناء الاجتماعى التقليدى ، أية سلطة سياسية ، كما أن وضعيتهم فى ساحات القضاء لم تكن قد تحددت بعد على شكل دقيق . أما الشئ الوحيد الذى كان بحوزتهم . فهو ذلك القدر الكبير من المال الذى وظفوه فى بناء أسوار قوية حول مدنهم ، وفى إقامة الكنائس البلدية ، وبناء المساكن المريحة إلى حد ما فى الشوارع الضيقة المزدحمة القذرة فى مدنهم ، كما أنهم استخدموا هذا المال أيضا لشراء امتيازات الحكم الذاتى من كونت الفلاندرز .

أيقن الراهب الإنجليزى أن الطريق مايزال طويلا أمامه حتى ينهى رحلته بالوصول إلى روما، وأنه قد آن الأوان لكى يترك الأديرة المريحة ، ومدن أقليم الفلاندرز العجيبة . وحتى إذا كان باستطاعته أن يتبع الطريق المباشر إلى روما من خلال وسط فرنسا - وهو الأمر الذى لم يكن ليقدر أن يفعله لأن مناطق الوسط لم تكن خاضعة لسيادة أحد ، كما كانت تغص بالبارونات اللصوص - فإن الرحلة كانت ستستغرق شهرين . فاتجه من الفلاندرز إلى باريس بقصد أن يأخذ طريق الراين جنوبا مروراً بالمركز الكنسى فى ليون .

وكان ما أثر فيه آنذاك وهو يتابع رحلته هو ذلك العدد الكبير من السادة الإقطاعيين ، والتجار ، والكنسيين الذين قابلهم على الطريق . كان ثمانون بالمائة من الناس فى أوربا مايزالون لايتحركون بعيداً عن مسقط رأسهم طوال حياتهم لمسافة تزيد عن عشرين ميلا ،

ولكن الطبقات العليا في أوروبا كانت قد بدأت تتحرك . وكانت الرحلة والسفر أمراً محفوفًا بالمخاطر ؛ إذ كانت الطرق سيئة بدرجة لاتصدق ، كما كان اللصوص وقطاع الطرق ينتشرون في كل البقاع . ولكن في رحاب هذه الحضارة التي كان إيقاع الحياة فيها يتصاعد ، تحتم على الرجال ، وعلى النساء أحيانًا أن يسافروا إلى مسافات بعيدة . وقد سهل استخدام اللجام والحدوة للخيول ، والذي عرفته أوروبا قبل مائتي سنة ، من عملية السفر إلى حد كبير .

كانت باريس مدينة غريبة إلى حد ما ، إذ كانت تعكس الظروف الخاصة التي كانت الملكية الفرنسية تجتازها . فعلى مسافة عشرة أميال فقط من المدينة كان الريف محكومًا بالقلاع التي يسكنها البارونات اللصوص ، ويقال إن ملوك آل كابيه كانوا يخشون الخروج من أسوار مدينتهم . أما أكثر شئ مس شغاف قلب راهب يوركشاير فهو دير سان دوني St. Denis الملكي الكبير ، والذي كان أكثر ارتباطا بمصائر ملوك آل كابيه من ارتباط نظيره دير ويستمنستر Westminister القائم عبر القنال الإنجليزي بمصائر الملوك الإنجلو - سكسون . ففي دير سان دوني كانت تحفظ التيجان والشعارات الملكية ورموز التاج الفرنسي . وهو مايعني أن الملكية الكابية كانت ذات خصال مقدسة . ولكن الاحتفال الفخم الذي كان يتم فيه المسح المقدس والتتويج لم يكن ذا تأثير على الأمراء الاقطاعيين في فرنسا ، على الرغم من أنه كان تأكيداً على التزام ملوك آل كابيه تجاه الكنيسة ، لأن الأمراء كانوا مستقلين ولم يعترفوا بسيادة باريس إلا على نحو شكلي فارغ .

وقد طلب رئيس دير سان دوني من زائره الإنجليزي أن يتوقف ، وهو في الطريق إلى روما ، في دير كلوني الكبير قرب ليون . ذلك أن رئيس الدير نفسه كان في الأصل من رهبان دير كلوني ، مثل كثير من رجال الكنيسة في نورماندي . والواقع أن الراهب الإنجليزي كان قد سمع بالفعل روايات مدهشة عن كلوني ، الذي كان أكبر أديرة ذلك الزمان ، والذي قيض له أن يعبر عن وجهة نظر الكنيسة في أواسط القرن الحادي عشر . ولم يخب ظن الراهب الإنجليزي ؛ إذ كان دير كلوني مطابقا لما كان مفروضا أن يكون عليه . وقد تأثر ، مثل غيره من الزائرين ، بعظمة البناء ، وتعقد مراسم الخدمة الكنسية فيه ، فضلا عن النظام والإخلاص اللذين اتسم بهما الرهبان الكلونيون . والحق أن أولئك الرهبان كانوا يعيشون حياة أكثر راحة ويأكلون أفضل بكثير مما كان الرهبان البندكتيون السذج في يوركشاير ينعمون به . فلم يكن الرهبان الكلونيون يقومون بأية أعمال بدنية ، كما أنهم لم يكرسوا وقتا كثيراً للتعليم

والدراسة . لقد قنعوا بالعيش على ريع الضياع والأوقاف التى أغدقها عليهم حكام أوربا المعجبون بهم ، من أمثال الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث الذى كان يؤازر النظام الكلونى مؤازرة خاصة . ألم يكن الوقت قد حان بعد لأن تكون حياة الرهبان انعكاسا للزعامة الديرية فى المجتمع ؟ ألم يكن الرهبان الكلونيون هم حقا أمراء الكنيسة ؟ الواقع أن كثيرين من الرهبان الكلونيين كانوا من أصل أرستقراطى أو من أحفاد الأمراء ، أفلم يكونوا بذلك جديرين بزعامة الكنيسة ؟ لقد أجاب الكلونيون على هذه الأسئلة بالإيجاب ، بل إن الرهبان الذين كرسوا أنفسهم لحياة أكثر بساطة وخشونة تعين عليهم أن يسايروهم مدة طويلة . كان الكلونيون قانعين بالعالم كما هو ؛ فقد كان واضحا أنه عالم يتسم بالكمال ، لأنه عالم يمارس فيه المتدينون أمثالهم تأثيراً سياسيا قويا ، كما كان الحكام الألمان والإنجليز والفرنسيون يحققون ما يمليه عليهم ارتقاؤهم عرش الملكية الثيوقراطية .

كان الصوت الذى غالبا ماطرق أذنى الراهب الإنجليزى فى رحلته ، بعد صوت فئوس الفلاحين فى الغابات ، هو صوت الأجراس التى كانت تتجاوب أصداؤها من ذلك العدد المتزايد من الكنائس والأديرة . وفى كل مكان ذهب إليه الراهب الإنجليزى شاهد كنائس جديدة تبنى فوق الأرض التى تملكها الكنيسة والتى أوقفها عليها كبار النبلاء . لقد كان التدين يبسط جناحيه على المجتمع ؛ وكان من دواعى سروره أن يجد فى كل مكان رجال الكنيسة المخلصين ، والنبلاء ، والبورجوازيين ، بل والفلاحين الذين يفهمون مذاهب العقيدة وينظرون إليها بجدية بالغة - تلك المذاهب التى كان أتباع سان بندكت قد حملوها إلى حدود أوربا منذ زمن طويل .

هذه المتع السعيدة التى عاشها راهب يوركشاير انقطعت بوصوله إلى مدينة ميلانو بعد رحلة عبر ممرات جبال الألب . وكما كان الحال زمن سان أمبروز ، كانت ميلانو تدين بالسيادة لأسقفها ، بيد أن عناصر جديدة كانت قد طرأت على الحياة فى ذلك المركز الكنسى الكبير ، وهى عناصر وجدها الراهب الإنجليزى مثيرة للدهشة ومثيرة للاضطراب أيضًا . فقد كانت تعيش هناك طائفة كبيرة من البورجوازيين المعادين لحقوق الأسقف السياسية التقليدية ، وإلى جانبها طبقة من البروليتاريا الصناعية التى تغص بالمرارة ضد جميع السلطات التنظيمية بحيث تحولت إلى طبقة ثورية من العامة بفعل المذاهب الألفية والمتعلقة بسفر الرؤيا . وهنا وجد الراهب الإنجليزي نفس التدين الفردى الحضرى المكثف الذى وجده من قبل بين سكان المدن

الفلمنكية . ولكن هذا التدين فى ميلانو تضخم إلى الحد الذى جعل منه مشكلة كبيرة تعين على الكنيسة مواجهتها . وكان البورجوازيون المتعلمون ينظرون بازدراء إلى كثيرين من رجال الكنيسة ، الذين كانوا فاسدين وغيز أهل للثقة فعلاً ، لقد كان الجو الدينى فى المدينة هو جو الشوق الروحى الذى وصل إلى حافة التمرد والهرطقة ، ولم يكن من السهل تحويله أو إرضاؤه.

كان الراهب الإنجليزى مسروراً لأنه ليس مضطراً لرعاية البورجوازيين والبروليتاريا فى ميلانو ؛ وقد كان من دواعى راحته أن يسمع أن بابوية ليو التاسع الإصلاحية تعجل بالاهتمام بمثل هذه المواقف المتفجرة . ولكنه حين وصل فى نهاية المطاف إلى روما وجال عبر بناياتها الخربة المهجورة ، ومر بشوارعها القذرة المنفرة ، ليصل إلى كنيسة القديس بطرس اكتشف أن ثمة أفكاراً مريبة تدور بين الناس . فقد كان ليو التاسع ألمانيًا مثل الإمبراطور هنرى الثالث ، ولكنه كان يكرس نفسه لإصلاح البابوية تحت رعاية الإمبراطورية ، ولكن الكرادلة الشبان الذين أحضرهم إلى روما كانوا يرون الأمور بمنظور مختلف فيما يبدو . إذ أنهم لم يكتفوا بالحديث عن التدهور والفساد المتفشى بين رجال الكنيسة بلهجة تقطر بالمرارة ؛ وإنما انتقدوا فى بعض الأحيان مدى صلاحية التناول الكلونى للحياة الدينية . وهناك ترددت نغمة جديدة تبعث على الانزعاج ، ويبدو أنها قد جرت فى اتجاه مضاد لكل ماحاز إعجاب الراهب الإنجليزى أثناء رحلته إلى الجنوب . فقد وجد فى كلام الكرادلة الشبان ومواقفهم من التهور والطيش مايتشابه على نحو ما مع تهور البورجوازيين فى ميلانو والمدن الفلمنكية . وكان راهب يوركشاير الشاب سعيداً بإنجاز مهمته على وجه السرعة وحصل لسيده على الطلاق . وهاجه الشوق لأن يبدأ رحلة العودة إلى وطنه عبر أوروبا التى لم يكن يعترف بحال الكمال فيها كل أولئك الذين كانت سعادتهم وغبطتهم تبدو أمراً عابراً .

الفصل الثانى عشر
الثورة الجريجورية العالمية

١ - طبيعة الإصلاح الجريجورى وأصوله :

تعتبر السنوات الثمانون التى تمتد منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر من أكبر منعطفات التاريخ الأوربى . إذ كانت تلك فترة التغيرات ذات الأهمية الحيوية فى شتى جوانب الحياة والتى تحدث فى آن واحد معا وبسرعة كبيرة لاتجعل أيا من المعاصرين يستطيع التنبؤ بنتائجها البعيدة المدى . والمؤرخ أيضا لايستطيع ، على الرغم من أنه يتأمل الأحداث بعد وقوعها بفترة ، وعلى الرغم من الجهد الشاق المضنى الذى يبذله ، أن يحل الغموض الذى يكتنف كافة العلاقات السببية التى تسببت فى بداية هذه الطفرات فى الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، والفكرية ؛ ومن ثم فإنه من هذه الناحية فقط تتشابه هذه السنوات الثمانون مع الفترات الحرجة التى مر بها العالم الحديث : فى النصف الأول من القرن العشرين . ففى هذه الفترات الفاصلة فى تاريخ الغرب انفجرت قوى التغيير التى عانت طويلا من الإحباط مثل الطوفان مخلفة وراءها حطام نظام قديم ، وأساسا لنمط جديد متغير من الحياة الاجتماعية . وفى معظم الأحيان يظهر الإنسان الغربى كمن يسير وهو نائم ، إذ أنه يتقبل بطريقة سلبية البناء الاجتماعى الذى تم على مدى القرون الماضية . فهو يتابع مثالاً معينًا يكون بمثابة الإلهام للحركة الثقافية . ومع الجديد فى حياته يتحرك الإنسان فى الغرب بعيون مفتوحة ، ولكن وعيه باتجاه حركته مايزال وعيا جزئيا .

كان العصر الذى شهد الإصلاح الجريجورى والنزاع حول التقليد العلمانى واحداً من تلك الفترات التاريخية التى تتميز بحركة تغير أساسية وسريعة فى الوقت نفسه . فقد كانت تلك هى فترة النمو التجارى الضخم ، وفترة نمو المجتمعات الحضرية ، وفترة التعبير الأول عن نفوذ الطبقة البورجوازية الجديدة فى الميدان السياسى . وقد شهد ذلك العصر ميلاد أول ملكية ناجحة حقًا فى العصور الوسطى فى إنجلترا الأنجلو - سكسونية على أساس من المؤسسات الاقطاعية والوسائل والهيئة الإدارية التى كونها الدوقات النورمان بنظرتهم الثاقبة ورؤيتهم المستقبلية . كان ذلك عصراً انتهت فيه عزلة حضارة غرب أوربا الجديدة عن عالم البحر المتوسط . وبدلا من هذه العزلة ، التى كانت قائمة منذ القرن الثامن ، توغلت شعوب غرب

أوربا سياسا واقتصاديا فى حوض البحر المتوسط بهدف النيل من المسلمين والبيزنطيين الذين طالت سيطرتهم على أراضى عالم البحر المتوسط وتحكموا تماما فى تجارة البحر المتوسط من الشمال . لقد كان ذلك عصرا يتسم بالحيوية الفكرية الفائقة التى شهدت أهم الإسهامات فى اللاهوت المسيحى اللاتينى منذ أوغسطين ، كما شهد ذلك العصر كيف تحولت بعض المدارس الكاتدرائية فى فرنسا وبعض مدارس البلديات فى شمال إيطاليا إلى جامعات القرون التالية . لقد كان ذلك عصراً يتسم بالحيوية الدافقة فى الفكر التشريعى ، ففيه تمت دراسة القانون الرومانى دراسة متأنية للمرة الأولى منذ عصر الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس ، كما شهد ذلك العصر خطوات واسعة فى سبيل جمع القانون الكنسى وترتيبه .

ولكن ، مثلما هو الحال فى فترات التغير الأساسى فى التاريخ الحديث ، ينبغى على المؤرخين أن يضعوا هذه الإنجازات فى المرتبة الثانية من الأهمية بعد النضال الإيديولوجى . ذلك أن حصيلة النزاع الطويل المدى حول النظام السليم الذى يجب إقامته فى العالم تتمثل فى النموذج الحضارى العالمى الذى سيبرز من طيات هذا الصراع ليسود طوال القرون التالية . كانت الفترة بين سنة ١٠٥٠ وسنة ١١٣٠ محكومة بمحاولة لثورة عالمية تركت تأثيرها الفعال للغاية على كافة جوانب التغير الاجتماعى الأخرى . ويبدو ، بالنظر إلى الماضى القريب ، أنه كان من الضرورى للانقضاض الثورى أن يهز النظام الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة من الأساس ، وذلك حتى تتاح للقوى السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية الجديدة أن تنال فرصتها فى التطور والتقدم فى مواجهة المؤسسات والأفكار القديمة .

يتميز تاريخ الغرب بأن مصيره قد تشكل بفضل أربع ثورات عالمية انهارت فى طياتها الاتجاهات القديمة وخرجت من غمارها أفكار ونظم جديدة . فالثورة العالمية ثورة واسعة النطاق، متغلغلة ، وشاملة على الصعيد العالمى ، وفيها تبرز أيديولوجية جديدة ترفض نتاج قرون عديدة من التقدم الذى ينتظمه النظام السائد وتنادى بنظام جديد فى العالم . هذه الثورات العالمية التى حدثت فى التاريخ الحديث معروفة تماما : ثورة البروتستانت فى القرن السادس عشر ، والثورة التحررية فى القرن الثامن عشر ، والثورة الشيوعية فى القرن العشرين . ويعتبر النزاع حول التقليد العلمانى ، والذى أوجده الإصلاح الجريجورى ، أولى الثورات العالمية الكبرى فى التاريخ الغربى ، كما أن مساره يتبع نفس النموذج الذى سارت عليه الثورات المعروفة فى التاريخ الحديث .

إذ أن كلا من الثورات العالمية بدأت بشكوى عادلة من الأخطاء الأخلاقية الكامنة فى النظام السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الدينى السائد . وفى النزاع حول التقليد العلمانى كانت شكوى زعماء الثورة ، الذين عرفوا باسم « المصلحين الاجتماعيين » ، منصبة على سيطرة العلمانيين على الكنيسة ،وتورطها فى الالتزامات الاقطاعية . فقد أدى هذا النظام إلى حالات حادة من سوء الاستغلال ، لاسيما فيما عرف باسم « السيمونية » (أى بيع الوظائف الدينية) . الذى تم تعريفه بشكل عام بأنه تدخل العلمانيين فى النظام الصحيح للوظائف الكنسية والمقدسة . وكان الجريجوريون على حق تماما فى إدانتهم للسيمونية باعتبارها هرطقة وخروجا على الدين .

ومن سمات جميع الثورات العالمية وخصائصها ، على أية حال ، أنه على الرغم من أن كلا منها بدأت بشكوى من الفساد المتفشى فى النظام العالمى السائد ، فإن الهدف النهائى الذى كان يحدده المنظرون والمفكرون الثوريون لم يكن هو إصلاح النظام السائد ، وإنما القضاء عليه واستبداله بنظام جديد . وفيما يتعلق بالنزاع العلمانى ، كان التحرر الكامل للكنيسة من سيطرة الدولة ، وإنكار أية صفات مقدسة للملكية ، وسيادة البابوية على الحكام العلمانيين هى أسس النظام المثالى الجديد .

وكما فى جميع الثورات العالمية ، كانت إيديولوجية الجريجوريين تستوجب معارضة قوية من جانب كل من أصحاب المصالح والمنظرين المخلصين المدافعين عن النظام القديم . وبعد عدة منازعات شرسة ، وفيض من الكتابات الدعائية ، كانت النتيجة حربا لا هوادة فيها ، كما أن استقطاب المجتمع المتعلم بين الثوريين والمحافظين قد أدى إلى وجود مجموعات كبيرة من المعتدلين المحايدين وبينهم بعض أفضل مفكرى ذلك الزمان ، ممن كان بمقدورهم إدراك جوانب الخطأ والصواب لدى كل من الجانبين .

وكما هو الحال فى كافة الثورات العالمية الأخرى ، كان نجاح المفكرين المشتبكين فى النزاع العلمانى محدداً فى مجال خلق النظام الجديد . لقد نجحوا فى تدمير النظام القديم ، ولكن العالم الجديد لم يكن هو المدينة الفاضلة التى كان الثوريون يحلمون بها . وإنما كان بناء النظام السياسي والدينى على أساس كل من العناصر القديمة والجديدة على حد سواء ، كما كانت الفرصة متاحة أمام النقائض البشرية المتمثلة فى الطمع وحب السلطة . لقد كسبت الكنيسة تحرراً واسع المدى من السيطرة العلمانية ، كما كان هناك تحسن ملحوظ فى المستوى الأخلاقى

والفكرى لرجال الدين .. ولكن الكنيسة نفسها ، منذ عصر النزاع العلمانى ، صارت أكثر اهتماما بالشئون الدنيوية ، وبذلك دخلت بابوية العصور الوسطى العالية فى منافسة مع الملوك والأباطرة على الثروة والسلطة وفازت فى هذه المنافسة . لقد صارت الكنيسة نفسها دولة تحكمها الإدارة البابوية .

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية الأخرى ، كان المفكرون أنفسهم أثناء النزاع العلمانى متحدين على أشد أهداف الثورة إلحاحا وأكثرها تحديدا . وعندما مضت الثورة فى طريقها انقسم الجريجوريون إلى جناح معتدل وجناح راديكالى متطرف ، وعلى رأس كل من الجناحين عدد من الكرادلة البارزين . فقد كان على رأس الراديكاليين هومبرت Humbert وهليدبراند ، على حين تزعم المعتدلين بطرس داميانى Peter Damiani . وكما هو الحال فى الثورات العالمية الحديثة ، ظل الراديكاليون لفترة قصيرة يسيطرون على حركة الإصلاح الجريجورى ، وهى فترة كانت كافية لتدمير النظام القديم . ولكن عندما أدرك المحافظون والمعتدلون فى النهاية أهداف الراديكاليين الحقيقية وشراستهم التى لاتعبأ بالنتائج ، فقد الراديكاليون زعامتهم وباتوا غير قادرين على تحقيق مثلهم الخيالية .

وكما هو الحال فى الثورة العالمية الحديثة ، خسر الراديكاليون زعامتهم ، ولم يتولها المعتدلون من جماعتهم والذين كانوا قد أزاحوهم جانبا من قبل ، وإنما تولاها السياسيون ، ورجال الدولة الواقعيون الذين أوقفوا مسيرة الثورة محاولين إعادة تركيب توليفة جديدة من شظايا النظام القديم وإنجازات الثورة ، أى توليفة تضمن التقدم . هذا الاتجاه واضح تماما فى البابا اربان الثانى Urban II فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر ، وقد صار هو الاتجاه السائد فى البابوية فى عشرينيات القرن الثانى عشر .

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية ، لم يصل النزاع حول التقليد العلمانى قط إلى حل نهائى وكامل . ذلك أن الأفكار الجديدة التى تولدت عند الأجيال الجديدة أفرغت المسائل القديمة من مضمونها ، وتحول أبناء الأجيال الجديدة إلى اهتمامات أخرى ومشكلات جديدة ، ومثلما لم يستطع فولتير وهيوم أن يفهما السبب الذى جعل الناس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يحاربون من أجل مبادئ لاهوتية غامضة معقدة فإن رجال الكنيسة المتعلمين فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم يفهموا السبب الذى جعل البابوات والملوك يتنازعون على التقليد العلمانى قبل عشرين أو ثلاثين سنة فقط .

وربما يمكن أن نعتبر ، بحق ، أن عصر النزاع العلمانى هو نقطة التحول فى تاريخ حضارة العصور الوسطى . لقد كان هذا العصر هو إنجاز العصور الوسطى الباكرة ، لأنه فى هذه العصور اعتنقت الشعوب الجرمانية الدين المسيحى ، ومن ناحية أخرى ، فإن نموذج النظام الدينى والسياسى الذى ساد فى العصور الوسطى العالية قد برز من خلال حوادث وأفكار النزاع حول التقليد العلمانى .

والرأى القديم ، القائل بأن الحركة الكلونية كانت هى الإلهام المباشر للإصلاح الجريجورى ، لم يكن ساذجا فحسب ، وإنما كان يناقض الحقيقة تماما . لقد ثار الجريجوريون ضد توازن العصور الوسطى ، ومن ثم كانت ثورتهم ضد كثير من الأشياء التى كان دير كلونى والأديرة التابعة له يمثلونها فى القرن الحادى عشر . فما هى إذن أصول وأسباب حركة الإصلاح الجريجورى التى كانت سببا فى نقطة التحول الحاسمة فى التاريخ الوسيط ؟ إن من يحاول تفهم أسباب الثورات العالمية الحديثة ومراحلها الأولية لن تدهشه صعوبة تحديد أسباب الثورة العالمية فى العصور الوسطى ورصد مراحلها . ذلك أن كثيراً من جوانب هذه المشكلة لم تخضع بعد للدراسة المكثفة . ولاسيما أن عدداً محدداً من قادة كنيسة القرن الحادى عشر هم الذين حظوا بدراسة جادة عن حياتهم . ولكن معلوماتنا عن تلك الفترة تقدمت بالقدر الذى يكفى للكشف عن أصول الثورة فى خطوطها العريضة على الأقل .

لقد كانت حركة الإصلاح الجريجورية هى النتاج الطبيعى ، ولكنها لم تكن أبداً النتاج الحتمى ، للتوزان الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة . إذ أنه عندما توغلت الكنيسة فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر فى شئون العالم تدخلا مطرداً ، لكى تفرض مثلها وقيمها على المجتمع العلمانى ، بدأت تواجه احتمالا خطيراً بفقدان هويتها المتمايزة وبذلك تخسر زعامتها للمجتمع الغربى . لأنه بينما كان التدين ينمو باطراد فى شتى أنحاء الغرب الأوربى ، ظلت الصفات الخاصة لرجال الكنيسة أقل من المطلوب . ولم يعد الموقف المخلص من العقيدة والأسرار الكنيسة وتبجيل القديسين وذخائرهم كافيا للتمييز بين الرجل العلمانى ورجل الكنيسة . فمع منتصف القرن الحادى عشر بات واضحا أن المتدينين العلمانيين قد وصلوا فى حالات كثيرة إلى مستوى من الإخلاص الدينى يضارع مستوى أكثر رجال الكنيسة وعيًا . فقد لاحظ الكاردينال داميانى ، الذى تعتبر كتاباته مؤشراً على المواقف السائدة فى القرن الحادى عشر ، أن كل مسيحى مؤمن هو صورة للكنيسة بأسرها « أن كل

مؤمن يبدو كنيسة مصغرة » . ويؤكد داميانى أنه إذا رفع الروح القدس بعض المؤمنين إلى مرتبة السهر على الهيبة الكنسية ، فإنه ينبغى أن يقوم وزراء الرب هؤلاء بكشف النقاب عن صفاتهم الشخصية المقدسة ، وذلك بأن يحيا كل منهم حياة دينية سامية . فضلا عن أن الرهبان الذين يحيون حياة دينية كاملة يجب أن يتصرفوا باعتبارهم جيش المسيح .

لقد أدى انتشار مشاعر التدين بين العلمانيين إلى خلق مشكلة جديدة أمام الكنيسة ، كما أن مذهب الكنيسة التقليدى عن سلطة الكنيسة ، والذى تعكسه عبارة داميانى ، جعل المشكلة أكثر إلحاحا . وقبل ذلك لم يكن ثمة شك فى أن المطلوب من رجال الكنيسة على طريق الروح كثير ؛ لأن هذا كان مايبرر السلطات المقدسة فى عقول العامة . إلا أن الشكوك بدأت تثور حول هذه المسألة . فقد اتضح للكثيرين من رجال الكنيسة فى القرن الحادى عشر أن الأخلاقيات الراقية ، والحماسة الدينية المتأججة فى صدور رجال الكنيسة لاتكفى وحدها لتبرير سلطان الكنيسة الشاملة وإلا فإن الكنيسة سوف تلوب فى العالم الذى اعتنق المسيحية، وبذلك يفقد الكنسيون موقعهم المميز فى المجتمع .

ومع منتصف القرن الحادى عشر كان رجال الكنيسة فى جميع أنحاء الغرب الأوربى يجابهون هذه المشكلة الجديدة الحرجة . إذ أنهم عرفوا أن الملوك من أمثال هنرى الثالث الألمانى ووليم المعترف كانوا رهبانا فى ثياب دنيوية ، وأنهم شغوفون بقيادة المسيرة الدينية . واكتشفوا أن العديد من النبلاء أخذوا حركة « سلام الرب »[1] مأخذ الجد ، وأوقفوا الأراضى والأملاك على الأديرة والكاتدرائيات كما قاموا برحلات الحج الشاقة ، وكان أملهم أن يموتوا

---

١ - حركة دينية اجتماعية بدأت فى غرب فرنسا فى القرن العاشر كرد فعل للفوضى الاقطاعية . وكانت الكنيسة تتولى الدعاية . وفى سنة ١٠٨٧ اجتمع مجمع كنسى فى شارو Charrou وأصدر مرسوما بالسلام بين المسيحيين ، مهدداً بتوقيع عقوبة الحرمان على من ينتهكون السلام . وقد رفع الأساقفة السلاح لفرض احترام السلام مما نتج عنه توسيع ضياعهم الاقطاعية وزيادة عدد أفصالهم . وفى القرن الحادى عشر تحولت حركة « سلام الرب » إلى حركة « هدنة الرب Truce of God » التى منعت الهجوم على الاكليروس وغير المحاربين . وتقييد الحروب فى فصول معينة وثلاثة أيام فى الأسبوع . وحين لقيت الحركة تأييد الكلونيين انتشرت فى فرنسا وإيطاليا والمناطق التى كانت السلطة الملكية فيها ضعيفة ، ولكنها فى انجلترا وألمانيا استبدلت بالسلام الملكى أو الإمبراطورى . وبعد أن أيدت البابوية هذه الحركة سنة ١٠٥٨ تأسست مؤسسات للسلام ، مثل المحاكم التى كانت مهمتها الحيلولة دون نشوب الحروب الاقطاعية . وقد أنشئت الميليشيات لفرض السلام على المخالفين . وفى القرن الثانى عشر ، ومع إحياء السلطة الملكية فى فرنسا استخدم الملوك مؤسسات السلام لفرض سلطتهم . (المترجم)

وهم فى مسوح الرهبان . بل أن البورجوازيين الأدنياء أظهروا من الدلائل مايشير إلى أنهم سايروا هذا الاتجاه الجديد ، بدعمهم للكنائس البلدية وإخلاصهم للاحتفالات الدينية . وكان لابد لمثل أولئك العلمانيين أن يتوقعوا أن يظل رجل الكنيسة على تفوقه الأخلاقى بالنسبة لهم كما كان الحال فى الأيام الخوالى عندما كان المجتمع وحشيا وثنيا . لقد كان من الممكن الاحتفاظ بسيطرة الكنيسة على المجتمع العلمانى ، والإبقاء على احترام العلمانيين للرهبان بصفة خاصة ، عن طريق زيادة مشاعر التقوى وتدعيم القيم الأخلاقية فيما بين الرهبان أنفسهم.

لقد قدم البندكتيون العدد الأكبر من قيادات الكنيسة فى القرن الحادى عشر ، مما جعل الرهبان أشد حساسية تجاه المد الدينى فى صفوف العلمانيين . وتكمن أصول حركة الإصلاح الجريجورى فى الاتجاهات الجديدة التى تطورت فى الحياة الديرية فى القرن الحادى عشر وفى روح جديدة جعلت الكثيرين من الرهبان يسخطون على الحياة الدينية الكلونية السائدة وأدت بهم إلى تكريس مثل ديرية مختلفة أشد صرامة . ومن ثم يمكن أن نجد جذور الحركة الجريجورية فى الأزمة التى عانتها الديرية الغربية فى القرن الحادى عشر .

لقد ظهرت البوادر الأولى للموقف الجيد تجاه الحياة الديرية (والأرجح أنه ، على وجه الدقة، موقف قديم جداً أعيد احياؤه) فى شمال إيطاليا سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبا . فللمرة الأولى منذ القرن الرابع على الأقل ، ظهر الشكل المتقشف للديرية بشكل ملحوظ فى غرب أوربا . ولاغرو فى أن يكون أول ظهور أولئك النساك فى شمال إيطاليا . والزهد المتطرف ليس من خصائص المجتمع الزراعى النامى حيث يكون مستوى المعيشة هامشيا وقانعا بالقليل فى جميع الأحوال . فلابد للزهد من مجتمع ثرى ، وأطايب الحياة والتنافس الذى يميز الاقتصاد الحضرى ، لكى يثور ضده . وكان هذا هو الواقع الذى يعيشه عالم شرق المتوسط فى القرن الرابع عندما ذاع صيت آباء الصحراء ، كذلك كان هذا هو الحال فى شمال إيطاليا عند بداية القرن الحادى عشر حيث وجد المجتمع الحضرى للمرة الأولى في تاريخ تطور أوربا الغربية فى العصور الوسطى . ففى شمال الألب بدأت حركات تقشفية جديدة تظهر فى منتصف القرن الحادى عشر . وفى شمال فرنسا ، والفلاندرز ، وأراضى الراين بصفة خاصة ، نسمع عن رهبان مخلصين يديرون ظهورهم للراحة والأمن فى رحاب الأديرة الكلونية ، ليذهبوا إلى مناطق الحدود فى مجموعات صغيرة لكى يشكلوا جماعات رهبانية جديدة صارمة فى تقشفها . هذه

المؤسسات الديرية الجديدة المنعزلة تبلورت فى القرن الثانى عشر فى الحركة السسترشيانية الكبرى وغيرها من النظم الرهبانية الجديدة . وعلى أية حال ، فإنه على الرغم من ظهور جماعات زاهدة جديدة أكثر صرامة فى شمال إيطاليا ، ظلت شخصية الناسك - القديس الجوال قوة دفع أساسية فى الحياة الدينية فى القرن الثالث عشر لتبلغ الذروة فى الحركة الفرنسكانية.

وسواء كان القادة الروحيون لحركة الزهد فى الديرية الغربية يسيرون على هدى الديرية الباكرة ، أو يحتذون خطى الرهبان المتأخرين ، فإنهم اتفقوا على انتقاد النمط الكلونى السائد فى الحياة الدينية . إذ أنهم كانوا يعتقدون أن دير كلونى وغيره من الأديرة البندكتية الكبرى فى ذلك الزمان قد قصرت بشكل محزن فى التزامها بالقاعدة التى كان مؤسس النظام قد أرساها . وبعض النظر عن التهليل للتأثير الدنيوى وممتلكات البندكتيين الشاسعة ، فإن زعماء الحركة التقشفية قد شكوا من أن ثروات الأديرة وسلطتها كانت مصدر إفساد لأعضائها ، لأنها كانت تنأى بهم عن تحقيق المثل الديرى . وتمثل الحل آنذاك أمام النساك من أعضاء الجماعات الديرية الجديدة فى الخضوع الصارم لقسم الفقر : بمعنى أن يعيشوا مثلما كان رهبان مونت كاسينو يعيشون فى زمن القديس بندكت ، أى أنه يجب عليهم العودة إلى المثال الروحى الذى ضربته كنيسة الحواريين . وفى هذا الصدد ، كما فى غيره ، يتحدث بطرس داميانى إلى جيل جديد من رجال الكنيسة ذوى الميول التطهرية بقوله : « إننا لانتخلى عن الوظائف النبيلة والمكاسب الدنيوية فحسب ، ولكننا أيضا نتخلى عن هذه الأشياء بشكل دائم» . وقد تمكن الرهبان ، بانتهاج هذا الإصلاح العظيم فى الحركة الديرية ، أن يحتفظوا بزعامتهم للمجتمع المسيحى ، وهو ماكانوا به جديرين .

كيف تمثلت نتيجة هذه التغيرات الحرجة فى الثورة الجريجورية والصراع الذى لم يلبث أن نشب حول النظام العالمى الصحيح ؟ لم يكن حتميا أن يؤدى أى منهما إلى الآخر ، ولكن ذلك كانو تطوراً طبيعيا فى ظل ظروف العصر . فقد كان جميع الرجال الذين تبوأوا مكان الصدارة فى البلاط البابوى فى خمسينيات القرن الحادى عشر من الرهبان ، وكان طبيعيا بالنسبة لهم أن يحملوا اهتماماتهم التقشفية التطهرية خطوة واحدة خارج الدير لكى يطبقوها على الكنيسة بأسرها . وهكذا كرس داميانى سنوات طويلة فى محاولة إصلاح رجال الكنيسة الفاسدين فى شمال إيطاليا . وكانت الخطوة الأولى تبدو منطقية على الرغم من كونها غير حتمية ، هذه

الخطوة هى نقل النبض التقشفى والتطهرى إلى العالم نفسه . كان هذا هو أصل الهجمة الجريجورية على النظام السائد فى العالم نفسه ، وهو مايمكن تفسيره فى ضوء ظروف التوازن الذى شهدته العصور الوسطى - أى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر . وإذا كانت الكنيسة والعالم مرادفين لبعضهما ، كما قال كثير من المعاصرين ، فكيف يمكن إذن لحركة التقشف والإصلاح أن تتوقف داخل نطاق الكنيسة ؟ لأن الكنيسة لم تكن لها حدود ، أو لأن حدودها على الأقل كانت هى حدود العالم نفسه ، فإن الثورى الجريجورى كان يشعر أنه مضطر إلى تطبيق مثله التطهرية على كافة جوانب الحياة الاجتماعية وإلى بناء نظام مسيحى عالمى موحد Christianitas ، على حد تعبير جريجورى السابع . لقد أخذ الجريجورى التعريف العام للكنيسة والعالم فى القرن الحادى عشر مأخذ الجد تماما ، ومن ثم كانت أيديولوجيتهم تفرض عليهم أن يحملوا النبض التقشفى الإصلاحى من النساك والجماعة الديرية الجديدة ، إلى أكثر جوانب الحياة حيوية خارج حدود الدير . وتأكدت الدروس المستفادة من أيديولوجيتهم من البناء القائم على المؤسسات فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه بحيث كان يصعب الاقتناع بأن أى تغيير حاسم فى الحياة الديرية لن يؤثر فى الكنيسة ويؤدى إلى إصلاحها ككل . كذلك كانت الكنيسة والملكية فى معظم أنحاء أوربا مرتبطتين ببعضهما بحيث كان الإصلاح الكنسى الثورى يستوجب ثورة سياسية واجتماعية .

٢ - النقاش حول أسس المجمع المسيحى :

مع بداية خمسينيات القرن الحادى عشر كان مساعدو البابا الرئيسيون قد انتظموا فى «هيئة الكرادلة » . ومصطلح « كاردينال Cardinal » مشتق من الكلمة اللاتينية التى معناها « مفصّلة » الباب ؛ أى أن الكرادلة كانوا هم « المفصلات » التى يتحرك عليها الباب البابوى الكبير . وكان مصطلح « كاردينال » يتناسب بصفة خاصة مع الرجال الذين كانوا يسيطرون على البابوية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وهم الذين حاولوا تنفيذ الإصلاح الجريجورى . وكان عددهم قليلا بشكل ملحوظ إذ لم يكونوا جميعا يزيدون عن إثنى عشر شخصا على مدى فترة استمرت أكثر من نصف قرن ، ولكن أهميتهم بالنسبة للحركة الجريجورية كانت فائقة . والواقع أنه لم يتول العرش البابوى من الراديكاليين الحقيقيين سوى إثنين فقط هما جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، وباسكال الثانى (١٠٩٩ - ١١١٨) . أما المصلحان الجريجوريان الآخران البارزان فهما الكاردينال بطرس داميانى (ت ١٠٧٢) ،

وهيوميرت (ت ١٠٦١) . وغالبا ماكان هذا الأخير يعرف باسم هيومبرت من سيلفا كانديدا Humbert of Silva Candida ، نسبة إلى الكنيسة الصغيرة الكائنة فى روما والتى كان هو المسئول أدبيا عن رعايتها إلى جانب منصبه الكاردينالي ، كما جرت العادة آنذاك .

كان المصلحون الجريجوريون الأربعة الذين تزعموا الحركة مجموعة متميزة من الرجال مثلما كان يحدث طوال التاريخ الأوربى . وهم لم يسيطروا فقط على الكنيسة فى القرن الحادى عشر، ولكنهم أيضا ساهموا فى التيارات الثقافية الرائدة فى ذلك العصر . وفى جميع الحالات ظلت المذاهب التى روجوها باقية بعدهم وحتى بداية القرن الثانى عشر ، ولكنها دخلت فى المجرى الرئيسى للفكر فى العصور الوسطى . لقد خرجت الأفكار الجريجورية العالمية فى اتجاهات شتى دون أن تنحصر فى حدود الكاثوليكية الضيقة . وانبرى نفر آخر من الكنسيين المتعلمين المخلصين لتحدى المذاهب التى نشرها الجريجوريون حول طبيعة المجتمع المسيحى ، ومن غمار هذا الصراع الثقافى برزت فى النهاية الخطوط العريضة لكافة المواقف الأيديولوجية التى قيض لها أن تتطور على نحو أكثر اكتمالا فى القرون الخمسة التالية . وكثير من المناقشات التى دارت إبان فترة الإصلاح الجريجورى ماتزال وثيقة الصلة بتجاربنا ومشكلاتنا الحالية .

ومن بين الرجال الذين نطلق عليهم اسم المصلحين الجريجوريون كان سان بطرس داميانى هو الوحيد الذى يحظى بحب الجميع واحترامهم ، كما كان أقلهم إثارة للنزاع فى زمانه . ومع هذا فإن ذلك النموذج الملهم ، وما تضمنته مذاهبه من دلالات تستعصى على مداركنا أكثر مما خلفه غيره من المصلحين الجريجوريين بسبب طبيعتها المسهبة ، وبسبب تغلغلها وتأثيرها فى ثقافة العصور الوسطى وآدابها ككل . ولقد كان دانتى منصفا حين وضع داميانى فى « الكوميديا الإلهية » فى واحدة من أعلى دوائر السماء ، واعتبره سلفا لسان فرنسيس . والحقيقة أنه يمكن القول بأن سان فرنسيس لم يكن سوى التطور الختامى لحركة دينية كان داميانى هو أبرز وأقوى مؤسسيها .

وتعكس كتابات داميانى الضخمة الحال الروحية فى شمال إيطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، أى حين قدم إلى البلاط البابوى . وُلد داميانى حوالى سنة ١٠٠٧ . وكان يتيما من عائلة فقيرة فتبناه أحد القساوسة ، وتلقى تعليما راقيا فى اللاهوت والقانون الكنسى ، ثم صار واحداً من زعماء حركة الزهد الجديدة فى شمال إيطاليا . وقد استرعى

انتباه البابا ليو التاسع بسبب إدانته العنيفة لفساد الرهبان فى المدن الإيطالية ، فعينه البابا كاردينالا وحاول أن يسخر طاقاته فى خدمة روما . ولم يسعد داميانى قط بوظيفة الكاردينال؛ فقد كان من طراز الناسك - القديس الجوال والمبشر أكثر منه مصلحا نظاميا . وأوفد داميانى إلى ميلانو فى محاولة لإصلاح كنيستها ، ولكنه لم يحقق نجاحًا كبيراً . إذ أنه وجد نفسه على خلاف مع هيلدبراند (الذى صار البابا جريجورى السابع فيما بعد) ، وهيومبرت ، زميليه فى هيئة الكرادلة ، وكان يعجب بهما ولكنه رأى فيهما التهور والرعونة . لقد كان من ذلك الطراز من الرجال الذين يلهمون الثوريين ، بيد أن وداعته ، وميله إلى الإحسان ، كانت تحول بينه وبين أن يصير هو نفسه رجلا ثوريا . وكانت وفاته فى السنة السابقة على ارتقاء هيلدبراند للعرش البابوى أمراً هامًا للغاية ؛ لأن موته قد أزال من على المسرح الرجل الوحيد الذى كان يستطيع كبح جماح جريجورى السابع .

لقد كان داميانى هو زعيم المجموعة المعتدلة فى هيئة الكرادلة ، وهى المجموعة التى حاولت تفادى الانفصال النهائى بين البابوية الإصلاحية والإمبراطور الألمانى . ولكن تعاليمه كانت على درجة كافية من الثورية ، بمعنى أنها قد توصلت إلى أسس التجربة الدينية فى العصور الوسطى وساعدت على تحويل القيم الروحية . فقد شهد القرن الحادى عشر تغيراً عظيما فى مفهوم العلاقة بين الألوهية والبشرية . فالرب الحاكم ، الحانق ، البعيد الذى يصوره العهد القديم ، والذى حكم النظرة الدينية فى العصور الوسطى الباكرة ، قد تخلى عن مكانه لابن محب ، منكر لذاته يصوره العهد الجديد مع أمه الباكية الحانية . لم يعد الدين مسألة قاصرة على العبادة والطاعة الشكلية ، بل صار تجربة شخصية . هذه النظرة الروحية الجديدة ظهرت للمرة الأولى فى الحركة الديرية التقشفية فى شمال إيطاليا ، كما ظهرت من خلال التجربة الروحية العميقة التى مرت بها المجتمعات الحضرية الإيطالية . وبمنتصف القرن الثانى عشر ، كانت روح التدين الجديدة هذه قد انتشرت فى شتى أنحاء أوربا ، وتوغلت إلى أعمق أعماق الضمير الأوربى ، كما أثرت الفن والأدب وارتقت بهما مكانة نبيلة فى حضارة العصور الوسطى . وكان سان فرنسيس هو التجسيد النهائى لهذا التطور ، كما أن سان برنار لعب دوراً هائلا في تقديم الروح الدينية الجديدة ونضجها فى القرن الثانى عشر ، ولكن سان بطرس داميانى كان أول من عبر بوضوح عن إنكار الذات ، والإله المحب والروح الإنسانية الصاعدة

فى أمل ، وهى السمات والخصائص التى ميزت حركة التدين فى العصور الوسطى العالية عن التدين قبل ذلك .

وهكذا ، فإذا كان داميانى قد لعب دوراً رئيسًا فى إثراء المذهب الكاثوليكى وإكتماله فى العصور الوسطى ، فإنه يجب علينا أن ننظر إليه فى الوقت نفسه باعتباره مؤسسا لحركة عاطفية جارفة ، وهى حركة لاتستحق ثناء كثيراً لأنه كان يصعب على الكنيسة أن تتحكم فى هذا المفهوم حتى على المدى الطويل . ذلك أن مشاعر التدين العاطفى الجديد ، قد خلقت تعصبا طائشا يمكن أن ينتج من مظاهر العنف ما لا تستطيع أية سلطة عامة أن تسيطر عليه . وكان رد الفعل الشعبى تجاه الحملة الصليبية الأولى من أكبر الأمثلة على هذا . وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نجد أن مذبحة اليهود سنة ١٠٩٦ كانت استجابة شعبية للدعوة الصليبية التى وجدت ذريعتها النهائية فى كتابات داميانى نفسه . بل إن التعصب ظهر فى آراء هذا القديس وفى الحركة الصوفية التى انتشرت فى أوائل القرن الحادى عشر ، باعتباره الجانب الآخر من التدين الشخصى العميق الذى بذل داميانى جهداً كبيراً لاستثارته . لقد بدأت الزيادة فى الأدب المعادى للسامية فى أخريات القرن الحادى عشر بكراستين كتبهما داميانى الذى لم يصل عطفه الودود إلى غير المسيحيين .

ويتمثل الازدواج والتوتر فى المذهب الذى نادى به داميانى فى حقيقة أنه على الرغم من كونه أشد المدافعين عن فعالية الطقوس الكنسية وضرورتها كوسائط للرحمة المقدسة وعن سلطة القساوسة وحدهم فى إدارة شئونهم – على الرغم من هذا كانت الاتجاهات الخفية الأساسية فى تعاليمه تتجه إلى تقليل التلازم بين القساوسة والطقوس المقدسة . لأنه إذا أمكن تحقيق الربط الشخصى بين الروح الإنسانية والمسيح المحب (فى العقلية العامة على الأقل ، إذا لم يكن ذلك فى المجالات اللاهوتية) ، يكون هناك طريق بديل إلى الرب قد صار مفتوحا . وفى القرن الحادى عشر لم تكن دلالات هذه الورطة الكامنة واضحة للعيان ، وإنما قيض لها أن تصير مصدراً للفوضى ، والشك والصراع المضنى فى العالم المسيحى في غضون المائتى سنة التالية . ومن ثم ، فإننا لانغالى إذا استنتجنا أن الإستنباط بعيد المدى فى تعاليم داميانى كان يسير فى الاتجاه القائل بأن الفردية الدينية سوف تمزق نسيج العالم المسيحى فى العصور الوسطى . ولايعنى هذا أننا نقول إن داميانى كان « مسئولا » عن هذا الاتجاه المتأخر فى الجوانب الصوفية والعاطفية فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى ، ولكننا نشير إلى أننا إذا

اقتفينا أثر هذا التيار الرئيسي للفكر الثوري ، ونحن نعود القهقري من القرن الرابع عشر حتى مصادره الأولى في القرن الحادي عشر ، فإن الصورة القديسية لهذا الرجل سوف تبدو فضفاضة للغاية . وهكذا ، فإننا إذا اعتبرنا أن مذاهب داميانى تسير ضد البناء الكلى لثقافة العصورالوسطى ، فإن هذه المذاهب سوف تبدو ثورية مثل جميع أقوال هيومبرت أو هيلدبراند وفعالهما ، وذلك على الرغم من أن داميانى نفسه ، باتجاهاته الشخصية ، يعتبر أقل المصلحين الجريجوريين ثورية .

كان منافس داميانى في الزعامة الثقافية للبابوية الجريجورية هو الكاردينال هيومبرت من سيلفا كانديدا ، وهو مفكر يتشابه مع داميانى من حيث تعليمه وسطوته ، وهو من بعض الوجوه أكثر منه فطنة ، وأصالة ، وعقلانية ، فقد جاء هيومبرت من اللورين حيث كان ليو التاسع يتولى منصب الأسقف . ومن الثابت أن هيومبرت كان من رهبان دير كلونى ، وراوده إحساس قوى بأن كلونى قد خان المثل والقيم التى كان مؤسسه قد أرساها . وفيما عدا ذلك فإن سيرته تتشح برداء الغموض . وهو مثل جميع الكولونيين تقريبا ، وربما كان سليل الطبقة العليا من النبلاء ، وهذه الخلفية الطبقية تساعدنا على تفسير كراهيته للملكية الألمانية التى دعمت سلطتها على اللورين على حساب المعارضة المحلية القوية . ولاشك فى أن هيومبرت قد درس فى مدارس القانون الكنسى الجديدة التى ازدهرت فى اللورين وكانت معلوماته وافرة فى اللاهوت والتاريخ الكنسى ، ومن المحتمل أنه كان نادرة ثقافية – إذ كان يعرف اللغة اليونانية جيداً ، مع أنها لم تكن لغة مألوفة فى غرب أوربا آنذاك . وعلى الرغم من مزاجه الناقد اللاذع ، وغطرسته الثقافية الى تكشف عن نفسها فى كل صفحة سطرتها يده ، فإنه لم يكن بوسع الكنيسة أن تستغنى عن خدماته . فقد كان من دواعى سرور الباب ليو التاسع أن يوظفه فى خدمة البابوية حيث جعلته طاقته الخلاقة وعلمه الغزير شخصية بارزة . ولم يحل دونه وعرش القديس بطرس سوى وفاته المبكرة ، إذ توفى سنة ١٠٦١ ، وعمره لايزيد على خمسين سنة .

ومعرفة هيومبرت باللغة اليونانية هى التى هيأت له سبيل القيام بدور المبعوث البابوى إلى القسطنطينية . ذلك أن موقف البابوية الهجومي المتجدد قد أدي إلى إعادة النظر فى العلاقات البابوية مع الكنيسة البيزنطية ، كانت المزاعم القديمة المتعارضة لكل من البابا والإمبراطور قد بدأت تستعيد أهميتها . فالغزو النورمانى لجنوب إيطاليا ، حيث كان يعيش كثيرون من

اليونانيين المسيحيين ، أعاد إلى أذهان البلاط البابوى مشاكل العلاقات اللاتينية البيزنطية . ولم يكن هيومبرت بالرجل الذى يتحفظ أو يتذلل فى مفاوضاته مع الكنيسة البيزنطية . وقد أنهى مهمته سنة ١٠٥٤ بحرمان بطريرك القسطنطينية ، وبذلك تم الإعلان الرسمى للإنقسام الذى كان يتطور منذ القرن الخامس . وهو الانقسام الذى لم ينته حتى يومنا هذا ، على الرغم من محاولات الوفاق العديدة التى بذلت عبر القرون .

وبعد عودته إلى روما صار هيومبرت هو مُنَظِّر حركة الأصلاح وزعيم الجناح الراديكالى فى هيئة الكرادلة . وكانت سنة ١٠٥٩ هى التاريخ الحاسم الذى تجلت فيه نتائج خططه ونظرياته . ففى هذه السنة كان هو المسئول عن نشر كتابين كانا بمثابة إشارة البدء للثورة الجريجورية . وأولهما مرسوم الانتخاب البابوى الذى يحدد الطريقة القانونية لانتخاب البابوات . وقد جعل الانتخاب برمته بأيدى الكرادلة واستبعد تدخل كل من الإمبراطور الألمانى والشعب الرومانى . وبالنظر إلى حقيقة أنه قبل أقل من عشرين سنة كان هنرى الثالث يعين البابوات بشكل منتظم، فإن ذلك يعتبر علامة على تغير كبير جداً فى العلاقة بين روما والإمبراطور الألمانى . ولكن هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) كان مايزال قاصراً فى ذلك الحين ، وكانت أسرته تحارب ضد عصيان النبلاء الألمان ؛ وهو ماأتاح لهيومبرت أن يقوم بـ « انقلابه » دون خشية القصاص . أما الكتاب الثانى الذى نشره هيومبرت فكان فى سنة ١٠٥٩ وهو عبارة عن رسالة تتناول علاقة الدولة بالكنيسة وعنوانها « الكتب الثلاثة ضد السيمونيين » . وهو يعتبر بمثابة الصياغة الإيديولوجية للثورة الجريجورية فهو كتاب يطفح بالكراهية العنيفة ضد الإمبراطور الألمانى وينادى بقوة بالتحرر الكامل للبابوية من ربقة السيطرة العلمانية . ولكن هناك ماهو أكثر فى رائعة هيومبرت ، فهى فى أساسها هجوم على التوازن الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة بين الكنيسة والدولة ككل .

ومثلما تعكس كتابات داميانى أحد التيارات الثقافية الرئيسية فى ذلك الزمان ، أى روح التدين الجديد ، تعكس مؤلفات هيومبرت الروح الجدلية الجديدة - أى التأكيد على صياغة المناقشات وفقا للقوانين الصارمة للمنطق الأرسطى بالشكل المعروف به آنذاك . وكان هيومبرت فارسا لايشق له غبار فى هذا الميدان ، وكانت تلك طريقة للمناقشة تتناقض تماما مع ذلك النوع من النثر البلاغى الباهت الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة . وقد استخدم هذه الأداة الجديدة باقتداره الرائع لتقويض النظام العالمى القائم . إذ أنه كان يقول إن السيمونية ليست

مجرد بيع وشراء المناصب الكنسية ؛ وإنما هى تدخل العلمانيين فى شئون الكنيسة . وقد أدان بهذا التعريف كثيراً من مؤسسات النظام السائد فى المجتمع الغربى - مثل التقليد العلمانى ، والكنائس الامتلاكية ، والتدخل الملكى فى شغل الوظائف الكنسية - باعتبارها أخطاء تشوب العقيدة . وبناء على منطق هيومبرت ، لم يكن هناك ملك أو نبيل فى غرب أوربا ، فضلا عن بعض رجال الكنيسة ، تبرأ ساحته من المشاركة فى الأعمال التى تدين روحه .

كان هذا دواء ناجعا لداء الكنيسة العضال ، إلا أن هيومبرت لم يقنع حتى بالتوقف عند هذا الحل الجذرى . ذلك أن سحر الجدل القاتل ، قاد بعضًا من ألمع مفكرى العصور الوسطى إلى مستنقعات الهرطقة خلال القرون الثلاثة التالية ، وزعموا أن هيومبرت كان الضحية الأولى على طريقهم . ذلك أن نزعته التطهرية دفعت به عبر الخطوات المنطقية إلى استنتاج أنه إذا لم يتم إصلاح الاكليروس ، بطريقة أو بأخرى ، فإن الناس سوف يمحصون الشخصية الأخلاقية لقسيسهم ، فإذا ما وجدوها غير مرضية فإنهم بالضرورة سيرفضون الطقوس المقدسة التى يقوم بها . وهكذا انساق هيومبرت إلى إحياء المذهب الدوناتى القائل بأن قيام قسيس ما بالطقوس المقدسة وهو يفتقر إلى الجدارة والاستحقاق يجعلها كأنها لم تكن ، ومايترتب على ذلك بالضرورة من حق العلمانيين فى الحكم على القساوسة . لقد عمل سان أوغسطين بدأب ضد هذه المبادئ نفسها قبل أكثر من ستة قرون ، وكان حصاد عمله أن أدانت الكنيسة المذهب الدوناتى باعتباره أخطر الأخطاء . لقد كان مقرراً أن الكاهن يقوم بالطقوس المقدسة باعتباره ممثلا للرب ، وأن صلاحية الطقوس لاتعتمد على السجايا الشخصية للقسيس ، وإنما على المركز الذى يشغله ، وبذلك ليس من حق العلمانيين الحكم على رجال الكنيسة . وينبغى أن ننظر إلى إحياء هيومبرت للدوناتية على أنه نتاج مباشر لتطور مشاعر التدين بين العلمانيين . فمن الواضح أنه كان يحترم آراء كثير من العلمانيين ، أكثر من احترامه لرعاتهم الرسميين .

والواضح أن هيومبرت قد سقط فى خطأ مذهبى ، وأن تأثير تعاليمه التى لقيت قبولا واسع النطاق لم يتعد هدم سلطة القساوسة وإنكار المفهوم الكاثوليكى عن تفوق المنصب على الشخصية الأخلاقية الفردية لرجال الكنيسة . لأن ذلك ببساطة ، كان سيؤدى إلى حلول كنيسة من القديسين محل الكنيسة الكاثوليكية . وقد سارع داميانى إلى التنبيه إلى الاتجاهات الدوناتية فى مقالة هيومبرت ؛ فقد كان ذلك بالنسبة له درسا فى مخاطر الجدل الذى كان يشك كثيراً فى جدواه بالنسبة للكنيسة . ومع ذلك فإن أشخاصا آخرين ، ممن ألهبتهم نار التعصب

التطهرى ، وتأثروا بشخصية الكاردينال هيومبرت القوية وسطوته الفكرية الهائلة ، لم يدركوا المخاطر والنتائج المدمرة لجدل هيومبرت بمثل هذه السرعة . أما هيلدبراند الذى كان واقعًا تحت تأثير هيومبرت القوى ، فقد تباطأ فى دحض المذهب الدوناتى الجديد الذى جاء به هيومبرت ولم يحاول إدانته سوى فى الشطر الأخير من بابويته .

ومع أن البابوية أدانت إحياء الإيديولوجية الدوناتية على يد هيومبرت الذى كان كاردينالا بارزا ، كما كان أقدر المنظرين فى القرن الحادى عشر - على اعتبار أن هذا الإحياء من أخطر الأخطاء على العقيدة ، وهو موقف لم تحد عنه الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم - فإن إحياء الإيديولوجية الدوناتية كان حادثا ذا مغزى فائق الأهمية بالنسبة لتطور كنيسة العصور الوسطى . ففى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت الدوناتية هى النبع الفياض الذى نهلت منه الحركات الهرطقية والمذاهب المخالفة التى تبلورت فى البروتستانتية فى القرن السادس عشر . وحتى الآن لم يقم أى باحث بتحديد الخط الدقيق الذى يربط بين مقالة هيومبرت « ضد السيمونيين » والهراطقة الذين ظهروا بأعداد كبيرة بشمال إيطاليا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر . وعلى أية حال فلن نبالغ إذا افترضنا أن تعاليم هيومبرت ، التى أدانتها البابوية فى نهاية الأمر ، قد دخلت ضمن مقومات الحياة الدينية النشطة التى شهدتها مجتمعات شمال إيطاليا الحضرية ، كما أنها لعبت دوراً رئيسيا فى تحول حركة التدين العلمانى الجديد إلى هرطقة شعبية .

إذا ماقارنا هيلدبراند بكل من داميانى وهيومبرت لوجدنا أنه ليس مفكراً أصيلا . إلا أنه كان لايبارى كواحد من الإيديولوجيين . فقد نهل من عدة موارد فى آن واحد ، كما تشرب الأفكار الثورية التى انتشرت فى أيامه ، وصاغ هذا كله فى برنامج صلب شامل للثورة . وحين تولى البابوية تحت اسم جريجورى السابع حاول أن يفرض هذه المذاهب ، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الصراع المرير بين البابا والإمبراطور ، وهو الصراع الذى هز المجتمع الغربى من أساسه . وأيا كان الحكم على أيديولوجيته ، وجدواها ، والإنجازات التى تمت أثناء بابويته ، فإن جريجورى السابع يجب أن يعتبر من البابوات الثلاثة الكبار فى العصور الوسطى ، فمن بين جميع البابوات الذين تعاقبوا على عرش القديس بطرس قبل القرن السادس عشر ، لم يمكن مقارنة أحد بجريجورى السابع غير جريجورى الأول وإنوسنت الثالث . ولم يكن هناك من البابوات من أثار حوله من الجدل مثلما فعل جريجورى السابع . ذلك أنه لم يكن بمقدور أحد

فى أوربا فى سبعينيات وثمانينيات القرن الحادي عشر أن يحتفظ لنفسه برأى محايد تجاه جريجورى . فقد كان محل إعجاب البعض وحبهم الشديد ، كما كان فى الوقت نفسه مثيراً لمشاعر الكراهية والاحتقار التى لم تلحق بغيره من البابوات .

وبسبب الجدل والنزاع حول جريجورى السابع يصعب علينا أن نقرر بعض الحقائق الأساسية فى سيرته والجوانب الأساسية البارزة فى شخصيته . وقد بلغت القصص والأساطير التى رويت لصالحه أو ضده حداً جعل شخصيته شخصية غامضة إلى حد ما . فقد كان من مواطنى روما ، وانخرط فى خدمة البابوية وهو علي أعتاب الرجولة . وقبل بابوية ليو التاسع سنة ١٠٤٩ كان هيلدبراند قد صار بالفعل رجلا هاما فى الدوائر البابوية . وعلى الرغم من أنه على مدى ربع قرن تخطاه فى الانتخابات البابوية مرشحون أقل منه مقدرة ، فإنه كان قوة مسيطرة فى هيئة الكرادلة كما كان هو الرئيس الفعلى للإدارة البابوية . كان موقف هيلدبراند من الكرسى البابوى وطنيا ، إذا صح التعبير ، أو علي الأقل محصوراً فى نطاق روما . وبغض النظر عن المسائل الأيديولوجية المطروحة ، فإنه أدان الإمبراطور الألمانى باعتباره دخيلا أجنبيا لايحق له التدخل فى الشئون الإيطالية التى يجب أن تترك للسياسة البابوية . وكما أشار سوثرن R . W Southern . فإن آخر كلمات هيلدبراند حين مات فى جنوب إيطاليا سنة ١٠٨٥ ، بعد أن طرده الجيش الألمانى من روما ، كانت ذات مغزى عميق ، إذ قال « **أحببت العدل ، وكرهت البغى ، ولهذا أموت منفيًا** » . أى أن أى مكان خارج المدينة الخالدة كان بمثابة المنفى لهذا المواطن الرومانى .

من الصعب أن نتعرف على الخلفية الأسرية لهيلدبراند . فقد زعم بعض المعاصرين أنه كان من البورجوازيين ؛ وربما كان هذا افتراء ، بيد أنه إذا كان حقيقة فإنه سوف يساعدنا على تفسير كراهيته العنيفة للنظام القائم . ولاشك فى أن هيلدبراند كان رجلا صعب المراس . إذ أن مقدرته الإدارية الفذة ، وحماسته التطهرية ، وطاقته الخيالية جعلت منه قائداً كبيراً ، ولكنها أيضًا جعلت منه زميلا شديد الوطأة . بل إن داميانى العطوف يشير إليه بعبارة « الشيطان المقدس » . كما أن هيو رئيس دير كلونى ، الذى كان عجوزاً مدققًا من رجال كنيسة القرن الحادي عشر ، كرهه عندما رآه واعتبره شخصا يسعى إلى المناصب لاغير ، وبذل كل ما فى وسعه للحيلولة دون تنفيذ خطط جريجورى .

كان هيلدبراند عليما بالقانون الكنسى ، دون أن يكون عالما عظيمًا أو مفكراً منهجيا ، كما كان عارفا باللاهوت والتاريخ الكنسى ، ومع أن هيلدبراند كان ينقصه اهتمام العالم

الحقيقي بالمعرفة في حد ذاتها ، فإنه استفاد بسرعة من حركة التعليم في القرن الحادي عشر في تدعيم وجهة نظره ، وهو عمل علمي كان يتم في الوقت نفسه في شمال فرنسا واللورين . وكان القانون الكنسي يضم كمًا هائلا غير منظم من المواقف المتناقضة فأراد جيرجوري أن يتأكد من أن جمع القوانين وتنظيمها قد تم في اتجاهات تخدم السلطة البابوية . ولو كان هيلدبراند قد فعل هذا فقط ولم يفعل شيئًا آخر ، فإنه يكون بهذا قد ساهم مساهمة كبيرة في النهوض بالسلطة البابوية ، ذلك أن هذه العملية بدأت تؤتي ثمارها في منتصف القرن الثاني عشر في شكل قانون كنسي يؤكد سلطة الكنيسة المطلقة ويرفض تراث العصور الوسطى الباكرة بأسره .

وعقب تولي هيلدبراند لعرش القديس بطرس سنة ١٠٧٣ ، واصل بحثه في القانون الكنسي لصالح البابوية . وهو نفس الغرض الذي جعله ينشر الـ Dictatus Papae الذي هو تقرير للسلطة البابوية . وهذا المقال يؤكد أن الرب وحده هو الذي أسس الكنيسة الرومانية ، وأن المنصب البابوي فقط هو صاحب السلطة العالمية ، كما أن البابا وحده هو الذي يملك حق عزل الأساقفة ، أو إعادتهم لوظائفهم السابقة ، أو نقلهم إلى أسقفيات أخرى . ولايمكن أن يكون ثمة مجلس كنسي شرعي دون موافقة البابا . كما أنه ليس باستطاعة أحد أن يدين من يستأنف قضيته أمام البلاط البابوي ، الذي هو أعلى محكمة في العالم المسيحي . وليس هناك كتاب أو مرسوم يمكن اعتباره قانونيا بدون الموافقة البابوية . فضلا عن أن البابا يسمو فوق أي إنسان ؛ فالرب وحده هو الذي يحكم على أعماله . والكنيسة الرومانية ، أي البابوية لم تخطئ أبداً ، كما أنها لن تخطئ أبداً وفقا لما ورد في الكتاب المقدس . وزعم هيلدبراند أن البابا قد اكتسب قداسته بفضل موافقة القديس بطرس . كما قال إن أحداً لايمكن أن يكون كاثوليكيا صادقا ما لم يوافق على ما يأتيه البابا من فعال . وهناك فروض أخرى في كتاب الإملاء البابوي تتناول العلاقة بين الدول والبابوية . وأكد على أن من حق البابا وحده الاحتفاظ بالشارات الإمبراطورية ، على اعتبار أنه هو الخليفة الحقيقي لقنسطنطين . كما أدعى هيلدبراند أن للبابا الحق في عزل الأباطرة ، وأن القانون يقضي بأن يتقدم الرعايا باتهاماتهم ضد حكامهم إلى المحكمة البابوية .

لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية مثيرة إلى أبعد الحدود ، ومن غير المعقول أن نظن أن هيلدبراند كان من السذاجة بحيث لا يتأكد من أنه سوف يخلق مثل هذا الانطباع . لقد

كان هذا الكتيب إقراراً للبرنامج الثورى الذى قصد جريجورى أن يسير على هديه : أى خلق نظام عالمى جديد يناسب المجتمع المسيحى القائم على أساس أن السلطة البابوية وحدها هى السلطة العالمية الكاملة ، على حين أن جميع السلطات فى العالم ، سواء الأباطرة ، أو الملوك، أو الأساقفة ، سلطات خاصة ناقصة . وفكرة كمال السلطة البابوية لم تكن فكرة جديدة بأى حال من الأحوال ؛ إذ أننا نجدها فى الجوانب الثورية من المذهب الجيلازى ، وفى هبة قنسطنطين، وفى تصريحات البابا نيقولاس الأول فى القرن التاسع . وباستطاعة جريجورى أن يزعم ، بحق ، أن كل فرض من الفروض الواردة فى كتاب الإملاء البابوى كان مجرد اقتباس من نص سابق ورد فى أحد القوانين الكنسية فى العصور الوسطى الباكرة . إلا أن الخاصية الثورية فى أى برنامج لايقلل من شأنها أن هناك من قالوا نفس الأقوال فى الماضى . لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية بالنظر إلى عمق تأكيده للسلطة البابوية المطلقة ، ومن حيث تناقضه مع النظام العالمى السائد . لقد ظلت البابوية على مدى مائتى سنة سلطة موقوفة ، وقد ازدهرت الأسقفيات والأديرة فى غرب أوربا فى تلك الأثناء بمساندة ضئيلة من روما ، وربما بدون مساندة منها على الإطلاق ، ومن المؤكد أن هذا الازدهار قد حدث دون إشراف من البابوية على شئونها . ولهذا لم يستطع كبار رجال الكنيسة فى شمال أوربا مغالبة شعورهم بالقلق من جراء هذا التأكيد المطلق على خضوعهم النهائى لروما ، وهو أمر يتناقض تماما مع التجربة العامة . إذ لم يكن باستطاعتهم أن ينكروا الأسس القانونية ، وربما اللاهوتية ، التى تقوم عليها مزاعم جريجورى ، ولكنهم أحسوا أن برنامج جريجورى غير ضرورى ومتهور ، فضلا عن أنه يمثل خطراً يتهدد أسلوب حياتهم ككل . فقد مضت الكنيسة فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا دونما متاعب أو صعاب على مدى قرنين من الزمان دون أن تعتمد على مساعدة البابوية . وكان كثيرون من رجال الكنيسة فى أوربا ، وربما كانوا هم الغالبية ، يرون أن الـ Dictatus Papae ليس سوى تأكيد صارخ للسلطة البابوية التى رقدت طويلا فى غياهب النسيان ، والتى لم تجد من يمارسها بشكل كامل سوى فى القليل النادر ، كما أنه ليس سوى توظيف لهذه النظرية فى خدمة الطموح الشخصى لهيلدبراند .

أما بالنسبة لملوك غرب أوربا فإن كتاب الإملاء البابوى كان يبدو بالضرورة ثوريا ومزعجا إلى أبعد الحدود . فقد كان يدعى التفوق والسمو للبابوية على الملكية ، وهو أمر لم يحدث من قبل فى التاريخ الأوربى على الإطلاق . ومع التسليم بأن هبة قنسطنطين تحمل مزاعم مماثلة ،

فإن أحداً من حكام أوربا العصور الوسطى البارزين لم يسمح للبابا بالتدخل فى شئون مملكته . هذا التأكيد على الملكية البابوية المتفوقة كان صدمة لزعامة ملوك الغرب فى المجتمع ، ولسلطتهم المطلقة على الكنائس الإقليمية ، وهى الزعامة والسلطة التى كانوا يمارسونها منذ أيام شارلمان .

وكان على رجال الكنيسة وملوك غرب أوربا أن يعرفوا أن جريجورى السابع قد عقد العزم على تنفيذ برنامجه الذى أعلنه بوضوح فى الـ Dictatus Papae ، بمجرد ارتقائه للعرش البابوى . كما تعين عليهم أيضا أن يعرفوا أن هذه الأيديولوجية كانت أكثر ثورية مما يبدو من الفروض القانونية البسيطة الواردة فى البيان الأول لبرنامجه . فقد مضى جريجورى خلال السنوات الأثنتى عشر العاصفة التى تولى فيها البابوية فى صياغة أيديولوجيته الثورية وتهذيبها ، مسترشدا بخطى سان أوغسطين من ناحية ، ومستلهما المنابع العاطفية لروح التدين الجديدة التى سرت بين الناس من ناحية أخرى ، ومتأثراً بتعاليم هيومبرت من ناحية ثالثة . وكل خطاب تقريبا من بين مراسلاته الرسمية الضخمة يتضمن قدراً من هذا المذهب ، ولكن نظريته النهائية عن النظام الاجتماعى المسيحى قد صيغت ككل وطرحت على نحو قوى فى خطابه الشهير باسم « خطاب إلى هرمان الميتزى » Herman of Metz فى سنة ١٨٠٢ . والخطاب عبارة عن عدة إجابات على أسئلة طرحها أسقف ميتز ، ولكنه فى الواقع عبارة عن كتيب عام . وقد نشر فى نسخ عديدة ، وأرسل إلى بلاط كل ملك فى أوربا ، كما أرسلت منه نسخ إلى الكنائس الهامة فى شتى أرجاء أوربا .

ومنذ القرن التاسع كانت الأوغسطينية السياسية آخذة فى الضمور والتلاشى . ذلك أن التحسن الاجتماعى الذى كان من نتاج حكم كل من شارلمان ، وأوتو الأول ، وهنرى الثالث ، كان يتناقض بشكل واضح مع العيوب وأوجه القصور التى كان أوغسطين قد نسبها إلى الخاصية الأخلاقية للدولة . لقد كان رجال الكنيسة يرون فى ملوك القرنين العاشر والحادى عشر الثيوقراطيين زعماء أرسلتهم العناية الإلهية لتحقيق عمل الرب ، ولم يكونوا هم أولئك القراصنة الذين تحدث عنهم أوغسطين . لقد كان التمييز بين الكنيسة ecclesia والعالم mundus فى عمومه موقف يختلف تماما عن ذلك الفصل الحاد الذى كان أوغسطين قد وضعه بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية . فقد كانت وجهة النظر الأوغسطينية القائلة بأن الدولة ليست لها أية سجايا أخلاقية خاصة بها ، وإنما تستمد خصالها فقط من خلال وضعها كخادم

للكنيسة ، تبدو رأيا فارغا وخاليا من المضمون فى عالم لم يكن به خط واضح ينفصل بين الكنيسة والدولة . ولكن هذه النظرة الأوغسطينية السياسية هى التى أحيا ما جريجورى السابع فى أكمل وأعمق صيغة .وفى خطابه إلى هرمان الميتزى قال إن السلطة السياسية فى أصلها من خلق البلطجية والقتلة ، وأن الدولة ظلت تحمل طابع قابيل (الذى قتل أخاه) . كما قال إنه فى التاريخ العالمى ككل لم يوجد أكثر من ستة ملوك استطاعوا أن ينجوا بأرواحهم من اللعنة ، وهؤلاء الملوك من أمثال قنسطنطين ، وثيودوسيوس الكبير ، هم الذين أنقذوا أنفسهم من إغراءات السلطة الدنيوية القاتلة بخضوعهم للكنيسة . وقال إن هناك كثيرين من المسيحيين البسطاء ، كانوا أكثر اطمئنانا بدخولهم فى رحاب الرحمة المقدسة من الملوك الكبار الأقوياء ، الذين هم فى معظم الأحوال مجرد أدوات يعبث الشيطان بها .

وإذ استمر جريجورى على نفس الخط الذى سار عليه أوغسطين ، فإنه توصل إلى استنتاج أن السلطة الشرعية الوحيدة فى العالم هى سلطة القساوسة ، ولاسيما أسقف روما باعتباره نائب المسيح على الأرض . وأولئك الذين يخضعون لهذه السلطة التى أرستها السماء هم فقط الذين يمكنهم أن يأملوا فى أن تضمهم مدينة الرب . لأنه كان يؤكد بشدة على المفهوم البولسى - الأوغسطينى عن الحرية ، فقد أوضح تماما أن حرية الرجل المسيحى تتمثل فى اخضاعه إرادته الأنانية للغايات المقدسة التى ترعاها البابوية فى العالم . والنظام العالمى الذى تتحقق فيه هذه المذاهب هو فقط النظام الذى يمكن أن نسميه نظاما عادلا وصحيحا . وأصر جريجورى على أن العدالة ليست مسألة عادة ، أو تراث ، أو تعود ؛ وإنما هى تحقيق للمثال المسيحى كما كان هو يراه . ولايمكن لأية مزاعم عن الاقتناع أو العادة أن تصمد فى مواجهة مذاهبه . ذلك أنه كان يذكر منتقديه بأن الرب لم يقل « **أنا التقاليد** » ولكنه قال « **أنا الكلمة** » . وبحماسة استمدها من سفر الرؤيا طالب بنظام جديد صحيح يحقق المثل المسيحية عن العدالة والحرية كما حددها هو . ولم يكن ليقبل شيئا أقل من هذا النظام المسيحى العالمى Chris-tianitas ؛ إذ لم يكن باستطاعته أن يتصالح مع الشيطان .

لقد تأثرت آراء جريجورى بروح التدين العاطفية الجديدة التى انتشرت فى القرن الحادى عشر بدرجة تقارب درجة تأثر داميانى بها . إذ أن كتاباته تحفل بالإشارات إلى العذراء وإلى المسيحيين الفقراء Pauperes Christi الذين كانوا يدعون إلى مساعدتهم وكان ينشد صالحهم. وفى رأى جريجورى أن هذا الفقر الذى عانى منه المسيحيون لم يكن مسألة اقتصادية

أو طبقية أو هى مسألة اتخذت الطابع الاقتصادى أو الطبقى بمحض الصدفة . فهو يساند الفقراء ، والمستضعفين ، والمتواضعين ، والمضطهدين من أية طبقة أو طائفة ويقف إلى جانبهم روحيا ، وهو عدو للغنى ، المتكبر ، القوى أيا كان وأينما كان . وكراهيته لأقوى رجال أوربا ليست قائمة على أساس من الوعى الطبقى ، وإنما على أساس من التعاطف النفسى والعاطفى تجاه المستضعفين والعداء تجاه سادتهم ومضطهديهم . وهكذا كان مفهوم أوغسطين عن الفقر المسيحى محاولة شاذة بالنسبة للمجتمع الذى كان قائما على أساس طبقى فى القرن الحادى عشر . وفى الوقت نفسه ، فربما كانت كراهيته العنيفة لزعماء المجتمع المعاصر ، واهتمامه العاطفى الكبير بالمسيحيين الفقراء Pauperes Christi أعراضا هستيرية لجنون العظمة ودلائل على اضطرابه العصبى .

وأيا كانت جذور مفهوم جريجورى المتأجج بالعاطفة عن الفقر المسيحى ، فإنه بذلك يفتح مساراً هامًا فى فكر العصور الوسطى آنذاك ، وإذا ما استثنينا عظات سان أمبروز ، فإن النقد الاجتماعى والإنجيل المسيحى الاجتماعي لم يكن قد ظهر بعد فى حضارة العصور الوسطى . ولم يكن هذا متوقعا فى المجتمع الزراعى الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة ، التى كانت أشكال التعبير الأدبى فيها تساند طبقات ملاك الأرض . وحين ظهرت جماعات بورجوازية جديدة فى القرن الحادى عشر ، لا سيما فى شمال إيطاليا ، تأثرت بالتدين العاطفى الذى جعلها تتجه إلى تغيير هذا كله . وأيا كان قصد جريجورى من تأكيده على التفوق الروحى للفقراء المسيحيين ، فإن تعاليمه أدت إلى تشجيع الطبقات الطموحة المحرومة من الامتيازات فى المدن الأوربية . وحين توفر لسكان المدن الاتجاه الدينى الذى استوعب كافة أشكال الفكر فى القرن الحادى عشر إلي جانب النظرة الدينية ، عبر عصيانهم الاجتماعى عن نفسه فى مذاهب ألفية وأخروية . فقد كان المحرومون من الامتيازات هم الفقراء الذين يستحقون وراثة الأرض ، أو على الأقل يرثون منها قدراً أكبر كثيراً من ذلك القدر الذى كان ملاك الأراضى يسمحون لهم به . وهكذا وجد موقف جريجورى العاطفى من الفقراء المسيحيين تربة خصبة فى التمرد الاجتماعى والاتجاهات الألفية والأخروية التى تفشت فى المجتمعات الحضرية الجديدة .

والإنجيل نفسه يشجع المعنى المزدوج فى الفقر ، بمعنى نقص الثروة ، ونقص المتع الروحية على السواء . إذ أن المسيحيين الأوائل ، أعضاء كنيسة الحواريين ، تلاميذ المسيح الحقيقيين ، كانوا فقراء بكل معنى الكلمة ، روحيا وحرفيا . فهل كانت هذه علاقة ضرورية ؟ وهل كان من

الضرورى للمرء أن يحرم نفسه من المباهج الدنيوية حتى يحوز هذه الحال المثلى من فقر الروح ، أى هذا التواضع الذى هو من دلائل الرحمة المقدسة ؟ لقد قُيِّض لهذا السؤال أن يصير مشكلة مضنية معذبة لكنيسة العصور الوسطى العالية . وقد أدت حماسة جريجورى للفقر المسيحى إلى التشديد على أهمية هذه المشكلة فى فكر العصور الوسطى دون أن يطرح لها حلا .

أما آخر المصلحين الجريجوريين الأربعة ، فهو البابا باسكال الثانى Paschal II ، وهو الوحيد من الراديكاليين الجوريجوريين الذى تولى عرش البابوية بعد جريجورى السابع . وقد مضى بالنقاش شوطا أبعد من جريجورى ، وقدم الإجابة الحاسمة على الرغم من أنه لم يكن مقبولا من غالبية زعماء الكنيسة فى عصره . كان باسكال راهبا فى دير فوللا مبروسا Vol-lambrosa بالقرب من فلورنسا ، وكان هذا الدير واحداً من الأديرة التقشفية الإصلاحية . ثم دخل فى خدمة البابوية وتتلمذ على جريجورى السابع ، وظل كذلك حتى آخر أيامه . بعد أن كان المد الثورى العالى قد بدأ فى روما جريجوريا قويا عارما . وبعد أن خدم كمبعوث بابوى فى أسبانيا حيث جعله تعصب المسيحيين الأيبيريين المشتبكين فى حرب الاسترداد أكثر حماسة وتطهرية . وفى سنة ١٠٩٩ انتخب لاعتلاء العرش البابوى . وكانت السنوات التسع عشرة التى أمضاها على عرش البابوية تتسم بالاستمرارية العنيدة لمواصلة النضال ضد الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس ، والصراع ضد الملك الإنجليزى حول علاقات الكنيسة والدولة ، كما أنه فى هذه الأثناء أسبغ تأييده على مشروع طائش فاشل لحملة صليبية ضد بيزنطة . وفى سنة ١١١١ أذهل أوربا بإعلان التوصل إلى اتفاق مع الإمبراطور الألمانى لإنهاء الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية . ولكن عندما نشرت شروط معاهدة السلام ثار الكرادلة وغضبوا فأجبروه على نقض المعاهدة .

لقد كان حل باسكال الثانى للنزاع حول العلاقات بين الكنيسة والدولة بسيطًا وثوريًا فى آن واحد . فبما أن أصول النزاع تكمن فى مسألة الاختصاصات النسبية لكل من المملكة erg-num والكنيسة Sacerdotium فإنه اقترح على الإمبراطور أن يسلم الكنسيون الألمان للتاج الإمبراطورى كافة أملاكهم ومناصبهم العلمانية لكى يجعلوا من أنفسهم كنيسة روحانية تمامًا . وفى المقابل وعده هنرى الخامس بعدم التدخل فى شئون الأساقفة ومقدمى الأديرة الألمان ؛ وكان طبيعيًا أن يعد الإمبراطور المبتهج بأن يفعل هذا نظراً إلى ذلك القدر الهائل من الثروة العقارية والمناصب العامة التى قدمها له باسكال فى اقتراحه .

وقد فشل المؤرخون بشكل عام فى إدراك مغزى التنازل الذى قدمه باسكال . ولم يكن هذا تصرفا غير محسوب من رجل غريب الأطوار ، كما ظن البعض ، ولم يكن نتيجة سبب قهرى من جانب الإمبراطور كما ادعى البلاط البابوى فيما بعد وهو ينقض المعاهدة . فقد كانت معاهدة سنة ١١١١ متوافقة تمامًا مع موقف باسكال الأيديولوجى ، الذى كان بدوره نتاجا للجريجورية الثورية . وكما قطعت الجماعات الديرية التقشفية الجديدة على نفسها عهداً بالفقر تقليداً لكنيسة الحواريين ، كذلك تحرك باسكال ، الذى كان نتاجًا لهذه الحركة ، فى اتجاه فكر الفقر الحوارى للكنيسة كلها ، كما تحرك فى اتجاه مذهب يقول بكنيسة روحية تماما و « فقيرة» بكل معنى الكلمة . ويمكن القول بأن هذا كان تطوراً منطقيًا نابعًا من ترحيب جريجورى السابع بالفقر المسيحى .

ويظهر المذهب القائل بفقر الكنيسة مثل الحواريين لأول مرة فى سياسة آخر البابوات الجريجوريين . ولأن هذا المذهب قد لاقى الرفض من جانب بابوية العصور الوسطى العالية ، كما سبب الرعب والهلع لرجال الكنيسة الأثرياء فى غرب أوربا ، فقد وجد ترحيبا من الحركات الهرطقية الشعبية فى القرون ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . وفى أواخر القرن الثالث عشر اعتنقه الجناح الثورى من الفرنسسكان ، والذى كان يستمد تراثه الدينى من نفس حركة الزهد التى سرت فى شمال إيطاليا فى أواخر القرن الحادى عشر والتى كان باسكال الثانى من ثمارها . لقد أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة فى سنة ١٣٢٣ ، ولكن هذا المذهب ظل قائمًا فى الوجود على مدى عشرات من السنين بعد ذلك ليكون مصدراً للنزاع والفوضى فى الحياة الكنسية فى العصور الوسطى . وفى طيات الأفكار العالمية الغامضة التى طرحتها الحركات الهرطقية الشعبية فى العصور الوسطى العالية نجد مذهب الفقر الحوارى يرتبط تمامًا بالإنجيل الإجتماعى الألفى الذى نجد جذوراً له هو الآخر فى تعاليم جريجورى السابع .

وينبغى أن ننظر إلى نتائج الإصلاح الجوريجورى الفكرية باعتبارها نتائج غاية فى التعقيد وعدم التجانس ، لقد روج الجريجوريون للمذاهب التي سادت السلطة البابوية ، والتنظيم المركزى للكنيسة ، وسلطة المنصب الكنسى - كما أنهم قوضوها فى الوقت نفسه ، ذلك أن المذاهب القائلة بالسلطة المطلقة وعصمة البابوية ، وخضوع الملكية للكنيسة ، كلها مذاهب جريجورية . إلا أنه من تعاليم المصلحين الجريجوريين أيضًا نبعت تلك الأفكار التى لم تلبث أن لعبت دوراً هامًا فى تقويض النظام العالمى فى العصور الوسطى : أى الفردية الدينية ، والمذهب الدوناتى ، والإنجيل الاجتماعى الألفى ، ومذهب الفقر الرسولى للكنيسة .

ولم يكن الجريجوريون يحتكرون لأنفسهم ساحة النقاش العام . فعلى العكس كانت مناقشاتهم حول طبيعة النظام المسيحى العالمى تستدعى مختلف التعليقات ، والانتقادات ، والمقالات التى تعكس كل ظل من الرأى تقريبًا . ومن الأمور ذات الدلالة ، بالنسبة للمشاعر الجارفة التى أحياها الإصلاح الجريجورى ، وبالنسبة لازدياد حركة التعليم فى القرن الحادى عشر ، أن ماخلفته لنا تلك الفترة من مؤلفات حول علاقة الدولة والكنيسة تملأ مايزيد على مائتى ألف صفحة بمقاييس الطباعة الحديثة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول أنه فى سنة ١١٠٠ تقريبًا كان كل راهب فى غرب أوربا يؤلف كتيبًا عن الكنيسة والدولة .

ويمكن أن نأخذ فى اعتبارنا ثلاثة تعبيرات نمطية تدلنا على طبيعة الانتقادات التى وجهت ضد الجريجوريين . فبادئ ذى بدء كان ثمة موقف ناتج عن التركيز على تراث العصور الوسطى الباكرة حول الملكية الثيوقراطية ، مؤكدًا على أن الرب هو الذى عين الملك « وبفضل الرحمة الإلهية فهو بمثابة الرب » على حد تعبير القسيس الإنجليزى المجهول صاحب المقالات التى تحمل عنوان « المؤلف المجهول من يورك » فى سنة ١١٠٤ . وثانيًا كان هناك الموقف الكلونى المحافظ الذى تمثل فى « مقال فى السلطة الملكية والكنيسة » الذى كتبه هوف راهب فليرى Hugh de Fleury وفليرى هو الدير الفرنسى الملكى المتحالف مع دير كلونى . ويشن هوف هجومًا مباشرًا على أفكار جوريجورى حول الخاصية الأخلاقية للملكية ، ويخلص إلى أن الملكية يجب أن تستمر فى تفوقها وسموها على الكنيسة فى سبيل إقامة نظام صحيح فى المجتمع . أما الموقف الأخير فهو من أهم المواقف وأكثرها إثارة فى تلك الفترة ، ذلك هو موقف القانونى الكنسى الكبير ايفو Ivo أسقف شارتر Chartres . فقد عبر هذا العالم الحكيم النابه عن شكوكه فى أن النظام العالمى السائد يتناقض حقًا مع القانون الكنسى ومتطلبات عقيدة الكنيسة . وقال أنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن القيمة الأخلاقية للعادة الاجتماعية يجب أن تعلو حتى فوق ضرورات القانون الكنسى واللاهوت المكتوبة . فبما أن النظام السائد يحظى بمثل هذا التأييد الواسع من جانب العلمانيين ، بل ومن جانب رجال الكنيسة ، فإنه تستحيل إزالته دون حدوث صدع وانشقاق فى المجتمع . وقد خلص ايفو إلى أنه من الأفضل للاصلاحيين أن يقنعوا بالاعتراض المتحفظ وأن يأملوا فى حدوث إصلاح بطئ. وعلى أية حال فإن المنظرين للبابوية الجريجورية لم يكن لديهم أى استعداد للاستماع إلى الآراء المعتدلة الى كان ايفو اسقف شارتر ينادى بها ، كما أنهم كانوا يرفضون الاستماع إلى وجهات

نظر من يمثلون ردود الفعل الملكية ، أو الاحتجاجات المريرة التى جهر بها الكلونيون المحافظون.

كان كثيرون من رجال الكنيسة المعاصرين ، ممن امتازوا بالإخلاص والتفانى ، لايرون فى الجوريجوريين خطأ مذهبيًا كبيراً ، وإنما رأوا فيهم قومًا متهورين ، ساذجين ، محدودى الأفق . وفى البلاد التى كانت الملكية فيها قوية مثل إنجلترا النورمانية ، والإمبراطورية الألمانية ، كان كبار رجال الكنيسة يحترمون الملكية ، كما ظل المتعلمون منهم يخدمون الملكية كمستشارين ووزراء . أما الجريجوريون ، فإنهم على النقيض من أمثال هؤلاء الكنسيين ، كانوا بالفعل ساذجين وضيقى الأفق . وكلهم تقريبًا وفدوا من اللورين وشمال إيطاليا حيث كانت السلطة الملكية ضعيفة وغير منظمة ، وحيث لم يكن بوسع أحد من الرهبان أن يحترم الملكية . كذلك لم تتح الفرصة لأى منهم للعمل فى بلاط ملكى أو أن يتعرف على شخصية مثل هنرى الثالث أو وليم الفاتح ، أو أن يرى من الداخل تلك المشكلات الضخمة التى كانت تواجه الحكومة فى القرن الحادى عشر . وبالنسبة للجريجوريين كانت الملكية فكرة يجب دراستها عند أوغسطين أو جيلاسيوس ؛ فهى بالنسبة لهم لم تكن حقيقة فظة من حقائق الحياة اليومية ، كما أنها لم تكن فكرة جيدة (كما كانت بالنسبة لكبار الاكليروس فى إنجلترا وألمانيا) . لقد كان الجريجوريون متعلمين ، ومخلصين ، وشجعان ، بل وكانوا رجالا يتألقون فى سماء الفكر ، ولكنهم كانوا يفتقرون كثيراً إلى الحكمة والاعتدال اللذين توفرهما سنوات التقارب مع الملكية والسلطة - وهى نوع من الحكمة لم يكن ممكنًا أن تتوفر لهم بقراءة الكتب فى أدب آباء الكنيسة ، أو مجموعات القانون الكنسى ، أو بالإخلاص فى الحياة الديرية ، أو حتى بمتابعة المصادر الفكرية الثرية لحركة التدين والجدل الجديد .

٣ - النزاع الألمانى حول التقليد العلمانى :

فى سنة ١٠٧٥ كان الإمبراطور الألمانى هو أقوى حاكم فى أوربا ، أو على الأقل فى مناطق شرق نورماندى . ومع هذا فإن « الشيطان المقدس » ، جريجورى السابع ، الذى كان قد انطلق فى سبيل تطبيق برنامجه عن العدالة والحرية ، لم يتورع عن أن يطلب من الملك الألمانى فوراً أن يوقف نظام التقليد العلمانى الذى كان يتيح له فرصة التحكم فى تعيين كبار رجال الكنيسة فى مملكته ، وهدد البابا بخلع الإمبراطور إذا لم يتمثل للمرسوم الذى أصدره . وكان هجوم جريجورى على الأسس التنظيمية للسلطة الإمبراطورية فى وقت حرج بالنسبة

للإمبراطورية : فقد عجل بنشوب صراع امتد على مدى خمسين سنة ، وهو صراع يرى المؤرخون الألمان أنه حسم مصير ألمانيا .

كان هنرى الرابع قد اعتلى عرش الإمبراطورية عقب وفاة أبيه الباكرة فى سنة ١٠٥٦ . فقد كانت السياسة المركزية العدوانية التى انتهجها هنرى الثالث قد أخافت النبلاء الألمان . وبذلك صمموا على انتهاز فرصة النكسة التى حلت بالبيت الإمبراطورى لكى يحدوا من حجم سلطة التاج ، إذ سار هنرى على الخطوط التى كان أباطرة أسرة أوتو قد أرسوها فى القرن العاشر . فإنه بنى سلطته على أساس التحكم فى موارد الكنيسة والسيطرة على رجالها ، استناداً إلى مذهب الملكية الثيوقراطية والتقليد العلمانى ، ونظام الكنائس الامتلاكية ، والوصاية على الأديرة الكبرى فى مملكته . كذلك أفاد هنرى الثالث من نظام الفرسان - الأقنان mini-steriales لكى يقيم الحاميات فى الحصون الكثيرة التى بناها فى شتى أنحاء المملكة ولا سيما فى دوقية سكسونيا الشمالية ، التى واصل نبلاؤها وفلاحوها إظهار ميولهم الانفصالية القوية . ويبدو أنه كان فى نية هنرى أن يضم الدوقية السكسونية المشاكسة إلى أملاك التاج ، ويضيف هذا الإقليم إلى دوقية فرنكونيا لتكون أملاكًا شاسعة للتاج . وكان تحقيق هذه السياسة هو الذى سيضع الملكية الألمانية فى موقف الهيمنة والسيطرة على النبلاء الألمان ، وهو ما يعتبر أساسًا لبناء السلطة الملكية فى ألمانيا ، وهو ما كان أوتو الأول قد بدأه فى منتصف القرن العاشر .

وصمم النبلاء الألمان بقيادة السكسون المشاغبين ، على الإفادة من الموت المفاجئ للإمبراطور العظيم هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ ووجود قاصر على العرش . وتمثلت النتيجة فى سنوات تسع من العصيان والحرب الأهلية فى ألمانيا ، وفى خلال هذه السنوات التسع كشفت الدوقيات عن الاتجاهات والميول الانفصالية التقليدية . ولكن الكنيسة الألمانية ، حتى فى سكسونيا ، ظلت على ولائها للملكية وحفظت العرش للشاب هنرى الرابع . وهكذا تأكد من جديد ذلك التحالف الحكيم الذى كان أوتو الأول قد عقده مع الكنيسة الألمانية .

وحين صار هنرى الرابع ملكًا بالفعل سنة ١٠٦٥ تصدى للاتجاهات الانفصالية فوراً ، وانطلق فى سبيل إتمام العمل الذى كان أبوه قد بدأه . وربما كان هنرى أقدر حكام ألمانيا فى العصور الوسطى وأكثرهم حكمة . فلاشك فى أن أحداً غيره من الملوك لم يظهر هذا القدر من الحيوية الماكرة ، والعزم الذى لايلين على تطوير السلطة الملكية . كان هنرى يعتقد أن دوقية

سكسونيا هى مفتاح المشكلة ، وهناك واصل سياسة أبيه فى بناء القلاع ، كما انتهج سياسة لاتكتفى بتجريد النبلاء من امتيازات الحكم الذاتى التى كانوا يتمتعون بها ، وإنما تهدف أيضًا إلى تحويل جماهير الفلاحين الأحرار إلى أقنان يعملون فى الضياع التى تعتمد بشكل كلى على التاج . وكانت النتيجة الحتمية لذلك نشوب عصيان كبير آخر فى ألمانيا ، لقى فيه النبلاء والفلاحون الثائرون العون من كافة الارستقراطيين المنشقين فى سائر أنحاء المملكة ، بل ومن بعض الأساقفة الغاضبين أيضا . وعلى أية حال ، لم يكن الصراع متكافئا ، لأن الغالبية الساحقة من الأساقفة كانت تقف إلى جانب الملك ، ومعهم الفرسان - الأقنان الملكيون ، وكثيرون من صغار النبلاء فضلا عن الأديرة الغنية الخاضعة للسلطة الملكية ، والطبقات الجديدة فى مدن الراين . وبحلول سنة ١٠٧٥ كان هنرى الرابع قد حقق نصراً مؤزراً كاملاً . فقد تم إخضاع قادة الأرستقراطيين الثائرين ، كما خسر الفلاحون الساكسون أعداداً كبيرة من القتلى فى ساحة المعارك وانتابهم إحساس بأن النبلاء قد خانوهم . وبدا الطريق آنذاك مفتوحًا لبناء دولة موحدة وقوية فى ألمانيا ، تماثل درجة السلطة المركزية فى الأراضى الخاضعة لحكم دوق نورماندى ، وتعتبر إرهاصًا للملكية الألمانية في القرن الثالث عشر .

عند هذه النقطة الحركة تلقى الملك الألمانى المرسوم البابوى ضد التقليد العلمانى مع التهديد بعزله إذا لم يظهر الطاعة فوراً . ولم يكن هنرى بغافل عن التغير الكبير الذى كان يجرى فى روما . فخلال الفترة التى كان فيها تحت الوصاية جرده المرسوم الانتخابى البابوى من حق التحكم فى الانتخابات البابوية ، وهو الحق الذى كان أسلافه يتمتعون به على مدى قرن من الزمان . ولكنه إذ كان مشغولاً بالمشكلات الداخلية الضاغطة ، ترك الأمور فى إيطاليا تأخذ مجراها على الأقل حتى يتمكن أن يوليها كامل اهتمامه . ويبدو أن موقف هنرى الطبيعى من روما كان موقفًا حذراً معتدلا ، وربما لم يكن ليتدخل فى الاستقلال الجديد الذى نعمت به البابوية لو تركته وشأنه . ولكن السياسة العداونية التى انتهجها جريجورى السابع منذ بداية بابويته جعلت من المستحيل على هنرى أن يتجنب خوض الصراع ضد روما . هذا النزاع الأول بين البابا والإمبراطور كان مسألة بسيطة نسبيًا ، بيد أنه كان بادرة لصراع أعمق كامن تحت السطح . فبعد أن ارتقى هيلدبراند عرش البابوية بقليل ، صار كرسى أسقفية مدينة ميلانو شاغراً ، وأخذ كل من هنرى وجريجورى يناور ليضمن فوز مرشحه . واعتبر جريجورى هذا دليلاً على أن الملك الألمانى لم يتخل عن مزاعمه فى السيطرة على شئون إيطاليا ، وربما كان

هذا هو السبب الذى دفع جريجورى إلى تصعيد هجومه على الأسس التنظيمية للسلطة الإمبراطورية - أى تحالفها مع الكنيسة الألمانية - فوجه إنذاراً بابويًا نهائيًا سنة ١٠٧٥ . ولأن هنرى كان منتشيا بانتصاره الكبير على النبلاء ، فقد قرر أن ينتهج أقوى سياسة ممكنة فى التصدي لمطالب جريجورى ، ووجد تأييداً حماسيًا لسياسته بين رجال الكنيسة الألمان . ذلك أنهم كانوا منذ زمن طويل قد تنبهوا أكثر من الملك للنهج الثورى الذى انتهجته البابوية فى عهد هيلدبراند ، ولم تكن بهم أدنى رغبة فى التخلى عن نظام العلاقات السائد بين الكنيسة والدولة فى ألمانيا .

ومن ثم أعد العلماء الكنسيون فى البلاط خطابا لكى يرسل فى سنة ١٠٧٦ باسم الملك إلى روما رداً على المرسوم البابوى ضد التقليد العلمانى ، وهذا الخطاب يلعن « **هيلدبراند الذى لم يعد بابا حاليا ، وإنما راهب مزيف** » بأقسى مايمكن من الألفاظ . كان خطاب هنرى واحداً من أبرز الأمثلة على البلاغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، وهو يعكس درجة تعليم المجلس الملكى ومهارة أعضائه الأدبية ، ولكنه لم يكن أكثر من دفاع عن النظام العالمى السائد ، وإعلان الحرب على البابا الذى نادى بتقويض هذا النظام الخير . فقد قال هنرى للبابا جريجورى أن أداءه لوظيفته البابوية قد جلب الفوضى والفساد على الكنيسة بالدرجة التى جعلته يجرؤ على أن يعصى السلطة الملكية التى تلقاها هنرى من الرب ، وأنه تجرأ على أن يهدد بخلع هنرى من مملكته التى عينه الرب على عرشها . وزعم أن جريجورى قد اغتصب العرش الرسولى ، فقد مارس العنف تحت ستار الدين مخالفا بذلك تعاليم القديس بطرس . وخلص إلى أن جريجورى مأمور من هنرى ، الملك بفضل الرب ، ومن سائر أساقفة الإمبراطورية بأن ينزل عن عرش القديس بطرس . وبعض النسخ تضيف اللعنة الأبدية على البابا .

لقد كان خطاب هنرى الرابع جريجورى السابع صرخة يائسة من جانب ملكية العصور الوسطى لتبرير كيانها ، وهى الملكية التى وصلت إلى ذروتها على يد الأسرة السالية فى عصر هنرى الثالث وابنه . ولكن يبدو أن جريجورى السابع كان يتوقع مثل هذه الإجابة ، فلم يخش الجيش الإمبراطورى ، لأن البابوية كانت قد وجدت فى السنوات العشرين السابقة حلفاء أقوياء لها فى بريطانيا يوازنون القوة ضد الملك الألمانى الكبير - هؤلاء هم الحكام النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . لقد اتخذت البابوية فى بداية الأمر موقفا عدائيا من الغزو النورمانى لمناطق الجنوب الإيطالى ، ولكن مع نهاية خمسينيات القرن الحادى عشر كان البلاط البابوى قد

أدرك أن النورمان يمكن أن يستخدموا كقوة في مواجهة النبلاء الرومان المشاغبين ، ثم ضد الإمبراطور الألماني الذي كانت مزاعمه حول السلطة على إيطاليا تلقى معارضة النورمان والبابوية على السواء . وكان الحكام النورمان - الإيطاليون يحتاجون بدورهم إلى الموافقة البابوية لكي تضفي على حكمهم سمة من الشرعية في إمارات الجنوب الإيطالي التي كان يحكمها من قبل خليط من الأمراء المسلمين ، والبيزنطيين ، واللاتين . وكان من بواعث سرور البابوية أن تمنح اعترافها للحكام النورمان في سبيل تدعيم التحالف معهم لأن جيوشهم كانت تمثل الدعم العسكري الضروري الذي كانت البابوية تحتاج إليه . وبالإضافة إلى هذا التأييد الجنوبي كان بوسع جريجوري أن ينتظر المساعدة من الشمال من ماتيلدا Matilda كونتيسة توسكانيا الثرية القوية ، وكانت أرملة ترتبط مع جريجوري نفسه بعلاقة صداقة . وتعتبر ماتيلدا أول مثل لطراز السيدة الأرستقراطية المستقلة ذات السلطة والمكانة الكبيرة ، وقد قيض لمثل هذا الطراز من السيدات أن تلعبن دور هامًا في السياسة والمجتمع في العصور الوسطى العالية . وعلى الرغم من أن ماتيلدا كانت تمت بصلة قرابة بعيدة للإمبراطور الألماني، فإن جريجوري كان يشعر أنه يستطيع الاعتماد عليها في حمايته من غضب هنري الرابع إذا ماجاءت المناسبة .

ولما كان جريجوري يتصرف بسرعة وتصميم واضح ، فقد بادر بخلع هنري فور تسلمه لخطابه المتمرد المهين ، وأرسل العملاء البابويين إلى ألمانيا لكي يحولوا رماد العصيان الذي لم يكد ينطفئ إلى نار جديدة للحرب الأهلية ، وبهذا وجدت كل العناصر المناوئة في ألمانيا ذريعة لم يسبق لها مثيل لمهاجمة الملكية ، وهكذا اكتسب العصيان ، الذي ثار لأسباب ذاتية ، مسحة مقدسة . ويبدو على أية حال أنه كان بمقدور هنري الرابع أن يصمد لهذه العاصفة لو لم يكن جريجوري السابع قد اتخذ حيطته لمنع استمرار التأييد التقليدي من جانب كبار الكنسيين الألمان للتاج .

فقد علم الأساقفة ومقدمو الأديرة عن طريق العملاء البابويين ومن خلال الخطابات التي وصلتهم من روما مباشرة أنه لم يعد ثمة مايدعوهم إلى الاعتراف بهنري الرابع ملكا عليهم بعد أن صدر ضده قرار حرمان . وكان الحرمان مايزال سلاحًا قويًا للغاية في الترسانة الروحية للبابوية ؛ إذ كانت أوربا ماتزال بعيدة عن تدهور هذا السلاح بسبب كثرة استخدامه . فضلاً عن أنه كان هناك احتمال حقيقي بأن ينتصر جريجوري في صراعه ضد الملك الألماني ، وقد

تردد رجال الكنيسة في ألمانيا بدافع الخوف على أمنهم الشخصي ، في أن يغامروا بوظائفهم ومكانتهم إذا ماوافقوا صراحة إلى جانب هنري الرابع . وهكذا تمثل الأثر المباشر للمرسوم البابوي بخلع الإمبراطور في الانهيار المروع للسلطة الملكية . ولأن ثلثي الجنود على الأقل في جيش هنري كانوا يجندون من أراضي الكنيسة ، فإنه فقد الجزء الأكبر من قوته العسكرية دونما ضربة واحدة . وبنهاية سنة ١٠٧٦ وجد الملك نفسه يكاد يكون معزولا ، لأن رجال الكنيسة الذين تملكهم الخوف والوجل سحبوا تأييدهم للبيت السالي . وابتهج النبلاء لهذا الانقلاب غير المتوقع في حظهم ، فأعادوا إحياء المبدأ الانتخابي القديم في الملكية الألمانية استجابة لاقتراح من البابا ، وبدأوا بالفعل في عملية انتخاب ملك جديد من خارج الأسرة السالية .

واستطاع الموظفون الكنسيون العاملون في البلاط أن يقنعوا الملك أن المخرج الوحيد هو أن يستسلم لجريجوري ويحصل على العفو البابوي عن أفعاله الخاطئة حتى يمكنه أن ينقذ عرشه . فعقد العزم على أن يسافر إلى إيطاليا بنفسه لكي يطلب الغفران من البابا . وكان من الضروري لهنري أن يفعل هذا على وجه السرعة ، لأن جريجوري كان قد أعلن عن نيته بالذهاب إلى ألمانيا لكي يرأس مجلس النبلاء الألمان الذي سيجرد هنري من عرشه رسميا ويختار ملكًا جديداً .

وثمة مؤرخ ألماني معاصر من الرهبان الموالين للملك أمدنا برواية ربما يغلفها الخيال تحكي كيف أن هنري الرابع اليائس قد اندفع جنوبا ، وليس بصحبته سوى مجموعة من الخدم ، في أرض تغص بالأعداء . وفي هذا الوقت ، كان جريجوري مسافراً بطريقة أكثر تأنيا واحتفالا بالمظاهر ، في طريقه من روما إلى ألمانيا قبل أن يطلب الملك مقابلته . وقد كسب هنري هذا السباق الميلودرامي الذي شد انتباه أوربا بأسرها . فقد لقي البابا عند قلعة كانوسا Canossa التي كانت من أملاك ماتيلدا كونتيسة توسكانيا في إيطاليا ، وحيث كان جريجوري قد حل ضيفا على الكونتيسة .

وتشكل الحوادث التي جرت في كانوسا شتاء سنة ١٠٧٧ واحداً من أكبر المواقف الدرامية في التاريخ الأوربي . إذ يضيف لنا المؤرخ الملكي المعاصر ، بقدر من المبالغة المحمودة ، كيف وقف هنري في الجليد أياما ثلاثة حتى أعلن البابا في النهاية عن استعداده لمقابلته ، وقبول توسلاته التائبة بالعفو والغفران . والواقع أن الحوادث التي جرت في كانوسا لم تكن دراما عالمية فقط ، ولكنها كانت أيضا مواجهة سياسية عصيبة كانت لها نتائجها الكبيرة على

التطورات التالية فى النزاع حول التقليد العلمانى مع ألمانيا ، كما كان كل من الإمبراطور والبابا يعلم عن يقين . فقد كان هنرى فى حاجة إلى الغفران البابوى لكى يحتفظ بعرشه ، ولم يكن جريجورى على استعداد لتقديم هذه المنحة فى اللحظة التى شهدت انهيار سلطة هنرى ، وحين كان البابا فى طريقه لحضور الاجتماع الذى سيجرى فيه انتخاب ملك ألماني جديد توافق عليه البابوية . وبحكم تقاليد الكنيسة وقانونها ، على أية حال ، لم يكن باستطاعة أى قسيس ، ناهيك عن أن يكون هو نائب المسيح على الأرض ، أن يرفض توبة مخطئ صادق التوبة ومعترف بخطيئته . وقد راود الشك جريجورى كثيراً ، وله عذره فى ذلك ، حول مدى صدق توبة هنرى ، بيد أنه كان من الصعب عليه أن يعلن ذلك على الملأ بسبب ما أبداه هنرى علانية من التوبة وعذاب الضمير . وبالتالى ، ظل البابا يتجاهل طلب الإمبراطور بمقابلته ثلاثة أيام . ثم تدخلت ماتيلدا كونتيسة توسكانيا لصالح قريبها ؛ ذلك أنه لم يكن هناك حاكم أو سيد كبير ، خارج ألمانيا على الأقل ، يستمتع بمشاهدة استمرار التحقير لواحد من أكبر ملوك العالم المسيحى .

وربما حتى وساطة ماتيلدا لم تكن لتحرك جريجورى فى لحظة انتصاره ، فقد كان ظهور هوف رئيس دير كلونى فى كانوسا فى وقت غير مناسب لجريجورى ، وتدخله الدائب لصالح الإمبراطور هو فقط الذى أرغم جريجورى على الاستجابة . إذ أن هوف كان هو رجل الكنيسة الذى يحظى بأكبر قدر من الاحترام والحب فى زمانه ، وكان هو وهيلدبراند يكرهان بعضهما على الدوام ، فضلا عن أن وجهة النظر العالمية الجريجورية كانت تصطدم بشدة مع وجهة النظر العالمية الكلونية . ولكن جريجورى لم يكن ليجرؤ على تجاهل نصيحة رئيس الدير المبجل المقدس . ولو فعل جريجورى هذا لعرض مركزه فى أوربا للخطر إذ أنه كان يدرك تماما أن رؤوس أوربا المتوجة تتطلع فى هلع إلى الأحداث الجديدة التى تجرى فى كانوسا . كما كان يعلم أن المعارضة النشطة من جانب الراهب الكلونى المعمر تكفى لتحويل الرأى العام ضده ومؤازرة ملوك وحكام أوربا الآخرين للملكية السالية المقهورة . وعليه فقد سمح جريجورى فى نهاية الأمر بمقابلة هنرى ، واستمع إلى اعترافه ، ومنحه الغفران ، ثم جعله يقطع على نفسه عهداً بإطاعة المراسيم البابوية وأعاده إلى عرشه .

كان رأى البابا ، والنبلاء الألمان الخائبين ، أنه لم تعد هناك حاجة لانتخاب ملك جديد . فقد تخلى البابا عن رحلته عبر جبال الألب ، وأرسل خطابا تفوح منه رائحة النصر إلى النبلاء الألمان يخبرهم بالأحداث التى جرت فى كانوسا والسلام الذى عقده مع الملك التائب الذى أقسم

أن يكون خادما مخلصا للبابوية . فقد أنقذ عرشه وسنح له الوقت لإعادة بناء سلطته . ومن غير المحتمل أنه كان ينوى الحفاظ على القسم الذى أقسمه فى كانوسا ، ففى خلال سنة واحدة كشف عن نواياه فخلعه البابا عن عرشه مرة أخرى . بيد أن هنرى لم يرجع أبداً إلى الموقف اليائس الذى وجد نفسه فيه عند نهاية سنة ١٠٧٦ ، والحقيقة أنه فى خلال السنوات الخمسين لتى استغرقها النزاع حول التقليد العلمانى ، لم يحدث أبداً أن أقتربت البابوية من نصرها النهائى مثلما حدث فى صبيحة ذلك اليوم الذى شن فيه جريجورى السابع هجومه الأول على الملكية الألمانية . فبعد كانوسا أعاد بعض رجال الكنيسة الألمان التفكير فى مواقفهم ثم عادوا إلى الوقوف فى صف البيت السالى . وعلى سبيل المثال ، تولى رئيس دير ڤولدا الكبير ، الذى أسسه سان بونيفاس ، رئاسة المجلس القضائى الملكى فى السنوات الأخيرة من عهد هنرى الرابع . واستطاع الملك الألمانى أن يستعيد مركزه فى الحرب الطويلة المريرة ضد النبلاء الألمان بفضل مساعدة بعض رجال الكنيسة والأقنان الملكيين فضلا عن الجيوش التى تم تجهيزها من الأراضى المملوكة للتاج . وفى سنة ١٠٨٥ كان هنرى قويا بالقدر الذى يكفى للانتقام ، فطرد البابا من روما ليعيش لاجئا بين حلفائه النورمان فى جنوب إيطاليا حتى موته . واتسمت السنوات الأخيرة من حياة هنرى الرابع بالمرارة الناجمة عن عصيان ابنه الذى انضم إلى النبلاء الألمان ضده ، بيد أن هذه كانت مسألة عائلية وشخصية فى المقام الأول . لأن هنرى الخامس واصل الحرب ضد البابوية وحلفائها فى ألمانيا فور ارتقائه العرش الألمانى سنة ١١٠٦ .

وقد ناقش كثيرون ممن عاصروا هذه الأحداث ، ومن الكتاب المحدثين على السواء ، مسألة من هو الذى ربح أكثر من مواجهة كانوسا الدرامية ، البابا أم الإمبراطور ؟ كان واضحا أن كلا من الفريقين قد ربح شيئًا وخسر شيئًا آخر ، وأن أيا منهما لم يحقق النصر الكامل . لقد أعادت كانوسا التاج الألمانى إلى هنرى ، ولكن بالنظر لخضوعه المهين أمام البابا ، تكون كانوسا قد وجهت ضربة قاضية إلى أيديولوجية الملكية الثيوقراطية التى كانت الأسرة السالية تعول عليها كثيراً . فضلا عن أن هنرى ، وقد أجبر على طلب الغفران البابوى ، قد دعم المزاعم الجريجورية حول حق البابوية فى محاكمة وعزل أكبر الحكام فى أوربا . ومن المؤكد أن جريجورى قد تسبب فى التهليل بأن السلطة الأخلاقية للبابوية قد تبدت واضحة حين تم إجبار أعظم حكام الغرب على أن يركع تائبا عند قدمى البابا . لقد كانت كانوسا تعنى أن أسقف روما ، الذى ظل يلعب دوراً هاما فى شئون أوربا السياسية على مدى قرنين من الزمان ، قد صار فى ذلك الحين شخصًا محوريا تدور حوله شئون الدول الأوربية .

وعلى أية حال ، فإن انتصار جريجورى لم يكن مطلقا . ذلك أن كانوسا أظهرت بذور الشك حول مقاصد البابا ومستواها الأخلاقى ، وهى البذور التى نمت سريعًا فى القرن التالى . فقد اتخذ ملوك أوربا حيطتهم كما أجبروا مرغمين على أن يعيدوا النظر مليا فى علاقتهم بالكنيسة . كما أن كانوسا قضت على التوازن الدولى الذى عرفته أوربا القرن الحادى عشر . بل إن رجال الكنيسة المخلصين الواعين تساءلوا آنذاك عن السبب الذى يجعل حاكما مخلصا وقديراً مثل هنرى يقف مثل هذا الموقف المهين . وفى مناقشة ماجرى فى كانوسا ، بعد ذلك بمائة سنة ، رفض المؤرخ أوتو الفريزى ، الذى كان أسقفا ملكيا ، أن يقرر أن أحد الجانبين كان على خطأ أو على صواب بشكل مطلق . فقد أحس بأن جريجورى قد تطرف فى خصومته ، وتشكك فى فطنة هذا البابا وذكائه ، ومن ثم تشكك فى أن يكون حسن النية . وهكذا كان لاستعراض القوة البابوية فى كانوسا تأثير معقد وبعيد المدى على الوعى الأخلاقى فى مجتمع العصور الوسطى ، فقد كان مؤشراً على نهضة الزعامة البابوية فى أوربا ، كما أنه فى الوقت نفسه حرك سلسلة طويلة من المنازعات والتناقضات التى انتهت بعد قرنين وربع فى مدينة إيطالية أخرى صغيرة بالقضاء على بابوية العصور الوسطى .

وبعد كانوسا ظل جريجورى وهنرى يتحاربان بكراهية مقيتة ، واستخدما كافة الموارد المعنوية والمادية التى استطاعا تعبئتها . فقد أعلن البابا مرة أخرى عزل الإمبراطور ، وانضم إلى الأمراء المتمردين لتنصيب إمبراطور غيره . وبالمثل وجد هنرى أسقفا من شمال إيطاليا على استعداد للمغامرة باعتلاء العرش البابوى بدلا من جريجورى . هذه المناورات كان لها تأثير ضئيل ، وربما لم يكن لها تأثير على الإطلاق ، فقد طال أمد الصراع حول التقليد العلمانى . وبعد موت جريجورى سنة ١٠٨٥ ، وفى بابوية الراهب الكلونى الإصلاحى إربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) خاصة ، بدأ عزم البابوية يخور . وبينما أكد إربان ولاءه لسياسة جريجورى رسميا ، أخذ يبحث عن مخرج من حرب الإنهاك التى تورطت فيها البابوية . وحاول أن يوحد أوربا خلف البابا من خلال الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى . وقد اتضح أن إربان قد تخلى عن أيديولوجية جريجورى حين منح الحكام النورمان فى انجلترا وجنوب إيطاليا حق السيادة على الكنائس الموجودة فى أراضيهم ، وهى نفس السيادة التى كان إربان قد أدانها فى ألمانيا . ولكن إنهاء الصراع مع ألمانيا حول التقليد العلمانى كان قد بات أمراً بالغ الصعوبة ، لأنه كان يتطلب انقاذ ماء وجه كل من الطرفين . ولم يكن بوسع إربان أن يجد

مخرجا من هذا الطريق المسدود . ولاحاجة بنا إلى القول بأن أحداً ممن كانوا يؤيدون الإمبراطور الألمانى لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى .

وقام باسكال الثانى ، خليفة إربان ، بتجديد الصراع ، ولكن بعد عشر سنوات كان هذا الجريجورى العنيد يرغب فى أن يوقف هذا الصراع الذى بدا وكأنه بلا نهاية . وابتهج هنرى الخامس بالحل الجذرى الذى اقترحه ، ولكن أحداً سواه لم يوافق عليه كما رأينا . وفى أخريات العقد الثانى من القرن الثانى عشر كان جيل جديد من الكرادلة يسيطر على الحكومة البابوية. وقد حكمت تجاربهم القانونية والإدارية بأن تكون نظرتهم للعالم معبرة عن وجهة نظر البيروقراطيين الحذرين وليس عن وجهة نظر المفكرين الجسورين . لقد بدت سياسة جريجورى المتطرفة أمراً خطيراً لاموجب له فى نظر أولئك الرجال الجدد . فقد رأوا أن السلطة البابوية يمكن أن تتدعم من خلال الوسائل التنظيمية للمركزية الكنسية فى مجال القانون والإدارة ، بدلا من خوض حرب يائسة ضد حكام أوربا . وكان الزعماء الجدد فى روما يوافقون بشكل عام على أهداف جريجورى النهائية ، ولكنهم لم يكونوا يميلون إلى استخدام نفس أساليبه . كان ما يريدون الحفاظ عليه فى برنامج جريجورى هى الإصلاحات التنظيمية التى كان قد بدأها ؛ أى زيادة حجم الأداة البيروقراطية فى البلاط البابوى ، وإرسال القصاد الرسوليين ، أو السفراء البابويين ، إلى شتى أنحاء أوربا ، وتأسيس المحكمة الرومانية لتكون هى أعلى ساحة قضائية للكنيسة . لكنهم كانوا على استعداد للتأنى فى تحقيق هذه الغايات وأن يتصالحوا مع ملوك غرب أوربا إذا اقتضت الضرورة ، وأن يساوموا بصلابة وباستمرار من أجل الحصول على تنازلات محدودة بدلا من المخاطرة بالدخول فى صراع أساسى . كانت هذه الروح الاعتدالية البيروقراطية القانونية هى التى ميزت بابوية القرن الثانى عشر عن الثورة الجريجورية . فقد حلت سياسة « المرحلية » محل سياسة « الشمولية » .

لقد كان الجيل الجديد من الكرادلة يعتبرون النزاع مع الملوك بسبب التقليد العلمانى عقبة تخلفت عن عصر آخر فى طريقه إلى الزوال ، وكانوا على استعداد لتقديم تنازلات بعيدة المدى فى سبيل التوصل إلى اتفاق مع هنرى الخامس . ومن ثم أعيد المبدأ الذى كان أساسا لإنهاء النزاع مع الإنجليز حول التقليد العلمانى والذى استمر فترة قصيرة من سنة ١١٠٣ إلى سنة ١١٠٧ ، والذى وضعه كاليكستوس Calixtus II وهنرى الخامس ضمن اتفاقية وورمس سنة ١٠٢٢ ، فقد تخلى الإمبراطور الألمانى عن التقليد العلمانى وكل ما يرتبط به من مذهب

الملكية الثيوقراطية . واحتفظ بحقه فى أن يطلب ولاء الأساقفة ومقدمى الأديرة فى مملكته قبل ترسيمهم فى مناصبهم . وهكذا منحت البابوية للإمبراطور الألمانى حق الاعتراض Veto علي تعيين رجال الكنيسة الألمان ، وهو ماكان يعنى أنه ظل صاحب الصوت الحاسم فى اختيارهم .

كان هذا الاتفاق قد أتاح للملك الإنجليزى أن يواصل سيطرته الفعلية على الشئون الكنسية فى مملكته . ولكن تأثير اتفاقية ورمس ، لم يكن بأية حال عودة إلى حالة ماقبل الحرب Status Quo ante bellum ، لأن نصف القرن الذى شهد النزاع حول التقليد العلمانى قد سبب تغيرات بعيدة المدى فى البناء السياسى والاجتماعى الألمانى بحيث لم يعد الإمبراطور قادراً على أن يستفيد بشكل كامل من التنازلات البابوية . ففى أجزاء كثيرة من الإمبراطورية كان الدوقات الكبار قد حققوا لأنفسهم سيادة شبه كاملة على أقاليمهم . وكانوا هم ، وليس الإمبراطور ، الذين أفادوا من نصوص الإتفاقية التى تتيح لهم التحكم فى التعيينات الكنسية فى دوقياتهم . وفى أجزاء أخرى من ألمانيا ، ولاسيما فى أراضى الراين ، كان كبار الأساقفة أنفسهم قد صاروا أمراء أقليميين ولم يعد باستطاعة الإمبراطور أن يتحكم فيهم . وهكذا ، فإن اتفاقية ورمس فى الواقع قد منحت هنرى الخامس وخلفاءه حق التحكم فى تعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى الأراضى التى تملكها عائلاتهم فقط .

هذا التدهور المدمر فى سيادة التاج الألمانى التقليدية على أمور الكنيسة ورجالاتها كان مصحوبًا بخسائر أخرى لحقت بالملكية فى اتجاهات أخرى . فقد أثبت كثيرون من الفرسان - الأقنان Ministeriales ، الذين كانت الملكية الألمانية تعتمد عليهم كثيراً فى القرن الحادى عشر ، أنهم غير أهل للثقة . إذ أنهم انتهزوا فرصة الفوضى الناجمة من الحرب الأهلية الطويلة واغتصبوا السيادة على القلاع الملكية التى كانوا يتولون حراستها لكى يساوموا على حريتهم الشرعية مع الملك أو الملك المضاد ، وبذلك صاروا سادة عن جدارة واستحقاق . ومع بواكير القرن الثانى عشر بدأ بعض هؤلاء الفرسان - الأقنان السابقين يتزوجون من عائلات النبلاء القديمة . وكثيرون من كبار الأرستقراطيين الألمان ينحدرون من سلالة الفرسان - الأقنان السالبين . هذا الضعف الذى اعترى المؤسسات الملكية كان مصحوبًا بتقدم سلطة الأمراء المحليين . وفى التاريخ الألمانى تعنى فترة النزاع حول التقليد العلمانى النمو الهائل فى السيادة الإقليمية للدوقات وغيرهم من كبار السادة الإقطاعيين كما تعنى خلق الحكم الذاتى

فى الأقاليم ، وهو أمر لم يتم التغلب عليه حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومن ثم يقول كثير من المؤرخين الألمان ، بحق ، أن الفترة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٢٢ هى التى حسمت المصير الألمانى .

لقد نمت السيادة الإقليمية والسلطة الأرستقراطية فى ألمانيا بسبب تحول البلاد إلى النظام الإقطاعى للمرة الأولى . ولم تكن التبعية الإقطاعية vassalage مجهولة فى ألمانيا قبل النزاع حول التقليد العلمانى ، ولكن النموذج الإقطاعى كان جزئيا ، وقليل الأهمية ، لا سيما فى الشطر الشمالى من البلاد . وقد نتجت عن السنوات الخمسين التى استغرقتها الحرب الأهلية تغييرات سياسية واجتماعية بعيدة المدى . فقد فرض السادة الإقطاعيون الكبار التبعية على فرسانهم ، ونصبوا أنفسهم قادة للجيوش الإقطاعية . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر تبلورت روابط التبعية الإقطاعية بين طبقات ملاك الأراضى . وكان هذا التحول الشامل للمجتمع الألمانى إلى مجتمع اقطاعى كارثة حاقت بالملكية الألمانية ، لأن الهرم الإقطاعى الألمانى كان مبتوراً مثلما كان الحال فى فرنسا قبل سنة ١١٥٠ . ذلك أن الروابط الإقطاعية لم تكن تتصاعد حتى مستوى الملك ، وإنما كانت تنتهى بهيمنة كبار الأرستقراطيين. ولم تكن ثمة روابط إقطاعية تربط أفصال كبار السادة الإقطاعيين بالملك ومن ثم كان ولاؤهم مكرسا للأمراء الإقليميين ، الذين كانت لهم آنذاك جيوش كبيرة جيدة التدريب على استعداد للحرب ضد الملك . وكانت قوة الملك العسكرية مستمدة فقط من وضعه كواحد من كبار السادة الإقطاعيين فى دوقيته . ولكن كونه محاطا ، آنذاك ، بالأمراء الإقليميين المستقلين، جعل موارده الخاصة غير كافية لإعادة بناء الصرح المتهدم للسلطة المركزية . وانتهز كثيرون من كبار السادة الإقطاعيين فرصة هذا الاستقلال واغتصبوا السلطة التى كانت للملك من قبل على الأملاك الكنسية بفرض الوصاية على الأديرة الكبرى والسيادة على الكنائس الامتلاكية . وهكذا تبنى النبلاء بعض المؤسسات التى كانت أثيرة لدى ملوك أسرة أوتو ، والملوك الساليين ، لتقويض السلطة الملكية .

وفى سبيل تأكيد استمرار ضعف الملكية ، حافظ النبلاء على المبدأ الانتخابى فى الملكية الألمانية . وعلى الرغم من أن المبدأ الانتخابى لم يختف إطلاقا من النظرية الدستورية ، فإن الممارسة الفعلية تشهد على أن التتابع الوراثى على العرش قد حل محل المبدأ الانتخابى ، إذ كان ملوك البيت الأوتوى والبيت السالى يتخذون من الاحتياطات ما يضمن انتخاب أبنائهم قبل وفاتهم . ولكن النبلاء أعادوا إحياء الفكرة الانتخابية بتحريض من البابوية الجريجورية .

وقد ألف المنظر الكنسى مانجولد اللاوتنباخى Maneggold of Lautenbach مقالة تطرح وجهة نظر وظيفية خالصة عن الملكية الألمانية التى يقارن فيها الملك بمربى الخنازير ، الموظف بغرض معين ، والذى يمكن طرده إذا ما أثار حفيظة مستخدمه . هذا الرأى الراديكالى الأوغسطينى عن الملكية الألمانية كان مبعث سرور الأمراء الأقليمين الذين كانوا ، بطبيعة الحال، يرون فى الملك موظفا ذا سلطات محدودة جدا يتم اختياره أو عزله ، إذا دعت الضرورة، بواسطتهم . وعلى مدى ربع قرن من الزمان بعد وفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥ كانت الملكية الألمانية متوافقة مع المبدأ الذى نادى به مانجولد . إذ كان النبلاء يختارون الملك ، ولايسمحون له بأية موارد خارج نطاق دوقيته الخاصة ، كما كانوا يحولون بينه وبين ممارسة أية سلطة أو زعامة حقيقية فى مملكته . وفوق ذلك ، كله كان اللقب الملكى ينتقل من أسرة إلى أخرى للحيلولة دون نمو أية مصالح أسرية فى التاج الألمانى .

وهكذا ، عندما تم اختيار فريدريك الأول هوهنشتاوفن Fredrick I Hohenstaufen ملكا سنة ١١٢٥ ، كانت السلطة الملكية قد فقدت فعاليتها على مدى ربع قرن ، كما رسفت فى أغلال وقيود شتى على مدى ثمانين عاما . وكانت الموارد الوحيدة التى لم تمس للتاج الألمانى موجودة فى شمال إيطاليا ، وهى المنطقة التى كانت للإمبراطور الألمانى السيادة الإسمية على مدنها الغنية . ونتيجة للصراع حول التقليد العلمانى كان كل ملك ألمانى يريد استرجاع السلطة التى كانت للأباطرة السالين مضطراً إلى التطلع صوب إيطاليا . ولكن عصر النزاع حول التقليد العلمانى كان قد شهد أيضا تغيرات فى شمال إيطاليا كان من شأنها أن تجعل م أية ممارسة حقيقية للسلطة الإمبراطورية هناك مسألة محفوفة بالمخاطر . فمنذ عصر هنرى الثالث لم تكن المدن الإيطالية قد وقعت تحت الحكم الفعلى لسيدها الألمانى الرسمى . وكانت تلك بالضبط هى الفترة التى شهدت النمو الهائل فى ثروات المدن الإيطالية والزيادة الكبيرة فى سكانها وتطور مؤسساتها الكومونية . فمدن الشمال الإيطالى ، فى منتصف القرن الثالث عشر كانت تحكمها أوليجاركية صغيرة من التجار والحرفيين والصناع ، الذين كانوا مستعدين وقادرين على القتال فى سبيل الحفاظ على مكانتهم وسلطتهم . وكانوا هم الحلفاء الطبيعيين للبلاط البابوى الذى كانت فرائصه ترتعد من عودة الإمبراطور للظهور فى إيطاليا . ولم يجد الإمبراطور سبيلا لإعادة بناء السلطة الملكية فى ألمانيا سوى عن طريق غزو شمال إيطاليا ، ولكن البابا أحس بأن انتصار الإمبراطور فى إيطاليا لايعنى سوى القضاء

على الاستقلال البابوى . وإذا كان النزاع حول التقليد العلمانى قد قلص موارد التاج الألمانى ، فإنه من ناحية أخرى قد شد البابوية إلى صراع حتمى ضد أول أمير طموح يعتلى عرش ألمانيا بعد اتفاقية ورمس . وعلى أية حال ، فإن تغير أحوال الشمال الإيطالى إبان فترة الصراع حول التقليد العلمانى ، قد جعل نجاح مثل هذه المغامرة الإمبراطورية أمراً مستبعداً .

ويمكن أن نضيف إلى هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البابا والإمبراطور تلك الكارثة التى تمثلت فى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوربا . ففى سنة ١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية الكبرى مراكز كبرى للتعليم والفن ، كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسى الألمانية لا تبارى . ويبدو أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الدولة والكنيسة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها . فقد كان رجال الكنيسة مثابرين على تدبيج المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، ولكنهم تجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها فى مناطق غرب الراين وجنوب جبال الألب . وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها ثم مالبثت أن باتت متخلفة وعتيقة . وعند بداية القرن الثانى عشر كان العلماء الفرنسيون والإيطاليون عاكفين على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى ، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحرية الفكرية فى العصور الوسطى العالية ، ولكن أول جامعة من هذا النوع لم تقم فى ألمانيا قبل القرن الرابع عشر . لقد تخلف الألمان ثقافياً كما تخلفوا سياسيا فى غمار النزاع حول التقليد العلمانى ، ولم يستعيدوا مكانتهم الرائدة أبداً ، على الأقل فى العصور الوسطى .



الفصل الثالث عشر

الملكية الأنجلو - نورمانية وظهور الدولة البيروقراطية

١ - انتصار وليم الفاتح[1] :

يبدو أن جريجورى السابع قد تساءل بينه وبين نفسه فى أخريات أيامه عما إذا كان قد شن الحرب ضد العدو الحقيقى . فقد كان مهتمًا بالسياسة الكنسية للملكية الأنجلو - نورمانية ، ولكنه لم يكن بقادر على الانتقاص من سلطة « وليم ابن الزنا » الذى عرف آنذاك باسم «وليم الفاتح » ، وهيمنته على الكنيسة بأية وسيلة . فمع تدهور الملكية السالية فى ألمانيا برزت مكانة الحاكم الأنجلو - نورمانى فى أوربا باعتباره ملكًا لانظير له . وكان وليم وأبناؤه قادرين على التقدم بالمؤسسات الملكية الإنجليزية إلى درجة من الكمال والكفاءة لم تكن أوربا تعرفها فى ذلك الحين . وقد توصلوا فى النهاية لتطوير نوع جديد من الملكية يعتمد على الإدارة والقانون لتوحيد المملكة ، كما يتيح لهم أن يستغنوا عن الأسس الأيديولوجية التقليدية للحكم الملكى . ففى ذات الوقت الذى كانت فيه الثورة الجريجورية تهدم الأساس الدينى للملكية ، كان الحكام النورمان فى إنجلترا يصوغون بديلا فعالا يتحاشى الانتقادات البابوية بشكل نسبى . وهكذا كانت للغزو النورمانى لإنجلترا أهمية عظمى بالنسبة لحضارة العصور الوسطى، إذ أنه أتاح الفرصة لخلق نوع جديد من الملكية ، كما أنه افتتح الحركة تجاه العلمانية والسلطة المطلقة التى ميزت الدولة فى القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر .

فى سنة ١٠٦٦ كانت انجلترا « أرضا قديمة Old Land » على حد تعبير المؤرخ الاقتصادى « ريجنالد لينارد Reginald Lennard » . وعلى الرغم من أن الشطر الشمالى من البلاد ، الذى لم يكن يصلح للزراعة كان قليل السكان للغاية ، فإن نصفها الجنوبى ، خاصة المنطقة الوسطى الخصيبة ، كان كثيف السكان . وكان عدد سكان إنجلترا زمن الغزو النورمانى حوالى مليون نسمة ؛ أى أنها كانت بلداً كثير السكان إلي حد ما . وبعد خمسة

---

[1] - استخدم المؤلف عبارة The triumph of Wiliam the Bastard وترجمتها الحرفية « انتصار وليم ابن الزنا » ، وقد رأينا ترجمتها على النحو الذى وضعناه فى العنوان (المترجم)

قرون كان عدد سكان إنجلترا أقل من أربعة ملايين نسمة . وفى سنة ١٠٦٦ كانت لندن قد صارت مدينة تجارية هامة بالفعل ، كما كانت موانئ أخرى تقوم بتجارة نشيطة مع القارة الأوربية . وفى العصور التالية كانت إنجلترا تبدو بلداً واسع اثراء . فقد كانت العملة الأنجلو – سكسونية من أحسن عملات أوربا ، كما كانت ضريبة الدانجلد Danegeld[٢] التى كان الملك الإنجليزى يفرضها لقتال الغزاة من الاسكندنافيين قد جلبت قدراً هائلا من العملات . فضلا عن أن الأنجلو – سكسون كانوا شعبًا متدينا ذكيًا . فقد كان منهم القديسون المشهورون، والشعراء المجيدون ، والفنانون المهرة الذين عكفوا على تزيين المخطوطات وصقل المجوهرات .

وعلى الرغم من كل هذه الظروف الواعدة ، فإن إنجلترا وقعت فريسة سهلة للغزو الأجنبي فى منتصف القرن الحادي عشر . لقد ضرب الأنجلو – سكسون أول الأمثلة عن شعب كان مجيداً فى كل شئ عدا فن الحكم والحرب ، وكان هذا هو العيب الذى أودى بالملكية الأنجلو سكسونية . فقد كانت المقاطعة الإنجليزية المحلية Shire والمحاكم المائة تبدو مؤسسات فعالة إلى حد معقول ، ولكن المؤسسات الإدارية للحكومة المركزية كانت ضعيفة وبدائية . فقد كان كبار السادة الإقطاعيين يغتصبون اختصاصات التاج القانونية والمالية بسهولة . وكان هذا التخلف السياسى مصحوبا بالضعف العسكرى . فبينما كان الفارس المسلح قد بات هو عماد جيوش القارة الأوربية ، كان الإنجليز فى سنة ١٠٦٦ مايزالون جاهلين بفنون القتال على ظهور الخيل . وعلى مدى ثلاثين سنة فى مطلع القرن الحادى عشر كانت إنجلترا جزءاً من إمبراطورية دانمركية كبرى ، وربما كان الملك كانيوت Canute الاسكندنافى هو أكثر الحكام فعالية فى التاريخ الأنجلو – سكسونى . وبعد موت كانيوت تمزقت إمبراطوريته الكبرى . ووجد النبلاء

---

٢ – الدانجلد ضريبة فرضها الملوك الأنجلو – سكسون فى القرن العاشر كوسيلة لتمويل الجزية التى كان ينبغى دفعها للغزاة الدانمركيين منذ عهد الملك ايثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧ – ١٠١٦) . وعادة ما كانت قيمتها شلنين ولكنها أحيانا كانت تصل إلى أربعة شلنات وأكثر . وعلى الرغم من أن الجزية كانت تدفع منذ سنة ٩٩١ ، فإن مصطلح Danegeld لم يعرف إلا بعد الغزو النورمان . وقد استمر الملوك الأنجلو – نورمان فى فرض هذه الضريبة ولاسيما وليم الفاتح وهنرى الثانى حتى سنة ١١٦٢ لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . (المترجم)

العلمانيون والكنسيون فى أحد أديرة القارة واحداً من سلالة الملك ألفرد[٣] وأجلسـوه على العرش الإنجليزى . وكان عهد إدوارد المعترف (١٠٤٢ - ١٠٦٦) هو العهد الذى شهد المراحل الأولى للتحلل السياسى للمملكة فى مقابل نمو السلطة الإقليمية لكبار السادة الإقطاعيين . ونتيجة لموت إدوارد دون أن يخلف وريثًا نشبت أزمة حول العرش ، قام ملك النرويج بتجهيز أسطوله لغزو انجلترا . وقام النبلاء الأنجلو - سكسون باختيار أقوى النبلاء ، هارولد جونسون ، على أساس من المبدأ الانتخابى الجرمانى القديم ، ليكون ملكًا على الشعب الإنجليزى . ولكن « وليم ابن الزنا » ، دوق نورماندى الطموح ، أدعى أن العرش حق له بالوراثة عن طريق جدته ، كما قال إن كلا من إدوارد وهارولد قد وعداه بالعرش عند موت إدوارد .

أطلق المؤرخ هاسكينز ، المتخصص فى تاريخ المؤسسات النورمانية ، اسم « رجال القرن الحادى عشر الخارقون » على النورمان . أما أوردريك فيتاليس Ordricus Vetalis ، المؤرخ الأنجلو - نورمانى المعاصر ، فقال إن النورمان شعب طيب وقادر حين يحكمهم حاكم قوى ، ولكنهم يتجهون إلى العنف والفوضى عندما يكون حاكمهم ضعيفا . ولقد استطاع وليم ابن الزنا أن يوجه الخصائص العدوانية لشعبه فى اتجاه بناء . فقد سار على نفس الخطوط التى كان أسلافه قد أرسوها من قبل ، بفضل مشورة وتأييد رجال الكنيسة المجريين المتعلمين الذين جاءت غالبيتهم من مناطق تدخل ضمن نطاق الإمبراطورية الألمانية السالية . وبذلك بنى أكبر

---

٣ - هو ألفرد الكبير Alfred the Great (٨٩٤ - ٨٩٩) ملك وسكس Wessex . وقد شاركه أخوه ايثلريد Aethelred الحكم تاركا إياه يقود الحرب ضد الدانمركيين . وقد هزمهم فى سنة ٨٨١ م عند آشدون Ashdown ، وعلى الرغم من عودتهم استطاع أن يمنعهم من غزو وسكس . ونتيجة للصراع المستمر بينه وبين الدانمركيين انقسمت البلاد إلى قسمين : جزء أنجلو - سكسونى مستقل يحكمه ملك وسكس ، وجزء يحكمه الدانمركيين The Danelaw . وقد بنى الفرد نظاما قويا للدفاع ويعتمد على الخدمة الإجبارية لكل الأحرار فى المملكة ، والحصون ، والأسطول . وكان الفرد أول ملك أنجلو - سكسونى يوقف الغزوات الدانمركية للبلاد . وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحرر البلاد من الدانمركين تماما فإن إنجازاته ضمنت له مكانا خاصا فى التاريخ الإنجليزى . وقد أسس فى بلاطه مدرسة لأبناء النبلاء كما تولى رعاية البحث العلمى . وشجع الأديرة على أن تكون مراكز للتعليم والبحث بل أنه نفسه كتب فى التاريخ والجغرافيا مؤلفات تعتبر أول ما كُتب نثراً فى اللغة لأنجلو - سكسونية . انظر :

Asser , Life of Alfred the Great (1904); B.A. Lees , Alfred the Great (1915) .

(المترجم)

دولة إقطاعية فى أوربا على أساس مركزى ، كما نجح فى الوقت نفسه فى اكتساب سمعة يحسد عليها كصديق للكنيسة وحام لها مما جعله يحتل مركزاً وطيداً فى روما .

استطاع وليم أن يستفيد من كل هذه الأسس الاقطاعية والكنسية التى قامت عليها سلطته فى الإعداد لغزو انجلترا . فقد عبأ كل الجيش الاقطاعى فى الدوقية تقريبًا ، وكان قوامه حوالى ألف من افرسان . ذلك أن الازدياد المستمر فى عدد السكان المالكين للأراضى فى الدوقية (وهو تزايد لم ينقص معدله رحيل المغامرين من النورمان التواقين للنهب إلى جنوب إيطاليا) كان يعنى نقص الإقطاعات فى نورماندى بشكل جعل الطبقة المحاربة تتحرق شوقًا إلى المغامرات فى الخارج . وبالإضافة إلى ذلك ، جند وليم المرتزقة من بين الفرسان الذين لايملكون أرضًا فى الفلاندرز وبريتانى ، واستطاع أن يعبر القنال الإنجليزى بجيش قوامه ألف وخمسمائة فارس بالإضافة إلى رماة السهام وقوات المشاة التى تساندهم . وكانت تلك قوة عسكرية مهولة بمقاييس القرن الحادى عشر .

كان احتمال نجاح وليم كبيراً بفضل التأييد المعنوى الذى أسبغته عليه البابوية . فقد أرسل البابا إلى الدوق بيرقا بابويا ، بتحريض من الكاردينال هيلدبراند ، وحمل وليم هذا البيرق معه إلى إنجلترا . فلماذا أيدت البابوية الغزو الذى قام به وليم الفاتح ؟ لقد كان الدوق النورمانى يدعى لنفسه حقًا فى وراثة العرش ، وهو الأمر الذى كان هارولد (منافسه على العرش) يفتقر إليه ، وكان يمكن الاحتجاج بأن وليم أحق من العرش من الإيرل Earl الإنجليزى ، لأنه كان أقدر منه على تحمل تبعات الحكم . بيد أن هذه الأسباب كانت تعتبر أسبابًا هامشية فى تقدير البابوية . إذ أن البلاط البابوى لم يكن راضيًا عن حال الكنيسة الإنجليزية ، التى كانت تدير أمورها بشكل مستقل تماما ، وثبت أنها متخلفة وفاسدة للغاية ، والواقع أن أسقفية كانتربورى فى سنة ١٠٦٦ كانت ترزح تحت وطأة أوضاع فاضحة ؛ وادعت البابوية أنه لم يتم انتخاب كبير الأساقفة القائم وفقًا لقوانين الكنيسة وخلعته من منصبه ، ولكن هارولد جودنسون كان من الجرأة بحيث رفض تنفيذ القرار البابوى . وكانت الإدارة البابوية تحت توجيه هيلدبراند تتوقع أن يؤدى غزو وليم لإنجلترا إلى إصلاح الكنيسة الإنجليزية وإلى ربطها برباط وثيق مع روما . ولكن هيلدبراند فشل فى تقييم سياسة وليم تجاه الكنيسة تقييمًا واقعيًا . فقد كان واقعًا تحت تأثير سمعة وليم كصديق متدين وتقى ومؤيد للكنيسة ، ولكنه لم يضع فى حسبانه العلاقات بين الكنيسة والدولة فى نورماندى ، وهى

لعلاقات التى كانت تشبه إلى حد كبير العلاقات التى كانت قائمة فى الإمبراطورية الألمانية لسالبة . هذا الخطأ فى الحسابات الذى وقع فيه هيلدبراند هو الذى فتح الطريق لبناء النظام لنورمانى للعلاقات بين الكنيسة والدولة فى إنجلترا .

والتقرير التصويرى الذى تحويه لوحة بايبى Bayeux المنسوجة[٤] ، والتقارير الحية التى أمدنا بها الكتاب المعاصرون ، على الرغم من أنها متضاربة إلى حد ما ، تصور لنا معركة هاستنجز التى حسمت مصير إنجلترا ، فهى توضح أن الأنجلو - سكسون خاضوا الحرب بصورة طيبة - أفضل مما كان متوقعًا منهم فى ظل الظروف السائدة آنذاك ، لأن جيش هارولد كان مرهقًا من جراء نضاله ضد النرويجيين الذين كان قد فرغ لتوه من دحرهم فى الشمال ، ثم كان عليه أن يقطع إنجلترا بطولها لمواجهة القوات النورمانية الشديدة المراس . لقد أحرز وليام نصره الكبير بفضل أسلحة أكثر تقدمًا ، وأساليب قتال أكثر تفوقا . وحارب الأنجلو - سكسون بشجاعتهم المعهودة ، وكانت معركة هاستنجز مواجهة دموية للغاية بمقاييس العصور الوسطى. إذ أن عدداً كبيراً جداً من النبلاء الأنجلو - سكسون لقوا مصرعهم فى ساحة القتال، على حين تم تجريد غالبية الناجين منهم من أراضيهم وربما تحولوا إلى أقنان . وهكذا تسبب الغزو النورمانى فى القضاء على الطبقة الإنجليزية الحاكمة واستبدالها بالسادة الاقطاعيين الفرنسيين، على الرغم من أنه لم يؤثر فى أوضاع الفلاحين الإنجليز وظروفهم .

وعلى مدى أربعين سنة بعد الغزو النورمانى أبدى النورمان احتقارهم التام لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية . وربما يكون قد تم تدمير بعض أعظم الأعمال الفنية الأنجلو - سكسونسية فى تلك الفترة ؛ إذ أن بعضًا من أفضل المخطوطات الأنجلو - سكسونية المصورة لم يعثر عليها سوى فى القارة ، وهى مخطوطات كانت قد أرسلت على سبيل الهدية للحكام أو لرجال الكنيسة فى بلدان أوربا ، ولم يعثر فى إنجلترا نفسها على أى من هذه المخطوطات .

---

٤ - نسبة إلى مدينة بايبى فى نورماندى بفرنسا . واللوحة النسيجية الشهيرة التى ترجع إلى القرن الحادى عشر محفوظة بمتحف البلدية فى هذه المدينة الفرنسية حتى الآن . وهى على الطراز الفنى المعروف باسم الرومانسك Romanesque نسجتها الملكة ماتيلدا زوجة وليم الفاتح ووصيفاتها لتصوير معركة هاستنجز والغزو النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ وطولها ٧٠ سم وعرضها ٥٠ سم ، وهى تصور الحملة من الاستعدادات فى نورمانى حتى الإبحار ثم المعركة نفسها . وفضلا عن قيمتها الفنية فإنها تعتبر أيضًا مصدراً تاريخيًا فائق القيمة لفن الحرب والسلاح والسفن والأدوات . (المترجم)

لقد كان النبلاء النورمان يتحدثون اللغة الفرنسية ، كما أنهم كانوا يمثلون الثقافة والحضارة الفرنسية . وأمست اللغة الأنجلو – سكسونية هي لغة الفلاحين ، ولم يتم إحياؤها في شكلها الأدبي سوى في القرن الرابع عشر . وعلى مدى قرن ونصف قرن على الأقل بعد الغزو النورماني ظلت إنجلترا مجرد مقاطعة تابعة لفرنسا . وعلى الرغم من الخسائر التي لحقت بالأدب المحلي والفن الوطني ، كان الغزو النورماني مصدر نفع كبير لإنجلترا ، التي كان مقدراً لها أن تفقد استقلالها في ستينيات القرن الحادي عشر . إذ أن إنجلترا كانت على عتبة التحلل والتفكك السياسي ، مما جعلها فريسة سهلة لأي غزو أجنبي . وكان مقدراً لها أن تصبح تابعة لاسكندنافيا أو فرنسا . لقد تمثلت نتيجة الغزو النورماني في التوحيد السياسي للبلاد ، كما أن هذا الغزو أتاح لإنجلترا فرصة المشاركة في الحياة الثقافية والدينية والفنية الفوارة النشطة التي عاشتها فرنسا في القرنين الحادي والثاني عشر . أما الغزو الاسكندنافي، لو حدث ، فإنه كان سيحرم إنجلترا من جميع هذه الإنجازات .

وتمكن وليم ، بفضل مهارته السياسية المتميزة ، من الإبقاء على ماكان يمكن استمراره من المؤسسات الأنجلو – سكسونية . فقد أبقى على المقاطعة المحلية Shire والمحاكم المائة ، كما أبقى على المكاتبات الأنجلو – سكسونية الملكية ، وهي الاتصالات المكتوبة التي كان المجلس الاستشاري الملكي يطلبها من نوابه المحليين ، كذلك أبقى على نظام التتويج الأنجلو – سكسون بنغماته المثيرة التي تحبذ الملكية الثيوقراطية . بيد أن هذه الأيديولوجية لم تكن سوى مسألة هامشية ، لأن الملكية الأنجلو – نورمانية أقامت سلطانها على أساس مؤسسات جديدة استوحيت من نورماندي ؛ بل إن مؤسسات ماقبل الغزو التي استمرت في الوجود اكتسبت حيوية وأهمية جديدة بفضل مكانها في النظام السياسي والتشريعي .

لقد تم صبغ المملكة بالصبغة الاقطاعية تماما على يد وليم الفاتح ؛ وبنهاية حكمه في سنة ١٠٨٧ كان الشطر الأكبر من هذه العملية قد تم إنجازه . وباعتباره السيد الأعلى على كل ضيعة إقطاعية في إنجلترا بموجب حق الفتح استطاع أن يبني هيكلا إقطاعيا حذراً يتركز حول الملك باعتباره السيد الاقطاعي لكل فارس في المملكة . وكما هو الحال في نورماندي ، تم إخضاع الأساقفة ومقدمي الأديرة لالتزامات إقطاعية باهظة في بادئ الأمر ، ثم منحت الاقطاعات للنبلاء المدنيين .وباستثناء السادة الإقطاعيين في مناطق الحدود والذين منحوا امتيازات خاصة ومساحات شاسعة من الأراضي ، كانت ضياع أي سيد إقطاعي كبير موزعة

بين مقاطعتين أو ثلاث مقاطعات للحيلولة دون نمو أية نزعة استقلالية إقليمية . وكما هو الحال فى نورماندى أيضا ، كان عدد الفرسان الواجب تقديمهم للخدمة فى الجيش الملكى مقابل كل ضيعة إقطاعية ملكية ، يتدرج من خمسة فرسان إلى ستين فارسًا على الأكثر ، وكان مجمل حجم الخدمة العسكرية الإقطاعية التى يدين بها الأتباع للملك الأنجلو - نورمانى يصل إلى خمسة آلاف فارس ، وهو رقم كبير بمقاييس ذلك الزمان ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يبنى قلعة فى البلاد دون إذن ملكى ، كذلك تعين على الأتباع الإقطاعيين الملكيين أن يحضروا إلى « بلاط الملك Curia regis » ثلاث مرات سنويا على الأقل ، لكى يستمعوا إلى الملك وهو يعلن خططه ، ويقدموا له مشورتهم السياسية ، ولكى يشاركوا فى نظر القضايا القانونية التى تتعلق بالاقطاعات الملكية . وكانت شئون الحكم تدار بواسطة مجموعة صغيرة من النبلاء العلمانيين والكنسيين والكتاب الديريين الذين كانوا أعضاء فى المجلس الاستشارى الملكى . أما النواب المحليون للملكية الأنجلو - نورمانية فقد احتفظوا بلقب شريف Sheriff الإنجليزى القديم (ومعناه حاكم المقاطعة Shire reeve) ، ولكنه كان هو نفس الفيسكونت Viscount النورمانى من حيث الواقع ، وهو اللقب الذى غالبًا ماترد الإشارة إليه فى الوثائق الملكية الرسمية . فلم يعد ذلك المندوب الملكى الضعيف العاجز الذى كان قبل الغزو ، والذى كان كبار السادة المحليين يتحكمون فيه ، ولكنه صار هو الصوت القائد فى شئون الحكم والقضاء فى المقاطعة . ومع أن الشريف ، من حيث إمكانياته الخاصة ، كان مجرد واحد من ملاك الأراضى المتوسطين ، فإنه تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسبب وضعه كممثل لحكومة ملكية على درجة كبيرة من الكفاءة والفعالية ، وهى حكومة لم تكن تطيق أى تمرد حتى من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين فى البلاد ، كان الشريف يرأس محكمة المقاطعة ، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية .

وقد أدهش وليم الفاتح وأبناؤه معاصريهم بمدى اتساع مواردهم المالية ، ولم يكن هذا بسبب ثروة إنجلترا فقط ، إذ أن من المؤكد أن فرنسا وألمانيا كانتا أكثر ثراء ، وإنما لأن الملك الأنجلو - نورمانى استطاع أن يفرض الضرائب على موارد مملكته بدرجة تتعدى كثيراً قدرة أى حاكم آخر فى أوربا . لقد كان الملك بحاجة إلى المال لتوطيد مركزه ومركز أسرته ، ولدعم إدارته المركزية ، وتمويل مندوبيه المحليين ومؤسساته العسكرية . هذه الكفاءة النسبية للنظام الضريبى الملكى الإنجليزى الذى شيده وليم الفاتح ، تعتبر مفتاحًا غاية فى الأهمية لفهم التاريخ السياسى فى العصور الوسطى . فهى تساعدنا على إدراك السبب فى أن الملك

الإنجليزى كان حتى القرن الخامس عشر يستطيع أن يلحق الهزائم الساحقة بالملوك الفرنسيين الذين كانوا يحكمون بلاداً بلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان إنجلترا ، والذين كانت ثرواتهم الزراعية والصناعية والتجارية (إذا ما استطعنا تقديرها بدقة) أكبر كثيراً من ثروات إنجلترا . وفى العصور الوسطى ، كما هو الحال فى القرن العشرين ، كانت الحروب تتكلف أموالا كثيرة ، وكانت سلطة أى ملك وقوته تستند إلى كفاءة نظامه الضريبى وشموليته . ومن هنا ظل الملك الإنجلو - نورمانى على مدى قرن على الأقل متفوقا على ملوك آل كابيه فى فرنسا ، كذلك لم يكن هناك حاكم ألمانى على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يستطيع التحكم فى موارد بلاده المالية مثل الملك الأنجلو - نورمانى .

كان مورد الدخل الرئيسى لملوك العصور الوسطى هو ضيعاتهم الخاصة ، وكان وليم بطبيعة الحال يستمد جزءاً أساسيا من دخله من الأملاك الملكية التى كان الشريف مسئولا عن إدارتها . كذلك كانت المحاكم مورد دخل وفير ، ولكن المهارة فى استغلال الإمكانات الإقطاعية فى جباية الضرائب هى التى كانت مصدر الموارد المالية الضخمة للحكام الأنجلو - نورمان . وكان وليم يتمتع بالحقوق الإقطاعية على أفصاله ، شأن أى سيد إقطاعى آخر ، واكتشف القائمون على خزائنه أن هذه النظم يمكن أن تكون مصدراً لمبالغ طائلة . إذ لم تكن الالتزامات الإقطاعية تجاه التاج وقفا على الأفصال الإقطاعيين العلمانيين ، بل كانت الأسقفيات والأديرة خاضعة لنفس هذه الأنماط الضريبية . وبالإضافة إلى هذه الموارد كلها ، والتى كانت تشكل الدخل الملكى ، بدأ وليم يسمح لأفصاله بعدم إرسال فرسانهم للخدمة فى الجيش الملكى الإقطاعى لقاء مبلغ من المال يتم تقديره على أساس حجم الإقطاع الذى يملكه كل منهم ، وقد عرف هذا النظام باسم سكوتاج Scutage (ومعناها الحرفى « نقود الدرع Shield money) فى أوائل القرن الثانى عشر . وقد فرح أفصال وليم لتحررهم من عبء مواصلة تدريب فرسانهم وتجهيزهم للحرب ، كما أن وليم كان يفضل أن يستغل المال الذى يحصل عليه من السكوتاج فى استئجار المرتزقة لشن حروبه داخل القارة . ومن دلائل التناقض أن الملك نفسه ، الذى وصل بالنظم الإقطاعية إلى أعلى مراحل تطورها واستخدم هذه النظم بكفاءة عالية لتدعيم الملكية ، كان هو أول من أدرك عدم فعالية النهج الإقطاعى فى تكوين الجيوش . فبموجب القوانين الإقطاعية كان على الأفصال أن يخدموا فى جيش الملك أربعين يوما فقط فى السنة وهو الأمر الذى كان يسبب إزعاجا فى أية حملة عسكرية طويلة ؛ كما أن الفرسان الذين كانوا

ينضمون إلى جيشه الإقطاعي ، لم يكونوا دائما على درجة كافية من التسليح والتجهيز ؛ وكان من الأفضل للملك أن يترك معظم الجيش الإنجليزي على أرض الوطن ليتصدى لأية غزوة إسكندنافية أخرى كبيرة ، وهو خطر كان يلوح دائما خلال عهد وليم الفاتح ، كذلك كان وليم يعاني من مشكلة خاصة هي مشكلة نقل الخيول والفرسان عبر القنال الإنجليزي ، وهو أمر كان مكلفًا ومحفوفا بالمخاطر في آن واحد . فكان وليم يفضل استئجار المرتزقة من الفرسان الذين لايمتلكون أرضا في نورماندي والفلاندرز وبريتاني لكي يستخدمهم في حملاته التي كان يقوم بها على الحدود ضد مختلف الأمراء الفرنسيين . وسرعان ما أدرك أعداء الملك الأنجلو - نورماني من ملوك وأمراء القارة الحاسدين مغزى التجديد الذي كان يقوم به في أداته العسكرية. وقد أشار أحد الوزراء الرئيسيين في بلاط الملك الفرنسي في النصف الأول من القرن الثاني عشر إلى الملك الإنجليزي بقوله : « هذا الرجل الثرى يشترى الفرسان ويجمعهم على نطاق واسع » . كان وليم هو أول من بادر بإحلال القوات المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، وكان هذا واحداً من التطورات العسكرية الأساسية في العصور الوسطى العالية .

لقد تجلت عبقرية حكومة وليم وقدرتها من خلال التجديدات القانونية والسياسية والعسكرية على السواء . ففي سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة ، أو المحلَّفين juries كما أطلق عليهم فيما بعد . وكان الأنجلو - سكسون قد استخدموا مثل هؤلاء المحلفين أحيانا لتوجيه التهم الجنائية في ساحة المحاكم الشعبية ، ولكن ملوك فترة ماقبل الغزو كانوا من العجز بحيث أنهم لم يدركوا قيمة هذا النظام فتلاشى واختفى قبل القرن الحادي عشر . كذلك جلب ولم الفاتح نظام الاستجواب إلى إنجلترا مرة أخرى ، دون أن يعرف شيئًا عن تجارب الأنجلو - سكسون الخائبة معه ، وهو النظام الذي يمكن أن نجد أصوله في العصر الكارولنجي . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان نظام التحري بواسطة المحلفين يستخدم في القضايا الجنائية وفي القضايا المدنية على السواء ، ثم صار هو أساس العملية القانونية الإنجليزية .

تجلت طاقة الملكية الأنجلو - نورمانية وذكاؤها بوضوح في السنة الأخيرة من حياة وليم ، وذلك عندما تمت عملية مسح شامل للأملاك والملاك في إنجلترا ، كما كانت قبل الغزو ، وما صارت إليه في سنة ١٠٨٦ . ولم يكن باستطاعة أية حكومة أخرى في أوربا أن تحقق هذا

الإنجاز قبل القرن الثالث عشر . هذا الإنجاز جمعت نتائجه فى سفرين هائلين عرفا باسم Do-mesday Book . هذا السجل وفر للحكومة الملكية والمحاكم حصراً شاملا عن الثروة وملاك الأراضى فى إنجلترا لأغراض الضرائب وإجراءات التقاضى . وكان المبعوثون الملكيون يستخدمون هذا السجل إلى جانب المعلومات المستقاة من شهادات المئات من المحلفين المتعلمين. وهو يمدنا بأكثر السجلات تفصيلا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى إنجلترا العصور الوسطى . وقد ظل متفوقا فى قيمته كمصدر للمعلومات الإحصائية على غيره من المصادر فى أوربا حتى القرن التاسع عشر . ويبقى هو أهم الآثار الدالة على أعمال وليم الفاتح ومساعديه الكنسيين ، الذين حولوا إنجلترا من دولة متخلفة إلى دولة من أكثر دول أوربا تقدما ، وذلك فى غضون عشرين عاما فقط .

٢ - مغزى النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى :

حتى رجال الكنيسة الأنجلو - سكسون المستاءين الساخطين أعجبوا بإنجازات وليم الفاتح وحازت احترامهم ، ولكن جريجورى السابع لم يبتهج كثيراً بنجاحه المؤزر . فبينما كانت قوة الإمبراطور الألمانى تتدهور تحت وطأة الهجوم البابوى ، برز زعيم علمانى جديد ذو قدرة أكبر ليلعب دوره على مسرح السياسة الأوربية . ولم يكن مغزى هذا التطور ليغيب عن ناظرى جريجورى . فقد كان هذا يشكل تهديداً ، على المدى الطويل ، للإنجاز الذى تم تحقيقه فى ظل النظام العالمى الجديد الذى تصوره ، وهو خطر يفوق فى مداه الخطر الكامن فى شخص الإمبراطور الألمانى . فضلا عن أن العلاقات بين الكنيسة والدولة فى ظل النظام الأنجلو - نورمانى كانت به وجوه شبه مزعجة بالموقف فى ألمانيا عشية النزاع حول التقليد العلمانى . ولم يهتم وليم بتأكيد تقاليد الملكية الثيوقراطية ، ولكنه استطاع أن يسيطر تماما على شئون الكنيسة الإنجليزية من خلال التقليد العلمانى ، وربط الأساقفة ومقدمى الأديرة برباط التبعية الإقطاعية للملك . ومع ذلك ، كان رجال الكنيسة موالين تماما للملك الذى لم يكن مصدر خوفهم فحسب ، وإنما كان محل إحترامهم وإعجابهم أيضا ، مثلما كان الحال فى ألمانيا . فقد تركزت الأعمال التى تتطلب تعليما راقيا بأيدى الكتبة الديريين المخلصين الذين ترقوا بفضل خدماتهم القيمة ليتولوا المناصب الديرية والكنسية الشاغرة . وكان لانفرانك كبير أساقفة كانتربورى ، الذى ذاع صيته فى سائر أنحاء أوربا كعالم من علماء اللاهوت والقانون الكنسى، يوافق تماما على هذا الرباط الوثيق الذى يجمع بين الملك والكنيسة . وربما كان هو المسئول عن تقوية هذه الرابطة وتهذيبها باعتباره مستشاراً ثقة لوليم .

لقد نتج عن الغزو النورمانى تحسن كبير فى المستوى الأخلاقى والثقافى لكبار رجال الكنيسة فى إنجلترا . فقد ازدهرت الأديرة فى ظل حماية الملكية ، كما تمت دراسة مجموعات القانون الكنسى ذات الصبغة المحافظة فى الفترة السابقة على العصر الجريجورى . وفى ظل الحماية تأسست المكتبات الديرية الكبرى ، كما دب النشاط فى مجال الدراسات المتعلقة بالطقوس الكنسية والكتابات التاريخية . وبنيت كنائس حجرية فخمة على الطراز النورمانى الرأسى ، وهى الكنائس التى تعتبر كاتدرائية دورهام Durham مثالا بارزا عليها ، فضلا عن أن عدد رجال الكنيسة قد تزايدوا وتهذبت خصالهم .

بيد أن جريجورى اكتشف أن الكنيسة الإنجليزية بعد الغزو لم ترتبط بروما أكثر من ذى قبل . وأصدر وليم مرسوما يمنع أيا من رجال الكنيسة الإنجليز من الذهاب إلى روما ، أو استقبال المندوبين البابويين ، أو اللجوء إلى المحكمة البابوية دون إذن منه . وكانت مثل هذه القيود مخالفة للسياسة البابوية فى العصر الجريجورى مخالفة صارخة ، ومع ذلك لم يستطع جريجورى أن يتدخل . فلم يكن فى إنجلترا أمراء متمردون يمكنه استغلالهم كعنصر مناوئ ضد الملكية ، كما كان واضحًا أن لانفرانك رئيس أساقفة كانتربورى الواسع النفوذ لم يكن متحمسا للإصلاح الجريجورى ، ولم يكن جريجورى من الحماقة بحيث يدخل فى قطيعة مكشوفة مع وليم على حين كان هنرى الرابع مايزال قائما فى الساحة . وعلى أية حال ، لم يكن بوسع البابا أن يقاوم رغبته فى تأكيد سلطته على الملك الإنجليزى وكبير الأساقفة . وقد زعم جريجورى أن غزو وليم لإنجلترا قد تم تحت بيرق البابوية ، وفى ظل الشروط العامة لهبة قسطنطين ، مما يستوجب أن يكون الفاتح فصلا إقطاعيا تابعا له . ولم يلق وليم بالا إلى هذا الكلام بطبيعة الحال . ثم طلب البابا من لانفرانك أن يحضر إلى روما بنفسه ليقدم آيات خضوعه للبابا ، ولكن كبير الأساقفة راوغ ورفض أن يغادر إنجلترا ، ثم دخل فى مفاوضات سرية مع البابا المضاد الذى كان الإمبراطور الألمانى هنرى قد عينه على سبيل الحيطة . وبهذا لم يستطع جريجورى أن يؤثر فى الموقف الإنجليزى بأية حال .

وبعد موت وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ ، ثم موت لانفرانك سنة ١٠٨٩ بدأت دلائل الضعف تظهر على التحالف الوطيد بين الملكية والكنيسة فى إنجلترا . فقد استغل خليفة وليم ، وثانى أبنائه ، روفوس Rufus (١٠٨٧ - ١١٠٠) حقوق التاج الاقطاعية فى فرض الضرائب الباهظة على الكنيسة . فضلا عن أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، كما كان يظهر تعاطفا

غريبا تجاه اليهود ، مما أفقده حب رعاياه . كذلك كان رئيس أساقفة كانتربورى سان آنسلم St.Aneselm العجوز (وهو راهب نورمانى - إيطالي أيضا كان أعظم علماء اللاهوت فى زمانه) أكثر تعاطفا تجاه برنامج الإصلاح الجريجورى من معلمه وأستاذه لانفرانك . وتشب نزاع مرير بين آنسلم والملك وتعاطف رجال الكنيسة مع كبير الأساقفة المبجل لشخصه ولكنهم لم يساندوه ، لأنهم كانوا يخشون غضب روفوس من ناحية ، ولأنهم كانوا ضد فكرة إدخال برنامج الإصلاح الجريجورى إلى انجلترا من ناحية أخرى . وتركوا آنسلم فى مواجهة الاختيار البديل الوحيد وهو الذهاب إلى روما لطلب التدخل البابوى . وكان لابد لجريجورى السابع من اقتناص الفرصة لو كان هو القائم على عرش بطرس ، ولكن البابا آنذاك كان شخصا آخر من الرهبان الكلونيين هو أربان الثانى الذى لم يكن يميل إلى الدخول فى منازعات مريرة . فقد كان أربان قد فرغ لتوه من عقد معاهدة مع حاكم صقلية النورمانى مكنته من إحكام سيطرته على الكنيسة فى صقلية ، وكان من دواعى حزن آنسلم وغمه أن مضى البابا فى سبيله لكى يعقد معاهدة مماثلة مع الملك الإنجليزى . وكان هذا ببساطة إعمالا لمبدأ المعاملة بالمثل quid pro quo ، إذ أن روفوس اعترف بأربان الثانى بدلا من البابا المضاد ، كما أعلن أربان موافقته على نظام العلاقات بين الكنيسة والدولة الأنجلو - نورمانية .

وجاء إرتقاء هنرى الأول (١١٠٠ - ١١٣٥) الأخ الأصغر لروفوس ، والذى كان على شاكلة أبيه فى كل شئ ، لعرش إنجلترا ، وارتقاء باسكال الثانى لعرش البابوية ، ليغير الموقف بشكل جذرى . وما أن حلت سنة ١١٠٣ حتى كان كل من الملك الملك الإنجليزى والبابا منغمسين فى نزاع مرير حول التقليد العلمانى . فقد وقع البابا قرار الحرمان على أحد الدوقات النورمان ، وكان كبيراً لمستشارى هنرى ، وهدد البابا بتوقيع قرار الحرمان على الملك نفسه فى الخطوة التالية . ولم يعد بإمكان أحد ، حتى آنسلم ودعوته إلى الاعتدال ، أن يغير من إتجاه الصراع الممتد . وكلف الملك الأنجلو - نورمانى القوى ، أبرز مؤيديه الكنسيين ، وهو كبير أساقفة يورك ، جيرارد ، بإحياء تقاليد الملكية الأنجلو - سكسونية دفاعا عن الحق الملكى فى تعيين رجال الكنيسة . ومقالات مؤلف يورك المجهول Anonymus of York ، التى كانت نتاجًا لهذا الصراع ، مبعث بهجة وسرور للدراسين المهتمين بالنظرية السياسية فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكنها لاتنقل لنا بأى حال شكل ونمط الملكية الأنجلو - نورمانية ، التى جعلت أساس الملكية هو الأداة البيروقراطية القانونية والإدارية بدلا من الأيديولوجية الدينية

التى لم توافق حاجات العصر . وعلى أية حال ، كان هنرى يعتبر أنه حتى تقاليد الملكية الثيوقراطية البالية يمكن أن تكون ذات فائدة فى حال نشوب صراع طويل الأمد ضد البابوية .

ومهما يكن من أمر ، فإن النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى كان قصير الأمد . فقد انسحب آنسلم إلى منفاه تاركًا الملك والبابا يخوضان الصراع فيما بينهما ، وظل الأساقفة ومقدمو الأديرة الإنجليز على ولائهم للنظام السائد فى العلاقات بين الدولة والكنيسة . وتحول اهتمام باسكال الثانى سنة ١١٩٦ صوب مشروع حملة صليبية ضد القسطنطينية ، وكان يأمل، دون جدوى ، فى أن يؤيد هنرى هذا المشروع . ولذا وافق على اقتراح الملك بالمصالحة على أساس المبدأ الذى سارت عليه الملكية الأنجلو - نورمانية طويلا ، وهو مبدأ التمييز بين الإمكانات الدينية والإمكانات الإقطاعية - السياسية لكبار رجال الكنيسة . وبمقتضى معاهدة لندن سنة ١١٠٧ ، أعلن هنرى خضوعه الرمزى لروما بأن تخلى عن التقليد العلمانى ، لكنه احتفظ لنفسه بسلطة كاملة على الأساقفة ومقدمى الأديرة فى إنجلترا بفضل التبعية الإقطاعية التى فرضها على الكنيسة .

ولم يمر النزاع حول التقليد العلمانى دونما نتائج . إذ أن هنرى تنبه إلى الأخطار الكامنة فى طيات التحالف بين الملكية الإنجليزية والكنيسة ، وهو التحالف الذى كان يتهدده التدخل البابوى ، كما أن هذا النزاع شجع هنرى على تنمية قوته العلمانية الخالصة من خلال مواصلة بناء البيروقراطية الإدارية . وبعد النزاع حول التقليد العلمانى تخلى هنرى عن سياسة آبائه فى استخدام العلماء الديريين فى الجهاز الإدارى ، لأن الرهبان أثبتوا أنهم أكثر تأثرًا بالأفكار الجريجورية وأكثر خضوعا لروما . واستخدم بدلا منهم كتبة من رجال الكنيسة - لأنه لم يكن هناك متعلمون من غير رجال الكنيسة فى إنجلترا آنذاك - الذين يرون مصالح الملك باعتبارهم بيروقراطيين محترفين مخلصين . ومثل أولئك الموظفين الذين جمعوا بين الغلظة والقسوة من جهة ، والمقدرة الفائقة من جهة أخرى ، هم الذين كافأهم الملك بتعيينهم فى الوظائف الأسقفية ذات العائد الكبير . وقد توسع هنرى فى استخدام البدل النقدى Scutage الذى ابتدعه أبوه لكى يقلل من اعتماد الملكية الأنجلو - نورمانية على خدمة الفرسان المجندين من أراضى الكنيسة . وازدادت كفاءة الخزانة الإنجليزية بفضل إقامة جهاز حسابى متحكم عرف باسم وزارة المالية Exchequer ، وهى وزارة اقتبست من القارة الأوربية نظام المحاسبة على أساس تعدادات مختلفة . وكانت وزارة المالية تحفظ السجلات الخاصة على الدخل والنفقات الملكية ،

وهى السجلات التى عرفت باسم Pipe rolls ، ولم يكن هناك نظام شبيه بهذا النظام فى المحاسبات فى مملكة آل كابيه بفرنسا حتى مطلع القرن الثالث عشر . كذلك أمكن تحقيق الفعالية للمحاكم ، كما أحكمت السيطرة على محاكم القاطعات عن طريق إرسال لجان دورية من القضاة الجوالين العاملين فى بلاط الملك Curia regis لكى يترأسوا محاكم البلاد . وبحلول سنة ١١٣٥ كانت مؤسسات الملكية الإنجليزية تسبق الممالك الأوربية كثيراً ، لدرجة أن الكتاب الملكيين كانوا قادرين على أن ينسبوا إلى الملك هنرى الأول اختصاصات الإمبراطور فى القانون الرومانى « **فهو الذى يشع منه القانون والسلطان ليغمر كافة أرجاء المملكة** » . وكان هذا هو الموقف السائد أيضا فى نورماندى التى انتزعها من أخيه الضعيف روبرت بالغزو.

وحينما كان نبلاء فرنسا وألمانيا فى ذروة ازدهار سلطاتهم الإقليمية ، كان البارونات الإنجليز ، محكومين تماما بالمؤسسات الملكية النامية ، كما أخذت امتيازاتهم الإقطاعية تتبخر إزاء تقدم الجهاز البيروقراطى الملكى . وكانت الإمكانية الوحيدة لإعادة نمو السلطة الملكية تتوقف على حدوث أزمة حول وراثة العرش مما يتيح للبارونات الإنجليز أن يلعبوا بمرشح ضد آخر ، وكان من أسباب خيبة أمل هنرى أن صار هذا الاحتمال وارداً بالفعل بعد موت ابنه الوحيد . وكانت ابنته ماتيلدا هى وريثه الشرعى الوحيد الباقى ، وكانت قد تزوجت مرة من الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس ، وكانت آنذاك زوجة لكونت أنجو Anjou . ولم يكن ثمة مبدأ فى القانون الإنجليزى يحرم المرأة من تولى العرش . ولكن ماتيلدا كانت حمقاء متعالية بحيث جلبت على نفسها عداء الجميع ، كما أن النبلاء ، على أية حال ، كانوا قد عقدوا العزم على انتهاز هذه الفرصة النادرة لكى يوقفوا المد المتزايد للسلطة الملكية . وبعد موت هنرى الأول أعاد كثيرون من النبلاء الطموحين إحياء المبدأ الإنتخابى الجرمانى ونفضوا عنه غبار الأهمال ، ليقفوا بجانب ابن أخت هنرى (أحد أبناء بنت وليم الفاتح) ، وهو المغامر المستهتر ستيفن بلوا Stepen of Blois الذى ظهر فى إنجلترا مطالبا بالعرش . وقد عرفت السنوات العشرون التى دارت أثناءها رحى حرب أهلية مدمرة باسم « عصر الفوضى anarchy » . بيد أن هذه الفترة لم تكن كذلك بكل تأكيد ، لأن الأداة المركزية السياسية ، والقانونية ، والمالية للحكومة الملكية لم تختف بأى حال ، على الرغم من الضعف الذى اعتراها بسبب اختفاء قوة الدفع . ومع غروب شمس أربعينيات القرن الثانى عشر ، كان صغار النبلاء فى انجلترا ، ممن

عرفوا باسم طبقة الفرسان ، قد سئموا استمرار الصراع الذى لم يكن يخدم سوى مصالح عائلات كبار البارونات ، بل إن كثيرين من أولئك السادة الإقطاعيين اللامعين باتوا يتوقون إلى السلام والأمن الذى تحققه العدالة الملكية . وتم التوصل إلى اتفاق وسط تولى العرش بمقتضاه هنرى الثانى ، ابن ماتيلدا ، أول ملوك أسرة أنجو ، ومات ستيفن بلوا سنة ١١٥٤ .

وكان على هنرى والإداريين العاملين أن يكلوا ويكدحوا لاستعادة الأراضى التى خسروها إبان العشرين سنة السابقة ، ولكن الملك أفاد من الدروس المكتسبة أثناء الحرب الأهلية نفسها. فى عمله من أجل إعادة بناء المؤسسات الملكية التى كانت قائمة فى عهد جده ، ثم لتطوير سلطة البيروقراطية وبعد أكثر من ستين سنة من تركيز السلطة فى انجلترا كانت طبقة ملاك الأراضى قد ذاقت طعم الفوضى الإقطاعية السائدة فى أوربا . ولكنهم فى سنة ١١٤٥ كانوا قد اقتنعوا تماما بالفوائد والمكاسب التى حققها وليم الفاتح وأبناؤه لإنجلترا ، وكانوا مستعدين للامتثال لعملية تطوير الدولة الأنجلو - نورمانية .



الفصل الرابع عشر
الحملة الصليبية الأولى ومابعدها

١ - أصول المثال الصليبى :

فى المفهوم الشعبى ترتبط حضارة العصور الوسطى ارتباطا فعليا بالحروب الصليبية . فالحادث الوحيد الذى يعرفه الخريج العادى من الجامعات الأمريكية من بين حوادث القرن الحادى عشر هو بالضرورة الحملة الصليبية الأولى التى حدثت سنة ١٠٩٥ ، والتى لابد أن يتصوروها فى صورة فرسان عمالقة يرتدون بزات عسكرية براقة ، ويمتطون جياداً فارهة ، يتبعون شارة الصليب ليحرزوا النصر على أبناء القبائل العربية ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائرة . وليس هناك جانب واحد صحيح تماما فى هذه الصورة . ذلك أن متوسط قامة الفارس فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن تتعدى خمسة أقدام وثلاث بوصات ، بسبب سوء التغذية فى الصغر ، وبسبب سوء التغذية والعلاج بشكل عام . وكان فرسان الحملة الصليبية الأولى ، فى غالبيتهم ، يرتدون قمصان الزرد وليس البزات المصفحة التى لم ينتشر استخدامها سوى فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر . أما خيولهم ، فكانت هزيلة جداً بالمقاييس الحديثة ، بل وحتى بمقاييس القرن الثالث عشر ؛ إذ أن التهجين المتزايد بسلالات الخيول العربية الأرقى هو الذى حسّن نسل الخيول الأوربية فى القرني التاليين . لقد تبع فرسان الحملة الأولى شارة الصليب حقا ؛ ولكن ذلك لم يكن لأغراض دينية بحتة . وأخيراً ، فإن العرب كانوا يماثلون فرسان الغرب شجاعة ومهارة فى القتال ، وكان الضعف الداخلى الذى اعترى العالم الإسلامى، وليس عدم الكفاية الشخصية للمحاربين العرب ، سبب نجاح الحملة الصليبية الأولى .

ووجه الخطأ فى المفهوم التاريخى الشعبى عن الحملة الصليبية الأولى لايتمثل فى هذه الأغلاط التفصيلية ، بقدر مايتمثل فى الميل إلى المبالغة فى أهمية المثال الصليبى فى الحياة فى العصور الوسطى . بل إن الكثيرين من المؤرخين المحترفين ممن تخصصوا فى العصور الوسطى ، ولاسيما فى الولايات المتحدة ، يميلون إلى النظر للحروب الصليبية باعتبارها العامل الأساسى فى التغير التاريخى منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر ، كما أنهم شغوفون بالكتابة بحماسة تنقصها الدقة تجعل القارئ غير الفطن يخلط بين الحروب الصليبية وحضارة العصور الوسطى ذاتها . ومثل هذه الآراء ليست سوى لغو فارغ . فالحرب الصليبية فصل هام فى تطور العصور الوسطى ، ولكن السبب فى ذلك يرجع أساسا إلى كونها

تعبيراً عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك . وكان لها بالفعل تأثير بسيط على مجرى التطور الأوربى ، ولكن هذا التأثير لم يكن كافيا لتغيير اتجاه تطور الحكومة والاقتصاد والثقافة على أية حال . فالحروب الصليبية فى جوهرها توضيح درامى له مغزاه الهام للجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى : إذ أنها عامل سببى محدود للغاية فى التغير التاريخى الذى حدث فى تلك الفترة . وعامة ، يمكن القول بأن الحروب الصليبية تكشف عن الناس فى العصور الوسطى فى أفضل أحوالهم وأسوئها فى آن واحد ؛ فهذه الحروب مسرح كبير تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادى ؛ وهذا فقط هو السبب الذى من أجله تستحق الحروب الصليبية أن ندرسها .

لقد قام مؤرخ العصور الوسطى الألمانى الكبير كارل اردمان Carl Erdmann بتحليل ذكى لأصول المثال الصليبى فى ثلاثينيات القرن العشرين ، وقد لقى كتابه المثير للجدل - ربما لأنه يضع الحروب الصليبية داخل المنظور العام لثقافة العصور الوسطى - تجاهلا كبيراً من المهتمين بدراسة الحروب الصليبية فى الجامعات الأمريكية . ومن الضرورى أن نبحث عن أصول فكرة الحروب الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، وأن نتأمل كيف خرجت الفكرة اللاتينية عن الحرب المقدسة من هذه الخلفية . فحين فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا فى القرن الثامن ، لاذت مجموعة صغيرة من الفرسان المسيحيين وأتباعهم بالجبال الشمالية ، ومن هذه الجبال بدأوا حرب الاسترداد reconquista فى القرن العاشر . وفى القرن الحادى عشر أحرز أولئك المسيحيون الأسبان أولى انتصاراتهم بفضل التشرذم السياسى الذى عانى منه المسلمون الأسبان ، وما أن أهلت سنة ١١٠٠ حتى كانوا يسيطرون على مساحة تتراوح بين ربع وخمس المساحة الكلية للبلاد . وقد زحف مد حركة الاسترداد ببطء عنيد صوب الجنوب ، ومع أن طرد المسلمين نهائيا لم يتم سوى فى سنة ١٤٩٢ م . فإن الشطر الأكبر من شبه الجزيرة كان قد خضع لحكم الملوك المسيحيين منذ منتصف القرن الثالث عشر . لقد كانت حركة الاسترداد هى النغمة الدالة فى تاريخ أسبانيا المسيحية . وفى رأى بعض المؤرخين أنها كانت عامل الحسم فى تكوين الشخصية الأسبانية المتميزة . إذ أن المجتمع الأيبيرى ككل قد نمت أصوله فى ساحة حرب طاحنة ضد الإسلام على مدى خمسة قرون من الزمان ، كما أن بنية المؤسسات الأسبانية قد نظمت على أساس الالتفاف حول قائد الحرب وضرورات الحرب الهجومية . وربما يكون الأسبان المسيحيون قد قلدوا ، وربما بطريقة غير واعية ، مبدأ الجهاد الإسلامى بعقيدته القائلة إن أفضل نهاية للإنسان أن يموت مجاهداً فى سبيل الله . وقد صار التعصب الدينى والبسالة الحربية هى الخصال التى تلقى ترحيب المجتمع الأسبانى وتقديره أكثر

من غيرها ، وقد قيل إن هذا هو المفتاح الذى يحل أحاجى التاريخ الأسبانى وألغازه . إذ أن الطبقة المسيحية الحاكمة لم تتعلم شيئا على الإطلاق سوى القتال ، وبينما أدت الطاقة العداونية والمهارة العسكرية إلى قيام الإمبراطوريات الأيبيرية الكبرى فيما وراء البحار ، ظلت أسبانيا تفتقر إلى الخبرة السياسية والاقتصادية ، وإلى مؤسسات الفن والسلام ، مما حرمها من أن تفيد من هذه الانتصارات الأولية على المدى الطويل .

وأخذت البابوية الجريجورية تراقب الموقف فى حرب الاسترداد عن كثب بواسطة القصاد الرسوليين . ولعدة أسباب ، فكرية واستراتيجية ، وجدت أن هذه الحركة جديرة بالتقليد على المستوى العام . فقد كانت صلاحية الحرب المقدسة وإراقة الدماء فى سبيل الرب محل أخذ ورد. ذلك أن المسيحية زمن الحواريين أظهرت اتجاهات سلمية قوية ، ولكن سان أوغسطين برر استخدام القوة لصالح الكنيسة . وقد رأينا كيف كانت نظرة هيلدبراند تعبيرا قويا عن هذه الاتجاهات الأوغسطينية الجديدة . وقد أكد اردمان على أن النزعة العسكرية القوية لمسيحية القرن الحادى عشر ، والتى تجلت واضحة فى موقف زعماء البابوية الإصلاحية ، جعلت من الحرب ضد الإسلام اقتراحا جذابا . هذه هى العوامل الفكرية التى ألهمت جريجورى السابع أن يقترح شن حملة ضد الشرق ، تقودها البابوية ضد المسلمين . وعلى أية حال ، كانت هناك عوامل أخرى كامنة . فإن مثل هذه الحملة ستكون تعبيراً عن سمو زعامة البابا الأدبية على العالم الغربى (وكان هذا واحداً من مذاهب جريجورى الرئيسية) ، كما أنها سوف تشد شعوب الشمال إلى علاقات أكثر توطداً مع البابوية فى روما . وأخيراً فإن الغزو اللاتينى للشرق يمكن أن يكون خطوة كبيرة على طريق تأكيد الهيمنة البابوية فى الأراضى البيزنطية . فقد كان البلاط البابوى مهتما باستمرار الشقاق الذى وقع سنة ١٠٥٤ ، وكان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تكون أداة فعالة فى تأكيد مازعمته البابوية طويلا من سموها على الكنيسة البيزنطية [١].

---

١ - الواقع أن هناك جدلا شديدا بين المؤرخين حول إمكانية أن يكون جريجورى السابع هو الذى وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية ، حقيقة أنه كان قد اقترح تكوين حملة تحت زعامة البابوية تكون وجهتها القسطنطينية التى واجهت الخطر الإسلامى بعد معركة مانزكرت والهزيمة الساحقة للجيوش البيزنطية على أيدى الأتراك السلاجقة ، وحقيقة أيضا أن جريجورى السابع قد طلب من هنرى الرابع ، قبل اندلاع الصراع بينهما أن يرعى البابوية فى غيبته فى الشرق وقد رأى نفسه فى سرحة من سرحات الخيال قائداً لجيش =

كان الموقف في الشرق الأوسط في سبعينيات القرن الحادي عشر يمثل فرصة ممتازة لهذا التدخل اللاتيني . إذ كانت الدولة البيزنطية قد خارت قواها من جراء نمو السيادة الإقطاعية ، وبرهنت على عجزها عن الصمود أمام جيوش الأتراك السلاجقة المسلمين ، الذين كانوا آخر موجات الغزاة الآسيويين الذين توغلوا في عالم البحر المتوسط ذي المعاناة الطويلة . إذ كان الأتراك قد استعادوا أنطاكية من المسيحيين كما ألحقوا هزيمة ساحقة بالبيزنطيين في معركة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وكانوا آنذاك قد توغلوا في آسيا الصغرى وخشي الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus الذي كان يتميز بذكاء خارق وقدر من التردد ، من الخطر الذي بات يتهدد القسطنطينية نفسها ، ويمكن قياس مدى الخوف والوجل الذي اعترى الإمبراطور البيزنطي من خلال الحقيقة القائلة بأنه لجأ إلى البابا ، عدوه التقليدي ، يطلب منه المساعدة العسكرية . ولو كان جريجوري قد استطاع أن يقهر هنري الرابع ، فلاشك في أنه كان سيحاول أن يجعل من استغاثة اليكسيوس ميزة عاجلة تفيد منها البابوية حين تجرد جيشًا هدفه خدمة القضية اللاتينية وليس لخدمة البيزنطيين . ولكن استمرار الصراع حول النزاع العلماني حال دون تنظيم أية حملة صليبية أثناء بابوية جريجوري السابع . وقد ترك هذا الأمر لكي يقوم به إربان الثاني ، الذي كان أكثر اعتدالا من جريجوري السابع ، ولكنه لم يكن أقل منه طموحًا .

كان إربان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق أربعة أهداف فضلا عن هدفها الواضح الظاهر ، أي استعادة الأرض المقدسة من المسلمين . أول هذه الأهداف هو أن هذه الحملة ستؤدي إلى إعادة توحيد العالم المسيحي بعد المنازعات المريرة التي سببت انقسامه حول الإصلاح

= مسيحي يدخل القسطنطينية ليخلصها من الخطر الإسلامي ويوحدها تحت سيادة البابوية ، ولكن الحملة الصليبية كما جرت أيام أربان الثاني لم تكن تخطر بباله . ولم يكن تغيير الهدف الجغرافي من القسطنطينية إلى بيت المقدس هو وجه الاختلاف الوحيد ، وإنما شكل الحملة وهدفها النهائي أيضا مما جعل بعض المؤرخين يرون أن أربان الثاني هو الذي بدأ الحروب الصليبية وليس جريجوري السابع . ونحن نميل إلى أن نأخذ برأي هذا الفريق خاصة وأن مصطلح الحملة الصليبية ومثالها لم يعرف في الغرب سوى بعد أن اكتملت أحداث الحملة الأولى وحققت انجاراتها المذهلة . كذلك فإن المشتركين في الحملات الصليبية لم يطلق عليهم لقب «صليبي» سوى في أخريات القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣ ، وكان لقب المشارك في أية حملة صليبية حتى ذلك الحين هو «الحاج» (المترجم)

الجريجورى ، وثانيهما أنها ستزيد من هيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الإمبراطور الألمانى موجودين حتى فى روما نفسها . وثالث هذه الأهداف أن هذه الحملة ستعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية . وكان إربان قد حاول أن يُخْضِع الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا لسيطرة البابوية ، إلا أن خطته تحطمت على صخرة نزاع لاهوتى حول العلاقة بين الإله والإبن والروح القدس (وهو النزاع الذى عرف باسم النزاع الفيليوكى fil-ioque controvresy) كذلك كان يمكن للحملة الصليبية أن تدخل فى لب المسألة بأن تجعل الإمبراطور البيزنطى يعتمد على ، أو حتى يخضع ، لجيش لاتينى . أما القيمة الرابعة التى رآها إربان الثانى فى الحملة الصليبية ، فقد نبعث من كونه فرنسيا . إذ كان يعرف تماما أن الألمان لن ينضموا إلى مشروعه ، وأن الحاكم الأنجلو - نورمانى القوى لن يميل إلى المشاركة . وكان لابد أن تكون الجيوش الإقطاعية الفرنسية بمثابة العمود الفقرى للجيش الصليبى ، بغض النظر عن قوات النورمان الإيطاليين . وأدرك إربان أن الحملة صوب الشرق ستكون مواتية لحاجات الكثيرين من السادة الإقطاعيين والفرسان الفرنسيين ، كما أنها فى الوقت سوف تسخر طاقاتهم فى خدمة الكنيسة . فما أن غربت شمس القرن الحادى عشر حتى كانت حدود الدوقيات والكونتيات الفرنسية قد صارت حدودا ثابتة ، ونشأ نوع من التوازن البدائى فيما بينها . ومن ثم لم تكن هناك فرصة لدى كبار الأمراء الإقطاعيين الفرنسيين للغزو داخل أراض الوطن ، وهو الأمر الذى أقلق الكثيرين منهم وجعلهم يتحرقون شوقا للمغامرة فى الخارج . وفضلا عن ذلك ، فإن ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى ازدياد عدد الفرسان الذين لايملكون أرضا فى فرنسا والمستعدين لأن يدلوا بدلوهم فى حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والممتلكات فى الشرق الأوسط ، كذلك كان إبان الثانى يعلم تماما العلم أن موجة التدين السائد بين العلمانيين قد أثرت فى النبلاء الفرنسيين ، وكان إخلاصهم الظاهرى ، على الأقل ، للدين المسيحى مؤشراً على أن فكرة الحرب المقدسة سوف تروق لهم .

وقد خطط البابا لإعلان الحملة الصليبية بعناية شديدة . فقد دعا إلى عقد مجمع كنسى فى كليرمون بوسط فرنسا سنة ١٠٩٥ ، وحض الأساقفة ومقدمى الأديرة الفرنسيين على أن يحضروا معهم السادة الإقطاعيين البارزين فى مناطقهم . وقبل أن يصل إلى كليرمون كان يعلم بالفعل أن هناك واحداً على الأقل من كبار الأمراء الفرنسيين ، هو ريمون السانجيلى Raymond of St. Giles كونت تولوز ، سوف يأخذ شارة الصليب . وبما أن إربان بدأ دعوته العاطفية إلى « جنس الفرنجة » طالبا منهم الانضمام إلى الحملة الصليبية فإنه كان يتوقع

منهم استجابة طيبة حقا . وكانت خطبته مثالا رائعا على الخطب البليغة المؤثرة فى التاريخ الأوروبى . فقد لمس أوتار كل دافع كان يمكن أن يكون موجوداً لدى أى من الفرسان الفرنسيين : سواء كان هذا الدافع دينيا أو غير ذلك ، يدفعه إلى أخذ شارة الصليب . وأسهب إربان فى ذكر مايعانيه المسيحيون فى الأرض المقدسة على أيدى الأتراك السلاجقة ، وذكر الخطر الجسيم المحدق ببزنطة من جراء الزحف الإسلامى . وذكَّر الفرسان الفرنسيين بما اشتهروا به من شجاعة وتقوى : داعيًا إياهم إلى إنقاذ الضريح المقدس من أيدى المسلمين . كما طرح أمام مستمعيه إمكانية إقامة ممالك فى فلسطين « الأرض التى تفيض باللبن والعسل » . ووعد ببسط الحماية البابوية على أملاك وعائلة كل من يشارك فى الحملة الصليبية . وأخيراً ، فإنه باعتباره من يحفظ مفاتيح ملكوت السماء وعد من يشاركون فى الحملة بغفران خطاياهم .

هذا الحافز الأخير يقترب من التأكيد القرآنى بأن الجنة نصيب المقاتل الذى يستشهد فى سبيل الله ، وقد أسئ استخدام الغفران الصليبى فى القرون التالية بدرجة كبيرة بحيث كانت صيغته النهائية عرضه للهجوم الذى شنه مارتن لوثر فى القرن السادس عشر ، كما تعرضت أيضا للهجوم من جانب مجمع ترنت Trent . وفى القرن الثانى عشر طورت الكنيسة نظام الغفران لمن ينيب عنه شخصا فى الحملة الصليبية أى عن طريق إعانة الصليبيين بالمساعدة المالية . وبحلول القرن الرابع عشر كانت البابوية تسمح ببيع صكوك الغفران حتى بدون هذه الذريعة الصليبية ، على النحو الذى أجاد شوسر Chaucer تصويره فى « حكايات كانتربورى Cantirbury Tales »[٢] . ولكن فكرة إربان الأصلية عن الغفران الصليبى لم يكن بها شئ

---

٢ - جيوفرى شوسر Geoffrey Chaucer شاعر إنجليزى كان أبنا لأحد تجار الخمور فى لندن ثم خدم كوصيف فى بلاط إدوارد الثالث ، وتبعه فى حملاته ضد فرنسا . وقد أسر سنة١٢٥٩ فدفع الملك فديته وحرره. وبعد عودته إلى انجلترا أستأنف الخدمة فى بلاط إدوارد فى مهام متعددة من بينها المهام الدبلوماسية، وفى عهد ريتشارد الثانى استمر فى خدمة البلاط الملكى خلال المناصب الصغيرة التى تولاها . وأهم مؤلفاته « حكايات كانتربورى » التى كتبه مابين سنة ١٣٨٦ وسنة ١٣٩٠ ، وهو المؤلف الذى جعل له هذه الشهرة المدوية . والحكايات التى يرويها عن الحياة الإنجليزية فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، التى تدور حول رحلة إلى مزار سان توماس بيكيت فى كانتربورى ، حيث تتوافد مختلف أنماط الطبقات الاجتماعية لزيارة القديس وحيث يتبادل الجميع القصص والروايات - هذه الحكايات تعتبر تمثيلا حقيقيا للواقع التاريخى آنذاك . لأن « حكايات كانتربورى » فى مجملها تعبير عن الروح العلمانية التى سادت فى ذلك الحين ، كما أنها تعتبر نقداً يتناول تصرفات الأكليروس ويعبر عن نظرة العلمانيين إليهم . انظر :

H.S.Benett , Chaucer and 15th Centuty England (1947) .

(المترجم)

من سوء المقصد . فقد كان الغفران فى رأية شكلا إعفائيا من التكفير عن الذنوب ، وكان يعتمد فى صلاحيته على التوبة الحقة . وعلى أية حال ، فإنه ترك هذه الجوانب اللاهوتية عن الغفران الصليبى غامضة إلى حد ما ، ومن المحتمل أن كثيرين من الفرسان الفرنسيين انساقوا إلى الاعتقاد بأن أخذ شارة الصليب فى حد ذاته يضمن لهم المكافأة السماوية . ومع أن الدوافع التى تشكلها المصالح الذاتية لعبت دوراً هامًا للغاية فى بدء الحركة الصليبية - والواقع أن إربان قد شجع هذا الاتجاه فى خطبته - فالحقيقة أن كثيرين قد أخذوا شارة الصليب لأسباب دينية . إذ أخبرنا شهود العيان أنه عندما انتهى إربان من خطبته فى مجمع كليرمون ردد المجتمعون صيحة هائلة تقول Deus vult « الرب يريدها » وتقدم العديد من السادة الإقطاعيين والفرسان لأخذ شارة الصليب . ومُزقت العباءات الحمراء إلى شرائط خيطت على شكل صلبان فوق صديريات الفرسان .

هذا المشهد العاطفى تكرر فى شتى أنحاء فرنسا وجنوب إيطاليا استجابة لرسالة إربان التى تولى نشرها المندوبون البابويون ، أو القصاد الرسوليون . والواقع أنه يبدو أن إربان لم يكن يتوقع لخطبته فى كليرمون أن تؤتى مثل هذه النتيجة . ذلك أنه لم يكن على استعداد لأن يقوم بتنظيم سريع لجماعات الفرسان المختلفة التى أخذت تصخب آنذاك بالاستعداد للانطلاق صوب الأرض المقدسة . ولم تبدأ الحملة الصليبية الأولى سوى فى العام التالى . ومن المؤكد أن أحداً فى البلاط البابوى لم يكن يتوقع هذا التأثير المدوى للدعوة التى وجهها إربان فى كليرمون . وقبل أن يتمكن الفرسان الفرنسيون من الانطلاق فى حملتهم ، انطلقت «حملة شعبية » تألفت من الغوغاء الجامحين فى أحياء مدن الراين القذرة بصورة عشوائية صوب الأرض المقدسة . وتحت قيادة المبشرين الشعبيين من طراز « بطرس الناسك » ارتكبوا مذابح شنعاء ضد جماهير اليهود الأغنياء فى مدنهم ، ثم تحركوا عبر ألمانيا والبلقان مثل أسراب الجراد حتى وصلوا إلى بوابات القسطنطينية ، وسرعان مانقلهم الإمبراطور البيزنطى الخائف عبر الدردنيل حيث قضى عليهم الأتراك السلاجقة . كان رد الفعل الشعبى هذا واحداً من أهم جوانب الحملة الصليبية الأولى ، لأنه كشف بجلاء عن النظرة الألفية المتعلقة بسفر الرؤيا والتى كانت الطبقات الوسطى والدنيا فى مدن أوربا ترى الأمور بها . كانت البابوية قد واجهت المشاعر الألفية فعلا فى ميلانو ؛ حيث عبر التمرد الاجتماعى عن نفسه من خلال التدين العاطفى . لقد كانت دعوة إربان تعنى شيئا لمن شاركوا فى الحملة الصليبية الشعبية لم

يكن البابا نفسه يفهمه . فقد كانوا يتوقون إلى التحرر من ربقة الإحباط والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة ، واكتشفوا فى عبارات البابا نغمات أخروية خلاصية كانت فى الواقع أبعد ماتكون عن نظرة البابا الدنيوية . إن الحملة الشعبية لمحة غير عادية تسلط الضوء على الأشكال المغرقة فى العاطفية والثورية التى أتخذتها حركة التدين الجديدة فى مناطق المدن التى انبعثت منها حركات الهرطقة الشعبية فى أخريات القرن الثانى عشر ، كما تجلى من خلالها عجز البابوية عن مواجهة هذا التدين الجماهيرى . بل إن المؤرخ الإنجليزى اللامع نورمان كوهن Norman Cohn قد توصل إلى مغزى أكثر شمولا فى « أثر الألف سنة » الذى ألهم الحملة الشعبية ؛ فهو يعتبر أنها المرة الأولى فى التاريخ الأوربى التى يتجلى فيها هذا التعصب الشعبى للطبقات الدنيا ، وهو التعصب الذى يرى أنه عبر عن نفسه تعبيراً ناضجًا فى الفاشية الحديثة . هذا التفسير له بعض المبررات ، ولكننا قد نرى أيضا فى أتباع بطرس الناسك النماذج الأولى لدعاة إعادة التعميد Anabaptists ، والداعين إلى إلغاء الفوارق الطبقية Levellers وغيرهم من الديموقراطيين الدينيين الذين ظهروا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

على أية حال ، فإن البابوية أشاحت بوجهها عن الزلزال الاجتماعى الذى أحدثته الحملة الشعبية دونما مبالاة ، وعكفت على تنظيم الأمراء والفرسان الإقطاعيين الفرنسيين فى جيش صليبى . وتكشف الدوافع المختلفة لدى زعماء الحملة الصليبية الأولى عن الاتجاه العقلانى المتزايد بين النبلاء الأوربيين ؛ وهى العقلانية التى تميز مواقفهم عن تلك النظرة الطائشة المتهورة التى كانت تحكم أبناء هذه الطبقة فى القرن العاشر . فقد كان التدين الحقيقى دافعًا لغالبيتهم ، ولكنهم كانوا يتحركون صوب الأرض المقدسة لأسباب ودوافع أخرى أيضا ، فالبعض مثل ريمون كونت تولوز ، وجودفرى دوق اللورين ، كان يؤرقهم عدم وجود فرصة لإظهار البسالة والمغامرة فى الوطن . والبعض الآخر مثل روبير كورتوز Robert Curthose دوق نورماندى والأبن الأكبر لوليم الفاتح ، كانوا يريدون استعادة الهيبة التى فقدوها فى وطنهم بإحرازهم نصر كبير فى الشرق . وقد انضم ستيفن بلوا إلى الحملة لأن زوجته ، الإبنة الطموح لوليم الفاتح ، قد حملته على الإنضمام . أما النورمان فى إيطاليا فكانوا مدفوعين بكراهيتهم المتأصلة للإمبراطورية البيزنطية ، وبرغبة أكيدة فى أن ينتزعوا لأنفسهم بعض الممتلكات فى الشرق على حساب الإمبراطور . ذلك أنهم كانوا يرون فى الحملة الصليبية

تجريدة ضد الإمبراطورية البيزنطية أكثر من كونها حربًا ضد الإسلام . فقد كان بوهمند ، أبرز زعمائهم ، قد قاد حملة فاشلة لغزو الإمبراطورية ، ثم جرب مغامرة فاشلة أخرى بتشجيع من البابوية سنة ١١٠٦ . أما المدن الإيطالية التجارية في الشمال ، والبندقية على نحو خاص ، فكانت متحمسة للحملة الصليبية ، ولكن لأسباب غير دينية . فقد كانت هذه المدن التجارية ترى أن الحملة الصليبية خطوة أخرى على طريق توغلها في عالم البحر المتوسط لمنافسة التجار المسلمين على نحو أكثر فعالية . وقد نال البنادقة مكافأتهم على قيامهم بنقل الإمدادت للصليبيين بمجرد وصولهم إلى سوريا وفلسطين .

وعلى الرغم من أن أحداً من الملوك الأوربيين لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى ؛ فقد كان زعماء هذه الحملة في غالبيتهم أمراء يتميزون بالقدرة والبسالة . وتمثلت نقطة ضعفهم الكبرى في عدم اتفاقهم على قائد واحد ، وكان السبب في ذلك أنهم كانوا جميعا أبناء شريحة اجتماعية واحدة ، وأخيراً ، عين البابا أسقفًا فرنسيًا ليكون قائداً إسميا للحملة ، ولكن الحملة الصليبية تميزت من بدايتها إلى نهايتها بالشجار بين الأمراء وبين أفصالهم . وهناك عيب آخر يمكن اغتفاره تمثل في جهل زعماء الحملة الفادح بالمعالم الجغرافية والمناخ ، والنظم السياسية في البلاد الإسلامية ، ولكن الصليبيين تأقلموا مع بيئتهم الجديدة بسرعة لافتة للنظر . وقد زودهم اليكسيوس كومنينوس ببعض المعلومات القيمة ، كما أمدهم البنادقة بالمزيد من هذه المعلومات .

وأخيراً ، انطلق الصليبيون في سنة ١٠٩٦ على الطريق البرى عبر ألمانيا والبلقان إلى بيزنطة ، التي كانت نقطة الوثوب على العالم الإسلامي . كانت الحملة الشعبية قد عبرت هذا الطريق من قبل ، وتصرف الفرنج – وهو الاسم الذى أطلقه العرب والبيزنطيون على الصليبيين جميعا – بطريقة مماثلة . إذ أنهم ارتكبوا المذابح ضد اليهود في مدن الراين ، كما أساءوا إلى شعوب البلقان وسرقوها أثناء عبورهم لهذه المناطق . وقد رحب بهم اليكسيوس كومنينوس ترحيبًا حذراً وتوجس منهم شراً . لقد سره أن يتلقى مدداً لاتينيا ، ولكن المؤكد أن هذا لم يكن هو نوع المساعدة التي كان يتصورها ، كما كان يخشى أن يتطلع الصليبيون إلى انتزاع ماتبقى من الإمبراطورية البيزنطية ، قدر اهتمامهم بمهاجمة المسلمين ، لاسيما حينما رأى بوهيموند ، عدوه القديم ، بين الصليبيين . ونقلهم عبر المضيق إلى آسيا الصغرى بأقصى سرعة ممكنة . ولم يكن رد فعل الفرنج تجاه القسطنطينية ليختلف كثيراً عن موقف لويدبراند ،

قبل خمسين سنة من هذا التاريخ ، فى كريمونا Cremona . فحين ألفى زعماء الحملة الصليبية أنفسهم وجها لوجه مع ثروة بيزنطة وقوتها العسكرية أدركوا مدى ضآلة فرصتهم فى الاستيلاء على المدينة الذهبية القائمة على ضفاف البسفور . وكان عليهم أن يقنعوا بتكوين إمارات إقطاعية فى بلاد الشام وفلسطين ، وبذلك ينالون من الإمبراطور حين يقيمون إمارات لاتينية فوق الأرض التى تنادى القسطنطينية بملكيتها ، وحين يبنون معقلا للكنيسة الرومانية فى شرق المتوسط .

فى مواجهة عظمة بيزنطة وحضارتها انتاب الفرنج شعور بالنقص كبير فلجأوا إلى تعويض بداوتهم وغلظتهم بالقول بإن البيزنطيين مخنثون فاسدون . والواقع أن أعضاء البلاط البيزنطى المهذبين كانوا على حق فى النظر إلى الفرنج باعتبارهم أجلافا غير متحضرين . كان هناك قدر من الصحة فى النقد الذى وجهه كل طرف للطرف الآخر ، ولكن الفرنج كانوا يمثلون حضارة فتية تتدفق حيوية ، على حين كانت بيزنطة عاقراً تعانى من الذبول والتدهور ، كما كان على بيزنطة أن تعتمد على أعدائها الغربيين للخلاص من عدوها الجاثم على أنفاسها . هذه المواجهة الأخاذة بين البلاط الإمبراطورى البيزنطى ، قلعة الحذلقة ، وبين الإقطاعيين الفرنسين الأجلاف الواعدين كانت ذات مغزى كبير ، لأنها كانت رمزاً للمواجهة بين يوم يميل إلى الغروب ويوم يبزغ نور فجره .

لقد حالت سذاجة زعماء الحملة الأولى بينهم وبين إدراك مدى عظمة المهمة التى أخذوا على عاتقهم القيام بها . فلم تكن قوة الجيش الصليبى كلها تزيد عن خمسة آلاف فارس ، وربما أقل ، ولم يكن العالم الإسلامى فى حالة اتحاده ليجد صعوبة تذكر فى القضاء على الغزاة . ولكن توغل الأتراك السلاجقة فى شرق المتوسط قلب النظام السياسى السائد رأسا على عقب، وتسبب فى منازعات داخلية مريرة بين الأمراء العرب . وقد أبدى الصليبيون شجاعة لاتبارى ، وأظهروا مهارة عسكرية فائقة ، وفى لحظة حرجة ، وحين كانت قلوبهم تخفق من الخوف والوجل، دفعهم اكتشاف ما أشيع أنه بعض الذخائر المقدسة الهامة إلى مواصلة الغزو (٣).

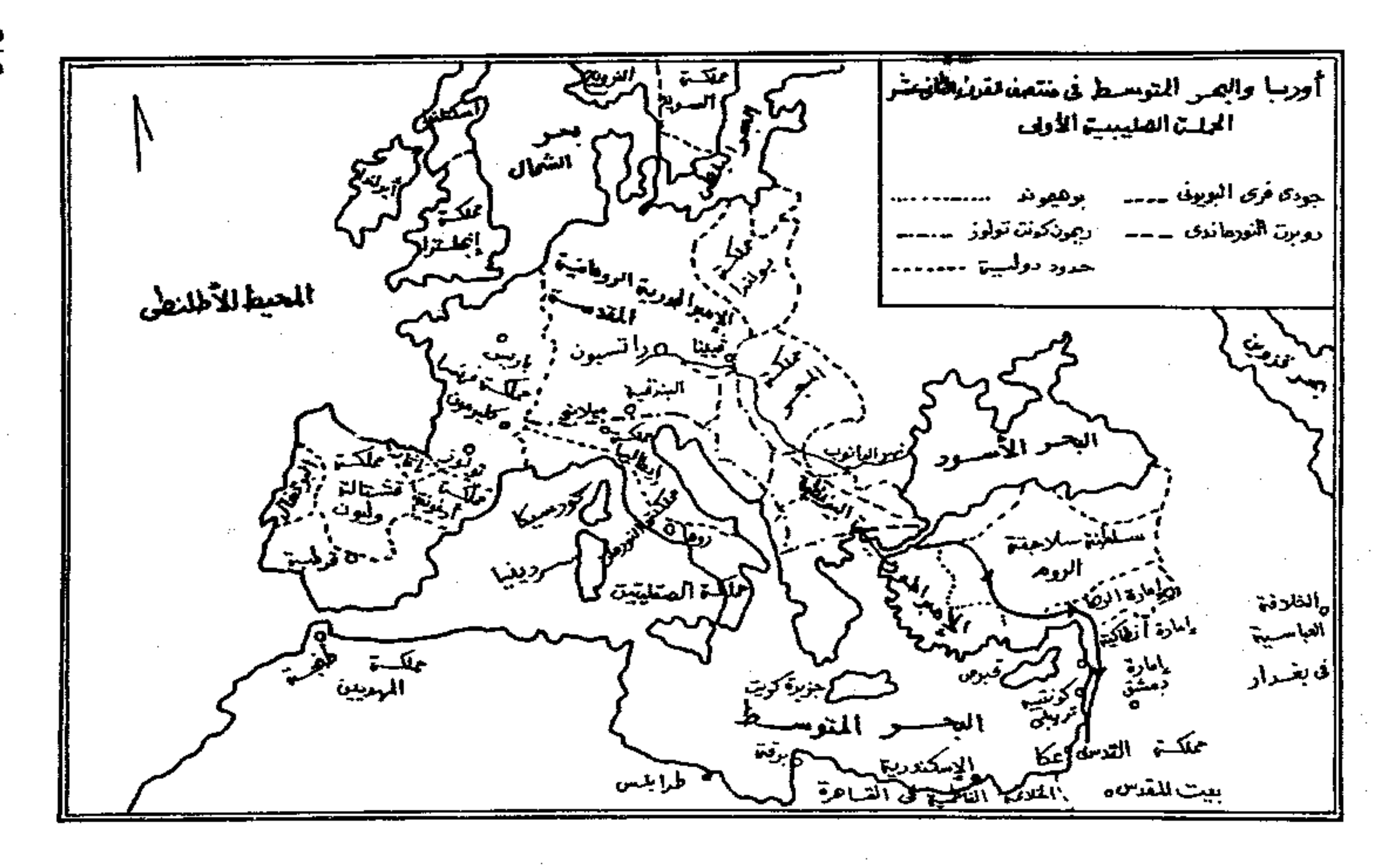
---

٣ - هذه إشارة إلى الحوادث التى جرت فى أنطاكية بعد احتلال الصليبيين لها ثم وصول قوات الجيش الإسلامى الكبير لتحاصرهم بقيادة كربوقا داخل المدينة حتى ساءت أحوالهم ، وجاعوا بالدرجة التى جعلتهم يأكلون حشائش الأرض ونباتاتها البرية ، ويذبحون دوابهم ليأكلوها . وبدا أن الصليبيين المحاصرين فى أنطاكية فى حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة . وقد حدثت المعجزة حين خرج أحد القساوسة =

ولكن الحقيقة تبقى أن تفرق المسلمين المؤقت وعجزهم عن إقامة جبهة موحدة هو الذى لعب دوراً هائلا فى النصر الذى أحرزه الصليبيون ، فقد ساروا عبر آسيا الصغرى إلى بلاد الشام واستولوا على أنطاكية بعد حصار طويل . واغتصب بوهيموند لنفسه حكم المدينة ، وجعل نفسه أميراً على أنطاكية فى زمن قصير ؛ كما كان هناك زعيم آخر من زعماء الصليبيين يناضل ليقيم إمارة إقطاعية فى الشرق الأوسط . ولكن الآخرين واصلوا السير ، واستولوا على القدس بعد صراع مرير وقضوا على المدنيين من المسلمين واليهود فى مذبحة بشعة .

لقد كان نجاح الحملة الصليبية هو النتيجة الختامية للتوغل فى عالم البحر المتوسط الذى بدأته مدن الشمال الإيطالى منذ القرن العاشر ، وهو التوغل الذى تصاعدت حركته بسبب غزو النورمان لجنوب إيطاليا . لقد كان ذلك نتيجة ، ولم يكن سببا ، لتغيرات أخرى هامة جرت على الحضارة الغربية . وبينما لايثور الشك فى أن الحملة الصليبية الأولى قد زادت من إدراك الأوربيين لثروات الشرق الأوسط ، وزادت من إقبال أوربا على التوابل وغيرها من المنتجات الشرقية ، فمن المؤكد أيضا أنها لم تتسبب فى إقامة العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لأن هذا التطور كان قد تم بالفعل على نطاق واسع فى القرن السابق . كما أن الحملة الصليبية الأولى لم تلعب دوراً فى إقامة العلاقات الفكرية والثقافية بين العالم الإسلامى والعالم اللاتينى ، وهى العلاقات التى تسببت فى الثورة التى شهدتها الفلسفة والعلوم الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . إذ لم تتم أية ترجمة لاتينية لكتابات المفكرين الإغريق والمفكرين العرب فى الإمارات الصليبية ؛ لأن هذه الإمارات لم تسهم بشئ فى مجال التعليم الغربى . وإنما تمت هذه الترجمات فى مناطق التفاعل اللاتينى - العربى القديمة فى أسبانيا وصقلية . لقد كان الأثر الباقى الوحيد لقيام كيان لاتينى فى الشرق الأوسط هو تعليم

= البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة شاهدها فى منامه تخبره بأن الحربة التى اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرنا مخبوءة داخل إنطاكية فى مكان حدده هو للصليبيين ، وتم الحصول على الحربة بسهولة لأن القس إدعى أن الرؤيا حددت موقعها بالضبط . هذه الحيلة (على حد تعبير ابن الأثير) جعلت الروح المعنوية للجيش الصليبى ترتفع بفعل الآية السماوية الملفقة . وفى الوقت نفسه كانت روح التشرذم السياسى فى العالم الإسلامى قد كشفت عن وجهها القبيح فى تفكك جيش قربوغا ، وعدم اتفاق فصائله المختلفة على خطة واحدة لضرب الصليبيين الذين لم يلبثوا أن خرجوا فى هجوم ساحق استمر يومًا كاملا ضد قوات الحصار الإسلامية . وانتهى الأمر بتفرق جيش قربوغا وانتصار الصليبيين . وقد كشفت الصراعات التى دارت بين زعماء الصليبيين بعد ذلك عن مدى الإفلاس الأيديولوجى للحركة الصليبية . (المترجم)


أوربا والبحر المتوسط فى منتصف القرن الثانى عشر
الحملة الصليبية الأولى
جودى فرى البويون
بوهيموند
روبرت النورماندى
ريموندكونت تولوز
حدود دولية
المحيط الأطلنطى
بحر الشمال
مملكة إنجلترا
أيرلندا
مملكة النرويج
مملكة السويد
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
راتسبون
فيينا
باريس
مملكة فرنسا
كليرمون
ميلانو
البندقية
روما
مملكة قشتالة وليون
قرطبة
كورسيكا
سردينيا
مملكة الصقليين
نهر الدانوب
البحر الأسود
سلطنة سلاجقة الروم
الإمارة الرها
إمارة أنطاكية
إمارة دمشق
قبرص
طرابلس
جزيرة كريت
البحر المتوسط
برقة
الإسكندرية
الخلافة الفاطمية فى القاهرة
عكا
مملكة القدس
بيت المقدس
الخلافة العباسية فى بغداد
مملكة المرابطين
بحر قزوين

الشعوب الأوروبية التسامح تجاه من ينتمون إلى ثقافة أو ديانة أخرى . ذلك أن الفرسان اللاتين الذين عاشوا فى الدول الصليبية اكتشفوا أن جيرانهم المسلمين كانوا ، على الأقل ، يتمتعون بذكاء وأخلاقيات تماثل ذكاءهم وأخلاقياتهم[٤]، وهو اكتشاف كان من المحتم أن يهدم التعصب والكراهية تجاه الشعوب التى لم يعرفوا عنها سوى أن أبناءها كفار متوحشون . وسرعان ماتعود سادة الدويلات الصليبية على طعام وملابس جيرانهم من أمراء المسلمين ، كما أخذوا عنهم بعض القيم الأخلاقية . وعلى أية حال ، فإن هذه المواقف المتسامحة الواقعية تجاه المسلمين لم تكن قد تغلغلت فى وجدان الغرب الأوروبى حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر .

٢ - تقلبات الحركة الصليبية وتدهورها :

لقد أدت الحملة الصليبية الأولى فى سنة ١٠٩٦ إلى قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وهى إمارة صغيرة قامت على أرض فلسطين ومركزها بيت المقدس وعكا ، وتم تنظيمها على أسس اقطاعية . وكان أول حكامها هو جودفرى اللوريني على الرغم من أنه لم يتخذ لنفسه لقب ملك ، ثم خلفه أخوه بلدوين Baldwin الذى سمح له رجال الدين وغيرهم من الصليبيين باستخدام اللقب الملكى . ومنذ بداية وجود المملكة اللاتينية كانت تتهددها مخاطر الاسترداد الإسلامى ، وعلى مدى القرنين التاليين عانت هذه المملكة من حرب إنهاك بطيئة ولكنها كانت قاضية . وبين الحين والحين كانت البابوية وكبار رجال الكنيسة يحضون الحكام الأوروبيين على القيام بحملات لمساعدة المملكة اللاتينية ، ولكن أيا من هذه الحملات لم تحقق نجاحًا كبيراً ، بل إن بعض هذه الحملات انتهت نهاية مفجعة . والواقع أن رأس الجسر الغربى فى شرق

---

٤ - يبدو من صياغة هذه الجملة أن المؤلف يجسد النظرة الاستعلائية الأوروبية تجاه الشعوب الأخرى على الرغم إدانته لظاهرة التعصب الأوروبى فى العصور الوسطى . فالواقع أن هذه الصياغة توحى بأن الصليبيين كانوا على نفس مستوى المسلمين الحضارى ، وهو أمر ينافى الحقيقة التاريخية تماما . ومن يقرأ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، أو يقرأ التعليقات التي أوردها المؤرخون المسلمون المعاصرون على تصرفات الصليبيين يعرف أن الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية العربية للصليبى ، صورة إنسان ذى مستوى حضارى أدنى كثيراً وهذه الصورة تجد لنفسها التأييد من بين طيات المؤرخات التى كتبها المؤرخون الأوروبيون المعاصرون للحرب الصليبية ، خصوصًا جيمس الفيترى ، كما أن واقع الحال فى المجتمع الأوروبى نفسه وفى المجتمع الصليبى كما أثبتتها الدراسات الحديثة تؤكد هذا . وعلى هذا فإننا لانرى ضرورة لإسقاط النظرة الأوروبية والغربية الحالية بما فيها من استعلاء وغطرسة ، على نظرة الصليبيين الذين كانوا يعرفون حقًا أنهم أقل فى الحضارة والذكاء والأخلاقيات من أعدائهم المسلمين . (المترجم)

المتوسط ، أى المملكة اللاتينية ، حققت أكبر اتساع لها مع بداية تاريخها . ومع بزوغ شمس القرن الثالث عشر ، كانت هذه المملكة قد تقلصت تحت وطأة الهجمات المضادة التى شنها الحاكم المصرى صلاح الدين بحيث انحصرت فى شريط ضيق من الأراضى . وقد استولى المسلمون على مدينة القدس نفسها ، وفى سنة ١٢٩١ م تم القضاء على المملكة اللاتينية . والتاريخ الكئيب للحملات الصليبية التى تلت الحملة الأولى ، والتى وقعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، يطرح السؤال الهام عن السبب فى أن أوربا الغربية أبدت عجزاً واضحًا عن الحفاظ على مملكة بيت المقدس اللاتينية .

كانت المسألة عدم اهتمام أكثر منها نقصًا فى المقدرة . ولاشك فى أنه لو كرست كافة موارد البابوية والملكيات الأوربية فى أى وقت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للحركة الصليبية ، لأمكن دحر الجيوش الإسلامية المحيطة بالمملكة اللاتينية [٥] . وعلى أية حال تبقى حقيقة أن قادة المجتمع الغربى كانت لديهم اهتمامات أخرى أكثر إلحاحًا ، ومهما كانت آراؤهم العلنية بشأن الحروب الصليبية ، فإنها كانت بالنسبة لهم حركة هامشية إلى حد ما . لقد أخذ كثيرون من الملوك وكبار الإقطاعيين فى غرب أوربا شارة الصليب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكن نسبة ضئيلة منهم فقط هم الذين رحلوا فعلاً إلى الأرض المقدسة ، وغالبًا ماكانت البابوية تغض النظر عن هذه الردة ، لأنها كانت تضع من يقسم بأخذ شارة الصليب فى موقف المدين روحيًا للبابوية ، مما كان يتيح للبابا أن يكلفه بأى شكل آخر من أشكال الخدمات للكنيسة ثمنا لإعفائه من القسم الصليبى . وحتى عندما كان أحد كبار الملوك يذهب فعلاً فى حملة صليبية ، فإنه غالبًا ما كان يذهب فى شكل تظاهرى لقتال المسلمين ، فيأخذ معه جزءًا صغيراً من جيشه ، ثم يمكث عدة شهور قليلة فقط فى الأرض المقدسة ،

---

٥ - يسرف كانتور كثيراً فى استخدام « لو » فى علاجه للقضايا التاريخية ، ولما كان التاريخ كعلم ، يهتم ببحث الواقع التاريخى كما حدث بالفعل ، ولا يناقش فروضا فلسفية أو احتمالات غير واقعة بالفعل ، فإننا لا نستطيع مسايرة المؤلف فى هذا الموقف الفكرى . وعلى أية حال فإنه حين يعرض لأسباب الفشل الصليبى فى السطور القادمة يتحدث عن موقف الغرب الأوربى فقط ناسيًا ، أو متناسيًا ، أن الحروب الصليبية كانت بين طرفين ، وأن الطرف الآخر ، أى العالم العربى الإسلامى قد نجح فى القضاء على الكيان الصليبى نتيجة لنجاحه فى خلق الجبهة الإسلامية الواحدة منذ زنكى حتى صلاح الدين ، وانتهاء بالظاهر بيبرس والأشرف خليل قلاوون الذى قضى على آخر الصليبيين فى عكا . حقيقة أن الفشل الصليبى يمكن تفسيره فى ضوء انشغال الظهير الأوربى باهتماماته الداخلية عن مساندة الصليبيين . ولكن النجاح الإسلامى أيضًا يمكن تفسيره على ضوء الوحدة وتركيز القوى الإسلامية فى الصراع ضد الصليبيين . (المؤلف)

ولايشتبك مع المسلمين سوى فى مناوشات سطحية ، وأخيراً يعقد مع أحد السلاطين معاهدة من ذلك النوع الذى يحفظ ماء الوجه ، حتى يبدو فى صورة بطل المسيحية عندما يعود إلى وطنه . ومن الأمور المتناقضة أن الزعماء الصليبيين الذين أخذوا مهمتهم مأخذ الجد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانوا هم أسوأ الجنود ، ولم يحققوا شيئًا سوى ذبح فرسانهم على أيدى العرب . لقد كان المثال الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر متنفسًا شعبيًا لحركة التدين التى انتشرت انتشاراً واسعًا آنذاك ، ولكنه كان مجرد شكل واحد بين أشكال متعددة لهذا التدين . كما كان أخذ شارة الصليب واجبًا ضروريًا بالنسبة للملوك وأمراء الغرب الأوربى تحض عليه البابوية وكبار رجال الكنيسة . فقد كان هذا شيئًا يجب عليهم القيام به تعبيراً عن مكانتهم فى المجتمع وإرضاء للرأى العام ؛ ولكنهم جميعًا كانوا يأخذونه كمسألة شكلية لا تكلفهم سوى النزر اليسير من طاقاتهم ومواردهم .

لقد دعا سان برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux الذى كان الزعيم الأدبى للكنيسة فى القرن الثانى عشر ، إلى الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٤ م ، استجابة للاستغاثات الملحة الصادرة عن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس طلبًا للمساعدة ضد القوة العربية الناهضة . ونجح سان برنار فى استقطاب اثنين من رؤوس أوربا المتوجة هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا . وقد أضفى هذا على الحملة الثانية هيبة أكثر من الحملة الأولى ولكنه لم يزدها فى القوة العسكرية ، لأن كلا من لويس وكونراد لم يكونا من المتميزين فى الكفاءة القتالية ، كما أن جيشيهما لم يكونا كبيرين . ولم يصل أى منهما إلى فلسطين قط ، فقد تمزقت قواتهما إربًا فى ربوع آسيا الصغرى . لقد كانت النتيجة الوحيدة هى توتر العلاقة الزوجية بين لويس وزوجته اليانور الاكوتانية Eleanor of Aqui-taine التى صحبته فى الحملة ، والتى اتهمها لويس بخيانته مع أحد قادة جيشه . وكان طلاق الملك الكابى من دوقة اكوتانيا ثم زواجها بعد ذلك من هنرى الثانى ملك إنجلترا ذا أثر هام على مجرى التطور السياسى فى أوربا القرن الثانى عشر .

هذا المزج بين المأساة والملهاة ، الذى كان من سمات الحملة الصليبية الثانية ، تكرر فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ ، وهى الحملة التى كانت أكثر الحملات اللاتينية على الأرض المقدسة طموحًا ، على الأقل من حيث بدايتها . إذ كان لابد من تحدى قوة صلاح الدين بجيش صليبى يضم الشطر الأكبر من القوة العسكرية فى أوربا ، نظريًا على الأقل . فقد

انطلق أكبر ثلاثة ملوك في غرب أوربا آنذاك ، ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا صوب الأرض المقدسة على رأس جيوشهم القوية . وغرق بربروسا في الطريق ، وانتهى الأمر بالألمان بالتفرق والمشاركة الرمزية فقط . وسرعان ماظهر أن فيليب أوغسطس المستخف الساخر لم يكن يقصد سوى المظاهرة العسكرية ؛ فإنه كان تواقًا إلى العودة إلى وطنه لمواصلة دسائسه ومؤامرته ضد ملك إنجلترا . أما ريتشارد قلب الأسد فقد أخذ الحملة بجدية شديدة . وقد اشتهر ببنيته العملاقة وقوته الجسدية ، إذ كان طوله ستة أقدام ، وكان شغوفًا بإظهار قوته وبسالته الفردية التي كانت عظيمة دون شك ، ولكن مهارته كقائد كانت مسألة مختلفة تماما . فقد كان ريتشارد طفلا باكر النمو فاسداً ، وعادى كل حكام أوربا تقريبًا في الوقت الذي توجه فيه إلى الأرض المقدسة . وهناك نجح في إذكاء نار العداوة في صدر الملك الفرنسي ضده ، كما جلب على نفسه كراهية الألمان . وسرعان ما تفككت الحملة ، وبعد أن أرضى الملك الإنجليزي غروره في معارك قليلة ، قبل صلاح الدين الداهية عقد معاهدة سلام أبقت الوضع علي ماهو عليه . ثم اكتشف ريتشارد أن لا سبيل أمامه للعودة إلى الوطن ، لأن جميع الطرق كان يسدها الأعداء. واختار أكثر الطرق التفافًا . وعبر ألمانيا ، وقبض عليه وأودع السجن رهن فدية طلبها هنرى السادس . هذه الحوادث الدرامية بالغت في قيمة ريتشارد كفارس بيد أنها كشفت عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية . فقد كان الملوك الأوربيون مشغولين برعاية مصالحهم الأسرية والإقليمية بحيث لم يقدموا للحركة الصليبية ما هو أكثر من الدعم الهامشي .

أما الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ، فلاشك في أنها كانت أكثر الحملات نجاحًا بعد الحملة الأولى ، ولكنها نجحت ضد بيزنطة لاضد العالم الإسلامي . ولم يكن البابا إنوسنت الثالث الذي دعا إلى هذه الحملة يقصد في الأصل أن تتخذ هذا الشكل[٦] . ولكن البنادقة

---

٦ - كان الهدف المباشر للحملة الصليبية الرابعة هو مصر . وفي سنة ١٢٠١ توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية ، بات واضحًا أن تكاليف الحملة تفوق طاقة الصليبيين ، وقد عرض عليهم البنادقة تسهيلات كبيرة مقابل الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية ، التي كانت شوكة في حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتي .

وفعلاً استولى الصليبيون على زارا التي كانت مدينة مسيحية في مملكة مسيحية ثم تلى ذلك قرار مصيري آخر ، فقد وجد الصليبيون فرصة للتدخل في شئون بيزنطة بسبب النزاع الداخلي حول العرش الإمبراطوري . وفي سنة ١٢٠٤ م عصف الصليبيون بالقسطنطينية ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز أول إمبراطور لاتيني لها ، كما صار أحد البنادقة أول بطريرك لاتيني لها . وتم تقسيم الإمبراطورية البيزنطية مثل سائر الأسلاب والغنائم بين المنتصرين . (المترجم).

الذين قدموا الأسطول للجيوش الصليبية ، أصروا على هذا التغيير فى الخطط ، وبما أنهم كانوا يقدمون القروض للصليبيين فقد أجبروهم على الامتثال لمطالبهم . وعلى الفور وافق إنوسنت الثالث على هذا التغيير في الخطط ، ورأى فيه وسيلة لتأكيد السيطرة البابوية على القسطنطينية . ذلك أن الاتجاهات المعادية للبيزنطيين فى الحركة الصليبية ، والتى كانت قد اتضحت منذ بدايتها فى القرن الحادى عشر ، أتت ثمارها فى الحملة الصليبية الرابعة . كانت القسطنطينية قد صمدت فى مواجهة الجيوش الإسلامية على مدى خمسة قرون ، ولكنها هذه المرة سقطت أمام البنادقة والفرنسيين الذين نهبوا المدينة ، وأهانوا رجال الكنيسة البيزنطية ، وأقاموا المملكة اللاتينية فى القسطنطينية بمباركة البابوية . وعلى مدى ستين سنة ظل الأمراء اللاتين يحكمون القسطنطينية ، واستغلت البابوية هذه الفرصة لمحاولة إخضاع المسيحيين البيزنطيين لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما . وأخيرا نجح أمير بيزنطى سنة ١٢٦١ فى استعادة العرش الإمبراطورى ، وحدث الانشقاق الذى لم يلتئم حتى الآن بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية . ولم تفق القوة الإمبراطورية أبداً من الكارثة التى سببتها الحملة الصليبية الرابعة ، ومع أن القسطنطينية لم تسقط فى أيدى المسلمين سوى سنة ١٤٥٣ ، فإنها لم تلعب فى عالم البحر المتوسط منذ ذلك الحين فصاعداً سوى دور ضئيل .

لقد كشفت الحملة الصليبية الرابعة للبابوية عن إمكانية استغلال الحركة الصليبية لتحقيق أغراض أخرى غير إنقاذ مملكة بيت المقدس . وفى القرن الثالث عشر كانت الحملات الصليبية توجه ضد أعداء البابوية فى أوربا بمعدل فوق معدل توجيهها ضد المسلمين . ولم يواصل النمط القديم من المغامرة الصليبية سوى ملك قديس هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد حملتين ، والإمبراطور الألمانى فردريك الثانى هوهنشتاوفن Frederick II Hohenstaufen ولم تنجح أى من هذه الحملات الصليبية الثلاث فى مساعدة مملكة بيت المقدس اللاتينية المتدهورة . إذ شن لويس هجومًا جسوراً على المسلمين فى معاقلهم ، مرة فى مصر ومرة فى تونس ، ولكنه هزم هزيمة شنعاء فى المرتين . أما حملة فردريك الثانى فكانت استعراضًا رمزيًا تدخل فيه عناصر هزلية ، لأن الإمبراطور كان واقعًا تحت عقوبة الحرمان البابوى حين قام بحملته الصليبية . وبقدر ما لعبت الحركة الصليبية دوراً هاما فى الحياة الأوربية فى القرن الثالث عشر، فإنها اتخذت شكلا جديداً مقلوبا وتحولت إلى حروب ضد أعداء البابوية . والمثال الأول على ذلك هو الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة فى جنوب فرنسا ، وهى الحملة التى دعا إليها إنوسنت الثالث ، وقد لقيت هذه الحملة قبولا عامًا فى غرب أوربا على الرغم من أن الطريقة التى تم بها تبرير غزو النبلاء لجنوب فرنسا كانت طريقة ذميمة . ولكن كلما مضت

البابوية قدمًا فى استغلال الحركة الصليبية كلما أدينت كقوة روحية تتناقض مع مثلها الأصلية تناقضًا صارخًا . وفى أربعينيات القرن الثالث عشر أدين فردريك الثانى بالهرطقة ، وأسبغ الوضع القانونى للحملة الصليبية على الجيش الفرنسى الذى أستولى على أملاكه فى جنوب إيطاليا . وفى ثمانينيات القرن الثالث عشر صارت الحملة الصليبية مؤسسة سياسية خالصة . فقد منحت الشارة الصليبية لفيليب الثالث ملك فرنسا لقاء هجومه على ملك أرغونة ، الذى لايمكن أن يكون هرطقيًا مهما شطح بنا الخيال ، ولكن غزوه لصقلية أقض مضاجع البابوية . هذا الاستغلال السياسى البحت للحملات الصليبية جاء فى نفس الوقت الذى كانت فيه مملكة بيت المقدس اللاتينية تحتاج إلى التعزيزات من أوربا لإنقاذها من الهلاك .

والحقيقة أن الزعماء الأوربيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد الإسلام ، وكان هذا راجعًا فى جانب منه إلى موقف أكثر تسامحا وإستنارة . ذلك أن هؤلاء الزعماء توصلوا ، مثل مستوطنى مملكة بيت المقدس ، إلى أن العرب قوم أذكياء قادرون . وبحلول سنة ١٢٠٠ كان الإهتمام موجها إلى تحويل الشعوب الشرقية إلى المسيحية بدلا من شن الحرب ضدها . وكان للرهبان الفرنسسكان قصب السبق فى هذا المجال التبشيرى . فقد كان اهتمامهم موجها بشكل خاص نحو محاولة تنصير المغول ، آخر الجحافل الآسيوية التى هددت شرق المتوسط . وكان الفرنسسكان ، تؤازرهم البابوية ، يأملون فى تحويل المغول عن الإسلام واعتناقهم المسيحية اللاتينية مما يؤدى إلى إنهاء السيطرة الإسلامية على الأماكن المقدسة . ولكن الشعوب الأوربية لم تكرس جزءًا كبيراً من نشاطها لهذا التوجه السلمى . ويكشف إرسال اثنين من الرهبان الفرنسسكان إلى بلاط خان المغول أن هذا المشروع كان يحظى باهتمام كبير بين الأوربيين . ولابد أن الشعوب الأوربية كانت تولى اهتماما كبيراً بتنصير المغول ، ولكن تبقى حقيقة أن الطبقات الحاكمة فى أوربا ، والبابا من بينهم ، كانت غير راغبة فى كبت الشئون المحلية الحاكمة بشكل يجعلها تكرس قدراً أكبر من اهتمامها لتنصير الشعوب الشرقية [٧] . أن لقاء الشرق والغرب نموذج جدير بالاهتمام ،

٧ - كثيراً مايقع كانتور فى شباك وهم أن الأوربيين فى العصور الوسطى كانوا يملكون زمام المبادرة وأن حدوث الظاهرة التاريخية التى كانوا طرفا فيها فى مقابل طرف آخر يتوقف عليهم هم دون الطرف الآخر ويتضح هذا من عرضه لمحاولات التبشير بالمسيحية بين المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر ، ويذكر أن سبب فشل المحاولات التبشيرية راجع إلى انشغال أوربا بمشكلاتها الداخلية فقط ، وهذه مسألة يكررها كثيراً خصوصا فيما يتعلق بالمواجهة بين العالم الإسلامى وأوربا العصور الوسطى . وهو هنا يتجاهل حقيقة أن الدين الإسلامى دين قوى والتبشير بين المسلمين بدين آخر أمر مستحيل ، بل ينسى =

ولكنه لم يكن ذلك النموذج الذى يروق فى عيون الناس فى العصور الوسطى العالية . ذلك أن مشكلات الحكم ، والاقتصاد ، والثقافة الأوربية إمتصت طاقاتهم ، والقليل الذى تبقى منها لمؤازرة الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر وجهته البابوية ضد أعدائها فى داخل القارة الأوربية .

لقد كانت الحروب الصليبية ميراثا ورثه القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن موجة الحماسة والتعصب الناجمة عن الإصلاح الجريجورى . وكان مقدراً لها أن تخرج عن هدفها ، وأن تتعرض لتقلبات كثيرة ، وأن تضمحل فى النهاية بسبب التغيرات العميقة التى جرت على الحضارة الأوربية نفسها .

ومع هذا ، فإن المثال الصليبى الذى كان شيئا يختلف عن الحملات الصليبية التى كانت مغامرات عسكرية وسياسية . كان ذا تأثير عميق ، وأن لم يكن طيبا ، على الحياة فى العصور الوسطى . فقد أضفت الحروب الصليبية مسحة أخلاقية ودينية على الاتحاد بين القوة العسكرية والإخلاص الدينى . لقد كانت الحملات الصليبية الخارجية ، تلك المغامرات الطائشة ضد الإسلام فى شرق المتوسط ، ضئيلة الأهمية فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الغرب . أما الحملات الداخلية ، التى جرت داخل أوربا الغربية ، فكانت آثارها المباشرة أقوى كثيراً . ولكن أخطر ما خلفته الحروب الصليبية هو ذلك الدرس الذى وعاه الأوربيون – أن القتل والتدمير فى سبيل القيم المسيحية حق . لقد كانت المعاناة المباشرة الناجمة عن هذا الاعتقاد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من نصيب اليهود والهراطقة . أما الذى عانى على المدى الطويل فكان هو المجتمع الأوربى بأسره . لأن الدول البيروقراطية الجديدة فى القرن الثالث عشر اعتنقت المذهب الذى جعل من استخدام القوة العسكرية أمراً مشروعًا ، بحيث صار هذا المذهب هو المركز الذى تقوم حوله ذات السلطة المطلقة والنزعة الوطنية فى القرون الستة التالية . هذا الإيمان بحق القتل والتدمير فى خدمة المثل العليا لم يتضاءل فى القرن العشرين .

= ماذكره هو نفسه فى الفصل الخامس من هذا الكتاب من أن الإسلام « ... هو الوحيد بين ديانات البشر الكبرى الذى يصلح لأن يكون دينا للعالمين ، فما يقدمه القرآن سهل وبسيط ، ولا يستعصى على الفهم ... ». فإذا كان هذا هو الإسلام الذى اعتنقه المغول ، فكيف يمكن أن نفسر فشل التبشير الكاثوليكى فى ضوء انشغال الأوربيين الداخلى فقط ؟! أن خطورة هذا المنطق أنه يجعل أوربا مركزاً للفعل وذاتا فاعلة يحول العالم المعاصر لها آنذاك إلى مناطق سلبية ، وموضوعا للفعل لايصدر عنه مجرد رد الفعل ، وهذا فى تصورنا ظلم شديد للحقيقة التاريخية . (المترجم)



الجزء السادس

التعليم ، التدين ، والسلطة

القرن الثاني عشر

" إن رفاقي القدامى على الجبل (في باريس) ... والذين مازال الجدل يعوقهم .... لم يتقدموا سوى في نقطة واحدة ... فهم معتدلون غير متعلمين » .

– حنا السالزبوري .

« إن وباء الكنيسة في داخلها . ولايمكن الشفاء منه ».

– سان برنار .

" إن سلطة الإمبراطورية الرومانية تسود إلى حد كبير بفضل فضائل أميرنا المظفر ... فقد تغيرت الأمور نحو الأحسن».

– أوتو الفريزي .



الفصل الخامس عشر
النمو الثقـــافى فى أوربا

١ - ارتفاع معدل التغير الثقافى :

بانتهاء الصراع حول التقليد العلمانى ، بما سببه من انقسامات وإرهاق ، أتيح لعلماء العصور الوسطى ومفكريها أن يركزوا طاقاتهم حول التغيرات الهائلة التى كانت جارية بالفعل فى مجال الثقافة الراقية . وغالبا ما أطلق على هذا التصاعد في التغير الثقافى وماصاحبه من إبداع وتقدم تجلى فى كافة جوانب حضارة العصور الوسطى - بما فى ذلك الحياة الفكرية - اسم « نهضة القرن الثانى عشر » . وقد شاع هذا المصطلح بفضل كتاب نشره شارلز هاسكينز فى سنة ١٩٢٨ يحمل هذا العنوان . واستخدم هاسكينز هذا المصلح بغرض الجدل إذ أعلن أن مفكرى القرن الثانى عشر قد كرسوا أنفسهم للتراث الكلاسيكى ، وأنهم طرحوا أفكاراً هامة شأنهم فى ذلك شأن الإنسانيين الإيطاليين فى نهضة القرنين الرابع عشر والخامس عشر الشهيرة . لقد كان من الضرورى ، فى أيام هاسكينز ، تبرير دراسة تاريخ العصور الوسطى فى الجامعات الأمريكية بالقول بأن العصور الوسطى جديرة بالدراسة مثل النهضة الإيطالية . ومن حسن الحظ أن مثل هذه الجهود الساذجة التى تستجدى الأسئلة لم تعد مطلوبة ، وربما يمكن الآن دراسة التاريخ الثقافى للقرن الثانى عشر دونما رسم متوازيات ملفقة مع عصر بترارك وليوناردو دافنشى .

والحقيقة أن مصطلح « نهضة القرن الثانى عشر » يشوبه القصور لأسباب عديدة . فهو لا يتلاءم مع التاريخ الثقافى لتلك الفترة ، إذ أنه يبدو فضفاضا للغاية فى بعض الجوانب ، على حين يبدو غاية فى الضيق فى جوانب أخرى . لقد كانت نهضة القرن الثانى عشر ، إذا كانت هناك نهضة بالفعل ، قد قطعت نصف الشوط تقريبا بحلول سنة ١١٠٠ م . إذ أن البعث الثقافى المزعوم كان قد بدأ بالفعل حوالى سنة ١٠٥٠ م ، وربما يكون من الأصلح أن نسميها « نهضة القرن الحادى عشر » . كذلك انتهت الفترة التى شهدت القدر الأعظم من الحيوية الثقافية والأصالة الفكرية فى منتصف القرن الثانى عشر ، ثم تبعتها فترة استيعاب وانتشار وتدعيم لنتائج الفترة الإبداعية .

فما هو الشئ الذى يفترض أنه قد بعث من جديد فى القرن الثانى عشر ؟ إذا ما أخذنا فى اعتبارنا المساهمة الأوربية فى الفلسفة والعلوم ، فمن الأصح أن نصف هذه المساهمة بأنها ميلاد وليست بعثا ، لأن كثيراً من الحركات الفكرية فى القرن الثانى عشر خلقت ماهو جديد؛ أى أنها لم تقم بإحياء تراث قديم . هذا الإبداع وهذا التقدم هما اللذان يميزان ثقافة القرن الثانى عشر عن النهضة الإيطالية فى أخريات العصور الوسطى . فلم يكن مفكرو القرن الثانى عشر مجرد إحياء للطراز الكلاسيكى فى الأدب والفن . وكان عكوفهم على التراث الكلاسيكى بحثا عن نقطة إنطلاق صوب اتجاهات وأبعاد جديدة فى شتى جوانب الحياة المتحضرة : فى الدين ، والقانون ، والحكومة ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والتعليم ، والأدب ، والفن ، والفلسفة ، والعلوم . وقد اتسم الازدهار الثقافى فى القرن الثانى عشر بأن مدى اهتمامه كان أوسع كثيراً من مدى اهتمام النهضة الإيطالية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وحين نطبق على هذا التطور مصطلح « نهضة Renaissance » فإننا نقلل من عظمة إنجازاته وتنوعها . فقد أثرت الروح الإبداعية فى القرن الثانى عشر تأثيراً عميقا فى كافة وجوه الحياة الاجتماعية التى كانت تتطلب بعض المحاولات الثقافية ؛ إذ أنها لم تكن مجرد حركة تدعمها مجموعة من المثقفين أو المدافعين عن نمط معين من الأساليب الفنية ؛ وإنما كانت حركة واسعة معقدة غير متجانسة مثل حضارة العصور الوسطى نفسها . هذا التصعيد غير المسبوق والتكاثر والتوالد الذى تميز به التغير الثقافى فى العصور الوسطى العالية لايمكن أن نفهمه على نحو كاف من خلال مصطلح « نهضة القرن الثانى عشر » .

كذلك لم يكن النمو الثقافى محدوداً بحدود بلد واحد ، كما كان الحال فى نهضة القرنين الرابع عشر ، والخامس عشر ، وعلى الرغم من أن الزعامة كانت لفرنسا ، فقد ساهمت كل من إنجلترا وإيطاليا وألمانيا (وإن كانت مساهمتها أقل) فى الإنجازات الفكرية التى جرت فى القرن الثانى عشر . فقد ولد حنا السالزبورى Jonh of Salisbury الذى كان واحداً من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر ، فى إنجلترا ، وتعلم فى فرنسا ، وعمل فى إيطاليا ، ثم عاد فيما بعد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا حيث شغل منصب أسقف شارتر Chartres . لقد كانت حركة الإبداع الثقافى فى القرن الثانى عشر حركة أوربية كما أن الشعور القومى فيها كان ضئيلا ، فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين فى القرن الخامس عشر ، ولا حتى على الأوربيين الطيبين من أمثال إراسموس Erasmus .

لقد اتخذت النهضة الإيطالية موقفا انتقاديا من الفلسفة الأرسطية ، كما أنها ، فى أساسها ، كانت ذات روح مضادة للعلم . فهى لم تقدم أية مساهمة دائمة فى اللاهوت أو فى تطور الحياة الدينية فى غرب أوربا . وعلى العكس من ذلك كانت التغيرات الثقافية التى طرأت فى القرن الثانى عشر سببا فى إدخال الأرسطية - التى كانت أفضل نظام علمى متاح فى أوربا آنذاك - فى مجرى الفكر الأوربى . كذلك شهد القرن الثانى عشر تصاعد النمط الجديد من التدين الشعبى كما شهد ظهور الاتجاه نحو التدين العاطفى ، وهو الأمر الذى أدى إلى بروز رؤية لاهوتية جديدة زادت من الوعى الأوربى برفعة الإنسان وسموه . لقد اشتهر زعماء النهضة الإيطالية بطاقاتهم ، واتساع نطاق اهتمامهم . بيد أن ماتميز به القادة الثقافيون فى القرن الثانى عشر من حيوية وجسارة كان أمراً غير مسبوق . فقد أظهروا شغفا عجيبا بتجربة انساق ثقافية جديدة ، والخوض فى مشكلات جديدة ، وانتهاج مناهج وأساليب فكرية جديدة ، كما كانوا مفرطين فى التفاؤل بقدرتهم على عمل الأشياء الجديدة فى مدى زمنى قصير . وأول مثال على ذلك هو اختراعهم لطراز جديد فى البناء سرعان ما انتشر على نطاق واسع فى مدى جيل واحد . ولم يشهد تاريخ البناء فى أوربا منذ القرن الخامس قبل الميلاد مثل هذه الروح الابتكارية ، كما أنه بم يحدث قبل القرن العشرين أن كشف تاريخ الهندسة المعمارية عن مثل هذا الابتكار السريع لطراز معمارى جديد .

إن ماتميزت به ثقافة القرن الثانى عشر من تفاؤل وإقدام يبدو واضحا فى محاولة حل مشكلات المجتمع حلا عقلانيا . فد خرج التعليم والفكر الراقى من نطاق الاهتمام الضيق باللاهوت والأدب إلى نطاق الاهتمام بتحسين البنيان الاجتماعى والسياسى آنذاك . وأبرز مثال على ذلك يتمثل فى الطفرة التى حدثت فى ميدان القانون الأوربى إبان القرن الثانى عشر ، وهو الأمر الذى كانت له نتائجه المشهودة على تطور الدولة فى العصور الوسطى . لأن التطور القانونى كان يهتم بالحاجات الاجتماعية ، ولأنه استلهم التراث الكلاسيكى دون أن يقع رهين أسره ، ولأنه أوجد طائفة جديدة متمايزة فى المجتمع ، فإن هذا التطور يكشف عن الأنماط التى صيغت فيها أهم جوانب الإبداع الثقافى والتطور الفكرى خلال تلك الفترة ، وربما يكون هو أفضل مدخل لفهم خصائص التغير الثقافى فى القرن الثانى عشر .

٢ - المكونات القانونية فى حضارة العصور الوسطى :

لقد ساهم القرن الثانى عشر فى الحضارة الغربية بالمحامى المحترف ذى الأهمية الفائقة . ففى العالم القديم لم يكن المحامون أكثر من أشباه محترفين ؛ إذ كان تدريبهم يعتمد على

البلاغة أساسا ، ولم يكن منهم سوى عدد قليل يمتلكون ناصية العلوم القانونية . أما فى القانون العرفى الجرمانى فلم يكن المحامى المحترف معروفا . فقد كانت التقاليد القانونية والحفاظ عليها مسئولية المسنين من أفراد الشعب الجرمانى بل إن القضاة لم يكونوا يتلقون تدريبا محدداً . ولم يحدث قبل القرن الحادى عشر أن ظهر المحامى المحترف ، الذى تدرب من خلال تعليم صارم فى العلوم القانونية . بحيث يكون على استعداد لتسخير علمه فى سبيل تنظيم العلاقات الإنسانية على أسس عقلية ، وبحيث يكون مهيئا للارتباط بالحياة العامة والقيام بالأعمال الحكومية فقد كان الانشغال بالقانون أكثر مهن المتعلمين قيمة من الوجهة الاجتماعية فى الحضارة الأوربية ، على الأقل حتى ظهور العالم المحترف فى القرن التاسع عشر ، كما أن المحامى مابرح يلعب دوراً هامًا فى حياتنا الحالية . وبحلول سنة ١٢٠٠ كان المحامون قد صاروا عنصراً لاغنى عنه فى الملكيات الغربية وفى الكنيسة على السواء ، وكان مجرى التطور السياسى فى العصور الوسطى العالية محكوما إلى حد كبير بمواقف هذه الطائفة الجديدة من الزعماء الاجتماعيين وطموحاتهم . وخلال القرن الثانى عشر أيضا بدأت النظم القانونية فى مختلف الدول الأوربية ، وداخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تتخذ أشكالا تنظيمية استمرت فى معظمها حتى يومنا الحالى ، وصارت من العوامل القوية فى تشكيل مواقفها السياسية المختلفة .

لقد كانت التجديدات التى شهدها القرن الثانى عشر فى المؤسسات القانونية والهيئات العاملة فيها نتيجة للظروف السلمية الجديدة التى طرأت على المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . فقد نعمت أوربا بدرجة أكبر من النظام والاستقرار السياسى أتاح للحكومات الأوربية أن تتأمل أوحال ورذائل التراث القانونى بما يتسم به من فوضى وتناقض ، وهو التراث الذى تخلف عن الإنقلابات الفجائية التى جرت فى العصور الوسطى الباكرة . وفى سنة ١١٠٠م لم يكن ثمة شئ فى أية دولة أوربية ، أو داخل الكنيسة ، يقترب من النظام القانونى الشامل المنظم . إذ أن الحكومات العلمانية فى غرب أوربا ، وهى تحاول تأكيد نفوذها فى المجتمع واتخاذ تدابير تضمن الأمن والعدالة ، كانت تصطدم بالقيود والصراعات بين مختلف التقاليد العرفية الجرمانية . ففى بلدان البحر المتوسط كانت العمليات والمبادئ القانونية الجرمانية تصطدم بالشذرات الباقية من النظام القانونى الرومانى . أما فى شمال فرنسا وإنجلترا فقد كان القانون الإقطاعى يطرح طائفة أخرى من التقاليد الداخلة فى حلبة

المنافسة . ولم يكن بالإمكان التوفيق بين التقدم السياسى والاجتماعى من ناحية وهذه الفوضى القانونية من ناحية أخرى . فقد كان النظام السياسى الجديد وما واكبه من تحول بطئ صوب الاقتصاد النقدى يتطلب تبريراً قانونيا وصياغات قانونية أيضاً . ولم تكن النتائج مشجعة ، ذلك أنه حتى العلماء الذين استخدمهم هنرى عجزوا عن أن يؤلفوا نظاما شاملا يجمع بين التقاليد الجرمانية والإقطاعية والكنسية .

وبفضل الحاجة الاجتماعية إلى الإصلاح القانونى وسن القوانين ، وبسبب ضخامة هذا العمل، كانت بداية دراسات قوانين جستنيان فى شمال إيطاليا حدثا مدويا فى تاريخ الحكم والقانون الأوربى . فقد كان ذلك سببا فى الحماسة المتأججة التى ملكت على علماء شمال إيطاليا قلوبهم فانكبوا على دراسة القانون المدنى ، كما كان من أسباب الإنتشار السريع لهذه الحركة الاحيائية القانونية للقانون الرومانى شمال جبال الألب . ومع مشرق شمس القرن الثانى عشر كان عمل العلماء القانونيين يعتبر عملا ذا فائدة اجتماعية ، كما اعتبر عملا لصالح الدولة أو الكنيسة ، شأنه فى ذلك شأن اكتشافات علماء الذرة التى تعتبر ذات أهمية وقيمة اجتماعية فى القرن العشرين .

ولايقطع مؤرخو القانون فى العصور الوسطى برأى حول الطريقة التى تم بها الكشف عن قوانين جستنيان فى شمال إيطاليا ، أو الكيفية التى بدأت بها دراسة هذه القوانين . فقد افترض البعض أن تكون الدراسات القانونية التى تمت لصالح السلطة البابوية قد تمت بناء على أوامر جريجورى السابع وأنها قد أدت إلى الكشف مصادفة عن نسخة منسية من كتاب مجموعة القوانين المدنية Corups Juris Civilis فى إحدى المكتبات الإيطالية . ومن ناحية أخرى ، يبدو جليا أن تجار مدن الشمال الإيطالي ، حيث تركزت دراسة القانون الرومانى ، قد جلبوا نسخة من قوانين جستنيان من القسطنطينية مباشرة . ومن المحتمل ، بطبيعة الحال ، أنه كان هناك أكثر من مصدر لنص القانون المدنى الذى بدأت دراسته بكثافة وتركيز لأول مرة فى سبعينيات القرن الحادى عشر على أيدى العلماء فى مدن الشمال الإيطالى . وليس المهم هو كيفية حصولهم على النص ؛ إذ لم يكن من الصعب الحصول عليه ، وقد تجاهله الغرب الأوربى على مدى خمسة قرون من الزمان لأنه لم يكن يلائم الظروف السائدة فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة . والمهم هو القيمة الاجتماعية الكبرى التى أسبغها أولئك العلماء القانونيون النابهون فى أواخر القرن الحادى عشر على قوانين جستنيان ، وهى القيمة التى حدت بهم إلى دراسته دراسة مكثفة .

لقد كانت عملية صياغة النظام القانونى الذى ينتمى إلى حضارة سابقة فى ملخص مكتوب ، وعلمى ، وشامل وعقلانى ، تتناغم مع الحاجات الاجتماعية لغرب أوربا آنذاك بشكل مثالى . فقد كانت الحكومات القوية ، التى كان التطور السياسى الأوربى يمضى صوبها ، تجد لنفسها سنداً فى مذهب السلطة المطلقة الذى يتضمنه قانون جستنيان ، فضلا عن أن القادة التجاريين للمدن الإيطالية كانت تشدهم مجموعة القوانين لأنها تختص بمجتمع حضرى وتتعامل مع جوانب فى الحياة يجهلها من يعيشون فى مجتمع ريفى بدائى يكتفى بالتقاليد والأعراف الجرمانية . وقد زادت جاذبية مجموعة قوانين جستنيان فى نظر طوائف بعينها ، ولاسيما العلماء ، الذين كان يحكمهم إحساس قوى بالتراث الكلاسيكى ، وتحركهم حماستهم للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان سبب هذه الجاذبية راجعًا إلى حقيقة أن مجموعة قوانين جستنيان كانت تلخيصا للقوانين التى أصدرها الأباطرة الرومان العظام . بيد أن الدراسة المكثفة لقوانين جستنيان والتى بدأت فى شمال إيطاليا ، لم تكن بالدرجة الأولى نتاجا للسلفية الأدبية أو السلفية السياسية ، وإنما كانت نتيجة مباشرة لحاجات المجتمع الأوربى العاجلة .

لقد كانت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis هى أكبر مجموعة قانونية تم جمعها . وكانت تصور القانون فى الدولة على أنه انعكاس للقانون الطبيعى ، أى مبدأ العقلانية فى الكون . وقد جعلت قوانين جستنيان السلطة المطلقة فى إصدار القوانين وتنفيذها رهنا بمشيئة الإمبراطور . فقد كان هناك زعم بأن القانون يوجد أصلا بين الشعب الرومانى ، ولكن مايسمى بقانون الملك (أو القانون الملكى Iex regia) هو الذى يجعل الشعب يتنازل عن سلطاته التشريعية للإمبراطور الحكيم الخير . إن هدف القانون هو تحقيق المساواة أو العدالة ، وفى سبيل أن يتحقق هذا يحق للمحكمة أن تبدل ، أو توقف القوانين السائدة فى حالة معينة مطروحة أمامها وتحكم فى القضية على أسس أخلاقية خالصة . فالمحكمة الرومانية مركز قضائى . والمفروض أن يكون القضاة رجالا ذوى علم وتجربة ، يسمون فوق الفساد ، بل وفوق العاطفة . هذه السلطة مستمدة من وضعهم كممثلين للإمبراطور ، «القانون الحى » ، الذى يعينهم فى مناصبهم . وفى سبيل التوصل إلى الحقيقة يتلقى القضاة شهادات مكتوبة من المدعين ومن محاميى الدفاع ، ويستجوبون الشهود بأنفسهم ، وإذا لزم الأمر يستخدمون محققا « بضع السؤال » فى مصطلح القانون المدنى . وبغض النظر عن استخدام

المحقق على هذا النحو ، وهو أمر يمكن أن يكون مثار جدل ومناقشة ، فإن النظام القانونى الرومانى كان يشوبه عيبان فقط . فلم يكن ثمة جزاء يوقعه القضاة عقابا على الكذب وشهادة الزور ؛ إذ كان المفترض دوما أن المحلفين رجال ذوو حكمة بالغة ، ونزاهة ، وعزيمة حقة . وهذه المثل العليا المرتبطة بالفضائل القانونية صعبة التحقيق فى الواقع . أما العيب الثانى ، والأكثر خطورة ، فى النظام القانونى الرومانى فيتعلق بوضع المحكمة والهيئة القضائية كأدوات فى الدولة . ففى المسائل المتعلقة بقضايا الجنايات العادية يمكن أن يكون القانون الرومانى كافيا تماما ، ولكن المتهمين فى قضايا التمرد وغيرها من الجرائم التى ترتكب ضد الدولة كان يمكن أن يلقوا تحيزاً من القضاة ضدهم ، لأن القضاة من موظفى الدولة . وبعبارة أخرى ، فإن النظام القانونى الرومانى يكون فى أسوأ حالاته فى القضايا التى تتعلق بالضمير، كما أن المحكمة الرومانية تتحول ببساطة إلى أداة للظلم والاستبداد .

وفى نهاية القرن الحادى عشر كانت مظاهر الضعف فى القانون المدنى تكاد تتوارى أمام الخدمات الكبيرة لتى كان يمكن لهذا القانون أن يسديها لكل من الحكومة والمجتمع فى أوربا . فقد بدا القانون الرومانى متفوقا بدرجة هائلة على النظام القانونى الجرمانى ، الذى كان يفتقر إلى مفاهيم المساواة ، كما كان يفتقر إلى الوسائل العقلانية للتحرى ، وينقصه القضاة المحترفون ، كما كان مبعثراً لكونه عبارة عن مجموعة متضاربة من الأعراف والتقاليد غير المكتوبة . ومن ثم استوجب اكتشاف نص قوانين جستنيان البداية الفورية للدراسة المكثفة لهذه القوانين فى مدن الشمال الإيطالى . وقد تمت هذه الدراسة تحت رعاية بلديات المدن ، لأن رجال الأعمال الموسرين الذى كانت لهم السيطرة على حكومات المدن فطنوا إلى أن مجموعة القوانين المدنية تهتم بالعقلانية والنظام اللذين كانا قوام وجود هذه الحكومات . ومع أخريات القرن الحادى عشر كانت قد تأسست مدرسة كبرى لدراسة القانون فى بولونيا Bologna ، وهى المدرسة التى ظلت مركزاً لتعليم القانون المدنى طوال العصور الوسطى العالية . فقد كانت الجامعة Universitas ، أى المؤسسة التى تجمع بين الأساتذة والطلاب فى بولونيا ، رائدة فى مجال تنظيم التعليم العالى ، كما كانت تمثل جانبا من أهم جوانب التطور الثقافى فى القرن الثانى عشر .

إن الخاصية التجميعية العقلانية التى إتسم بها القانون المدنى هى التى جعلت منه موضوعا مناسبا للدراسة الأكاديمية . ومن ناحية أخرى ، كانت الطبيعة الأكاديمية للدراسة

القانونية الرومانية ذات تأثير عميق على نظرة المحامين فى القارة الأوربية فى العصور الوسطى . فقد كان من الضرورى لمن يرغب فى العمل بالمهن القانونية فى البلاد التى قبلت القانون الرومانى أن يكرس سنوات عديدة للدراسة الأكاديمية الرسمية فى ظل نظام صارم للغاية . وقد ساعد هذا على تجسيد الحقيقة القائلة بأن المحامين الشبان فى العصور الوسطى كانوا يبدون كما لو كانوا قد قطعوا من قماش واحد ؛ إذ كانوا جميعا ذوى تعليم عال وحماسة متوقدة ، بيد أنهم كانوا أيضا خاويى الوفاض بشكل عام ، كما كانوا لا إنسانيين بشكل ما ، فضلا عن أنهم كانوا مستعدين لبيع خدماتهم لمن يدفع أكثر . لقد كانوا بيروقراطيين تماما . وفى الوقت الذى كانت حكومات أوربا قد بدأت تطلب خدمات الموظفين المدنيين المحترفين الذى تلقوا تعليما قانونيا ، كانت قد تأسست فى بولونيا مدرسة بدأت فى تخريج نوعيات جديدة من الموظفين البيروقراطيين . ولم يحدث قبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر أن أخرجت جامعة بولونيا ، ومدارس القانون الأخرى التى قامت فى مناطق شمال جبال الألب عدداً من الخريجين يفى بحاجات الملكيات الأوربية . وبحلول سنة ١٢٠٠ كانت الإدارات العاملة فى خدمة دول القارة الأوربية القوية تتكون من رجال القانون المدنى Ma-gistri .

لقد سارت المعالجة الأكاديمية لقوانين جستنيان وفقا للخطوط التعليمية التى كانت تستخدم فى دراسة الكتاب المقدس منذ زمن طويل . إذ كان الأساتذة يقرأون النص لتلاميذهم ويضيفون تعليقاتهم وشروحهم عن طريق الملاحظات الهامشية ؛ ولذلك فإن العلماء الذين قاموا بالتعليق على قوانين جستنيان فى القرن الثانى عشر قد عرفوا باسم الشراح Glos-sators ومالبثوا أن نشروا النص المشروح بحيث صار مرجعا لابد لكل من يريد أن يصبح خبيراً فى القانون المدنى أن يدرسه بعناية . وأشهر رواد هذا المنهج فى الدراسة القانونية هو العالم والمدرس البولونى إيرنيريوس Irnerius (ت ١١٢٥م) الذى كان يجتذب الطلاب من شتى أنحاء أوربا . فقد كانت القواميس والمعاجم التى ضمَّنها إيرنيريوس شروحه علمية وتطبيقية فى آن واحد ، لأنه لم يقنع بمجرد شرح النص موضوع المناقشة ، وإنما كان يحاول أيضا أن يطبق القانون على بعض المواقف فى زمانه . وأبرز تلاميذ إيرنيريوس يعرفون بشكل عام باسم « الدكاترة الأربعة Four Doctors » وقد واصلوا عملية دمج القانون المدنى الرومانى فى حضارة القرن الثانى عشر على هذا النحو . وعندما توفى إيرنيريوس كانت جموع الطلاب تتوافد على بولونيا ، من فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، لينهلوا من موارد العلم القانونى الجديد

الذى لم يكن يقدم لهم النظام الثقافى الصارم فحسب ، وإنما كان يقدم لهم أيضا الوسيلة التى تمكنهم من الاشتغال بمهنة جديدة .

كان فردريك الأول بربروسا Fredrick Barbarossa ، إمبراطور ألمانيا فى ستينيات القرن الثانى عشر ، هو أول حاكم هام فى المنطقة الواقعة عبر جبال الألب يفيد من صحوة القانون المدنى ومن وجود القانونيين المحترفين الجدد . فقد اجتذبه القانون المدنى لسببين . إذ كان باستطاعته أن يستخدم رجال القانون فى حكومته وإدارته ، فضلا عن أن مجموعة قوانين جستنيان كانت توفر له الأيديولوجية التى تمكنه من إعادة الملكية المقدسة القديمة التى كانت قد اختفت فى طيات الصراع حول التقليد العلمانى . واستطاع بربروسا ، عن طريق الزعم بحقه فى ممارسة إختصاصات الإمبراطور الرومانى ، أن يبرر إستبداده السياسى وزيادة سلطته فى ألمانيا ؛ كما استطاع أن يستغل البراهين التى تضمنتها مجموعة قوانين جستنيان فى تأكيد سيادته على المدن الإيطالية . وحين دخل إيطاليا لأول مرة أثناء حملته الاستردادية الكبرى ، والتى قادها بنفسه ، جمع مجلسا قام فيه القانونيون العاملون فى خدمته بطرح الأسس القانونية لدعاواه فى حق السيادة المطلقة على المجتمع الإيطالى . وبطبيعة الحال ، لم يكن الأوليجاركيون فى شمال إيطاليا ليسعدون بالفوائد التى جناها الإمبراطور الألمانى من إحياء القانون الرومانى الذى بدأت دراسته أصلا بمساندتهم . بيد أن حماسة فردريك لقوانين جستنيان أوضحت كيف كان يمكن لأعمال الشرّاح أن تتحول إلى ميزة تفيد منها الحكومات الملكية فى شمال أوربا . وعلى الرغم من أن التقاليد الوطنية القوية فى القانون الجرمانى فى الإمبراطورية قد حالت دون التطبيق الفورى للنظام القانونى الرومانى على المستوى المحلى ، فإن القانون المدنى الرومانى كان يلقى القبول في ألمانيا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، كما ظلت إجراءات هذا القانون تشكل الأسس التى يقوم عليها النظام القانونى الألمانى حتى اليوم.

وبسبب ماقام به بربروسا من ربط بين إحياء القانون الرومانى من جهة ، وسياسته وأيديولوجيته هو من جهة ثانية ، توخى ملوك آل كابيه فى فرنسا أواخر القرن الثانى عشر الحذر فى إدخال القانون المدنى إلى فرنسا . ولكن ما أن هلت سنة ١٢٠٠ حتى كان الملك الفرنسى قد اكتشف أن المحامين هم أكثر الناس صلاحية للعمل فى جهازه الإدارى النامى . ولم يتأخر دخول القانون المدنى إلى فرنسا كثيراً ، لأن رجال القانون المدنى هم الذين كانوا يسيطرون على الجهاز الحكومى الفرنسى إبان القرن الثانى عشر . وقامت مدرسة هامة لدراسة

القانون فى مونبليـيـه Mont pellier ، ورويدا رويدا إنتـزع رجال القانون المدنى ، الذين سيطروا على الهيئة القضائية الملكية ، ماتبقى من رواسب القانون الإقطاعى والقانون الجرمانى ، وجعلوا من مجموعة قوانين جستنيان أساسا لسلطات المحاكم الملكية . وعند منتصف القرن الثالث عشر كانت المحاكم الفرنسية تتبع الإجراءات الرومانية ، على الرغم من أن هذه المحاكم كانت ماتزال تحتفظ بشخصية قضائية مستقلة . فقد تغلبت الملكية الكابية على شكوكها الأولية فى مجموعة قوانين جستنيان حين تجلت قيمة هذه المجموعة فى عملية التوحيد القانونى للمملكة بشكل أكثر وضوحًا . فضلا عن أن الملك الفرنسى اكتشف أن بوسعه إستغلال مبادئ القانون المدنى فى تدعيم مذهب الاستبداد السياسى على نحو مافعل الملك الألمانى . فقد فسر القانونيون الفرنسيون المنصب الإمبراطورى فى قوانين جستنيان بطريقة تعميمية ، وخلصوا إلى أن « **كل ملك إمبراطور فى مملكته** » ، وهو مايعنى أن تكون له حقوق السلطة القانونية التى تجعلها مجموعة القانون المدنى حقا للإمبراطور الرومانى .

لقد كان تأثير إحياء مجموعة قوانين جستنيان عميقا على النظم القانونية فى فرنسا وألمانيا وكذلك فى داخل الكنيسة نفسها . إذ كان القانون الكنسى ، فى فترة تكوينه وتشكيله فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، محكوما بمفاهيم القانون المدنى وإجراءاته إلى حد بعيد . ففى منتصف القرن الحادى عشر كان العلماء الكنسيون قد بدأوا محاولة تنظيم القوانين الكنسية وجمعها من بين طيات الكم الهائل غير المرتب من الأحكام والتراث المتراكم منذ العصور الوسطى الباكرة . وكان أول من بدأ هذا العمل الصعب إثنان من الأساقفة من أبناء الشمال هما ، بيرشر الورمسى Burcher of Worms وايفو الشارترى Ivo of Char-tres . وفى سنة ١٠٥٠ م كان قانون الكنيسة يتألف من مجموعة متوارثة من التصريحات والأحكام التى أخذت عن الكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة ، والمجامع الكنسية ، والبابوات ، والأساقفة . وفى العصور الوسطى الباكرة تم عمل مجموعات مختلفة غير رسمية من القوانين الكنسية ، كانت أشهرها هى تلك المجموعة التى تنسب زوراً إلى القديس ايزيدور الإشبيلى ؛ ومن ثم عرفت باسم Pseudo - Isidorian Dectretals . وكان على الجيل الأول من القانونيين الكنسيين أن يجابهوا كما ضخما من المواد التى وضعت سويا دون الالتزام بأى مبدأ نقدى أو عقلى ، والتى كانت تحوى الاقتراحات القانونية التى يتعارض كل منها مع الآخر، بل كانت تتضمن بعض المواد المزورة . وعلى أية حال ، كان القانونيون الكنسيون

الشماليون الرواد فى القرن الحادى عشر علماء مخلصين ومقتدرين إلى أبعد الحدود ، وليس هناك شك فى أنهم كانوا يستطيعون التوصل إلى نتائج طيبة من خلال تجميعهم للقانون الكنسى . بيد أن البابوية الجريجورية لم تسمح لهم بذلك . فقد كان هيلبراند وزملاؤه فى مجمع الكرادلة يتوجسون خيفة من عملية تجميع القوانين الكنسية فى أيدى العلماء الشماليين لأنها قد تكون ضد ذلك النوع من السلطة البابوية المطلقة التى كانوا يزعمونها ، بل إنها ربما كشفت عن ماكان معتاداً فى العصور الوسطى الباكرة من منح الأسقفيات قدراً من الإستقلال الذاتى . ومن ثم قامت البابوية بتوجيه عملية تجميع القانون الكنسى وتصنيفه ، ومع مطلع القرن الثانى عشر كان قد تم إنجاز الشطر الأكبر من هذا العمل على أيدى العلماء الإيطاليين وتحت الإشراف البابوى ، وقد التزم العلماء الإيطاليون بتأكيد مذهب السلطة البابوية المطلقة .

وكان لتقدم دراسة القانون المدنى أثره فى مساعدة رجال القانون الكنسى الرومانى على استكمال عملهم . فقد جعلوا مركز البابا فى الكنيسة قرينا لمركز الإمبراطور فى الدولة . إذ تركزت كافة السلطات التشريعية فى الكنيسة فى إرادة البابا ، كما اعتبر البلاط البابوى بمثابة المحكمة العليا فى الكنيسة ، وله السيطرة الكاملة على أية محكمة كنسية أخرى فى أوربا . ومنذ السنوات العشر الأولى فى القرن الثانى عشر كان كافة القانونيين الكنسيين قد تدربوا تدريبا مكثفا فى القانون المدنى ، وكانوا يرون فى البابا إمبراطوراً مطلق السلطات فى مملكته الكنسية العالمية . هذا العمل الدؤوب لتجميع القانون الكنسى وتصنيفه آتى ثماره فى Decretum الذى أصدره المشرع والمبعوث البابوى جراتيان Gratian سنة ١١٤٠[١] . فقد

١ - هذه المجموعة تعرف باسم Decrtum Gratiani ، وهى عبارة عن مجموعة من القرارات والمراسيم ، والأحكام البابوية صدرت حول مختلف أمور النظام القانون الكنسى (decretals) . وكانت هذه فى الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأساقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى ، وقد جمعها جراتيان حوالى سنة ١١٤٠ - ١١٤١م تحت عنوان Concordantia Discordautium Canonum والمجموعة تحتوى على مايقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة ؛ مثل الدساتير الرسولية ، ونصوص آباء الكنيسة ، والقوانين الصادرة عن المجامع الكنسية فضلاعن المراسيم البابوية decretals سواء كانت أصلية أم مزورة ، وهى مؤرخة مابين القرون المسيحية الباكرة وعصر جراتيان نفسه ، بل إنها تتضمن قرارات مجمع اللاتيران سنة ١١٣٩م . وجميع هذه المصادر ، التى تتناول النظام الكنسى رتبت على نسق علمى وفقا للمنهج المدرسى Scholastic method لجعل التناقضات بين مختلف سلطات الكنيسة تبدو متوافقة بالإشارة إلى موضوع محدد . وسرعان ما أعتبرت هذه المجموعة بمثابة كتاب أساسى فى القانون الكنسى لاسيما فى مدرسة القانون فى بولونيا ، وباريس وأوكسفورد ، وصارت مرجعا ثقة فى المحاكم فى جميع أنحاء أوربا . وقد إجتذبت هذه المجموعة الكثيرين من الشراح والمعلقين منذ القرن الثانى عشر فصاعدا ، ومنهم البابا إسكندر الثالث . وهى تشكل الجزء الأول من مجموعة القوانين الكنسية Corpus Juris Canonici .

انظر : Geoffrey Barraclough , The Medieval Papacy (London 1968) p . 96.pp. 103- ff .
(المترجم).

عكف جراتيان على تجميع القوانين الكنسية ليواصل بذلك العملية التى كانت قد بدأت منذ قرن من الزمان ، على مبادئ القانون الكنسى ، ووفقا للمنهج الجدلى الجديد الذى كان الفلاسفة فى الجامعات الفرنسية قد بدأوا يستخدمونه . والعنوان البديل لمجموعته هو « ترتيب القوانين الكنسية المتنافرة » (Concordati Discordautium Canonum) ، وهو عنوان يشى بالمنهج الذى استخدمه جراتيان . إذ أنه وضع كل مبدأ متناقض وراء الآخر ، أى أنه كان يضع النظرية فى مواجهة النظرية المضادة لها ، ثم يقوم بمناقشة هدفها بُغية الوصول إلى حل منطقى للمتناقضات . وعندما كانت مصادره تختلف حول نقطة ما ، كان هو الذى يقرر مايدعم نظرية سمو السلطة البابوية . لقد أضفت البابوية على مجموعة جراتيان -Dcre tum وضعًا قانونيًا ، بحيث ظلت هى الأساس الذى يقوم عليه القانون الكنسى حتى يومنا هذا . ووضعت له ملاحق خلال القرن التالى بفضل التعليقات التى وضعها مفسرو المجموعة الذين عرفوا باسم Decretists ، وبفضل التصريحات الصادرة عن البابا إسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث ، وأخيراً مجموعة جريجورى التاسع التى صدرت سنة ١٢٣٤م لتكون بمثابة كتاب إضافى عن القانون الكنسي .

لقد أدى وجود مجموعة شاملة ومنظمة من القوانين الكنسية إلى تسهيل عملية إيجاد نظام قضائى كنسى عالمى كبير ، يرتكز علي البلاط البابوى ، إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر . لقد كان تأييد القانون الكنسى لمبدأ سمو السلطة البابوية من أهم العوامل التى ساعدت البابوية فى علاقاتها مع كبار رجال الكنيسة عبر جبال الألب . ومع هذا فإننى أخطئ إذا افترضت أن كل جملة وردت فى كتاب القانون الكنسى أو فى شروح المعلقين عليه كانت تتفق وحقيقة الأمور فى العصور الوسطى . لقد كان رجال القانون الكنسى يميلون إلى الاهتمام بما هو مرغوب وماهو مثالى فقط مثل قانون وتقاليد الكنيسة العالية . ففى بلاد مثل إنجلترا حيث كان كبار الكنسيين يرتبطون بالملكيات القوية ارتباطا وثيقا ، ظلت مواد كثيرة فى القانون الكنسى معطلة ، لقد بات من الشائع بين المؤرخين فى العصر الحديث أن يأخذوا منطوق القانون الكنسى باعتباره تقريرا سليما عن وضع الكنيسة الحقيقى إبان العصور الوسطى العالية .

كان لعملية إحياء القانون أثرها على كنيسة القرن الثانى عشر من خلال طريقتين بعينهما . ففى المحل الأول وضعت هذه العملية أمام القانونيين الكنسيين نموذج الإجراءات التى

استخدموها فى ساحات القضاء الكنسى . فقد تبنت الكنيسة إجراءات المحاكم الإمبراطورية الرومانية وممارستها ، كما جاءت فى مجموعة جستنيان ، مما جعل المؤرخين الآن يتحدثون عن الإجراءات القضائية الرومانية - الكنسية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، كما لو كانت نظاما قانونيا واحداً . ولأن القانون المدنى كان يدعو إلى محكمة يرأسها قاض ، كما يدعو إلى منح السلطات المطلقة لممثلى الإمبراطور التشريعيين ، فقد راق هذا القانون فى عيون القانونيين الكنسيين الذين كانوا يميلون إلى السلطة البابوية المطلقة . ومن ثم ، لم يكن هناك جديد فى الإجراءات التى اتبعتها محاكم التفتيش البابوية الشهيرة فى القرن الثالث عشر . إذ كانت محاكم التفتيش محكمة مؤقتة خاصة بغرض معين ad hoc كلفتها البابوية بالتحقيق مع الهراطقة والمنشقين . فقد اتبعت إجراءات القانون المدنى أساسا ، ومن المؤكد أنها لم تبتدع شيئا من وسائل التعذيب التى تعد من حقائق تاريخ القانون الرومانى .

أما المساهمة الخاصة الثانية التى ساهمت بها عملية إحياء القانون المدنى فى تطور كنيسة العصور الوسطى العليا ، فتتمثل فى إمداد الكنيسة بالأفراد المدربين للعمل فى الإدارة البابوية النامية . فقد كانت البابوية تطلب رجالا متعلمين للعمل فى محاكمها وفى المناصب الإدارية ، وكانت مدارس القانون المدنى الجديدة تقدم أولئك الأفراد للبابوية مثلما كانت تقدمهم للعمل فى الإدارات النامية للملكيات الأوربية ، ومن ثم كان بمقدور من يتخرج من إحدى جامعات العصور الوسطى ، بعد دراسة القانون ، أن يدخل فى خدمة أي حاكم علمانى ، كما كان باستطاعته أن يواصل تدريبه بعد تخرجه فى مجال القانون الكنسى بحيث يعمل فى خدمة الكنيسة . فإذا ما تبع المسار الأول ، كان من المحتمل أن يصير يوما الوزير الأول لأحد الملوك الأقوياء المتصارعين مع البابوية ؛ فإذا ما اتخذ السبيل الثانى (أى دراسة القانون الكنسى) كان من الممكن له أن يختتم حياته العملية بارتقاء العرش البابوى نفسه . وكان الاختيار الأساسى للشباب الحديث التخرج من مدرسة القانون يقوم عادة على أساس وظيفى بسيط . وبحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت البابوية تجند كل العاملين فى جهازها الإدارى تقريبا من خريجى مدارس القانون الأوربية ، وجميع البابوات الذين اعتلوا عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٠ وسنة ١٣٠٠ تلقوا تعليمهم الأولى فى القانون الكنسى ، باستثناء واحد فقط . وكان هذا يعنى أن العاملين فى الجهاز الإدارى البابوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانوا مدربين بشكل جيد وعلى قدر كبير من المهارة ، بيد

أن هذه الخلفية التشريعية المتجانسة لزعماء البلاط البابوى كانت لها أيضا نتائج أقل توفيقا. فهى ، من ناحية ، تعد من أسباب الصعوبات الجسيمة التى جابهتها البابوية فى العصور الوسطى العليا حين اصطدمت بمشكلة توجيه موجة التدين الشعبى الجديد والسيطرة عليها . فقد كان البابوات - القانونيون الذين اعتلوا عرش البابوية فى القرن الثالث عشر أكثر نجاحا فى إنجاز المهام الإدارية منهم فى القيام بالمسئوليات الروحية المنوطة بمناصبهم . ذلك أن تعليمهم القانونى وخبرتهم البيروقراطية لم تعلمهم كيف يتعاملون مع روح التدين العاطفى والاتجاهات الهرطقية التى استشرت فى المجتمعات الحضرية .

كانت انجلترا هى البلد الأوربى الوحيد التى لم يخضع نظامها القانونى لتأثير مجموعة قوانين جستنيان خضوعا كاملا . فبينما كان القانون المدنى قد بدأ يتسرب داخل النظم القانونية فى ألمانيا وفرنسا فى القرن الثانى عشر ، كان القانون الإنجليزى يسير فى اتجاه آخر، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التى كانت تختلف اختلافا بينا عن الأسس النظرية والإجراءات التى يقوم عليها القانون الرومانى . وكان لهذا البعد أثره العميق على كل من الحكومة والقضاء فى انجلترا فى العصور التالية ، وهو يُشكِّل واحداً من أبرز الأمثلة الدالة على طريقة تأثير التغيرات الثقافية فى القرن الثانى عشر على مجرى التاريخ الأوربى فيما بعد . ومن ثم ، فإن أية دراسة للقرن الثانى عشر لايمكن أن تتجنب السؤال الذى يطرح نفسه عن السبب فى أن انجلترا قد طورت نظامها القانونى الخاص بمنأى عن النظام القانونى الرومانى . وكثيرون من المؤرخين الإنجليز تجاهلوا هذه المشكلة تماما . وافترضوا ببساطة أن القنال الإنجليزى كان كافيا لأن يبعد انجلترا عن التغيرات الكبرى التى كانت تجرى فى القارة. وعلى أية حال ، فإن هذا الفرض ليس صحيحا لأن انجلترا القرن الثانى عشر كانت تابعا ثقافيا لفرنسا . ذلك أن الفن الإنجليزى والأدب والتطور الدينى فى القرن الثانى عشر كان واقعا تحت التأثير الفرنسى إلى حد كبير ؛ فلماذا إذن كان القانون الإنجليزى خارج نطاق هذا التأثير الثقافى ؟ .

وليس حقيقيا أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة فى انجلترا . فقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البولونيين يقوم بالتدريس فى انجلترا منذ أربعينيات القرن الثانى عشر، كما أن كثيرين ممن عملوا فى الجهاز الإدارى الملكى ، فى الشطر الأخير من عهد هنرى الأول ، تلقوا تعليمهم فى فرنسا وإيطاليا . كما كانت غالبية القضاة فى عهد هنرى الثانى من رجال

الكنيسة الذين تلقوا الدراسات التمهيدية المعتادة فى الإجراءات القانونية الخاصة بالقانون الرومانى والقانون الكنسى ومبادئ كل منهما . ومن المؤكد أنهم كانوا على درجة كافية من الدراية بالقانون الرومانى بحيث يدخلونه إلى انجلترا . وقد افترض المؤرخون الليبراليون الإنجليز فى القرن التاسع عشر أن التراث القانونى الجرمانى ، الذى يرجع أصلا إلى الفترة الأنجلو - سكسونية ، كان من النقاء والقوة بحيث لم تكن أمام القانون الرومانى أية فرصة للتفوق عليه . هذا الرأى ينطوى على قدر من الحقيقة ، بيد أنه لايأخذ فى الحسبان بعض حقائق الموقف الفعلية . فبينما أدى الغزو الأنجلو - سكسونى إلى طمس معالم القانون الرومانى الدارج فى انجلترا طمسا تاما بحيث صار النظام القانونى الجرمانى هو الذى يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الإنجليزية خلال فترة ماقبل الغزو النورمانى ، لم يكن الحكام الأنجلو - نورمان ، بعد الغزو ، ليهتمون بالحفاظ على القانون الرومانى . ولم يكن ثمة مايدفع الملوك الإنجليز بعد سنة ١٠٦٦م إلى التحمس للمدلولات السياسية فى القانون الجرمانى ، الذى كان قد انحرف فى اتجاه مصالح الجماعات المحلية ضد الحكومة المركزية القوية . لقد كانت السلطة القانونية المطلقة والمركزية التى تنطوى عليها مجموعة قوانين جستنيان أكثر توافقا مع سياسة الملوك الأنجلو - نورمان وملوك أسرة أنجو من النظام الجرمانى القديم . وكان لهنرى الثانى أن يفرض القانون المدنى الرومانى على انجلترا ، فقد كان ذلك يتلاءم مع ميوله العامة مثلما كان مناسبا للاتجاه العام لبربروسا ، أو أسرة كابيه . وينبغى فى النهاية أن نشير إلى أن وجود قانون جررمانى بسيط فى الإمبراطورية لم يمنع الحكام الألمان من تطبيق القانون المدنى الرومانى فى بلادهم فى نهاية المطاف . أما سلطة هنرى الثانى على انجلترا فكانت أعظم كثيراً ، ومن المؤكد أنه كان يستطيع أن يفرض مجموعة قوانين جستنيان على مملكته ؛ بيد أنه لم يفعل ذلك . وهكذا يبقى السؤال مطروحا : لماذا بقيت انجلترا خارج منطقة النظام القانونى الرومانى ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تبرز من طيات الجدول الزمنى لأحداث القرن الثانى عشر . ولأن الملكية الأنجلو - نورمانية كانت تسبق أية حكومة أخرى فى أوربا بنصف قرن على الأقل من حيث تطور مؤسساتها المركزية . فإنها أحجمت فى النهاية عن قبول القانون الرومانى . وخلال فترة تأسيس السلطة الملكية فى انجلترا ، فيما بين سنة ١٠٦٦ وسنة ١١٣٥ ، لم تكن

نصوص مجموعة قوانين جستنيان متاحة فى مناطق شمال الألب التى لم تكن تحصل على حاجتها من خريجي مدارس القانون الجديدة للعمل فى الأجهزة الإدارية . فقد تعين على الحكومة الملكية ، وهى تبنى سلطتها ، أن تستخدم كافة ما يتاح لها على الرغم من أن هذا المتاح لم يكن مناسبا لبناء السلطة الملكية المركزية المطلقة . وقد أبقى الملوك الأنجلو - نورمان المقاطعة Shire والمحاكم المائة ، التى ترجع أصلا إلى النظم الجرمانية القديمة ، كما أتاحوا لها أن تبقى بإجراءاتها القضائية ومبادئها القانونية ثابتة دونما تغيير فى أساسها . إذ استمرت سيطرة الرجال البارزين فى المناطق المجاورة ، أو فى الكونتية ، على المحكمة ، كما استمر نظام المرافعة الشفوية ، فضلا عن استمرار استخدام التعذيب كوسيلة للتحقيق ضمن الإجراءات الجنائية . لقد كانت الحكومة الملكية تنشد لنفسها نوعا من الإشراف العام على ممارسات المحاكم المحلية عن طريق إرسال مجموعات من القضاة الجوالين ليتولوا رئاسة هذه المحاكم فى أيام التقاضي ولكن مهمة القضاء كانت تنحصر فى مجرد الاطمئنان على اتباع الإجراءات الصحيحة ، وفرض أحكام العقوبات ، وجمع الغرامات والعقوبات المالية . وظلت المحاكم المحلية الإنجليزية محاكم للجماعة ، كما أن مبادئها حافظت على المبدأ الجرماني القائل بأن القانون ينتمى إلى الجماعة ولايمكن تغييره دون موافقة الأمة السياسية ، أى الطبقات الهامة فى المجتمع .

وقد أعاد القانون الإقطاعي الذى سارت عليه المحكمة الملكية Curia regis لهذا التراث الجرماني قوته . فقد كان الملك يرأس المحكمة الملكية ويسودها ، إلا أنه لم يكن يسيطر عليها سيطرة كاملة . إذ كانت التغييرات التى تجرى فى القوانين تتم بموافقة الكبار ، وهو الأمر الذى يتناغم مع التقاليد الجرمانية القاضية بالسلطة التشريعية للشعب ، وفى القضايا التى كانت تنشب بين الملك وأحد أفصاله كان القرار يصدر عن السادة الإقطاعيين المجتمعين . وقد حسن وليم الفاتح من الإجراءات الجرمانية البالية غير الفعالة عندما أدخل نظام الاستجواب الفرنجي - النورماني إلى انجلترا وكلف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية ، ولكن هذا أيضا لم يكن سوى تدعيم للمذهب الذى يقوم عليه القانون الجرماني . إذ كان نظام الاستجواب يتطلب من القضاة أن يزيدوا من اعتمادهم على آراء الرجال البارزين فى المجتمع، لأنهم كانوا يشكلون هيئة المحلفين الذين كانت شهادتهم من عوامل الحسم فى القضايا

القانونيـة المتعلقة بالشئون المدنيـة . وقد شجع نجاح نظام الاستجواب فى الشئون القانونية الدقيقة الحكومة الملكية على استخدامه فى أغراض إدارية . كذلك ، فإذا كان بوسع القضاة أن يدلوا بشهـادتهم فى أمـور مـثل دخل السـادة الإقطاعـيين المحليين (وهى شهـادة كـانت مطلوبة لأغراض ضريبية) ، فإن الحكومة لن تكون مضطرة إلى تعيين مندوبين ملكيين للقيام بهذه الأعمال . وفى الأيام التى سبقت ذلك الفيض من خريجى مدارس القانون الأوربية ، كان من الصـعب وجود الأفـراد الذين يمكن الاعـتمـاد عليـهم فى شـئون الإدارة . وهـكذا ، كـانت الملكيـة الإنجليزية فى ثلاثينيات القرن الثانى عـشر قد اعتـادت على أن تستـخدم ممثلين دون أجر فى المجتمعات المحلية يقومون بالشطر الأكبر من المهام القانونية والإدارية فى الكونتيات.

حين اعـتلى هنرى الثـانى العرش سنة ١١٥٤م ، وجـد نظـامـا قـانونيـا يتـألف من عناصـر جرمانية وإقطاعية ، إلى جانب عناصر إضافيـة أخرى جمعها رجال القانون الملكيون بعد نصف قرن فى قانون عـام يحكم المملكة بأسرهـا . هذا النظام المتمـايز كانت له نقـائص محددة . إذ كان مـايزال يعتـمد على المرافعة الشفوية ، التى جعلت منه نظاما فوضويا بالقياس إلى النظم القانونيـة المدنيـة التى كـانت آخذة فى الانتـشـار فى شتـى أرجاء أوربا . ولم يكن هذا النظام ينطوى على أية مفـاهيم عن المسـاواة ، كمـا كان يفتـقر إلى وسائل وقف القانون فى الحالات الخاصة لصالح العدالة المجردة . والحقيقة أن هذا النظام القانونى كان يفتقر إلى فكرة العدالة ، على الرغم من كونه مكرسـا للسـلام والنظام . ففى القضـايا الجنائيـة كانت إجراءات القانون العام تتحيز تحيزاً شديداً ضد المتهم ، ولاسيما إذا كان ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع. ذلك أن الفرد الذى كانت تسوء سمعته فى مجتـمعه تتضاءل فرصته فى النجاة لأن رأى جيرانه كـان هو العـامل الحـاسم فى القضـايا الجنائيـة ، ولأن التـحقيق والبحث عن الأدلة والبراهين من خلال المحكمـة لم يكن معروفا . ولأن هنرى الثـانى كان رجلا فـرنسيا ذا فـكر عـالمى ، كمـا كان من أفضل ملوك القرن الثانى عشر تعليـما ، فقد أدرك تمامـا أن القانون العام لايصمد للمقارنة أمام القـانون الرومانى مـن عدة وجوه ، كمـا أن القانونيين العاملين فـى خدمتـه ، والذين تدربوا على إجراءات القانون الرومـانى/ الكنسى لم يكونوا غـافلين عن هذه الحقيقـة . إلا أن حكومة هنرى الثـانى قررت أن تترك القانون العام سـاريا وعدم القضـاء عليه بإدخـال إجراءات القانون المدنى ومؤسسـاته . إذ كان القانون العام قائمـا بالفعل ؛ فقد كان يؤدى دوره بسـلاسة ويحظى بالقبول الشعبى . وفضلا عن ذلك كله ، كان هنرى الثانى يحبذه لأنه كان رخيص التكاليف .

فقد كان يتطلب عدداً قليلا للغاية من القضاة بالمقارنة مع النظام الرومانى ، ومع ذلك فإنه كان يدر مكسبا ثابتا للتاج . كما أن استخدام المحلفين فى الأغراض الإدراية على المستوى المحلى أتاح للحكومة الإنجليزية أن تعمل بأقل عدد ممكن من الموظفين المكتبيين ، وأن تستعيض بالخدمات المجانية التى يقدمها النبلاء المحليون عن أعداد جيش كثير النفقات من المندوبين الملكيين . وقد أطلق أحد المؤرخين على هذا النظام اسم « الحكم الذاتى بأمر الملك » .

ولو لم تكن هذه النظم الإنجليزية المتمايزة سارية بالفعل قبل سنة ١١٥٤ ، فلاشك فى أن هنرى الثانى كان سيدخل إلى انجلترا النمط الرومانى فى القضاء والإدارة المركزية الذى عرفته الملكية الكابية فى أواخر القرن الثانى عشر . فقد قنع هنرى بتحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية ، وإدخال القضاة الكبار المحلفين فى الدعاوى الجنائية . وكانت وسائل التعذيب (المحنة) ماتزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائية ، ولكن هذا الأمر انتهى بقرار مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥م، وفى القرن الثالث عشر كان القانون الإنجليزى العام قد استكمل صيغته ونظمه المعروفة مع تطور قانون المحلفين .

وهكذا كان الحفاظ على القانون العام ، بنغماته الجرمانية القوية ، نتيجة لانسجامه مع مطالب حكومة هنرى الثانى . ولم يكن هنرى ومعاونوه بغافلين عن حقيقة أن النظرية السياسية فى القانون العام كانت أقل تأييداً للسلطة الملكية المطلقة من قوانين جستنيان . بيد أن المزايا العامة للقانون العام كانت أكثر من أن تُهمل في سبيل هذا الأساس النظرى للسلطة الملكية . كان هنرى يعتقد أن بوسعه أن يحرز السلطة الفعلية المطلقة من خلال الاستغلال الكفء للنظم الإنجليزية القائمة . وبينما قدر له أن ينجح فى مسعاه صوب هذا الهدف بدرجة ملحوظة تماما ، فقد حفظ القانون العام للأجيال المستقبلة فى انجلترا فكرة أن القانون يوجد فى السلطة التشريعية لكل من الملك والمجتمع ، وأنه ليس مجرد تعبير عن الإرادة الملكية . وهكذا ، فإنه بينما تنص قوانين جستنيان على أن « إرادة الإمبراطور لها قوة القانون » تنص النظرية القانونية الإنجليزية على أن الملك يخضع للقانون ، شأنه فى ذلك شأن أى فرد فى المجتمع . وقد لاحظ أحد المشرعين الإنجليز فى القرن الثالث عشر أن القانون الإنجليزى يقوم على قواعد وليس على الإدارة . ويبدو تأثير تراث انجلترا القانونى فى القرن الثانى عشر واضحا حتى اليوم ، كما هو الحال بالنسبة لفرنسا وألمانيا والكنيسة الكاثوليكية .



المراكز الثقافية والدينية فى أوربا العصور الوسطى

٣ - جيل عظيم : زعماء خمسة للفكر والمشاعر فى القرن الثانى عشر

كان لابد لأى طالب فى جامعة باريس سنة ١١٤٠ أن يواجه مباشرة ، أو بطريقة غير مباشرة ، الزعماء الخمسة الكبار الذين قادوا الفكر والتعبير الأوربى أثناء موجة المد العالمية التى واكبت الإحياء الثقافى فى القرن الثانى عشر . وهناك إيقاع واضح فى التاريخ الثقافى ، يشد العبقريات الخلاقة إلى بعضها البعض ، فى جيل واحد مبدع على نحو إعجازى ، كما يربط بين أعمالهم ذات الحيوية الفائقة وبين أحد المراكز الحضارية ، وذلك بعد أن تكون قد مرت عصور طويلة من التفكير الاجترارى والتقليدى . ذلك أن أثينا بريكليس ، ولندن شكسبير ، وباريس فولتير وديدرو ، ترد على البال مباشرة . إنه درس من التاريخ يعلمنا أن العبقرى لايظهر فى صحراء فكرية أو مادية ، ولكنه يتطلب التحدى والحماية من بيئة تمتلك زمام المبادرة ، كما يتطلب صحبة غيره من العقول والشخصيات العظيمة . وقد كشفت حضارة العصور الوسطى عن مثل هذه اللحظة الخلاقة والمكان الإبداعى فى باريس إبان العقدين الرابع والخامس من القرن الثانى عشر . فقد ظهر خمسة من قادة الفكر والمشاعر تلاقى كل منهم مع الآخر على ضفاف نهر السين ، وكانوا يمثلون كافة الجوانب الهامة فى التغير الثقافى فى تلك الفترة كما كانوا هم سادة هذا التغير . ومن الممكن أن نعتبر أن تاريخ الفكر فى العصور الوسطى فيما بعد كان نتاجا لما خلفوه من تراث ثقافى واسع الثراء . ذلك أن الفترتين التاليتين فى التطور الثقافى فى العصور الوسطى ، بما تميزتا به من دقة وحرج فيما بين سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٧٠ ، ثم ما بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٢٠ ، اهتمتا أساسا بمجابهة التحدى الذى طرحته الأفكار والعواطف التى غرسها الزعماء الثقافيون الكبار فى القرن الثانى عشر فى تيار الفكر الوسيط . وقد مات أربعة من أولئك القادة الثقافيين فى أربعينيات أو خمسينيات القرن الثانى عشر ؛ وهم سوجيه Suger وأبيلارد Abelard وأتو الفريزى Otto of Freising ، والقديس برنار St.Bernard - ويمكن بشئ من التجاوز أن نعتبرهم أبناء جيل واحد . أما الخامس ، وهو حنا السالزبورى John of Salisbury فكان ينتمى إلى جيل أصغر وعاش حتى ثمانينيات القرن الثانى عشر ، ولكنه قام بمعظم أعماله الثقافية الهامة قبل سنة ١١٦٠ ؛ ومن ثم يمكن اعتباره معاصراً للأربعة الآخرين . كان ثلاثة من هؤلاء فرنسيين ، وألمانيًا واحداً ، وإنجليزيًا واحداً ؛ ولكن أي دراس فى باريس كان بوسعه أن يكتشف بصماتهم الفكرية على جميع ماحوله ، وكان لابد أن يجرب ذلك الشعور النادر بالرضى والنشوة الذى ينتاب المرء حين ينال امتياز الدراسة فى المركز الحيوى لعصر ثقافة جديدة تلوح بشائره .

فخلال شوارع باريس الضيقة الملتوية ، حيث كانت الذئاب ماتزال تظهر فى بعض ليالى الشتاء ، كان الطلاب من شتى أرجاء القارة الأوربية يشقون طريقهم صوب الكاتدرائية القائمة فى « الحى اللاتينى » . وتحت رعاية أسقف باريس كانت قد تأسست مدرسة للدراسات العليا. وكان مقدراً لجامعات شمال أوربا أن تنمو من صلب هذه المدرسة الكاتدرائية ومثيلاتها ، مثل مدرسة شارتر التى يحتمل أنها كانت أول مدرسة يتم تنظيمها . وبالمعنى الفنى لم تكن المدرسة الكاتدرائية تتطلب سوى اندماج الأساتذة فى الجامعة Universitas ، أو نقابة ، لكى يحدث هذا التقدم . وكان العلماء الذين يحصلون على تصريح من أسقف باريس للتدريس فى مدرسته يتناولون بالدراسة موضوعات لم يكن لها مكان فى العالم الفكرى المحكوم بظروف الدير . وكان هؤلاء على استعداد لتحليل وحل المشكلات العويصة فى الفكر الغربى بفضل استخدامهم لأدوات الجدل الثقافية التى استمدوها من ذلك الجزء من منطق أرسطو الذى كان بوئثيوس قد ترجمه إلى اللاتينية فى القرن السادس الميلادى : هذه المشكلات تتعلق بطبيعة العالم ، وطبيعة الإنسان ، وفوق هذا وذاك طبيعة الألوهية ، والعلاقة بينهم جميعًا . ولم يحدث مثل هذا التأمل والتفكير منذ عصور آباء الكنيسة سوى فى القليل النادر ؛ فقد كان عالم العصور الوسطى عالمًا يناضل فى سبيل البقاء المادى ، على حين كان الإبقاء على التعليم نفسه نضالاً مستمراً ، بل إنه كان عالمًا يرسى أسس النظام الاجتماعى مما أوجب عليه أن يشغل نفسه بأكثر المشكلات إلحاحًا ، ولم يكن بمقدوره أن يترك أفضل العقول لمجرد التفكير والتأمل ، وكان هذا هو الحال فى القرنين التاسع والعاشر . وفى أخريات القرن الحادى عشر كان بوسع أوربا أن تستمتع بترف الفكر الراقى ، وفى ظل حماية الأساقفة الأثرياء المثقفين فى شمال فرنسا ؛ فى شارتر أولاً ثم فى غيرها من الأماكن مثل ليون وباريس واستؤنف الحوار الثقافى الكبير فى تاريخ الحضارة الغربية . وعلى مدى عشرين أو ثلاثين سنة كانت المناقشات الدائرة حول طبيعة العالم المسيحى تسترعى انتباه بعض أفضل العقول فى الفلسفة ، والعلوم ، واللاهوت . ولكن انتهاء النزاع حول التقليد العلمانى حرر الطاقة الفكرية الزائدة فى أوربا لكى تنشغل فى الاستدلالات الفكرية التأملية .

لقد كان من الصعب إرواء الظمأ الثقافى للجيل الذى وصل سن النضج حوالى سنة ١١٠٠ ميلادية . فمن مناطق فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ومن إيطاليا أيضا سار الدارسون الكنسيون على الطريق بغية التتلمذ على أحد الأساتذة المشهورين ممن وصلت شهرتهم إلى

مواطن أولئك الدارسين . وفى ستينيات القرن الحادى عشر ظهر برنجار التورى Bréngar كأول مثال على ذلك النمط من الأساتذة الذين لم يلبثوا أن انتشروا ليجتذبوا ألمع الشبان بفضل سحر عقولهم وجاذبية شخصياتهم . وجاء سقوط برنجار فى فخاخ الهرطقة تأكيداً لشكوك المعادين للثقافة مثل داميانى واللاهوتيين المبالغين فى الحيطة والحذر من أمثال لانفرانك ، وهى شكوك مؤداها أن الجدل يمكن أن يكون بسهولة فى غاية الخطورة كما يمكن أن يُساء استخدامه ، ولكن هذا لم يكن يمثل عقبة فى سبيل انتشار الحركة الثقافية الجديدة أو ازدياد عدد من يقلدون برنجار . ففى عالم ينمو ليكون أكثر تنظيما ، وثراء وسكانا ، وتعليما ، لم يكن ممكنا أن تقنع أفضل العقول من أبناء الجيل الصاعد بامتلاك ناصية المعرفة فى تراث الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة . ذلك أن استفسارهم الفكرى القلق هشم الإطار الذى كان الكوين ، وبيديه ، بل وأوغسطين يعملون داخله وعادوا القهقرى عبر قرون الصمت يلتمسون العون والهداية من الفلسفة والعلوم اليونانية .

ولم يكن هناك أحد فى سنة ١١٠٠ ، أو حتى فى سنة ١١٤٠ ، على يقين من الاتجاهات النهائية لحركة التعليم الجديدة . فلم يكن بمقدور أحد أن يتصور فى وضوح إعادة بناء عالم الفكر المسيحى الذى سوف ينجم عن التحقيقات الجديدة فى الفلسفة والعلوم واللاهوت . ومع هذا ، فإنه لم يكن هناك أحد ، ولا حتى أولئك الذين راودتهم الشكوك حول جدوى أو أهمية الوسائل الجديدة اجتماعيا ، بقادر على أن يتجاهل التحقيقات والبحوث الجديدة التى يقوم بها الأساتذة والطلاب فى المدارس الكاتدرائية فى شمال فرنسا . وفى بواكير القرن الثانى عشر كان يتضح يومًا بعد يوم أن المعرفة قوة ؛ فقد انطلق كثيرون من أبناء الجيل الذى وصل إلى سن النضج حوالى سنة ١١٠٠ صوب المدارس الكاتدرائية الجديدة للمشاركة فى الثورة الثقافية دون أن يعبأ بضخامة وصعوبة العمل الذى اضطلعوا للقيام به ، بل ودون أن يفكروا فى استخدام محدد لهذا التعليم الجديد . وتقدم المعاصرون البارزون ، ممن لم يستسيغوا المناهج الجدلية الجديدة ، والذين كان اهتمامهم منصبا على تأثيرهم البعيد على عالم الفكر المسيحى التقليدى عن طريق تظم بديلة مستمدة من الأفلاطونية الجديدة التى انتشرت فى العصور الوسطى الباكرة ، ومن النزعة الإنسانية الكلاسيكية ، أو من المصادر العاطفية لمشاعر التدين الجديدة . ولكن هذا لم يوقف الطفرة الثقافية التى أدلت فيها الجامعات بدلوها . إذ أضاف إليها جوانب جديدة كما أثرى تأثيرها وكشف من وقعه . هذان المدخلان الإضافيان ساعدا على

جعل النمو الثقافي في القرن الثاني عشر حركة أكثر تعمقا وأشد تعقيداً ؛ بحيث تؤثر على كافة الجوانب الأخرى في الثقافة الراقية ، كما ساعدت على تعدد وجسامة المشكلات التي كان على الأجيال اللاحقة من مفكري العصور الوسطى أن يعالجوها .

كان كثيرون من الطلاب في أربعينيات القرن الثاني عشر يمرون بدير سان دوني الملكي وهم في طريقهم إلى المدرسة الكاتدرائية . وكانت تنتابهم الدهشة من نتائج إعادة بناء كنيسة سان دوني الكارولنجية القديمة تحت إشراف سوجيه رئيس الدير . فقد جرؤ رئيس الدير على أن يبتعد بشكل جذري عن فن بناء الكنائس في شمال إيطاليا والقسطنطينية حيث كان طراز الرومانسك Romanesque هو الطراز الشائع في الفن الغربي . وكان الطلاب الوافدون إلى باريس من إنجلترا أو نورماندي يظنون أنهم رأوا في عمل مقدم الدير تأثير الكاتدرائيات النورمانية التي كانت قد بدأت تنصرف عن التأثير الرومانسكي ، الذي يهتم بخطوط البناء الأفقية ، وتتجه إلى الشكل الرأسي والعقود المضلعة . إلا أن كثيراً من جوانب البناء الذي أعاد سوجيه بناءه لايمكن أن نجد لها مثيلاً في أي مكان ؛ فقد كان ذلك البناء طرازاً فرنسيا جديداً ، مبتكراً ومذهلا مثل الأفكار الجديدة التي كانت تجرى مناقشتها في المدارس الكاتدرائية . ففوق مدخل كنيسة سان دوني وضعت نافذة وردية من الزجاج المرسوم ، تشهد صناعتها بعبقرية ومهارة الصناع الذين استخدمهم رئيس الدير . وتم بناء جوانب الكنيسة على أساس التأكيد علي الخطوط الرأسية ، وبعكس الحوائط الصماء الموجودة في الكنائس الرومانسك ، فتحت في الواجهة الصخرية نوافذ كبيرة تسمح بدخول الضوء لكي يغمر داخل الكنيسة وينير المذبح .

وللوهلة الأولى لايبدو سوجيه مناسبًا لدور من يبدأ طرازاً معماريًا جديداً في غضون ألف وسبعمائة سنة . إذ أنه يبدو من مظهره رجلا نمطيًا من رجال العصور الوسطى الباكرة . كما يبدو متوافقا مع الثقافة الكلونية التي سادت القرن العاشر أكثر منه مع عالم الثورة الثقافية الذي كانت باريس تمثله في القرن الثاني عشر . فقد أمضى حياته كلها في دير سان دوني ، وهو الدير الذي كان قد ارتبط بالملكية الفرنسية منذ القرن التاسع . ولأن دير سان دوني ينتسب إلى دير كلوني ، كما كان هو الدير الذي يحفظ التاج والصولجان والشعارات الملكية الفرنسية ، فقد كان لابد له من أن يتورط في شئون الأسرة الملكية . وقد صورت الرابطة الوثيقة التي تجمع بين سان دوني والأسرة الملكية الكابية بطريقة رمزية على واجهة كنيسة

سوجيه . فقد صار هو الوزير الأول ، ثم كاتب سيرة لويس السادس . واستمر سوجيه يسدى خدماته الجليلة حتى وفاته سنة ١١٥١م إلى لويس السابع الذى تولى هو تعليمه . وعندما كان لويس غائبًا فى حملته الصليبية المنكودة [٢]، قام سوجيه بعمله نائبًا عنه وأدار الحكومة الكابية باقتدار . وهكذا يمكن القول بأن رئيس دير سان دونى كان آخر رجال الدولة الكبار فى العصور الوسطى ، فقد كان خليفة لسان بونفياس ، والكوين ، ولانفرانك أسقف كانتربورى . ومن المؤكد أن خلفيته كانت تميزه تماما عن كبار موظفى الملكية الفرنسية فى القرن الثالث عشر.

ويبدو أن ثقافة سوجيه أيضًا تميزه واحداً من أهل العصور الوسطى الباكرة ؛ إذ أنه كان مفكراً محافظًا ليس له احتكاك بالتيارات الفكرية السارية فى زمانه . ويمكن التعبير عن فلسفته فى الفن ؛ وهى التى برر بها الطراز الذى أعاد بناء كنيسته وفقا له ، من خلال مصطلحات الأفلاطونية الجديدة التى سادت العصور الوسطى الباكرة . فقد تأثر كثيراً بكتابات ديونيسيوس الزائف Pseudo-Dionysius ، وهو راهب سورى مجهول عاش فى القرن الخامس اعتبره صنوا لسان دونى ، تلميذ القديس بولس وحوارى فرنسا الذى كانت كنيسة سوجيه مكرسة له . وكانت الفلسفة الديونيسيوسية / الأفلاطونية الجديدة مرجعًا لسوجيه فى القانون الكنسى ؛ إذ أنه استخدم تشبيه هذه الفلسفة للألوهية بالنور فى تفسيره لوظيفة النوافذ الجديدة فى كنيسته حين قال إن وظيفتها هى إنارة المذبح بفيض مقدس .

هذه الجوانب من حياة سوجيه العملية وعقائده ، التى تبدو كما لو كانت مخلفات عتيقة تخلفت عن عصر مضى ، تقابلها خصال أخرى تجعله واحداً من زعماء جيل من المبدعين . وبينما كان أكثر محافظة من المحامين الذين قُيضَ لهم أن يسيطروا على الجهاز الإدارى لملوك آل كابيه فى نصف القرن التالى ؛ فإنه يشبه أولئك القانونيين magistri من حيث استخدامه لملكة الذكاء والنقد فى حل مشكلات الحكم فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن الملوك الفرنسيين كانوا مايزالون يتوجون بنفس الأسلوب الكارولنجى القديم ، فإن سوجيه لم يحث سادته الملكيين على التأكيد المستمر للدعاوى الثيوقراطية التى عادت بالامتهان على الملوك الكابيين الأوائل ، بل وعلى لويس السادس . وبدلاً من ذلك فإنه ساند السياسة الواقعية المعقولة التى تبنى السلطة الملكية بحرص فى المناطق المحيطة بباريس ile - de - France .

---

٢ - الحملة الصليبية الثانية التى جرها الغرب الأوربى بعد أن استرد المسلمون الرها سنة ١١٤٤ ميلادية وقد فشلت فشلا ذريعًا . (المترجم)

ويبدو أن التركيز على موارد الممتلكات الملكية باعتبارها منطلقًا لتدعيم السلطة الملكية ، وهى السياسة التى صارت سياسة أساسية للملكية الكابية فى الفترة الأخيرة من حكم لويس السابع - يبدو أن هذا قد بدأ للمرة الأولى على يد رئيس دير سان دونى .

ولاينبغى أن تحول اقتباسات سوجيه من كتابات ديونيسيوس الزائف بيننا وبين فهم المغزى الأساسى لابتكارته الفنية . إذ أن الغرض من إنجازه المعمارى كان إيجاد مكان للعبادة أكثر إلهامًا . ذلك أنه لم يكن يعتبر كنيسة سان دونى مجرد كنيسة صغيرة للرهبان ، وإنما اعتبرها كنيسة يمكن للناس فى باريس أن يشعروا فى رحابها أنهم أقرب إلى الرب منهم حين يكونون داخل البنايات الكنسية التى انتشرت خلال العصور الوسطى الباكرة . فخلف المنظر الخارجى الخشن لرجل الدولة الراهب يمكن أن يتوارى ذكاء مخلص متألق يعى تمامًا ويدرك موجة التدين الشعبى الجديد والحماسة المتأججة فى صدور العلمانيين لإقامة علاقة أكثر وداً مع الرب . وفى مقالته عن إعادة بناء كنيسة سان دونى ، يصف سوجيه بالتفصيل خططه لإثراء داخل الكنيسة وتجميله . كما أن تقريره عن بحثه عن الأوانى الفخمة والجواهر اللازمة للمذبح ، بالإضافة إلى ابتكاراته المعمارية التى أضاءت داخل الكنيسة ، تشى بإحساس عميق بالوظيفة التعليمية للفن الدينى .

ومع ذلك فهناك جانب آخر فى أعمال سوجيه يجعله جديراً بأن يكون معاصراً لأساتذة وطلاب مدرسة باريس . إذ أنه تمثل ، ونفذ ، طرازاً جديداً من البناء الكنسى دون الاعتماد على أية طرز سابقة . هذه الروح الإبداعية كانت تنطوى على جسارة وجرأة فى التخلى عن المواقف الفكرية التى شاعت فى العصور الوسطى الباكرة ، وهى مواقف كانت غايتها الحفاظ على أفضل ماخلفه الماضى من تراث . وبفضل ثقة سوجيه فى صلاحية أحكامه ، وبفضل جسارته فى متابعة نتائج هذه الأحكام فإنه يقف متميزاً باعتباره واحداً من ذلك الطراز الجديد من المفكرين التقدميين الذين يعتزون بأنفسهم والذين ظهروا فى غضون القرن الثانى عشر . لقد تمت إعادة بناء كنيسة سان دونى بعمل هائل وعناية فائقة . وكان على سوجيه أن يغامر بإنفاق شطر كبير من ثروة الدير الذى يرأسه ، كما تعين عليه أن يجند عمال البناء ويستشير المهندسين المعماريين ، وأن يجند الحجارين ، وقاطعى الزجاج ، فضلا عن العمال العاديين ، ثم يشرف بنفسه على أعمالهم جميعًا حتى يتم له البناء بالشكل الذى يريده .وبعد كل هذا الوقت وكل هذا المال الذى أنفقه لم يكن هناك مايؤكد أن النافذة الوردية ، والجزء الذى يضم جميع

النوافذ لن يسقط لكي يتحطم فوق رؤوس جمهور المصلين . إن ماتميز به سوجيه من اعتداد بأفكاره ، ومهارة في التنظيم تعتبر عناصر أهم كثيراً في تكوين خلفيته من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي نبعت منها رؤيته الفنية ، وهي الفلسفة التي كانت قائمة في الوجود منذ تسعمائة عام قبل عصره دون أن تفرز شيئًا يقارب البناء القوطي ولو من بعيد . وهناك تماثل واضح بين عمل سوجيه والمناقشات الفلسفية واللاهوتية التي كانت تدور في زمانه على مسافة أميال قليلة من سان دوني ، أي في مدرسة باريس الكاتدرائية . ففي الجامعة الفتية ، كان الأساتذة والطلاب أيضا يستخدمون المنهب القديم لتحقيق غايات جديدة ؛ إذ إنهم كانوا مثل سوجيه يخلقون بنيانًا جديداً لم يوجد له مثيل من قبل .وعلي الرغم من تفاؤلهم ، فإن مدى فعالية هذا البنيان واستمراريته لم تكن لتتأكد قبل أن يتم إنجازه تمامًا . وليس هناك من يمثل الجرأة والعزيمة ، والذكاء النفعي الذي استشرى في منتصف القرن الثاني عشر أكثر من رئيس دير سان دوني .

لقد كان سوجيه يمثل نمطًا اجتماعيا قديما خلق بإنكاره لذاته ثورة فنية . أما حنا السالزبوري فكان من جميع الوجوه رجلا من الطراز الجديد الذي كان إفرازاً للثورة الفكرية والتعليمية . ولكنه على الرغم من هذا ، وربما يكون بسبب هذا أيضا ، كان واعيًا بالانفصال المتزايد بين الثقافة المعاصرة والفكر العالمي الذي كان شائعًا في العصور الوسطي الباكرة ، لقد حاول الحفاظ على القيم القديمة في مواجهة التغير السريع ، وأخذ يبحث عن الوسائل التي تكفل له السيطرة على آثار حركة التعليم الجديدة والسلطة الجديدة في القرن الثاني عشر . كان حنا قسًا إنجليزيا من أصل اجتماعي غامض ، وربما كان من أصل متواضع ، وفي مطلع شبابه وفد إلى مدرستي شارتر وباريس لينال حظه من الدراسة . وفي ثلاثينيات القرن الثاني عشر تتلمذ على كبار علماء الجدل واللاهوت في ذلك الزمان ، وتمدنا رواياته الحية عن أساتذته ورفاق دراسته ببعض من أهم معلوماتنا عن بداية الجامعات الفرنسية . ثم توجه إلى روما بحثًا عن وظيفة . وأصبح سكرتيراً للبابا أدريان الرابع Adrian IV (نيقولاس برسكبير) الذي كان إنجليزى الأصل في مطلع النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وكانت خلفية هذا البابا التعليمية هي نفس خلفية حنا . لقد كانت تلك هي المرة الوحيدة في التاريخ التي يدير فيها الشئون البابوية رجل إنجليزي ؛ كذلك كان الكردينال روبرت بولان Robert Pullan إنجليزيا من نتاج المدارس الفرنسية . وكان هو الآخر من الموظفين اللامعين في خدمة

أدريان الرابع . وفى سنة ١١٣٥ عاد حنا إلى انجلترا لكى يصير سكرتيراً لتيوبولد Theo-bold كبير أساقفة كانتربورى . وكان محتماً أن يكون قريبا من توماس بيكيت Thomas Becket ، الذى كان قساً إنجليزياً شابا درس هو الآخر فى فرنسا ، وكان رئيس المجلس الاستشارى لكبير الأساقفة . وقد عاين حنا القوة النامية للدولة الإنجليزية فى بداية عهد هنرى الثانى ، ويبدو أنه فى إحدى المناسبات جلب على نفسه حنق الملك الذى اعتبره عميلا للبابوية. وفى ستينيات القرن الثانى عشر عاين حنا بشكل مباشر الصراع الذى نشب بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت ، الذى كان قد صار آنذاك كبيراً لأساقفة كانتربورى بعد أن عمل كمستشار فى خدمة الملك . كان حنا سكرتيراً لتوماس بيكيت وصحبه إلى منفاه . كما كتب سيرة شهيد كانتربورى ، ولكنه لم يكن غافلا عن الأخطاء الكامنة فى شخص سيده . وباعتباره قسيسا ، أعيد حنا إلى فرنسا مرة أخرى لكى يقضى سنوات عمره الأخيرة أسقفا على شارتر حتى وافته المنية سنة ١١٨٠ ، فى نفس المكان الذى توجه إليه قبل نصف قرن تقريبا وهو قس مغمور للدراسة فى المدرسة الكاتدرائية ، وليس هناك شخص آخر انغمس مثله ، شخصيا ، فى مثل هذا العدد الكبير من التطورات الهامة المختلفة . ومع هذا فإن حنا السالزبورى كان شاهداً متأملا فى هذه الأحداث أكثر من مشاركًا فعالا فيها . ولأن مزاجه كان تأمليا أكثر من كونه مزاجًا نشيطًا ، رحيما متسامحا أكثر منه ناقداً ، وبفضل عمله الواسع الغزير وذوقه السليم ، فإنه كان هو الشخص المثالى الذى يصلح لملاحظة وتأمل مغزى التغيرات الكبرى التى كانت تجرى فى زمانه .

كان حنا متمكنا من علوم المنطق والفلسفة واللاهوت الجديدة التى كان يجرى تدريسها فى المدارس الفرنسية ؛ ولكنه صار واحداً من أبرز نقاد الاتجاهات الفكرية الجديدة . إذ أنه كان يعتبر أن مايقوم به المدرسون فى باريس وشارتر من أعمال علمية ليست ذات جدوى – فهو يصف لنا أنه ، بعد أن عاد إلى باريس بعد غيبة طالت سنين عديدة ، وجد الأساتذة والطلاب يتابعون نفس المناقشات دونما تقدم محمود ، اللهم فى زيادة غطرستهم – بل إن هذه الأعمال كانت فى رأيه تشكل خطراً على الأسس التى يقوم عليها عالم الفكر المسيحى . ومن هذه الناحية كان حنا متفقا مع داميانى وسان برنار اللذين عاصراه فى موقفيهما المعاديين للفكر . بيد أنه لم يسايرهما فى الاستعاضة عن الطريق الجدلى لمعرفة الله بالطريق الصوفى ، والحقيقة أن عقلية حنا السالزبورى كانت عقلية رجل أخلاقى ؛ إذ أنه لم يكن مهيئا بطبعه لتقبل المدخل العلمى أو المدخل العاطفى لفهم الحياة . وكان من رأيه ألا ضرورة للكشف عن الحقيقة، لأنها معروفة بالفعل ، وإنما المشكلة هى كيفية تلقين الحقيقة للجيل الصاعد . ففى كل مكان

حوله كان يمكنه أن يرى التأثيرات المفسدة للتعليم ، والثروة ، والسلطة الجديدة ، كما كان بمقدوره أن يلمس نفس الآثار المدمرة الناجمة عن تقويض القيم القديمة . ومن ثم ، فإن حنا السالزبورى ، إن لم يكن مبتدعًا لأحد المذاهب التعليمية الأساسية فى الحضارة الغربية ، فهو واحد من أفصح المعبرين عن ذلك المذاهب القائل بأن وظيفة التعليم وظيفة أخلاقية وليست فكرية . فالغرض من المدارس ، وفقا لرأيه ، يجب أن يكون هو الحفاظ على القيم التقليدية وتعليمها ، ومجابهة الآثار المفسدة للسلطة الفكرية ، والمالية والسياسية ، فضلا عن تعليم الناس كيف يحيون حياة صالحة . وقد أحزن حنا كثيراً أن يرى الفنون الحرة تفقد أهميتها وتثوى فى مرتبة ثانوية فى الجامعات الجديدة حيث يوجد أساتذة الجدل المتغطرسون الذين يفتقرون إلى الإحساس بالمسئولية . وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لتعليم الناس أسس الحياة الصحيحة يوجد فى طيات الأدب العظيم الذى خلفه التراث الكلاسيكى ، الذى كان يتوارى فى غياهب النسيان أمام زحف الجوانب الفلسفية والعلمية فى ذلك التراث . فقد كان فرجيل ، وليفى ، وشيشرون وغيرهم من كبار الكتاب اللاتين الأدباء قد طرحوا أمام معاصريهم هذه الأسس التى تقوم عليها الرقة والدماثة الإنسانية وضبط النفس ، وهى الخصال التى كانت قد بدأت تتوارى رويداً رويداً فى ضباب التجاهل أثناء القرن الثانى عشر . لقد كانت تعاليم حنا السالزبورى هى أنقى صيغة ظهرت للنزعة الإنسانية المسيحية . كما أنه فاق معاصريه فى إدراك مدى التأثير المفسد للسلطة . وإذا كان التراث الكلاسيكى قد أثمر من حيث تحديد الرؤية الأخلاقية للطبقات الحاكمة فى أوربا منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين ، فإن ذلك يكشف باستمرار عن اتساع مدى النفع الكامن فى العلاج الذى اقترحه حنا السالزبورى للمشكلة التعليمية . ولكن معاصريه ، الذين غرهم التعليم والثروة والسلطة ، لم يكونوا على استعداد لسماع نصيحته . إذ أن الفنون الحرة كانت قد فقدت أهميتها فى الجامعات ، ولم تجد النزعة الإنسانية المسيحية التى نادى بها حنا السالزبورى من يأخذون بها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وإنما وجدت لنفسها أتباعا في بترارك ، ومور ، واراسموس . لقد كانت الرؤية الأخلاقية عند حنا السالزبورى مماثلة لمذاهب الإنسانيين فى عصر النهضة ، سواء من حيث اهتمامها بالحفاظ على القيم الإنسانية فى المجتمع من خلال التعليم الكلاسيكى ، أو من حيث فشلها فى إدراك مزايا وإمكانيات العلم والفكر التأملى .

لقد كان الشر الكامن فى المجتمع الذى عاصره حنا السالزبورى ، وأقض مضاجعه كثيراً ، هو ذلك الشر المتمثل فى التأثير المفسد للسلطة السياسية – أى إذلال الروح الإنسانية الناتج

عن السلطة التى تجعل رجلا واحداً ، أو مجموعة من الرجال ، يتحكمون فى جميع الناس . ولم يكن هو يغافل عن الحال داخل الكنيسة إذ أنه وجه إلى السادة الكنسيين الجشعين انتقادات مريرة ، وفى إحدى المناسبات أخبر أرديان الرابع صراحة ، أن ما اكتشفه فى روما يزعجه كثيراً ؛ وهو مايقوم دليلا على أن البيروقراطية المتغطرسة ترفض مايوجه إليها من انتقادات متزايدة . وعلى أية حال ، فإن انجلترا فى أواسط القرن الثانى عشر وواجه الجهاز الإدارى العلمانى لدولة آل أنجو . وتمثلت نتيجة هذه المواجهة فى مقالته التى نشرها سنة ١١٥٩ تحت اسم Policraticus وهى مقالة تتناول التنظيم الصحيح للحياة السياسية . والمقالات التى نالها من سوء التفسير مانال هذه المقالة قليلة جداً فى تاريخ النظرية السياسية. ذلك أن ما مس شغاف قلوب معظم دارسى البوليكراتيكوس هو أنها تؤيد النظرية السياسية القديمة للكنيسة . إذ أن حنا السالزبورى يصور المجتمع كله فى صورة الجسد الذى تحتل الكنيسة فيه موضع القلب ، على حين تشغل الدولة مكان الرأس من هذا الجسد . وهو بذلك يعيد ترسيخ النظرية الهيروقراطية التقليدية والتى تقضى بأن الدولة يجب أن تكون فى خدمة الكنيسة التى تسمو عليها باعتبارها الكائن الروحى . هذا التكرار للمذهب القديم يكاد يكون عديم الأهمية ؛ لأن حنا كان قد أمضى سنى حياته كلها فى خدمة الكنيسة ، وكان قد عاد لتوه من روما حيث قضى عدة سنوات ، ولم يكن يعرف أية نظرية أخرى . أما المهم حقا ، فهو تردده الهادئ ، وتقييمه لمزايا المذهب الهيروقراطى فى مواجهة التجربة السياسية التى شهدتها انجلترا فى عهد أسرة أنجو .

ولم يكن بوسع أى مراقب محايد ، وهو يعيش فى انجلترا منتصف القرن الثانى عشر ، مثل حنا السالزبورى أن ينكر حقيقة أن زعامة المجتمع الإنجليزى كانت للملكية ولم تكن للكنيسة . فقد كانت الحكومة الملكية تفرض إرادتها بصورة متصاعدة على الشعب من خلال نظمها القانونية والمالية ، كما كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخرى منافسة . فقد كان السيد الإقطاعى ، والأسقف ، والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتباط بالسلطة الملكية . وهذه الحقائق التى كانت تنضح بها الحياة الاجتماعية كانت تلقى ظلالا كثيفة من الشك حول القيمة التطبيقية الحقيقية للأوغسطينية السياسية القديمة ، بيد أن حساسية حنا السالزبورى جرته إلى منزلق الخلط بين الوجود الواقعى للسلطة والزعامة العلمانية من جهة والمثل والقيم السياسية القديمة للكنيسة من جهة أخرى . ومقالته المسماة بوليكراتيكوس عبارة عن حوار

داخلى لأن حنا كان يحاول أن يقنع نفسه بأن ظهور الدولة لم يمزق هيكل النظام القديم وكيانه . ولكن مناقشاته كانت تفتقر إلى قوة الاقناع . والدليل على ذلك هو الإبهام والغموض الذى يكتنف مقالته . وهو إذ يساير النظرية الهيروقراطية التقليدية يعترف بأن نهاية الدولة هى إدراك الحقيقة وثواب على الفضيلة وهو مايشير إلى أن الدولة تعضد نفسها بنفسها إذا ماسعت صوب غايات أخلاقية . وهو مايخالف الأوغسطينية السياسية بشكل دقيق وفائق الأهمية ؛ وكان لابد للتعديل الذى أجراه حنا السالزبورى للمذهب الهيروقراطى أن يستثير حنق جريجورى السابع وسخطه . وهو أول مثال يدل على التحول من النظرة المتشائمة إلى الدولة نحو نظرة أخرى متفائلة ، وهو الأمر الذى قيض له أن يكون النغمة الدالة فى الفكر السياسى طوال السنوات المائة والخمسين التالية . فقد كان حنا هو أول مُنَظِّر كنسى يواجه نتائج التغيرات السياسية فى العصور الوسطى العالية ، وكل صفحة تقريبا فى البوليكراتيكوس تعكس سخطه ويأسه . فلم يكن باستطاعته أن يتخلى عن النظرية الهيروقراطية القديمة ، ولا أن يتجاهل الزعامة الجديدة ، أى الدولة ، التى كانت تمارس دورها فى المجتمع وذلك لكونه مراقبا ذكيا بالغ الحساسية تجاه أخلاقيات عصره . وكان الحل الوحيد أمامه هو أن ينسب السجايا الأخلاقية إلى الدولة ، وبذلك يحافظ على الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى . بيد أن ذلك كان يعنى إعطاء الدولة صلاحيات أخلاقية وأن يزيد ، بالضرورة ، من سلطاتها . ولم يكن حنا يجهل ما يتضمنه مذهبه من دلالات ثورية . وحاول أن يحل المشكلة من خلال التمييز بين الملك والطاغية ، ولكى يجعل مناقشته مقنعة أخذ يفكر فى إمكانية قيام حكم استبدادى على أسس عادلة . وعلى أية حال ، فإنه أدرك تماما ماهية النتائج الخطيرة التى يمكن أن تعود على النظام الاجتماعى من جراء هذا المبدأ ، ولم يخلص إلى أية إجابة حاسمة على السؤال المشكلة . لقد كانت مقالة حنا السالزبورى نتاجا لعملية مؤلمة مضنية قام بها أحد الأخلاقيين التقليديين لمواءمة نفسه مع حقائق الحياة السياسية ؛ بيد أن ألمه وعذابه ليس هو الأهم ، وإنما المهم هو عملية المواءمة فى حد ذاتها . إذ كانت تلك العملية علامة البداية على طفرة فى الفكر السياسى الأوربى .

أما أوتو أسقف فريزيا Bishop Otto of Freising (ت ١١٥٨م) ، والذى كان معاصراً لحنا السالزبورى ، فقد سار خطوة أبعد منه فى تطوير الوعى السياسى الأوربى . ففى كتابات أوتو يبدو الانفصام بين القديم والجديد أكثر حدة ، كما تبدو الحركة من النزعة التشاؤمية إلى

النزعة التفاؤلية أكثر وضوحا ؛ فضلا عن أن الاعتراف الواعى بالحقيقة المعاصرة فى كتابات
هنا يتخلى عن مكانه لنغمة احتفاء هستيرية تهلل لما فى الزعامة العلمانية من سلطة أخلاقية
بشكل ينذر بسوء العاقبة .

وبينما كانت الخلفية الاجماعية لهنا السالزبورى متواضعة ، كان أوتو سليل واحدة من
أعرق العائلات الأرستقراطية فى أوربا ؛ فهو من بيت أمراء الهوهنشتاوفن Hohenstaufen
الألمانى . وتتجلى جاذبية الحركة التعليمية ونزعة التدين الجديدة بشكل واضح من خلال
الحقيقة القائلة أن أوتو تلقى العلم فى مدرسة باريس من سنة ١١٧ رلى سنة ١١٣٣ ، ثم صار
راهبًا من السترشيان فرنيسا لأحد الأديرة . وفى سنة ١١٣٧ تم انتخابه أسقفا لفريزيا ،
فسخر طاقته الهائلة ومهارته الأدبية العظيمة فى كتابين تاريخيين يتصفان بقدر بالغ من
العقلانية والنزعة الفلسفية . وفى سنة ١١٤٦ نشر أول هذين الكتابين ، وهو كتاب
«المدينتين» الذى هو عبارة عن مسح بالغ التشاؤم لتاريخ العالم كتبه انطلاقا من موقف
اللاهوت الأوغسطينى . لقد أخذ أوتو على عاتقه أن يكشف عن الصراع بين المدينة الأرضية
والمدينة السماوية على مسرح التاريخ العالمى ، وهو المسرح الذى كان أوغسطين يعتقد أنه
واضح أمام الرب وحده دون سواه . ومع هذا فإن أورسيوس Orosius فى كتابة الشهير
«الكتب السبعة ضد الوثنيين » كان قد بدأ بالفعل فى رؤية العناية الآلهية فى طيات
التاريخ، وكان مقدراً للاتجاهات العامة فى كتابة التاريخ فى العصور الوسطى أن تحدد مجري
كل من المدينة السماوية والمدينة الأرضية على مسرح التاريخ العالمى . وعلى الرغم من أن
أوتو لم يلتزم تماما بمذهب أوغسطين عن « ماوراء التاريخ Meta-History » ، وعلى الرغم
من محاولته للكشف عن التطور الحقيقى للمدينتين فى التاريخ العالمى ، فإن نظرته العالمية
العامة كانت محكومة بالنزعة التشاؤمية الأوغسطينية ، لاسيما فيما يتعلق بالسلطة
العلمانية . ففى كتاب « المدينتين » لايستطيع أسقف فريزيا أن يرى أى خير فى تاريخ
الممالك الأرضية . إذ أن الحوليات الجزئية التى تتناول تاريخ هذه الممالك تكاد ألا تكون شيئا
غير سجل للجرائم الكريهة . وفى رأى أوتو أن تاريخ المدينة الأرضية يرتبط بتطور الملكية ،
وكتاب « المدينتين» عبارة عن طرح تاريخى للنزعة التشاؤمية الأوغسطينية ، كما أنه تقديم
تاريخى لكراهية السلطة العلمانية ، وهى الكراهية التى كانت تطل بوجهها المخيف من بين
طيات المذاهب التى نادى بها جريجورى السابع . ولم يكن هناك سبب يدفع أوتو ، الذى وعر

تجربة العصر ، إلى أن يهون من وطأة حكمه القاسى على إمكانيات السلطة المدنية ؛ ولأنه كان يكتب فى ألمانيا بعد عشرين سنة من النزاع حول التقليد العلمانى ، فإنه لم يستطع أن يرى أية قيمة أخلاقية فى المنصب الإمبراطورى .

والمقارنة بين كتاب « المدينتين » والكتاب التاريخى الهام الآخر لأوتو ، وهو كتاب «أعمال فردريك بربروسا » (الذى انكب على العمل فيه حتى وفاته ، ثم أتمه سكرتيره رايفين Rahewin) تكشف عن تناقض صارخ . ومن الصعب أن نصدق أن هذين الكتابين من تأليف مؤرخ واحد . إذ أننا فجأة ننتقل من التحقير الأوغسطينى للدولة إلى ترحيب متفائل بها تماما ، وحفاوة عاطفية جداً بالإمكانات الأخلاقية والمسيحانية الكامنة فى السلطة الإمبراطورية. ولايمكن أن نغفل حقيقة أن فردريك الأول بربروسا ، الذى اعتلى العرش الإمبراطورى سنة ١١٥٢م كان ابن أخت أوتو وموضع ثقته . لكن كتاب « أعمال فردريك بربروسا » ليس مجرد دعاية لأسرة حاكمة ؛ فقد كان أوتو رجلا صارما ومستقلا كما كان على قدر من الإخلاص للصالح العام المسيحى بحيث لم يكن يسمح لنفسه بأن يمتهن علمه على هذا النحو . فقد كان يعتقد مخلصا أن سياسة فردريك لإعادة بناء السلطة الإمبراطورية فاتحة عصر جديد أفضل بالنسبة للمجتمع المسيحى . وأنه قد آن الأوان لكى تمضى مصالح المدينة قدما من خلال السلطة العلمانية ولم يكن بمقدور النزعة الأوغسطينية التشاؤمية أن تصمد في مواجهة اتجاه حضارة القرن الثانى عشر صوب الإبداع والتقدم . إذ كانت روح ذلك العصر روحا بناءة ، جسورة ، متطلعة تفاؤلية ، كذلك لم يكن بمقدور النزعة التشاؤمية الأوغسطينية أن تقاوم النجاح والإنجاز سواء فى مجال الحكم أو فى الفن المعمارى ، وهو النجاح والإنجاز الذى جعل النزعة النفعية تلقى قبول المجتمع ورضاه . ومن ثم ، يظهر فردريك بربروسا فى كتاب أوتو فى صورة البطل الذى يعيد بناء سلطة التاج الألمانى ، ويجعل من انتصار المدينة السماوية هدفا قريب المنال . فقد جعل أوتو ، وهو العالم الكنسى المخلص والراهب السسترشيانى ، للبابوية مكانا ثانويا فى تلك السماء التى كان فردريك بربروسا يشيدها على الأرض . إذ أن كتاب أوتو يعتبر البابا موظفًا أجنبيًا ؛ محترم حقا ولكنه بعيد .

وهكذا يتجلى واضحا فى كتاب أوتو ماكان يبدو ضمنيا واستنتاجيا فى كتاب بوليكراتيكوس لحنا السالزبورى ؛ فالدولة فى القرن الثانى عشر تستوعب فى داخلها السجايا والخصال الأخلاقية والعاطفية ، بل والصفات المقدسة التى تعتبر الدعامة التى تقوم عليها

السلطة التشريعية والإدارية المطلقة . وكانت هذه الاعترافات الإضافية هى كل ماتحتاج إليه الملكيات الجديدة فى غرب أوربا حتى تجعل من نفسها كيانات قائمة بذواتها ، ولها السلطة المطلقة . لقد كان التاريخ الذى كتبه أوتو الفريزى بداية للآثار العكسية الناجمة عن النزاع حول التقليد العلمانى . وبينما يعترف حنا السالزبورى بالميزة الأخلاقية للدولة بطريقة ضمنية يقوم أوتو الفريزى بإبرازها وتكريسها . وقد شهدت السنوات المائة والخمسون التالية مواقف كثيرة لرجال الكنيسة فى شمال أوربا كانت فى جوهرها تكراراً لموقف أوتو تجاه البابوية والملكية . ويعتبر أوتو النبى الذى بشر بالدولة الحاكمة ، الصالحة ، المتدثرة بالأخلاقيات التى عرفها القرن الثالث عشر .

وعلى الرغم من المكانة الفائقة الأهمية التى يحتلها كل من سوجيه وحنا السالزبورى ، فإنهما ليسا الشخصيتين المحوريتين فى حركة النمو الثقافى التى عاشتها أوربا القرن الثانى عشر . فقد احتل هذا المركز كل من بطرس أبيلار Peter Abelard وخصمه سان برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux . وسوف نبالغ إذا أكدنا أن تاريخ الفكر والمشاعر الأوربية فى الفترة التالية لعصرهما لم يكن سوى سلسلة من الملاحق والأعمال التكميلية لما قام به كل من أبيلا وبرنار ؛ إلا أن هذه المبالغة لاتخلو من قدر من الحقيقة .

لقد مرت شهرة أبيلار (١٠٧٩ - ١١٤٢) بكثير من التقلبات بين المؤرخين . ففى القرن التاسع عشر كان يعتبر سابقة وتمهيداً للحركة البروتستانتية . وفى النصف الأول من القرن العشرين سرت موجة من التجاهل والتقليل من شأن أعماله . وفى الدراسات الجديدة للفكر الوسيط بدأت أهميته تتضح ، ولكن الحاجة مازالت قائمة إلى دراسة أعماله دراسة عميقة متأنية .

كان أبيلار ابنا لسيد إقطاعى صغير فى بريتانى Brittany وهو إقليم موحش على الحدود ، كانت العادة أن يخرج منه المحاربون المتوحشون ولم يكن معتاداً على إنجاب العلماء أو الفلاسفة . ويمكن قياس مدى التأثير الاجتماعى الهائل لحركة التعليم الجديدة من خلال جاذبيتها التى شدت مثل هذا الرجل الغامض إليها . فقد شق طريقه صوب مدرستى الفلسفة واللاهوت الجديدتين فى شارتر وباريس . ومنذ البداية اعترف الجميع بأنه طالب ذكى ونادر المثال ، ومالبث أن امتلك ناصية المناهج الجدلية الجديدة . بيد أنه كان أيضا شخصا صعب المراس ، متغطرسا ، لايتصرف إلا بوحى من داخله ، كما أنه كان مغاليا فى تصيد الأخطاء

وانتقادها ، وكان يفتقر إلى الذوق واللياقة . كذلك كان من عادته بعد أن ينهى دراسة موضوع ما ، أن يجعل من نفسه محاضراً فى الموضوع لكى ينافس بذلك أستاذه السابق . ولم يكن من ذلك النوع من الباحثين الذى يكون صحبة أكاديمية طيبة ، وهو نوع من العلماء كان يخلق المتاعب فى القرن الثاني عشر مثلما يحدث الآن فى القرن العشرين . ومع هذا فقد وقع فى المتاعب نتيجة لفضيحة شخصية على حد روايته . فقد أغوى فتاة تدعى ايلواز Héloise[٣]، كانت ابنة أخت قسيس مرموق فى كاتدرائية باريس ، وهو يخبرنا أن عائلة الفتاة عاقبته « بأن قطعت من جسدى تلك الأجزاء التى فعلت بها ما سبب لهم الأسى والأسف » . وكانت بقية حياته سلسلة من المآسى والمصائب . فقد تولي منصب رئيس أحد الأديرة فى بريتسون Breton ، ولكنه هجر المنصب حين اكتشف أن الرهبان كانوا جميعا من البلطجية . ثم دخل دير سان دونى حيث أحس بالتعاسة وعدم الاستقرار . واتهمه سان برنار بنشر المذاهب الهرطقية ، ومن ثم كان عليه أن يمثل أمام مجمع كنسى حيث أجبر على أن يعترف علنا بأن معتقداته خاطئة . وقضى أبيلار السنة الأخيرة من حياته معتزلا فى دير كلونىَ ، حيث لقى معاملة حسنة . ذلك أن الرهبان الكلونيين ، مثل جميع الأرستقراطيين الحقيقيين ، لم يكونوا يحملون فى قلوبهم ضغينة أو حقداً .

ولاشك فى أن أبيلار كان عبقريا من الطراز الأول . فقد تأثر كل من لقيه بقوة شخصيته وسلطانه العقلى . وربما تعكس حياته العاصفة القلق النفسى الناتج عن فشله فى الاهتداء إلى المناخ الملائم لممارسة موهبته الفذة ممارسة كاملة . ويبدو أن متاعب أبيلار الشخصية ترجع إلى حقيقة أنه سبق عصره بقرن كامل من الزمان . فقد كان رائدا فى مجال استخدام المنطق الأرسطى ، كما كان رائداً فى البحث الصارم عن الحقيقة العقلية . وكان هناك آخرون يفعلون

---

٣ - كانت قصة أبيلار وايلواز العابسة التى حدثت فى القرن الثانى عشر تعتبر واحدة من قصص الحب العظيمة . فقد كشفت خطابات هذين العاشقين المسيحيين عن أنهما وجدا فى الشفقة والرحمة الذاتية سبيلا لقبول علاقة مغايرة ولكنها مستمرة . وبينما قامت شهرة ايلواز على تعليمها وعبقريتها الإدراية كرئيسة دير، كان أبيلار أشهر أساتذة المنطق فى عصره ، وقد تناقلت الأجيال الأوربية قصة الحب المتسمة التى عاشها الاثنان من خلال الخطابات المتبادلة بينهما .

انظر ترجمة ما كتبه أبيلار عن مصائبه Historia Calamitatum وخطاباته الشخصية ، وخطاب توجيه كتبه لايلواز يوضح لها كيف تطبق الدستور البندكتى على الراهبات . وعدد آخر من كتاباتها فى : The Letters of Abelard and Helois (Transl . with an introduction by Betty Radice) , Penguin Books , London 1979 .

الشئ نفسه ، ولكن تأثيرهم وفعاليتهم كانت أقل كثيراً ، كما أن بزوغ نجم أبيلار جعل منه كبش الفداء لأولئك الذين كانوا يشكون فى نتائج ودلالات المنطق الجديد . ولو أنه عاصر توماس أكويناس Thomas Aquinas لأثار قدراً أكبر من الإهتمام ، ولكنه كان حتما سيبدو أقل تميزاً وخصوصية . ولو عاش فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لعاش حياة أكاديمية عادية وتولى منصب الأستاذية فى إحدى الجامعات الكبرى ، ولتجنب تلك التعاسة والبؤس الذى خيم على حياته .

وأهم جانبين فى فكر أبيلار هما إكتشافه المتجدد للشخصية الفردية وآراؤه فى مشكلة الكليات Universals . وفى كلتى الحالين كان يقوض بنيان الفلسفة الأفلاطونية التى سادت الفكر الأوربى فى العصور الوسطى الباكرة . فمنذ القرن الثالث فصاعداً كان الاعتراف بالشخصية الفردية ضئيلا ، وربما لم يكن هناك اعتراف بها على الإطلاق . فقد اختفى الشخص الحقيقى بخصائصه المتفردة خلف غياهب الاهتمام الأفلاطونى بالنماذج والأنماط المثالية . كما أن ثقافة العصور الوسطى الباكرة لم تكن تحفل كثيراً بالشخصية ؛ إذ أن الأدب لم يكن يرسم سوى صورة النمط التمثيلى من منظور الخلود والدين . واختفت السيرة الذاتية تماما . لأن المتعلمين لم يكونوا يجدون لحياتهم أهمية أو مغزى سوى بقدر توافقها مع نموذج مثالى ما . وكان وصف المميزات الشخصية يعتبر مباهاة وغطرسة خاطئة . فقد كانت اعترافات أوغسطين هى آخر سيرة ذاتية كتبت قبل القرن الثانى عشر ، بل إنها ليست سيرة ذاتية بالضبط ، لأن أوغسطين إهتم بأن يكشف عن نفسه باعتباره نموذجا لكل إنسان . وفى العصور الوسطى الباكرة كانت السير التى تستحق هذا الاسم قليلة للغاية ، وكان هناك فيض من أدب الهاجيوجرافى (أى سير القديسين ومعاناتهم) ينسج على منوال نماذج تقليدية ويصوغ موضوعاته قسراً فى قوالب جاهزة ليحولهم إلى قديسين من الجص . وعادة ماكان الملوك يصورون بأقلام العاملين فى خدمتهم فى صورة تتوافق مع النموذج المثالى للملك المسيحى الذى أرساه أيوزيبيوس أسقف قيصرية فى كتابه « حياة قنسطنطين » . وحين كانت تبرز الشخصية الحقيقية فى هذه السير الملكية ، فإنها تكون نتيجة لفشل مافى السياق الفنى؛ أى نتيجة عجز الكاتب عن الاستمرار فى الصياغة النمطية .

لقد أدت روح الإبداع التى شاعت فى القرن الثانى عشر إلى تقدير الإنجازات الفردية التى تجعل للسيرة أهمية ومغزى . وهكذا ، قام سكرتير سان آنسلم St. Anselm ، عالم اللاهوت

وكبير أساقفة كانتربورى ، بكتابة سيرتين لسيده . كانت إحداهما قطعة من سير القديسين التقليدية ، على حين كانت الأخرى صورة حافلة بالعديد من التفاصيل عن الفترة التى قضاها آنسلم فى منصب كبير الأساقفة . وفى السيرة الأولى يبدو آنسلم قديسا تقليديا ، ولكنه فى الترجمة الثانية يبدو شخصا حقيقيا يفقد أعصابه من حين لآخر ، كما يعتريه الجبن ، ويعانى اللوعة والكرب ، ويسقط فريسة للمرض ... وما إلى ذلك . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر كتب راهب فرنسى سيرته الذاتية ، وفى الفترة ذاتها قام المؤرخ الأنجلو - نورمانى ، وليام المالمسبورى Willam of Malmesbury بنشر مجموعتين من السير والتراجم ، إحداهما عن الملوك الإنجليز ، والثانية عن الأساقفة ومقدمى الأديرة في زمانه . والكتاب الأخير يهتم فى روايته بدقائق الأمور ويحوى كثيراً من التفاصيل بدرجة اضطرت وليام إلى كتابة نسخة منقحة منه . وفى نصف القرن التالى حدث تغير جذرى فى الموقف من الشخصية ، واكتشف الأوربيون فن كتابة التراجم . وبحلول العقد الثامن من القرن الثانى عشر كان هذا التطور قد وصل إلى درجة أن يقوم راهب بكتابة أسفار أربعة ملأها بروايات عن تجاربه وذكرياته ، بحيث أعطانا تقريرا حيا ، يفيض بالمرح أحيانا ، عن بلاط هنرى الثانى ، وعن السياسة الكنسية المعقدة الملتوية ، فضلا عن عادات الأيرلنديين البليدة .

والترجمة الذاتية التى كتبها أبيلار بعنوان « تاريخ المصائب التى حلت بى » ، كانت هى نقطة التحول الحرجة فى اكتشاف القرن الثانى عشر للشخصية الفردية من جديد . فهذه الترجمة تقف على النقيض تماما من النمطية التى ميزت العصور الوسطى الباكرة . ذلك أن أبيلار يتلذذ بعرض خصاله وسجاياه ، ويبتهج وهو يكشف للعالم عن حقائق حياته ، حتى ما لم يكن يحظى برضاه المجتمع وقبوله من هذه الحقائق . والواقع أنه ، مثل كثيرين من كتاب التراجم اللاحقين ، ربما يكون قد جعل تجربته تبدو أكثر دراميه وتألقا مما كانت عليه فى الواقع. وروايته عن قصة غوايته لايلواز لاتبدو رواية حقيقية فى جميع الأحيان . ومن المؤكد أنه كان يهدف إلى دغدغة حواس قرائه وصدمتهم ، على الرغم من أنه من غير المحتمل أن يكون قد نسج القصة كلها من الخيال . والنقطة الهامة هى أن أبيلار أراد أن يكشف عن نفسه للعالم كشخصية متفردة لايمكن أن تختلط سيرته بسيرة غيره . فلم يكن راغبا فى صورة كلية جامعة وإنما كان همه أن يرسم صورة فردية خاصة . وهكذا يعتبر كتابه « تاريخ مصائبى » هجوما على الأفلاطونية التى جعلت الكلى يبتلع الفردى .

لقد كان تحطيم أبيلار للقديم ، وكانت نزعته الفردية انعكاسا لحقيقة أنه كان شخصية حضرية ، أي من أهل المدن . فقد كان ظهور جامعات العصور الوسطى في مناطق المدن من أهم جوانب تاريخ هذه الجامعات . ذلك أن المدارس الديرية كانت توجد في المجتمع الريفي في عزلة لاتتيح فرصة كبيرة لتبادل الآراء . وفي المجتمع الريفي ، بخطوطه الطبقية الصارمة ، ونموذج الحياة التقليدى ، كانت الفرصة ضئيلة ، وربما لم تكن هناك فرصة على الإطلاق ، أمام أسلوب الحياة الفردي الأصيل . إذ يولد الناس في طبقة معينة ، ويسيرون على هدى الأخلاقيات التي تتلاءم مع مكانتهم الاجتماعية . ولكن « هواء المدن يجعل الإنسان حراً » ، ليس بالمعنى القانوني فحسب ، وإنما أيضا بمعنى توفير البيئة الملائمة لخلق شخصية ونموذج فكري أصيل . وكان هذا يصدق على الأكاديميين أكثر من رجال الأعمال . فقد كان الأساتذة والطلاب في الجامعات الناشئة يعيشون في مجتمع يحكمه التنافس ؛ إذ كان المدرس الذي لايجتذب الطلبة ، أو يمثل أهمية ما ، يفقد طلابه ، وإذا كان هناك أستاذ ناجح ، فإن نجاحه يكون نتيجة للانطباع الذي تركه في نفوس سامعيه بما له من مزايا عقلية وغيرها . وحتى في جامعات القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والتي كانت أكثر تنظيما ، كان المدرس الممتاز علما يجتذب الطلاب من شتى بقاع القارة الأوربية إلى قاعة محاضراته المزدحمة . وفي زمن أبيلار كان الأكاديميون يعتمدون تماما على بديهتهم ؛ فإذا لم يكن بوسع الأستاذ أن يجتذب الطلاب لايعود له شئ آخر يعول عليه ، ولابد لحياته أن تنتهي بالفشل الذريع والفقر المدقع . وحينما كان كبار العلماء من أمثال أبيلار يجد طلابا من شتى أركان القارة الأوربية يفكرون في كل كلمة يقولها ، فإنه لم يكن يملك سوى أن يتحول إلى عاشق لذاته ، والحقيقة أن حب الذات وتضخيم هذا الإحساس من أبرز الخصائص النفسية العامة التي تميز أي مدرس ناجح متفوق . وفي ضوء الظروف الخاصة التي حكمت العالم الأكاديمي الذي عاش في كنفه أبيلار كان على المدرس أن يقنع نفسه بأنه شخصية فردية بطولية (كارزمية) . ذلك أن الهيبة والوقار اللذين كان الطلاب ينظرون بها إليه كانا يتحولان إلى فكرة ذاتية داخلية عن نفسه ، حتى يشعر أن كل جانب من حياته ، وحتى مصائبه ، جديرة بأن يكشف عنها للعالم . إن الفردية والذاتية المتطرفة التي قيض لها في القرون الأخيرة أن تكون من الخصائص المميزة للأخلاق الفنية التي كانت في زمن أبيلار من خصائص الأكاديميين . وبينما كان المعماريون والفنيون الكبار في القرن الثاني عشر ، وهم رجال يستحقون عن جدارة أن نضعهم في مرتبة

ميخائيل أنجلو ودافنشى - بينما كان هؤلاء مايزالون من غير المشاهير ولانعرف عنهم شيئا ، كان أساتذة باريس يعتقدون أنهم من الشخصيات العظيمة .

كانت مساهمة أبيلار فى النقاش الدائر حول الكليات على قدر من الأهمية فى تشكيل الإتجاهات الفكرية فى عصره يوازى ماقام به حين كشف عن نفسه كشخصية فردية متمايزة . والحقيقة أن هذين الجانبين من جوانب فكر أبيلار يتصل كل منهما بالآخر ، لأنه فى كليهما تحدى المذهب الأفلاطونى القائل بأن العام والكلى هو كل شئ ، على حين لايمثل الخاص والفردي شيئا ، وهو المذهب الذى تحكم فى الفكر الغربى منذ القرن الثالث الميلادى . لقد بدأ النقاش حول المفاهيم الكلية ، أو الأفكار المجردة ، فى أخريات القرن الحادى عشر واستمر هادئا حينا ، وهادرا حينا آخر ، حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . واستمر النقاش داخل أروقة المؤسسات الأكاديمية فى لغة فلسفية راقية كانت تتطلب معرفة بالمنطق والميتافيزيقا حتى يتيسر الفهم الكامل . وعلى أية حال ، فإن هذا لايعنى أن النقاش لم يكن يتناول المشكلات العامة فى حضارة العصور الوسطى ؛ وإنما على العكس ، كان إستقرار الفكر المسيحى يعتمد على حصاد هذا النزاع الفلسفى . ولم يكن العلماء الإنسانيون فى حركة النهضة الإيطالية يستسيغون المنطق والجوانب الفنية فى الميتافيزيقا ، ولأنهم لم يستطيعوا فهم النقاش الدائر حول الكليات ، فقد سخروا منه وتجاهلوه باعتباره لغواً فارغا . وزعموا أن فلاسفة العصور الوسطى كانوا من الحماقة بحيث كانوا يتناقشون حول عدد الملائكة الذين يمكنهم الرقص فوق رأس دبوس . والحقيقة أنه كانت هناك مناقشات تدور حول موضوعات من هذا القبيل فى جامعات العصور الوسطى ، وكان الجاهل فقط هو الذى يرى أنها عديمة الأهمية وفارغة من المعنى . فقد كان الفرض القائل بأن الملائكة يرقصون فوق رأس دبوس وسيلة للتعبير عن مشكلة اللانهائية ، وهى مشكلة كانت من أهم مشكلات الفكر الجدلى والرياضى آنذاك . كما أن الإنسانيين الإيطاليين لم يستطيعوا فهم فلسفة العصور الوسطى أو تقديرها أكثر من فهم الرجل العادى فى القرن العشرين وتقديره لما أنجزه أينشتين فى مجال الطبيعة . وعلى مدى أربعمائة سنة كان أفضل مفكرى أوربا يتناقشون حول طبيعة الكليات ، على حين كان المجتمع المتعلم يحبس أنفاسه وهو ينتظر حلا لهذا النقاش . وكان حصاد هذا النزاع الفلسفى ذا أثر كبير على مفاهيم العصور الوسطى عن علاقة الإنسان بالله ، وعن طبيعة

الكنيسة ، والطقوس والأسرار الكنسية ، ورجال الكنيسة ، فضلا عن العلاقة بين العلم والعقيدة الدينية .

كان النزاع حول طبيعة الكليات فى العصور الوسطى هو الشكل الذى اتخذته أكثر مشكلات الفلسفة الغربية إلحاحًا ، وهى المشكلة التى ماتزال تسترعى انتباه بعض ألمع المفكرين وأكثرهم استنارة فى عالم اليوم . هذه المشكلة هى ، هل المفاهيم العامة الكامنة فى أذهاننا : مثل العدالة ، والحقيقة ، والجمال والله ، والكنيسة ، والدولة .... وغيرها ، لها وجود حقيقى خارج أذهاننا ؟ وهل المفاهيم الأكثر بساطة : مثل شجرة ، وحصان ، وكرسى ... وغيرها ، لها وجود حقيقى خارج عقولنا ؟ هل هى تصورات عقلية خالصة ، ومصطلحات ذهنية ، أم أن هذه التصورات والمصطلحات تعبر عن حقيقة مادية واقعة خارج نطاق العقول الفردية ؟ وحين يتكلم الناس عن فكرة العدالة أو فكرة الكرسى ، هل هم يستخدمون مصطلحات غامضة فحسب ، أم أنهم يصفون عالما قائما بذاته له وجوده البعيد عن الكلام والفكر الإنسانى ؟ فى العصور الوسطى الباكرة لم يكن هناك نقاش حول هذه المسائل ، لأن جميع مفكرى العصور الوسطى قبل القرن الحادى عشر كانوا مرتبطين بالفلسفة الأفلاطونية . إذ أن نظام أفلاطون الفلسفى قد قام على أساس الاعتقاد فى حقيقة الأفكار الكلية . فقد زعم أن فكرتنا الخالصة عن العدالة أو الكرسى لم تكن سوى إنعكاس غامض لشكل قائم بذاته ، ميتافيزيقى خالد . والحقيقة أن أفلاطون أنكر معرفتنا بالعدالة أو الكرسى لمجرد أن هذه الحقائق الميتافيزيقية الخالدة تقع خارج نطاق عقولنا . وهذه إحدى صيغتين أساسيتين يمكن أن تكون الإجابة عليهما هى الإجابة عن مشكلة الكليات . وفى الفلسفة الحديثة يطلق على أتباع أفلاطون اسم المثاليين لأنهم يعتقدون أن الأفكار حقيقية : أما فى مدارس العصور الوسطى فكان يطلق عليهم اسم الواقعيين . إذ أنهم كانوا يعتقدون أن الأفكار أشياء res ، ومن ثم فإنهم كانوا يعتقدون أن الكليات لها وجودها المستقل خارج نطاق العقل الإنسانى المفرد .

ومع بداية القرن الثانى عشر كانت الشكوك قد بدأت تحوم حول صلاحية الواقعية الأفلاطونية للمرة الأولى . ولو كان الناس فى العصور الوسطى الباكرة قادرين على قراءة كتابات أرسطو الميتافيزيقية لاكتشفوا أن مذاهب أفلاطون كانت تجابه تحديا خطيراً من جانب أرسطو . إلا أن كتابات أرسطو فى الميتافيزيقا لم تكن قد ترجمت إلى اللاتينية حتى النصف

الثانى عشر ؛ وحتى ذلك الحين لم يكن قد ترجم من مؤلفات أرسطو سوى ذلك الجزء الذى ترجمه بوئيثيوس من المنطق الأرسطى وعرفته أوربا المسيحية اللاتينية . هذه الأداة النشطة التى استخدمها المفكرون النشطون الناقدون فى أخريات القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، كانت كافية لتقديم المنهج الذى سهل سبيل التحقق من صلاحية مذهب أفلاطون على نحو دقيق . فقد كان المناطقة الجدد غير قانعين بقبول المذهب الأفلاطونى باعتباره الفلسفة المسيحية ذات الإلهام الدينى ، وإنما كانوا يريدون اختياره بطريقة منطقية صارمة . ومنذ البداية أدت هذه المحاولة إلى زيادة درجة الاهتمام والقلق فى أكثر العقول رجعية ومحافظة . ولم يحدث هذا لمجرد أن التراث السائد كان محكوما بالتأثير الأفلاطونى القوى ، وإنما لأن هذه المسألة تتعلق بحقيقة الكليات فى سياق المعرفة المسيحية . فقد كان أمراً مريحاً أن يعتقد المرء أن العقل البشرى يمكن أن يتوصل إلى نفس المفاهيم الكلية عن الله ، والخلود ، والعدالة ، والكنيسة ؛ وهى المفاهيم التى تم الكشف عنها فى بداية الأمر فى الكتاب المقدس والعقيدة الدينية . وعلى أية حال ، فإذا كان باستطاعة الفلاسفة أن يستنتجوا أنه يستحيل على العقل البشرى أن يصل إلى حقيقة هذه المفاهيم . فإن الدين سيكون هو المنبع الوحيد للمعرفة المسيحية ، كما أن الامتزاج الذى تيسره الأفلاطونية بين الدين والفكر العقلانى سوف تنفصم عراه . ومنذ ستينيات القرن الحادى عشر ، كان بطرس داميانى قد استوعب تماما المضامين الخطيرة الكامنة فى المنطق الجديد . فقد استشعر أن التساؤل الطائش عن حقيقة الكليات يمكن أن ينتهى إلى إنفصام وشقاق بين عالم العقل وعالم الدين ، وبين حركة التعليم الجديد والدين ، وهو الأمر الذى كان سيؤدى إلى الحط من شأن الدين والاستخفاف به .

لقد حذر داميانى من المجرى الذى كان الفكر الفلسفى يسير فيه ، ولكن هذا التحذير فشل فى الحيلولة دون التساؤل عن صلاحية المذهب الأفلاطونى عن الكليات . إذ كان الشك الذى أبداه الكاردينال الكبير تجاه المنطق يبدو شكًا على غير أساس لأن النتائج المباشرة لاستخدام المنطق الجديد أكدت صلاحية الأفلاطونية بشكل قوى . وفى العقد الأول من القرن الثانى عشر قال القديس آنسلم ، كبير أساقفة كانتربورى ، أنه يمكن « للدين أن يبحث عن الفهم » من خلال الفلسفة العقلانية والعلم . كما أوضح كيف يمكن استخدام المذهب الواقعى للبرهنة على وجود الله . كما كان يجادل فى مناقشاته (التى عارضها توماس أكويناس فى القرن الثالث عشر ، ثم أحياها فيما بعد كل من ديسكرائيس Descrates وليبنتز Leibnitz بأنه مادامت

فكار أشيـاء res ، ومادمنا نحمل في عقولنا فكرة عن « ذلك الذي لايمكن أن نفكر فيما
. أعظم منه » ، أي الله . فإن الله موجود بالضرورة . وكان لمكانة آنسلم الكبيرة ، كعالم
ـديس ، الفضل في تدعيم مناقشاته ، كما أوضحت أن البحث الفلسفي الجديد لم يكن
ـكل أي تهديد على الواقعية الأفلاطونية .

وعلى كل حال ، فإنه لم يلبث أن ظهر مذهب فلسفي مضاد . ففي العقد الثاني من القرن
ـاني عشر كان أحد كبار المدرسين البارزين في المدارس الفرنسية ، وهو روسيلين Rosselin ،
. اتخذ موقفًا معارضًا لوجهة النظر الواقعية ونفى فروض آنسلم . إذ أعلن أن الكليات
ست أشياء res ، ولكنها مجرد كلمات voces ، أو أسماء nomina ، أي أن الكليات
ـطلحات استخدمت للتوضيح في السياق البشري ، ولكنها لاتتمتع بأي وجود مستقل خارج
ـاق العقول الإنسانية الفردية . هذا الموقف الأساس عرف بالاسمية nominalism ، وهـو
ـهب الذي يعارض الواقعيـة realism بشكل مباشر . وكانت النتيجة المباشرة لتعاليم
سيلين تتلخص في أنه بينما يحتمل أن تكون الكليات موجودة فعلاً ، فإن وجودها لايرتبط
ـكيرنا فيها . وبعبارة أخرى ، فإن العقل لايمكن أن يصل إلى حقيقتها ، ولكننا نعرفها من
ـلال الدين . فليس ثمة سبب ظاهري يدعو إلى الريبة في مذهب الاسمية nominalism ؛
ـد كان موقف أتباع هذا المذهب تجاه قوى العقل الكامنة موقفًا يزيد من أهمية الدين . فمن
ـلال الدين فقط كان يمكن التوصل إلى معرفة المفاهيم الكلية في الدين المسيحي . وبنفي
ـطان العقل ، انتهى روسيلين وأتباع مذهب الاسمية إلى جهالة مطلقة . فقد كان من الصعب
ـى أي إنسان أن ينكر صحة إيمان روسيلين ، ولكنت مبالغته في أهمية الدين كمنبع وحيد
ـعرفة المسيحية جعله هو والاسميين يتخذون موقفًا فكريًا أدى إلى اضمحلال أسس المعرفة
ـسيحية ، على حين كانت الخلفية التي قام عليها التراث الأفلاطوني في العصور الوسطى
ـاكرة دعمًا عقليًا للعقيدة الدينية .

وفي ثلاثينيات القرن الحادي عشر نشب نقاش واسع النطاق في المدارس الفرنسية بين
ـقف الواقعي والموقف الاسمي ، أي بين أتباع آنسلم ومؤيدي روسيلين ، ووقف المتعلمون من
ـال الكنيسة في شتى أرجاء أوربا يرقبون الحوار الدائر في خوف مما قد يسفر عنه من نتائج.
ـان لابد لأبيلار أن يتخذ موقفا مؤثراً ومثيراً للغاية . ذلك أنه بوصفه أبرز أساتذة زمانه ،
ـع عقلية وأقوى شخصية في الجامعات ، كان لابد أن تكون لآرائه تأثيرات بعيدة المدى .

والحقيقة أن أبيلار كان قد تتلمذ على روسيلين ، ولكنه كان يستمع أيضًا إلى محاضرات الواقعيين . وكان يدرك تمامًا أهمية النقاش وأهمية مشاركته فيه ، وحين طرح آراءه فى ساحة النقاش تجنب تطرفه المعهود . وقد استنتج أبيلار أن الكليات « صورة عامة مضطربة » . وهو مايعنى أنها كانت صوراً عامة تطورت فى العقل من خلال الاستنباط من انطباعات عامة . ومن ثم كان رأيه أن الكليات لم تكن أشياء أو مصطلحات وإنما مفاهيم مفيدة ولكنها ليست حقيقية بالضرورة . وكان ذلك موقفًا معتدلاً ، ولكنه كان يميل ناحية التيار الإسمى ، ومن المؤكد أنه ألقى ظلالا من الشك حول حقيقة الدعم العقلى لتعاليم الدين ، على الرغم من أنه لم ينكر إمكانية حدوث هذا إنكاراً مطلقًا . ولو لم يكن أبيلار يتفوق على الفلاسفة المعاصرين، ولو لم يكن شخصًا عدوانيًا غير عادى يشايعه أتباع كثيرون من الطلاب ، لما استرعت آراؤه الإسمية المعتدلة انتباه الناس . فقد ظهر وكأنه يقود هجومًا على الأسس الأفلاطونية للفكر المسيحى ، ولاشك فى أن مضامين فلسفته كانت إلى حد كبير ، تهدف إلى هذا . بل إنه عندما عبر أبيلار عن استنتاجاته بطريقة معتدلة ، كان من الواضح أن اتجاه فلسفته عمومًا يسير فى اتجاه مضاد للتراث الأدبى المستمد من الكتاب المقدس وكتابات الآباء . لم يحصل أبيلار على مساعدة تلاميذه ذوى الميول الراديكالية المتأججة ، التواقين إلى انتقاد أية تقاليد راسخة ، ولكنه أثار مخاوف واسعة النطاق من أن يكون زعيمًا للشباب فى عملية تهدف إلى الإطاحة بالنظام المسيحى . فقد قام واحد من تلاميذ أبيلار ، هو أرنولد البريسكى Arnold of Brescia ، بإثارة تمرد اجتماعى فى روما وأعدمه فردريك بربروسا فى تاريخ لاحق . وأمثال أولئك التلاميذ السيئى السمعة لم يكن باستطاعتهم شئ سوى تكريس سمعة أبيلار كعنصر هدام يمثل خطراً جسيمًا على المثل المسيحية ، ومفسد شرير يغوى أجيال الشباب .

كان أبيلار رجلاً تحت المراقبة ، ولم يلبث أن سقط . ويبدو أنه كان به ميل إلى المعاكسة أتاح الفرصة الكاملة أمام أعدائه لتدميره . فقد عكف على تأليف كتاب حول طبيعة الثالوث، وهو موضوع كان المفكرون الغربيون يتحاشونه دائمًا بسبب الهرطقات التى خاض فيها اللاهوتيون الشرقيون حين حاولوا أن يحددوا ، فلسفيًا ، العلاقة بين الإله الأب ، والإله الابن، والروح القدس . حين ظهر كتاب أبيلار تأكدت أسوأ المخاوف التى كانت تجيش بصدور رجال الكنيسة المحافظين . وكان قد أقض مضاجعهم حين نشر كتابه « نعم ولا » Sic et Non

الذى صاغه صياغة جدلية ، مع وضد ، آراء مختلف آباء الكنيسة فى المشكلات اللاهوتية .
وقد سبق أن استخدم جراتيان هذا المنهج نفسه فى كتاب الدكريتوم Decretum ، كما حدث
فى كتاب اللاهوت القياسى الذى وضعه بطرس اللمباردى فى منتصف القرن الثانى عشر باسم
Sentences أى « الأحكام » ، كما أن كتاب « مجمل اللاهوت Summa Theologica » ،
الذى ألفه توماس أكويناس استخدم نفس الأسلوب الجدلى فى المناقشة - مع فارق جوهرى هو
أنهم حلوا التناقضات الكامنة فى الفروض التي عالجوها على حين تركها أبيلار دون حل .
وبدا وكأنه يسخر من آباء الكنيسة ثم يشكك فى صلاحية أعظم الأسرار المسيحية . وكان لابد
من أن يدان بالهرطقة ويفقد مكانه الأكاديمى . وقد حالت المصائب الشخصية التى توالت على
أبيلار بينه وبين مواصلة البحث فى طبيعة الكليات . وعلى أية حال ، فإن الفكر الأوربى
توسع فى قبول مؤلفات أرسطو إبان السنوات الخمسين التى أعقبت وفاة أبيلار ، مما غير
النقاش الذى دار بين الواقعيين والاسميين فى النصف الأول من القرن الثانى عشر بشكل ما .
وكان من المحتم أن يعجز مذهب أبيلار عن مسايرة العصر بسبب تأثير الفلسفة اليونانية
والفلسفة العربية الإسلامية على الفكر الغربى . هذه الحقيقة لاتقلل من أهمية مذهب أبيلار
فى الثقافة الراقية فى العصور الوسطى . فقد كان هو أهم من يتحدث باسم حركة البعد عن
الواقعية الأفلاطونية Platonic realism التى كانت بمثابة اللحمة والسداة فى عالم الفكر فى
العصور الوسطى الباكرة . وقد انقضى القرنان التاليان فى تاريخ الفكر المسيحى فى صراع مع
ماجاءت به هذه الطفرة الفكرية من مضامين .

كان ممثل الإدعاء فى محاكمة بطرس أبيلار بتهمة الهرطقة هو سان برنار St. Bernard
مقدم دير كليرفو Clairvaux الذى جعل من نفسه ضمير الكنيسة فى القرن الثانى عشر .
ومنذ البداية اتخذ برنار موقفًا عدائيًا تجاه جامعة باريس . وكان يشك فى أولئك الذين
يتعلمون « لمجرد المعرفة » ؛ إذ أنه قال : « أن مثل هذا الفضول أمر يستحق اللوم » . كما
أنه اتهم أبيلار وأمثاله بأنهم يرغبون فى « أن يتعلموا ، لا لسبب سوى أن ينظر الناس إليهم
كمتعلمين ، وهو غرور باطل وسخيف » . وباعتباره خليفة بطرس داميانى فى الميدان الثقافى
فى العصور الوسطى ، لم يكن يرى أية قيمة فى حركة التعليم الجديدة . أما المعرفة الدنيوية
الوحيدة التى كانت يرحب بها ويضفى عليها كل القيم فهى الفنون الحرة ، التى كان يرى أنها
يجب أن تكون فى إطار الهدف التقليدى المحدد بغرض توظيفها فى خدمة التعليم الكنسى .

وكان برنار يزعم أن القراءة والكتابة والتعليم ليست هى الطريق إلى الله . فكل مايحتاجه المرء لتحقيق الخلاص هو « ضمير نقى وعقيدة راسخة » . هذه المقولات تبدو كما لو كانت تميز سان برنار باعتباره الزعيم المحافظ لجيله ، وكان يحب أن يرى نفسه فى هذه الصور . ولكننا حين نفحص أفكاره ككل ، نجدها تبدو نوعًا من التحدى الثورى لعالم الفكر فى العصور الوسطى الباكرة وشأنها فى ذلك شأن أفكار أبيلار ومذاهبه ، على الرغم من أن أفكار برنار اتخذت اتجاها مختلفًا بطبيعة الحال . لقد كان سان برنار هو لسان حركة التدين الجديدة التى عرفتها أوربا القرن السادس عشر ، مثلما كان أبيلار داعية لحركة التعليم الجديدة . وتبدو النظرة البرنارية أبعد ماتكون عن روح الرجعية والمحافظة ، وإنما تتألق باعتبارها من أكثر مذاهب القرن الثانى عشر تضمنا للمبادئ الثورية .

وقد تعرضت سمعة برنار لكثير من تقلبات الأحوال مثلما حدث مع أبيلار . ففى العصور الوسطى كان يحظى بتبجيل كبير ، كما كان يصور فى غالب الأحيان (على الرغم من أن الذين عرفوه شخصيًا لم يصوروه فى هذه الصورة) كنموذج للقديس الملائكى . ونظرًا لعاطفته وإيمانه الراسخ ، فإنه لم يحظ بالقبول لدى الكتاب المحدثين قط ؛ إذ أنهم تصوروه رجلا كثير الشكوى والتذمر ، متغطرسًا ، عصابيًا . والترجمة الوحيدة التى كتبت فى صالح سان برنار فى القرن العشرين هى تلك التى نشرت فى مناسبة الذكرى الثمانمائة لوفاته سنة ١١٥٣م وكتبها الرهبان السسترشيان . ذلك أن تعصبه وعدم تسامحه يجعل منه شخصية ينفر منها الذوق الحديث ، ولكننا كلما أوغلنا فى دراسة ثقافة العصور الوسطى اكتشفنا المزيد من تأثيره البعيد المدى على هذه الثقافة . وليس من السهل أن نحب برنار ، ولكن من المستحيل أن نتجاهله ، أو حتى نبالغ فى أهميته بالنسبة لتطور حضارة العصور الوسطى .

كان برنار سليل إحدى الشرائح العليا فى طبقة النبلاء الفرنسيين . وقد أمضى شبابه فيما يشغل أى محارب أرستقراطى ، ولكنه تمرد على أخلاقيات الطبقة التى ينتمى إليها ، ومر بتجربة تحول قوية وجهته صوب الحياة الدينية ، كما حدث فيما بعد مع سان فرنسيس وسان اجناتيوس ليولا اللذين انحدرا من أصول اجتماعية مشابهة . وعلى حد تعبير العصور الوسطى صار « جنديًا من جنود المسيح » ، أى أنه صار راهبًا . وانضم إلى طائفة الرهبان السسترشيان الجديدة ، وهى الطائفة التى تزعمت حركة النسك والتقشف فى مناطق شمال الألب ، وأخذ معه بعضًا من أصدقائه النبلاء . ومالبث أن عين رئيسًا لدير كليرفو

السسترشيانى . وكان هو أشهر عضو فى طائفته ، كما أن شهرته ساهمت فى النمو السريع للحركة السسترشيانية . وعلى أية حال ، فالواقع أن برنار قد أخطأ وجهته ؛ إذ أن طبيعته المتقلبة لم تكن تناسب الحياة التأملية . فقد كان رجلاً على درجة من التعقيد والحيوية بحيث لايصلح أن يكون راهبًا من رهبان القرن الثانى عشر ، كما كانت أخلاقه السيئة وموقفه المتغطرس نتيجة لعدم قدرته البقاء فى ظل قيود الدستور السسترشيانى ووطأة الشعور بالذنب الذى تعاظم لديه حينما قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته بعيداً عن ديره .

وقد أتاحت شهرة برنار بوصفه زعيمًا للسسترشيان الذين حازوا الإعجاب ، وشخصيته الفذة ، ووضعه كمتحدث غير رسمى باسم حركة التدين الجديدة ، كل هذا أتاح له الفرصة لكى يلعب دوراً عظيمًا فى المجتمع . وفيما بين سنة ١١٢٥ وسنة ١١٥٣ ، كان برنار يبدو وكأنه سيد الكنيسة الغربية . فقد كان يصنع البابوات ، ويخطب فى الملوك ويحثهم على الحركة ، ويدعو إلى الحملات الصليبية ، ويسدى النصح إلى رجال الكنيسة . وقد أدان اليهود ، ثم منع المذابح الجماعية ضدهم ، وعمومًا ، فقد جعل من نفسه مصدر إزعاج للآخرين . ولدينا مثال على سلوكه فى النزاع حول الانتخابات للبابوية سنة ١١٣٠ والذى كان نتيجة لانقسام هيئة الناخبين . فقد انتخب أغلبية ضئيلة أناكليت الثانى Anaclete II ، ولكن الكرادلة البارزين اختاروا إنوسنت الثانى Innocent II . وأعلن برنار أن الأصوات يجب أن تخضع لعملية تقييم ، ولايكفى عددها ، وبهذا ضمن عرش البابوية لإنوسنت الثانى . ولأن قاعدة الانتخاب بالأغلبية كانت هى الطريقة الشائعة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فإن المعاصرين لم يغفلوا عن حقيقة أن برنار قد تصرف بطريقة مغرضة ، لأن إنوسنت الثانى كان واحداً من تلاميذه . والقراءة المتأنية الفاحصة لمراسلات برنار البالغة الكثرة تكشف عن أمثلة كثيرة مشابهة من الأحكام المتحيزة . كما أنه كان قاسيًا فى انتقاداته لطائفة الرهبان الكلونيين . وأخذ على عاتقه مهمة التحقير من شأن فن العمارة الكلونى ، الذى كان فى رأيه شديد البهرجة ولم يكن خشنًا بما يتفق مع روح الزهد والتقشف ، كما أنه لم يتورع عن مهاجمة سوجيه مقدم دير سان دونى ، الذى اتهمه بمصاحبة رفاق السوء بشكل كان يعرض روحه للخطر. وقد انشرحت صدور الكثيرين من رجال الكنيسة سراً حين انتهت الحملة الصليبية الثالثة ، التى دعا إليها برنار ، بكارثة . وتعجب برنار وتساءل عن السبب فى أن الرب قد خذله على هذا النحو ، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة التصرف كما لو كان هو المتحكم فى

شئون أوربا . وقيل في بعض الأحيان إنه كان زعيم أوربا المسيحية طوال حياته . ومن المؤكد أن نفوذه كان كبيراً ، ولاشك في أنه كان يرى نفسه على هذه الصورة ، بيد أن سيطرته على الأمراء الكنسيين والعلمانيين كانت تبدو أكبر من حجمها الواقعي . إذ وصل الملوك والباباوات إلى حد الشعور بأن أي خطاب أو محاضرة يلقيها سان برنار أشبه بمحنة تعودوا أن يتحملوها ، ولكنهم غالبا ماكانوا يتجاهلون مايطلبه منهم .

كان ما يريده برنار هو الإصلاح الأخلاقي لأوربا ، أي التنظيم الصارم للحياة وفقا للتعاليم المسيحية . ولم يكن أقل من هيومبرت وهيلدبراند في نزعته التطهرية ، وكان يرغب في خلق مدينة الله عل الأرض ، ولكنه لقي القبول لأنه ألزم نفسه باستخدام النهج الأخلاقي لتحقيق هذه الغاية ، على عكس هيومبرت وهيلدبراند . وكان هذا هو السبب في استعداد قادة المجتمع للتسامح معه ؛ فقد كان من كبار المتدينين وكان يحظى باحترام الجميع ، كما كان مبشراً مفوهًا ونصيحًا للغاية اتخذ لنفسة دور ضمير أوربا الأخلاقي ، إلا أنه لم يكن يتمتع بأية سلطة رسمية ، فلم يكن هو البابا ، كما أنه لم يوقع عقوبة الحرمان على أحد ، ولم تكن له سلطة خلع الملوك ، وكان الملوك ورجال الكنيسة على استعداد لسماع خطبه ومواعظه لأنه لم يكن يتدخل في شئونهم بطريقة تعوق زيادة سلطتهم أو تعرقل سياساتهم المعتادة .

ولم تكن أهمية سان برنار نابعة من مناشدته لزعماء المجتمع ، وإنما جاءت هذه الأهمية من مذاهبه الدينية وعزفه على أوتار المنابع العاطفية الهائلة لحركة التدين الجديدة ، لكي يزيد من سرعة حركة تحول المسيحية في العصور الوسطى . وفي هذا الصدد واصل برنار أعمال داميانى وجهوده ، وزاد من تكثيف الجوانب العاطفية في حركة التدين الأوربية ، كما مهد الطريق أمام سان فرنسيس الآسيسى St. Francis of Assisi . كذلك فإنه كان ، مثل دامياني ، معادياً للفكر ، فوجه انتقاداته المريرة إلى أساتذة المدارس الفرنسية لمحاولتهم إيجاد طريق عقلاني للمعرفة الآلهية ، ولكنه لم يقتنع مثل أبيلار بأن يكون هناك مدخل وحيد للألوهية يمر من خلال الوسائل التقليدية عن طريق الدين والأسرار المقدسة . فقد كان يؤمن بالتجربة الدينية المباشرة ، أي الاتحاد بين المحب والله والروح المسيحي . وقال إن غاية الدين هي « معرفة يسوع ، ومعرفة يسوع مصلوبًا » - أي معرفة المسيح ليس في جلاله ، وإنما في تضحيته بذاته . وللمرة الأولى في تاريخ العصور الوسطى جعل لاهوت برنار الحب في مكانة أعلى من الإيمان . وفي رأي برنار أن الاتحاد بين الرب والإنسان يقوى كثيراً بشفاعة مريم المقدسة « إن العذراء

هى الطريق الإلهى الذى جـاءنا المخلص منه » . وهى « الزهرة التى تستقر عليها الروح القدس» . لقد لعب سان برنار دوراً رائداً فى تطور مذهب العذراء الذى يعد واحداً من أهم مظاهر حركة التدين الشعبى فى القرن الثانى عشر . ولم يكن هو مبتدع المريمية ؛ فقد اكتشف رجال كنيسة العصور الوسطى أن هذا المذهب كامن فى الأناجيل نفسها . ولكن مريم العذراء لعبت دوراً ثانويا للغاية فى الحركة الفكرية فى العصور الوسطى الباكرة ، ولم يحدث سوى عند ظهور المسيحية العاطفية فى القرن الحادى عشر أن بدأت تلعب دور شفيع الإنسانية الأول لدى الرب . فقد تم تصويرها فى صورة الأم المحبة للجميع ، والتى تتسع رحمتها اللانهائية لكافة من ينشدون المساعدة بقلب تائب محب ، وتقدم لهم إمكانية الخلاص . وقد ساهم سان آنسلم وبعض تلاميذه مساهمة هامة فى النمو السريع لمذهب العذراء فى نهاية القرن الحادى عشر ، ولكن سان برنار كان هو الذى جعل المريمية مذهبًا هامًا فى الإيمان الكاثوليكى ، وجعل منه مذهبًا تعدى التعاليم الدينية الصارمة بحيث يثرى الرؤية الفنية والأدبية فى العصور الوسطى العالية إثراء كبيراً .

وهكذا ، بفضل تعاليم برنار تصير مريم العذراء جانبًا إضافيا من جوانب الألوهية وتساعد الابن والروح القدس فى التوحيد بين الإنسان والرب . ولكن هناك مدخلا قائمًا وممكنا ومباشراً؛ هو الطريق الصوفى للرؤية الجمالية . ومذهب برنار هو الذى يضع الاتجاهات الصوفية فى لاهوت داميانى موضع التحقيق. ولم يكن مقدم دير كليرفو هو المتحدث الوحيد باسم الطريق الصوفى للاتحاد بالرب فى منتصف القرن الثانى عشر . ففي غمار الجو الدينى المشحون عاطفيا فى ذلك الزمان ، كان لابد لفكرة التجربة المباشرة مع الألوهية أن تلقى قبولا واسع النطاق . وفى أيام برنار قام بعض الكتاب فى دير سان فيكتور فى باريس بكتابة بعض الآداب الصوفية ولكن برنار كان هو أقوى داعية إلى المدخل الصوفى إلى الألوهية فى الفترة مابين ظهور داميانى وظهور فرنسيس . وفى المقاطع الأخيرة من الكوميديا الإلهية يجعل دانتى ، بما تميز به من فطنة وحذق ، سان برنار ممثلا للرؤية الجمالية فى مسيحية العصور الوسطى . لقد كان الاتحاد الصوفى مع الرب عند برنار أسهل كثيراً مما هو عند أوغسطين وآباء الكنيسة . فهو يقول إن أى إنسان يملؤه الشوق المضطرم إلى الاتحاد بالمسيح لدرجة أنه « يرغب فى ذلك بشدة ، ويتعطش إليه بحماسة ملتهبة ، ويعول على الأمل فى هذا الاتحاد دون كلل أو ملل ، وحينئذ سوف يشعر بنفسه بين أحضان العروس وسوف يتلقى فيضا حلواً

من الحب الإلهي » ، وسَوف تعاني روحه « ذلك الموت الذي تعانيه الملائكة » . ولسوف يهرب من الأشياء المادية فضلا عن هربه من الأفكار والصور المتعلقة بها والتي تؤرقه ، كما أنه سينعم بنشوة التأمل ؛ أي أنه سوف يدخل في علاقة نقية من « صورة النقاء ومثاله » .

هذا المذهب الصوفي هو الذي يشكل الثورة الأكثر شمولا في الفكر المسيحي ، لأنه إذا أمكن للروح أن تهرب في حياتها الحاضرة من قيودها البشرية على هذا النحو ، فما هي ضرورة الكنيسة وأسلوب أسرارها المقدسة كوسيلة للخلاص ؟ إن الكنيسة والأسرار المقدسة ضرورية باعتبارها تمهيداً للرؤية الجمالية على حد تعبير برنار الذي يضيف إنها ضرورية أيضا لأولئك الذين يعجزون عن الحياة الروحية الخالصة . ولكن أولئك الذين اتبعوا التدريبات الروحية التي اقترحها برنار تخلوا في الواقع عن ضرورة الوسائل الكنسية للخلاص ؛ إذ أنهم دخلوا في علاقات مباشرة مع الألوهية ؛ أي أنهم ماتوا موت الملائكة ؛ وهو مايعني أنهم صاروا هم الأطهار السماويين . وحينما نزل أولئك القديسون الملائكيون من عليائهم الروحية - أي عندما تخلوا في نفس اللحظة عن معانقة العروس الإلهية - فمن ذا الذي سيخبرهم عن ماهية الحقيقة ومن ذا الذي يمكنه أن يفرض سلطانه عليهم ؟ هل هم القساوسة ، وزراء المسيح الرسميون ؟ كم من هؤلاء القساوسة ظفروا بالرؤية الجمالية ، وكم منهم عانى تجربة العناق السماوي ؟وهل يمكن لأمثال هؤلاء أن يحكموا الملائكة ؟ هذه هي الأسئلة البارزة التي أثارتها الآراء البرنارية ولم يحدث أن أثيرت هذه الأسئلة بشكل ضمني فقط . إذ أن برنار الذي كانت وظيفته الوحيدة في الكنيسة هي وظيفة مقدم لأحد الأديرة السسترشيانية الصغيرة ، كان يفترض في نفسه صلاحية الحكم على الكنيسة ورجالها في زمانه . واكتشف أن « هناك فساد مدمر يزحف في سائر أوصال الجسد الكنسي » . وهو داء عضال لاسبيل لشفائه نظراً لاستشرائه ، كما أنه بالغ الخطورة بسبب عمقه ورسوخه . وقد أعلن برنار من موقعه الملائكي « أن الوباء الذي يجتاح الكنيسة وباء داخلي ولايمكن شفاؤه » . فرجال الكنيسة في زمانه « بعظمتهم المبهرجة الزائفة » و « سلوكهم الشائن » قد خانوا الرب « فهم قد حازوا شرفا قدمهم بفضل خيرات الرب ، على حين أنهم لايفعلون شيئًا ، شرفًا أو خيراً ، للرب » . والأساقفة الكبار هم « وزراء المسيح الدجال » . لقد صارت الكنيسة من أملاك «شيطان الظهيرة » المسيح الدجال الذي « لاشك في أنه ابتلع كل أنهار وسيول الأقوياء » . والعصر النهائي الذي يتحقق فيه سفر الرؤيا هو فقط الذي سوف يشهد قضاء المسيح على المسيح الدجال « بفضل الضياء المنبعث من مقدمه » .

وإذا ما قارنا أقوال رئيس دير كليرفو ، التي سرت في كل اتجاه ، بأكثر تصريحات أبيلار تطرفا ، لبدت لنا تصريحات أبيلار معتدلة في قصدها . ففي كلام برنار عن الكنيسة تصير حركة التدين الجديدة خارجة عن نطاق كل سيطرة وتتحول ضد النظام القائم . ولم يحدث أبداً أن فكر أحد باتهام برنار بالخطأ العقيدي ، ولكن كتاباته هي أكثر المصادر وضوحًا وأهمية بالنسبة لكثير من المذاهب التي نشرتها الحركات الهرطقية في الشطر الأخير من القرن الثاني عشر ، ثم في القرن الرابع عشر . ففي جميع هذه الحركات توضع سلطة القديس الملائكي قبل السلطة الرسمية للجهاز الكنسي وفوقها ، كما أن الأخلاقيات الفردية تجب المنصب الكنسي . ودونما قصد من برنار باعتناق المذهب الدوناتي ، فتح الطريق لرواج المبادئ الدوناتية في أخريات القرن الثاني عشر . لقد كانت مذاهبه تجسيداً مسبقًا لتعاليم يواقيم الفلوري Joa-chim of Flora ، الذي كان راهبًا ومهندسا معماريا من جنوب إيطاليا ، ظهر بعد قرن من الزمان . ولم يقل برنار إطلاقا إن البابا هو أداة المسيح الدجال ، ولكنه أدان كل درجة أخرى في الجهاز الكنسي من كبار الأساقفة والشمامسة باعتبارهم خدامًا « لشيطان الظهيرة » . وما كان على يواقيم ، فيما بعد ، سوى أن يضيف أن نائب المسيح هو بالفعل نائب المسيح الدجال لكي يصل إلى لب نظريته الثورية . وحتى الفكرة الأخروية القائلة بأن العالم قد دخل عصر المسيح الدجال ، وأن قدوم المسيح سيحدث في أعقاب هذا العصر ، وهي الفكرة التي اتخذها يواقيم أساسا للاهوته في التاريخ – هذه الفكرة تتجلى واضحة في كتابات برنار .

إن النمو الفكري في أوربا ، بما اتسم به من غموض وما خلفه من نتائج متعددة الجوانب ، يتجلى حيا في النظرة البرنارية . فهي نظرة رجعية محافظة ومعادية للفكر من بعض النواحي، لأن برنار كان يرى مخاطر حركة التعليم الجديدة ، ويدرك المضامين المنذرة بالشر في شخصية أبيلار وفلسفته ، ولكن برنار من جانبه كان يوجه حركة التدين الجديدة في اتجاهات لم تكن الكنيسة في أواخر القرن الثاني عشر قادرة على السيطرة عليها . ذلك أنه حين رفع القديس التطهري إلى مكانة تسمو فوق مكانة وزراء المسيح ، وحين أصدر أحكامه المنحازة على القساوسة وأدانهم بأنهم أدوات المسيح الدجال ،أعلن ميلاد المذاهب التي قيض لها أن تشكل الخطوط العامة للهرطقات الشعبية . لقد أعطى برنار لكاثوليكية العصور الوسطى بعداً عاطفيًا جديداً أثراها وأعاد لها حيويتها ، ولكنه في الوقت نفسه يجب اعتباره أول من حفر قبر السلطة الكنسية .

٤ - الأدب والمجتمع فى القرن الثانى عشر :

كان النمو الفكرى فى القرن الثانى عشر يتضمن الآداب الإنسانية شأن سائر أشكال الفكر والمشاعر . فقد شهد ذلك القرن تزايداً كبيراً فى حركة التعليم . كما شهد تطور الدوافع الهامة الجديدة للتعليم والتى كانت ذات تأثير قوى على الآداب الأوربية حتى القرن العشرين ، إلى جانب خلق الآداب الشعبية للمرة الأولى . ذلك أن أحداً من كتاب العصور الوسطى الباكرة ، باستثناء سان أوغسطين ، وربما بوثيوس وعدد قليل من الشعراء الأنجلو سكسون ، لايجد من يقرأ مؤلفاته اليوم لأغراض أخرى غير الأغراض التاريخية البحتة . وعلى أية حال ، فقد أنجب القرن الثانى عشر الشعراء الفرنسيين ، والأسبان ، والألمان الذين مازالت مؤلفاتهم تحظى بحفاوة وتقدير النقاد الأدبيين وتجتذب جمهرة من القراء . هذه المؤلفات ، التى كتبت غالبيتها باللغات الشعبية ،تمثل صورة حية من مثل وأخلاقيات المجتمع الأوربى ، لاسيما فى أوساط ملاك الأراضى . وليس هناك جانب من جوانب التغير الثقافى فى القرن الثانى عشر أكثر صعوبة فى تقييمه من المدلولات الفكرية والثقافية للأشكال الأدبية الجديدة .

فما هى نوعية الناس الذين كانوا يكتبون الأدب فى القرن الثانى عشر ؟ لقد كانت الغالبية العظمى من الكتاب ، حتى الذين كتبوا باللغة الدارجة ، مايزالون من رجال الكنيسة. ولكن بدلا من الكتاب الرهبان الذين كانوا هم الغالبية من قبل ، والذين تميزت بهم الفترة السابقة على سنة ١١٠٠م ، يكشف القرن الثانى عشر عن كتابات غزيرة كتبها القساوسة ، الذين كان معظمهم من العاملين فى الكاتدرائيات . وكانت هناك فئة جديدة من الكتاب هم طلبة الجامعات ، الذين كانوا من رجال الكنيسة فى مناطق شمال الألب . وفضلا عن القساوسة ، الذين أنتجت قرائحهم الشطر الأكبر من أدب القرن الثانى عشر ، ساهم العلمانيون ، للمرة الأولى فى العصور الوسطى ، فى الأدب الأوربى ، ذلك أن كثيرين من النبلاء ، لاسيما فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، ثم غرب ألمانيا أواخر القرن الثانى عشر ، كانوا ذوى حظ من التعليم كبير ، وصار بعض أبناء الأرستقراطية الألمانية والفرنسية مؤلفين يكتبون بلغاتهم المحلية . وكانت الضرورة تقتضى أن يكون هناك عدد كبير من البورجوازيين القادرين على القراءة والكتابة لإعداد التقارير والمشاركة فى المراسلات المتعلقة بالعمل . ولم يحدث سوى حوالى سنة ١٢٠٠ أن بدأ أدب بورجوازى متمايز فى الظهور .

لقد كانت اللغة اللاتينية ، في أخريات القرن الثاني عشر ، ما تزال هي اللغة المستخدمة دون غيرها في الموضوعات ذات الطابع الفني والفكري : مثل الفلسفة ، واللاهوت ، والقانون، ووثائق الكنيسة والدولة . وظلت اللاتينية هي اللغة الأكاديمية العالمية حتى القرن الثاني عشر. وماتزال شئون الكنيسة الكاثوليكية توجه باللغة اللاتينية إلى حد كبير . ولكن بعد سنة ١٢٠٠م بدأ استخدام اللغات المحلية في العمل الإداري وساحات القضاء في الممالك الوطنية النامية . وفي القرن الثاني عشر كان مايزال هناك قدر هائل من الأدب يكتب باللغة اللاتينية، بل إن بعضا من أفضل القصائد اللاتينية ظهرت بعد سنة ١١٠٠م ، كما أن الطقوس الكنسية الكاثوليكية ورثت تراثا غنيا عن القرن الثاني عشر : مثل الترانيم الجريجورية في صيغتها المعروفة اليوم ، ومثل قصائد سان برنار وترانيمه الدينية .

لقد شهد القرن الثاني عشر كذلك ظهر ماعرف باسم « **الشعر اللاتيني العلماني** »؛ وهو عبارة عن قصائد عاطفية وأغنيات تدور حول موضوعات غير دينية . وكانت تلك أشعاراً كتبها الدارسون الجوالون على حد التعبير الشائع ، والذين يقصد بهم طلاب الجامعة . وفي هذا الشعر تعبير عن الشكل النمطي للطالب في أي عصر من العصور : بطموحه المحُبط ، واستخفافه الظاهري بالأمور ، ومغامراته العاطفية والمرات التي يقبل فيها على شرب الخمر . وأفضل ماتبقى من قصائد الطلبة كتبها اثنان من خريجي جامعات العصور الوسطى هما : كبير الشعراء Archpoet [٤] ، الذي كان كاتبا في حاشية المجلس الاستشاري لفردريك بربروسا ، والرئيس Primate ، الذي كان رجل قانون كنسي بارزاً في كاتدرائية أورليانز . وغالبا ماتردُ الإشارة إلى هذه القصائد العاطفية باسم الشعر الجولياردي Golirdic poetry، لأن كثيراً منها مكرس بطريقة هزلية إلى من يسمى جولياس Golias أو جوليات Goliath ، ويفترض أنه مرادف للشيطان . هذه القصائد « الشيطانية » التي تحض على مغريات الحياة الماجنة ، فسرت في بعض الأحيان (لاسيما من جانب الباحثات العاطفيات)

٤ – يعرف باللاتينية باسم Archipoeta وهو شاعر لاتيني مجهول . وقد أطلق عليه هذا الاسم تعبيرا عن إعجاب الجولياردين Goliards (مجموعة من الشعراء الجوالين ينسبون إلى أب أسطوري هو Golias) به . وكان واحداً من أفضل الشعراء الجوالين ، امتدح في قصائده الحب والخمر والنساء . ويبدو من قصائده أنه عاش في ريف منطقة الراين بألمانيا . وقد انتقد الكنيسة وتتناول قصيدته الشهيرة « الاعتراف » قصة شاعر يخوض في الرذيلة والخمر والنساء ، وهي مصادر إلهامه التي تمهد له الطريق إلى الفردوس . وفي أشعاره يتمنى أن يموت في حانة خمر . (المترجم)

على أنها تقرير دقيق عن الحياة التى كان طلبة الجامعة يحيونها ، والمثل والقيم التى كانت سائدة فيما بينهم . وهذا الرأى لايصمد للنقد أكثر مما يصمد التفسير المماثل لما يكتبه الطلاب الأمريكيون المعاصرون فى صحفهم . إذ كانت الخمر ، والنساء ، والغناء تمثل جزءاً هامشياً فى حياة طلاب القرن الثانى عشر ، بل إنها كانت أقل أهمية مما هى فى حياة طلاب اليوم .

إن الموقف المستهزئ بالهيراركية الكنسية ، والذى يفرض نفسه من ثنايا القصائد الجوليياردية يحمل بعض الأهمية والمغزى ، ولكن علينا أن نتذكر أن مؤلفى هذه القصائد كانوا من موظفى الكنيسة . ومن الواضح أن القصائد الجوليياردية أكثر دنيوية من ترانيم سان برنار التى كرسها للعذراء ، ولكن مسحة التشاؤم الشبابية الواضحة فيها لاتخفى ماوراءها من إخلاص عميق للدين فى العصور الوسطى . وفى تقييم الشعر الجوليياردى ومايشابهه من شعر الطلبة فى القرن الثانى عشر ، ينبغى التأكيد على أن أولئك الكتاب الذين أعلنوا أنهم عقدوا العزم « على أن يسقطوا جثثا هامدة فى الحانة » هم أنفسهم الذين كانوا يستمعون بانتباه شديد إلى محاضرات أبيلار ومواعظ برنار . فبعد أن أنهى كبير الشعراء Archpoet وصف حياته الماجنة كسكير ، مقامر ، وزير نساء يتوسل إلى الرب كى يمنحه الرحمة والخلاص ، كما يطلع إلى تحية « الملائكة الذين ينشدون القداس لخلاص الأرواح فى فرح أبدى » . لقد كان الشعر الجوليياردى تعبيراً عن مدى التنوع والتعقيد فى حياة القرن الثانى عشر ، ولكنه لايصلح دليلا على الموقف العلمانى الحقيقى . فعلى العكس ، يوضح هذا الأدب كيف أن موجة التدين الجديدة قد قللت من حدة عصيان الطلاب ، وكيف ساعدت على تحويل البوهيميين الشبان فى الحى اللاتينى إلى رجال مسئولين ولم يكتب لطيشهم ونزقهم أن يبقى سوى فى صورة خيالية يرسمها الحنين إلى الماضى .

لقد توارت إنجازات الأدب اللاتينى فى القرن الثانى عشر خلف ظلال المؤلفات الكثيرة التى كتبت باللغات المحلية آنذاك . فقد كان من الشائع فى الأوساط العلمانية فى العصور السوطى الباكرة أن تستخدم اللغة المحلية فى المحادثات العادية . ولكن العمل الأدبى الوحيد الذى كُتبَ قبل سنة ١١٠٠ ، أو سنة ١٠٥٠ – لأن هناك صعوبة كبيرة فى تحديد تاريخ هذه الأعمال الأدبية – يتألف من الشعر الأنجلو – سكسونى الذى تعتبر قصيدة البيوفولف Beo-wulf خير مثال عليه . فاللغة الفرنسية ، التى ظهرت بشكل متمايز منذ القرت التاسع

انبثاقا من اللغة الرومانية lingua romana التى كانت هى الصيغة الدارجة من اللاتينية الكلاسيكية ، أنتجت أول مؤلفاتها الأدبية قبل أو بعد سنة ١١٠٠ بعشرين سنة أو ثلاثين سنة . كذلك بدأ استخدام اللهجات الرومانسية الأدبية فى التعبير الأدبى فى الوقت نفسه تقريبا ، وربما بعده بقليل . ولم يظهر الأدب الألمانى المحلى سوى عند نهاية القرن الثانى عشر ، أما فى إيطاليا ، حيث كانت اللغة اللاتينية ذات تأثير شديد على الأدب الشعبى ، فإن المؤلفين لم يبدأوا فى استخدام اللغة الدارجة سوى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . وقد أدى الغزو النورمانى لانجلترا ، وما نتج عنه تحويلها إلى تابع ثقافى لفرنسا ، إلى إعاقة الأدب المحلى الإنجليزى حتى القرن الرابع عشر . والحقيقة أن غطا من اللغة الفرنسية الهجينة ظل يستخدم فى السجلات القانونية والحكومية الإنجليزية حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وأهم المؤلفات الأدبية الى كتبت باللغة المحلية فى القرن الثانى عشر ، سواء من حيث عددها أو من حيث أهمية عناصرها الأساسية وأساليبها الفنية هى تلك التى كتبت بلهجات جنوب فرنسا وشمالها . إذ أن أى قارئ للأدب الفرنسى الغزير فى القرن الثانى عشر لابد وأن يرى للوهلة الأولى انعكاسا لبعض الجوانب الهامة فى حركة التغيير الفكرى والاجتماعى ، ولكن هناك خلافا بين العلماء حول مدى مباشرة هذا الانعكاس ودقته . ذلك أن مؤرخى الأدب غالبا ما يأخذون الروايات الواردة فى مصادرهم بقيمتها الظاهرية ويقبلونها كما لو كانت صوراً دقيقة لأخلاقيات وقيم الطبقة الحاكمة فى القرن الثانى عشر ؛ أما المؤرخون السياسيون الأكثر حنكة فإنهم يبذلون مافى طاقتهم لتجاهل الروايات الأدبية ويعتبرونها وجهات نظر مشوشة على أحسن الفروض ، ويرون فيها بعداً عن حقائق الحياة فى العصور الوسطى بدرجة تجعلها لاتصلح برهانا تاريخيا على أسوأ الفروض . أما الدراسة والبحث التاريخى الحديث ، والذى يرتبط بمنظور اجتماعى واسع ، وتحكمه الحساسية تجاه حالات الوعى والصيغ التى تأخذ شكل النظم والمؤسسات ، فقد اكتشف فى أدب القرن الثانى عشر دلائل على تغيرات شاملة فى المشاعر تركت بصماتها على طوائف هامة فى عالم العصور الوسطى .

ويمكن تقسيم تراث الشعر المحلى الفرنسى فى القرن الثانى عشر إلى مجموعات ثلاث متمايزة : أولها أغنيات الرموز Chansons de Geste ثم أغانى التروبادور ، ثم الملحمة الرومانسية التى هى من نتائج التأثير المتبادل بين الشكلين الأولين . وكانت أغنيات الرمز

عبارة عن قصائد ملحمية طويلة ترتبط بشمال فرنسا وتصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب حياة النبلاء الإقطاعيين . ومن المؤكد أنها كتبت لتسلية البلاط الأرستقراطى ، وربما كانت قصصا متداولة شفويا ، ثم ازدادت ببطء على مدى ثلاثة قرون قبل تدوينها فى نهاية القرن الحادى عشر أو مطلع القرن الثانى عشر . وكانت هذه القصائد مبنية على الحوادث ، التى نعرف بعضها من المصادر التاريخية ، والتى حدثت فى العصر الكارولنجى . هذه القصائد الملحمية ، التى كتبت لتسلية النبلاء الإقطاعيين الفرنسيين ، يفترض أنها تصور كبار السادة الإقطاعيين فى الشمال الفرنسى فى الصورة التى كانوا يحبون أن يروا أنفسهم فيها . وجاءت النتيجة صورة مثالية للحياة الإقطاعية ، ولكنها صورة يمكن التعرف على ملامحها من خلال مانعرفه عن الحياة الإقطاعية من المصادر غير الأدبية ، بل إنها تؤكد هذه المعرفة تأكيداً حيا فى كثير من الأحيان . أما الأدب الأيبيرى المسيحى فقد بدأ حوالى منتصف القرن الثانى عشر بالملحمة الأسبانية الكبيرة « ملحمة السيد The Cid »[٥] ، التى هى رواية عن أعمال محارب أسبانى شهير فى القرن الحادى عشر ، والأفكار والمثل والمواقف التى تعبر عنها ملحمة السيد هى ذاتها التى تعبر عنها أغنيات الرمز الفرنسية .

إن هذه الأغنيات تصور الإقطاعيين فى صورة زعماء المجتمع ؛ كما أنها تصور الملك - الإمبراطور بعيداً فى أحسن الأحوال ، وفى أحوال أخرى تصوره ضعيفًا وجلا ، أما رجال الكنيسة فتصورهم كمجرد مساعدين للنبلاء الإقطاعيين ، وتصور الفلاحين فى صورة قوة اجتماعية يمكن تجاهلها ، فليس لهم من وظيفة سوى أن يكدحوا ويكدوا من أجل سادتهم ، وتحصدهم مجازر الحروب الإقطاعية حين تنشب ، ولايكاد سكان المدن يظهرون فى صفحات

---

٥ - « ملحمة السيد » Cantor De Mio Cid عبارة عن قصيدة ملحمية تشتالية كتبها شاعر مجهول عند مطلع القرن الثالث عشر . وهى تتناول مغامرات Ruy diaz de Bivar أو السيد كانبيادور Cid Campeador (وهو بطل الملحمة)من صغار النبلاء التشتاليين عمل فى خدمة الملك ألفونسو السادس الذى أرسله فى بعثة إلى أشبيلية لتحصيل الجزية ، ثم نفاه الملك بتهمة تتعلق بمهمته سنة ١٠٨٨ ، وقدم بيفار خدماته إلى حاكم سرقسطة المسلم وأحرز شهرة واسعة فى معاركه ضد المسيحيين ، وخلال تلك الفترة عرف باسم السيد Cid وهو اشتقاق من كلمة السيد العربية) وقد خلد باعتباره بطلا أسبانيًا عظيمًا ، وقد خلط الشاعر بين الحقائق التاريخية وعدد من الأساطير والمأثورات الشعبية ، فهو لايكتفى بتصوير « السيد » فى صورة الملك الشجاع الكامل ، ولكنه يجعل منه مسيحيا تقيا كرس حياته للقتال ضد أعداء المسيح .

انظر : الدراسة التى أعدها الدكتور طاهر مكي تحت اسم ملحمة السيد ، وصدرت عن دار المعارف سنة ١٩٧٨م.

هذه الملاحم . أما القوة فى أغنيات الرمز فهى قوة الولاء ، ودائما يكون موضوع القصيدة موضوعا يتعلق بالتبعية الإقطاعية وتحقيقها ، أو الخروج عليها . وهكذا نجد البطل فى أنشودة رولان Chanson de Roland (وهى أول مؤلف فى لأدب الفرنسى تعين على أجيال عديدة من الطلاب فى العصر الحديث أن يتعبوا بين طيات صفحاتها وسطورها) واحداً من الكونتات يفى بقسمه الذى قطعه بالولاء لشارلمان حتى لو أدى ذلك إلى موته المؤكد . كذلك فإن قصيدة راؤل الكامبرى Raoul de Cambari التى تعتبر أكثر القصائد الملحمية قيمة بالنسبة لمن يؤرخ للحياة الاجتماعية ، تدور حول المتاعب والعنف الذى ينجم عن عدم مكافأة الإمبراطور لأحد كبار أتباعه بالإقطاع الذى يدعى أن وراثته حق له . وفى قصيدة راؤول تتجلى النزعة العدوانية للنبلاء الإقطاعيين ؛ فالبطل المخطئ يشترك فى حركة عصيان دموية ومذبحة يروح ضحيتها رجال الكنيسة وسكان المدن الذين لاذنب لهم . ومن الواضح أن جمهور الأرستقراطيين كانوا يستمتعون وهم ينصتون إلى رواية مثل هذه الحوادث . وفى بعض مناطق الحدود المتخلفة مثل بريتانى والمناطق الجبلية كان مثل هذا العنف سمة عامة حتى سنة ١٢٠٠م. هذه الإشارات إلى الفوضى الإقطاعية تتشابك وتتداخل فى القصيدة نفسها مع الإشارات الواردة إلى موجة التدين الشعبى الجديدة . كما أن القصيدة التى تتخذ من حياة سيد إقطاعى يسمى « روبرت الشيطان » موضوعا لها تصف كيف أن البطل ، بعد سنوات عديدة من السرقة والسطو ونهب الأديرة ، يعانى من تبكيت الضمير ، فيذهب إلى روما ويحصل على الغفران لروحه من خطاياه ، ثم يقضى الفترة الأخيرة من حياته راهبًا قديسًا .

ويتأكد الربط بين العنف والتدين فى أغنيات الرمز من خلال معرفتنا العامة عن أخلاقيات نبلاء القرن الثانى عشر . وعلى أية حال ، فهناك عنصر إضافى يتمثل فى نوع من العاطفة المبتذلة فى القصائد التى لاتتوافق مع تصوراتنا التاريخية العامة لنبلاء الشمال الفرنسى فى بداية القرن الثانى عشر . وهكذا فحين يخبر شارلمان خطيبة راؤول بموت البطل ، تروح فى غيبوبة وما تلبث أن تموت كسيرة الفؤاد . وتخبرنا القصيدة أن المأساة جعلت كبار النبلاء فى بلاط شارلمان ينخرطون فى بكاء مرير . هذه العاطفة المخنثة تتعارض بشدة مع الرجولة الخشنة التى اتصف بها أبناء طبقة ملاك الأراضى فى شمال فرنسا فى الزمن الذى كتبت فيه أغنيات البطول (أى القرن الثالث عشر) . وإذا كانت لها أية قاعدة تاريخية ، فإنها تكشف فقط عن أنه داخل الحدود الضيقة لبعض مجالس البلاط الإقطاعية ظهرت حساسية جديدة مع بزوغ شمس القرن الثانى عشر .

وعلى أية حال ، فإن الحساسية ، والعاطفية ، والتعاطف المخنث لم تكن هي الخصائص التي تميز هذه الأغنيات بشكل عام . إذ أن اقحام هذه المواقف الرومانسية على نظرة النبلاء الأوربيين ، لم تنشأ أصلاً في إمارات الشمال الإقطاعية وإنما في بيئة الجنوب الفرنسي الاجتماعية المختلفة إلى حد ما . فهنا في البروفانس ، وأكويتانيا ، وتولوز كانت ثمة ثقافة تتطلع جنوبا صوب عالم البحر المتوسط . وكان تأثرها بالشمال قليلا في القرن الثاني عش . ذلك أن النزعة العسكرية لدى نبلاء الجنوب تضاءلت ، كما تغير أسلوب حياتهم بفعل عدة عوامل تداخلت مع بعضها . فقد استقرت حدود الإمارات الإقطاعية في الجنوب ، وكانت الفرصة لنشوب الحروب الإقطاعية ضئيلة ومحدودة . لأن كثيرين من نبلاء لانجدوك Lan-guedoc ، بلاد اللهجة الجنوبية ، اتخذوا لأنفسهم مستقراً في المدن ، كما أن مواقفهم تحولت تدريجيا بفعل موقف سكان المدن المعادي للعنف والفوضى . كما كان لحركة التدين الجديدة تأثير شامل على النظرة العالمية لنبلاء الجنوب ؛ إذ أن حماستهم الجديدة للقديس والعذراء جعلت النبلاء الأذكياء يقللون من أهمية الانخراط في سلك الطبقة المحاربة .

لقد قيض للحياة الاجتماعية في الجنوب الفرنسي أن تتركز في بلاط الكونت أو الدوق ، كما أن الظروف المحيطة بها أتاحت الفرصة لسيدات الطبقة الأرستقراطية لتلقين النبلاء الأخلاقيات اللطيفة الرقيقة . وبدأ مصطلح « بلاط Court » ، الذي كان معناه قبل ذلك حكوميا قانونيا لاغير ، يكتسب معنى إضافيا كمركز اجتماعي أرستقراطي ، وأصبحت كلمة « بلاطي Courtly » مرادفًا لكلمة « مهذب » وكلمة « ناضج اجتماعيا » (على دراية بشئون الحياة) . وأخيراً ، فإنه يحتمل أن تكون المواقف الرومانسية التي عرفها بلاط الأمراء المسلمين ردحًا طويلا من الزمن ، والتي وصفتها قصص ألف ليلة وليلة ، قد تغلغلت في جنوب فرنسا عن طريق الإمارات العربية المجاورة في الأندلس . هذه العناصر جميعا قد استخدمت لتفسير القيم والمثل العليا الرقيقة العاطفية التي تنطوي عليها أغاني التروبادور التي شاعت في جنوب فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر ، وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر . لقد كان بعض شعراء التروبادور شعراء محترفين يتعيشون من الغناء في بلاط الأمراء . وكان البعض الآخر من النبلاء أنفسهم ، ومنهم بعض دوقات أكويتانيا الأقوياء . وقيم التروبادور ومثلهم العليا هي أول تعبير واضح عما اصطلح على تسميته بقانون الفروسية. والمصطلح ليس مصطلحا جيداً ؛ لأن الأفكار والمشاعر المتضمنة فضفاضة وغامضة

لدرجة أنه لايمكن تحديد القانون المذكور حتى على نحو يماثل تعريفنا للتبعية الإقطاعية ، كذلك فإن مصطلح « فروسية Chivalry » مصطلح غامض ، لأنه فى حد ذاته لايعنى شيئًا غير أسلوب حياة الفارس . ولكن فى كل مرة يستخدم فيها المصطلح يحتمل أن يتضمن معنى جديداً فى نظر الأرستقراطيين فى جنوب فرنسا عند مطلع القرن الثانى عشر .

والفروسية ذوات معنيين فى وقت واحد : أحدهما فضفاض والآخر محدود . ويوحى المعنى الواسع الفضفاض للمصطلح بأن عادات الطبقة المحاربة كانت فى سبيلها للتراجع أمام أخلاقيات السادة الأرستقراطيين . ففى الفترات الطويلة التى تخللت الحروب كان النبلاء الجنوبيون ينغمسون فى وسائل التسلية فى البلاط ، وهى تسلية لم يكن بوسع أية طبقة أخرى فى المجتمع أن تقلدها ، وكانت فائدة هذه الحفلات - والتسلية المكلفة وغير العملية : مثل المآدب والصيد بالصقور ، ومباريات المبارزة ، والغناء ، والاستماع إلى قصص التروبادور ... وما إلى ذلك - أن تحافظ على هوية الطبقة التى كانت قد فقدت وظيفتها الحربية أو كادت . وبعبارة أخرى ، أكثر دقة وتحديداً ، كانت الفروسية ترتبط بقيم وممارسات العلاقات الغرامية فى البلاط . ففى أغنيات التروبادور تتم مخاطبة السيدات بأسلوب رقيق وعاطفى لم يكن يعرفه السادة الأفظاظ فى العصور الوسطى الباكرة ، والذين كانوا ينظرون إلى النساء باعتبارهن أدوات للمتعة الجسدية وإنجاب الأطفال لاغير . وإذ انتقلت غراميات البلاط من أكويتانيا إلى بلاط شمبانى Champagne فى الشمال فى منتصف القرن الثانى عشر ، طورت لنفسها قانونا خاصا كتبه من يدعى أندرو القس Andreas Capellanus . وقام هذا القانون على أساس مبدأ الحب الرومانسى ، أى الحب بين الرجل وأمرأة من الأرستقراطيين غير متزوجين ولايمكن أن يتزوجا ، بل ولا يريدان الزواج ، لأن المفروض أن الحب لايوجد سوى خارج الزواج . وتمضى الحبكة الرومانسية عبر طقوس تبادل الرسائل المشجعة ، وتبادل قسم الوفاء ، والتذكارات . وتصبح المرأة بالنسبة للنبيل هى السيدة المثلى التى تجسد كل الفضائل والجمال، والتى باسمها يأتى بكافة الأعمال الباسلة والرائعة .

وقد مضى وقت صعب للغاية على مؤرخى حضارة العصور الوسطى وهم يحاولون تفسير مغزى غراميات البلاط فى أكويتانيا وشمبانى . واعتبرت هذه الغراميات المحرك الرئيسى للحياة الأرستقراطية فى شتى أرجاء الغرب الأوروبى ، وكان يفترض أنها وفدت إلى فرنسا ثم

انجلترا فى ركاب اليانور الأكويتانية Eleanor of Quitaine [٦] . وكان الناس ينظرون إلى هذا النمط من الحب كما لو كان هرطقة خطيرة مستوردة من العالم الإسلامى أطاحت بالأخلاقيات المسيحية التقليدية . وفسرت هذه الغراميات كذلك على أنها الصيغة العلمانية لمذهب تقديس العذراء والرؤية البرنارية عن الحب المقدس ، وهكذا يسود الاعتقاد بأن هذه الغراميات ساهمت مساهمة بارزة فى الثقافة الغربية حين أعلت من شأن المرأة وأثرت الأدب الأوربى بعنصر رومانسى جديد . كذلك كان هذا الحب عاملا غامضا فى الحياة الأوربية لاوجود له سوى فى أذهان فئة قليلة من شعراء البلاط الفارغين الذين كانوا تحت تأثير كتاب « فن الحب » لأوفيد ، وهو كتاب انتشر وشاع فى القرن الثانى عشر . بل أن البعض قال إن كتاب أندرو القس عن غراميات البلاط كان مقصوداً به المزاح أو النقد الساخر البارع .

ومن الواضح أن إناسا كثيرين تحدثوا عن غراميات البلاط أكثر مما مارسوها ، بل إن الذين تكلموا عن هذه الغراميات لم يزيدوا عن حفنة من السيدات الأرستقراطيات ومن يتقربون إليهن من المتعلمين . بيد أن غراميات البلاط تمثل ، فى صيغتها المتطرفة ، الخصائص العاطفية السامية الجديدة التى تبنتها الطبقة الأرستقراطية الأوربية حينما ، وحيثما ، كانت وظائفها العسكرية التقليدية آخذة فى الضمور والتلاشى . ولم يكن هناك من بين النبلاء الأوربيين فى القرن الثانى عشر ، حتى فى شمبانى وأكويتانيا ، من هم عشاق حقا ، ولكن زاد عدد الأستقراطيين الذين يتصرفون بطريقة متحضرة راقية ، على الرغم من أنهم لم يكونوا

٦ - إبنة وليم التاسع آخر دوقات أكويتانيا (١٨٢٢ - ١٢٠٤) ، وقد تزوجت لويس السابع سنة ١١٣٧ وصارت ملكة على فرنسا ، وكان لها تأثير شديد على زوجها الذى هام بها حبًا . وقد صاحبته فى الحملة الصليبية الثانية ، وفى أثنائها فقدت تأثيرها على زوجها وتشاجرا . وفى سنة ١١٥٢ أقر مجمع بوجنسى Beaugency انفصال الزوجين الملكيين ، وعادت إليانور إلى بلاطها فى بواتييه ثم تزوجت هنرى الثانى الذى صار ملك انجلترا فيما بعد ، وضمت أكويتانيا إلى أملاكه ، وكانت شخصية نشيطة بسطت حمايتها ورعايتها على الشعراء والفنانين فى بلاطها . وبعد موتها سنة ١٢٠٤ دفنت فى مقبرة فنية فى دير فونتر فولت Fontrevault قرب زوجها هنرى الثانى ، وإبنها الحبيب ريتشارد قلب الأسد وكانت شخصيتها محل أحكام متناقضة من معاصريها . فقد حظيت بالاحترام فى أكويتانيا واشتهرت بأنها راعية للفنون والآداب ، ولكنها أيضا أتهمت بالخيانة الزوجية من قبل المؤرخين الفرنسيين الذين قالوا أيضا أنها ساحرة . انظر :

A.Kelly , Alianor of Aquitaine , (1952) .

Robert S.Hoyt and Stanley Chodorow , Europe in the Middle Ages (New York 1976) , pp . 341 - 344 .

يتورعون عن ذبح الفلاحين ، وإهانة البورجوازيين (سكان المدن) . إلا أنهم كانوا يتصرفون برقة تجاه الجنس الآخر ، ولاسيما النساء من طبقتهم ، هذا التحول البطئ فى مواقف النبلاء الاجتماعية تزايد بفضل نمو الملكيات الأوربية ، لأن حكومات هذه الملكيات كانت تضع قيوداً صارمة على العنف والبلطجة ، وبذلك أجبرت النبلاء على انتهاج أسلوب أكثر مسالمة فى الحياة .

لقد كان الفرد العادى من أبناء طبقة ملاك الأراضى فى القرن الثانى عشر يأخذ تعاليم الكنيسة مأخذ الجد ويظهر دلائل التدين . إذ كان يحضر الخدمات الكنسية والقداس ، ويبجل القديسين والعذراء ، ويحترم الرهبان ، وساهم بماله فى أوقاف الكنيسة ، كما يقوم برحلات الحج ، ويشارك أحيانا فى الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة . ولكن أقلية من أبناء الشريحة العليا فى طبقة النبلاء كانت أكثر تأثراً بالعاطفة والعقل مما كانت هذه الطبقة الإقطاعية قد اعتادت عليه فى سلوكها . فقد كان هناك قانون رومانسى عرفى للشرف بدلا من قانون الولاء القديم . ولم تكن مثل هذه الأنماط الأصيلة بين من يجمعهم قانون الفروسية تزيد فى قيمتها فى القرن الثانى عشر عما هى اليوم . فقد خسر روبرت كورتيز العاطفى دوقيته فى نورماندى أمام أخيه هنرى الأول ملك انجلترا ذى العقلية الصارمة ، كما أن ستيفن بلوا السخى الجواد الذى حاول أن يكسب العرش الإنجليزى فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر ، كان يفتقر إلى كفاءة الجندى ومقدرة رجل الدولة . وكان أشهر فارس فى القرن الثانى عشر هو الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد . وكانت الحوادث الدرامية التى مرت بها حياته موضع حفاوة شعراء التروبادور وقصاصى البلاط ، ولكن الملك الفرنسى الذى لم يتحل بأخلاق الفرسان استغفله فى سهولة ؛ ،كانت أعظم خدمة أسداها ريتشارد إلى شعبة الذى عانى طويلا هى أنه ظل خارج انجلترا طوال فترة حكمه تقريبا ، ولم تكن حياته شيئا كما أنها ذهبت هباء. ذلك أنه لم يكد يرجع إلى انجلترا من أسره فى ألمانيا حتى اندفع صوب فرنسا ، تخفق راياته وبيارقه ، لكى يفرض الحصار على قلعة تابع اقطاعى صغير رفض أن يسلم للملك مبلغا تافها. وجاء سهم طائش أطلقه أحد الرماة المتسكعين فوق سور القلعة المحاصرة ليقطف زهرة الفروسية الأوربية قبل الأوان .

وربما استطعنا تقييم النظرة العادية للأرستقراطية الأوربية فى القرن الثانى عشر من خلال شخصية وحياة أحد معاصرى ريتشارد . وهو وليم مارشال William Marshal (ت ١٢٢٣م) ،

الذى كان أكثر نبلاء زمانه حظًا بإعجاب الجميع . كانت عائلته تظن أنه جدير بأن يصبح قدوة عامة بحيث أنهم استأجروا قسا ليكتب سيرته . هذه السيرة هى قصة هوارتيو الجير Horatio Alger التى شاعت فى القرن الثانى عشر ، والتى تكشف لنا عن القانون الحقيقى الذى كان يوجه تصرفات أحد الفرسان من أبناء القرن الثانى عشر . فقد كان وليم مارشال فارسا بلا أرض بدأ حياته دونما فرس أو سلاح . وكانت الإمكانية الوحيدة لتقدمه ورقيه هى قرابته لأحد نبلاء نورماندى ، وهو الذى جهزه كفارس وأرسله ليشترك فى أحدى مباريات المبارزة . وعلى حد الوصف الوارد فى قصة وليم مارشال ، كانت مباريات المبارزة فى أخريات القرن الثانى عشر مجرد مباريات قتال ، ولم تكن مباريات فردية يقوم بها فرسان بواسل فى سبيل سيدات جميلات . إذ كانت مجموعتان من الفرسان المدججين بالسلاح يصطفون فى مواجهة بعضهم البعض على كل من جانبى ميدان فسيح ، ثم يقذفون بأنفسهم فى أتون المعركة ويكر كل منهم صوب الآخر . وكان هدف كل فارس أن يطرح أكبر عدد ممكن من الخصوم من فوق جيادهم حتى يمسك بهم طلبا للفدية . وأبدى وليم مارشال براعة فائقة فى هذا القتال الفوضوى ، الذى اتخذ منه موقفا ارتزاقيا للغاية . بل أنه كان يصطحب معه كاتبا فى هذه المباريات مهمته أن يسجل بدقة المبالغ التى يستحقها وليم على منافسيه . وأدت انتصاراته العديدة إلى تكوين ثروة كبيرة له ، واكسبته شهرة ذائعة كمحارب عظيم ، مما أدى لى تعيينه مدربا عسكريا لوريث عرش هنرى الثانى . وسرعان ماكوفئ على خدماته لأسرة أنجو بالزواج من أغنى وريثة فى انجلترا فصار وصيا على العرش ، وبذلك صار أقوى إيرل earl فى المملكة . وفى السنوات الأخيرة من حياته كان هو الوصى على التاج وكان يحظى بإعجاب جميع أفراد الطبقة الحاكمة الإنجليزية . ومن المؤكد أن وليم كان شخصية متحضرة ، وكان لماحا مقتدراً فى شئون الحكم والإدارة ، ولاشك فى أنه كان مهذبًا فى سلوكه تجاه السيدات ، ولكن لايوجد دليل واحد على أنه كان لديه الوقت أو الميل إلى القانون المعقد لغراميات البلاط . وتشى سيرة وليم مارشال بأنه فى سنة ١٢٠٠ لم يكن نموذجا للنبلاء من البارونات اللصوص ، كما أنه لم يكن واحداً من الفرسان المتحضرين . فقد كان السادة الإقطاعيون الأوربيون يتحولون تحت ضغوط كثيرة – سياسية ، دينية ، وثقافية ، واقتصادية – إلى الطبقة الأرستقراطية الأوربية فى شكلها الذى استمرت عليه حتى القرن التاسع عشر . كانت هذه الطبقة تتمتع بامتيازات معينة ، كما كانت تستمتع بوسائل ترفيه خاصة بها كانت محرمة على سكان المدن

والفلاحين ، ولكن أفرادها كانت عليهم أيضا مسئوليات والتزامات باهظة ، وكانت المسئوليات والالتزامات محصورة فى نطاق العائلة وميراثها بالنسبة للنبيل العادى ، وكان هناك عدد قليل من كبار الأرستقراطيين ، مثل وليم مارشال يضطلعون بهذه المسئوليات والالتزامات تجاه المجتمع ككل .

وفى نهاية المطاف اصطدم شعراء التروبادور ، فى أكويتانيا وشمبانى ، بنمط الحياة الذى كان يحياه أبناء الطبقة الأرستقراطية من أمثال وليم مارشال وهم يساهمون فى صياغة نظام جديد للقيم جعل للمشاعر وللحاجات الفردية الأولوية الكبرى . هذه الفردية والإحساس بالذات ذابت فى صمت فى خضم الأسلوب الأرستقراطى للحياة . لقد تمثلت البيئة الأولى لتعليم الأرستقراطية فى ظل هذا النظام فى صيغة جديدة من الأدب المحلى الذى تطور بعد سنة ١١٣٠ ، فى إنجلترا وفرنسا ، ثم فى ألمانيا .

لقد اصطدمت العناصر الرومانسية فى أغنيات التروبادور بأغنيات الرمز Chansons de geste الشمالية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وحولتها إلى روايات المغامرات ، التى كانت نوعا من الشعر الملحمى يتسم بالعاطفية المفرطة والمثالية والخيال . ذلك أن ملحمة شارلمان « أحوال فرنسا » لم تتحْ لمؤلفى روايات المغامرات الفرصة الكاملة لممارسة طاقاتهم الإبداعية الرائعة ، ومن ثم قامت تجاربهم على أساس الحروب الطروادية ، أو أعمال الإسكندر البطولية الأسطورية ، وحتى هذه الموضوعات لم تترك لهم الفرصة لكى يظهروا خيالهم الرومانسى كاملاً . ووجدوا ضالتهم فى ملحمة آرثر [٧] « أحوال انجلترا » .

---

٧ - آرثر Arthur ، بطل أسطورى من البريتون الكلتيين نسجت حول شخصه روايات وأعمال أدبية كثيرة. والخاصية الأسطورية التى تميز المدونات التاريخية فى القرن الثانى عشر ومابعدها ، وربما يكون لها أساس من الصحة التاريخية ، ففى سنة ٥٤٠ كتب المؤرخ الكلتى جلداس Gildas عن أنه فى مطلع القرن السادس نجح محارب يدعى آرثر فى صد الغزو الأنجلو سكسونى في غرب بريطانيا وكسب عدداً من المعارك أهمها معركة مونز بادونيس Mons Badonis فى القرنين التاسع والعاشر . وضعت المدونات التاريخية آرثر باعتباره زعيما مسيحيا حارب ضد الأنجلو سكسون الوثنيين . ومنذ بداية القرن الثانى عشر تحولت الشخصية إلى شخصية أسطورية هى شخصية الملك آرثر . « الذى قضى شبابه فى التجوال ، وحدثت له معجزات عديدة ، وحين تولى العرش فتح بلاداً أوربية مثل أسبانيا وإيطاليا . وكان يعقد فى بلاطه « دائرة مستديرة » يجلس حولها أثنا عشر فارسا ، يرمزون إلى الحواريين الذين صاحبوا المسيح ويمثلون فكرة الفارس الكامل . ولكن موردرد Morderd ابن أخته أعلن العصيان وغزا مملكته . وإذ كان آرثر جريحًا بجرح بالغ فقد لجأ إلى جزيرة أفالون Avalon مع أخته الساحرة مورجان Morgain التى كان يمكن رؤية أرضها من بعيد ولايمكن الوصول إليها (أى أنها كانت كالسراب) وبقى هناك زمنا طويلا فى انتظار الوقت المناسب لكى=

وأول من كتب فى الأساطير الأرثرية كان كاتبا علمانيا هو جيوفيرى المونموتى Geoffrey of Monmouth الذى كان يكتب فى ظل رعاية أسقف لنكولن . وفى سنة ١١٣٦ نشر جيوفرى كتابه المسمى « تاريخ ملوك بريطانيا » ، الذى زعم ، وربما كان هازلا فى زعمه ، أنه كشفه فى مخطوط قديم فى أكسفورد ، ولكنه كان يتألف من قصص يبدو واضحا أنها شاعت وانتشرت فى ويلز زمنا طويلا ، إذ كانت ويلز موطن جيوفرى . ومن المحتمل أن آرثر كان شخصا حقيقيا عاش فى القرن الخامس ، وكان أميراً مسيحيا مات وهو يحارب الغزاة الأنجلو - سكسون الوثنيين . وقام مواطنو آرثر الذين اختبأوا فى جبال ويلز طوال قرون عديدة باردة ، بتحويله إلى بطل مسيحى ذى قدرات خارقة . وقد انتشرت الأسطورة الآرثرية باتجاه الشرق فى أنحاء أوربا بسرعة تماثل سرعة انتشار أى وباء من الأوبئة التى عرفتها العصور الوسطى . وفى أثناء انتشارها كانت تزداد تعقيداً وعاطفية . وأهم المساهمات التى ساهمت فى نمو الملحمة الأرثرية هى التى قام بها Chrétien de Troyes الذى كان من معاصرى أندرو القس، الذى اشتهر بغراميات البلاط ، كما كان من مواطنيه . وكان كرتيان هو الذى رفع من شأن الشخصيات الثانوية الواردة فى الأسطورة الأرثرية مثل لانسلوت 'Lancelot ، كما كان هو الذى قدم موضوع البحث عن الكأس المقدسة .

ومن شمبانى وصلت الملحمة الأرثرية إلى ألمانيا الغربية فى غروب شمس القرن الثانى عشر. فقد كانت تلك هى الفترة الإبداعية فى الأدب المحلى الألمانى ، وكان ذلك هو عصر شعراء التروبادور أو المنسينجرز minnesingers ، كما كان يطلق عليهم . وكان أشهر هؤلاء هو الشاعر الغنائى فالتر فون دير فوجلفيد Walther Von der Vogelweide ، الذى كان تحت حماية أسرة هوهنشتاوفن الملكية . وقد انتجت قرائح الشعراء الألمان ، من أمثال جوتفريد الستراسبورجى Gottfried of Strassburg ، الذى كان من طبقة النبلاء ، روايات خيالية اختلطت فيها الملحمة الأرثرية بالصوفية الدينية ، ووصلت إلى أعلى شكل فنى لها فى رأى بعض النقاد.

= يعود وينقذ انجلترا من الغزاة الأجانب . هذه الرواية الأسطورية صارت منذ سنة ١١٦٠ أساسا لأعمال أدبية كثيرة ظهرت فى فرنسا ، ولاسيما فى بلاط شمبانى ، وكان الملك آرثر وفرسانه الإثنى عشر موضوعات لكثير من القصائد والروايات الخيالية التى تمجد الفروسية الفرنسية وتمجد الفرسان الفرنسيين كمحاربين ومؤمنين وحكماء ومسيحيين كاملين وعند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر تزايد عدد هذه القصائد وكتب بعضها بالألمانية . بذلك بدأت أكثر الموضوعات شعبية فى أدب العصور الوسطى . انظر عن هذا الموضوع:

R.S. Loomis (ed) , The Arthurian Litrature in the Middle Ages (1959) .

(المترجم).

لقد كانت موضوعات الروايات الخيالية الآرثرية ، مثل أشعار كرتيان دى تروى ورواية Parzifal التى كتبا فولفرام فون ايشنباخ ، تدور حول الحب بشكليه الدينى والدنيوى اللذين يرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا . وتبدو لهفة البطل على محبوبته صعبة المنال ، باعتبارها الجانب الدنيوى (الأرضى) المقابل للشوق الصوفى إلى الاتحاد غير الممكن بالذات الآلهية ، كما أن مجهودات الفارس هى المقابل الدنيوى للتدريبات الروحية التى يقوم بها المتصوفة المقدسون . فالسيدة التى يحبها الفارس غامضة ، بعيدة ، ورحيمة مثل مريم العذراء نفسها . كما يظهر الخلط بين العالم المقدس والعالم الأرضى فى موضوع الكأس المقدسة . إذ أن بطلاً رومانسيًا شابًا ، تلهمه مثالية سامية ، يأخذ على عاتقه مهمة البحث عن الكأس المقدسة ، ولم يحل دونه وذلك أى عائق ، ماديًا كان أو اجتماعيا . وبتعبير علمانى كانت الكأس المقدسة هى الكأس التى شرب منها المسيح فى عشائه الأخير . ولكن فى الخيال الحاذق للشعراء الرومانسيين كانت هذه الكأس رمزًا للمثال الذى لايمكن تحقيقه ، فهى الظرف الكامل والمستحيل المنال لتحقيق السعادة الإنسانية التى يمثل البحث عنها هدف الحياة ومبعث السرور فيها .

وفى الملحمة الآرثرية نجد مجالاً كاملاً مفتوحًا أمام الأدب الأوربى ، وهو مجال الحب الرومانسى الذى لم يكن يظهر فى أدب العالم القديم سوى بشكل متقطع . وهو ، بجميع المقاييس ، مساهمة أصيلة من القرن الثانى عشر فى الحضارة الغربية . هذه النزعة الرومانسية تتمثل أسمى قيمها الاجتماعية فى صياغة مذهب أخلاقى تحررى كان تعبيراً عن ثورة شاملة ضد التركيب الاجتماعى الاقطاعى الكنسى ونظيره الأيديولوجى ، أى ضد النظرة الهيراركية للعالم التى تتجاهل الوعى بالذات والمشاعر الفردية وتكبتها . فالحب الرومانسى ، موقف شخصى وفردى تمامًا يدعو إلى إقامة نظام من القيم على أساس من الحاجات العاطفية فى مواجهة الأوضاع الموروثة والسلطة البيروقراطية السياسية . ذلك أن بحث البطل الرومانسى عن الكأس المقدسة جعل الأولوية للسعى الفردى بحثًا عن تحقيق الذات والتمرد ضد الطبيعة الجامدة للهيراركية الإقطاعية والكنسية . وعلى العموم ، فإن المؤلفين من رواد البلاط ومن الأرستقراطيين الذين نظموا هذه القصائد كانوا يريدون تحرير الشخصية الإنسانية الفردية من الخضوع المزرى للسلطة والتقاليد . ويكشف الأدب الرومانسى الجديد عن عدم قناعة العقليات الحساسة الراقية بالثقافة الكنسية التقليدية وعدم رضاها بها . كما أن التأثير الطويل المدى

للتمرد الرومانسى على الفكر الأوربى والثقافة الراقية ، تأثير لايمكن تقديره بسبب تشعبه وتعدد جوانبه .

من الصعب أن نصدق أن النبلاء الذين كانوا هم جمهور المستمعين لروايات المغامرات الخيالية هذه كانوا يفهمون بوضوح المزج الحاذق بين الحب الدينى والحب الدنيوى وغيره من جوانب الرمز الرومانسى . لقد كان غالب مايخرجون به من الأشعار - وإن لم يكن هو الشئ الوحيد - هو الحبكة الخيالية التى كان المؤلفون الأذكياء بمهارتهم الفائقة ينسجون بها مذاهبهم ورموزهم الفنية . وإذا كان قد فات الجمهور الأصلى لروايات المغامرات بعضًا من ظلال المعانى الراقية ، فإن أحداً ممن كانوا يقرأون هذه الأشعار أو يستمعون إليها لم يكن ليغفل عن ذلك الأفق الجديد من آفاق التجربة الإنسانية التى طرقت الملحمة الآرثرية أبوابه . فقد علّم الأدب الرومانسى أبناء الطبقة الأرستقراطية فى أواخر القرن الثانى عشر أن المشاعر الشخصية والمطالب الفردية قيم تستحق أن يعترف الناس بها ، وأن يتم التوفيق بينها وبين التزامات الفرد تجاه مقتضيات النظام الاجتماعى .

كما أن الأدب الرومانسى علمّ أبناء الطبقة الأرستقراطية أن الحساسية ، التى كانت حتى ذلك الوقت من دلائل النقص والتخنث ، قد صارت فضيلة يمارسها أبطال مثل لانسلوت وبارسيفال Parsifal ، وتريستان Tristan وبتحويل الخصال الأنثوية إلى خصال بطولية ، رفع الشعراء الرومانسيون من قيمة المرأة التى خلعوا عليها صفات متمايزة قيمة . فقد كانت تعاليم آباء الكنيسة فى القرن الرابع حول الجنس والزواج هى الخطوة الأولى لتحرير المرأة فى الحضارة الغربية . وجاءت الآراء الرومانسية فى القرن الثانى عشر بمثابة الخطوة الثانية فى هذا السبيل.

ولكن ، إذا كانت روايات المغامرات الخيالية قد ساهمت جزئيًا فى تحرير المرأة من جهة ، فإنها من جهة أخرى أرست الأسس الفكرية للقياس المزدوج للأخلاقيات الجنسية التى وجدت فى الحضارة الغربية حتى القرن العشرين . ذلك أن الأسس الرئيسية للقياس المزدوج لم تكن أسسًا فكرية ، وإنما كانت أسسًا اجتماعية وقانونية . ففى مجتمع لايرث فيه الأرض واللقب سوى الابن البكر ، وتكون عدم الشرعية عائقًا مشئومًا يحول دون الوراثة ، كان لابد من وجود قياسين مختلفين للسلوك الجنسى لكل من الزوج والزوجة . فقد كان بوسع السيد أن يصاحب من يشاء من الخليلات ، وينجب ما يستطيع سفاحا ، لأن نتائج مضاجعاته العديدة

مع النساء لن تكون واضحة للعالم ، ولكن العكس تمامًا كان يصدق على الزوجة ، التى لم يكن ممكنًا غفران سلوكها الخاطئ بسهولة . ذلك أن مجرد الشك فى أن سيدة من الطبقة الإقطاعية قد اقترفت الزنا ، وما يترتب على ذلك من شكوك حول شرعية أبنائها ، كان يمكن أن يؤدى إلى سلسلة لاتنتهى من القضايا ، ويقضى على ميراث كبير ومن ثم كان من الضرورى على النبيل أن يضع زوجته تحت مراقبة دقيقة للغاية حتى يحول دون أية شكوك حول شرعية أبنائه . لقد كان المفهوم الرومانسى عن المرأة ، والذى أرساه شعراء التروبادور ، وما توحى به غراميات البلاط من مفاهيم ، وروايات المغامرات الخيالية - كانت تلك جميعًا هى التى طرحت المبرر للقياس المزدوج وحجب المرأة . فقد صورت نساء النبلاء فى صورة مخلوقات عاطفيات تستسلمن للغواية بحيث لايمكن السماح لهن بالحرية التى يتمتع بها الرجال. إذ كان لابد من حمايتهن وتكبيلهن بأغلال الفضيلة .

وهكذا ، كان لتطور الأدب المحلى فى القرن الثانى عشر أثره الشامل على مجالات حركة الثقافة الراقية ، كما كانت له بعض تأثيرات على أحوال الحياة الاجتماعية . كذلك لعب الأدب المحلى دوراً فى تطور الملكيات الوطنية . ذلك أن نمو الآداب المحلية فى القرن الثانى عشر ضمن مكانًا للغات الدارجة فى المجتمع الأوربى ، وهذا هو ماجعل الشعوب الأوربية تدرك أكثر فأكثر حقيقة انفصالها عن بعضها البعض ، كما قلل من مواقف النبلاء الأوربيين ذات الطابع العالمى ، وشجع على كراهية الأجانب التى صارت أمراً شائعًا فى القرن الثالث عشر . هذا التشرذم والتفكك اللغوى ، والفكرى ، والاجتماعى ، الذى عاناه المجتمع الأوربى فى القرن الثانى عشر ، كان بمثابة التمهيد الحتمى قبل بزوغ النزعة الوطنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .



الفصل السادس عشر

الفكر الإسلامى والفكر اليهودى : التحدى الأرسطى

١ - مشكلة التعليم :

بحلول سنة ١٢٠٠ تعرضت زعامة الكنيسة للمجتمع الغربى للتحديات فى مجال التعليم والتدين والسلطة ، وهى المجالات التى نمت وتقدمت خلال القرن الثانى عشر . ذلك أن مدلولات التغير الكبير الذى حدث فى المجالات الفكرية والدينية والسياسية فى القرن الثانى عشر كانت تتطلب من الكنيسة أن تعيد تقييم سياستها ونظمها ، وأن تعدلها بحيث تستطيع أن تتعامل بشكل ناجح مع نتائج التقدم والإبداع الأوربى . لقد كان مصير حضارة العصور الوسطى بعد سنة ١١٥٠ يستند إلى مضامين التعليم ، والتدين ، والسلطة ومغزاها أولا ، ثم على الطريق التى اتخذها رد الفعل الكنسى إزاء هذه المضامين ، وأخيراً على مدى فعالية الكنيسة فى تعديل مواقفها .

كانت أقوى التحديات التى طرحتها حركة التعليم الجديدة فى مواجهة النظام القديم متمثلة فى الفلسفة والعلم الأرسطى . إذ كانت جهود أبيلار فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر قد أوضحت بالفعل كيف كان يمكن لأنماط التفكير الجديد المستفادة من الفكر الأرسطى أن تقوم بدور المذيب القوى لعالم الفكر الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة بأسسه الأفلاطونية الراسخة . وقد أتيح لأبيلار أن يطلع على جزء صغير فقط من التراث الأرسطى الكبير : هو ذلك الجزء الذى كان بوئثيوس قد ترجمه من المنطق الأرسطى . ولكن أرسطو كان قد ألف أيضا كتبا أخرى فى المنطق فضلا عن فلسفة شاملة قام عليها العلم فى العالم القديم ، بما فى ذلك الكوزمولوجيا ، والميتافيزيقا ، والأخلاق ، وعلم النفس ، والنظرية السياسية . وفى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، بدأ العمل الضخم لإعداد الترجمات اللاتينية للمعرفة الأرسطية ، وبحلول منتصف القرن كان العمل قائما على قدم وساق فى هذه الترجمات . ومع هذا ، فلم يحدث سوى فى نهاية القرن الثانى عشر ، بعد فترة أولية من التأمل والتدبر فى الفلسفة والمذاهب والأرسطية ، أن بدأ العلماء اللاتين محاولة الربط بن هذا الكم الهائل من العلم وتراث الكتاب المقدس وكتابات الآباء . لقد كان ذلك إنجازاً رائعًا وخالداً جعل بعض

رجال الكنيسة المحافظين يعتقدون أنه سوف ينتهي بكارثة تطيح بتراث الكنيسة وتقاليدها . وإذا كان أبيلار ، بقدر ضئيل من المنطق الأرسطي ، قد سبب كل هذه المتاعب ، فكم سيكون تأثير قبول العلم الأرسطي خطيراً وثوريا ! لقد كانت تلك نقطة تحول في تاريخ الفكر الغربي ، وكانت « أزمة وعي » عبقرية ، لا توازيها سوى تأثيرات العلم النيوتوني والداروينية فيما بعد .

لقد صارت مؤلفات أرسطو ، وغيرها من كتب العلم الإغريقي ، بمتناول الغرب بفضل الترجمات التي أعدت في أسبانيا وصقلية ، والبروفانس . وحتى الربع الأخير من القرن الثاني عشر كانت الترجمات تتم نقلا عن النصوص العربية لكتابات أرسطو ، وليس نقلاً عن النصوص اليونانية الأصلية . فقد كان العلماء المسيحيون يعملون بمساعدة المترجمين من صقلية وأسبانيا ، أو بمساعدة المترجمين اليهود كما كان يحدث في البروفانس . وكانت النصوص المترجمة دقيقة بدرجة مذهلة إذا ماأخذنا في اعتبارنا مصاعب الترجمة للنص الأصلي . وفي غضون السنوات الخمس والسبعين الأولى من القرن الثاني عشر ، كان يندر أن يوجد عالم غربي يعرف اللغة اليونانية وكان لابد من طلب مساعدة المترجمين الذين يتحدثون العربية . وبحلول سنة ١٢٠٠ ، بدأت ترجمة مجموعة جديدة من كتابات أرسطو عن اللغة اليونانية مباشرة . وكان توماس أكويناس ، أول فيلسوف مسيحي يمتلك الترجمة الجديدة الكاملة في منتصف القرن الثالث عشر . وكانت هذه الترجمة ، طبعا ، أكثر دقة من الترجمة اللاتينية المنقولة عن اللغة العربية ، بيد أن الفروق بين الترجمتين لم تكن لافتة للنظر .

ولم يتم تنظيم أعمال مترجمي القرن الثاني عشر بواسطة أية سلطة مركزية . فقد كان هناك عدد قليل من المترجمين يتمتعون برعاية الأساقفة والأمراء ، ولكنها كانت مسألة أفراد يحركهم العلم الذي تلقوه في الجامعات ، فيأخذون على عاتقهم مهمة الترجمة الصعبة حتى أمكن إثراء الفلسفة والعلم في غرب أوربا بهذه المادة الجديدة إلى حد كبير . ومن الأمور ذات الدلالة على الفكر الأوربي أنه لم يحدث سوى في القرن الثاني عشر أن بذلت مجهودات جماعية في سبيل الحصول على العلم والفلسفة اليونانية ، التي كانت متاحة للعرب على مدى قرون عديدة ، من العالم العربي . فالترجمة عموما عمل يقوم على إنكار الذات ؛ إذ أن المترجم يجعل المعرفة ميسورة للكافة بحيث يسخرونها في أعمالهم الفكرية . ولكن الترجمة التي تمت في القرن الثاني عشر لمؤلفات أرسطو كانت إنجازاً بطوليا خاصاً . ذلك أن المترجمين لم يكونوا

يتقاضون أجوراً ، أو كانت أجورهم ضئيلة ، كما أنهم لم يحظوا بأى قدر من الشهرة ؛ ولم يكن هناك دافع آخر يدفعهم للعمل سوى الإخلاص للحقيقة والمعرفة . وما زاد من صعوبة عمل المترجمين العزلة التى كانت تفصلهم عن بعضهم ، وهى عزلة كانت تتسبب أحيانا فى التكرار وإهدار الوقت فى مؤلف واحد يقوم بترجمته إلى اللاتينية إثنان أو ثلاثة من العلماء فى وقت واحد بمعزل عن بعضهم البعض .

ولم يكن أرسطو هو الكاتب الإغريقى الوحيد الذي ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر . إذ قام العلماء اللاتين بترجمة كل ماوجدوه من مؤلفات الإغريق فى الفلسفة والعلوم . وما أن غربت شمس القرن الثانى عشر حتى كانت قد توفرت معلومات جمة عن العلم الطبيعي ، والطب ، والكوزمولوجيا كانت مجهولة قبل ذلك ، ثم أخذت تفيض فى جامعات الغرب الأوربى . وبمعنى ما ، أدى المترجمون عملهم على نحو طيب بحيث ظل التفكير النقدى الأصيل من جانب فلاسفة أوربا المسيحية مكبوتا على مدى نصف قرن من الزمان بسبب ذلك القدر الهائل المتنوع من المعلومات التى وفرها من قاموا بالترجمة . فقد إنكب المفكرون الغربيون على أرسطو وغيره من الكتاب الإغريق بشكل منعهم من التأمل النقدى الأصيل ، المنهجى . ومن المؤكد أن هذا كان من أسباب عدم إفراز غرب أوربا لأى مفكر من طراز أبيلار طوال مايقرب من مائة عام . ولكن لم يكن باستطاعة العلماء الأوربيين أن يغضوا الطرف عن فرصة التعرف على الثروات الفكرية للحضارة الإغريقية . كانت الفلسفة والعلوم هى أفضل ما أنتجته القرائح الغربية فى هذه الميادين ؛ وكان من الضرورى لمفكرى العصور الوسطى أن يستوعبوا أولا أفضل الأفكار والأقوال التى طرحت قبلهم ، قبل أن يواصلوا العمل لتطوير المناهج الخاصة بهم .

كانت صقلية هى أهم مركز لترجمة الكلمات فى الموضوعات الأكثر فنية : كالطب ، والعلوم الطبيعية والرياضيات . ذلك أن ثقافة صقلية غير متجانسة ، وسكانها الذين كانوا خليطًا من اليونان والعرب والإيطاليين جعلت منها مركزاً مثاليا لنقل المعرفة من عالم البحر المتوسط إلى غرب أوربا . أما أسبانيا ، فكانت هى المصدر الوحيد الذى خرجت منه الترجمات فى مجال الفلسفة وعلم الأخلاق اليونانية . وفى سبيل إنجاز هذا العمل ، كان على الباحثين المسيحيين أن يقيموا فى قرطبة وغيرها من المدن الإسلامية ، وهو أمر كان ينطوى على قدر من المخاطر بالسلامة الشخصية ، إذ ماوضعنا فى اعتبارنا الحروب التى لم تنقطع تقريبا بين أتباع الديانتين على تراب شبه الجزيرة الأيبيرية . وكان إقليم البروفانس هو المركز الثالث

والأخيـر لنقل المعرفـة . وهنا يبدو أن العـمل قـد تأثر إلى حد كبيـر بالتعـاون بين العلمـاء المسيحيين واليهود .

وحين بدأت مـؤلفـات أرسطو تتـوفـر بين أيدى المفكرين الغـربيين ، فى النصف الثـانى من القرن الثانى عشر ، اكتشف هؤلاء أن هذه المؤلفات لم تصلهم بمفردها وإنما جاءت فى أثرها سحابات من التعليـقات والشروح الإسلامـية واليـهودية . واكتشف المفكرون الغربيون أنهم ليسوا أول من تناول مشكلة العلاقة بين العلم والدين ، لأن بعضا من أعظم العقول فى العالم الإسلامى ، مثل ابن سينا وابن رشد ، وبعض علمـاء اليهود ، مثل ابن ميـمـون ، كانوا قد تناولوا بالفعل بعض نتـائج المذهب الأرسطى على عقـائدهم الأصلية ، أو كـانوا فى سـبيلهم لعـمل ذلك إبان القـرن الثـانى عـشر . وتتـجلى أهمـيـة أساليب المفكرين الكبار من المسلمين واليهـود لمواجهـة التـحدى الذى تطرحه الفلسفـة الأرسطيـة فى مسـارين . أولهـمـا : أن بعض المذاهب التى اقترحها الشراح والمعلقون المسلمون واليـهود تركت تأثيرها على مواقف المفكرين الغربيين . فالواقع أن فلسفة ابن رشد تعتبر تياراً هامًا فى الفكر المسيحى الغربى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وثانيا ، أن مذاهب العلماء المسلمين واليهود جديرة بالاعتبار لأنها تطرح متوازيات ومتناقضات مثيرة مع ردود الفعل الغربية تجاه الأزمة الفكرية التى نجمت عن تقديم العلم الأرسطى ، ومن ثم تقدم خلفية مضيئة تكشف عن تاريخ أوربا الفكرى فى القرن الثالث عشر .

فالإسلام واليـهودية والمسيحية ، كلها ديانات توحيدية . وبسبب طبيعتها العامة ، كان لابد أن يتكرر التحدى الذى تطرحه المذاهب الأرسطيـة أمام إحدى هذه الديانات مع الأخرى . إذ أن الصعوبة التى كان يمثلها المذهب الأرسطى أمام أى مؤمن بالدين الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى كانت ذات أبعاد ثلاثة . فبدلا من الله الواحد الذى تحدد مشيئته مسار العالم باستمرار ، يضع أرسطو إلهـا آليـا هو مجرد محرك أولى . إذ أنه يبدأ فى تحريك مجرى الأحداث العالمية ، ولكنه لا يشارك مشاركة نشيطة بعد أن يكون قد ابتدأ سلسلة الوجود الطويلة . ويميل المفهوم الأرسطى عن الألوهية إلى منع الاعتقاد فى العناية الإلهيـة ، ولايرى أية جدوى فى الصـلاة . هذه الآراء تتناقض بشكل حاد مع تعاليم القرآن والكتاب المقدس . أما العقبة الثانية التى يضعها المذهب الأرسطى أمام العلماء من أتباع الديانات الثلاث ، فقد تمثلت فى إنكار خلق العالم من العدم ex nihilo . إذ أن أرسطو يفترض خلود المادة ، وهذا يتناقض مع الاعتقاد المسيحى / اليهودى . والاعتقاد الإسلامى بأنه لم يكن ثمة شئ فى البداية غير الله . وتتمثل الصعوبة الثالثة التى يضعها أرسطو أمام أولئك المفكرين الذين

كانوا يرغبون فى إظهار التوافق بين العلم والدين ، فى فشله فى تأكيد مذهب خلود الروح المفردة . وكان أفلاطون قد ناقش باستفاضة مسألة الخلود الشخصى ، وهذا هو سبب تقبل المفكرين المسيحيين للمذهب الأفلاطونى قبل القرن الثانى عشر . ولكن أرسطو كان يعول على مذهب يقول بالخلود الجماعى وليس الخلود الفردى ، وهو مايعنى أنه قد أوضح أن الذكاء الإنسانى الفردى يبقى بعد الموت بفضل الاتحاد مع العقل العام للكل . لقد كان من الصعب تماما إيجاد التوافق بين رأى أرسطو والعقيدة التقليدية عن الخلود الفردى . وهكذا اتضح التناقض بين الفلسفة الأرسطية والدين فى نقاط حرجة . وكان الخيار مطروحًا أمام المفكرين المسلمين واليهود فى القرن الحادى عشر ، ثم أمام خلفائهم من المفكرين المسيحيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد كان عليهم أن يختاروا بين رفض المذهب الأرسطى برمته ، وهو المذهب القائل بفصل عالم العلم عن عالم الدين ، وبين محاولة إثبات الانسجام النهائى بين العقل والدين .

٢ - العقل والدين فى الفكر الإسلامى والفكر اليهودى :

لقد تحدد النموذج الذى احتذاه الفكر الإسلامى والفكر اليهودى فى مجابهة التحدى الأرسطى بالمجازات بعض كبار المفكرين وبالبيئة الاجتماعية العامة التى تعين عليهم أن يعملوا فى إطارها ، وهو ماحدث أيضا فى أوربا المسيحية . ففى تناقض صارخ مع العالم اليهودى والعالم المسيحى ، حافظ الإسلام باستمرار على الفصل بين السلطات الدينية والمدرسين والعلماء فى مجالات الفلسفة والعلوم . إذ كان قادة الفكر فى الإسلام ، إما من الأصوليين والفقهاء الذين يستمدون جميع معارفهم فى الدين والأخلاق من القرآن والسنة النبوية ، وإما من الصوفية الذين اكتشفوا ، من خلال التجربة الدينية المباشرة ، طريقا إضافيا يوصلهم إلى الكشف عن الحقيقة الإلهية . ولكن زعماء الفكر الإسلامى لم يحاولوا قط أن يشيدوا لاهوتا عقلانيا عن طريق تبنى مدلولات ومضامين العلوم الأرسطية . فقد كان المفكرون والتأمليون فى العالم الإسلامى مستقلين [١]؛ يتكسبون عيشهم من العمل كيميائيين ، أو موظفين فى

---

١ - يبدو أن كانتور يفكر فى ضوء تطور المسيحية الغربية ، ولهذا اكتفى برصد ظاهرة استقلال المفكرين الإسلاميين كظاهرة اجتماعية دون أن ينتبه إلى أن الإسلام فى جوهره لايوجد مجالا لرجل الدين المحترف بالمفهوم المسيحى ، كما أنه يمنع قيام أية سلطة دينية على الناس الذين يتساوون جميعا فى كونهم مسلمين يحاسب كل منهم على عمله الذى يتحمل وزره . وكان المفكرون المسلمون يفسرون أمور الدين للناس دون أن تكون لهم سلطة روحية عليهم ودون أن ينالوا على ذلك أجراً . وهذا هو الذى أدى إلى الجسارة التى تميز بها الفقهاء والمفكرون المسلمون فى عصور إزدهار الحضارة العربية الإسلامية . (المترجم)

الجهاز الإدارى ، أو فقهاء وقاضة ، أو مدرسين محترفين . هذه الخلفية الاجتماعية المتمايزة للفكر الراقى فى العالم الإسلامى كانت تعنى من ناحية ، أن المفكرين فى هذا العالم كان يتميزون بالجسارة لأنه لم يكن هناك عائق أمامهم ، سواء تمثل هذا العائق فى قلقهم حول مدى التوافق بين العقل والدين ، أو تمثل فى خوفهم من فقدان وظائفهم بتهمة الدعوة إلى الزندقة . ومن ناحية أخرى ، كان هناك خطر جسيم يتهدد التطور البعيد المدى للفلسفة الإسلامية يكمن فى الفصل بين الزعامة الدينية والزعامة الدنيوية على هذا النحو . ولو أن السنة والصوفية كانوا قد أحسوا بأن الديانة التقليدية كانت فى خطر حقيقى من جراء النشاط الهدام للمفكرين التأمليين ، ولو أنهم استطاعوا الحصول على مساعدة الدولة فى هذا السبيل ، لأخرسوا ببساطة كل تعبير عن الفكر العقلانى . والحقيقة أن هذا هو مابدأ يحدث فى الشطر الأخير من القرن الحادى عشر ، وبعد سنة ١٢٠٠ ، كان التفكير العلمى فى العالم الإسلامى قد انتهى[٢] . هذا التطور البائس يطرح تناقضا مع ماكان يحدث فى الفكر التأملى المسيحى . لأن جميع المؤلفات الفلسفية فى أوربا العصور الوسطى العالية قد أنجزت داخل نطاق المؤسسات التعليمية التى كانت خاضعة للسلطات الكنسية ، ولأن جميع الفلاسفة الغربيين البارزين كانوا من رجال الكنيسة (من الناحية الاسمية على الأقل) فقد كان المفكرون الغربيون فى البداية أكثر إدراكًا للصراع المضنى بين العقل والدين ، وكانوا يتحركون بمعدل أبطأ من حركة المفكرين المسلمين ، ولكن عملهم كان فى مأمن من هجوم المتعصبين لأنه كان يتم تحت رعاية الكنيسة [٣].

٢- فى هذا القول تعميم خطير لايمكن أن نوافق المؤلف عليه. ويبدو أنه يربط بين إنتصار المذهب السنى عقب سقوط الخلافة الفاطمية ، وبين مايزعمه من إنهيار التفكير العلمى فى العالم الإسلامى . ولكن النظر إلى التراث العلمى والأدبى فى شتى صنوف المعرفة خلال العصرين الأيوبى والمملوكى فى الشرق . وماكانت مراكز الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس تتميز به آنذاك ، يكشف عن مدى وهن هذه المقولة العامة وخطئها . وإذا ما استعرضنا أسماء أعلام الحضارة العربية الإسلامية منذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، وحتى الغزو العثمانى فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ، لوجدنا طائفة كبيرة من المفكرين الأصلاء فى كافة وجوه المعرفة . ولكن يبدو أن كانتور يركز فى هذه الدراسة على الناحية الفلسفية فقط فى الثقافة العربية الإسلامية . (المترجم)

٣ - هذه نقطة خلاف أخرى مع المؤلف ، لأن عبارته هنا توحى بأن الكنيسة كانت ترعى حرية الفكر فى العصور الوسطى ، وهو مايتعارض مع الواقع التاريخى تماما . فالواقع أن الفلاسفة الذين نعموا بهذه الحماية هم فقط أولئك الذين ساهموا فى تدعيم مركز الكنيسة وسلطاتها ، على حين اعتبر المخالفون هراطقة تمت مطاردتهم بكافة الوسائل العامة ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فى هذا الكتاب نفسه (المترجم) .

لقد تمت ترجمة مؤلفات أرسطو إلى اللغة العربية فى القرن الثامن ببلاد الشام على أيدى علماء مسلمين اعتمدوا إلى حد كبير على مساعدة القساوسة المسيحيين . ثم انتشرت النصوص المترجمة بمعدل بطئ فى كافة أرجاء العالم الإسلامى حتى وصلت إلى أسبانيا فى القرن العاشر ، وهناك تمت دراستها بعناية فى مدارس الفلسفة والعلوم الكبرى بقرطبة وغيرها من المدن . وكان أول من شرحوا أرسطو وعلقوا عليه باللغة العربية عالم مسلم عرفه اللاتين باسم Avicenna ولكن اسمه العربى هو « ابن سينا » (ت ١٠٣٧) . وكان كاتبًا موسوعيًا إلي أبعد الحدود ، كما كانت إضافاته فى مجال الطب شائعة فى أوربا القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وفى مجال الفكر الفلسفى كان ابن سينا يمثل تراثًا قديمًا لم تكن الأرسطية فيه قد قضت على الأفلاطونية الجديدة تمامًا ، وهو ماتمخض عن نظام فلسفى خاص يمزج بين عناصر التراث الأرسطى والتراث الأفلاطونى الجديد . وتمثلت النتيجة فى خليط من الكل الهيراركى لأفلاطون والعوالم الآلية لأرسطو . وهو نظام فلسفى ساذج للغاية ، ولكنه كان يتعارض مباشرة مع بعض المفاهيم الأساسية للإسلام . كما أنه نفى خلق العالم وأنكر الخلود الشخصى ، محتجا بأن الروح الإنسانية لاتجد حياة أخرى سوى بالاتحاد مع العقل الكلى[٤] .

هذه الاستنتاجات نفسها وصل إليها أعظم فلاسفة المسلمين ، وهو أندلسى اسمه ابن رشد (ت ١١٩٨) ، وهو الذى كانت الكنيسة الغربية تعرفه باسم Averroes . وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية ، فقد استوعب كل الفلسفة الأرسطية من خلال الترجمات وصار أكبر شراح أرسطو فى العالم العربى ، وفى العالم اللاتينى بدرجة كبيرة . وقد وصفه توماس أكويناس بأنه « المعلق » على أرسطو . ولم يتورع ابن رشد عن الفصل بين عالم العلم كما يمثله أرسطو وعالم الدين كما يمثله القرآن. فالعلم يكشف بوضوح عن أن الله هو محرك

---

٤ - يرى الدكتور محمد عاطف العراقى (مذاهب فلاسفة المشرق ، دار المعارف ١٩٧٦م الطبعة الخامسة، ص ١٥٢) أن ابن سينا استفاد من آراء الفلاسفة اليونان وأسلافه من فلاسفة الإسلام وهضمها تماما ، ثم أضاف إليها عناصر جديدة لانجدها عند من سبقه سواء فلاسفة اليونان أو فلاسفة العرب . ونستطيع أن نتعرف عليها من خلال كتاب « الشفاء ، والنجاة » و « عيون الحكمة » و « دانش نامه » والإشارات والتنبيهات وكذلك رسائله الصغيرة فى القسانيات ، وكتابه « القانون فى الطب » . وهذه العناصر الجديدة هى التى جعلت له تأثيرا عظيما فيمن جاء بعده . بعد أن ترجمت كتبه إلى اللاتينية . وفى رأيه أنها لو كانت مجرد صدى وترديد لآراء من سبقوه لما كانت له هذه المكانة التى قلما توافرت لفيلسوف غيره .

(المترجم)

الكون ؛ بمعنى أنه أداة بعيدة تمامًا عن التدخل في الحياة البشرية . كما أن العلم الأرسطي يؤيد خلود العالم وينكر العقيدة الإسلامية عن الخليقة . وأخيراً ، فإن ابن رشد واضح في إنكاره للخلود الشخصي ، وفي تأييده لمذهب العقل العام ، أو الروح الكلية . ولم يكن معنى هذا أن يتخلى ابن رشد عن العقيدة الإسلامية . فقد كان يعتبر نفسه مسلمًا تقيًا ورعًا ، وواجه التناقض بين العلم والدين بالاعتراف الصريح بوجود « حقيقة مزدوجة »[٥]. فهناك حقيقة واحدة للعلم ، وحقيقة أخرى للدين . وليس بمقدور العقل البشرى أن يوفق بينهما . فلا بد أن يكون للجهلاء دينهم . أما المتعلمون فإنهم يعرفون هذه الحقيقة المزدوجة . وقد أغضبت تعاليم ابن رشد زعماء السنة المسلمين . وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن ابن رشد لم يتطاول على المذهب القرآني وصحته ، فإن ما استنتجه من تعارض هذا المذهب مع العلم ، ووضعه للمعرفة العقلية إلى جانب الدين ، ظهر وكأنه محاولة لإهانة العقيدة الإسلامية والحط من شأنها . ومنذ القرن الحادى عشر كانت السلطة السياسية في الأندلس قد انتقلت إلى جماعات المهاجرين من شمال أفريقيا ممن أظهروا نزعة من التعصب والتقشف كانت جديدة على الإمارات الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا . ولم يكن من الصعب على المدافعين عن وسائل المعرفة التقليدية من خلال الدين والتجربة الصوفية أن يقنعوا الأمراء المسلمين باتخاذ تدابير ضد استمرار الاتجاهات الفكرية المتحررة ، فاضمحلت المدارس الكبرى ، وأدين ابن رشد ، وكان على العالم العربى أن يخضع زمنًا طويلاً لطغيان التعصب والجهل . ولكن تعاليم ابن رشد التى وفدت إلى الغرب مع نصوص ترجمات أرسطو ، قيض لها أن تستمر في الوجود ليكون لها تاريخ طويل في أوربا اللاتينية ، وليكون لها تأثير قوى على مجرى الفلسفة المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

والعلاقة بين العقل والدين والفكر اليهودى في العصور الوسطى ، في بعض جوانبها ، تتشابه مع التاريخ الفكرى المسيحى أكثر مما تتشابه مع التجربة الإسلامية . إذ لم يكن

---

٥ - ذهب الرشديون اللاتين إلى أن ابن رشد قال بالحقيقة المزدوجة ، أو الحقيقة ذات الوجهين ، أى أن ماهو صادق في المجال الدينى قد يعد خاطئًا في المجال الفلسفى . وعلى أساس هذا الاعتقاد اندلعت الخلافات حول موقف ابن رشد . انظر :

R.R Walzer , " Arabian philosophy " , Ency . Brit II , p . 195 .

وعن تلخيص آراء هؤلاء حول ابن رشد انظر : محمد عاطف العراقى ، النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد (دار المعارف ١٩٦٨) ، ص ٢٨٧ - ص ٢٩١ . (المترجم)

الفصل بين عالم العلم وعالم الدين واضحًا بين يهود العصور الوسطى مثلما كان عند المسلمين[٦]. فقد كانت الغالبية العظمى بين الربيين اليهود من الأصوليين والفقهاء ، شأنهم في ذلك شأن المفكرين المسلمين . ولكن أفضل المفكرين بين يهود العصور الوسطى ، الذين تولوا أيضًا رئاسة الجماعات الدينية ، حاولوا التوفيق بين العلم والدين ، وإيجاد نمط من اللاهوت العقلاني . وأظهروا من الاهتمام بالوصل بين العقل والدين ، ما يماثل ذلك الاهتمام الذي تدرب عليه ذكاء المفكرين اللاتين وخيالهم ، وقد سبقت أفكار موسى بن ميمون أفكار توماس أكويناس في هذا المجال .

ففي بداية العصر المسيحي كانت هناك بالفعل جماعات يهودية كبيرة خارج فلسطين في مدن شرق المتوسط وبلاد النهرين . وكان تدمير الجماعة اليهودية في فلسطين في أعقاب تمرد فاشل ضد الحكم الروماني في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول سببًا في زيادة حجم هذه المجتمعات في الدياسبورا أو الشتات[٧]. وكانت أهم جماعتين هما الجماعة البابلية ، وجماعة الإسكندرية كبيرة العدد . وكانت هاتان الجماعتان تمثلان موقفين متناقضين تمامًا عن مسألة العلاقة بين اليهودية والثقافة العلمانية . وقد وجد اليهود السكندريون من يتحدث باسمهم في شخص الفيلسوف الكبير فيلون philo ، الذي أظهر التوافق بين اليهودية والفلسفة الأفلاطونية ، وكرس نوعًا من اليهودية الإصلاحية تتشابه في كافة النواحي مع

---

٦ - ينصب كلام كانتور هنا على العلوم الأرسطية باعتبارها العلم الوحيد المتاح آنذاك ، ومن ثم فإنه حين يتحدث عن الفصل بين العلم والدين يقصد الفصل بين الدين الإسلامي والفلسفة الأرسطية . إلا أننا يجب أن نلاحظ أن المسلمين قد طوروا علومهم الخاصة بهم ، والتي كانت أساسًا للحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان المسلمون قد صاغوا علومهم الخاصة بهم فإن هذه العلوم كانت ترتبط بالدين وتتوافق معه بدرجة أو بأخرى. وعلى عكس مايوحي به كلام كانتور ، فإن الدين الإسلامي دين يدعو إلى المعرفة والبحث عن الحقيقة، وليس هناك تعارض إطلاقا بين تعاليم الدين الإسلامي والبحث العلمي ، والدليل على ذلك أن هذا الدين كان عماد الحضارة العربية الإسلامية التي عاشت الدنيا في رحابها زمنًا طويلا . ولم يحدث أن انتصر الإسلام على حساب العلم والمعرفة ، كما أن انتصار العلم لم يكن على حساب الإسلام مثلما حدث في الكنيسة الغربية التي كان انتصار العلم في الغرب الأوروبي هزيمة لها. (المترجم)

٧ - يشير المؤلف هنا إلى التمرد اليهودي ضد الحكم الروماني في فلسطين والذي انتهى بالقضاء على المتمردين اليهود على أيدي قوات القائد الروماني تيتوس (الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد) في سنة ٧٠ ميلادية . وقد روى أحداث هذه الحرب المؤرخ اليهودي « يوسف ماتياس » (٣٧ - ١٠٥) الذي اختار لنفسه اسمًا رومانيا هو « فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus » وقد عرف هذا المؤرخ اليهودي باسم خائن أورشليم نظراً للدور المشين الذي قام به في الحرب اليهودية وانحيازه الكامل إلى الرومان ضد بني جلدته- انظر: Josephus , The Jewish War (transl . by G.A. williamson) penguin 1967 .

يهودية القرن العشرين الإصلاحية . أما الربيون فى الجماعة البابلية فقد اتخذوا موقفا عكسيًا تمامًا . إذا استبعدوا الثقافة الدنيوية من الحياة اليهودية ، وحافظوا على يهودية الفريسيين بأن شادوا حائطا شاهقًا من القوانين الدينية والأخلاقية حصروا الشخص اليهودى فى داخله . هذا المدخل التقليدى الفقهى اليهودى لليهودية وجد التعبير عن نفسه فى التلمود، الذى هو كمية هائلة من الشروح والتعليقات على التوراة تستند إلى اليهودية التقليدية فى طرح نظام فقهى يحول تماما بين اليهود وبين التفاعل الفكرى مع الأمميين (أى غير اليهود) . فكل جانب من جوانب الحياة اليومية لليهودى قد نظمه التلمود ؛ ونتج عن هذا الصراع بين المفهومين المتناقضين للحياة اليهودية (واللذين كانت تمثلهما جماعة الإسكندرية والجماعة التلمودية) المحور الرئيسى فى التاريخ اليهودى حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وبالتدريج خضع يهود غرب أوربا لنفوذ الجماعة التلمودية بسبب تدهور الجماعة السكندرية بفعل الاضطهاد المسيحى فيما بين زمن فيلون والفتح الإسلامى الذى حرر اليهود فى القرن السابع . وقد ازدهر اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى الباكرة بسبب وضعهم كتجار وصيارفة فى وسط مجتمع زراعى . كما أنهم لعبوا دوراً هامًا فيما كان قد تبقى من النشاط التجارى العالمى بين غرب أوربا وعالم البحر المتوسط بعد القرن السادس [٨]. وكانوا يعانون من الاضطهاد بين الحين والحين ، لاسيما فى أسبانيا تحت حكم الفيزيقوط ، ولكن

---

٨ - فى العصور الوسطى الباكرة ازدهرت الجماعات اليهودية بسبب الدور الذى قام به أفرادها فى مجال التجارة والمال فى المجتمع الأوربى الذى كان قد تحول إلى مجتمع زراعى ذى اقتصاد طبيعى يقوم على سد حاجات الاستهلاك المحلى وعلى المقايضة ، وفى مثل هذه المجتمعات تصبح للنقود قيمة هائلة . كذلك لعب التجار اليهود دوراً هامًا فى النشاط التجارى العالمى الضئيل آنذاك ، إذ تركز مابقى من التجارة المحلية بأيدى التجار المحليين negotiatores ولكن تجارة البحر المتوسط البعيدة ، بما كانت تدره من مكاسب وفيرة، ومكانة اجتماعية راقية . ظلت تحت سيطرة التجار الشرقيين من السوريين واليونانيين واليهود . وإذا كانت حركة الفتوح التى قام بها المسلمون لم تتسبب فى قطع أواصر العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، فإنها من ناحية أخرى جذبت التجار السوريين تجاه الأسواق الآسيوية الجديدة المزدهرة التى وفرتها الفتوح الإسلامية فى آسيا . ومن ناحية أخرى لم يفلح الغزو اللمباردى لجنوب إيطاليا فى القضاء على الوجود البيزنطى فى هذه النواحى ، ولكن التجار اليونانيين وجدوا فى سياسة الحكومة البيزنطية مايشجعهم على البقاء فى بلادهم لكى يفيدوا من تجارة المرور التى كانت القسطنطينية من أهم مراكزها . وهكذا بقى لليهود وحدهم القيام بدور حلقة الوصل بين أوربا الكاثوليكية والبلاد الأخرى الأكثر تقدمًا فى العالم الإسلامى والإمبراطورية البيزنطية بل وفى الهند والصين - انظر :

Robert S . Lopez , The commercial ervolution of the Middle Ages , 950 - 1350 Cambridge Univ . press 1976) , pp . 60 - ff .

(المترجم)

الممالك الجرمانية بصفة عامة كانت تجد فى خدماتهم كتجار وصيارفة يقرضون الأموال أمراً نافعًا للغاية بحيث لم تكن تسمح للأساقفة المتعصبين بارتكاب المذابح ضدهم . وقد ازدهر اليهود بشكل خاص تحت حكم الكارولنجيين ، الذين كانوا يقدرون الخدمات الاقتصادية التى كان اليهود يسدونها للمجتمع النامى فى القرن التاسع . وليس حقيقيًا بأى حال من الأحوال أن اليهود فى أوربا المسيحية ، فى العصور الوسطى الباكرة ، كانوا يتعيشون من التجارة وإقراض الأموال فحسب . ففى بعض الأماكن كان مسموحًا لهم بامتلاك الأراضى ، ومع مطلع القرن الحادى عشر كان بعضهم يملك ضياعًا شاسعة فى إقليم جنوب فرنسا حيث تنمو الكروم .

ويأتى الخط الفاصل فى تاريخ اليهود فى أوربا المسيحية فى منتصف القرن الحادى عشر . ذلك أن النزعة العسكرية الجديدة التى استولت على المسيحية اللاتينية ، وازدياد حركة التدين الشعبى قد ساهمت فى تصاعد موجة معاداة اليهود Judophobia بمعدل رهيب ، وهو العداء الذى عبر عن نفسه تعبيراً دراميًا فى المذابح التى ارتكبها الصليبيون فى تسعينيات القرن الحادى عشر . فضلا عن أن التغيرات التى طرأت على الحياة الاقتصادية والسياسية تسببت فى تدهور أوضاع اليهود . فقد أدى تطوير وتحسين النظم والمؤسسات الإقطاعية إلى استحالة امتلاك اليهود للأراضى ، لأنهم لم يكونوا يقدرون على أن يقسموا الأيمان الضرورية والعهود اللازمة لعلاقة التبعية الإقطاعية . كما أن نمو نقابات التجار التى قيض لها أن تسيطر على التجارة العالمية ، أدى إلى استبعاد الوسطاء اليهود من حقل العمل . وفى مطلع القرن الثانى عشر كان الربا هو المورد الرئيسى لليهود . وقد فسر الربيون اليهود التحريم الوارد فى الكتاب المقدس ضد الربا تفسيراً يجعله قاصراً على التعامل داخل الجماعات اليهودية وحدها ، بل وأباحوا التعامل بالربا بين اليهود والأمميين . والواقع أن زعماء الكنيسة المسيحية قد توصلوا إلى نفس الاستنتاج . إذ أنهم فسروا نفس الأقوال الواردة فى الكتاب المقدس على أنهم تحريم للمعاملات بالربا بين الإخوة المسيحيين (على الرغم من أن هذا التحريم كان ينتهك فعلا على أوسع نطاق) ، كما أنهم أباحوا التعامل بالربا مع الأمميين واليهود . ولم تكن تلك مسألة مذهبية في جوهرها ، وإنما كانت مسألة اجتماعية اقتصادية . فقد كان اليهود يملكون رأس المال ، ولم يكن أمامهم سبيل للعيش سوى بإقراض الأموال . وكانت التجارة والصناعة الأوربية النامية تحتاج إلى خدمات اليهود ، كما كان النبلاء المبذرون ورجال الكنيسة المفلسون، والحكومات الملكية الناشئة تحتاج إلي هذه الخدمات . وكان المرابون اليهود يقرضون

أرباحًا عـاليـة – تصل أحيـانا إلى خـمسين فى المائة من أصل المبلغ . ولم يكن السبب فى هذا راجعًا إلى أنهم كانوا قبيلة من أمثال شايلوك ولكن لأن ثمـة مخاطر جسيمـة تهدد أعـمالهم . إذ كان من الصعب تمامـا استرداد قروضهم طالما كـان المدينون يتمتعـون بمكانة فى ساحات القضاء كانوا هم أنفسهم يفتقرون إليها . وكانوا يعتبرون أنفسهم محظوظين إذا تمكنوا من استرجاع نصف المبالغ التى أقرضوها كذلك كان المرابون من غير اليهود يفرضون هذه النسبة العالية من الأرباح مثل اليهود . ومع هذا فقد تزايد نشاط المرابين اليهود .

إن نزعة معاداة السامية تعود إلي عصر الإصلاح الجريجورى والحملة الصليبية [٩] . ومـع منتصف القرن الثاني عشر أدى ظهور افتراءات الدمـاء – وهى الأساطير التى تتحدث عن قيام اليـهود بطقوس لذبح الأطفال المسيحيين – وغيرها من دلائل الكراهيـة الشعبيـة ضد اليهـود ، إلى تكرار المذابح ضدهم . وكانت الحمـاية التى تمتع بها اليـهود والتى فرضـها الملوك والأمراء فى مواجهة المذابح ، ذات ثمن فادح . ومع مشرق شمس القرن الثالث عشر كان يهود أوربا قد تحولوا فعلا إلى عبيد لحكومات الدوقات والملوك الذين أباحوا لهم التعامل بالربا وسمحوا لهم بالبقاء على دينهم ، وحموهم من القتل الجماعى ، مقابل مبالغ طائلة كانوا يسددونها للخزائن الملكية التى استخدمتهم كوسائط لابتزاز الأموال من الجماهير المطحونة .

وحتى قبل تدهور الوضع الاقتصادى والاجتماعى لليهود ، كانت الحياة الداخلية فى الجماعات اليهودية فى غرب أوربا تتجه نحو مسايرة مفاهيم اليهودية التلمودية ، ولكن لم يحدث سوى عند نهاية القرن الحادى عشر أن انفصل الفكر اليـهودى تماما عن التراث الكلاسيكى والثقافة الدنيوية العامة . ففى ذلك الوقت كانت الجماعات اليهودية فى أوربا

---

٩ – الواقع أن الاضطهادات التى تعرض لها اليهود فى أثناء الحركة الصليبية كانت نتاجًا لظروف خاصة مختلفة عن ظروف الاضطهادات التى لحقت بهم فى عصور وأماكن أخرى ، ولكن هناك ميلا دائما لدى المؤرخين اليهود إلى مناقشة الموقف الصليبى من اليهود فى إطار الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية. والحقيقة أن هناك من المؤرخين المسيحيين من يجاريهم فى هذا الموقف (انظر التعقيب الذى كتبه د . محمد خليفة حسن فى كتاب عالم الصليبيين ترجمة د . قاسم عبده قاسم ود . محمد خليفة حسن ، دار المعارف ١٩٨٠ ، ص ٢٤٦ – ص ٢٧٤) انظر أيضًا :

J.Parkes , The conflict of the church and the synagogue , A study in the origins of Anti-semitism (New York 1969) .

وفى رأينا أن هذا الموقف الفكرى يعتبر تحايلا على الواقع التاريخى وليا لعنق الحقيقة التاريخية لصالح الموقف الدعائى للحركة الصهيونية . فدراسة الحملة الأولى ، مثلا ، تكشف عن أن الاضطهادات التى واكبت الحركة الصليبية لم تكن سوى إفراز للواقع التاريخى فى أوربا القرن الحادى عشر ، وهو واقع يختلف بطبيعة الحال عن القرون اللاحقة وماحدث لليهود فى أوربا أثنائها . (المترجم)

المسيحية تسير على هدى نموذج عام . فقد كان يتولى حكم الجماعة صفوة صغيرة من العائلات الرأسمالية أو الربانية لها حق قيادة جماهير اليهود الذين كانوا من الحرفيين وصغار التجار . وإذ حيل بين اليهود وبين المجتمع المسيحي والثقافة المسيحية ، فقد كان هَمُّ الصفوة هو العمل على تقوية الطبيعة التعاونية فى الطائفة اليهودية من خلال التطبيق المنظم لقوانين التلمود . أما المفكر البارز الذى يمثل هذه الصفوة فهو راشي Rashi (الربى سليمان بن اسحق ت ١١٠٥) الذى كان رئيس الجماعة اليهودية في تروى Troyes . وقد انحصر نشاطه الفكرى كله فى نطاق التراث التلمودى إذ أنه أضاف شروحًا جديدة على التوراة لكى يوفق بين مفاهيمها الأخلاقية والفقهية والحاجات اليهودية في زمانه . ولاتزال شروح راشى على الكتاب المقدس ذات قيمة بالنسبة لليهود ، كما أن شروحه على الهوامش ماتزال تُطبع على نطاق واسع مع النص العبرى للكتاب المقدس . وتتميز تفسيراته بموقفها النفعى المتعقل الذى يتناقض بشدة مع التفسير المغرق فى الرمزية الذى طرحه فيلون ، والذى استخدمه العلماء المسيحيون على نطاق واسع . ولهذا السبب وجد بعض العلماء المسيحيين فى القرن الثانى عشر شيئًا طريفًا ومضيئًا فى مؤلفات راشى . كانت عقلية راشى عقلية متوقدة فطنة ، كما كان على وعى بمشكلات الحياة اليومية التى كان بنو جلدته يواجهونها . وقد حاول أن يبين لهم سبيل المحافظة على المفاهيم الأخلاقية والشرعية فى الكتاب المقدس فى غمار الظروف التى كانت تتدهور بسرعة . وبهذا أسدى خدمة جليلة للجماعات اليهودية الأوربية طوال القرون الثمانية التالية . إلا أن شروح راشى وتعليقاته عادية وغير ذات أهمية فى قيمتها الفكرية . فهى لاتتميز بالنزعة الصوفية ، كما تخلو من أية محاولة للربط بين اليهودية والعلم والفلسفة. وإنما هى تكشف بوضوح شديد عن الفقر الفكرى الذى أناخ بكلكله على اليهود فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى .

وقد تدهور الموقف اليهودى فى أوربا المسيحية بصورة متزايدة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . إذ أن مجمع اللاتيران الرابع فى سنة ١٢١٥ أوصى بعزلة اليهود التامة ، وأصدر قراراً بأن على جميع اليهود أن يرتدوا العلامات الصفراء كناية عن مكانتهم كمنبوذين. ومع ظهور المؤسسات المالية المسيحية أخذت الخدمة التى كان بمقدور الرأسماليين اليهود أن يؤدوها فى التدهور المستمر . وكانت النزعة التقليدية التى روج لها أفراد الصفوة من الأحبار والربيين نزعة سلفية معادية للفكر الفلسفى . ولا غرو أن يتحول بعض اليهود إلى

المسيحية فى ظل هذه الظروف . ولكن عدد اليهود الذين هربوا من التزاماتهم ومن الاضطهاد باعتناق المسيحية كانوا يشكلون أقلية ضئيلة للغاية . وإذ لم يستطع اليهود المضطهدون فى القرن العشرين الهروب من موجات معاداة السامية ، كذلك لم يكن اليهود فى العصور الوسطى يحصلون على حريتهم سوى باعتناق المسيحية . ومع هذا كانت حالات اعتناق اليهود للمسيحية قليلة لأسباب ثلاثة : أولها أن إحساس اليهود بالعناية الإلهية ونظرتهم الأخروية قادتهم إلى الإيمان بأن عصر الاضطهادات ليس سوى تمهيد لمجئ المخلص وخلاصهم الوشيك . وثانيها أن الطبيعة التآزرية للطائفة اليهودية فى العصور الوسطى كانت تترك المتَنصرِّين الذين هجروا عائلاتهم وطائفتهم مكشوفين تماما لأنهم تركوا طائفتهم الاجتماعية ودخلوا فى رحاب العالم المسيحى . وثالثها أنه بينما كانت الكنيسة ترحب باليهود المتنصرين وتكافئهم كانت جماهير العلمانيين تعاديهم خوفًا من المنافسة الاقتصادية من جانب اليهود المتنصرين .

وفى العقد الأخير من القرن الثالث عشر قام ملك إنجلترا وملك فرنسا بطرد اليهود من بلادهما استجابة لمشاعر الكراهية الشعبية من جهة ، ورغبة فى الاستيلاء على ممتلكات اليهود من جهة أخرى . وقد انتقل كثيرون من اليهود المطرودين إلى ألمانيا فى الشرق حيث كان يعيش عدد كبير من اليهود فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهناك تحدث اليهود باللغة الألمانية التى تحولت على لسانهم لى اللغة اليدية Yiddish الحديثة بعد إضافة بعض مفردات عبرية وكتابتها بالحروف العبرية . وهناك أيضا عانى اليهود مرة أخرى من ويلات المذابح الجماعية . وقد أدى هذا إلى دفع اليهود إلى الهجرة صوب الشرق إلى بولندا وروسيا حيث كان ينتظرهم المزيد من العذاب .

ولاشك فى أن اليهود كانوا أكثر المجموعات الجنسية أو اللغوية تعليمًا فى مجتمع العصور الوسطى . وكان انفصالهم عن الثقافة الأوربية العامة بعد القرن الحادى عشر ، نتيجة الاضطهادات والعزلة من ناحية ، وبسبب تعليمات الربيين المتشددين من ناحية أخرى ، خسارة فادحة للحياة الفكرية فى عالم العصور الوسطى وعقبة كؤوداً فى سبيل تقدم الحضارة الغربية. ويمكن إظهار مدى فداحة هذه الخسارة بمقارنة المساهمة اليهودية الضئيلة فى ثقافة أوربا بالإنجازات التى حققوها فى الأندلس[١٠] .

---

١٠ - يقوم هذا الرأى على أساس من النظرة العنصرية المتعصبة التى تحاول القول بأن اليهود شعب متفوق . وأصحاب هذا الرأى ، وهم من اليهود ، يحاولون باستمرار أن ينسبوا كل الإنجازات الحضارية فى=

فقد كان وضع اليهود فى أسبانيا الإسلامية حتى نهاية القرن الحادى عشر أفضل كثيراً منه فى أى بلد أوربى آخر من عدة وجوه . فالواقع أن الأمراء العرب قد تقبلوهم على أساس المساواة ، وارتقى اليهود المناصب العليا فى الجهاز الحكومى ، كما لمعوا فى التجارة وفى المهن الثقافية ، ولاسيما الطب ، وخلال القرن العاشر والقرن الحادى عشر ازدهرت طائفة من اليهود الأرستقراطيين الذين عملوا فى بلاط الحاكم فى مراكز الحكم الإسلامى . وللمرة الأولى، بين زمن فيلون السكندرى والقرن الثامن عشر ، يتم قبول جماعة يهودية كبيرة داخل المجتمع وتتاح لها فرصة المشاركة فى كافة جوانب الحياة . ونتيجة لهذا انجذب العلماء اليهود فى الأندلس صوب الثقافة الدنيوية ، وبذلك قدموا المساهمة الوحيدة من جانب اليهود فى ثقافة العصور الوسطى العالية . وكان هناك قدر كبير من التنوع فى التناول اليهودى للتعليم والمعرفة يساوى ماكان يحدث فى العالم المسيحى تقريبًا . ذلك أن بعض المفكرين اليهود كانوا يؤيدون الأفلاطونية الجديدة :وكان أبرز المعبرين عن هذه المدرسة أفيسبرول Avicebrol (سليمان بن جبريل . ت ١٠٥٨) . وأهم كتبه هو كتاب « نافورة الحياة » الذى ترجم إلى اللغة اللاتينية وانتشر على نطاق واسع فى كافة أرجاء أوربا المسيحية . ومقالة سليمان بن جبريل الأفلاطونية الجديدة مقالة فلسفية خالصة ، وليس فيها مايمكن أن يدل على أن كاتبها يهودى . والحقيقة ، أنه لم يتم التعرف على مؤلف هذه المقالة سوى فى القرن التاسع ؛ فقد كان العلماء اللاتين فى العصور الوسطى يفترضون أنها كتبت بقلم مؤلف مسيحى .

وثمة جانب آخر من جوانب الثقافة اليهودية فى الأندلس تمثل فى أكبر شاعر عبرى فى العصور الوسطى ، هو يوداه هاليفى Judah Halevi (وتوفى حوالى سنة ١١٤٠) ، وكانت أولى قصائده تدور حول موضوعات الحب الدنيوى ، وهى موضوعات شبيهة بموضوعات شعراء التروبادور البروفنساليين والشعراء العرب أيضًا فى تلك الفترة . وهناك نغمة تدور حول

= التاريخ الإنسانى لليهود . والقول هنا بأن الإنجاز الثقافى لليهود فى الأندلس مرجعه إلى العبقرية اليهودية التى أتاح لها التسامح الإسلامى سبيل الظهور . قول مردود لأن الناظر فى تراث الحضارة العربية الإسلامية . سوف يكتشف على الفور أن المساهمات فى هذه الحضارة من غير المسلمين لم تقتصر على اليهود، فهناك أسماء عديدة لمسيحيين تألقوا داخل دار الإسلام وساهموا فى هذه الحضارة التى قامت على أساس من حرية العقيدة والتسامح .

كذلك فإن القول بأن اليهود « مجموعة جنسية » مغالطة تاريخية كبير فى إطار الموقف الدعائى للحركة الصهيونية ، فلم يكن اليهود جنسًا خالصًا قائمًا بذاته ، وإنما هم أتباع ديانة شأنهم فى ذلك شأن الجماعات التى تعتنق ديانات أخرى . (المترجم)

الشذوذ الجنسي تفرض نفسها على هذه القصائد بشكل عام . وعلى أية حال ، تبدو قصائد هاليفي ذات نغمة معادية للفكر محلية الرؤية ؛ فلأنه كان يعيش في مجتمع غني تخلق فيه كثيرون من اليهود بأخلاقيات البيئة التي عاشوا في رحابها ، فقد اهتم بالحفاظ على اليهودي التقليدي ، كما صار هو العدو اللدود للثقافة اليهودية الدنيوية . وعلى أية حال ، فإنه كان إنساني النزعة بحيث لايمكنه اعتناق الرؤية الفقهية التي تميز اليهودية التلمودية . وأعظم كتب هاليفي هو الكوزاري Kuzari الذي جاء إلهامًا لنوع من الوطنية الخيالية ، وهو نمط من الصهيونية البدائية لايقصر اهتمامه على التراث القانوني والديني اليهودي ، وإنما يروج لفكرة التفوق الأخلاقي للشعب اليهودي . وقد لقي كتاب الكوزاري رضاء الصهاينة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، لسبب واضح هو أنه « إذا تحملنا النفي والإهانة في سبيل الرب ، كما هو حادث بالفعل ، فإننا سوف نفخر بالجيل الذي سيأتي بالمخلص ويعجل بيوم الخلاص الذي نأمل فيه ... وينحصر دور الأمميين في تمهيد الطريق أمام المخلص المنتظر ، الذي هو الثمرة ، وسيكونون جميعًا فاكهته . ثم إذا اعترفوا به سيكونون جميعًا شجرة واحدة ... وسوف يمكن إعادة بناء أورشليم فقط حين تحترق إسرائيل شوقًا إليها إلى المدى الذي يجعل الإسرائيليين يقبلون أحجارها وترابها » لم يكن أسلوب هاليفي مجرد أسلوب قوي جذاب ، ولكن المثل والقيم التي روّج لها في كتابه الأخير كانت تحمل نغمة متمايزة ذات نزعة وطنية خيالية وعدوانية ، وهي النزعة التي كانت مصدر إلهام الحركة الصهيونية فيما بعد . وربما يمكن القول، بأن هاليفي قد سبق عصره بثمانية قرون . وحين مات وهو في رحلة حج إلى الأرض المقدسة انتهت بموته محاولة بناء قوة ثالثة في الحياة اليهودية لاهي تلمودية ولاهي فيلونية .

ولكن سليمان بن جبريل ، وهاليفي ، أوغيرهما من الكتاب اليهود في الأندلس لم يسترعوا انتباه معاصريهم مثل ذائع الصيت موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤). فقد كان سليل أسرة بارزة من الربيين في الأندلس ، وكان أشهر علماء التلمود في زمانه ، وفي رأى البعض أنه كان أعظم علماء التلمود في كل العصور . وفي الوقت نفسه ، كان قد وجه اهتمامه إلى الفلسفة والعلوم اليونانية ، واهتم بدراسة العلاقة بين الأرسطية واليهودية ، كما اهتم بأن يوضح أن ديانته يمكن أن تتوافق مع أسمى الجوانب العقلية .ومن ثم فإنه عمل على سد الفجوة الفاصلة بين المعرفة التلمودية والمذهب الأرسطي . وكان ذلك عملا غاية في الصعوبة ، ولفت انتباه العلماء اليهود تمامًا . فقد كان ابن ميمون رجلا مستقلا يتدفق حيوية،

ولم يكن ممكنا أن يعوقه شئ عن إنجاز عمل اختار لنفسه أن يقوم به ، حتى ولو ساءت أحواله وظروفه الشخصية . ففى القرن الثانى عشر عانى اليهود من اضطهاد المتعصبين المسلمين الذين تولوا السلطة فى الإمارات الأندلسية . ذلك أن النزعة الدينية العسكرية التى آذت اليهود فى العالم المسيحى ، بدأت تهاجم يهود الأندلس أيضا . وهرب موسى بن ميمون وعائلته إلى شمال أفريقيا ، حيث اعتنق الإسلام ظاهريًا . وفى السنوات الأخيرة من حياته لم يكن يرى بأسًا فى هذا . ومن شمال أفريقيا هاجرت أسرته إلى مصر ، حيث صار موسى بن ميمون طبيبًا لوزير صلاح الدين ، ولم يمنعه هذا من أن يواصل عمله فى التعليق على الكتاب المقدس ، أو محاولة الوصل بين المذهب الأرسطى والدين اليهودى .

وتمثلت نتيجة أعمال موسى بن ميمون فى شروح جديدة ضخمة على العهد القديم فى كتاب « دليل الحائر » الذى يعتبر نموذجًا للفكر اليهودى فى العصور الوسطى . هذا الكتاب كان الهدف منه مساعدة اليهود المتعلمين فى مواجهة التناقض بين العلم والدين . وقد استبعد موسى بن ميمون مذهب ابن رشد عن الحقيقة المزدوجة ، مثلما فعل توماس أكويناس من بعده. وقد زعم أن وراء العلم والدين حقيقة واحدة أعطاها الله . وكانت تلك عاطفة نبيلة ، إلا أن موسى بن ميمون مر بوقت عصيب للغاية فى سبيل الحفاظ عليها ؛ إذ يبدو أن كتابه قد زاد من حيرة اليهود بدلا من هدايتهم . ففى سبيل الوصول إلى النتائج التى كان يبتغيها ، كان عليه أن يغوص فى مذاهب أرسطو ، وينغمس فى نوع من الكناية والتورية فى قراءة الكتاب المقدس مثلما فعل فيلون من قبل للتوفيق بين اليهودية والأفلاطونية . وكان من رأى موسى ابن ميمون أن الله هو المحرك الأول حقًا ، ولكن المفهوم الأرسطى عن الألوهية لم يتناول سوى جزء من طبيعة الله ؛ الذى هو أيضا الله الواحد الذى تدين به اليهودية والذى يتدخل باستمرار فى شئون البشر . وحاول موسى بن ميمون عبثا أن يبين أن خلق العالم يمكن أن يجد له سنداً من العقل ، بيد أنه كان عليه أن يعترف بأن أدلته كانت مجرد أدلة ترجيحية ولم تكن مؤكدة. وكان هذا كافيًا لتوجيه النقد المرير إليه من زعماء اليهودية التلمودية التقليدية . وعلى أية حال ، فإنه ورّط نفسه فى أكبر المصاعب عندما بدأ يناقش مسألة الخلود . فمن المثير للسخرية، أن ابن ميمون نفسه كان قد لعب دوراً رائداً فى جعل خلود الروح مبدأ أساسيًا من مبادئ العقيدة اليهودية . وليس هناك مثيل لهذا المذهب فى الكتاب المقدس . وقد جلب إلى اليهودية من فارس فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح على أيدى الفريسيين ، وكان العلماء اليهود يتوجسون منه خيفة على الدوام . ولكن بعد جعل الخلود العام الذى أقض مضاجع

الفلاسفة المسلمين الذين تبنوا المذهب الأرسطى . ويدا فى النهاية أنه يؤيد مذهب ابن رشد عن الخلود من خلال الاتحاد مع العقل الكلى . وقد أدت تعاليمه المحددة وموقفه العقلى العام الذى انتهجه فى كتاب « دليل الحائر » إلى إثارة السخط والخوف فى نفوس زعماء اليهود الربيين . وأدين بالهرطقة ، وبينما صار الملخص الذى كتبه للقانون اليهودى مرجعًا ، حُرِّمت مؤلفاته الفلسفية ولقيت تجاهلاً تامًا ، ولم يعاود العلماء اليهود دراستها سوى فى القرن التاسع عشر . وقد عارضه بعض نقاده فى البروفانس ، حيث كانت توجد مدرسة الدراسات التلمودية الكبرى ، معارضة مريرة لدرجة جعلتهم يطلبون من محاكم التفتيش أن تحرق مقالاته الفلسفية ، وهو طلب أثلج صدور المسئولين عن محاكم التفتيش أن يلبوه . ويمكن القول ، دفاعًا عن موقف الربيين البروفنساليين ، أنهم كانوا يخشون أن يؤدى انتشار مقالات ابن ميمون ذات النزعة الأرسطية إلى أن يوجه المسئولون عن محاكم التفتيش اللوم إلى اليهود ويتهمونهم بالتحريض على نشر الهرطقة المسيحية .

وهكذا انتهت محاولات كبار المفكرين المسلمين واليهود لتناول العلاقة بين الدين والعلم الأرسطى الجديد بهزيمة وكارثة فى مطلع القرن الثالث عشر . إذ انصرف العالم الإسلامى عن العلم الأرسطى لأن الزعماء الدينيين اعتبروه خروجًا على الدين ، وكان أولئك قادرين على الحصول على مساعدة الحكام المتعصبين فى القضاء على الفكر العقلانى المتحرر . ولاشك فى أن التدهور العام الذى لحق بروح الإبداع في الحضارة الإسلامية قد لعب دوراً فى القضاء على الحركة الفلسفية والعلمية العظيمة فى العالم العربى . وفى الوقت نفسه أدارت اليهودية ظهرها للفكر والعلوم الدنيوية ، من ناحية بسبب عداء الربيين المتشددين لهذه العلوم ، وبسبب عزلة اليهود الأوربيين التى بدأت فى القرن الثانى عشر من ناحية أخرى . وقد أدى هذا إلى فصل العلماء اليهود عن علوم الحضارة الغربية وفلسفتها طوال قرون ستة ، كما انحصر الفكر اليهودى فى نطاق الدراسات التلمودية الغامضة . وفى العصور الأخيرة من تاريخ الثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية لم يكن مسموحًا سوى للصوفية أن تقوم كطريق إضافى إلى جانب الطريق الأصلى الذى يقود إلى الحقيقة الموجودة فى رحاب الدين . وبعد سنة ١٢٠٠ ، لم يكن هناك سوى المفكرين المسيحيين فى غرب أوربا يطرحون الفرصة لبناء نظام فكرى جديد يأخذ فى حسبانه التحدى الأرسطى .

الفصل السابع عشر
تنوع التجربة الدينية

١ - مشكلة التدين :

بغياب شمس القرن الحادى عشر كانت الكنيسة قد استطاعت أن تفرض قيمها ومثلها العليا على المجتمع . إذ كانت طبقات ملاك الأراضى يأخذون المسيحية مأخذ الجد ، بل إن الفلاحين بمستواهم الفكرى بمستواهم الفكرى الأدنى كانوا يأخذونها مأخذ الجد ؛ إذ كانت المسيحية قد انتشرت فى قراهم إنتشاراً فعليا بفضل نظام الأبرشيات . وكانت مشكلات التدين من حقائق الحياة بالنسبة للناس فى غرب أوربا . ولأنهم كانوا يأخذون الإيمان مأخذ الجد، فقد حاولوا بمختلف الوسائل أن يتواءموا مع المثل العليا المسيحية . ومن خلال بحثهم عن تعبير كاف عن تدينهم نتجت آثار عميقة تركت بصماتها على جوانب عديدة من جوانب حضارة العصور الوسطى . فقد كان فن البناء ، والفن التشكيلى ، والشعر اللاتينى ، والموسيقى الكنسية فى القرن الثانى عشر من نتائج هذا التدين العميق . ولكن زعماء الكنيسة انتابهم القلق لاهتمامهم بالسيطرة على الشعور الدينى وتوجيهه فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر . فقد كان التعبير عن موجة التدين الجديدة قبل سنة ١٠٥٠م مسألة بسيطة إلى حد ما . إذ كان الرجال الأتقياء والنساء الورعات ممن كانت تملكهم مشاعر قوية تدعوهم إلى حياة الرهبنة بحيث ينفصلون عن عائلاتهم وينضمون إلى الجماعات البندكتية المستمرة النمو . أما أولئك الذين لم يكن بمقدورهم أن يكونوا رهبانا ، فقد ساعدوا الرهبان الكلونيين وغيرهم من البندكتيين بمختلف أنواع الهبات والخدمات . ولكن بعد منتصف القرن الحادى عشر ، صارت أشكال التجربة الدينية أكثر تنوعًا . إذ لم يعد الشكل الكلونى للديرية يشبع النزعات التقشفية لدى كثيرين ممن ألهمتهم موجة التدين الجديدة ، فأخذوا ينشدون تعبيرات تنظيمية جديدة عن النزعة التقشفية . وكانت النتيجة أن تكاثرت النظم الديرية فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر بدرجة هائلة . وقد وجد الكثيرون ممن لم يشاركوا فى هذه الموجة الجديدة من الإنسحاب التقشفى من العالم ، لاسيما بين جماهير سكان مدن غرب أوربا - وجدوا مايشفى غليلهم فى ذلك النمط من التدين الشعبى الذى أرسى مذاهبه المبشرون الشعبيون . وما أن مالت شمس القرن الثانى عشر للمغيب حتى

واجهت القادة الكنسيين مهام مفزعة لم يسبق لها مثيل ، فقد كان عليهم أن يتحكموا فى عملية تكاثر النظم الرهبانية الجديدة ، وأن يوجهوا النزعة التقشفية إلى الوجهة التى تجعلها ذات فائدة بالنسبة للكنيسة والمجتمع ، وأن يوجدوا وسائل وسبلا جديدة لارواء الشوق المتأجج فى صدور العلمانيين ، كما كان عليهم أن يقضوا على الانقسامات التى نجمت عن الهرطقة الشعبية .

٢ - تنظيم الزهد :

كان الشمال الإيطالى ، عند نهاية القرن الحادى عشر ،مسرحا للإرهاصات الأولى لثورة شاملة فى الديرية الغربية . ذلك أن الاهتمام الجديد بالزهد والاتجاهات النسكية الجديدة كانت قد بدأت تصبح بمثابة الواجهة للحياة الدينية . ولم يحدث أبداً أن احتل شخص الناسك فى الديرية الغربية تلك المكانة الهامة التى كانت له فى العالم المسيحى الشرقى . إذ أن الممارسات التقشفية المتطرفة لم تكن من خصائص الحياة البندكتية فى دستورها الأصلى . ولاحتى فى شكلها الذى اتخذته فى العصر الكارولنجى ، أو فى الديرية الكلونية . وكان ظهور المدن فى شمال إيطاليا فى أواخر القرن العاشر ، مع وجود فرص الثراء والراحة ، قد أوجد فى أوربا ، وللمرة الأولى ، غواية الحياة المرفهة التى يثور الناسك المتقشف ضدها . ففى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية ظهر نمط الناسك - القديس فى شمال إيطاليا ؛ الذى انسحب من العالم ليهرب من الانحطاط الروحى الماثل فى حياة البلاط فى قصور الأمراء وفى حياة المدن الغنية ، ولكنه كان يعود بين الفينة والأخرى ليبشر بنوع من الإحياء الأخلاقى والروحى بين جماهير المدن ، وقُيض لهذه النزعات التقشفية والنُسكية القوية لدى أولئك النساك - القديسين الموجودين فى كل مكان أن يصيروا هم التيار الأساسى فى الحياة الدينية فى شمال إيطاليا على مدى القرون الثلاثة التالية .

وبمنتصف القرن الحادى عشر كانت الحركة الديرية قد اتخذت شكل حركة واسعة الانتشار فى المنطقة الواقعة مابين روما وجبال الألب ، وأسس بعض أولئك الزهاد جماعات ديرية استطاعت أن تطرح تناقضات قوية مع الحياة البندكتية السائدة . فقد أسس نظام الكمالدولى Comaldoli جماعة ديرية من النساك عاشوا فى قلايا انفرادية . كذلك ثار دير جماعة فالومبروسا Vallombrosa ، قرب فلورنسا ، ثورة واعية ضد الحياة الكلونية ، وكان يهدف إلى الالتزام الصارم بما جاء بالدستور الأصلى الذى وضعه سان بندكت . وفى سبيل الجاز هذا

الهدف ضم فالومبروسا إلى جماعته بعض الأخوة العلمانيين من غير المتعلمين إلى جانب القساوسة القادرين على القيام بالخدمة الكنسية . هذا الفصل بين الأخوة العلمانيين والكنسيين داخل النظام نفسه ، والذى أتاح الفرصة لغير المتعلمين من أبناء الطبقة الدنيا للإنخراط فى سلك الرهبان ، كان تغييراً ثوريًا سارت النظم الديرية الجديدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر على نهجه .

وفى شمال الألب ظهرت نزعة تقشفية مماثلة فى منتصف القرن الحادى عشر ، على الرغم من أنها لم تصل أبداً إلى المدى الذى وصلت إليه الديرية الإيطالية فى تمسكها بحياة النسك والتقشف . ويظهر أول تغير هام فى هذا الصدد سنة ١٠٤٣ بتأسيس « بيت الرب » بالقرب من ليون ، على يد راهب كلونى سابق أضجرته الحياة الدينية فى أكبر أديرة الغرب الأوربى . وخلال نصف القرن التالى كانت هناك اعتراضات مماثلة عل النموذج الكلونى تدعو إلى حياة دينية أكثر خشونة فى إطار جماعات ديرية تقلل من ارتباطها وتداخلها فى المجتمع والتزاماته وإغراءاته الماثلة ، مثلما كانت عليه الحال قبل عدة قرون خلت . ولاشك فى أن عملية الاستعمار الداخلى فى أوربا آنذاك قد شجعت المتقشفين على تأسيس صوامع (قلايا) صغيرة فى مناطق الحدود يعيشون فيها اعتماداً على مواردهم الخاصة فقط . وفى أراضى الراين وجنوب فرنسا أيضا يظهر نمط القديس المبشر الرحال قبل نهاية القرن الحادى عشر ، بالشكل الذى أكدته تماما الحملة الصليبية الشعبية فى سنة ١٠٩٥ .

وقد ساهمت التقلبات التى تعرضت لها حركة الإصلاح الجريجورى مساهمة قوية فى تزايد تأثير هذه الاتجاهات الجديدة داخل الديرية الغربية . إذ كان الجريجوريون قد أخذوا إلهامهم الأول عن النزعات التقشفية الجديدة فى القرن الحادى عشر ، كما أن جميع قياداتهم قد خرجت من طيات هذه الحركة . وفى حركة الإصلاح الجيجورى اتخذت حركة الزهد شكلا تطهريا ؛ ذلك أنها كانت تحاول أن تخلق عالما يمكن أن يكون مناسبا للحج إلى مدينة الله دونما عوائق . وقد كشف الفشل الذى حاق بحركة الإصلاح عن أن حركة الزهد لايمكن أن تأمل فى فرض مثلها العليا على المجتمع ، لأن ذلك يعنى أن تحول العالم بأسره إلى دير يرأسه رئيس عالمى يفرض الطاعة على الحكام جميعا . كذلك أتت بابوية جريجورى السابع إلى المسيحية بالسيف بدلا من السلام ، ولم تستطع أن تحقق لها المزيد من القوة ، وإنما جلبت عليها الانقسامات العنيفة والفوضى والشكوك . ومن ثم أدار كثيرون من أفضل الناس ظهورهم للعالم فى

السنوات الثلاثين الأولى من القرن الثالث عشر سعيا وراء خلاصهم وسلامهم مع الرب بعيداً عن العالم وفى إطار الجماعات الديرية الجديدة التى كان هدفها الإنسحاب من العالم تماما . وقد وقعت كثير من الأديرة القديمة (منها دير كلونى برئاسة بطرس المبجل فى الرابع الثانى من القرن الثانى عشر) تحت تأثير النزعة الجديدة للإنسحاب من العالم .

هذه التغيرات الخطيرة ، التى جرت على الحياة الديرية الغربية كانت نتيجة لتضاءل قيمة الرهبان بالنسبة للمجتمع . وفى أخريات القرن الحادى عشر ، وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم تعد الخدمات التى ظل الرهبان البندكتيون يسدونها للحضارة الغربية ، على مدى قرون ، مطلوبة فى المجتمع . وكان التطور الأول والأكثر حسما فى هذا الصدد هو فقدان الرهبان لسيطرتهم على التعليم العالى . إذ كانت المدرسة الديرية تقوم بالوفاء بالحاجات التعليمية الضرورية للمجتمع قبل القرن الحادى عشر – أى الحفاظ على القاعدة الأساسية من المتعلمين من خلال تلقين الفنون الحرة ، وتراث الكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة . ولكن المدرسة الديرية كانت محدودة جداً فى اهتماماتها وصارمة فى نظامها بحيث فشلت فى أن تكون مركز الإنجازات الهائلة فى مجال الفكر الحر والقانون إبان عشرات السنين التالية.

وقد أدى فقدان الرهبان لزعامتهم فى مجال التعليم إلى تدهور مكانتهم فى الحياة السياسية . إذ أن المدارس البلدية التى قامت فى شمال إيطاليا ، والمدارس الكاتدرائية التى قامت فى شمال فرنسا ، والتى كانت بمثابة الوطن لحركة التعليم العالى الجديد – كانت هذه المدارس قد بدأت فى تخريج كتبة وموظفين علمانيين ومحامين مدنيين يمتازون بالفطنة ، وحسن التعليم ، والمهارة الفائقة . وحل هؤلاء محل العلماء الديريين فى وظائف الخدمة المدنية فى الحكومات الملكية الأوروبية إبان القرن الثانى عشر . وفى الوقت نفسه ، كانت أهمية الأديرة الكبرى تتضاءل فى نواحى أخرى بالنسبة للملكيات القوية . ففى النصف الأخير من القرن الحادى عشر كان اعتماد الحكام النورمان والألمان على الموارد العسكرية للأديرة قد تضاءل إلى حد ملحوظ ، ووجد أولئك الحكام القادرون العدوانيون موارد جديدة يجندون منها جيوشهم . وقد كان نظام فرض نوع جديد من خدمة الفرسان على الأديرة النورمانية قد انتهى فى سنة ١٠٥٠م ، كما توقف العمل بهذا النظام فى انجلترا سنة ١٠٨٠ . ولم يكن هذا راجعًا فقط إلى أن خدمة الفرسان من الاقطاعات العلمانية آنذاك قد صارت متاحة بشكل كاف ، ولكن أيضا لأن حكام النورمان كانوا يستخدمون المرتزقة على نطاق واسع اعتماداً على

مواردهم المالية من نظام الضرائب الإقطاعي ، ثم نظام البدل النقدي scutage فيما بعد . على نفس المنوال ، كان اعتماد الملوك السالين كاملا على الفرسان - الأقنان ministeriales فى تكوين قواتهم العسكرية . وفى الربع الثانى من القرن الثانى عشر كان الالتزام الأساسى للراهب البندكتى هو القيام بالوساطة والشفاعة من أجل المجتمع العلمانى ، لدى المسيح والعذراء ، ولدى القديسين . وكان هذا كافيا فى القرن الثانى عشر نظراً لإستمرار شعبية البندكتيين فى نفوس العلمانيين ، على الرغم من أن القساوسة كانوا يوجهون إليهم انتقادات مريرة ، لأن القساوسة كانوا يطمعون فى امتيازات البندكتيين وممتلكاتهم التى تمتعوا بها عبر القرون . ولكن حتى فى المجال الدينى كانت أهمية الجماعة البندكتية قد تدهورت بشكل ملحوظ. إذ أن الكاتدرائية والكنيسة الأبرشية كانت قد صارت هى مراكز التعبير عن التقوى والإخلاص الدينى لجماهير الناس فى المدن والريف ، كما أن الإعجاب الحار الذى كان البندكتيون يحظون به فى العصور الوسطى الباكرة ، تحول فى القرن الثانى عشر نحو نظم دينية جديدة .

وبعد سنة ١١٠٠ كان الاتجاه المتصاعد فى المجتمع الأوربى هو الاستغناء عن الخدمات التعليمية ، والسياسية ، والعسكرية ؛ بل والخدمات الدينية التى كان الرهبان يسدونها للمجتمع ، وقد كان هذا حافزاً على ظهور نظم ديرية جديدة تكرس نفسها للإنسحاب من العالم إلى حياة الزهد . ومن بين الأديرة الفرنسية العديدة التى تأسست فى أخريات القرن الحادى عشر كان دير سيتو Citeaux ، الذى كانت روحه القائدة متمثلة فى رجل إنجليزى قديسى الصفات اسمه ستيفن هاردنج Stephen Harding . وسرعان ماجتذب دير سيتو البارزين من الشباب ذوى الميول النسكية القوية ، ومن بينهم برنار الذى كان أكبر عقلية دينية فى القرن الثانى عشر . وبسرعة تمكن دير سيتو من بناء أديرة تابعة ، وضم فى رحابه جماعات رهبانية مستقلة . وفى غضون ثلاثينيات القرن الثانى عشر كان السسترشيان قد صاروا نظاما ديريا رئيسيا جديداً ، يلى النظام البندكتى من حيث الحجم . وكان أسلوب الحياة السسترشيانى ، منذ البداية ، يختلف بشكل واع وقوى مع النموذج البندكتى السائد ، وتجسد هذا المغزى فى أن الرهبان قد ارتدوا المسوح الأبيض بدلا من المسوح الأسود . وطلب السسترشيان من حُماتهم العلمانيين أن يمنحوهم حق الاستقرار فى المناطق غير المأهولة ، لرغبتهم فى تجنب الامتيازات والالتزامات التى جلبتها على الأديرة البندكتية الممتلكات المزروعة والمسكونة . وادعى الرهبان البيض أن الضياع الإقطاعية التى يديرها الأقنان تشجع

على الترف والجشع الديرى ، وتحول دون الفقر الرسولى الذى كان يمثل جانبًا ضروريا من جوانب الحياة الديرية الحقيقية . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر كان سان برنار ، أفصح المتحدثين باسم النظام الجديد ، على الرغم من أنه لم يكن راهبًا سسترشيانيا نمطيا ، ينتقد بعنف ثروة دير كلونى والراحة التي يعيش فى ظلها رهبانه ، بل إنه وجه انتقاداته العنيفة إلى الجمال الفنى . كذلك تعرض البندكتيون لهذا الهجوم الصريح نفسه من زعماء آخرين للرهبان البيض . وكان رد البندكتيين الذى ضايقهم الهجوم يحمل قدراً مساويا من المرارة . فقد احتجوا بأنه من الظلم أن نتوقع من المؤمن أن يتحمل المشاق التى تحملها الحواريون فى خضم العداوة الوثنية والاضطهاد فى وقت كانت الكنيسة فيه قد قهرت أعداءها . كما أوضحوا أن السسترشيان ، فى تفاخرهم بأنهم على حق ، لم يهربوا من فخاخ الغرور ، كما زعموا بأنه يوجد بين الرهبان البيض الذين يحتقرون الدنيا « كثيرون من المدعين الزائفين المخادعين» فعلاً.

كانت الظروف الدينية والاجتماعية السائدة فى القرن الثانى عشر من عوامل انتصار الرهبان السسترشيان والنمو السريع لنظامهم . ففى شتى أنحاء أوربا كان يوجد شباب جادون أتقياء يهتمون بسلامة أرواحهم فى عالم كان يتحول باطراد إلى عالم حضرى غنى ، ومن ثم فإنه كان فى نظرهم عالما يحفل بخطر كبير يتهدد تحقيق الحياة الروحية . والواقع أن الرغبة فى الإنضمام للسسترشيان كانت حركة جماهيرية فى القرن الثانى عشر ، وبعد سنة ١١٥٠ أسس السسترشيان أديرة للنساء تسير على الدرب نفسه . وفى أواخر القرن الثالث عشر كان عدد الأديرة السسترشيانية فى أوربا لايقل عن سبعمائة دير . إذ كان ملاك الأراضى فى كل مكان يحيون السسترشيان بحماسة بالغة ، ويسمحون لهؤلاء الرهبان البيض بأن يستوطنوا الأراضى التى لم تزرع من قبل داخل أملاكهم ، لكى يمهدوا هذه المناطق الحدودية للاستقرار السكانى فيما بعد . وفى شتى أنحاء أوربا القرن الثانى عشر كان الرهبان السسترشيان بمثابة الرواد فى الحركة التعميرية . وكان نشاطهم فى هذا المجال واضحًا في شرق ألمانيا ، بصفة خاصة ، حيث لعبوا دوراً هامًا فى تطوير الطريقة الجديدة لتقسيم الأرض الزراعية إلى مربعات بدلا من الشرائط . والأديرة السسترشيانية فى القرن الثانى عشر هى التى طورت تربية الأغنام فى أراضى التلال الواسعة شمالى انجلترا . وسرعان ما أخذ ملاك الأراضى العلمانيون فى يوركشاير يقلدون هذا الابتكار وبهذه الطريقة تم تعمير هذا الإقليم الحدودى . وفى القرن الثالث عشر بدأت التجارة الخارجية الإنجليزية بتصدير الصوف إلى مدن النسيج الفلمنكية .

وعلى الرغم من الشعبية الهائلة التى أحرزها السسترشيان بين جميع طبقات المجتمع فى القرن الثانى عشر ، فإن المجال كان مايزال فسيحا لقيام نظرية ديرية صغيرة لها مواقف وأهداف مماثلة . فقد كان النظام الكارتوسى Carthusians نظاما ديريا انتقائيا صارما مالبث أن أحرز شهرة لسببين : أن هذا النظام الديرى لم يتعرض أبداً للتقلبات التى تعرضت لها النظم الكاثوليكية ، لدرجة أن الكارتوسيين استطاعوا أن يزعموا فيما بعد أنهم لم يحتاجوا إلى الإصلاح أبداً ، كما أنهم لعبوا دوراً هامًا فى اختراع البراندى أول مشروب روحى قوى فى أوربا ، خلال القرن الثالث عشر . أما نظام فونتريفولت Fonter-Vault ، الذى كان له أربعون ديرا سنة ١٢٠٠ ، فقد كان مصمما للرهبان للقيام بالخدمة الدينية والأعمال البدنية الشاقة . وكان نظام فونتريفولت يختلف بشكل حاد عن أديرة الراهبات فى العصور الوسطى الباكرة (التى كانت أماكن أرستقراطية زاعقة) من حيث أنه كان يقبل النساء من جميع الطبقات ، كما كان ملاذا للنساء الساقطات ، والأرامل المعوزات ... وما إلى ذلك من النسوة اللاتى كان يوجد منهن عدد كبير فى أوربا العصور الوسطى . ويكشف ظهور هذه المنظمات الديرية وغيرها من المنظمات الصغيرة إلى جانب النظام السسترشيانى عن شيوع روح التدين فى جميع أنحاء أوربا القرن الثانى عشر ، كما يكشف أيضا عن الاتجاه المتصاعد نحو تنظيم الحركات الدينية فى منظمات متمايزة . ولم يكن الرهبان البندكتيون فى العصور الوسطى الباكرة متوافقين فى نظرتهم ، ولكن المجموعات المختلفة التى وجدت بين الرهبان البندكتيين لم تكن تعتبر أن من الضرورى أن تشكل نفسها فى منظمات منفصلة . ذلك أن الروح القانونية والنزعة التنظيمية التى شاعت فى القرن الثانى عشر قد تركت تأثيرها حتى على الحياة الديرية ، وشجعت على توالد وتكاثر العديد من المنظمات الديرية المتمايزة .

كانت جميع المنظمات الديرية الجديدة ترتبط بأشكال رومانسية شديدة العاطفة من المسيحية ، ولاسيما مذهب العذراء . فقد كان اتجاه الأنماط الديرية الجديدة يميل إلى الابتعاد عن المسيحية العقلانية ليتجه صوب نمط شخصى جداً من التجربة الدينية . هذا القصور أدى إلى فصل النظم الديرية الجديدة عن الإنجازات التى تمت فى مجال الفلسفة والعلوم على أيدى القساوسة فى الجامعات ، ولكنه أدى إلى إيجاد الإتساق بين مواقفهم الدينية والتيارات الرئيسية فى حركة التدين العلمانى ، وحقق السسترشيان ومقلدوهم درجة عالية من القبول الاجتماعى . ومع هذا فإنه بحلول سنة ١٢٠٠ كان قد بدأ يتضح أن إنسحاب السسترشيان

من العالم لم ينجح تماما ، ذلك أن المبالغة في الإطراء على الرهبان البيض في السنوات الخمسين الأولى من عمر تنظيمهم ، انقلبت إلى نقد يماثل ماعاناه الرهبان السود (البندكتيون) من قبل .

فقد كان البندكتيون يخسرون رضاء المجتمع باطراد ، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ومن السهل أن نعرف السبب في ذلك . فقد قبعوا خلف أسوار أديرتهم المريحة يستمتعون بمواردهم الهائلة بحيث لم يقدموا للمجتمع شيئًا . كانوا موجودين ، كما ظلوا يجتذبون أعضاء جدد إليهم ، ولكن لم يكن بينهم كثيرون من أصحاب العقليات المستنيرة فى ذلك العصر . كما أن أهميتهم فى الخدمة الكنسية كانت تتضاءل ، ولم تعد لهم أية وظيفة اجتماعية أخرى . وهنا وهناك كانت ماتزال توجد إحدى حجرات النسخ scriptorium البندكتية وماتزال تنتج المخطوطات المصورة القيمة ، أو يوجد راهب بندكتى يكرس نفسه لكتابة تاريخ عصره ، مثلما كان يحدث فى الأيام الخوالى . ولكن البندكتيين عموما ، فى أواخر القرن الثانى عشر ، لم يعودوا يقدمون أية مساهمة فى الحضارة الأوربية ، وإذا مانظرنا إلى حقيقة أنهم لم يجتذبوا أكثر المتدنيين إخلاصا ، فلا غرو أن كثيرين من الرهبان السود قد وقعوا فى شباك خطيئة الملل accidia الرهيبة . ولدينا رواية تفصيلية واضحة عن أكبر وأغنى الأديرة البندكتية الإنجليزية ، وهو دير بيورى سان ايدموندز Bury St. Edmunds فى حولية جوسلين البراكليوندى Jocelin of Brakelond الذى كان سكرتيرا لمقدم الدير . ويبدو سامسون Samson ، مقدم الدير ، كما وصفه جوسلين فى صورة الإدارى المخلص الكادح ، ولكنه عموما لايهتم بالحياة الفكرية . ويلاحظ جوسلين أن مقدم الدير « يقدر الموظفين الأكفاء أفضل من الرهبان الطيبين » . ومع هذا فإن جوسلين يعتبر رئيسه زعيمًا ديريا بارزًا ![1] .

ولم يعان السسترشيان من التحجر بقدر ماعانوا من الفساد . فتاريخ السسترشيان المتأخر واحد من أكثر موضوعات التاريخ الوسيط وضوحًا . وبحلول سنة ١٢٠٠ كان المعاصرون على إدراك تام لهذه الحقيقة . فقد إتضح أن السسترشيان قد كشفوا عن الحقيقة المأثورة القائلة بأن لاشئ يفشل مثل النجاح . فقد تولوا قيادة الإنسحاب الديرى من العالم ، ولكن العالم تبعهم

١- كتاب جوسلين المسمى « أعمال سمسون الراهب » معروف جيداً للمهتمين بتاريخ كنيسة العصور الوسطى وقد تألق مؤلفه فى تصوير الشخصيات ، والكتاب يقدم مجالا واسعًا للدارسين الراغبين فى التعرف على أفعال كل من الحكومة المحلية والحكومة المركزية فى القرن الثالث عشر ، لأن جوسلين يقدم تفاصيل قيمة عن العلاقات بين الملك والدير من ناحية ، وبين الدير والمقيمين به من ناحية أخرى . انظر : بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى (ترجمة وتعليق د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٧٩) ، ص ٢٠٣ .

ولم يكن بمقدورهم أن يقاوموا إغراءاته . وكانت الأديرة السسترشيانية قد تأسست فى مناطق حدودية غير مأهولة . ولكن بحلول سنة ١٢٠٠ صارت هذه المناطق من أكثر بقاع أوربا إزدهاراً . كما أنهم أحرزوا من التقدم فى زراعة أراضيهم ماجعلهم من أبرز ملاك الأراضى . وكانوا ممنوعين ، بحكم القسم الذى قطعوه على أنفسهم من استخدام الأقنان ، ولكنهم تحايلوا على روح هذا القسم بأن تركوا ضياعهم للسادة العلمانيين مقابل إيجارات عالية . وكثير من الأديرة السترشيانية كونت لنفسها رؤوس أموال كبيرة ، واستخدمه رؤساء هذه الأديرة فى إقراض المال لأصحاب الأراضى ورجال الكنيسة الفقراء . ومع مشرق شمس القرن الثالث عشر كان السسترشيان قد صاروا مشهورين بسوء سمعتهم بسبب مهارتهم فى ميدان المال وتشابههم مع المرابين اليهود . وإنفصلت عن الرهبان البيض مجموعة غيورة ، أرادت العودة إلى المثل الأصلية التى أرساها ستيفن هاردنج ، ولكن الأغلبية كانت على استعداد لقبول الرفاهية على أنها نعمة من الله . وتميزت الفترة المتأخرة من تاريخ الرهبان البيض بالصراعات الداخلية المريرة ؛ وفى القرن السابع عشر كان الجناح التقشفى قد إنفصل ليكون نظام الترابيست Trappist [٢]. وقد كان فشل السسترشيان فى طرح شكل نظامى مُرضٍ للتدين راجعا لعدم وجود الإدارة الكافية . فقد نما النظام السسترشيانى بسرعة فائقة على حين كانت أداته الإدارية متواضعة للغاية . وكان المفروض فى مقدم الدير الرئيسى فى سيتو Citeaux أن يشرف عل شئون الأديرة التابعة ، ولكن هذا صار مستحيلا من الناحية العملية بسبب ضخامة عدد الأديرة السسترشيانية . هذه الإدارة القاصرة والنظام الناقص أتاح الفرصة لتسرب رجال فى صفوف الرهبان البيض ممن خانوا المُثُل الديرية التى أرساها مؤسسو النظام . وبالإضافة إلى ذلك ، كان من سوء حظ السسترشيان أنهم اختاروا أسلوبًا للحياة يتوافق تمامًا مع المطالب الاقتصادية فى القرن الثانى عشر . إذ أنهم نظموا أنفسهم كنظام ديرى دينى كرس نفسه للإنسحاب من العالم . ولم يكن لدى السسترشيان التنظيم أو الخبرة ، أو الزعماء الذين يتعاملون مع الموقف الذى ألفوا أنفسهم فيه مُلاكًا للأراضى ورأس المال ، فى ذات المناطق التى كانت مناطق انسحابهم الزاهد . ولم يكن لدى الرهبان البيض تراث أو تقاليد خاصة بالتعليم أو العقلانية الدنيوية ؛ إذ كانوا معادين للفكر ينقصهم ماكان البندكتيون يتمتعون به من معرفة بالحكومة والسيادة . وكان محتومًا أن يقعوا ضحية تورطهم فى العالم،

٢- نسبة إلى الدير الذى كان تأسس فى سولينى لاتراب Soligny - La - trappe سنة ١١٤٠م .

وانتهى انسحابهم من المجتمع ، الذى كان فصلا مجيداً فى تاريخ التدين فى القرن الثانى عشر ، بخليط من المأساة والمتناقضات .

كان فشل النزعة التطهرية فى القرن الحادى عشر والإنسحاب الديرى فى القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافهما من عوامل تشجيع وغو وانتشار نمط جديد من النظام الدينى ، كان مزيجًا بين نقيضين من النظم الديرية . هذا الشكل الجديد المنظم من النسك أتاح لأتباعه حياة تقليدية تتسم بالزهد والفقر والطاعة ، كما أتاح لهم فى الوقت نفسه ، أن يعملوا فى العالم ويساهموا بشكل شخصى مباشر فى رفاهية المجتمع . وكانت التجارب المختلفة التى مر بها هذا النظام الديرى الجديد هى الخلفية التى برزت منها جماعة الأخوة الفرنسسكان والأخوة الدومينيكان فى القرن الثالث عشر ، وكان ظهورهما علامة على أهم مرحلة من مراحل تطور النظم الديرية الكاثوليكية منذ الدستور الذى وضعه سان بندكت . هذه النظم الجديدة العاملة فى العالم سرعان ما شكلت الوسائل التنظيمية التى أمكن بواسطتها استغلال النزعة التقشفية فى مواجهة التحدى الذى كانت تطرحه موجة التدين العارمة بين جماهير سكان المدن فى أوربا .

وكانت التجارب الأولية فى القرن الثانى عشر مع النوع الجديد من النظام الدينى قد تمت على أيدى الرهبان ونظم الرهبنة العسكرية . إذ أن القساوسة الكاتدرائيين فى العصور الوسطى كانوا مشهورين بسوء السمعة لإفتقارهم إلى الإخلاص . وحدث فى مطلع القرن الثانى عشر أن بدأ العمل بنظام الإيراد الكنسى ، الذى جعل لكل موظف كنسى دخلا ثابتًا ، مما زاد فى سوء الموقف . فقد جعل القساوسة فى الكاتدرائية مستقلين تماما عن الأسقف من الناحية المالية ، مما جعل وظائفهم مصدر إغراء لشباب النبلاء . وكان تأسيس نظام بريمونتر Premontre فى فرنسا ، فى عشرينيات القرن الثانى عشر ، محاولة لعلاج هذا الموقف . وكان الهدف من هذا النظام هو إيجاد نظام ديرى مفتوح للرجال والنساء الراغبين فى الحياة الديرية بحيث تكون لهم حرية العمل الدنيوى مثلما كان القساوسة الكاتدرائيون وغيرهم من رجال الكنيسة يفعلون ، ولهذا عرفوا باسم « القساوسة النظاميون Regular Canons » . وكان النظام البريمونتيرى فى بعض جوانبه مستوحى من نفس المبادئ التى أثرت على السسترشيان الأوائل . ذلك أن دير بريمونترى ، وهو الدير الأصلى لهذا النظام ، قد بنى فى مكان منعزل « كشفت عنه » العذراء . ولكن بينما كان الرهبان البيض يهربون من العالم ، كان القساوسة النظاميون نشطين فى المناطق الحضرية النامية فى حبهم لعمل الخير ، وأعمالهم

الخيرية ، والعلاجية ، كما نشطوا فى مجال العمل كقساوسة أبرشيين . فى القرن الثانى عشر ظهرت مجموعة أخرى من الرهبان العاملين في العالم ، هم مجموعة القساوسة الأستينيون (الأغسطينيون) ، الذين ذاع صيتهم ، وأحرزوا قصب السبق فى انجلترا خاصة .

كان نظام القساوسة النظاميون هو الإرهاص الذى مهد لمولد منظمات الأخوة الرهبان الكبرى التى تأسست فى القرن الثالث عشر ؛ سواء من حيث شكلهم التنظيمى أو من حيث أهدافهم . ولكن لم يكن لهم التأثير الذى مارسه الدومينيكان والفرنسسكان على حضارة القرن الثالث عشر . ولم تقدر البابوية حتى مطلع القرن الثالث عشر قيمة النظم الديرية العاملة فى المجتمع ، والمناطق الحضرية على نحو خاص ، حق قدرها . فقد كان من الممكن أن يكون للقساوسة النظاميين تأثير على أوربا القرن الثانى عشر ، يوازى تأثير الأخوة الرهبان فى الفترة اللاحقة ، ولكن عددهم لم يكن يكفى للوفاء بهذا الغرض . وكان بابوات القرن الثانى عشر إداريين مقتدرين ومخلصين ، ولكن الواضح أنهم لم يكونوا يشعرون بتيارات التدين بين العلمانيين ، ولم يطرحوا أى برنامج منظم لمواجهة المدلولات الثورية فى موجة التدين التى استشرت بين سكان المدن . وكان القساوسة النظاميون مضطرين إلى العمل بمساعدة ضئيلة للغاية من جانب زعماء الكنيسة ، ولم يحدث أن تفهمت روما أهمية هذا الشكل الجديد المنظم من النسك قبل بابوية إنوسنت الثالث فى العقد الأول من القرن الثالث عشر .

وربما كان من الممكن أن تستفيد الكنيسة والحضارة الأوربية من عدة جوانب لو أن جزءاً من الثروة والطاقة التى خصصت لدعم النظم الرهبانية العسكرية فى القرن الثانى عشر قد خصص لدعم القساوسة النظاميين . فقد كانت النظم الرهبانية الصليبية نتاجًا لمحاولة تطبيق روح الديرية الجماعية ونظمها فى خدمة الأهداف الصليبية . وكانت هى أكثر التعبيرات تطرفا عن التيار العسكرى الذى سرى فى مسيحية القرن الثانى عشر . إذ كان يبدو للناس كافة فى القرن الثانى عشر أنه ينبغى على من كرسوا أنفسهم للخدمة المقدسة أن يقتلوا الكفار وفاء بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم . وكانت النظم الرهبانية العسكرية تجتذب أولئك النبلاء الذين كانوا يريدون أن ينتهجوا الحياة الديرية والإستمرار فى إستغلال مهاراتهم العسكرية . وكان هناك على الدوام توافق بين النظام الديرى والنظام العسكرى ، كما كان يشار إلى الرهبان دائما على أنهم جنود المسيح . وفى النظم الرهبانية العسكرية اتخذ هذا المصطلح أهمية أكثر من مجرد المعنى المجازى .

تأسست أولى المنظمات الرهبانية الصليبية في بداية الأمر كوكالات للدعاية ، أي لتقديم الخدمات الثانوية للصليبيين والحجاج ، ولكنها سرعان ماشكلت نفسها في منظمات عسكرية قوية فعالة . وكان فرسان المعبد (الأخوة الفقراء في معبد أورشليم)[٣] قد بدأوا أصلا حوالي سنة ١٢٠٠ بمجهود عدد قليل من الفرسان الفرنسيين لحماية الحجاج في الطريق إلى الأراضي المقدسة . وقد شكل سان برنار أولئك الفرسان في نظام ديري جماعي مكرس للقتال في الأراضي المقدسة . وكان هناك تقسيم ثلاثي لطبقات فرسان المعبد : الجنود الأرستقراطيون ، والقساوسة ، ثم الأخوة العلمانيون الذين ينحدرون من أصول طبقية دنيا . وكان على هؤلاء مساعدة الفرسان النبلاء كتابعين وسائسي خيول . أما فرسان المستشفى (فرسان القديس حنا في أورشليم) [٤]، فكانوا أكبر منافسي المعبديين . كان هدف فرسان المستشفى الأصلي هو القيام بالخدمة الطبية بين الصليبيين ، ولكنهم سرعان ماتحولوا إلى منظمة رهبانية عسكرية ، وتنافسوا مع فرسان المعبد على المكانة والهيبة والنفوذ في شئون مملكة بيت المقدس اللاتينية . وكانت الحروب الإقطاعية الداخلية التي نشبت بين الجنود الديريين من عوامل ضعف الدولة الصليبية في فلسطين .

ويكشف تاريخ الداوية اللاحق عن إستسلامهم لمغريات المال التي أفسدت النظام السسترشياني. ففي خضم النمو الاقتصادي في القرن الثاني عشر كان من الصعب تماما ألا تجني مجموعة قوية ثروة لنفسها ، فإذا ماكانت الهيئة التي تضم هذه المجموعة مكرسة للخدمة الدينية أيضا ، كانت الهبات تنهمر عليها من جميع الجهات . ونتيجة للنجاح الكبير الذي حققه الداوية بزيادة ميزانيتهم ، تورطوا أكثر من ذي قبل في أساليب تكوين رأس المال ونقله. وبحلول القرن الثالث عشر ، صاروا هم أعظم رجال البنوك في أوربا ، وكانت البابوية وملوك فرنسا هم عملاءهم . وفي القرن الثالث عشر لم يقتل الداوية كثيراً من المسلمين ، وإنما صاروا خبراء في وسائل زيادة رأس المال ، وجعلوا مقر رئاستهم في باريس . وكان أن تحول الموقف الشعبي تجاه الداوية من الإعجاب الحار إلى الإستخفاف والغيرة ، ولكن ذلك لم يكن يقلق زعماء النظام فيما يبدو .فقد إحتجوا بأن نشطاتهم المصرفية خدمة للرب، وبأنهم يقومون

٣- يعرفون في المصادر التاريخية العربية باسم « الداوية » .

٤ - عرفتهم المصادر العربية باسم الاسبتارية .

بها فى إخلاص وبرح زاهدة . وتاريخ الداوية يعتبر حالة وثائقية تكشف عن كيفية تسخير الدين فى نمو الرأسمالية .

وإذا كانت نزعة التقشف المنظمة ، كما يمثلها فرسان الداوية ، قد إنتهت بتأسيس بنك ، فإن منظمة الفرسان التيوتون ، التى تأسست سنة ١١٩٠ ، كانت هى الأصل الذى بزغت منه النزعة البروسية Pryussianism ، على حد تعبير المؤرخ الألمانى الوطنى هنريخ تريتسشك Heinirich Treitchke الذى عاش فى القرن التاسع عشر . ففى زمن الحملة الصليبية الثالثة كون بعض السادة الاقطاعيين الألمان منظمة رهبانية عسكرية للقتال فى الأراضى المقدسة . ولكنهم فى غضون ثلاثين سنة نقلوا منطقة عملياتهم من الشرق الأوسط إلى حدود ألمانيا الشرقية ، وقيض لهم أن يلعبوا الدور الرئيسى فى الزحف شرقا Drang nach Osten أى التحرك صوب الشرق فى الأراضى السلافية ، وهى حركة كانت قد بدأت قبل قرن من هذا التاريخ . وكانت المثل الروحية الأصلية لهذه المنظمة موجهة لخدمة الطموح السياسى . فقد كان الفرسان التيوتون يهاجمون المسيحيين والوثنيين فى شرق أوربا دونما تمييز . فقد كانوا أساسا عبارة عن دولة فى مسوح منظمة رهبانية . لكن شكلهم الديرى هو الذى وفر لهم الكفاءة الجماعية والغيرة المتعصبة ، كما ساهم إلى حد كبير فى تلك السلسلة الطويلة من الإنتصارات التى أحرزوها . فقد استولوا على بروسيا من السلاف وحكموها حتى أخريات القرن الخامس عشر . وإندفعوا داخل ليتوانيا ، وايستونيا ، وروسيا حيث أوقف تقدمهم فى النهاية بعد سنة ١٤٠٠ بقليل . وكان الفرسان التيوتون يشكلون واحدة من أنجح المنظمات الرهبانية العديدة التى وجدت فى القرن الثانى عشر . ذلك أنهم ظلوا أوفياء لقسمهم متمسكين بنظامهم كما أنهم كانوا جنوداً وإداريين أكفاء على مدى ثلاثة قرون تقريبا .

ومع السنوات الأخيرة من القرن الثانى عشر ، ونتيجة لما قام به القساوسة النظاميون والنظم الرهبانية العسكرية ، كانت فكرة وجود رهبان يعملون فى العالم قد باتت فكرة شائعة ومقبولة . والحقيقة أن العقود الأخيرة من هذا القرن شهدت مولد نظم رهبانية غامضة قامت على أساس مبدأ خدمة المجتمع مع الحفاظ على حياة الزهد . ففى سنة ١١٨٩ قام فى فرنسا ، مثلا ، نظام يسمى « بناة القناطر » Bridgebuilders للمساهمة فى رفاهية البشر عن طريق تحسين المواصلات . وقد إنزعج البلاط البابوى من توزع النزعة التقشفية وتفرقها فى كثير من النظم الرهبانية المتمايزة . وفى مجمع اللاتيران الرابع فى سنة ١٢١٥ صدر مرسوم بابوى

يقضى بالحد من التراخيص لقيام منظمات رهبانية جديدة ، ولكن البابوية سرعان ما أدركت ضرورة تأسيس نظام الرهبان الكاثوليك الجديد لمواجهة التحديات التى فرضتها موجة التدين بين سكان المدن ولمواجهة الهرطقات الشعبية . وكانت المساهمة الأصلية من جانب المنظمات الديرية فى القرن الثانى عشر هى التوفيق مابين التطرف التطهرى والتطرف الديرى وتوجيه النزعات الروحية فى إتجاه خدمة المجتمع المسيحى . من هذه الخلفية نبتت المنظمات الدينية التى كانت أمراً لاغنى عنه فى صراع الكنيسة من أجل الإحتفاظ بزعامتها للحضارة الأوربية.

٣ - أبعاد الهرطقة الشعبية :

كان العداء ضد رجال الكنيسة ومعاداة السلطة الكنسية هما الصيغتين اللتين كانتا تهددان بتقويض المركز التقليدى للكنيسة فى مجتمع العصور الوسطى خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وهما الصيغتان اللتان أجبرتا البابوية ، فى عهد إنوسنت الثالث وخلفائه ، خلال العقود الأولى من القرن الثالث عشر ، على خوض صراع يائس لإعادة توطيد الزعامة الكنسية . ذلك أن نزعة معاداة الإكليروس مهدت الأرض لظهور نزعة معاداة السلطة الكنسية، ولكنهما كانتا نزعتين تمثلان موقفين ومذهبين مختلفين . فقد كانت نزعة معاداة الإكليروس anticlericalism نقدا لرجال الكنيسة لعدم قيامهم بواجباتهم التى تقتضيها مناصبهم ، لم يكن هذا خطأ فى العقيدة . أما معاداة السلطة الكنسية antisacerdotalism فكانت تنكر على رجال الكنيسة ما لمناصبهم من سلطة ، وتزعم أن الخدمة الكنسية التى يقومون بها ليست صالحة . هذا الرأى ، بطبيعة الحال يمثل الهرطقة الدوناتية ، كما يتناقض مع الأسس التى تبنى عليها الكاثوليكية .

والإتجاه العام بين مفكرى العصور الوسطى لتقريب مفاهيم القديس أوغسطين عن مدينة الرب إلى أذهان العامة ، وميلهم إلى القول بأن الكنيسة تمثل المجتمع السماوى - هذا الإتجاه هو الذى خلق القاعدة الفكرية التى قامت عليها نزعة معاداة الكنيسة . لأنه لو كانت الكنيسة هى مدينة الله ، فلابد أن يكون زعماؤها أكثر الناس قدسية ونقاء ، ولابد أن تقوم وزارة المسيح على أساس من القدسية الشخصية ، وليس على أساس السلطة الرسمية غير الشخصية التى يتمتع بها القساوسة .

وكان من الممكن لنزعة معاداة رجال الكنيسة أن تؤدى إلى نمو الحركات المعادية لسلطة الكنيسة ، كما حدث فى القرن الثانى عشر . ذلك أن النقد المستمر والمسهب للمخصال

الشخصية للهيئة الكنسية والإصرار على الفصل بين مثلهم العليا وممارساتهم مالبث أن أثار الشكوك في عقول بعض الأتقياء حول حقيقة أن يكون القساوسة وزراء الرب . بيد أنه ينبغي التأكيد على أن هذا النقد الذي وجه إلى رجال الأكليروس لكسلهم وفسادهم لم يكن هرطقة بحد ذاته . والحقيقة أن مثل هذا النقد قد يكون هو التمهيد الضروري لعملية إصلاح الكنيسة وإحيائها . وهكذا يمكن أن يكون هناك رجلان يتحدثان عن مساوئ الأكليروس، ولكن موقف كل منهما يختلف عن موقف الآخر تماما . فأحدهما يريد من رجال الكنيسة أن يمارسوا ما لوظيفتهم من سلطة بشكل يتوافق مع مثل الكنيسة العليا ، على حين ينكر الآخر أن يكون لرجال الكنيسة أية سلطة دينية . فالأول يمثل ممارسة نقدية ، أما الثاني فيمثل الإنكار وعدم الإعتراف . وقد دوت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أصوات مجلجلة تهاجم الكنيسة ، وجابهت الكنيسة مهمة صعبة هي تقييم هذه الانتقادات ، والتمييز بين أولئك الذين يريدون قساوسة كاثوليك أفضل ، وأولئك الذين يريدون تدمير الكنيسة الكاثوليكية ، لكي يضعوا مكانها أنماطا جديدة من الجماعات الطائفية الدينية .

ومع كل عقد يمضي في القرن الثاني عشر ، كان النقد ينهال من جميع الأرجاء على سلوك الكنيسة بشكل أكثر كثافة . وجاءت بعض الانتقادات القاسية جداً من داخل الكنيسة نفسها . فقد شن الرهبان هجوما على القساوسة واتهموهم بالفساد والمادية . وزعم القساوسة أن الرهبان أنانيون ولافائدة منهم ؛ كما أن المنظمات الديرية المتنافسة أخذت تكيل لبعضها البعض انتقادات تحط من شأنها جميعا . فقد أدان سان برنار وتلاميذه الحياة الناعمة التي كان الأمراء الكنسيون يحبونها بأقسى العبارات كما أن البابا إنوسنت الثالث وبخ كبار الكنسيين في جنوب فرنسا ونعتهم بأنهم « **كلاب خرساء لم يعد بمقدورها أن تنبح** » . وفي العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر شاع بين الشعراء ، وطلبة الجامعات ، وكتاب البلاط تأليف الهجائيات التي تدين رجال الكنيسة بالطمع والفساد . وكان بلاط أي ملك يعاني المتاعب مع البابوية ، مثلب ملوك الهوهنشتاوفن ، ينسب إلى البابا والكرادلة أشنع الصفات وأقبحها . وقد أيد مغني البلاط « فالتر فون دير فوجيلفد » سيده وراعيه الهوهنشتاوفني بتصوير البابوية كذئب يتضور جوعا ، ولم يتورع هذا المغني عن تسخير الأساطير القديمة القائلة بأن سلفستر الثاني كان ساحراً . ومنذ القرن الثاني عشر كان كل فرد تقريبا خسر قضية في بلاط البابا في روما يعزي هذا إلى حب الكرادلة للذهب ؛ بل أن سكرتير سان آنسلم ، أسقف كانتربوري الملائكي ، زعم مثل هذا الزعم في سنة ١٠٩٥ . وكان المندوبون

البابويون مجالا مفتوحا لكل أشكال النقد في مناطق شمال الألب لأنهم كانوا من الأجانب الإيطاليين الذين يتدخلون في شئون الكنائس الإقليمية بشمال أوربا . وقد صُور المندوبون الإيطاليون في صورة المخادعين الكذابين الذين لاتحكمهم المبادئ ، فقد أكد أحد الكتاب الإنجليز أن أحد الكرادلة من المندوبين البابويين كان به ميل إلى معاشرة بنات الهوى . والصورة التي رسمتها قصص بوكاشيو Boccaccio [٥] في القرن الرابع عشر للقسيس كرجل جاهل ، عبيط ، شهواني ، خليع - هذه الصورة يمكن أن نجدها في أدب سكان المدن في القرن الثالث عشر ، وهو الأدب الذي يعكس بدوره الإنطباعات التي ترد في أذهان الكثيرين من سكان المدن المتعلمين عن أساقفتهم وقساوستهم قبل سنة ١٢٠٠ .

ومن كل هذه الأدلة الأدبية يمكن لنا أن تكون أشد الصور سواداً عن رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر . وهذا مافعله المؤرخ كولتون G.G.Coulton ، الذي يعادي الكنيسة الكاثوليكية عداء وحشيا ، في عشرينيات القرن العشرين ، فقد حاكم رجال الأكليروس في العصور الوسطى لفشلهم المزري في الإرتفاع إلى مستوى وظيفتهم . ولاشك في أن هناك دليلا دامغا على مثل هذه الإدانة . وتقدم سجلات مفتشي الأساقفة في أسقفياتهم ، والتي صارت أمراً مطلوبا بعد سنة ١٢١٥ م ، الدليل الوثائقي على كافة الممارسات الخاطئة التي

---

٥ - جيوفاني بوكاشيو Giovani Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥) كاتب إيطالي ولد بباريس لأسرة من التجار الفلورنسيين . وبعد موت أمه عاد أبوه إلى فلورنسا حيث تزوج أمرأة أخرى وصحب معه بوكاشيو الذي لقي معاملة سيئة من زوجة أبيه . وكانت أول قصص كتبها بوكاشيو تثني على أمه وتصف متاعبه في طفولته . وكان أبوه يريد أن ينخرط في زمرة التجار ، وذهب إلى نابولي سنة ١٣٢٨ لدراسة القانون ودنيا رجال الأعمال . ولكن بوكاشيو كان يمضي معظم وقته في صحبة العلماء والكتاب ، وربما كان على اتصال بالشاعر شينو البستوي Cino of Pistoia وفي سنة ١٣٣٦ قطع علاقته بأبيه وكرس نفسه للأشتغال بالأدب. وكانت قصة حبه مع ماريا اكوينو Maria DÁquino الإبنة غير الشرعية لروبرت ألجو ملك نابولي إلهاما لأعماله الشعرية التي تكشف عن تأثره بالشعراء الرومان . وخلال الفترة من ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤٠ كان يتردد كثيراً على القصر الملكي . في سنة ١٢٤٠ صالح أباه وعاد إلى فلورنسا حيث تبوأ مكانة مرموقة بوصفه مثقفا وكاتبًا . وعين في مجلس المدينة وأرسل في بعثات دبلوماسية ، وفي سنة ١٢٤٨ بدأ العمل في أهم مؤلفاته Decameron الذي أتمه في سنة ١٣٥٣م . وخلال هذه الفترة تغيرت شخصية بوكاشيو وسلوكه تماما ، فقد صار رجلا متدينا وهجر الكتابة وقرض الشعر . بل أنه أراد أن يحرق كل مؤلفاته الخاطئة . ولكن صديقه بترارك منعه من ذلك . ولم يعد بوكاشيو أبداً إلى الكتابة باللهجة المحلية . ومنذ سنة ١٣٦٣ ألف كل كتبه باللاتينية . ومات سنة ١٣٧٥ في بلدة قريبة من فلورنسا . وخلف مؤلفات عملية كثيرة لاسيما في التاريخ . وانتقد رجال الكنيسة وخلص إلى أن الناس ينبغي أن يعتمدوا على تقديرهم وحكمتهم . انظر :
T.C. Chubb , The life of Giovani Boccaccio (1930) .

يمكن تصورها من جانب القساوسة والرهبان على حد سواء . وعلى الجانب الآخر من القضية ، نرى حقيقة الإنجازات الضخمة والحيوية التى تمتعت بها كنيسة القرن الثانى عشر ، ونعم بها مئات من رجال الكنيسة فى بقاع أوربا ، سواء من الأساقفة ومقدمى الأديرة أو من أصغر الرهبان والقساوسة الأبرشيين ، الذين نعرف أنهم كانوا مقتدرين ومتحمسين ، بل أنهم أنكروا ذواتهم فى سبيل إنجاز واجباتهم . وفى بحثنا عن السبب فى ظهور نزعة معاداة السلطة الكنسية بهذا الشكل الحاد فى أواخر القرن الحادى عشر ، نجد دليلا قويا على أن التغير الاجتماعى والفكرى هو مفتاح المشكلة ، وليس ماحدث من تدهور فى أخلاقيات رجال الكنيسة .

ففى سنة ١٢٠٠ كان عدد المخلصين فى الهيئة الكنسية أكثر من ذى قبل ، ولكن المستوى الذى كان العلمانيون يتوقعونه من قساوستهم كان أعلى من ذلك المستوى الذى كان مقبولا فى منتصف القرن الحادى عشر ، ولم يكن لدى الكنيسة العدد الكافى من الأفراد للوفاء بهذه المطالب . وفى المناطق الحضرية على نحو خاص ، حيث وصل التعليم والتدين بين العلمانيين إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، كانت الكنيسة تضطر إلى إرسال أفضل القساوسة تعليما وأشدهم تقوى ، ولكن مثل هؤلاء كان عددهم محدوداً ، ويمكن أن ترجع العلاقة بين النمو الرأسمالى والمواقف الدينية (التى نسبها ماكس فيبر إلى القرن السادس عشر) إلى القرن الثانى عشر دون تردد . فقد كان التاجر أو الحرفى فى القرن الثانى عشر ، بالضرورة ، يحس بمهنته إحساسا قويًا للغاية . إذ كان يعرف أنه لو لم يحقق الإمكانيات التى تطرحها المهنة التى اختارها لنفسه ، فإن مصيره سيكون التردى فى هوة الفقر البائس ، وكان هذا يجعله غيوراً جداً من الطوائف الأخرى فى المجتمع ، وهى طوائف لم تكن مضطرة إلى الاعتماد تماما على جهودها الذاتية - ولم يكن هؤلاء هم النبلاء فقط ، وإنما كان منهم رجال الكنيسة أيضا . لقد كان البورجوازى فى العصور الوسطى مشاغبًا لايعرف التسامح ، كما كان يميل إلى الحكم على الآخرين بمقاييس حياته هو . كما كان يشعر أنه يجب على كل من رجال الكنيسة أن يعمل لكسب عيشه ، وأنه لايجب أن يتمتع رجل الكنيسة بسلطة المنصب الكنسى وامتيازاته مالم تكشف حياته الشخصية عن جدارته بهذا حقا . فقد كان من الضرورى للبورجوازى أن يكون من رجال الأعمال على حين ينبغى على القسيس أن يكون قديسا ؛ إذ يجب على كل إمرئ أن يفى بما للمهنة التى اختارها لنفسه من إلتزامات . ولكن البورجوازى حين كان يطبق

هذا المقياس الجديدى من العقلانية على العالم من حوله ، كان يكتشف أن الكثرين من رجال الكنيسة لم يكونوا يؤدون عملا طيبا ، بل إنهم فى الحقيقة ربما كانوا أقل جدارة بمناصبهم من البورجوازى نفسه . وكان هذا يثير فيه مشاعر السخط والغضب على القساوسة .

وتمثلت غلطة البابوية فى القرن الثانى عشر فى أنها لم تكيف نفسها بالسرعة والحيوية اللازمة مع النتائج البعيدة المدى للتغير الاجتماعى ، ولم تتمثل هذه الغلطة فى سماحها بالفضائح المدوية دونما قصاص . فقد كانت الكنيسة ، عند نهاية القرن الثانى عشر ، ماتزال منظمة على أساس العمل فى المجتمع الريفى أساسا ، وكانت محاولاتها للوفاء بالحاجات الدينية فى مناطق أوربا الحضرية تتسم بالفتور أحيانا وبالسطحية أحيانا أخرى . وهو موقف أدى بالبورجوازيين ، ولاسيما فى المدن الثرية ذات الكثافة السكانية فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، إلى البحث عن حل خاص لمشكلاتهم الدينية . فقد كانوا ينشدون العقيدة التى يمكن أن تتيح لكل منهم تجربة دينية شخصية وعميقة وتربطهم برباط عاطفى مع المسيح والعذراء والقديسيين . كما كانوا قد ساهموا فى تشييد البنايات الكاتدرائية الفاخرة فى كافة المدن الأوربية لأنهم كانوا يريدون مكانا للعبادة يشعرون فى رحابه بأن رباطا قويا يشدهم إلى الروح القدس . ولكن عدداً كبيراً جداً من القساوسة الذين كانوا يعملون فى المناطق الحضرية لم يكونوا قادرين أو راغبين فى إتباع هذا المدخل الشخصى الخالص إلى الديانة المسيحية . ذلك أن النوع القديم من قس الكاتدرائية أو قس الأبرشية كان يعتقد أن مهمته كراع مسيحى ينبغى أن تقتصر على القيام بالطقوس المقدسة ، والاستماع إلى الاعترافات ، وإنجاز المهام المتعلقة بالقداس والخدمة التقليدية . ولم يكونوا مستعدين لإلقاء خطب ومواعظ ملهمة ، من النوع الذى يخدم البورجوازيين كمقوم أساسى لغذائهم الدينى ، ومورد رئيسى لإرشادهم فى خضم الحياة القاسية ، المعقدة المتشنجة التى عاشتها مدن العصور الوسطى .

لقد كان الوسط الاجتماعى والدينى فى شمال إيطاليا ، وأراضى الراين ، وجنوب فرنسا قد أفرز بالفعل مبشرين جوالين ذوى سمعة قديسية ، كانوا فى القرن الحادى عشر يلقون مواعظهم على أسماع البورجوازيين ، ويقدمون لهم الأسلحة الأخرى التى يخوضون بها التجربة الدينية الشخصية ، وهو مالم يكونوا يجدونه فى الخدمات الكنسية المعتادة . وبعد سنة ١١٥٠ بدأ هذا النوع من الزعماء الروحيين الشعبيين يمارسون تأثيراً متصاعداً ويجتذبون أعداداً كبيرة وقوية من الأتباع . وكانت الكنيسة بطيئة جداً فى إدراكها للمخاطر الكامنة فى

مثل هذا الموقف غير المألوف . وظهر المبشرون الجدد كمجرد استمرار ومتابعة للنزعة الدينية الجديدة التي عبر عنها داميانى وبرنار . ولكن مع كل عقد يمضى كان يتضح أكثر أن كثيرين من أولئك الزعماء الشعبيين يتخطون هذه الحدود . ذلك أنهم كانوا يدعون إلى مذاهب معاداة الأكليروس وإلى مذهب معاداة السلطة الكنسية ، وهى مذاهب أدينت فى القرن الرابع فى الهرطقة الدوناتية التى أدانتها الكنيسة مرة أخرى ، على الرغم من إحيائها المؤقت على يد الكردينال هيومبرت سنة ١٠٥٩م ، ثم مرة أخرى بعد سنة ١٠٨٠ وكان البورجوازيون تواقين إلى سماع القديسين الجوالين الذين كانوا يزعمون أن قدسية الحياة والإخلاص للرب هو الذى يحدد أعضاء وزعماء جماعة المسيحيين وكان هذا المذهب يبعث السرور فى نفوس سكان المدن الغيورين الذين كانوا يشعرون أنهم متفوقون فى حالات عديدة على قساوستهم فى الذكاء والإخلاص . وفى الوقت نفسه أعطى هذا المذهب مركز الزعامة فى الجماعات المنشقة الجديدة للمبشرين الجوالين . وكانت الكنيسة اللاتينية ، بطبيعة الحال ، قد جابهت مذاهب انشقاقية قبل ذلك فى حالات منفردة ، ولكن منذ الهرطقة الدوناتية فى القرن الرابع لم يعكر صفو الكنيسة اللاتينية هرطقة لها هذا العدد الكبير من الأتباع ، فضلا عن ارتباطها بالسخط الاجتماعى والفكرى المتأجج فى صدور الجماهير . ولم تكن الكنيسة قد اكتشفت الوسيلة التى تعالج بها هذا الخطر المحدق بوحدة الكنيسة وسلطة القساوسة حتى نهاية القرن الثانى عشر .

كانت نزعة معاداة السلطة الكنسية تتطلب ، بحكم طبيعة مذهبها ، ديانة معينة أكثر مما تتطلب ديانة كونية . وكان هناك عدد من الطوائف المخلصة لزعمائها القديسين ، إلا أن التعاون فيما بينها كان قليلا أو معدوما . وكانت الطائفة الوحيدة ، من بين الطوائف المعادية لسلطة الكنيسة فى أواخر القرن الثانى عشر ، التى اتخذت طابعا أكبر من مجرد الطابع المحلى المعزول هى طائفة الوالدنسيين Waldensians . وقد أخذوا اسمهم عن بطرس والدو Peter Waldo الذى كان تاجراً قديسا من أهالى ليون فى جنوب شرق فرنسا . وقد كانت ليون وضواحيها منذ زمن بعيد قد اشتهرت بالزعماء النساك المتطرفين . فبالقرب من ليون تأسست فى أربعينيات القرن الحادى عشر أول الأديرة المعادية للنظام الكلونى فى منطقة شمال الألب . وكان كبير أساقفة ليون فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الحادى عشر هو أكثر أتباع البابا جريجورى السابع إخلاصا فى شمال أوربا . وقد أطلق والدو وأتباعه على أنفسهم اسم رجال ليون الفقراء . ولم يكونوا يدعون إلى مذهب معاداة السلطة الكنسية ، ورجال الكنيسة،

وإلى المذهب الدوناتي فحسب وإنما كانوا يدعون أيضا إلى نظرية الفقر الحواري للكنيسة ، وهي النظرية التي تركت تأثيرها فيما بعد على سياسة البابا الثوري باسكال الثاني في العقد الثاني من القرن الثاني عشر . ولم تكن الكنيسة التي ينشدها الوالدنسيون هي المؤسسة الكاثوليكية السائدة وإنما هي كنيسة تضم رفقة روحية خالصة من القديسين والقديسات الذين جربوا الحب الإلهي والرحمة السماوية . وقد انتشرت الطائفة الوالدنسية في مدن الشمال الإيطالي حيث كان يوجد الشطر الأكبر من أتباعها في أخريات القرن الثاني عشر . لقد كان أتباع والدو هم أسلاف طائفة البروتستانت الذين طرحوا ، وللمرة الأولى ، طرحا واضحا المذاهب التي اعتنقتها أكثر طوائف البروتستانت ثورية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت مذاهبهم تتضمن ذلك الخلط بين الحرية والسلطة ، والتجربة الدينية الشخصية ودستور القديسين ، وهو الخليط الذي يميز أتباع مذهب إعادة التعميد An-abaptists الذين ظهروا في القرن السادس عشر ، وطوائف (التطهرين) Puritans الإنجليز الذين ظهروا في القرن السابع عشر ليكونوا آخر أتباعهم . وعلى الرغم من أن الوالدنسيين قد طردوا فيما بعد من مدن الشمال الإيطالي بواسطة الكنيسة ، فإنهم بقوا في أعداد صغيرة جداً في قرى جبال الألب حتى القرن السابع عشر ، وهم أولئك « القديسون المذبوحون » الذين يتحدث عنهم جون ملتون John Milton في قصيدته الشهيرة .

وقد تأكدت النغمة الأخروية المرتبطة بسفر الرؤيا في الحركات المعادية للسلطة الكنسية واتسع مضمونها بفضل الأفكار الفلسفية التي طرحها مقدم دير مغمور في جنوب إيطاليا هو يواقيم الفلوري Joachim of Flora قرب نهاية القرن الثاني عشر . وقد حظيت مقالاته بالرواج السريع . فقد سار يواقيم على نهج المقترحات التي كان سان برنار قد طرحها ، فادعى أن العالم قد دخل فعلا في زمن المسيح الدجال ، الذي يسبق مباشرة ، البعث الثاني للمسيح ويوم القيامة . ولكن بينما قنع برنار بأن يدين كبار الأساقفة بأنهم أسرى الشيطان ، جعل يواقيم من البابوية نفسها المسيح الدجال . هذا المذهب الثوري ، الذي قلب نظرية سلطة الكنيسة رأسا على عقب ، برهن على شعبيته الكاسحة لدى كافة الحركات الهرطقية بما في ذلك زعماء البروتستانت في القرن السادس عشر . فقد سهل على المنشقين إدانة الكنيسة وأتاح لهم أن يطلقوا لأنفسهم العنان في التعبير عن كراهيتهم للقساوسة الكاثوليك . وكان بوسع هذا المذهب وأتباعه أن يستبعدوا حتى أكثر فعال البابوية حمية وأخلاقية على أساس

أنها مجرد حيل خادعة للمسيح الدجال . واستمد أتباع اليواقيمية من قناعاتهم الأخروية القوة للصمود فى مواجهة أية هجمة مضادة من جانب الكنيسة . فقد تصوروا أنهم وحدهم الأتباع المخلصين للسيد المسيح الذى سينتصرون عند قدومه المظفر . لقد كانوا رجالا ذوى قناعات لم يكن ممكنًا زحزحتها تحت دعوى التقاليد ، أو العقل ، أو التريث .

ويظهر المضمون المزدوج لأفكار يواقيم بشكل أقوى ومطلق فى الحركة الهرطقية التى كسبت عددا هائلاً من الأتباع فى جنوب فرنسا ؛ وهى ديانة الكاتارى Cathari (الأطهار أو القديسون) أو الديانة الألبيجنسية (نسبة إلى مدينة ألبىAlbi فى تولوز حيث تمركزت قوة الهراطقة) ، أو مانوية العصور الوسطى ، كما يطلق عليها أحيانا . هذه الهرطقة ، التى كانت أشهر هرطقات القرنين الثانى عشر الثالث عشر وكانت تمثل الخطر الأكبر على وحدة المسيحية اللاتينية ، تتسم أصولها وتعاليمها الدقيقة بغموض محير كان محل نقاش العلماء ونزاعهم . ومالبثت كنيسة القرن الثالث عشر أن قضت عليهم قضاء تامًا بحيث أن كل مانعرفه عن الكاتارى تقريبا مستمد من الأوصاف التى نعتهم بها أعداؤهم ، ومن سجلات محاكم التفتيش الكنسية التى حاكمتهم وأدانتهم . والحقيقة المحورية هى أنه عند نهاية القرن الثانى عشر كان البورجوازيون الأثرياء ، وكثيرون من نبلاء تولوز والبروفانس ، وربما أيضا كونت تولوز وعائلته ، قد انضموا إلى كنيسة هرطقية تتشابه كثيراً مع مانوية القرن الرابع التى كان سان أوغسطين قد اعتنقها فترة ثم أدانها بأقسى العبارات حين أعتنق المسيحية . وكان كثيرون من أهل جنوب فرنسا ممن لم ينضموا فعلا إلى الكنيسة الألبيجنسية معجبين بزعمائها القديسيين على مايبدو ؛ ومن المحتمل جداً أن كونت تولوز كان من بين هؤلاء . وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا ثروة هذا الجزء من أوربا ، ومدى حيويته الثقافية ، لأدركنا أن تباعده المتزايد عن الكنيسة الكاثوليكية كان يهدد بحدوث إنقسام بالغ الأهمية فى العالم المسيحى . لقد كانت سيطرة الألبيجنسيين على جنوب فرنسا تعتبر فى نظرية البابوية وغيرها من القوى المسيحية فى كل مكان ، سرطانا يستشرى فى جسد الحضارة الأوربية ويجب اجتثاثه من جذوره أيا كان الثمن .

وأصول الحركة الكاثارية ليست معروفة على وجه اليقين . فقد ظهرت هذه الحركة على استحياء فى مدن الشمال الإيطالى وجنوب فرنسا . واختفت فى شمال إيطاليا ، ولكن أتباعها ازدادوا فى جنوب فرنسا بمعدل بطئ ، وبعد سنة ١١٥٠ برزت الحركة سافرة لكى

تتحدى الكنيسة بصفاقة ونجحت فى هذا . فقد كان قساوسة جنوب فرنسا مشهورين بعدم كفائتهم وفسادهم ؛ وهو موقف أتاح التربة الخصبة لنمو الهرطقة الشعبية ، كما كشف عن عقم الجهود السطحية التى بذلت لوقف نمو الكنيسة الألبيجنسية . ولابد أن ندين بابوية القرن الثانى عشر بتهمة التجاهل الطويل المدى للخطر الألبيجنسى ، وبتهمة التردد والرجعية فى علاج الموقف ، وهو العلاج الذى يتمثل ببساطة فى الدعوة ضد الكاثارى . وإن الحركة هرطقية تضرب مثل هذه الجذور العميقة فى المجتمع لايمكن القضاء عليها بأفصح المواعظ والخطب التبريرية . ومع هذا فإن ظهور الكنيسة الهرطقية الشعبية على مثل هذا النطاق الواسع كان أمراً جديداً في المسيحية اللاتينية . ولم يدرك القانونيون المحنكون الذين كانوا يسيطرون على الحكومة البابوية حتى سنة ١٢٠٠ أنه لابد من استخدام أساليب جديدة وجذرية للقضاء على الهرطقة الألبيجنسية .

لقد أكد ستيفن رنسمان وغيره من العلماء البارزين على أن هناك خطًا مباشراً من الأفكار يمتد القهقرى عبر الزمان ليربط الكاثارى فى القرن الثانى عشر بالمانويين في القرن الرابع . ويقول هذا الرأى بأنه بينما اختفت المذاهب المانوية فى العالم اللاتينى فى القرن الرابع ، فإنها غزت الإمبراطورية البيزنطية من مكانها الأصلى فى فارس لتصل إلى بلغاريا في القرنين العاشر والحادى عشر . والواقع أنه كانت هناك طائفة من المانويين فى البلقان تسمى البوجوميلين Bogomils ، وقال البعض إن مذاهب هذه الطائفة انتشرت فى شرق أوربا على طول الطرق التجارية فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر . وهذا رأى مقنع عل الرغم من عدم وجود الدليل الوثائقى الذى يدعمه . وعلى أية حال ، كان من الممكن استقاء اللاهوت الثنوى ، الذى هو جوهر المانوية ، من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى كانت تسيطر على الاتجاهات الفلسفية واللاهوت فى العصور الوسطى الباكرة . ويؤمن المانويون بأن هناك إلهين ، إله الخير وإله الشر ، إله النور وإله الظلام ، وهما يتصارعان فى سبيل الفوز فى العالم . والإنسان خليط بين الروح الخيرة والمادة الشريرة . والكاثارى هم الزهاد « الكاملون » الذين حققوا لأنفسهم روحانية خالصة . أما أولئك الذين لايحيون حياة نسك خالصة فيمكنهم، مع هذا ، أن يضمنوا لأنفسهم الخلاص عن طريق الاعتراف بزعامة الكاثارى . وهؤلاء هم «السماعون » للعقيدة الحقيقية يتلقون طقسا على فراش الموت يمسح عنهم كل ذنوبهم السابقة، ويتيح لأرواحهم فرصة استعادة اتحادها بالروح القدس . ومن الممكن أن نصل إلى

هذا اللاهوت عن طريق صياغة محورية للفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وهى صياغة تصور الرب فى صورة نافورة تفيض منها الأوح التى يعود إليها الصوفيون من خلال التطهر . ومع افتراض أن إمكانية الحصول على رحمة الرب من خلال القساوسة الكاثوليك مسألة منكورة ، فإن المسيحيين سوف يستنتجون أن التطهر هو المدخل الوحيد إلى الرب ، وسوف يكون عليهم أن يأخذوا بالتناقض الصوفى الحاد بين الروح والمادة . وهكذا ، إذن ، يبدو اللاهوت الألبيجنسى نتاجا للمزج بين نزعة معاداة السلطة الكنسية والفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وحتى إذا كانت بعض الأفكار المانوية النقية قد وصلت أوربا عن طريق البلقان أو بيزنطة ، فقد كانت قوة هذين المذهبين فى أوربا القرن الثانى عشر هى التى مهدت السبيل أمام الهرطقة الشرقية وأوجدت الحافز الثقافى الكامن وراءها .

وقد نسب أولئك الذين أضطهدوا الألبيجنسيين فى القرن الثالث عشر إلى هذه الطائفة معتقدات أخرى كثيرة إلى جانب لاهوتهم الثنوى الأصلى . فقد زعموا أنهم كانوا ينكرون تجسيد المسيح لأنه كان يعنى سجن الألوهية فى المادة الشريرة . كما أكدوا على أن المفهوم الكاثارى بأن المادة شر قد أدى إلى الأفكار والقيم الأخلاقية الشاذة . وقيل أن الألبيجنسين كانوا يعارضون الزواج لاعتقادهم أنه من عوامل استمرار مسخ الجنس البشرى الذى تحبس فيه الروح القدس داخل الجسد الشرير القبيح .وعلى أية حال ، فقد قيل أنهم لم يكونوا يسمحون بالإفراط الجنسى ، بقدر ماكانوا يتجنبون إنجاب الأطفال . وكانوا يحبذون نوعا من الانتحار الجماعى والفردى على حد سواء ؛ فقد كانوا يتركون الأطفال المولودين فى العراء كما كان قديسوهم « الكاملون » يجيعون أنفسهم حتى الموت . كذلك كانوا يعتقدون أنه مهما فعل السماعون (وهم الرعايا العلمانيون فى الكنيسة الألبيجنسية) قبل تلقى طقس التطهر الأخير يسقط الذنب عنهم . وبالتالى ، فقد أدعى أعداء الألبيجنسيين أن العلمانيين منهم كانوا يحيون حياة داعرة ماجنة للغاية ، إذ لم تكن هناك ضرورة للأخلاقيات إذا كان الجسد البشرى شريراً بطبيعته ، ويكفى طقس واحد لتحرير الروح .

ومن الصعب ، بسبب ندرة الأدلة ، أن نقرر ما إذا كانت هذه الاتهامات مجرد فكر ملفق وضعه رجال الكنيسة الكاثوليكية لإدانة الألبيجنسيين ، أم أنها تهم حقيقية . وكثيرون من الكتاب المحدثين المعادين للكاثوليكية ، أو العاطفيين ، شأنهم فى ذلك شأن من ينصبون أنفسهم حماة للمقهورين فى كل زمان ومكان ، لاسيما الروائيات من السيدات فى القرن

العشرين ، استبعدوا هذا الاتهامات تماما على اعتبار أنها مزيفة وملفقة ، وصوروا الألبيجنسيين جميعا فى صورة القديسيين الأتقياء الزاهدين ، وهو مايصدق دون شك على «الكاملين » . وكل من عارضوا « الأطهار » (الكاتارى) أدينوا باعتبارهم زبانية وأعداء للفكر الحر ، تحركهم أحط الدوافع وأدناها . ولكن التهم التى كيلت للألبيجنسيين ككل تدخل فى نطاق المعقول . فالوصف الوارد عن اللاهوت المانوى الأساسى فيه رنة صدق بسبب مانعرفه عن الفكر فى القرن الثانى عشر ؛ إذ يمكننا أن نرى فيه عناصر من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومذهب معاداة السلطة الكنسية antisacerdottalism كما أن الشكل الرمزى للزعامة القديسية للألبيجنسيين كان شائعًا فى جميع الهرطقات الشعبية فى القرن الثانى عشر . فضلا عن أن المذاهب المستقبحة والممارسات الذميمة المنسوبة إليهم ، استنتاجات منطقية من المبادئ التى قامت عليهم ديانتهم . ذلك أن هذه الأفكار المتمايزة والأخلاقيات الخاصة كان يمكن أن تنتج ، وأن تلقى تشجيعًا ، عن الحياة اللاهية التى كانت مناطق جنوب فرنسا تحياها ، وعن ثروة واستقلال سكان المدن فى هذا الإقليم ، فضلا عن صفات التخنث التى ميزت أبناء طبقة النبلاء المستأنسة التى ركنت إلى الطابع الحضرى فى هذه المناطق .

لقد كان الألبيجنسيون أتباع ديانة مختلفة أكثر منهم مجرد مسيحيين منشقين . وكانت تلك الديانة ديانة مريضة ، جاءت نتاجًا لحضارة مريضة . وكانت الحضارة مريضة بالقدر الذى جعلها تعرض الأطفال المولودين للموت فى العراء ، كما كانت حضارة انتحارية بالقدر الذى جعلها تؤمن بتدمير نفسها . وفى إطار بيئة الجنوب الفرنسى المحمومة كان يمكن لمشاعر التدين أن تؤدى إلى نتائج غريبة وعكسية . وأن تؤدى إلى ديانة لايقتصر تهديدها على وحدة العالم المسيحى وسلطة الكنيسة فقط ، وإنما يمتد إلى النظام الأخلاقى للحضارة الأوربية .

الفصل الثامن عشر
تدعيم الزعامة الدنيوية

١ - مشكلة السلطة :

أطاح النزاع حول التقليد العلماني بالتوازن الذى شهدته العصور السطى الباكرة ، كما أنهى التداخل بين كل من الكنيسة ecclesia والعالم mundus . ذلك أن الملكية فى العصور الوسطى ، التى كانت من خلق المثل العليا الكنسية ومن صنع رجال الكنيسة إلى حد كبير ، وجدت نفسها مضطرة إلى تطوير مؤسسات وسلطات جديدة ، وتمثلت النتيجة ، فى أخريات القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، فى وجود المثال الأول للدولة البيروقراطية العلمانية التى تجلت مقوماتها الأساسية فى الملكية الأنجلو - نورمانية . وكان النمو الفكرى شهدته أوربا خلال القرن الثانى عشر ، والذى لعب رجال الكنيسة الدور الأكبر فيه ، تدعيما للسلطة العلمانية أكثر منه تدعيما للزعامة الكنسية فى بعض جوانبه . إذ أن التحسن الذى طرأ فى مجالات التعليم والقانون جاء خدمة لأهداف الملكية ، بل إن إزدياد التدين كان فى صالح هذه الأهداف . فقد نتج عن ظهور الجامعات أن خرج جيل جديد من الإداريين الذين عملوا فى خدمة الحكومة الملكية . كذلك مهدت الزيادة الكبيرة فى مجال المعرفة القانونية السبيل أمام الملوك لإحكام سيطرتهم على المجتمع . كما زودتهم بأيديولوجية قانونية عرضتهم عن تراث الملكية الثيوقراطية الذى شاع فى العصور الوسطى الباكرة ، وهو تراث كان قد تلاشى أمام هجمات الإصلاحيين الجريجوريين . كذلك فإن ما نتج عن حركة التدين العلمانية من آثار مدوية ساهم فى تعزيز السلطة الدنيوية . فقد سهلت الانتقادات الشائعة حول رجال الكنيسة على الحكومة الملكية مهمة تأكيد زعامتها فى المجتمع . كما أن المشكلات العديدة التى ثارت بسبب حركة التدين الجديدة منعت الهيئة الكنسية من توجيه عنايتها لما كان يحدث فى الحياة السياسية ، وأتاحت للملوك حرية أكبر فى متابعة مصالحهم ودونما تدخل من جانب الكنيسة .

كان البلاط البابوى فى القرن الثانى عشر ينتهج سياسة واحدة ثابتة فقط تجاه ملوك غرب أوربا ؛ مؤداها ضمان عدم تهديد الحكام الشماليين لاستقلال البابوية بغزو إيطاليا . وأن

يتخذ البابوات موقفا مرنا ونفعيا تجاه الملوك الأوربيين محاولين أن يكسبوا منهم بعض التنازلات المحدودة ، مثل الاعتراف بالمحكمة البابوية قضاء مركزيا للكنيسة . وكان الهدوء حين يخيم على العلاقات بين الدولة والكنيسة يتيح للملكية أن تستغل التعليم الجديد لتحسين أساليب الإدارة فيها ، وتدعيم جهازها البيروقراطي ، فضلا عن تحسين الأيديولوجية التي تتيح للملكية تعزيز زعامتها للمجتمع . وفي إنجلترا وفرنسا ، تحت حكم آل كابيه خاصة ، كانت كل الطبقات والطوائف سنة ١٢٠٠ قد بدأت تعتاد الممارسة المنتظمة للسلطة الملكية في مجال القانون والضرائب ، إذ أن أهمية الحكومة المركزية في حياة النبلاء والبورجوازيين وكبار الكنسيين قد صارت أمراً معتاداً . فإذا ماكان الملك شخصية قوية ، تكون أداة السلطة الملكية من القوة بدرجة يصعب على البابوية أن تسيطر عليها . وقد ظهر إثنان من الملوك الذين تتجسد فيهم الكارزما (الصفة البطولية) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، هما : هنري الثاني ملك انجلترا وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . وبحلول العقد الأخير من هذا القرن كانت مسألة تقدم السلطة الملكية محل اهتمام عميق في البلاط البابوي. فقد ظهر نجاح الملكية في كافة الجوانب ، وكان على البابوية حينذاك أن تجابه مشكلة التعليم لكي تتعامل مع الملوك الذين كونوا موارد هائلة للثروة والقوة العسكرية بطريقة أو بأخرى ، كما استحوذوا على ولاء رعاياهم في بعض الأحوال .

٢ – قيمة الكارزما :

لقد قامت قوة الدولة في العصور الوسطى على أسس ثلاثة : صفات الحاكم الشخصية ، وأيديولوجية الملكية ، وقدرة المؤسسات الإدارية والقانونية والمالية . وفي المرحلة الأولى من حياة الملكية في العصور الوسطى كانت سلطة الملك تعتمد على شخصيته بشكل يكاد يكون تاما . فإذا كان محاربا قويا ، استأثر بالولاء ، على الأقل بين المحيطين به ، أما إذا لم تكن فيه من الصفات والسجايا ماينال إعجاب الطبقة المحاربة ، فإن السلطة والممتلكات الملكية تقع فريسة الاغتصاب من جانب السادة المحليين ، ولا يبقى للملك سوى التجاهل والإهانة . ومنذ القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر كانت الكنيسة تساند مؤسسات الملكية القاصرة بالتأييد المعنوي والديني ، وكان اعتماد ملوك تلك الفترة على الأيديولوجية كبيراً لضمان ولاء السادة الإقطاعيين من العلمانيين والكنسيين . وتفاوت مقدار نجاح كل منهم بحسب ظروفه : كما أنهم خاضوا تجارب مريرة لتطوير المؤسسات الإدارية الفعالة . وبعد أن

كانت البابوية الجريجورية قد وجهت ضربة لمذهب الملكية المقدسة القديم ، تحول الاهتمام إلى الأسس التنظيمية للسلطة الملكية ، على حين أخذ الملوك أيضا يبحثون عن دعائم جديدة ، أخلاقية ونظرية ، لسلطتهم . وقد أفادت ملكية القرن الثانى عشر من المؤسسات الإدارية ومن الإيديولوجية بدرجات متفاوتة ، ولكن خصال الملك وصفاته الشخصية كانت ماتزال ذات أثر قوى على السلطة الملكية . وحيثما وجدت البيروقراطية القادرة على الاستمرار والواعية بذاتها ، كانت الحكومات تستطيع أحيانا أن تظل قائمة دون انتقاص سلطتها فترة من الزمن، حتى لو كان من يشغل العرش شخصا غير كفء وغير جذاب . بيد أن قوة وكفاءة أمهر الأجهزة البيوقراطية كانت لابد أن تضعف إذا اعتلى العرش ملك قاصر فى شئون الحرب والحكم فترة طويلة . فإذا كانت شخصية الملك شخصية بطولية (كارزما) ، مقتدراً فى فنون الحرب والسلام ، وزعيما يحظى بإعجاب ملاك الأراضى ، كان لابد للسطلة الملكية أن تنمو بسرعة . فقد كان الملك ذو الصفات البطولية (الكارزمية) يستطيع أن يترك تأثيراً عميقا على المجتمع ، حتى بدون مساندة التراث الإدارى المركزى .

وعلى مدى أربعين سنة بعد سنة ١١٥٠ كانت الحياة محكومة بشخصيتين بطوليتين هما : هنرى الثانى ملك انجلترا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . وقد أظهر كل منهما مزيجا نادراً من الصفات التى جعلت كل منهما يبدو كما لو كان شخصا خارقا أمام معاصريه : فقد جمع كل منهما بين طول العمر ، والطموح اللانهائى ، والمهارة التنظيمية الخارقة ، فضلا عن العظمة فى ميدان القتال . وارتقى كل منهما العرش فى مطلع رجولته ، وكان كل منهما وسيما بارعا فى سلوكيات البلاط ، التى كان بعض نبلاء ذلك الزمان يجدون فيها جاذبية خاصة ، وذلك دونما أن تنالها نعومة المثل والأخلاقيات السائدة فى البلاط . وكذلك أفاد كلاهما من ضربات حظ فائقة فى مراحل حرجة من حياتهما . وكان كل من هنرى وفردريك رجل عمل ونشاط ولم يكن رجل بحث ودراسة . ولكنهما كان يقدران تماما مدى فائدة التعليم الجديد للحكومة الملكية لاسيما فى مجال القانون وكانا بارعين فى اختيار المتعلمين الذين خدموهما بإخلاص شديد . كذلك كان هنرى وفردريك مؤمنين بشكل رسمى ، ولكن حركة التدين التى انتشرت فى القرن الثانى عشر لم تكن تحركهما . فلم يكونا يعرفان الرحمة أو الشفقة فى متابعة أهدافهما ، كما أنهما لم يكونا متسامحين تجاه أعدائهما ، كان كل منهما يؤمن بنفسه أكثر من أى شئ آخر ، ولم يدر بخلد أحدهما قط أن يتساءل عما إذا كان نمو سلطته فى صالح المجتمع ورفاهيته أم لا .

وحين اعتلى هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩) عرش انجلترا ، ليكون أول ملوك أسرة انجو ، كان دوقا على نورماندى بالفعل ، وكونت انجو ، كما كان هو أقوى أمير فى شمال فرنسا . وفى سنة ١١٥٤م كانت أحوال انجلترا مواتية لتحقيق طموح هنرى . إذ كان الأمراء الإقطاعيون قد خرجوا لتوهم من غمار حروب أهلية مرهقة استمرت عشرين عاما ، وكانوا ينشدون من الملك الأنجلو نورمانى أن يعيد إقرار السلام ويبنى الحكومة الصالحة . وهذا هو ما أعطاهم هنرى إياه . فقد أكمل ما عمله جده ، هنرى الأول ، بأن جعل محكمة المقاطعة محكمة ملكية برئاسة قاض جوال مفوض من الملك . كما نجح فى انتزاع اختصاصات المحاكم الإقطاعية الخاصة ، وجعل الفصل فى القضايا المدنية المتعلقة بالنزاع حول الأرض من حق القضاة الملكيين ، بعد أن كانت تنظر أمام القضاة المحلفين فى القضايا . كذلك وسع من نظام التحرى أو المحلفين ، وأدخل نظام القضاة المحلفين فى القضايا الجنائية . ويشكل عهد هنرى الثانى أهم عصور بناء مؤسسات القانون العام . ومن ثم فقد شاع بين كتاب العصر الفيكتورى تبجيل هنرى الثانى باعتباره مؤسس المؤسسات الإنجليزية الليبرالية والملكية الدستورية . وكان هذا آخر مايرد بخاطره . إذ لم تكن أهدافه تختلف عن أهداف الحكام المعاصرين من أمثال فردريك بربروسا فى ألمانيا وفيليب أوغسطس فى فرنسا ؛ فقد كان يريد لنفسه أقصى قدر مكن من السلطة . ولم يستغل هنرى الثانى وقضاته القانون الرومانى كثيراً، كما أنه لم يقم بصياغة نظرية عن السلطة التشريعية المطلقة على أساس قوانين جستنيان . ولكن السبب فى هذا راجع إلى أن المؤسسات التشريعية الإنجليزية كانت قد اتخذت بالفعل مساراً مختلفا عن المسار الذى اتخذته المؤسسات التشريعية فى القارة . ووجد هنرى أن من الأرخص والأجدى أن يحافظ على النظام السائد ، وأن ينظمه ويحسنه . ووفقا للتقاليد السياسية التى وجدها قائمة فى انجلترا ، اعترف هنرى بأن عليه أن يحكم بمشورة الأعيان من الكنسيين والعلمانيين ، رسميا على الأقل . وأدخل على القانون مايعنى تحسين النظام القانونى السائد بموافقة الأعيان ، وفقا للمفهوم الجرمانى عن التشريع ، وهو مفهوم كان مايزال موجوداً فى انجلترا . وكان بعض رجال بلاط هنرى يخاطبونه بمصطلحات السلطة الرومانية المطلقة ، بل وبمصطلحات التقاليد العتيقة عن الملكية الثيوقراطية ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لصياغة أيديولوجية عن السلطة الملكية المطلقة فى انجلترا . ذلك أنه قنع بالسيطرة الفعلية على المجتمع من خلال المؤسسات الملكية ، والقانونية ، والمالية ، ومن خلال وضعه كسيد إقطاعى أعلى ؛ وكانت سلطته مطلقة على الصعيد العملى ، على حد تعبير جوليف J.E.Jolliffe .

وقد جلب زواج هنرى من إليانو أميرة أكويتانيا إمارة جديدة ، حين ضمها إلى ممتلكاته صار حاكما على معظم الشطر الغربي من فرنسا . فقد كان رجلا ذا حيوية دافقة ، وقضى زمنا طويلا فى تناول شئون إماراته فى القارة . وفى إنجلترا قنع بتحقيق النظام والثروة والسلطة ، دون أن يشغل باله كثيرا بالأسس الأيديولوجية لحكمه . ويمكن أن نتأكد من كفاءة حكومة هنرى من كتاب « الحوار حول سلوك موظف المالية » ، وهو أول مقالة إدارية كبرى كتبت فى العصور الوسطى . وقد ألفها ريتشارد فيتزنيل Riehard Fitz Neal الذى كان رئيس الجهاز المالى فى حكومة هنرى ، والذى عُيِّن أيضًا أسقفًا للندن لقاء ماقدمه من خدمات. ومقالة ريتشارد عمل منظم حافل بالمعلومات بشكل يستحق الإعجاب ، وقد كتب فى صيغة حوار ، وهى الصيغة التى كانت تحظى بشعبية كبيرة فى القرن الثانى عشر . وفلسفة الإدارة التى توضحها مقدمة الكتاب ذات أهمية بالغة . إذ أن فيتزنيل يخبر من يلتحق حديثا بالإدارة المالية ألا يقرروا صلاحيتها أو عدم صلاحيتها . وهنا يتجسد موقف البيروقراطية المدنية التى لاترى أية سلطة أخرى غير الإرادة الملكية .

وقد ساعد على تقدم السلطة الملكية فى عهد هنرى الثانى غياب المعارضة المنظمة . ذلك أن العدد القليل من أبناء الطبقة الإقطاعية ، الذين عرفوا باسم الفرسان فى الجلترا ، أفادوا من إزدياد السلطة الملكية ، لأنهم كانوا يضمنون العدالة فى بلاط الملك أكثر مما يضمنونها فى محاكم سادتهم الإقطاعية الخاصة . ولم يكن كبار النبلاء راغبين فى الصدام مع الملك الذى كانت لديه هذه الموارد الهائلة ، والذى كان يمكنه أن يدمرهم ببساطة عن طريق القانون والضرائب . كذلك كان هنرى محبوبًا جداً لدى الأساقفة الإنجليز ، الذين كانوا قد بدأوا حياتهم موظفين وكتبة فى الإدارة الملكية ، وكانوا يشعرون بمشاعر الإمتنان الشخصى تجاه الملك . كذلك كان انتباه البابوية منصرفا عن الجلترا صوب الصراع ضد الإمبراطور الألمانى . وكانت المعارضة الوحيدة التى واجهها هنرى الثانى من مصدر غير متوقع : من توماس بيكيت Thomas Becket الذى كان قد عينه بنفسه رئيسا لأساقفة كانتربورى ، والذى كان مستشاراً ملكيا قبل ذلك . وكانت دوافع كبير الأساقفة لمحاولة تحديد سلطة الملك على الكنيسة الإنجليزية واستعداده للدخول فى نزاع مرير مع صديقه وحاميه السابق سببا فى كثير من التفكير والتدبر من جانب الكتاب المعاصرين والمؤرخين ومؤلفى الدراما المحدثين على حد سواء . ومن الواضح أن بيكيت لم يكن يتمتع بالاستقرار النفسى ، ولكن اتجاهاته لاتقلل من

أهمية صراعه ضد تقدم السلطة العلمانية ولاتنقص من وضعه كأول شهيد يروح ضحية الدولة العملاقة .

فقد كان بيكيت ابنا لفارس فقير ذهب في تجارة إلى لندن . وهو مايعنى أن توماس كان بورجوازيا ارتقى إلى منصب عال جداً فى الحكومة الكنسية والملكية ، وهو منصب لم يكن معروفا فى زمانه بمنطقة شمال الألب . وكانت لوالده طموحات كبيرة نحو ابنه المبكر فى النضج فأرسله لكى يتعلم فى المدارس الفرنسية الجديدة . وبعد عودته إلى انجلترا صار السكرتير الأول فى أسقفية كانتربورى ، ثم مستشاراً ملكيا ، وأخيراً عينه هنرى رئيسا للكنيسة الإنجليزية عندما مات كبير الأساقفة . وبدأ يناضل ضد السلطة الملكية بطريقة عنيفة تماثل طريقته فى خدمة الملكية من قبل ، مما أدهش هنرى وكدره للغاية . وباعتباره بورجوازيا ارتقى إلى أعلى الوظائف التى كانت حتى ذلك الحين ماتزال وقفا على ملاك الأراضى ، كان بيكيت أسير شعور قوى بعدم الإطمئنان والدونية ، وهو شعور كان يعوضه بالتفانى فى أداء واجباته. فقد عقد العزم على أن يكون خادمًا عظيمًا للكنيسة بقدر ماكان خادمًا عظيمًا للملكية . ولكن هذا أدى به إلى أن يتخذ موقفا ضد التراث الطويل من السيطرة الملكية على الكنيسة الإنجليزية . وأخذ يدعو إلى مذاهب عتيقة حتى فى روما نفسها . وكان رفاقه يضيقون به مثلما ضاق به الملك حين اتخذ بيكيت هذا الموقف ضده . وأشار أسقف لندن الذى كان إداريا وعالما ممتازا ، بتلميحات قاسية إلى خلفية بيكيت البورجوازية كما أن الأساقفة عموما اعتبروا أن كبير الأساقفة معتوه أو رجل أخرق . والمسألة التى تنازع عليها هنرى الثانى وبيكيت هذا النزاع المرير هى : هل تجب محاكمة القساوسة المتهمين فى الجرائم أمام المحاكم الكنسية أم أمام المحاكم الملكية ؛ وكان بيكيت يرى هذه المسألة جزءاً من مسألة أكبر تتعلق بخضوع الكنيسة الإنجليزية للسيادة القانونية التى كانت الحكومة الملكية تفرضها على المملكة بأسرها . وقد رفض أن يستسلم فى هذه المسألة ، وإذ لم يلق تأييدا من رفاقه الكنسيين هرب إلى المنفى فى فرنسا وطلب العون من البابوية. وقد أدى سلوك بيكيت إلى إرباك البابا كثيراً. فقد كان من الصعب عليه أن ينكر صحة الأسس النظرية الى قام عليها رأى كبير الأساقفة ولكن البابا لم يكن يرغب إثارة غضب واحد من أكبر وأقوى ملكين فى أوربا ، لاسيما وأن البابوية كانت متورطة فى صراع ضد الملك الآخر (فردريك بربروسا) . وأخيرا عاد بيكيت إلى انجلترا ليواصل نضاله بطريقة متهورة طائشة انتهت بالكارثة التى جلبها على نفسه . فقد لجأ

إلى حرمان بعض خصومه من الأساقفة الإنجليز ، وأخيراً صرح الملك الساخط لبلاطه بأنه يود لو خلصه أحد من هذا الرجل المزعج ، وقام أربعة من الفرسان الذين سمعوا هذه العبارة اللاهية، رغبة منهم فى الحصول على رضاء الملك ، بالتوجه إلى كانتربورى حيث ذبحوا كبير الأساقفة . ويبدو أن بيكيت كان يتوقع هذه النهاية . ولاشك فى أنه كان يرحب بالاستشهاد ، الذى سيكون إنجازاً غير عادى لواحد من البورجوازيين ،كما أنه سوف يحقق له رغبته فى أن يكون رجل كنيسة مثاليا . فقد كان ينتظر قاتليه فى هدوء عند المذبح العلوى فى كاتدرائية كانتربورى ، ولم يعترض سوى على أحد مغتاليه لأنه كان فصلا له ومن ثم فهو يحنث بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه حين يقتل سيده .

وكان بيكيت ميتا أكثر فائدة للكنيسة منه حيا . فسرعان ماصار كبير الأساقفة المشاغب شهيد كانتربورى ، وظل ضريحه يجتذب آلاف الحجاج على مدى القرون الثلاثة التالية . أما البابوية التى كانت قد تجاهلت بيكيت فى حياته كثيراً ، فقد وجدت فى استشهاده فرصة للحصول على تنازلات من الملك الإنجليزى المفزوع . فلكى يبرئ الملك ساحته من موت بيكيت كان عليه أن يستسلم لمطلب القساوسة الإجراميين . ونتج عن هذا نظام خاص هو نظام «منفعة الإكليروس » الذى استمر موجوداً حتى عصر الإصلاح الدينى . فإذا كان هناك رجل أدانته إحدى المحاكم الملكية ، ويستطيع أن يثبت أنه من رجال الكنيسة ، تنتقل القضية إلى اختصاص القضاء الكنسى ؛ وعلى أية حال ، فالواقع أن القضاة الملكيين كانوا يواصلون نظر القضية قبل أن يتمكن المتهم من إثبات وضعه الكنسى . وأهم تنازل قدمه هنرى الثانى للبابوية هو اعترافه بأن كل رجال الكنيسة الإنجليزية يمكنهم اللجوء إلى المحكمة البابوية فى المنازعات الكنسية ، بما فى ذلك النزاع حول انتخابات الأساقفة ومقدمى الأديرة . كان هذا هو أول مثال على تغلغل بعض أشكال الولاية البابوية الفعلية على كبار الكنسيين الإنجليز . ويكشف اتخاذ البابوية لاغتيال كبير أساقفة كانتربورى ذريعة لتحقيق هذا الأمر عن مدى ماكانت عليه السيطرة الملكية على الكنيسة الإنجليزية منذ زمن وليم الفاتح . وكان تنازل هنرى هو المدخل الذى دلف منه النفوذ البابوى فى الشئون الكنسية الإنجليزية ، ولكن على العموم ، لم تتأثر السلطة الملكية بموت بيكيت إلا قليلا . فخلال السنوات الثلاثين التالية ظل الملك يعين مقدمى الأديرة والأساقفة ، كما كان يحدث من قبل ، ويتقبل يمين الطاعة والولاء من أولئك السادة الروحيين ، ويفرض الضرائب الباهظة على الكنيسة الإنجليزية . ذلك أن ولاء كبار الكنسيين الإنجليز للتاج لم يتأثر بالفاصل الذى شغله بيكيت .

كانت سلطة هنري الثاني قائمة على أساس المزج بين الشخصية البطولية والمهارة الإدارية . أما ولداه اللذان أعقباه على العرش الإنجليزي ، ريتشارد الأول قلب الأسد (١١٨٩ - ١١٩٩) ، وجون (١١٩٩ - ١٢١٦) فلم يظهر أي منهما سوى صفة أو أخرى من صفات أبيهما ، ولم يحدث ذلك سوى بدرجة محدودة . فقد ذاع صيت ريتشارد كأعظم فارس مقاتل في العالم المسيحي ، مما جعله محبوبا في أوساط النبلاء بصفة شخصية ، ولكنه لم يكن قديراً في شئون الحكم والقانون . وربما كان من حسن حظ السلطة الملكية في إنجلترا أن قضى جل عهده في مغامرات فيما وراء البحار تاركا الحكومة بأيدي الجهاز البيروقراطي القدير الذي بناه أبوه . ومن ناحية أخرى ، كان جون على قدر من العبقرية الإدارية وساهم مساهمات هامة في أساليب الإدارة الملكية . ولكنه مصابا بجنون الإضطهاد بحيث كان يشك في خيانة الجميع ، كما أنه أساء استخدام إجراءات القانون العام في سبيل توجيه كراهيته ضد بعض الأسر النبيلة التي كان يشك في خيانتها . وسرعان ماتحول أبناء هذه الأسر إلى متمردين لأن تلك كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنفسهم من الدمار . فضلا عن أنه كان مصابا بخلل عقلي يعرضه لحالات تهيج تعقبها فترات الجمود والكآبة ، ففي بعض الأوقات كان يبدي نشاطًا وطاقة متدفقة ، ثم يصير عاجزاً تمامًا عن التصرف ، لاسيما في الأوقات الحرجة التي يكون حضوره فيها إلى ساحة القتال مطلوبا . وكانت نقطه الضعف الثالثة في شخصية الملك جون متمثلة في ميوله الشهوانية ، التي كانت بداية لسلسة من الحوادث التي أدت إلى هزيمته الشنعاء في مواجهة الملكية الفرنسية . فقد اتخذ ابنة كونت فرنسي صغيرة زوجة له تشاركه الجلوس على العرش ، وكان أبوها قد وافق فعلا على خطبتها لأمير إقطاعي مغمور . ولجأ السيد الإقطاعي المفجوع ، الذي سرق منه الملك الإنجليزي خطيبته ضاربا عرض الحائط بتقاليد العصر ، إلى ملك فرنسا . وبما أن جون كان من الناحية الرسمية فصلا تابعا لملك فرنسا بسبب أملاكه الإقطاعية في نورماندي ، وأكويتانيا ، وأنجو ، فإن فيليب أوغسطس ، ملك فرنسا ، كان هو السيد الأعلى لكل من طرفي النزاع . وكان جون في إحدى حالات جبنه العميق فرفض أن يستجيب إلى الدعوة التي وصلته بالحضور إلى بلاط الملك الفرنسي ، وأعلن فيليب أوغسطس وبلاطه أن جون فصل إقطاعي مارق وأن عليه أن يعيد نورماندي وأنجو إلى التاج الفرنسي . ولو أن جون كان قد دفع بجيشه إلى الميدان بسرعة فربما كان سيمنع فيليب من الإستيلاء على نورماندي وأنجو ، ولكنه لم يفعل شيئا ، بل إنه حتى لم يرسل التعليمات إلى ضباطه في نورماندي . وهكذا سقط وطن الملوك الإنجليز الأصلي في يدي ملوك آل كابيه ودونما ضربة واحدة .

كان فقدان نورماندى كارثة ، ليس على أسرة أنجو فقط وإنما بالنسبة لكثيرين من النبلاء الإنجليز الذين كانوا يمتلكون الضياع عبر القتال الإنجليزى . ومن ثم كان عليهم منذ ذلك الحين فصاعداً أن يحصروا مصالحهم فى نطاق إنجلترا ، وأصبحوا بالضرورة أكثر إهتماما باستخدام جون للمؤسسات الملكية والقانونية والمالية . وكان أى ملك يلقى الهزيمة فى ساحة المعركة من ملوك العصور الوسطى عرضه لأن يفقد إحترام شعبه ويجد من يتحدى سلطته فى وطنه . ولكن جون كان ، ببساطة ، يستخدم بطريقة قاسية للغاية مؤسسات السلطة الملكية التى تطورت فى أيام أبيه . ولكن افتقاره التام للجاذبية الشخصية المسيطرة ، أزاح من الموقف السياسى الإنجليزى ذلك العامل الذى كان يعتبر عوضًا عن صرامة مؤسسات الملكية الإنجليزية الأنجوية من قبل .

كانت الصفات البطولية للملك ، والتى ساهمت فى نمو السلطة الملكية فى إنجلترا . إبان عهد هنرى الثانى ، هي المعول الأساسى للملكية فى ألمانيا فى خلال الفترة نفسها . ذلك أن حكم فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) كان إنجازاً هائلا ، وكان فعلا رائعًا حاول الملك من خلاله التغلب على العقبات الضخمة التى إعترضت سبيل إحياء السلطة الإمبراطورية. فقد هزمه أعداؤه الأقوياء فى جميع النواحى تقريبا ، ولكنه استطاع أن يخرج ظافراً فى النهاية بفضل جهوده الخارقة المتواصلة ، وبفضل ضربة حظ معجزة . وحينما ارتقى فردريك العرش كانت إحتمالات إحياء السلطة الإمبراطورية الألمانية تبدو ضئيلة . فخلال نصف القرن السابق كان كبار الأمراء الألمان قد زادوا من سلطتهم الإقليمية ، ولم يتركوا للملك سوى أملاك أسرته ، كما لم يبق له سوى أثر من السلطة على بعض الأسقفيات والأديرة. وعلى مدى ربع قرن سبق إرتقاء فردريك للعرش لم يكن الملوك الألمان يحاولون شيئا للحيلولة دون النتائج المدمرة التى أفرزها النزاع حول التقليد العلمانى . فقد كانوا متورطين فى الحروب الإقطاعية الكبرى التى إندلعت بين أحفاد الساليين وهم دوقات الهوهنشتاوفن فى سوابيا من ناحية ، وبين الفلفيين Welfs الذين كانوا هم دوقات بافاريا أولا ثم صاروا دوقات سكسونيا نتيجة زواج تحالف من ناحية أخرى . وحينما انتهى الخط السالى بهنرى الخامس سنة ١١٢٥ ، رفض الأمراء إعطاء التاج لابن أخيه دوق سوابيا خوفا من أن يحاول استعادة السلطة التى كان الملوك الألمان قد فقدوها أثناء الصراع حول التقليد العلمانى . وكان اختيارهم لدوق سكسونيا لوثير Lothair (١٢٥ - ١١٣٧) توريطا للأخير فى حرب

إقطاعية مريرة ضد أمراء الهوهنشتاوفن . وفي بحثه عمن يحميه ربط نفسه بزواج تحالف مع الفلفيين . وقد استطاع أحد أمراء الهوهنشتاوفن إرتقاء العرش العرش تحت اسم كونراد الثالث (١١٣٧ - ١١٥٢) عقب موت لوثير . ولكن الصراع بين الأسرتين الكبيرتين استمر دونما هوادة .

وحينما خلف فردريك بربروسا عمه في سنة ١١٥٢ ، بدا وكأن هناك فرصة لإنهاء الحرب الإقطاعية ، لأن فردريك كان فلفيا من ناحية أمه . ولكن لم يكن ممكنا إرضاء هنرى الأسد ، دوق سكسونيا الفلفي ؛ فقد ظل هو العدو اللدود للملكية الهوهنشتاوفن . ولم يكن في جعبة فردريك مايبدأ به سوى قوة شخصية ، ودوقية سوابيا ، ودوقية فرنكونيا ، وموارد أخرى ضئيلة . وكان التاج الألماني مايزال يتمتع ببعض ظلال سيطرته السابقة على الأسقفيات والأديرة ، ولكن هذه لم تكن تستطيع أن توفر له الموارد اللازمة لسحق الفلفيين وغيرهم من الأمراء الكبار . وحاول على مدى فترة من الزمان أن يضيف إلى أملاك أسرته وأن يؤسس أملاكا للتاج في أراضي الراين ، إلا أنه سرعان ما أدرك أن هذه مهمة سوف تستغرق زمنا طويلا . فضلا عن أنها في النهاية لن تقدم له الموارد التي يحتاج إليها . وتركز أمله الوحيد في سيطرته الفعالة على شمال إيطاليا ، وفرض الضرائب الباهظة على الكومونات الإيطالية . لأن ذلك فقط كان هو السبيل الذي سيوفر له الثروة التي تُيسر له سبيل هزيمة الأمراء الكبار . وكانت تلك خطة محفوظة بالمخاطر ، لأنه كان من المحتمل أن تقاوم المدن الإيطالية السيطرة الإمبراطورية الحقيقية ، كما أن مثل هذه الخطة قد تثير مخاوف البابوية . ولكن فردريك لم يكن أمامه بديل آخر إذا كان يرغب في إستعادة السلطة الملكية في ألمانيا . كذلك كان إحتمال تأكيد السيطرة الإمبراطورية في ألمانيا يناسب ميول فردريك الشخصية . فقد كان لديه إحساس قوى للغاية بكرامة منصبه وما فيه من سلطات يقررها القانون الروماني ، كما كان به ميل إلى تصوير نفسه في صورة خليفة الأباطرة الرومان . فقد كان واقعا تحت تأثير المذهب الجديد القائل بسلطة الملك التشريعية المطلقة . ولم يكن بقادر على احتمال رؤية استمرار التناقض بين حالة الضعف السائدة والمجد والسلطة الملكية الى يقتضيها منصبه .

وقام فردريك بحملته الأولى على إيطاليا ١١٥٤-١١٥٥ . وكان يريد أن يقوم باستعراض للقوة ، لكي يؤكد الهيمنة الألمانية بصورة شخصية ، ولكي يتوج إمبراطوراً بيدى البابا . وقد حقق هذه الأهداف جميعًا ، من ناحية لأن البابا كان يواجه المتاعب مع الحركة الكومونية في روما ، وهي حركة يقودها واحد من تلاميذ أبيلار المتحمسين هو أرنولد البريسكي ، الذى كان


ألمانيا الجديدة
الحدود عند تتويج فردريك بربروسا ١١٥٢ ميلادية
الحدود فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى
أراضى الكنيسة
البحر البلطى
دوقية بوميرانيا
بروسيا
كونتية هولشتين
دوقية إسلافيا
مركيزية براندنبرج
برلين
بوسن
نهر وارث
نهر الفستولا
مملكة بولندا
مركزية لاوزتس
دوقية سكسونيا
درسدن
دوقية سليزيا
كراكاو
براغ
مملكة بوهيميا
مركيزية موراڤيا
مملكة المجر
دوقية
دوقية باڤاريا
ڤيينا
برسبورج
نهر الدانوب
النمسا
دوقية كارنثيا
دوقية ستيريا
مملكة إيطاليا
دوقية كارنيولا
تريستا
جمهورية البندقية
البندقية
كرواتيا

يمزج بين الثورية الفكرية والثورية الاجتماعية . وقد أدعي أرنولد والكوميون الاستقلال عن المدينة وطلبوا مساعدة الملك الألماني ، ولكن فردريك لم يكن ليتعاطف مع الزعماء الحضريين في إيطاليا ومثلهم الأعلى عن المدينة - الدولة City -State ؛ فقد كان هذا النموذج يتناقض مع هدفه النهائي في حكم شمال إيطاليا . وقبض فردريك على أرنولد البريسكي ؛ وأمر بحرقه وذر الرماد المتخلف عن جسده في مياه نهر التيبر .

كان هناك فرقاء ثلاثة في الموقف بشمال إيطاليا ؛ الإمبراطور ، والكومونات ، والبابوية . وفي أثناء زيارة فردريك لروما أزعجه إصرار البابا على أن يقوم رسميا بمهام البابا وفقا لما تقضي به هبة قسطنطين . إلا أن حملة بربروسا الأولى على إيطاليا كشفت له أنه هو والبابا حليفان طبيعيان ضد المدن - الدول وضد مبادئ الحكم الذاتي . وعاد إلى ألمانيا لإعداد حملة كبيرة تضع ثروات إيطاليا تحت سيطرته . وفي الوقت نفسه نشب جدل كبير في الدوائر البابوية حول ماإذا كان ينبغي على البابوية أن تربط نفسها بالتحالف مع فردريك ضد الحركة الكومونية ، أم أنها يجب أن تنضم إلى المدن - الدول وتعود إلى السياسة البابوية التقليدية وتحاول إبعاد الإمبراطور عن إيطاليا . لقد كان القرار صعبا . فقد اشتهر سكان مدن الشمال الإيطالي بمنازعاتهم مع الأساقفة وآرائهم المعادية لرجال الكنيسة بل ولسلطانهم الروحي . ومن المؤكد أن البابا لم يكن يريد وجود الكومون في روما . فهل ترمي البابوية بثقلها إلى جانب البورجوازيين المشاغبين ؟ لقد كان الإختيار شاقا وحدثت إنقسامات في صفوف الكرادلة . وكان أولئك الذين يعارضون فردريك يحاولون إحداث الشقاق بين البابا والإمبراطور بوسائل وأساليب استفزازية . فقد زعم أحد المندوبين البابويين وهو يخاطب بلاط فردريك سنة ١١٥٧ أن الأباطرة يستمدون سلطتهم من البابا ، وهو أمر كان يعرف أنه سوف يغضب الحاكم الشاب الطموح كثيراً . وقد اتجه أدريان الرابع ، البابا الإنجليزي الوحيد ، في روية وبطء نحو التحالف مع الكوميونات ضد المبعوث الألماني ، وحين اعتلى عرش القديس بطرس ذلك الكاردينال الذي كان قد أثار حفيظة الإمبراطور تحت اسم البابا اسكندر الثالث في سنة ١١٥٩ ، بات واضحا أن السهم قد نفذ وأن لاسبيل لتجنب صراع كبير آخر بين الإمبراطورية والبابوية .

وخلال السنوات العشرين التالية قام فردريك بثلاث حملات كبيرة ضد مدن الشمال الإيطالي ، وأحرز بعض الإنتصارات الأولية بما في ذلك الهزيمة التي ألحقها بسكان ميلانو

المشاغبين . وفي اجتماع عقد في سهل رونكاجلي Roncaglian سنة ١١٥٨ أعلن أساتذة مدرسة الحقوق في بولونيا أن مايدعيه الإمبراطور من حق تعيين كبار الموظفين وفرض الضرائب على المدن إنما هي حقوق تتوافق مع القانون الروماني . وفي البداية ساعد فردريك على هذا ماكان موجوداً بين حكام المدن الإيطالية الأوليجاركيين من إنقسامات . فقد كان بعضهم ، الجبللينيين Ghibelline نسبة إلى الصيغة الإيطالية من كلمة Waiblingen إحدى ممتلكات الهوهنشتاوفن ، يرحبون بالإستسلام لمطالب فردريك والآراء لقانونية التي طرحها رجال القانون المدني ؛ ولكن الأغلبية ، الجلفيين Guelphs ، نسبة إلى أعداء الهوهنشتاوفن في ألمانيا ، كانت مصممة على تكريس كافة مواردها للنضال في سبيل الفوز بالاستقلال . وعلى مدى سنوات قليلة كان الإمبراطور قد عقد العزم على إخضاع بعض المدن الإيطالية لسلطته المطلقة، ولكنه بعد مرور عشرين عاما اكتشف أن التحالف بين البابوية والكومونات أكبر كثيراً من إمكانياته . فقد كان البابا يساهم بالزعامة والقدرة التنظيمية كما عمل على توحيد معظم المدن ، التي كانت قد دأبت على محاربة بعضها البعض في كراهية عنيفة في العصبة اللمباردية (١١٦٧) وفي سنة ١١٧٤ ألحقت جيوش العصبة اللمباردية هزيمة ساحقة بالقوات الإمبراطورية في معركة ليناتو Legnano . وقرر فردريك إنقاذ مايمكن إنقاذه والسعي نحو السلام . أما إسكندر الثالث ، فإنه بعد أن حقق هدفه بإبقاء الإمبراطور بعيداً عن إيطاليا ، استطاع أن يكون كريما ؛ فعفا عن الإمبراطور الذي كان قد عين بابا منافسا ، وفقا للأسلوب التقليدي في الصراع بين البابوية والإمبراطورية . وقد أتاحت معاهدة السلام التي عقدت في كونستانس Constance سنة ١١٨٣ لبربروسا أن ينقذ ماء وجهه فقط . فقد اعترفت له البابوية بسلطة فضفاضة على شمال إيطاليا . ولكنه لم يخول حق تعيين موظفي المدينة وفرض الضرائب عليها . وبعبارة أخرى ، فبعد عشرين سنة من الحرب فشل فردريك في السيطرة على الشمال الإيطالي ، وهي السيطرة التي كان يعرف أنها الخطوة الكبرى الأولى في سبيل استعادة السلطة الإمبراطورية على الأمراء الألمان .

وحين عاد فردريك إلى ألمانيا بعد هزيمته في شمال إيطاليا ، كان قد صار رجلا مرهقا تملؤه المرارة . أما الأمراء ، الذين كانوا أبعد مايكونون عن الخضوع والسيطرة الملكية ، فكانوا يحكمون سيطرتهم على الثروة والسلطة في ألمانيا ، ويعززون مواقعهم كزعماء للمجتمع بقيادتهم لحركة الشعب الألماني الكبرى صوب الشرق . ففي ثلاثينيات القرن الثاني عشر كان

الألمان ، وللمرة الأولى منذ عهد أوتو الثانى ، قد بدأوا يضغطون من جديد صوب العالم السلافى فى الشرق ، وعبروا نهر الألب Elbe . وفى القرن الثالث عشر كانت « ألمانيا جديدة » تمتد صوب الشرق حتى نهر الأودر Oder وحتى إلى ما وراء النهر . وفتحوا ساحل البحر البلطى وأسسوا مراكز تجارية مثل ليبك Lübeck . كانت « ألمانيا القديمة » غرب نهر الألب من خلق الكنيسة والملكية الألمانية . ولكن استيطان « ألمانيا الجديدة » وتعميرها تم بتوجيه من الأمراء الكبار الذين فهموا حركة التعمير فاندفعوا لقيادتها . ذلك أن الدوقات والأمراء الذين كانت لهم بالفعل إقطاعات كبيرة فى ألمانيا القديمة ، كونوا لأنفسهم آنذاك أملاكا شاسعة فى الشرق ، وبذلك أتوا عملية قلب موازين القوى فى ألمانيا وقللوا ، نسبيا ، من أهمية سلطة الهوهنشتاوفن القائمة . وكان توجيه الدوقات لحركة الزحف صوب الشرق Drang nach Osten لا تضع أى إعتبار للسلاف الذين راحوا ضحية المذابح والإستعباد ، ولكنها كانت حركة على قدر كبير من الكفاية والمهارة . فقد إجتذبت الأمراء الفلاحين من البلاد الواطئة وغرب ألمانيا ، ولاسيما أولئك الذين جربوا الأساليب الجديدة فى التعمير ، عن طريق شروط مغرية جداً للإستيطان . فقد وعدوا المهاجرين من الحدود الشرقية بالتحرر من الواجبات الإقطاعية والخدمات الإقطاعية القديمة ، ومساحات واسعة من الأرض بدلا من الشرائط الإقطاعية الضئيلة . هذه العروض الجذابة ، حين امتزجت بخصوبة التربة والحماية التى كفلها الأمراء لفلاحيهم ، أوجدت حركة مستمرة باتجاه الشرق فى القرن الثانى عشر ، الأمر الذى أدى إلى خلق ألمانيا جديدة . ولم يلعب فردريك بربروسا أى دور فى هذا التطور وإنما سمح له أن يمضى فى طريقه دون أية محاولة للتدخل ، وزاد الأمراء فى أملاكهم وسلطاتهم زيادة كبيرة بسبب غيابه . وانتقد الكتاب المحدثون فردريك بسبب غفلته التى ورطته فى شراك السياسة الإيطالية على حين تجاهل فتح ألمانيا الشرقية ، حيث كان يمكن للهوهنشتاوفن أن يخلقوا الممتلكات الملكية التى كانوا بحاجة إليها لو أنهم تولوا زمام الحركة منذ البداية . وبالنظر إلى أحداث الماضى كان هذا خطأً فادحًا فى الحسابات حكم مستقبل الملكية الألمانية على المدى الطويل . ولكن من الصعب أن نقسو على فردريك لارتكاب مثل هذا الخطأ الجسيم ففى بداية عهده كانت الحركة صوب الشرق ماتزال حركة متواضعة . وكان فردريك يعتقد أنه يحتاج إلى زيادة سريعة فى موارده ، وظهرت إيطاليا كأنها المكان الذى يمكن أن يحقق له ذلك ، وكان خلق أملاك غنية جديدة فى الشرق احتمالا يبدو بعيد المنال .

لقد فشل رهان فردريك ، ولكن بنهاية سبعينيات القرن الثانى عشر كان فى حال أسوأ من حاله عندما بدأ ، ولكنه كان قد أختار أفضل الأختيارات وأكثرها معقولية من بين البدائل المطروحة فى ظل الظروف التى كانت متاحة أمامه .

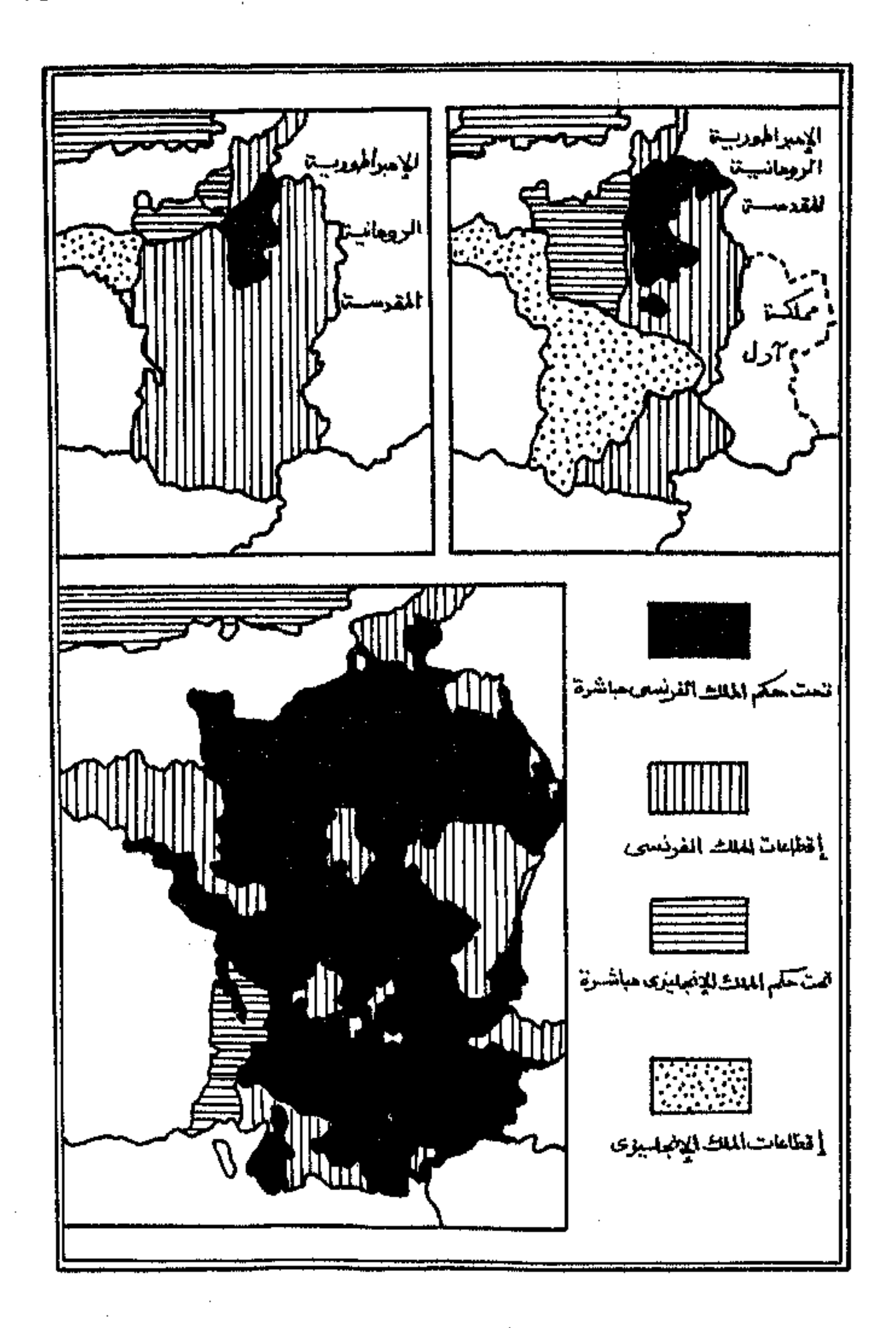
وحين عاد تلملك المسن إلى ألمانيا يجر أذيال الخيبة والإخفاق ، صب جام غضبه على عدوه الجلفى القديم ، هنرى الأسد . وكانت هناك بارقة أمل ضعيفة فى النصر تلوح أمام ناظرى فردريك ، تتمثل فى تسخير موارد التاج الإقطاعية بالطريقة التى كان الحكام النورمان والملوك الأنجويون قد اتبعوها فى انجلترا : على مدى مايزيد على مائة سنة ، وهى الطريقة نفسها التى سار عليها ملوك آل كابيه فى فرنسا بعد ربع قرن من الزمان . ولم يكن الإقطاع الألمانى هو الإقطاع الانجليزى . ذلك أن الهرم الإقطاعى، فى الإمبراطورية كان مبتوراً ، وبينما كان كبار الدوقات هم أفصال الإمبراطور ، لم يكن أفصالهم يعترفون بأن الإمبراطور هو سيدهم الأعلى . ولكن هنرى الأسد ، باعتباره فصلا لفردريك ، كان يمكن استدعاؤه فى بلاط سيده للمحاكمة ، فإذا وجده أقرانه مذنبا أعلن تجريده من دوقية سكسونيا ودقية بافاريا . وعلى هذه الأسس القانونية بدأ فردريك محاكمته الإقطاعية الكبرى لعدوه الجلفى القديم متهما إياه بعدم تقديم الخدمة لسيده الإقطاعى فى الحملات الإيطالية ، وتهم أخرى غيرها . ولم يكن الأمراء عازفين عن رؤية دوق سكسونيا الكبير فى موقف الإهانة والتصغير ، وحين رفض هنرى المثول فى بلاط فردريك لمواجهة المتهم الموجهة ضده ، أعلنوا نزع إقطاعه منه . واستطاع فردريك أن يطرد هنرى من سكسونيا وبافاريا ولم يترك له سوى إماراته الشرقية التى لم تكن ضمن إقطاعات التاج ، ولكن الأمراء لم يكونوا ليتركون الإمبراطور يبتلع الدوقيتين المنزوعتين داخل ممتلكاته ؛ وكان عليه أن يقطع الإمارات الجلفية إلى أمراء آخرين . لقد كانت محاكمة هنرى الأسد هى اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإقطاع الألمانى ؛ إذ لم يكن فشل الإمبراطور فى الاستيلاء على ممتلكات أعدائه الجلفيين يعنى أنه لايستطيع استغلال القانون الإقطاعى فى تدعيم سلطته ، كما كان الحال فى انجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وكما حدث فى فرنسا بعد ذلك .

وفى السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطور المسن كان عليه أن يتخلى نهائيا عن الجهود الهائلة والحروب التى خاض غمارها فى شبابه . فأخذ شارة الصليب ، ليموت فى الطريق إلى الأرض المقدسة سنة ١١٩٠ . ولكن الإمبراطور الكبير مات قرير العين وهو يعلم أن ابنه ستتاح

له الموارد التى كان هو يفتقر إليها ، والتى ستحقق النصر للسلطة الإمبراطورية . وبمزيج لايصدق من الظروف ، وجد ابن فردريك الذى اعتلى العرش تحت اسم هنرى السادس فعلا قبل رحيل أبيه فى الحملة الصليبية الثالثة ، أنه قد صار حاكما على مملكة النورمان فى صقلية ، التى كانت واحدة من أغنى بلدان البحر المتوسط . فقبل أربع سنوات كان بربروسا قد زوج ابنه من الأميرة النورمانية الصقلية كونستانس ولكن ذلك لم يكن يبدو مهما آنذاك ، لأن فرص كونستانس فى وراثة العرش كانت تبدو ضئيلة ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لما سمح البابا أبداً بمثل هذا الزواج . وفى السنة السابقة على موت بربروسا ورثت كونستانس العرش نتيجة لعدة وفيات فى عائلتها ، وأصبح زوجها مالكا لهذا النوع من الأراضى التى ناضل بربروسا دائما دونما نجاح على مدى ثلاثين سنة فى سبيل الحصول عليها . ولكن قرارات الحظ مهدت لها إرادة الإمبراطور التى لاتقهر ، فقد كان يجرب طريقة تلو الأخرى لتحقيق هذا الهدف ، وباءت جميع محاولاته بالفشل ، وكان جهده الأخير ، وهو الإتحاد بين أسرته والأسرة النورمانية الحاكمة فى صقلية ، على أمل أن يحدث يوما ما أن يحصل أحد خلفائه على العرش ، هو الذى أتى نتيجة سريعة تمثلت فى إرتقاء الهوهنشتاوفن لعرش صقلية .

كانت شهرة فردريك الذائعة كواحد من أعظم رجالات العالم المسيحى هى التى دفعت بالملك النورمانى الصقلى ، وهو الحليف التقليدى للبابوية ضد الإمبراطور الألمانى ، إلى الموافقة على التحالف بين الأسرتين الحاكمتين فى الشمال والجنوب . ذلك أن نضال بربروسا الطويل ضد البابا لم يقلل إطلاقا من الإعجاب الشعبى الشديد الذى كان يتمتع به . فنوع الحماسة التى حياه بها عمه أوتو الفريزى ، فى بداية حكمه ، استمر قائما طوال حياته ، وبعدها بزمن طويل . فقد صار بطلا شعبيا ، ونوعا من الشخصية المسيحانية التى قد ترجع يوما لتقود الألمان إلى أمجاد جديدة كما أشيع آنذاك . هذه الاستجابة العاطفية تجاوزت القيود التنظيمية القاسية التى كبلت الملكية الألمانية ، وأضفت على الهوهنشتاوفن هالة من الجلال والفضيلة التى يبدو أنها فى سنة ١١٩٠ أوصلتهم إلى أعتاب السلطة التى كانوا يسعون إليها منذ زمن طويل .

ولكن مزاج هنرى السادس وشخصيته كانت تختلف بشكل حاد عن مزاج وشخصية بربروسا . فقد ظهر بربروسا لمعاصريه فى صورة رجل عظيم الروح ؛ أما هنرى السادس فكان يفتقر إلى هذه الخاصية . فقد كان متغطرسا ، داهية ، مدبراً للمكائد ، وبلطجيا . واستغرق



نمو المملكة الفرنسية

الأمر منه فترة امتدت حتى سنة ١١٩٤ حتى يحكم ملكيته لجنوب إيطاليا . وبعدها مباشرة بدأ يهاجم مدن الشمال الإيطالى وحقق بعض النجاح الأولى . ولم يكن بوسع هنرى أن يحجم عن المبالغة فى الإعلان عن الكيفية التى سيحقق بها الهوهنشتاوفن التفوق على الغرب ، بل وعلى العالم بأسره . وبث الرعب والهلع فى قلوب الأمراء الألمان ، ومدن الشمال الإيطالى ، فضلا عن البابوية التى وجدت نفسها على حافة الصراع من جانب سلطة الهوهنشتاوفن التى حاربتهم عشرين سنة لتبعدهم عن إيطاليا . وكان خطأ هنرى السادس الوحيد هو أنه لم يضع فى حساباته تأثير المناخ الإيطالى غير الصحى ، الذى أودى بحياة بعض الأفراد من عائلة زوجته وجعل منه ملكا على صقلية . فقد مات هنرى فجأة فى سنة ١١٩٧ تاركا طفلا فى الثالثة من عمره ليرثه فى عرشه ، على حين كانت أحوال إيطاليا وألمانيا تموج بالإضطراب . وكان هذا الفعل الإلهى فى صالح أعداء الهوهنشتاوفن أكثر مما حدث قبل ثمانية أعوام حين منحت ضربة حظ مماثلة لبربروسا معظم ماكان يريده . ومن الصعب على أي مؤرخ ألمانى معاصر أن يؤلف كتابا عن القرن الثانى عشر أو القرن الثالث عشر دون أن يسهب فى الحديث عن سوء الحظ المتمثل فى موت هنرى السادس المبكر ، ودون أن يعزى إلى هذا الحادث المفرد ماحدث بعد ذلك من إضطرابات ، ثم الإنهيار النهائى للإمبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى . ومع هذا ، فحقيقة أن موت هنرى السادس كان كارثة كبرى يكشف عن أن الدعامة الأساسية للملكية الألمانية كانت هى شخص الملك نظراً لفقر مؤسساتها الإدارية . وليس هناك شئ فى التاريخ الوسيط ، يكشف بوضح عن قيمة وحدود الكارزما ، أكثر من تاريخ الإمبراطورية الألمانية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر .

٣ - صعود آل كابيه :

كان الإستيلاء على نورماندى وأنجو وإدماجهما فى ممتلكات التاج الفرنسى نقطة تحول كبيرة فى تاريخ فرنسا بل وتاريخ أوربا أيضا . ذلك أن مملكة فرنسا ، التى حكمها ملوك آل كابيه حتى سنة ١٣٢٨ فى خط متصل ، ثم بفروع جانبية من الأسرة ، مثل الفالوا والبوربون Valois, Borbons حتى القرن التاسع عشر - هذه المملكة كانت أهم مملكة أوربية حتى سنة ١٦٠٠م ، وفى رأى بعض المؤرخين أنها كانت أهم مملكة أوربية حتى سنة ١٨٧٠م . وإذا كان يمكن إخضاع الأراضي الواقعة بين جبال البرانس والفلاندرز وبين المحيط الأطلسى ونهر الراين لحكومة مركزية واحدة فعالة ، فلابد أن يكون لهذا تأثير عميق على الحضارة الأوربية لأن هذه

الحكومة سيكون بمتناولها عدد كبير من السكان ، وموارد فكرية ، واقتصادية ، عسكرية أكبر مما كان متوافراً لدى أية دولة أخرى فى أوربا . كان غزو نورماندى علامة ظهور مثل هذه الدولة ، ولكن لم تكن فرنسا موجودة قبل ذلك بقرن من الزمان ، إذ لم تكن سوى مجرد تعبير جغرافى ، وكانت تلك أرضا واسعة ممتدة لاتجمعها وحدة طبوغرافية ، أو سياسية ، أو اقتصادية ، أو لغوية ، أو ثقافية ، وكان أهل الشمال والجنوب يتحدثون لهجات رومانسية مختلفة . وكان الشمال الفرنسى هو أرض الإقطاع الكلاسيكى ، كما كان منطقة يغلب عليها الطابع الريفى ؛ وكانت الشخصية السائدة فيها هى شخصية البارون الإقطاعى . وكانت ثقافة الجنوب الفرنسى ومجتمعه ولغته تشترك فى كثير من خصائصها مع أسبانيا المسيحية وإيطاليا أكثر من شمال فرنسا . وكانت بلانجدوك ، إقليم اللهجة الجنوبية ، حضارة حضرية متلبذبة وطبقة بروجوازية متعلمة . كذلك كانت الطبقة الأرستقراطية فيها قد بدأت فى اتخاذ الطابع الحضرى ؛ مثل نبلاء شمال إيطاليا الذين كانت لهم منازل فى المدن والذين أفادوا من المزايا الفكرية لحياة المدينة . أما المنطقة الثالثة فيما صار فرنسا بعد ذلك ، فهى إقليم الراين، التى كانت تميل إلى التطلع شرقا صوب الإمبراطورية الألمانية ، التى كانت كثير من الأسقفيات والإمارات والمدن تنتمى إليها رسميا ، كذلك كان كثيرون من أهل هذا الإقليم يتحدثون الألمانية ولا يتحدثون بأية لهجة فرنسية . وفى وسط فرنسا كان يوجد إقليم جبلى كان بمثابة ملجأ للبارونات اللصوص ، وكان يعوق حركة السفر بين الشمال والجنوب . وهكذا ففى سنة ١١٠٠ لم تكن فرنسا بلداً واحداً سواء من حيث طبيعتها أو ماتحويه بداخلها . وكان الفضل لملوك آل كابيه فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر فى خلق فرنسا . ولم تكن هناك ضرورة لوجودها ؛ إذ لم يكن ثمة مصير وطنى لفرنسا قبل ظهور الملكية الفرنسية . ولكن إذا كان قد أمكن فى النهاية إخضاع البلاد للسلطة الملكية ، فإن ذلك وفر للملوك المدن الثرية ، والطبقة المحاربة الإقطاعية الكبيرة ، فضلا عن الجامعات وخريجيها ، وكان ذلك مزيجا قويا.

ولم يكن تاريخ آل كابيه قبل القرن الثانى عشر واعداً بشئ من النجاح الذى حققته هذه الأسرة فيما بعد . فقد حصل آل كابيه على التاج الفرنسى فى سنة ٩٨٧م ، ولكن الملوك الفرنسيين حتى سنة ١١٠٨ كانوا نكرات ليست لهم سيطرة على كبار الدوقات والكونتات فى ممتلكاتهم فى المنطقة التى تحيط بباريس Ile-de-France . فقد كانت باريس محاطة بقلاع البارونات اللصوص ، وفى بعض الأحيان كان الملك الفرنسى يخشى الخروج خلف أسوار المدينة. وكان أول ملك من آل كابيه يساهم في وضع الأسس التنظيمية للسلطة الملكية هو

لويس السادس السمين ، أو اليقظ (١١٠٨ - ١١٣٧) . وبسبب المعلومات التى نعرفها عن سيرة لويس ، التى كتبها وزيره الأول سوجيه مقدم دير سان دونى يبدو لنا شخصا حقيقيا أكثر من أسلافه الذين لانعرف ملامحهم ، والذين لايشتهرون بشئ غير تدينهم أو فضائحهم الشخصية . وكانت إحدى هفوات آل كابيه الأوائل هي تورطهم فى المحاولات الضخمة لتوسيع سلطانهم في وقت لم تكن لهم سلطة حتى فى المنطقة المحيطة بباريس . وبفضل قيادة سوجيه الحكيمة الصبورة انتهج لويس ، بشكل عام ، سياسة أكثر تحديداً وفعالية في الوقت نفسه ، ولم يكن متحرراً من أوهام العظمة التى اتصف بها أسلافه ، فقد قام بمحاولة لغزو الفلاندرز انتهت بالمهانة حين استأصل سكان المدن الفلمنكية شأفة جيشه . ولكنه عادة كان يقنع بالقرب من بلاده ونجح فى تدمير قوة الإقطاعيين المشاغبين والبارونات اللصوص فى منطقة جزيرة فرنسا حول باريس ، وبذلك ضمن قاعدة آمنة للعمليات العسكرية التى قام بها خلفاؤه .

وكان عهد ابنه لويس السابع ، الذى امتد زمنا طويلا ، هو نقطة التحول فى تطور المؤسسات الكابية وبداية ممارسة بعض السيطرة على كبار الأفراد الإقطاعيين . وكان لويس شخصا مخلصا ، كادحا ، بلا لون ، وقد عاني الكثير من المهانة والخسارة بسبب طلاقه من إليانور أميرة أكويتانيا . وقال بعض المؤرخين أن لويس السادس ترك انطباعا بعمله لبناء السلطة الملكية في جزيرة فرنسا بلغ من قوته أن سعى دوق أكويتانيا البالغ الثراء إلى تزويج ابنته من وريث العرش الفرنسي . وهذا احتمال ، ولكنه ربما جاء نتيجة لنزوة من جانب دوق أكويتانيا ذى الصفات التروبادورية . وعلى أية حال ، فإن لويس الثامن فقد الزيادة الهائلة التى كانت إليانور قد أضافتها لممتلكات التاج وانتقلت هذه الدوقية إلى أملاك هنرى الثانى الزوج الثانى لإليانور . ونتيجة لهذا كان على لويس أن يواجه الحقيقة القاسية القائلة بأن هنرى الثانى ، الذى كان فصلا إقطاعيا له من الناحية الرسمية ، يحكم النصف الغربى من فرنسا ، وأنه حتى بدون انجلترا ، كان أقوى كثيراً من لويس نفسه . ومع هذا فمع نهاية حكم لويس كان الملك الكابى قد بدأ يمارس نوعًا من الزعامة بين الأمراء الكبار الذين كانوا أفصالا إسميين له .

كان بلاط الملك الفرنسي ، بوصفه السيد الأعلى لكبار الإقطاعيين ، المحكمة العليا فى البلاد . ولكن قبل عهد لويس السابع كان هذا مجرد إمكانية نظرية . فقد كان الدوقات والكونتات يتجاهلون محكمة الملك فى تعاملهم مع بعضهم البعض ، ولم تكن لدى الملك أية سلطة لإرغام أفصاله على الحضور إلى بلاطه كما يقضى القانون الإقطاعي . وفي النصف

الأخير من حكم لويس بدأ كبار الأنصال الإقطاعيين يحضرون للتقاضى أمام المحكمة الملكية للمرة الأولى . وكان هذا راجعًا إلى التوازن الذى حدث فى منتصف القرن الثانى عشر بين الإقطاعيين الكبار ، ومانتج عن ذلك من تضاؤل إمكانية حل منازعاتهم عن طريق الحروب الإقطاعية على الطريقة القديمة . وكانوا يعرفون أنهم سيلقون حكما عادلا فى بلاط الملك الكابى التقى المسالم . كذلك تحول الأمراء الإقطاعيون الفرنسيون تجاه باريس للمرة الأولى بسبب خوفهم من سلطة هنرى الثانى المهيمنة . ذلك أن الملك الإنجليزى ، بفضل أملاكه الشاسعة ، صار أكبر مصدر خطر يتهدد أمن الدوقات والكونتات ومستقليهم ، وتمثل رد فعلهم فى أنهم تطلعوا بود شديد تجاه الملك الكابى باعتبار قطبا مضادا فى مواجهة هنرى الثانى . وعلى المدى الطويل أفاد لويس السابع كثيراً من زواج اليانور الإكويتانية من هنرى الثانى . فلأول مرة تجلت قيمة الملكية الكابية فى شئون فرنسا واضحة أمام كبار الإقطاعيين .

كانت الضياع الملكية الفرنسية تدار ، تقليديا ، بواسطة الحكام Prévôts أى السادة المحليين الذين يدفعون للملك مبلغا من المال لقاء زراعة الضياع التى يملكها . هذا النظام البدائى كان دليلا على عدم كفاءة ملوك آل كابيه الأوائل . فقد كان « الحكام » يخدعون الملك . ويستغلون السكان بلا رحمة ، كما أنهم حاولوا أن يحولوا سلطاتهم إلى تركات وراثية. وفضلا عن ذلك فقد الملك فرصة التأثير على المناطق المحلية من خلال ما للزعامة الملكية من تراث لأنه فوض الأمراء سلطته على هذا النحو . وبشكل عام ، واصل لويس العمل بهذا النظام المدمر فى الإدارة المحلية ، ولكن هناك دلائل فى الفترة الأخيرة من حكمه على أنه كان يجرب إرسال الموظفين من البلاط الملكى مباشرة لكى يشرفوا على إدارة الضاع الملكية .

وجاء ابنه فيليب الثانى أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣) لكى يحول هذه التجارب إلى نظام دائم فى الإدارة المحلية ، ظلت أسسه باقية حتى إنهيار النظام القديم ancient régime (أى النظام الإقطاعى) . وكان هو ثالث الحكام الكبار فى أواخر القرن الثانى عشر ، إلى جانب هنرى الثانى وفردريك بربروسا ، على الرغم من أن فيليب كان يفتقر إلى صفاتهما البراقة الأخاذة . فقد كان أحدبا ، مخادعًا ، لاضمير له . ومن المحتمل أن اسمه المدوى (أوغسطس) كان يقصد به « البادئ » ، ولم يكن مقصوداً به ربطه بالأباطرة الرومان . إلا أن صفات فيليب الشريرة كانت هى الصفات الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إلى الإتساع الكبير

فى الأراضى الملكية الفرنسية . ففى أواخر القرن الثانى عشر كانت حدود أوربا السياسية قد رسمت ، وفى فرنسا كان تقسيم البلاد بين الإمارات الإقطاعية قد صار تراثا عفى عليه الزمن. ولم يكن ممكنا القيام بإعادة ترتيب خريطة أوربا السياسية بدون الصفقات المخادعة الشريرة التى كان فيليب متفوقًا فيها . بيد أنه كان أيضا إداريا مجداً بارعا مهد لزيادة الأراضى الملكية بابتكار نظم البيلى bailli ، وهو الممثل المالى ، والقانونى ، والإدارى والعسكرى للملكية الفرنسية فى المقاطعات . وفى انجلترا كان الشريف هو الموظف المحلى الذى يمثل الحكومة الملكية . أما البيلى فكان يجمع بين كل من هاتين الوظيفتين ، وكان عليه أن يقوم بكل الخدمات الإدارية ، والقضائية والمالية لصالح الملك . وكان الشريف ، أو حاكم المقاطعة الإنجليزى ومساعدوه من الأثرياء من ملاك الأراضى المحليين ولهم مصالح قوية فى المقاطعة التى يعملون بها . وكان معنى هذا فى المدى الطويل أن على الملكية أن تراعى ماتريده عائلات الريف التى كانت تمثل الحكومة ، وإلاَّ تعانى من الشلل فى الحكومة المحلية . ولم يكن هذا واضحا تماما إبان حكم هنرى الثانى بسبب شعبيته الطاغية وسلطانه المهيمن ، ولكن بعد سنة ١٢٠٠ بات واضحا فى انجلترا أن الحكومة الملكية لايمكنها أن تعمل بكفاءة سوى بمساعدة وتعاون العائلات الكبرى فى الريف . أما السمات الاجتماعية والسياسية للبيلى فكانت مختلفة تمام الاختلاف . فقد كان موظفًا أجيراً ترسله الحكومة الملكية ولم تكن له أية جذور فى منطقة اختصاصه . لقد كان بيروقراطيا حقيقيا يعتمد فى دخله ومكانته الاجتماعية على وضعه كموظف ملكى . ومن ثم فإنه كان متعصبا فى ولائه للملك ، ولم يكن يهمه سوى ممارسة السلطة الملكية كاملة . وعلى عكس العائلات الإقليمية الإنجليزية التى خرج حكام الأقاليم وغيرهم من الموظفين المحليين من بين صفوفها ، لم يكن المندوب الملكى الفرنسى يضع فى حسبانه مسألة مدى صلاحية السلطة الملكية . وكان الفرق بين المندوب الملكى الفرنسى وحاكم المقاطعة الإنجليزى نتاجا للظروف الجغرافية والاجتماعية ولم يكن بسبب حكمة الملكية الفرنسية . ولم تكن الأراضى التى تعين على فيليب أوغسطس أن يديرها فى بداية الأمر تزيد عن حجم واحدة من المقاطعات الإنجليزية الكبيرة . والحقيقة أن المصطلح التنظيمى الذى يميز الموظف المحلى الفرنسى كان هو المحضر bailiff ، وهى كلمة استخدمت فى سائر أنحاء أوربا للدلالة على المندوب الشخصى أو المراقب . وفى بداية الأمر لم يكن المندوب الملكى الفرنسى bailli يختلف عن الناظر أو المراقب الذى يدير ضيعة أحد كبار

الإقطاعيين سوى من حيث الدرجة . ولكن مع نهاية القرن الثانى عشر صار المندوب الملكى الفرنسى موظفا عاما داخل نظم الملكية الفرنسية ولم يعد نظامًا خاصًا . ولابد أنه كان سيصعب تماما على ملوك آل كابيه أن يستمروا فى العمل بهذا النظام ويطبقوه على المناطق الجديدة التى فتحوها لو لم يعتمدوا على الثورة التعليمية التى حدثت فى القرن الثانى عشر . فقد كانت الجامعات هى التى أمدتهم بالكتبة والقانونيين الذين شغلوا وظائف المندوبين الملكيين ، وكان أولئك خير من يعملون فى الجهاز البيروقراطى المحلى ؛ إذ أنهم كانوا أذكياء، مجدين متعلمين كما أنه لم تكن أمام الكثيرين منهم فرص فى الحياة غير تلك التى يحصلون عليها فى خدمة الملكية . وخلال عهد فيليب أوغسطس ، كان كثيرون من المندوبين الملكيين أساتذة majistri ، أى تخرجوا من الجامعات لكى يعملوا فى إدارة المناطق الجديدة التى ضمت إلى أملاك التاج الفرنسى . وفى جنوب فرنسا عرف المندوبون الملكيون باسم sens-chals ، وهو مصطلح قديم جديد للدلالة على الممثل المحلى الذى تستأجره الملكية الفرنسية . وبمنتصف القرن الثالث عشر كان المندوبون الملكيون قد صاروا مجموعة قائمة بذاتها ، وكانوا أكثر تعصبا من الملك نفسه فى تأييد السلطة الملكية . كانوا هم الذين قللوا من أهمية العادات والنظم المحلية وأخضعوا أقاليم فرنسا المتباينة لسيطرة حكومة عامة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن فرنسا كانت من خلق البيروقراطية التى بدأت تتخذ شكلها المتميز عند بداية حكم فيليب أوغسطس ، وربما بعد ذلك بقليل .

كان تقدم السلطة الملكية فى فرنسا محكوما بعلاقات الملك مع البورجوازيين والكنيسة . وأنها لأسطورة ترجع إلى القرن التاسع عشر تلك التى تقول بأن ملك فرنسا أدرك أهمية التطور الحضرى الجديد ، وأنه تحالف مع الطبقة الجديدة ضد النبلاء الإقطاعيين . وحتى لو كان هذا صحيحا ، فإنه لم يكن ليضمن له النصر ، لأن مدن شمال فرنسا كانت قليلة جداً ، وبغض النظر عن باريس ، كانت هذه المدن صغيرة جداً من حيث الحجم والثروة بدرجة تحول دون أن يكون لها تأثير عميق على بناء السلطة . والحقيقة أن لويس السابع وفيليب أوغسطس لم يكونا أكثر تعاطفا مع البورجوازيين من الأمراء العلمانيين والكنسيين . وقد نالت المدن الواقعة فى نطاق الممتلكات الملكية امتيازات كوميونية ضئيلة ، ولم يحدث ذلك سوى بعد نضال طويل ونفقات باهظة دفعوها للخزانة الملكية . ولكن سكان المدن كانوا يحبذون تقدم السلطة الملكية كقطب موازن فى مواجهة السادة الإقطاعيين . وذلك لأنهم كانوا يستطيعون

الحصول من الملك على قدر من التنازلات بالحكم الذاتى فى المدن أكبر مما يمنحهم إياه السادة الإقطاعيون ، على الرغم من أنهم كانوا يدفعون مبالغ طائلة فى سبيل ذلك .

ولقد لعبت العلاقة بين الملكية والكنيسة دوراً هاما فى انتصار آل كابيه النهائى . وقد اتضح مدى تخلف وضعف الملكية الكابية فى القرن الحادى عشر بسبب اعتماد الملك الفرنسى على بعض صفات الملكية الثيوقراطية ، بعد أن كانت الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية قد نبذت هذا التراث تحت ضغط البابا بزمن طويل . فمنذ أواخر القرن الحادى عشر كانت البابوية تنظر إلى الملكية الفرنسية باعتبارها حليفا مؤيداً ، حتى وإن كان السبب الوحيد فى ذلك هو اضطرار البابا إلى الحصول على تأييد بعض ملوك أوربا . فقد كان البابا يتورط من حين لآخر فى نزاع مع الإمبراطور الألمانى ، وكان يخشى عواقب أطماعه فى شمال إيطاليا . وبالنظر إلى سلطة الملك الإنجليزى وسيطرته على الكنيسة فى أراضيه ، والمسافة التى تفصل انجلترا عن روما ، لم يكن بوسع البابوية أن تربط نفسها برباط التحالف مع الملوك النورمان وملوك أسرة أنجو . ويظل الملك الفرنسى هو المرشح الوحيد ، كما كان ضعيفا لاضرر منه بحيث لم يكن من المحتمل أن يهدد سلطة البابوية . فضلا عن أن ملوك آل كابيه كانت لهم شهرة كبيرة بالتدين والتقوى ؛ وحتى فى القرن الثانى عشر كانوا معروفون بأنهم ملوك « مسيحيون جداً ». ومن ثم كان جريجورى السابع ، على غير العادة ، معتدلا فى علاقته بملوك آل كابيه . وخلال الشطر الأخير من القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر صارت فرنسا ملجأ وملاذاً للبابوات الذين طردهم الإمبراطور الألمانى من روما . فقد ذهب أوربان الثانى إلى فرنسا هربا من جيوش هنرى الرابع ولكى يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى ، كما أن اسكندر الثالث طلب حماية لويس السابع فى ستينيات القرن الثانى عشر حين استولى فردريك بربروسا على روما لفترة من الوقت . وقد أتاح موقف البابوية المتعاطف للملوك الفرنسيين الفرصة للحفاظ على بعض التقاليد القديمة والمذاهب التى كانت ترتبط بالملكية فى العصور الوسطى الباكرة . وكانت ثمة رابطة قوية تجمع بين الملكية الكابية وبين دير سان دونى الملكى . فقد كانت شعائر التاج الفرنسى تحفظ فى هذا الدير . كذلك لعب سرجيه مقدم دير سان دونى دوراً هامًا بصفته الوزير الأول فى الإدارة الملكية الفرنسية فى عهد كل من لويس السادس ولويس السابع ، وإن جاء ذلك متأخراً كثيراً عن الأدوار الرائدة التى لعبها رجال الدولة الديريون فى خدمة الحكومات الأوربية الأخرى . فبينما كان احتفال التتويج فى ألمانيا وانجلترا فى طريقه

لأن يصبح مجرد مسألة شكلية رسمية ، كانت المزايا الدينية والعاطفية فى هذا الاحتفال ماتزال تحظى بالاهتمام في فرنسا . وقد تأكدت الرابطة التى كانت تجمع بين الكنيسة والملكية الفرنسية بشكل خاص خلال حكم لويس السابع الطويل المدى . إذ أن لويس ، الذى كان هو نفسه رجلا تقيًا للغاية ، أظهر أنه صديق عظيم للبابا ورجال الكنيسة الكبار فى شتى أنحاء فرنسا . كما أنه استقبل اسكندر الثالث بأكبر قدر من التبجيل والاحترام ، ووقف إلى جانب الأساقفة ومقدمى الأديرة فى نضالهم ضد السادة الإقطاعيين المحليين . وكان بهذا يساعد على تقدم السلطة المحلية ويرضى ميوله الدينية فى آن واحد . وكانت محاولات لويس التاسع للسيطرة على كبار الكنسيين جزءًا من جهده العام لمد اختصاصات المحكمة الملكية . كما كانت شهرة الملك الكابى كصديق للبابوية وحليف لها من عوامل تدعيم هيبته فى فرنسا وربما نفعته فى علاقاته مع كبار الإقطاعيين والملوك الآخرين فى أوربا .

لقد كانت التقاليد الأخلاقية والدينية لملوك آل كابيه « المسيحيين جداً » ذات قيمة كبيرة بالنسبة لفيليب أوغسطس . فقد وفرت له الواجهة الضروية التى تخفى وراءها وهو يواصل عمليات النهب ويتابع مؤامراته الخادعة . فقد حصل على كونتية Artois الشمالية بالزواج ، ثم تحول صوب ممتلكات الملك الإنجليزى الشاسعة فى شمال فرنسا . وكان تمرد أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم قد حول السنوات الأخيرة فى حياة هذا الملك إلى بؤس وشقاء . كذلك كان فيليب أوغسطس يتآمر بشكل مستمر ضد ريتشارد وجون . وبحلول سنة ١٢٠٤ أحرز انتصاره الكبير . فقد ضم كل شمال غرب فرنسا إلى ممتلكات التاج ، ولم يترك للملك الإنجليزى سوى جاسكونى Gascony وبواتو Poitou التى كانت أبعد الممتلكات التى كانت للملك الإنجليزى فى فرنسا قبل ذلك . وفى السنوات العشرين الأولى من حكمه كشف فيليب أوغسطس لخلفائه بوضوح عن كيفية تنمية أملاك التاج بالتزاوج : من خلال التزاوج بين الأسرات الحاكمة ، بواسطة الخداع السياسى والدبلوماسى ، وبتجريد الأمراء الإقطاعيين من ضياعهم ، ثم بالغزو فى الخارج . لقد صار الحليف العاجز القديم للكنيسة فجأة قوة كبرى فى شمال أوربا ، وكانت أهم المشكلات التى واجهت البابوية فى القرن الثالث عشر هى كيفية مواءمة نفسها مع هذا الموقف الجديد .



الجزء السابع

البحث عن توازن جديد

أوائل ومنتصف القرن الثالث عشر

« الحكام الأفراد لهم مقاطعات فردية ، والملوك الأفراد لهم ممالك منفردة ، ولكن بطرس يحكمهم جميعا .... » .

– إنوسنت الثالث

« لقد أحببنا الحياة في الفقر . وهجرنا الكنائس . وكنا جاهلين ننقاد للجميع .... » .

– سان فرنسيس الأسيسى



الفصل التاسع عشر
سلام إنوسنت الثالث

١ - إعادة تثبيت الزعامة البابوية :

ثمة تراث في تاريخ البابوية مؤداه أن الكرادلة غالبا ماكانوا يتأرجحون بين اختيار البابوات الأقوياء والبابوات الضعفاء مما يحقق دورات تبادلية بين البابويات العدوانية فالإصلاحية ثم الهادئة فالمحافظة . فمنذ موت اسكندر الثالث سنة ١١٨١ م اعتلى العرش البابوي عدد من الرجال الصالحين ، ولكنهم كانوا ضعافًا وظهروا في حال من الجمود والشلل بفعل المشكلات الرهيبة التي أثرت على الكنيسة من جراء التحديات التي ظهرت في القرن الثاني عشر في مجالات التعليم والتدين والسلطة . وكانت الزعامة البابوية تتحول إلى عامل تافه في الحياة الأوربية بدرجة جعلت الكرادلة يتطرفون في الاتجاه الآخر سنة ١١٩٨ . فقد اختاروا أقدر أعضاء مجمع الكرادلة ، وهو لوثاريو كونتي ، الذي اتخذ لقب إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وعندما اعتلى إنوسنت الثالث العرش البابوي كان عمره سبعة وثلاثين عاما فقط ، أي أنه كان صغيراً على البابوية بشكل واضح . وقد نشأ إنوسنت الثالث في إحدى العائلات الأرستقراطية الرومانية البارزة . وكان رجلا يتمتع بطاقة غير محدودة ، وقدرة فكرية عالية ، ومواهب خارقة في الزعامة والإدارة . فقد كان من رجال القانوني الكنسي ، عالي القدرة ، وكان يحتمل أن يحرز سمعة كبيرة كلاهوتي لو كانت لديه فسحة من الوقت أو كان به ميل إلى هذا . وكان علي وعي تام بالمشكلات التي تواجهها البابوية في كل جانب ، ولم يكن يخالجه شك في قدرته على إيجاد الوسائل لمعالجتها ، وكانت درجة الثقة بالنفس التي تميز الرجال ذوي الصفات الخارقة تمتزج في حالة إنوسنت بإحساس غامر بتراث المنصب البابوي وسلطته . وكان يعتقد أن « كل شئ يدخل اختصاص البابا » ، وأن القديس بطرس فوضه المسيح « **لا ليحكم الكنيسة العالمية فقط ، وإنما لكي يحكم العالم بأسره** » . وكان إنوسنت مولعا بنظرية سلطة الهيئة الكنسية ، التي يعلو فيها سيف الروح على سيف الأرض ، والتي فيها يتشابه خضوع الملكية للقساوسة مع اعتماد القمر على الشمس . وعلى أية حال ، لم يكن إنوسنت رجلاً ثوري المزاج ، ولكنه كان صاحب مزاج متحفظ بناء ؛ فلم يكن تكراراً لجريجوري السابع . ولم يكن يقصد أن يشن هجوما أخرويا على القوى التي كانت تهدد

بالقضاء على زعامة الكنيسة فى مجتمع العصور الوسطى ؛ وإنما كان يقصد أن يفرض السلطة البابوية على مجتمع غرب أوربا المتغير بوسائل متعددة ، وأن يتحكم فى الآثار الناجمة عن التعليم والتدين والسلطة فى القرن الثانى عشر . كما كان يرغب فى توجيه هذه القوى الجديدة فى قنوات يمكن أن تعيد النفوذ الكنسى فى أوربا . لقد كان إنوسنت يريد توازنًا جديدًا بين الكنيسة والعالم يحقق الاستقرار للمجتمع الذى يزرح تحت تأثير الأفكار والمؤسسات الجديدة للنظام السياسى والفكرى والدينى . ويرجع الفضل فى ذلك القدر الكبير من النجاح الذى حققه إلى مقدرته ، وبصيرته النافذة ، وعزمه الذى لايلين ، وحين مات ، تحت وطأة الإرهاق من العمل ، كانت الزعامة البابوية فى أوربا قد استعادت ثباتها ورسوخها ، كما كانت الكنيسة تشن هجماتها المضادة على جميع الجبهات ضد الهرطقة ، والفوضى الفكرية والسلطة العلمانية ، ومع ثلاثينيات القرن الثالث عشر كانت روح جديدة من التوافق والتفاؤل تشيع فى الحياة الأوربية . وبدا وكأن القوى التى فسخت عرى النظام العالمى فى العصور الوسطى قد توقفت ونحيت جانبا بفضل السلام الذى شاده إنوسنت الثالث .

كان الأساس الضرورى لكل الإنجازات الأخرى فى بابوية إنوسنت ، على حد تصوره هو ، أن يعيد بناء الإدارة الكنسية . وكان هذا يعنى التناول العقلانى العام وتوطيد السلطةالمركزية بحيث تحقق المذاهب التى كان رجال القانون الكنسى يدعون إليها ، وهى مذاهب تقول بسمو السلطة البابوية فى الكنيسة . وقد لخصت الإصلاحات التى أنجزها إنوسنت خلال بابويته وتأكدت فى المراسيم التى أصدرها مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥ ، وهو المجمع الذى كان أحد أهم ثلاثة مجامع مسكونية فى الكنيسة الكاثوليكية ، أما المجمعان الآخران فهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع ترنت فى القرن السادس عشر . وأقر مجمع اللاتيران عدد الطقوس المقدسة المسيحية سبعة طقوس ماتزال قائمة حتى اليوم : التعميد ، وتثبيت العماد ، والزواج، والمسح النهائى بالزيت (الذى يحدد مراحل حياة الإنسان) ، والتناول ، والاعتراف ، ورسامة القساوسة (أولئك الذين يحتلون مكان القلب من المسيحية اللاتينية) . وكان الأسقف هو فقط الذى يمكنه القيام بتثبيت العماد ، ورسامة القساوسة . ولم تكن الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة قد حددت إطلاقا عدد الطقوس . وكان داميانى قد أعد قائمة بأحد عشر طقسا ، يدخل ضمنها رسامة الملوك . وكان كتاب اللاهوت الثابت ، الذى كتبه بطرس اللمباردى فى القرن الثانى عشر تحت اسم « الأحكام Sentences » ، قد أعد قائمة بسبعة

طقوس ، وتقبل مجمع اللاتيران هذا الرأى . وأصدر المجمع قراراً بأن على كل عضو فى الكنيسة أن يعترف بخطاياه إلى قسيس ، ويتناول القربان مرة واحدة فى السنة على الأقل كلما تيسر له ذلك . وكان هذا بمثابة إعادة تأكيد لسلطة القساوسة على العلمانيين ، وقصد به أن يكون تحديا مباشراً للمذاهب التى تنادى بها الهرطقات المعادية لسلطان الكنيسة . وكوسيلة لفرض المزيد من القيود على حركة التدين الجديدة وتأثيراتها المدمرة ، أعلن مجمع اللاتيران أنه لن يكون هناك قديسون جدد وذخائر مقدسة جديدة دون اعتراف قانونى من البابوية بذلك ، كما أعلن أنه يجب وقف تكاثر النظم الديرية .

وتزايد نظام المندوبين البابويين كوسيلة لإحكام السيطرة البابوية على أساقفة غرب أوربا بشكل كبير على يد إنوسنت الثالث ، وبينما كان بابوات القرن الثانى عشر يعينون كبار الأساقفة فى مختلف بلاد أوربا كمندوبين بابويين ، رغبة فى كسب المشاعر الوطنية ، عمد إنوسنت الثالث إلى اختيار الكرادلة الإيطاليين ليمثلوه لدى الكنائس الإقليمية . وفى مقابل ذلك ، تعين على الأساقفة أن يولوا قدراً أكبر من الاهتمام بشئون أسقفياتهم ، ولاسيما فيما يتعلق بنوعية رجال الكنيسة العاملين تحت حكمهم . وكان على الأساقفة ومساعديهم أن يقوموا بزيارات سنوية للأديرة في أسقفياتهم ، ويفتشوا بدقة عن رجال الإكليروس فى الكاتدرئيات والإبرشيات لكى يتأكدوا من جدارتهم بمناصبهم . وقد أكد إنوسنت الثالث ، بنجاح كبير ، حق البابا فى تعيين الأساقفة فى حالات معينة : فى حالة النزاع حول الانتخابات والذى يطلب من البابا حله ، وإذا كان هناك منصب أسقفى شاغر على مدى ستة شهور ، أو إذا مات الأسقف السابق وهو فى زيارة لروما . وقد أتاحت المنازعات الكثيرة التى نشبت حول الانتخابات الأسقفية وجو روما غير الصحي ، فرصا كبيرة أمام البابوية فى القرن الثالث عشر لكى تزعم أن سلطة التعيين « انتقلت » إلى البلاط البابوى . وهكذا شهدت بابوية إنوسنت الثالث تزايداً كبيراً فى سلطات البابوية القانونية باعتبارها المحكمة العليا فى العالم المسيحى ، كما شهدت تطوير المؤسسات القانونية للكنيسة . وكان لتدعيم النظام الإدارى فى الكنيسة وزيادة سيطرتها المركزية على هذا النحو أثره العاجل فى تحسين صفات كبار الكنسيين وصغارهم على السواء . فقد كشفت الزيارات التى كان يقوم بها الكرادلة فى القرن الثالث عشر عن مئات الحالات من عدم الكفاية والقصور فى أداء الواجب بين رجال الكنيسة الديريين والأبرشيين ، وفى المقابل باتت الأسقفية رهينة الضغط المستمر والتفتيش

من جانب البابوية حتى تحقق رسالتها الرعوية . لقد كشف إنوسنت عن آثار حركة التدين الجديدة قد خرجت عن نطاق السيطرة بسبب قصور الإدارة ، كما أوضح أن أفضل وسيلة لصرف الناس عن حماستهم للقديسين الهراطقة هى أن نقدم للعالم رجال الكنيسة الكاثوليك الذين ميزهم وعيهم ، وحميتهم ، وتعليمهم .

كان البنيان الإدارى الهائل للبابوية ، شأنه شأن أى جهاز إدارى آخر فى الحكومات الأوروبية ، يحتاج إلى قدر هائل من المال لكى يواصل عمله . وكان الكرادلة هم أمراء الكنيسة؛ إذ أنهم غالبا ماكانوا ينحدرون من عائلات مرموقة من الطبقة الأرستقراطية الإيطالية ، وكانوا معتادين على حياة الرفاهية ؛ وفى جميع الأحوال كان البلاط البابوى ، الذى إدعى لنفسه الأهمية القصوى فى العالم المسيحى ، لايستطيع أن يظهر فقيراً بالمقارنة مع بلاط حكام منطقة شمال الألب . فضلا عن أنه كان على البابا أن يجد المال اللازم لتمويل المغامرات السياسية والعسكرية إذا ماكان يريد فعلا أن يتصدى للسلطات العلمانية القوية فى أوربا .

فمن أين كان يمكن الحصول على الأموال اللازمة لهذا ؟ كانت للبابا ، مثله مثل أى ملك ، ممتلكاته التى هى الدول البابوية ؛ بيد أن هذه لم تكن تكفى للحفاظ على الإدارة البابوية ، والدبلوماسية والبلاط والجيش البابوى . وكان عليه أن يفرض أشكالا جديدة من الضرائب مثلما كان يفعل ملوك غرب أوربا . فقد كشفت ضرائب العشور البابوية الخاصة التى فرضت لتمويل الحملة الصليبية الثالثة عن مدى ضخامة الثروة التى يمكن الحصول عليها بفرض ضريبة عامة على رجال الكنيسة ، كما كشفت عن مدى سهولة إدارة الضريبة ، بالنظر إلى خضوع الأكليروس لسلطة البابوية ووجود موظفى الضرائب المخلصين المتعلمين فى خدمة الكنيسة . بناء عليه فرض إنوسنت فى سنة ١١٩٩ أول ضريبة دخل عام على رجال الكنيسة الأوربيين لمواجهة احتياجات البابوية . وكان لنجاحها العظيم أن صارت هى الأولى بين العديد من الضرائب المتنوعة والتى فرضتها بابوية القرن الثالث عشر على رجال الكنيسة . هذا الدخل الثابت لم يسهل عملية تحسين الأداء البابوية ؛ وإنما أتاح أيضا للبابوية الموارد الإضافية التى كانت تحتاج إليها بسبب تورطها المتشابك فى السياسة الأوربية .

كان أمن البابوية فى روما هو أول ضمان لحرية التصرف البابوى تجاه ملوك شمال أوربا . وقد عمل إنوسنت بجد منذ بداية عهده على تقوية السيطرة البابوية على مدينة روما والدول

البابوية التى كان يسعى إلى توسيعها ، على حين صارت قوة الإمبراطور وقدرته على التدخل محدودة ، بسبب موت هنرى السادس المفاجئ وما أعقبه من نزاع حول العرش الألمانى . وقد مضى على إنوسنت وقت عصيب وهو يحاول تأكيد سيطرته الكاملة على حكومة المدينة الخالدة ؛ إذ كان النبلاء الغيورون والكوميون يحاربونه فى كل خطوة ، ولكن بحلول سنة ١٢٠٥ كان قد وطد دعائم سيطرته فى مدينته . وبما أن روما كانت تحيا إلى حد كبير على عمل البلاط البابوى ، فإنها لم تستطع الصمود طويلا أمام طلب البابا بأن يسيطر على حكومتها البلدية . بل إن إنوسنت أحرز نجاحا أعظم فى ميراث القديس بطرس ، ففى خلال بابويته كانت الدول البابوية قد وصلت إلى الحدود التى حافظت عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وإذ ضمن لنفسه الأمن فى وطنه ، استطاع إنوسنت أن يكرس مواهبه السياسية الفائقة فى تحديد علاقات البابا مع ملكيات الشمال الكبرى . وكانت « الشئون الإمبراطورية » ، على حد تعبير الدوائر البابوية ، هى أكثر المسائل السياسية إلحاحا . إذ أن هنرى السادس كان قد أخاف البابوية ، وكان انتباه إنوسنت موجها لفصل مملكة صقلية عن ألمانيا مرة أخرى ، وللحيلولة دون مواجهة البابوية مرة أخرى بخطر يتهدد استقلالها كما فعل هنرى السادس . وقد أتيحت له فرصة أكبر لتحقيق أهدافه بتجدد الحروب الإقطاعية حول التاج الألمانى بين الهوهنشتاوفن والجلفيين ، وهى الحروب التى زجت بألمانيا فى خضم الحرب الأهلية عقب موت هنرى . وقد اختار الهوهنشتاوفن وحلفاؤهم فيليب دوق سوابيا ، أخا هنرى ، ملكا على حين انضم بعض الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون الهوهنشتاوفن إلى الفريق الذى اختار أوتو الرابع البرونسويكى Otto IV of Brunswick ابن هنرى الأسد . وقد تجاهل كل من الفريقين حقوق الطفل فردريك الثانى ، ابن هنرى ، الذى بقى فى صقلية مع أمه . وحاول كل فريق أن يحصل على تأييد إنوسنت الثالث لأن البابا كان هو فقط الذى يستطيع أن ينصب أحد المتنافسين إمبراطوراً . وانتظر سنوات ثلاث قبل أن يصدر قراره ، وكان هدفه أن يتيح للحرب الأهلية أن تدمر المزيد من قوة التاج الألمانى . وأخيراً ، أصدر قراره فى سنة ١٢٠٠ لصالح أوتو الذى اعترف بحدود الدول البابوية ، وسلم مابقى من سلطة ملكية على الكنيسة الألمانية، كما وعد بعدم التدخل فى إيطاليا . وبدا وكأن إنوسنت قد أزاح الخطر الألمانى على البابوية نهائيا . ولكن فيليب راح ضحية الاغتيال فى شجار شخصى سنة ١٢٠٨ وتزوج أوتو أخته

ليصبح صاحب العرش دون منازع . وسرعان ما سار أوتو على السياسة التقليدية للملوك الألمان وتحرك صوب شمال إيطاليا . وأحس إنوسنت بمشاعر الخيبة والغضب تجتاح صدره ، ولكنه لم يفزع ، لأن الملك الفلفى كان زعيما قاصراً لايستطيع الوقوف أمام البابا . وفى سنة ١٢١٢ اعترف إنوسنت بالشاب فردريك الثانى ملكا على ألمانيا ، بعد أن حصل من فردريك على وعد بأن يتنازل عن صقلية ونابولى حين يوطد دعائم حكمه فى ألمانيا . ثم كرس إنوسنت نفسه لتنظيم اتحاد كبير بين البابوية ، وفردريك الثانى ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ضد أوتو وجون ملك انجلترا ، الذى تحالف بالزواج مع البيت الفلفى ، كان هذا هو المثال الأول على الصدام بين التحالفات الدولية فى التاريخ الأوربى . وتم حسم الصراع فى معركة بوفينيس Bouvines سنة ١٢١٤ ، وهى المعركة التى كان لها أثر شامل الأول على الصدام السياسى فى أوربا القرن الثالث عشر . فقد ألحق فيليب أوغسطس هزيمة ساحقة بأوتو ، وبذلك فتح الطريق أمام فردريك للفوز بالعرش الألمانى . ومات إنوسنت سنة ١٢١٦ وهو على قناعة تامة بأنه قد حل المشكلة الألمانية . وكان فردريك الثانى ، الذى كان إنوسنت يعجب به شخصيا ويثق فيه ، يتمتع بتأييد النبلاء ، وكان قد وعد بالتنازل عن التاج الصقلى بمجرد الحصول على تأييدهم . كذلك لم يكن يبدو أن الإمبراطور الألمانى سوف يكون مصدر خطر على البابوية فى المستقبل ؛ إذ تقلصت سلطة وموارد الملكية بفعل عشرين عاما من الحرب الأهلية، وبفعل التنازلات التى قدمها المتنازعون على العرش للأمراء الألمان الذين دعموا سيادتهم الإقليمية ، وبذلك تقوض العمل الذى أنجزه فردريك الأول وهنرى السادس .

كان انتصار إنوسنت فى الشئون الإمبراطورية يسير فى خط مواز لعلاقاته مع الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية . فقد حط من شأن ملك إنجلترا كما حسن من احتمالات التحالف الفرنسى البابوى . إذ كانت البابوية قلقة على الدوام من أن تتورط فى نزاع مع الملك الإنجليزى ، ولكن إنوسنت خاض هذا النزاع وأحرز فيه انتصاراً كاملاً . وقد نشب النزاع بين الملك جون والبابا بسبب الخلاف حول انتخاب أسقف كانتربورى ، الذى لجأ إلى روما وفقا لشروط القانون الكنسى الجديد . وكان إنوسنت قد اعترض على المرشحين الذين تقدموا إليه وعين بدلا منهم ستيفن لانجتون Stephen Langton ، وهو رجل إنجليزى كان يشتغل باللاهوت فى باريس ، وكان فى ذلك الوقت كاردينالا فى البلاط البابوى . واعتبر جون ذلك انتهاكا صارخا للسلطة الملكية التقليدية على الكنيسة الإنجليزية ، بل إنه اعتبر لانجتون

عميلا للبابوية ورفض أن يعترف بانتخابه كبيراً للأساقفة ومنعه من دخول انجلترا ، ونشب صراع مرير استخدم فيه كل من الملك والبابا إجراءات متطرفة . فقد وضع إنوسنت انجلترا تحت وطأة قرار بالحرمان أوقف كل الخدمات الكنسية ؛ أما جون فقد استولى على جزء كبير من الأرض الزراعية المملوكة للكنيسة الإنجليزية . وأخيراً شجع إنوسنت فيليب أوغسطس على الاستعداد لغزو انجلترا تحت الراية البابوية ، أما جون الذى خشى أن يفقد انجلترا أمام عدوه اللدود مثلما فقد معظم ممتلكاته فى القارة ، فقد خضع للبابا . ولم يكتف بقبول لانجتون كبيراً للأساقفة ولكنه جعل من نفسه فصلا إقطاعيا تابعا للبابا وحول انجلترا إلى إقطاع بابوى . وبدا وكأن الحوادث المثيرة قد أوضحت أنه لايوجد ملك يصمد طويلا أمام الإدارة البابوية .

وحتى فيليب أوغسطس حليف البابا ، استفز غضبه . فقد تنازعا على مسألة خاصة ، ولكن إنوسنت ، باعتباره حامى حمى الأخلاق والعقيدة فى أوربا ، سخر كل السلطات الدينية والأخلاقية التى فى متناوله لكى يرغم فيليب على الرضوخ للإرادة البابوية . فقد كان فيليب قد دخل فى عقد زواج مع أميرة دانمركية اسمها انجبورج Ingeborg فى سبيل الحصول على مساعدة الأسطول الدانمرى فى إحدى مغامراته ضد ملوك بيت أنجو الإنجليز . وحين وصلت الأميرة الدانمركية الضخمة إلى فرنسا ، غير فيليب رأيه ورفض أن يتخذها زوجة . واستغرق الأمر عدة سنوات حتى اعتلى إنوسنت عرش البابوية فاتخذ إجراءاته الصارمة المعتادة ، بما فى ذلك إصدار قرار الحرمان ، حتى أجبر فيليب على التسليم . وسرعان ماتم التوصل إلى حل وسط يرضى الفرقاء . هذه الحادثة الغريبة تكشف عن فرط ثقة إنوسنت الثالث بنفسه وفى سلطان البابوية ، وعن مدى استعداده لاستخدام كافة الأسلحة التى بمتناول البابوية حتى المسائل الصغيرة . وعلى العموم ، كانت علاقات إنوسنت بفرنسا فى صالح الملكية الكابية . ذلك أن التحالف الذى أقامه مع فيليب أوغسطس ضد أوتو الرابع وجون أدى إلى تكشيف الارتباط الطويل المدى بين البابوية وملوك آل كابيه ، كما ستر سياسة فيليب التوسعية وأساليبه الخادعة بقناع من الأخلاقيات . وكانت أكبر أفضال البابوية على الملكية الفرنسية هى الحملة الألبيجنسية ، التى فتحت جنوب فرنسا ثم مهدت السبيل لضم هذا الإقليم إلى التاج الفرنسى . ولم يشارك فيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الألبيجنسية ، وربما لم يدرك مغزاها تماما . ولكن هذه الحملة الصليبية قضت على قوة وسلطان النبلاء فى لانجدوك وجعلت خضوع جنوب فرنسا لآل كابيه أمراً محتوماً .

كان إنوسنت يأمل أصلا ، فى إعادة الألبيجنسين إلى حظيرة الكنيسة بإرسال المبشرين البارزين لفضح أخطاء « الأطهار cathari » . ولكن هذه الوسيلة لم تحقق سوى قدر ضئيل من النجاح ؛ إذ كانت المذاهب الألبيجنسية قد توغلت فى أعماق البيئة الفكرية والاجتماعية فى جنوب فرنسا . وكان مصرع المندوب البابوى فى سنة ١٢٠٨ ، الذى شاع أن لكونت تولوز يداً فيه ، قد حفز إنوسنت على أن يتخذ تدابير أكثر صرامة ؛ أى شن حملة صليبية ضد الهراطقة وكان إنوسنت قد تعود فعلا على استغلال المثال الصليبى فى بعض الأغراض البابوية. وكانت الحملة الصليبية الرابعة ، التى أعلن عنها إنوسنت قد تحولت على أيدى البنادقة عن هدفها الأصلى ، وهو محاربة المسلمين ، إلى الهجوم على القسطنطينية والإستيلاء عليها . وسرعان ماتقبل إنوسنت هذا التغيير فى الخطط لأنه رأى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وسيلة لإعادة البيزنطيين إلى الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية تحت سلطان البابوية . وإذا كان قد أمكن توجيه حملة صليبية ضد القسطنينة ، فمن المؤكد إذن أنه يمكن توجيهها ضد الهراقة ، الذين كانت مذاهبهم الهدامة ، وأخلاقياتهم العكسية ، ومعقلهم فى جنوب فرنسا ، خطراً يتهدد وحدة العالم المسيحى اللاتينى . وقد استجاب نبلاء شمال فرنسا بشكل حماسى لإعلان إنوسنت الحملة الصليبية الألبيجنسية . واعتبروها فرصة من السماء لكى يستولوا على إقطاعات فى أراضى لانجدوك الخصبة . وقد ارتكزت الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين على الرغبة فى انتزاع الأرض . ذلك أن بارونات الشمال تحت قيادة سيمون المونتفورتى ، الذى كان من السادة الإقطاعيين فى جنوب فرنسا ، هاجموا جموع الهراطقة وغيرهم دونما تمييز ، وارتكبوا حمامات الدم فى مدن الجنوب . ونتيجة لهذا ، قام النبلاء الجنوبيون ، سواء كانوا متعاطفين أو غير متعاطفين مع مذاهب الأطهار ، بمقاومة الصليبيين مقاومة عنيفة ، كما أن ملك أرغونة ، الذى كان أبعد مايكون عن الهرطقة ، قد هب لمساعدة كونت تولوز . وفى معركة موريه Muret سنة ١٢١٣ لقيت القوات الجنوبية هزيمة نكراء . وبينما استغرق الأمر اثنتى عشرة سنة أخرى للقضاء على كافة جيوب المقاومة ، تأكد انتصار الشمال على المدى البعيد . وبشن هذه الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين مهّد إنوسنت سبيل استيلاء التاج الفرنسى على أراضى لانجدوك الخصبة ، وهو الأمر الذى تم نهائيا فى عشرينيات القرن الثالث عشر . وقد واجه إنوسنت انتقادات نبلاء الجنوب فى أيامه ، كما انتقده بعض الكتاب المحدثين لدعوته إلي هذه الحملة الصليبية ضد الأطهار . وقد قيل أنه

أساء استخدام الحركة الصليبية ودمر حضارة راقية فى جنوب فرنسا . وهناك قدر من الحقيقة فى كل من التهمتين ، إلا أنه لم يكن يملك بديلا آخر إذا كان يريد أن يستأصل داء الكاثارية السرطانى من جسد المسيحية .

وبشموليته النمطية لم يكن بوسع إنوسنت أن يترك مهمة استئصال شأفة الهراطقة ومحاكمتهم للموظفين الكنسيين فى جنوب فرنسا ، وهم الذين لم يكن يثق فيهم بأية حال . فقد كان يرسل المندوبين مع تفويضهم سلطة عقد المحاكمات للهراطقة . ومن هذه السوابق خرجت محاكم التفتيش البابوية العامة التى تأسست رسميا سنة ١٢٣٣ . وكان الخط الرئيسى لعملها وإجراءاتها قد تحدد بالفعل على يدى إنوسنت : فقد كان عليها أن تستخدم الإجراءات القانونية الكنسية الرومانية ، التى كانت تبيح التعذيب كوسيلة لتعقب الهراطقة والقبض عليهم ، وكان أولئك الذين يرفضون الاعتراف ، أو يعترفون ثم يعودون إلى الإنكار ، يعانون الموت حرقا . وكان انحياز محاكم التفتيش ضد المتهمين مثالا على أية محكمة رومانية تناولت قضية تتعلق بالوعى والضمير .

لم يكن ثمة شئ خارج اختصاص البابوية ، كما قال إنوسنت ، وقد أحس أنه مجبر على إضفاء الصفة القانونية ، لا على مسألة الهراطقة فقط ، وإنما أيضا على مسألة معاملة اليهود . فقد منع محاولات تنصيرهم بالقوة ، ولكنه كان يحبذ عزلتهم ، ونبذهم كنفايات اجتماعية من المجتمع الأوربى . فذ أصدر مجمع اللاتيران الرابع قراراً يلزم اليهود بارتداء شارات صفراء حتى يمكن تمييز أولئك المنبوذين بسهولة . وصار هذا الطلب قضية تاريخية جليلة القدر فى غرب أوربا . فقد حاول بعض الكتاب إخفاء عيوب سياسة إنوسنت تجاه اليهود ؛ وزعموا أنه كان يريد نبذ اليهود لكى ينقذهم من أية مذابح جديدة ، وهى المذابح التى كان مرضا مستوطنا فى الحياة الأوربية نتيجة الإشاعات التى إنتشرت عن طقوس الدماء. ولايبدو أن إنوسنت كانت تحركه دوافع وأسباب إنسانية . فقد كان شريكا فى المسيحية العسكرية فى زمانه ، وكان الخطر الذى يتهدد الكنيسة من موجة معاداة سلطة الكنيسة يميل بزعماء الكنيسة فى اتجاه عدم التسامح والقسوة فى التعامل مع أولئك الذين يختلفون مع العقيدة الكاثوليكية . ولم يكن إنوسنت ليتوافق مع المحاولات التى جرت لتصويره فى صورة الرجل الليبرالى . فقد كان لديه اعتقاد لايتزعزع بصحة العقيدة الكاثوليكية وصحة تقاليد وتراث سلطة الكنيسة والنظرية البطرسية ، وهبة قنسطنطين . وكان

استبداديا فى مذهبه وفى شخصيته على السواء وعلى مدى ثمانية عشر عاما كرس إنوسنت مواهبه الإدارية والقيادية الهائلة لتدعيم هذا المذهب وحقق نجاحا بعيد المدى .

ولكن إنوسنت أدرك أن أساليبه الجديدة ستكون ذات أثر قليل فى مواجهة مشكلات التدين والتعليم . إذ أنه كان قد أعاد تنظيم الكنيسة ، وأخضع الملوك وتسبب فى شن الحرب ضد أسوأ الهراطقة ، ولكن أيا من هذه الفعال لم يكن ليستطيع حل الصراع الذى نشب فى أذهان الناس من جراء آثار حركة التدين الجديدة والتحدى الذى طرحه العلم الأرسطى . ولايقلل من إنجازات إنوسنت كادارى وزعيم ، أنه كان يدرك مدى الحاجة إلى وسيلة أكثر إيجابية مما اتخذه هو نفسه ، وأنه تحقق من أهمية وقيمة العمل الذى قام به كل من سان دومينيك وسان فرنسيس .

٢ - المثل العليا الدومينيكانية والفرنسسكانية :

يكشف تأسيس منظمتى الدومينيكان والفرنسسكان عن حيوية حضارة العصور الوسطى المستمرة . فقد كانت تجسد استغلال جماعات الرهبان العاملة فى الدنيا والتى كانت من نتاج تنظيم حركة الزهد فى القرن الثانى عشر ، لمواجهة الآثار الناجمة عن حركة التدين والتعليم الجديدة ولتأكيد زعامة الكنيسة فى المجتمع الأوربى ، ومن ثم استكمال أسس الوفاق الجديد الذى كان إنوسنت يعمل على بنائه ، إذ كان النظام الدومينيكانى يواجه القوى التى تحدت نظام العصور الوسطى بتعليم حقائق العقيدة الكاثوليكة وكشف توافقها مع العلم ؛ أما المدخل الفرنسسكانى فكان عاطفيا أكثر منه فكريا . فقد كان يستهوى أفئدة الناس أكثر مما يروق لعقولهم . وقد تأسس على مقدمة منطقية بأن التجربة الدينية الفردية العميقة يمكن أن تقوى العقيدة ولاتهدمها . وكان تطور الفكر ، والدين ، والثقافة فى القرن الثالث عشر نتاجا لأعمال الدومينيكان والفرنسسكان ، ومضامين مثلهم العليا .

كان نظام المبشرين ، حسب اسمه الرسمى ، من نتائج الصراع ضد الألبيجنسيين . إذ قام قس أسبانى أسمه دومينيك ، كان يقوم بالتبشير ضد الهراطقة فى لانجدوك بتجميع عدد من الأتباع ذوى الميول العقلية المتقاربة ، والذين يهدفون إلى حياة قديسية ، ليكونوا زهاداً مثل الكاملين الأطهار ، ولكى يقوموا فى الوقت نفسه بالوعظ وطلب الغفران . وفى سنة ١٢١٦ حاز سان دومينيك على موافقة البابا على النظام الجديد الذى سار على القواعد المأخوذة عن الرهبان الأوغسطينيين Austin والبريمونتريين Premonstartensians . وقد اجتذب هذا

التنظيم منذ البداية عدداً من الشباب الذين كانوا يتناسبون مع مستواه السامى ؛ إذ كان ينبغى على المرشحين أن يكونوا رجالا ذوى نزعة تقشفية وقدرات عقلية من الدرجة الأولى . وفى النظام الدومينيكانى كانت المقدرة هى كل شئ ، بل أنها كانت تبطل مزايا التفوق . كان موظفو النظام مسئولين عن لقاءات مجلس الرهبان العام ، وكان المندوبون المرسلون إلى هذه الاجتماعات العامة ينتخبون تأكيداً لأن أفضل الرجال سيقع عليهم الاختيار فى الغالب ، بغض النظر عن أعمالهم أو طول الفترة التى قضوها فى الجماعة . وكان أعضاء جماعة المبشرين رجالا سخروا شخصياتهم ومواهبهم فى خدمة الكنيسة مثل دومينيك نفسه . فقد كان الدومينيكان هم قوات الطليعة الفكرية فى كنيسة القرن الثالث عشر . وكان هؤلاء هم رجال الأكليروس المثاليين الذين أداروا المحاكم الجديدة الموجهة ضد الهراطقة ، وفى القرن الثالث عشر كانت محاكم التفتيش عبارة عن مؤسسة دومينيكانية إلى حد كبير . كذلك فإن أهداف الجماعة الجديدة وتنظيمها ، والأفراد العاملين فى صفوفها ، جعلوا منها أداة مناسبة للتصدى للتحديات الأرسطية . وعلى مدى ثلاثين أو أربعين سنة ، كانت النصوص الأرسطية ترد باستمرار من العالم العربى ، وكانت كليات الفلسفة واللاهوت فى جامعة باريس ، وغيرها من المؤسسات ، مشغولة تماما بمحاولة ربط هذا العلم الجديد بتراث الكتاب المقدس ، وتفاوتت هذه الجهود فيما أحرزته من نتائج . وقد أقبل الدومينيكان على هذه المهمة فى حماسة وشغف، وبمنتصف القرن كانت لهم السيادة فى جامعة باريس . ولكونهم علماء ومفكرين اقتنعوا بأن الدين والعلم حقيقة واحدة . وباعتبارهم المدافعين عن مذهب الكنيسة ، أحسوا بمدى الحاجة إلى دفاع فلسفى عن المذهب المسيحى ، وكان أحد الأساتذة الدومينيكان فى باريس ، وهو توماس أكويناس ، هو الذى صاغ هذا النظام الفكرى صياغة محددة فى الربع الثالث من القرن الثالث عشر .

كانت رسالة الدومينيكان موجهة إلى المتعلمين ؛ إذ أخذ الفرنسسكان عى عاتقهم مهمة أكثر صعوبة وهى محاولة التوافق مع تأثير التدين على البورجوازى العادى ، والسيطرة على موجة التدين الحضرية التى أنتجت الحركة الكبرى لمعاداة السلطة الكنسية . ولم تكن فكرة سان فرنسيس St.Francis of Assisi (١١٨٢ - ١٢٢٦) أن ينظم أتباعه فى جماعة رهبانية مثل الدومينيكان . لأنه ببساطة كان يدعو الناس إلى أن يحيوا حياة المسيح قدر طاقاتهم ، وبذلك تكون الحياة القديسية لأتباعه « الأخوة الصغار Fratres minores » كافية

لأن تغسل قلوب الناس بالقدوة الحسنة وتحولهم صوب طرق أفضل . وكانت تلك أكثر الوسائل مباشرة لعلاج مشكلات المجتمع المسيحى . ذلك أن أسوار الكبرياء والكراهية التى أوجدتها تعقيدات الحياة الاجتماعية لم يكن من الممكن إزالتها سوى بإظهار الحب المسيحى . وكانت هذه هى أبسط وأعمق رسالة ممكنة ، وأزعجت مدلولاتها قادة الكنيسة بقدر إعجابهم بأعظم قديس أنجبته حضارة العصور الوسطى ، الرجل الذى سار على درب المسيح على أكمل وجه .

عاش سان فرنسيس حياة بسيطة ونقية مثل تعاليمه . كان أبوه تاجراً ثريا من آسيسى Assisi فى شمال إيطاليا ، وكانت أمه سليلة أسرة من النبلاء الحضريين . وكان هو شابا فاسداً يقرأ الروايات الخيالية ويحلم بأن يكون لانسلوت آخر . ولكنه حين حاول أن يصبح فارسا جرح وأهين . ومر بواحدة من تلك التحولات الكبرى التى مر بها مفكرون آخرون عظام فى المسيحية - مثل بولس ، وأوغسطين ، وأغناطيوس ليولا ، ولوثر ؛ إذ أنه أحس بأن رحمة الرب تتنزل عليه ، وبدلا من الحب الدنيوى ، صار أرقى أنواع الحب الدينى نبراسا لحياته . وعقد العزم على أن يعيش مثلما كان المسيح يعيش - متسولا معلما ، مداويا ، وصديقا لخلق الله ، ومبشراً بأبسط الحقائق وأكثرها سمواً . وأخذ يتجول بين مدن وقرى شمال إيطاليا يتقوت بالصدقات ، بإيمان كامل بأن رحمة الرب سوف تشمله . وكان يتوجه إلى الفقراء والمرضى ، بل والمجذومين الذين لم يكن يقترب منهم أحد سواه . وحاول أن يقود الأغنياء والأقوياء إلى حياة مسيحية خالصة ، ولم تضعف من عزيمته تلك الإهانات التى كانت توجه إليه . وقد احتفل بأمجاد خلق الله فى قصيدة غنائية رائعة خاطب بها الشمس ، كما كان يبشر الطيور التى اعتبرها أيضا أخوة له .

كان نموذج المبشر القديس الجوال قد صار مألوفا فى مدن شمال إيطاليا على مدى قرنين من الزمان ، وقد لعب أمثال هؤلاء الرجال دوراً هامًا فى إذكاء الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر . ولكن يبدو أن سان فرنسيس قد تفوق على هؤلاء القديسيين بكمال حياته . فقد تأكد تحقيقه الكامل لحياة المسيح بظهور علامات تشبه جروح المسيح Stigmata على حسب ماقيل آنذاك . وسرعان ماجمع من حوله الرجال والنساء ، وأرسلهم عبر الطرق المتربة إلى إيطاليا ليحضروا الأناجيل المسيحية إلى العلمانيين كما كان هو نفسه يفعل . وكانت القواعد التى أرساها لأخوته الصغار مقولات عامة عن المبادئ ، ولم تكن قانونا محدداً لجماعة رهبانية . كان مطلب فرنسيس الأساسى من أتباعه أن يعيشوا مثل المسيح ، ويبشروا به ، ويواصلوا حجهم إلى مدينه الرب بإيمان كامل برحمته . وكان الإخوة الصغار « لايأخذون شيئا للطريق » ،

وعليهم أن يكونوا فقراء بكل معنى الكلمة : فقراء في الروح ، والممتلكات ، والوظائف والتعليم . فقد كان كل مايحتاجون إليه هو مملكة الرب في داخل الإنسان . وكان على الرهبان، وفقا للقدوة المتمثلة في كنيسة الحواريين ألا يتملكوا شيئًا سواء بصفة فردية أو بصفة جماعية . وكان عليهم أن يعيشوا في الكنائس المهجورة والكهوف أو في أي مكان يستطيعون أن يجدوا فيه المأوى . كما أن العمل البدني كان بقصد سد رمقهم ، وإذا لم يكن هذا كافيا ، فعليهم أن يتسولوا . ولم يكن لهم أن يحصلوا على أية إمتيازات من البابا ، كما لايجوز لهم أن يرسموا أساقفة . كذلك كان علهم ألا يسعوا إلى التعليم ، لأنه شرك ولهو ؛ إذ يكفي أن يعرفوا أنهم يجب أن يحبوا الرب ويخدموه .

هذه المثل كانت تحمل بعض وجوه الشبه الواضحة مع مواقف الهراطقة الوالدنسيين . وكان إنوسنت وغيره من الزعماء الكنسيين في البداية مهتمين جداً بمضامين تعاليم سان فرنسيس . ولم يكن هناك شئ أكثر من ذلك . وكان هذا هو مصدر كل الفروق بين الطرفين ؛ فالقديس فرنسيس لم يكن معاديا لسلطة الكنيسة ، ولكنه كان راسخ الإيمان بسلطة القساوسة وكفاية الطقوس الكنسية ، كما أنه أخضع إخوته الصغار (الرهبان) لسلطة الكنيسة تماما . فقد قال فرنسيس لأتباعه أن القساوسة فقط هم الذين يمكنهم القيام بطقس التناول (الأفخورستيا) الذي يجعل الخلاص ممكنا . وقال أنه يؤمن في القساوسة والطقوس بدرجة أنه يؤمن حتى بالطقوس التي يقوم بها قسيس سئ . وكان هذا نفيا قاطعا للهرطقة الدوناتية . ووافق إنوسنت على أن يواصل فرنسيس عمله كما وافق على تأسيس جماعته الصغيرة من الأخوة الصغار Friars Minor . وأدرك إنوسنت بذكائه أن سان فرنسيس كان يقدم الدعم الضروري لجهودات البابا في سبيل استعادة هيبة البابوية وزعامتها . وكان للحركة الفرنسسكانية أن تشارك مشاركة فعالة في توجيه المشاعر الدينية في أوربا ، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا أن يتم على أيدي المبعوثين البابويين أو محاكم التفتيش . ومع ذلك أدرك إنوسنت الذي كان رجلا يختلف عن قديس أسيسي ، مدى فائدة هذا العمل للكنيسة . لقد كانت الحركة الفرنسسكانية نقطة تجمع لأولئك الرجال العلمانيين الذين لم تعد تكفيهم هيراركية الكنيسة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون الإنفصال عن الكنيسة ليتوهوا في غياهب الهرطقة . قد أتاحت تعاليم سان فرنسيس لأولئك الذين يمرون بتجربة شخصية عميقة أن يبقوا في رحاب الكنيسة . وكان هذا هو أفضل عالم روحي ممكن ، كما كان بمثابة إشباع كامل للشوق الديني المتأجج في القرن الثالث عشر . والحماسة الكبيرة التي لقيها سان فرنسيس وأتباعه ، والتي هزت العلمانيين

بعنف فى القرن الثالث عشر وجددت ارتباطهم بالكنيسة كما سببت الإنتشار السريع للحركة الفرنسسكانية فى أوربا - هذه الحماسة لم تكن مجرد نتيجة للسلوك القديسى لأولئك الرجال الملائكيين ؛ وإنما كانت نتيجة لأن الفرنسسكان كانوا قديسين وكاثوليك فى آن معا . لقد كان سان فرنسيس إفرازاً لنفسية الجماهير ؛ إذ كان العلمانيون فى زمانه يريدون مثل هذا الرجل ويحتاجون إليه ، وكان من حسن طالعهم أن يجدوا الرجل الذى يتناسب تماما مع مثلهم الأعلى .

وبعد إنوسنت الثالث صممت البابوية على استغلال الحركة الفرنسسكانية أكثر من ذى قبل كوكيل عن قيادة الكنيسة ، وذلك بتحويلها إلى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينيكانية . وقد وافق سان فرنسيس على هذه التغيرات مرغما ، وتمت معظم هذه التغيرات أثناء غيابه فى شرق المتوسط فى محاولة لتنصير المسلمين . وبعد موته أخذ بعض زعماء الجماعة الفرنسسكانية ، بتشجيع من البابوية ، يخرجون عن القواعد الأساسية التى أرساها . كذلك صار الفرنسسكان والدومينكان قساوسة ، وصارت لهم سلطة التجول فى الريف ، وخلال المدن يسمعون الاعترافات ، ويقومون بالطقوس الكنسية ، مما أثار غضب قساوسة الأبرشيات ورجال الكنيسة فى الكاتدرائيات . وصار الأخوة الصغار Friars Minor يملكون الممتلكات الجماعية . كما برز العلماء الفرنسسكان مثل الدومينيكان بمؤلفاتهم فى الفسلفة والعلوم . ومع الربع الأخير من القرن الثالث عشر كان الأساتذة الفرنسسكان هم سادة أوكسفورد مثلما كان الدومينيكان زعماء باريس . وكان لابد لهذه التغيرات من أن تفرز نزاعات حادة داخل الجماعة ، ولكنها لم تقلل من الإخلاص والاحترام الذى حققه الفرنسسكان للكنيسة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر على الأقل . ومن بين القرارات العديدة التى اتخذها إنوسنت الثالث لم يكن هناك قرار يضارع فى أهميته قراره بالسماح لفرنسيس الأسيسى بأن يرسل « إخوته الصغار » فى مدن أوربا وقراها .

الفصل العشرون
الوفاق الجديد وعيوبه

١ - كاتدرائية الفكر :

كانت بابوية إنوسنت الثالث فاتحة لنصف قرن من السلام والإستقرار الواضح في الحياة الأوربية . فلم تكن هناك حروب هامة منذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤ حتى تسعينيات القرن الثالث عشر . وكانت وفاته هي فصل الختام لفترة طويلة من النمو السكاني والاقتصادي ميزت الاقتصاد الأوربي منذ منتصف القرن العاشر . وواصل البابوات الذين خلفوا إنوسنت الثالث العمل بسياسته الناجحة في التعامل مع ملوك الغرب الأوربي . وكان حكام فرنسا وإنجلترا رجالا قديسين كانوا على وفاق مع البابوية ، على حين تجدد الصراع بين البابوية والهوهنشتاوفن لينتهي بإنتصار كامل للكنيسة . كذلك كان نصف القرن الذي أعقب موت إنوسنت بمثابة فترة التوازن والوفاق في الحياة الفكرية ، فهي فترة حاول فيها مفكرو أوربا الغربية استخلاص المضامين الكامنة في روح القرن الثاني عشر الإبداعية ، وكشف العلاقة بين الدين والعلم في إطار الحقيقة الواحدة . وكانت البناءات الفكرية الطموح التي نتجت عن ذلك مصحوبة بوفاق جديد في مجال الدين . ذلك أن الهجوم الذي شنته محاكم التفتيش على الهرطقة ، بدعم ومساندة قوية من الحماسة التي لقيها الفرنسسكان ، تمخض عن تدهور حاد في تأثير حركة معاداة السلطة الكنسية التي كانت قد هزت النظام العالمي في العصور الوسطى من أساسه في نهاية القرن الثاني عشر . وما أن بزغت شمس سنة ١٢٠٠ حتى كانت الهرطقة الشعبية تافهة الأثر في الحياة الأوربية . فقد نجح الفرنسسكان وأتباعهم في توجيه النزعة الدينية المكثفة التي ميزت كل طوائف المجتمع آنذاك ، ولاسيما البورجوازيين ، في إتجاه يثري الكنيسة الكاثوليكية . وتبقى بعض الإنجازات التي تمت في مجال الفن والأدب في العصور الوسطى دليلا على كيفية إستغلال حركة التدين الشعبي في صالح الكنيسة .

إذ أن الطراز المعماري الجديد الذي كان قد ظهر في منتصف القرن الثاني عشر في جزيرة فرنسا وعرف فيما بعد باسم الطراز القوطي ، مضى من نصر إلى نصر منذ بدايته التجريبية زمن سوجيه . وعلى مدى القرن التالي إنشغل كبار الأساقفة في شمال فرنسا - شارتر ،

باريس ، أورليانز ، راميان ، وسن Sens – فى منافسة حامية لتشييد الكاتدرائيات الهائلة على الطراز الجديدة ، بالبوابات الواسعة ، والنوافذ العالية ، والدعامات الشاهقة ، والأقواس المدببة ، والعقود المضلعة ، والنوافذ الوردية ، والواجهات التى تزينها التماثيل الرائعة . وقد استخدموا موارد أسقفياتهم الهائلة والعبقرية المعمارية فى أوربا لتشييد بنايات أكثر إرتفاعا، وانتهوا إلى تشييد بنايات على هيئة الصلبان بفضاء داخلى أوسع ومتصل غير منقسم بشكل لم يعرفه الناس فى الغرب قبل ذلك . وسرعان ما انتشر الطراز الفرنسى الجديد فى إنجلترا وألمانيا ، بل أن تأثيره إمتد إلى فن العمارة الإيطالى ، حيث كان الطراز الرومانسكى Ro-manesque قد نشأ أصلا . وعلى أية حال ، فإن المنطقة المحيطة بباريس Ile - de - France هى التى شهدت أعظم إنجازات فن العمارة القوطى .

وكان السيد الإقطاعى ، أو الفرد البورجوازى أو الفلاح الذى يدخل كنيسة نوتردام أو شارتر يقع تحت أقوى انطباع عن طبيعة السماء . فقد كان تستخدم كل الفنون ، كما كانت تحرك كل المشاعر لكى تتوجه بنظرة خاطفة صوب أمجاد الحياة السماوية التى تستعصى على الوصف . فقد كان الزجاج المصبوغ «يعكس النور الإلهى » ويرق إلى المذبح فى مزيج لايحصى من الألوان الإعجازية . وكان المصلون يقفون بالآلاف لكى يشاهدوا ويسمعوا القداس القداس العام فى جو تحيط به العنجة المرئية والموسيقى التى تناسب الكنيسة الإمبراطورية ، يتعجبون من الكيفية التى تم بها بناء حوائط الكنيسة الشاهقة . وكما كانت جوقة المرتلين فى الكنيسة تنغم الأصوات فى الترانيم والأناشيد ، وبينما كان الأسقف أو مساعده يقف أمام المذبح فى مسوحه المذهب ، وكما كان المسيح والعذراء والقديسون يتوهجون فى صورهم المرسومة بالفسيفساء الزجاجى فى نوافذ الكنيسة العليا ، بحيث يبدون فى الظلمة المحيطة بهم وقوفا مجسدين ، كان من السهل تصور جيش الملائكة وهو يقوم بدور الدعائم التى يرتفع فوقها بيت الرب .

هذه الآثار الرائعة للعقيدة باتت ممكنة بقدر هائل من التخطيط ، والمال ، والعمل . وكانت مهمة كبرى تلك التى يضطلع بها كل من يبنى كاتدرائية على الطراز القوطى ؛ إذ كانت تتطلب جهوده المئات من الرجال على مدى سنوات عديدة . والكاتدرائيات الفرنسية التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لم تشيدها مجموعة قليلة العدد من القساوسة والعمال الأتقياء وهم يرتلون الترانيم للعذراء . وإنما شيدتها مجموعات من الحجارين الذين

كان يجب أن ينالوا أجوراً مرتفعة لقاء عملهم . ولم يكن الأسقف يقتصر على إستغلال دخله فقط ، وإنما كان يأخذ مبالغ من الملوك والنبلاء ، وسكان المدن . وقد أدى كبرياء سكان المدن إلى تدعيمهم لبناء الكاتدرائيات في مدنهم ، حتى وإن كانوا غارقين في نزاع مرير مع الأساقفة حول حقوقهم الكوميونية . ولم يكن الأسقف يتحرك دائمًا بإلهام من الدوافع السامية؛ إذ كانت الكاتدرائية هي الأثر الذي يجب أن يرتبط به ، فلم يكن الأسقف يعير إهتمامه لمعاناة الفلاحين والمعدمين من سكان المدن ، كما كان يبخل بإحسانه على الفقراء والمعوزين والمرضى ، ولكنه كان هو نفسه يشتهر بين معاصريه ، وفي التاريخ ، ببناء إحدى الكاتدرائيات . وحتى مع كل هذه الجهود ، كان إتمام بناء أية كاتدرائية على الطراز القوطي في مدى ثلاثين سنة يعتبر إنجازا طيبا ، وفي بعض الأحوال كان البناء يستمر على مدى قرن أو أكثر . فقد كان من الممكن أن تبرز كافة أنواع العقبات ، فقد يموت الأسقف الأصلي ولا يهتم خليفته كثيراً بالبناء ، وقد ينفد المال ؛ كما كان من الممكن أن يقع المهندسون والبناءون في مشكلات فنية . وتشييد كاتدرائية على الطراز القوطي عملية مكلفة حتى في عصرنا الحالي ، فضلا عن صعوبة ذلك - فقد تم بناء واحدة في نيويورك في مدة ستين سنة - ولم يكن في القرن الثالث عشر أقل تكلفة وصعوبة . ففي ذلك الحين كان هناك حجارون جاهزون ، وهو مانفتقر إليه اليوم ، ولكن أدوات البناء في العصور الوسطى كانت بسيطة ، كما كانت معرفة القرن الثالث عشر بالبناء محدودة .

كان المهندس الذي يعمل في العمارة القوطية يضع مخططاته بنسب هندسية . ولم يكن يستطيع أن يحدد بالضبط قوة الضغط على أية نقطة في حوائط المبنى الذي يبنيه ، وكان عليه أن يخاطر كثيراً ، دونما نتائج سعيدة في كل الأحوال . وكلما كان طموح الأسقف الذي يستخدمه كبيراً ، كلما كان عليه أن يأخذ فرصة أكبر ، وكلما كان عليه أن يبني بنيانا أكبر من بنايات القرن الثالث عشر ، كلما كان عليه أن يزيد من تدعيم بنائه بالدعائم الشاهقة لضمان الأمن . وفي ظل هذه الظروف فلاعجب في أن المهندسين المجيدين ، اللذين كانوا يبرزون من بين رؤساء البنائين ، كانوا يحظون بتقدير كبير وينالون أجوراً عالية . فقد كانوا صفوة حرفية صغيرة ، وكان أكثرهم نجاحا يتلقى عروضا ، ويعمل في عدة أعمال في وقت واحد .

ولم تكن مهمة المهندس المعمارى قاصرة على تخطيط وتنفيذ بناء الكاتدرائيات ، وإنما كان عليه أيضا أن يشرف على تزيينها . إذ كان هو المسئول على توجيه الحرفيين ، الذين كانت نوافذهم بزجاجها الملون ، وتماثيلهم وإطاراتهم ، وزخرفتهم تعتبر ضرورة للكاتدرائية مثلما كانت الرسوم التوضيحية ضرورة لأي مخطوط جيد آنذاك . وفى الأركان الغامضة فى الكاتدرائية ، أو فوق الحوائط الخارجية السامقة ، كانت تفاصيل الزينة التى لايراها الناظر من على الأرض . وفى بعض الأحيان كان يتاح للحرفيين أن يستخدموا خيالهم ، فابتكروا كافة أنواع الشخوص الغريبة والشاذة التى تتوافق مع روح السخرية العامة أو الأساطير الشعبية ، ولكن عمل الصور المقدسة iconography ، أو أيقونات التماثيل ، والزجاج الملون ، كان يتم بدقة ويتم تصميمه بحيث يستوعب كل التفاصيل تحت إشراف المهندس . وفى بعض الأوقات كان الأسقف أو مقدم الدير الذى بدأ البناء يقدم اقتراحات محددة عن الموضوعات والرموز التى يريد تصويرها فى كنيسته ، وفى أوقات أخرى كان العلماء العاملون فى خدمة الأسقف أو مقدم الدير يقدمون مشورتهم للمهندس . ومن المحتمل أن المهندسين المعماريين المتعلمين كانوا يقدمون العناصر الرئيسية (الموتيفات motifs) من لدنهم ، ولكن من الواضح أيضا أن معظم الرمزية فى الفن القوطى لم تكن نتاجا للفكر الواعى ، ولكنها كانت مجرد تحوير لتراث فن الأيقونات المسيحى الذى يمكن تتبع أصوله على مدى عدة قرون سابقة من خلال المخطوطات المصورة . وكان المهندسون المعماريون المثقلون دائما بضغط العمل ، يستعيرون الأفكار من الكنائس القائمة بالفعل . وقد حفظ لنا الزمن كتاب الرسوم الخاص بمهندس معمارى فرنسى من القرن الثالث عشر اسمه فيلار الهونكورتى Villard de Honnecourt وهو يكشف عن أنه طاف بعدة كاتدرائيات ، وعمل نسخا لكل عمل معمارى وأيقونى أعجبه.

وإذا لم تكن كل جوانب الفن نتاجا للفكر الواعى كما يعتقد بعض الكتاب المحدثين المتحمسين ، فإن كاتدرائيات شمال فرنسا تبقى مع هذا رموزاً دالة على الاتجاهات الفكرية التى سادت السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر . وإذا كانت النغمة المتكررة فى فكر القرن الثانى عشر هى الإبداعية والأصالة ، فإن النغمة الدالة فى أوائل القرن الثالث عشر ومنتصفه كانت هى النظام والضبط . وكما كانت الكاتدارائية القوطية تمزج كل الموارد الفنية والهندسية فى القرن الثالث عشر لتبنى بيتا للروح القدس ، حاول مفكرو تلك الفترة وكتابها أن يشيدوا كاتدرائية الفكر . ذلك أن التيارات غير المتجانسة ، والمتضاربة أحيانا ، التى

سادت الحياة الفكرية فى القرن الثانى عشر ، خضعت لعملية فكرية منظمة ، وتم توجيه التواءاتها وانعطافاتها المحيرة فى أطر ونماذج مباشرة ، فضلا عن أنه تم تحديد الحدود الواضحة لأهدافها بدلا من تلك الغايات المفتوحة التى كانت تسير تجاهها . كان الفكر فى القرن الثالث عشر شبيها بالكاتدرائية القوطية بشكل أو بآخر : فقد كان البناء محكوما بصحن مركزى وجناح مفتوح يسمح للجميع بالرؤية ، أى أنه كان فسيحا ، متقنا ، فخما ، ولكنه يحوى أيضا بعض الحجرات الجانبية والكنائس الصغيرة المعتمة والأقل بهاء ورونقا ، كما كان هناك ضغط على حوائط ذلك الصرح الفكرى الكبير الذى كان أحيانا يزعج المهندسين الذين شادوه .

كان لحضارة القرن الثالث عشر حافز يحث على جمع وتنظيم كافة أشكال المعرفة . فقد كان هناك شعور كامن بأنه إذا أمكن مجرد جمع كل المعارف المتاحة فى حقل معين فى نموذج منتظم داخل صفحات كتاب كبير ، لانتهت جميع الشكوك والفوضى . ولشعر كل المتعلمين بالأمان والسعادة . وكان ذلك رد فعل طبيعى ضد الاتجاهات اللامركزية التى سادت ثقافة القرن الثانى عشر . وتكاتف الجهد المضنى والذكاء الراقى على انجاز مثل هذه الملخصات المنهاجية ، وشاعت فى جميع المستويات والميادين فى عالم الفكر . فقد كانت هناك خلاصة Summa لكل اهتمام وكل ذوق ؛ وأكثرها شمولا وعمقا . هو ذلك الكتاب العملاق « المرآة الكبرى Speculum Maius » الذى كتبه فنسان البوفيزى الذى كان راهبا فرنسيا من الدومينيكان . وكان للاهوت والفلسفة والقانون . بكل أنواعه · مدنيا كان أم إقطاعيا ، أو كنسيا أو عاما ، جامعون يقومون بجمع مواده على أساس منهجى . كذلك كانت هناك كتب أساسية فى الكوزمولوجى [1]، تصف الكون على أساس نظريات بطليموس ، وأرسطو ،

---

١ – الكوزمولوجى Cosmology علم من علوم العصور الوسطى يضرب بجذوره فى الكتابات الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق كما يفسره آباء الكنيسة المسيحية ، وفى الفلسفة المسيحية ، والعلوم الطبيعية ، والدراسات العربية . وقد تبنى الغرب الوسيط المجازات الإغريق فى هذا المجال فيما كتبه بلينى الكبير فى التاريخ الطبيعى وكتابات أوغسطين ، وعلى أية حال ، فإن أهم مصادر الكوزمولوجى فى العصور الوسطى هى وجهة النظر الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق التى تؤكد على خلق الكون من العدم وفقًا لمشيئة الرب . ووفقًا لما يقوله علم الكوزمولوجى فى العصور الوسطى فليس هناك ترتيب منطقى للعناصر الكونية ، وإنما يجب أن نتقبلها كما هى وفهم النظام الكونى يتأتى من خلال الدين والمعرفة الإلهية . وكان هذا مذهب الكنيسة الرسمى الذى صاغه القديس أوغسطين . وفى ١٢١٥ أصدر مجمع اللاتيران الرابع قراراً بأن يكون=

والعلماء العرب ، وكانت هذه الكتب جميعا تقدم معلومات مختلفة عن الكون الذى مركزه الأرض بشكل يتفق مع ماجاء بسفر التكوين ، ومركز الإنسان كمحور لما خلقه الله من كائنات. وبالنسبة لمن هم أقل تعليما ، كانت هذه موسوعات تضم جميع أنواع المعارف ، وقد كتبت بعضها باللغات المحلية ، ولقيت ترحيبا وحماسة من النبلاء ذوى الميول الثقافية وسكان المدن الذين يحاولون تحسين أنفسهم . وكانت مجموعات القصص الأخلاقية التى تجرى على ألسنة الحيوانات تلقى رواجا كبيراً ، على الأقل لأنها كانت تصف وتصور حيوانات لم يرها إنسان من قبل .

وكان ولع القرن الثالث عشر بجمع كل المعارف فى ملخصات منهجية وموسوعات مصحوبا بإدماج كل نشاط فكرى هام فى إطار الحياة داخل المؤسسات الأكاديمية . ولم يحدث قبل القرن العشرين أن تحكمت جامعات الغرب الأوربى فى الحياة والفكر على هذا النحو ، بل إن الأكاديميين كانوا يحتكرون هذا التأثير فى القرن الثالث عشر بشكل أكبر مما هو عليه الآن . لقد كان الفكر فى القرن الثالث عشر مدرسيا Scholastic ، أى أكاديميا . فقد كان كل الكتاب المرموقين فى اللاهوت ، والفلسفة ، والقانون والعلوم « مدرسين » ، بمعنى أنهم كانوا أساتذة فى المدارس ، أى الجامعات ، كما أنهم كرسوا أنفسهم لتسخير المنهج الجدلى فى الاستدلال العقلى ، وهو الأمر الذى كان قد بات شائعًا فى القرن الثانى عشر . وكان الوسط التنظيمى الذى عملوا فى رحابه يحكم نظرتهم بطرق أخرى بالضرورة . لقد كانت تلك بيئة تضج بالجدية والمنافسة ، والالتزام ، وهى بيئة ربما كانت أفضل لتهذيب المذاهب السائدة منها لترك النماذج المقبولة وفتح خطوط جديدة للفكر لقد كان الأساتذة والطلاب فى العصور الوسطى يصورون أحيانا فى صور شخصيات بشوشة صافية ؛ ولم تكن تلك هى الحال بصفة عامة . وقد يكون من الأصح أن نصورهم فى صورة نماذج بائسة ، مقهورة ، وعدوانية .

= هذا هو الشكل القانونى لعلم الكون (الكوزمولوجى) فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد ساند توماس أكويناس هذا الرأى بمجادلاته الفلسفية . ومن ناحية أخرى ، فإنه منذ القرن الثالث عشر ، وبتأثير العلوم العربية ، طور الفلكيون رأيين مختلفين بشأن الكون ، أحدهما أطلق عليه توماس كانتمبرى Thomas of Canntimpre الكوزمولوجى الأرسطى ، وهو يقوم على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وهو الذى طوره روجر بيكون . وقد ظلت هذه المذاهب والأراء قائمة حتى قيام نظريات كوبكرنيكوس خلال عصر النهضة .

A.D. Sertillanges , L'Id'ee de la creation et ses retentissements en Philosophie(1945) .

(المترجم)

كانت الجامعة فى العصور الوسطى ، وهى التى تطورت عن المدارس الكاتدرائية الفرنسية والمدارس البلدية الإيطالية فى القرن الثانى عشر ، مساهمة مميزة وأصيلة فى عملية تنظيم التعليم العالى . وكانت منظمة على أساس تدريس فروع عديدة من المعرفة لعدد كبير من الطلاب بطريقة منهجية ورخيصة بقدر الإمكان ، وبهذا كانت أرقى من مدارس البلاغة وأكاديمياتها التى عرفها العالم القديم . لقد قام نظام جامعات العصور الوسطى على أساس التحاق الطلاب بها والدراسة من خلال برامج محددة ثم أعطائهم درجات تشهد لهم بالحد الأدنى من الكفاءة ؛ وماتزال هذه هى الفكرة الأساسية للجامعة فى الحضارة الغربية . كذلك طورت الجامعة فى العصور الوسطى منهجًا جديداً للتعليم يتضمن المحاضرات واستخدام الكتب الأساسية ، ومايزال هذا ساريا بشكل أساسى حتى اليوم ، بغض النظر عن صلاحيته أو سوئه . لقد كانت المحاضرة فى العصور السطى « قراءة » ؛ إذ كان الأستاذ يقرأ فقرة من نص ، مثل قوانين جستنيان ، أو الكتاب المقدس ، أو أحد مؤلفات أرسطو ، ويطور تفسيره بوضع هوامش على النص . وبما أن الكتب لم تكن ميسورة سوى فى شكل مخطوطات ، فإنها كانت مكلفة إلى حد كبير ، وكان الطلاب الأثرياء فقط هم الذين يستطيعون شراء نسخ الكتاب المقرر . وقد يشترك ثلاثة من الطلاب أو أربعة فى شراء كتاب ويدونون الهوامش التى يمليها الأستاذ على النص . وكانت المناقشة بين الطلاب والأساتذة قليلة أو معدومة . وكان الحوار السقراطى الوحيد فى جامعات العصور الوسطى يدور بين الأساتذة فقط؛ لأنهم كانوا يقومون بين الحين والحين بالتنافس على إعطاء محاضراتهم على نفس النص، وبذلك ينخرطون فى مناقشات عامة واسعة حول الموضوعات محل الخلاف .

لقد نظمت الجامعات على أساس أنها نقابات خاصة لصناعة الرجال المتعلمين . وفى شمال الألب كان المدرسون يتصرفون مثل المعلمين فى أية نقابة أخرى ، إذ كانوا يقررون المدى والوقت الذى كان على الطالب أن يمضيه كتلميذ ودارس ماهر ، كما أنهم وضعوا الشروط التى تخول له حق الدخول فى زمرة الأساتذة والحصول على آخر درجاته العلمية . وجميع هذه الدرجات ، سواء كان الطالب يحصل بعدها على لقب معلم أو دكتور ، كانت من الناحية الفنية ترخيصا له بالتدريس ، على الرغم من أن معظم خريجى الجامعات لم يعملوا بالتدريس. وكانت تلك شهادات بالكفاءة ومدى المهارة اللازمة فى الحرفة التى تحترفها النقابة . وكانت المستويات الفكرية ومدى الدراسة التى ينبغى على الطالب انجازها قاسية . ففى مدارس

إيطاليا التى تخصصت فى القانون المدنى فى الشمال ، وفى الطب فى الجنوب ، كانت النقابة فى أيدى الطلبة ، أو طلاب شهادة البكالوريوس الذين كانوا يستأجرون المدرسين ، ويقررون القواعد التى تتطلب من المحاضرين أن ينتهوا من التعليق على النصوص المقررة قبل نهاية الفصل الدراسى . كان هذا هو الموقف البورجوازى تجاه التعليم . وكانت الامتحانات فى جامعات العصور الوسطى تتم شفويا ؛ وكانت شاملة وصعبة .

أما نقابات الأساتذة فى الشمال فكانت تحصل على الترخيص من الأسقف الذى يقومون بالتدريس فى مدينته . ومن آن لآخر كان الأسقف يتدخل فى شئون الجامعة إذا كان مهتما بالمدلولات المذهبية لما يقوله أو يكتبه أحد الأساتذة . كذلك كانت البابوية والملوك يشرفون على الجامعات . ونتيجة لهذا ، كان يحدث أن يمنع الأساتذة من التدريس وتدان آراؤهم ومذاهبهم بين فترة وأخرى . ولكن مايجذب الإنتباه هو درجة الحرية الكبيرة التى كان الأستاذ فى القرن الثالث عشر يتمتع بها ، حتى فى مجال اللاهوت والفلسفة . وكان النظام الذى يخضع له الأستاذ ويسمح بالسيطرة عليه مسألة محصورة فى نطاق الجامعة . إذ كان زملاؤه ينافسونه دوما بغية الوصول إلى التميز الفكرى ، وأفضل مراكز الأستاذية ، فضلا عن إخلاص الطلبة والرسوم التى كانوا يدفعونها أحيانا . وكان أى شذوذ أو فكر ثورى يجد تحديا قويا . كما أن كثيرين من الأساتذة كانوا أعضاء فى منظمات رهبانية ، لاسيما من الدومينيكان والفرنسسكان ، مما كان يؤدى إلى المزيد من التحكم فى أعمالهم .

وإنها لخرافة تلك التى تقول إن غالبية طلاب الجامعات فى العصور الوسطى كانوا متحمسين ويريدون أن يصبحوا من علماء اللاهوت . فالواقع أن نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون اللاهوت بين طلاب جامعات القرن الثالث عشر لم تكن تزيد عن النسبة الموجودة اليوم. فقد كانت أكثر كلية محببة فى أوساط الطلاب هى كلية الحقوق ، ومازال هذه الكلية تجتذب اليوم عدداً كبيراً ولنفس الأسباب . فقد كانت هى الطريق إلى الوظائف الكبرى فى الكنيسة والدولة . ومن ناحية أخرى ، كانت دراسة اللاهوت ، على الرغم من إحتمال أنها كانت مبجلة كملكة بين العلوم ، دراسة طويلة وصعبة ، ولا تتيح سوى القليل من فرص التوظف بعد الحصول على الدرجة . وكانت حياة الطالب فى العصور الوسطى صعبة على الدوام ، وبائسة إلى أبعد الحدود . فقد كان معظم الطلبة أبناء لأسر الفرسان الصغار ، الذين لم يكن بمقدورهم أن يقدموا لأبنائهم سوى القليل عن طريق الإرث ، أو من سكان المدن الذين كانت الجامعات بالنسبة لهم سبيلا للهروب من طبقتهم والدخول فى خدمة الكنيسة أو الدولة .

وقد ساءت ظروف الطلاب بما فيها من إحباط بسبب الأسعار الملتهبة ، وعدم كفاية الطعام ، وتوفر المسكن فى المدن التى توجد بها الجامعات مثل باريس وأوكسفورد . كذلك كانت المشاجرات التى تنشب بين آونة وأخرى بين سكان المدن والطلاب ، بل وحوادث الشغب الواسعة النطاق ، نتيجة طبيعية لهذا . وكان المفروض أن يقوم الملك والأسقف بحماية الطلاب من الإستغلال . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الصعيد الواقعى . وقد تأسست جامعة كمبردج فى مطلع القرن الثالث عشر على أيدى الأساتذة والطلبة الذين تركوا أوكسفورد تأففا بعد شغب عنيف جداً إندلع بين الطلبة وأهل المدينة . وفى غضون القرن الثالث عشر بدأ بعض المحسنين الأغنياء ، ومنهم روبير السوربونى Robert de Sorbon فى باريس ، يشيدون بيوتا جماعية أو كليات Colleges للطلاب . وفى أوكسفورد صارت الكلية أكثر أهمية فى الحياة التعليمية فى الجامعة . وكان من المتبع أيضا فى باريس تقسيم الطلاب إلى « أوطان » معينة وفقا للإقليم الذى نزح منه كل فريق منهم . كان الطالب يجد دراسته طويلة وصعبة . وتكاليف المعيشة مرتفعة ، والنظام الذى يخضع له صارما . فلا غرابة فى أنه كان يجد لتعاسته متنفسا فى معاقرة الخمر ، والمقامرة ، فضلا عن مشاجرات الشوارع بين الحين والآخر. ولاغرابة أيضا فى أن بعضًا من ألمع مفكرى الحياة الجامعية فى القرنين الثالث والرابع عشر كانوا رجالا مشاغبين ذوى شخصيات مضطربة إلى حد ما .

كانت كلية الآداب تقدم الدراسات الأساسية فى جامعات العصور الوسطى ، وهى الدراسات التى كان الطلاب يمضون بعدها بالسرعة الممكنة إلى دراستهم المتقدمة فى القانون ، أو اللاهوت ، أو الطب . وعلى العموم لم يكن الأساتذة فى كلية الآداب هم أفضل مفكرى جامعات العصور الوسطى . إذ كان تناولهم للكلاسيكيات يفتقر تماما إلى القيم الإنسانية التى وجدها حنا السالزبورى فى الفنون الحرة . فقد كان حنا يخشى ألا تسود النزعة الإنسانية فى ظل الجو الجدلى المسيطر على الجامعة ، وقد أثبتت التطورات التالية لدراسة الآداب الحرة صدق حدسه . إذ كان المدرسون فى القرن الثالث عشر ينشدون الحقيقة ، ولكنهم لم يكونوا يقدرون الآداب العظمى سواء من حيث خصائصها الجمالية ، أو من حيث كونها معلما للأخلاقيات . فقد كان المدرسون فى كلية الآداب يتناولون الكلاسيكيات بطريقة تحليلية للغاية؛ كما كانت نظرتهم للنصوص القديمة تقوم على أنها مصدر للمعرفة ينبغى أن يخضع للجدل . وكان من الواجب تشريح البناء اللغوى والمجازى ، ثم تناولها بطريقة منهجية . ولكن مدخلهم النفعى المحدود لم يترك مجالا للأفكار أو القيم التى يحملها التراث الكلاسيكى على

حد سواء . وكان العالم القديم لايعنى شيئا بالنسبة لهم فقد كانوا مدركين فى قرارة أنفسهم أنهم منفصلون عنه . كان الفكر فى القرن الثالث عشر فى أضعف مواقفه بسبب عدائه للنزعة الإنسانية ، وعلى المدى الطويل قيض لهذا الفشل أن يكون ذا أهمية فائقة فى ثقافة العصور الوسطى المتأخرة . وكانت حركة الحفاظ على التراث الكلاسيكى ، وهى المهمة التى اضطلعت بها المدارس الكنسية منذ القرن السادس ، تجرى خارج الجامعة مرتبطة بالتراث الأدبى الرومانسى . فقد كان الشعراء الإيطاليون فى أخريات القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر هم أصحاب الفضل فى إحياء القيم الإنسانية ، وكانوا هم حقا خلفاء حنا السالزبورى . وكانت عداوة الإنسانيين فى عصر النهضة تجاه الجامعات ، على الرغم من أن معظمهم كانوا من خريجى الجامعات ، نتيجة معارضة الجامعيين للتراث الإنسانى فى القرن الثالث عشر .

كان المدرسيون يعتقدون أن منهجهم الجدلى وحصيلتهم الكبيرة من التعليم المسيحى واليونانى تؤهلهم لحل جميع المشكلات . فهم على سبيل المثال ، كانوا يكرسون وقتا كبيراً ومناقشات طائلة حول ما إذا كان الربا يتوافق مع العقيدة المسيحية ، وحول ماهية « السعر العادل » الذى ينبغى أن تسمح السلطات الكنسية للتاجر بأخذه . وبينما استنتج المدرسون أن هناك قيوداً أخلاقية على المشروعات الرأسمالية ، فإنهم مع هذا كانوا يسمحون لأصحاب المشروعات بعائد مربح من استثماراتهم وأموالهم . وعلى صعيد الممارسة الفعلية كانت القيود المدرسية على الفائدة أو المكسب تلقى التجاهل والاحتقار من التجار والمصرفيين .

وكان المطلب الخاص الذى كان المجتمع ، والكنيسة على نحو خاص ، يطلبه من المدرسيين ، يقع فى مجالات المنطق ، والميتافيزيقيا ، والمعرفة ، واللاهوت . فالمشكلات التى كانت قد طرحت جانبا من القرن الثانى عشر والتى صارت أكثر إلحاحا وضغطا نتيجة لإستيعاب العلم الأرسطى ، والتعليقات والإضافات العربية عليه ، كانت هى المشكلات التى تمرست فيها تماما المهارة الجدلية والقدرة العقلية الفائقة التى تميز بها المدرسيون فى القرن الثالث عشر . وبمنتصف القرن كانت هناك فوضى شديدة وتضارب بين الفلاسفة واللاهوتيين لأن النظم العقلية المتنافسة والمتضاربة كانت تقف فى وجه بعضها البعض . وكان مايزال هناك أولئك الذين يؤيدون الفلسفة الأوغسطينية القديمة ومذهب الأفلاطونية المحدثة ، إلى جانب من يؤيدون الموقف الواقعى القوى . وكان هناك أحد أساتذة كلية الآداب فى باريس ، وهو سيجيه البرابنتى Siger of Brabant الذى كان يناصر مذهب ابن رشد بعقلانيته الصارمة ، وإنكاره

للخلق من العدم وفردية الروح بشكل يتعارض تماما مع المفاهيم الدينية المسيحية . وكان هناك راهب دومينيكانى ألمانى فى باريس ، إسمه البرتوس ماجنوس Albertus Magnus ، يحاول أن يبنى موقفا مسيحيا أرسطيا ولكنه لم يحرز نجاحا كبيراً .

وعند هذه النقطة ، بدأ دومينيكانى آخر فى باريس ، هو توماس اكويناس[٢] Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٢) يبنى نظامه الخاص . وكان عمله الذى أكمله فى القرن الثالث عشر وأجمله فى كتاب « خلاصة اللاهوت Summa Theologica » نقطة تحول فى الفكر فى القرن الثالث عشر ، فقد كان طفرة بالغة الأهمية . ولكن كان محيراً ومشوشا بقدر ماكان يرضى المثل العليا للمعاصرين . وليس هناك ماهو أبعد عن حقيقة ثقافة القرن الثالث عشر من أن نتصور أن الفلسفة التوماسية لقيت ترحيب الجميع باعتبارها الحل لمشكلات الكنيسة الفكرية . وربما تعتبر الكاثوليكية الحديثة أن الفلسفة التوماسية كانت هى الفسلفة الرسمية للكنيسة ، ولكن هذا بعيد جداً عن الموقف الذى كان سائداً فى أيام سان توماس وعلى مدى القرنين التاليين . إذ كان الكثيرون يعتبرون أن توماس مفكر ثورى ، فلسفى ومغرض إلى حد كبير . ولكن أهمية عمله كانت محل الإعتراف منذ البداية حتى من جانب أولئك الذين إنتقدوها . لأنه كان قد أوجد نظاما مضبوطا ، هائلا ومركبا ، وحاذقا ، مزج مابين العلم الأرسطى والدين المسيحى بأكبر قدر ممكن من الكمال . وبقى السؤال مطروحا ، على أية حال ، عما إذا كان هذا النظام يصلح فلسفيا أم أنه يلقى القبول من الناحية اللاهوتية.

ولم يتزعزع أكويناس . ولم يُعكّر النقد الذى وجه إليه داخل جامعته أو خارجها صفوه المعتاد . ذلك أنه لم يواجه الهجوم من جانب بعض زملائه فقط ، وإنما أيضا من جانب أسقف باريس ومن جانب أبرز فيلسوف دومينيكانى فى أوكسفورد . ولكن توماس إستمر فى تعاليمه وكتاباته ، وأخذ يضيف رويداً رويداً إلى بنيانه العقلى الذى قال مؤرخ الفن أيروين بانوفسكى Eruin Panofsky إنه يكشف عن كل خصائص الكاتدرائية القوطية . لم يكن

---

٢ - يرد ذكره فى بعض المؤلفات والترجمات العربية باسم توما الاكوينى ، ولكننا نرى أن من الأفضل دائما أن يكتب الاسم كما ينطقه أبناء اللغة الأصلية .

(المترجم)

عبثا أن أكويناس صار يعرف باسم « الدكتور الملائكى » . فشخصية توماس أكويناس ، التى تتميز بالثقة فى النفس ، والصفاء ، والإعتدال فى النقاش ، غالبا ماكانت تعتبر الشخصية النمطية لأستاذ الجامعة فى العصور الوسطى ؛ ولكن هذه الخصال هى التى جعلت منه الاستثناء الكبير بين الأساتذة . فمن ناحية كان تفوقه العقلى سببا فى صفائه ، ولكن يجب أن نعزى هذه الصفة أيضا إلى سمنته الشهيرة وإلى خلفيته الطبقية أولا وأخيراً . فقد كان توماس سليل عائلة ارستقراطية من نابولى ، وكان يرتكز فى عمله الفكرى على ثقة وطيدة بالنفس نابعة من كرامة المحتد .

ويمكن القول بأن فلسفة توماس أكويناس المسيحية قد تأسست على التناقض ؛ فقد حاول أن يتوصل إلى معظم نتائج أوغسطين وماقالت به الفلاسفة الأفلاطونية المحدثة باستخدام أكبر قد ممكن من علم ابن رشد ومنطقه . وكانت تلك مهمة جسورة تحف بها المخاطر ، ولا غرو أنه حير معاصريه ودوخهم بجسارته وبإنجازه لهذه المهمة فى كتاب منهجى ضخم . ويقوم الفرض الأساسى لتوماس على أن الفلسفة الأرسطية لاينبغى أن تؤدى بالضرورة إلى الإستنتاجات التى إستقاها ابن رشد « الشارح » من أقوال أرسطو « الفيلسوف » . وعلى الرغم من أن ناقديه قد اتهموه ، دون وجه حق ، بأنه اقترب من الفسلفة الرشدية لأنه يستخدم العلم الأرسطى أساسا لفلسفته ، فإنه كان يريد أن ينفى إزدواج الحقيقة الى قال بها المفكر العربى العظيم[٣] . فلم تكن هناك حقيقة فى العلم وحقيقة أخرى فى الدين ؛ إذ كان من الممكن البرهنة على المذاهب الأساسية فى المسيحية بالمنطق العقلى . وكانت معرفته الأرسطية هى التى أتاحت له أن يتوصل إلى هذا الاستنتاج . ويقوم نظامه العقلى كله على مبدأ أن

---

٣ – ينسب الرشديون اللاتين ، وهم علماء أوربا الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد ، إلى هذا الفيلسوف العربى أنه قال بالحقيقة المزدوجة ذات الوجهين ، بمعنى أن ماهو صادق فى مجال الدين قد يكون خاطئا فى مجال الفلسفة . وعلى أساس هذا الاعتقاد نشبت الخلافات حول موقف ابن رشد . انظر : R.R., " Arabian Philosophy " , in Ency . Brit . , II, 195 .

وعن تلخيص موقف هؤلاء انظر : محمد عاطف العراقى ، النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، ص ٢٨٧ – ص ٢٩١ . ويرى الدكتور محمد عاطف العراقى أنه « من الخطأ الظن بأن ابن رشد قد تكلم عن العلاقة بين العقل والشرع حاصراً نفسه فى دائرة الشرع ، أو واضعا فكرة فى قوالب جدلية ، بل معلنا لمبادئ عقلية برهانية يؤمن بها هو . وعلى هذا تكون نظرية التوفيق هذه نظرية تساوق مبادئ العقل مساوقة تامة » .

(المترجم)

معرفتنا لاتأتى من المشاركة المنيرة للعقل فى الأفكار الإلهية والخاصة ، كما تقول الفلسفة الأوغسطينية ، وإنما تبنى أساسا من التجربة الشعورية . وبوصفه مفكراً أرسطيا ، فإنه لم يكن يستطيع تقبل النظرية الأفلاطونية عن الأشكال ؛ لأنها لم تكن نظرية علمية فى رأيه ، وأية فلسفة مسيحية تقوم على هذه المعرفة الزائفة لابد وأن تفشل كما فشل الواقعيون فى القرن الثانى عشر فى مواجهة الهجوم الرمزى . وعلى أية حال ، فإذا كان أصل المعرفة الإنسانية فى الحواس ، فإن الأبنية الفكرية سوف تقوم على أساس سليم ، ويمكننا بذلك أن نمضى بالعقل لكى نتأمل طبيعة الحقيقة . وهكذا يصل أكويناس إلى الإستنتاج الذى يمكن أن نصفه بأنه « واقعية معتدلة moderate realism » ولكنه يتوصل إلى هذه الواقعية المعتدلة من نقطة انطلاق أرسطية لا أفلاطونية . وقد اعترف أن هناك مناطق نهائية فى العقيدة المسيحية لايستطيع العقل أن يتوغل فيها ؛ فمن المستحيل البرهنة على معجزة تجسد المسيح أو الثالوث . ولكن يمكن البرهنة العقلية على وجود الله ووجود الكثير مما ينسب إليه . وقد طرح أكويناس خمسة براهين على وجود الله ؛ وتقوم على أساس من الجدل الأرسطى عن وجود العلة الأولى . ولايمكن أن تكون هناك لانهائية فى السببية ؛ وإنما لابد أن يكون هناك محرك أصلى ثابت ، هو الذى قال عنه أكويناس أنه الله . ويمضى فى الجدل بحيث يتعرض لكثير من الشكوك حول هذا الموضوع لكى يصل إلى الله باعتباره كاملا ، عليما ، قادراً على كل شئ ، وحراً . وعلى نفس المنوال يمضى أكويناس من السببية الأرسطية من خلال الجدل المنطقى لكى يبرهن على الخلق من العدم ، ومن علم النفس الأرسطى يمضى إلى الروح الإنسانية ، ومن الأخلاق الأرسطية يمضى إلى الفضيلة المسيحية .

كان أكويناس يعتقد أنه اقترب جداً من المبادئ النهائية لتعاليم أوغسطين . وقد توصل إلى ذلك عبر طريق جديد ؛ وهو طريق الأفلاطونية التى أحلها محل العلم الأرسطى . وينقسم نقاد الفلسفة التوماسية إلى طائفتين : الرشديون ، وغيرهم ممن يدرسون أرسطو وزعموا أن توماس أساء استغلال مؤلفات الفيلسوف وأنه أنحرف بالسببية الأرسطية والمنطق الأرسطى . وقد أنكر أولئك الذين يأخذون بالمذهب الأفلاطونى الجديد والفلسفة الأوغسطينية أنكروا أنه توصل إلى الألوهية الأوغسطينية على الإطلاق . وإنما زعموا أن توماس قد زل فى القدرية الأرسطية . وقالوا إن الألوهية عند توماس ميكانيكية آلية وليست قادرة حرة - فالرب إله وليس المسيح . كما أدعوا أن الكون الذى نظمته التوماسية يقوم على أساس رفض أوغسطين

فى سبيل أرسطو . كما زعموا أن توماس قضى على التفرقة بين وجهة النظر العالمية الأغريقية ووجهة النظر العالمية المسيحية ، وهى التفرقة التى كان أوغسطين قد أرسى دعائمها . فقد كان أوغسطين قد أكد على تفوق الإرادة على العقل ؛ ولكن توماس حقق عالمه المنظم بأن أخضع الإرادة لتفوق العقل .

وكانت آخر الإنتقادات التى وجهت إلى التوماسية هى تلك التى وجهها الفلاسفة الفرنسسكان ، الذين كانوا قد بدأوا يسيطرون على كلية اللاهوت فى أكسفورد عند موت أكويناس . فقد كان معاصرا لتوماس الفيلسوف الإيطالى بونافنتيرا Bonaventura (١١٢١ - ١٢٧٤) ، الذى كان هو أيضا رئيس جماعة الأخوة الصغار (الفرنسسكان) . وقد نشر مقالة كبيرة أعادت تأكيد الموقف الأفلاطونى - الأوغسطينى فى مواجهة الفلسفة الأرسطية الجديدة . وفى نظام بونافنتيرا ترتبط النظرية الأفلاطونية الواقعية ، التى تقول بأن الكليات هى التى توجد المادة ، ارتباطا قويا بلاهوت أوغسطينى يتسق مع رؤية أتباع سان فرنسيس . فتفوق الحب ، والإرادة على العقل عاد ليتأكد من جديد ، كما تأكدت جلالة الرب ورحمته فى مواجهة الألوهية الآلية عند أرسطو .

كانت محاولة بونافنتيرا لطرح صياغة فلسفية للمثال الفرنسسكان تعبيراً عن تيار كبير معاد للفكر فى القرن الثالث عشر ، وهو تيار لم يَقُمْ على التمسك بهدوئه طويلا فى مواجهة مضامين ومدلولات الفلسفة التوماسية . فقد أعادت الفرنسسكانية إلى رحاب الكنيسة تيار التدين الذى كان قد فاض خارج الصفاف الكنسية فى القرن الثانى عشر مهدداً بتدمير تفوق وسيادة السلطة الكنسية . ولكن إذا كان التدين قد اعترف مرة أخرى بسلطة الكنيسة ، فإنه مع هذا كان مايزال يحمل مفهوما محدداً للغاية عن الرب ، ولم يكن هو ذلك المفهوم الذى ظهر فى كتاب خلاصة اللاهوت Summa Theolgia . وحتى عندما كتب توماس ترنيمة عن جسد المسيح Corpus Christi . كانت احتفالات من النمط القديم « بالأب الدائم ، والإبن الذى يحكم فى العلياء مع الروح القدس التى تنبثق من كليهما بشكل أبدى وخالد » . وكانت روح الترنيمتين الفرنسسكانيتين الكبيرتين فى القرن الثالث عشر ، واللتين نظم أولهما جاكوبون ديتودى Jacopone de Todi بعنوان Sabat Mater ، ونظم الثانية توماس سيلانو Thomas Celano بعنوان Dies Trae ، تختلف عن روح ترنيمة توماس أكويناس اختلافا كبيراً . إذ أن هاتين الترنيمتين توضحان سويا الموضوعين التوأمين فى وجهة النظر الفرنسسكانية العالمية ؛ أى الحب الدينى وجلالة الرب :

أنت أيتها الأم ، يانبع الحب

إلمسى روحى فى علياتك

واجعلى قلبى يتوافق معك !

إجعلينى أشعر بما كنت تشعرين

واجعلى روحى تحلق وتذوب

فى حب المسيح سيدى .

* * *

لقد رحت أيها الرب ، ونحن نخافك بحيث أننا

نحتمى منك بك

وبجناحى حمامتك أنت

تطير إلى رحاب الحب

فى منتصف القرن الثالث عشر اتضح تماما تأثير الحركة الفرنسسكانية من خلال الشعبية الهائلة التى كان يتمتع بها مذهب ذلك الرجل الفقير القادم من آسيسى (فرنسيس) ، كما تصفه الحكايات المعروفة باسم « الزهور الصغيرة » وهى حكايات تتخذ طابع السيرة والأسطورة معا ، وقد ذاعت عقب موت فرنسيس مباشرة ، وفى قوالب كثيرة مختلفة . كذلك تكشفت أهمية الحركة الفرنسسكانية من خلال المفكرين اللامعين الذين اجتذبتهم ، على الرغم من أن سان فرنسيس نفسه كان يعارض التعليم على اعتبار أنه غواية خطيرة . وبحلول سنة ١٢٧٠ كانت الحياة الفكرية فى أوروبا ، التى ظهر فيها صرح التوماسية شامخا للغاية ، قد بدأت تشهد بروز مجموعة من الفلاسفة الفرنسسكان الذين كانوا قد بدأوا يصوغون معارضتهم لما يقوم به الدومينيكان من خلط بين العلم والدين . وبعبارة أخرى ، كان ثمة انقسام خطير قد بدأ يحدث فى عالم الفكر المنهجى فى القرن الثالث عشر .

وتبدو البداية الغامضة للعلم الحديث وكأنها فرخ من أفراخ الفكر الفرنسسكانى فى القرن الثالث عشر . ويبدو الموضوع أكثر غموضا بسبب افتقارنا إلى إجماع الآراء حول طبيعة العلم الحديث الأساسية . فهل يمكن تعريف العلم بأنه ملاحظة طبيعية ؟ هذا تعريف غامض للغاية

يعجز عن تمييز العامل الجديد الذى يفصل العلم الحديث عن العلم القديم . فهل هو الخاصية الكمية للطبيعة ، أى التعبير عن الظواهر لطبيعية فى مصطلحات رياضية ؟ يبدو هذا تعريفا جيداً ، لولا حقيقة أن الرياضيات لاتصدق على الطبيعة فى بعض الأحيان ؛ ذلك أن الرياضيات تحدد العلاقات التى لاتوجد فى الطبيعة دائما . وقد يمكن للإنسان أن يعرف العلم الحديث من خلال المنهج التجريبى . وهناك ، على أية حال ، بعض الغموض حول طبيعة المنهج التجريبى على الرغم من أنه يمكن القول بأنه يتعلق بالمنطق الاستقرائى إلى حد ما .

وأيا كان التعريف الذى نعتبره تعريفا صحيحا لطبيعة العلم ، فإن مؤلفات أسقف لنكولن روبرت جروستست Robert Grosseteste (١١٧٥ - ١٢٥٣ م) ، وحامى الفرنسسكان الإنجليز ، ومؤلفات الراهب روجر باكون Roger Bacon (ت ١٢٩٢) يمكن أن ينسحب عليها هذا التعريف ففى كلتى الحالين كان ثمة مكسب للمعرفة الجديدة من خلال الملاحظة فى ميادين البصريات والفلك ، حيث كانت المعدات المطلوبة قليلة مع قدر ضئيل من فهم المنهج الاستقرائى والمنهج الاستنباطى . فقد أكد جروستست على الحاجة إلى التعبير عن الظواهر الطبيعية فى ضوء النسب الرياضية . وقد فتحت العلوم الرياضية العربية التى غزت أوربا أبواب البعد الرياضى فى الفكر الإنسانى أمام المفكرين الأوربيين للمرة الأولى . وفضلا عن ذلك تتميز كتابات باكون بنغمة من الجرأة الفكرية والاستقلالية التى يمكن ربطها بالموقف العام للعلماء المحدثين . والسؤال الهام الذى يبرز من ثنايا مؤلفات هذين الرجلين هو : لماذا جاءت الخطوات الأولى صوب العلم الحديث من الفرنسسكان ولم تكن نتاجًا للحركة التوماسية؟ من ناحية ، تكمن الإجابة فى طبيعة الفلسفة الأرسطية ، ومن ناحية أخرى ، نجدها فى الاتجاهات التى اتخذتها الحركة الفكرية الفرنسسكانية . إذ كان العلم الأرسطى هو أفضل العلوم المعروفة فى العالم حتى ذلك الحين ، وهذا هو مادفع توماس إلى التفكير فى إدماجه فى الدين المسيحى . ولكن بما أن هذا العلم كان قائما على أساس من السببية الاستنباطية على مقدمات منطقية ، فإنه كان طريقًا مسدوداً أمام محاولات توماس . وكان باكون هو أول من أدرك ذلك بوضح . وبهذا المزج بين العلم الأرسطى والدين حول توماس العلم إلى نظام مغلق لايمكن أن يتحرك فى اتجاهات جديدة . وربما كانت الحركة الفرنسسكانية ، بتدينها العاطفى ، تبدو نقطة بداية غريبة للعلم ، لكنها كانت ذات خصائص معينة أثبتت جدواها فى هذا السبيل . وكان أفلاطون هو الذى قال بأن الكون يعمل فى ضوء أشكال

تتناسب تناسبًا رياضيًا مثاليًا ، والضوء الأفلاطوني الأول كما عبرت عنه كتابات جروستست، هو الذى قاده إلى نظريته عن المدلول الكمى للطبيعة . أما باكون ، اللى كتب بعده بقليل ، فكان متأثراً بالثورة الفرنسسكانية ضد الأرسطية ، وهى الثورة التى كانت تهدد فى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر ، بانفصام كاتدرائية الفكر المدرسية .

٢ – السلطة الأخلاقية للدولة :

أدت محاولات سان توماس ، لوضع جميع مشكلات العقل الإنسانى فى إطار نظام مضبوط ، إلى قيامه بتطوير نظرية فلسفية كانت على درجة من الجسارة والأهمية تعادل جسارة وأهمية فلسفته وآرائه اللاهوتية . وكما اصطدم بالتراث الأفلاطونى للعصور الوسطى الباكرة في تفسير للطبيعة الإلهية ، فإنه أوجد ثورة فى مجال الفكر السياسى أيضا . ففى العصور الوسطى الباكرة كان الفكر السياسى محكوما بعداء أوغسطين للدولة وإنكاره للخاصية الأخلاقية المستقلة للسلطة السياسية . فقد كانت الفلسفة الأوغسطينية تضع الإرادة فوق العقل ، بخلاف التعاليم الأرسطية ؛ كذلك كانت الأوغسطينية السياسية تنفى وجهة النظر الإغريقية عن الدولة ككائن أخلاقى وجوده ضرورى لتحقيق الطاقات الإنسانية الكامنة. إذ لم يكن الإغريق يستطيعون الإقتناع بأن الإنسان يمكن أن يعيش بمعزل عن الدولة ، ولكن أوغسطين كان يرى أن المهم هو الرجل الداخلى ، وليس الرجل الاجتماعى . كما أن العلاقة بين الروح الإنسانية والله القوى هى فقط التى تجعل للحياة الإنسانية معنى . وكان أوغسطين يرى أن الدولة ، بحد ذاتها ، مجرد مجموعة من اللصوص . ليست لها أية صفة أخلاقية ، كما أن الدولة لاتكتسب أية سجايا أخلاقية سوى بقدر ما تمضى فى سبيل تحقيق أهداف مدينة الله . وحين تحولت الأوغسطينية إلى مذهب أكثر تحديداً ، صارت هى النظرية السياسية للكنيسة فيما قبل القرن الثانى عشر ، وهى نظرية كانت تجعل من الدولة خادمًا للكنيسة ولم تعط للدولة من الصفات الأخلاقية إلا بقدر خضوع الملكية نفسها لمطالب وأوامر السلطة الكنسية والبابوية على وجه الخصوص ، وقد وصلت الأوغسطينية السياسية إلى أكمل شكل لها فى الجوانب الثورية للمذهب الجيلازى ، وهبة قنسطنطين ، وتصريحات جريجورى السابع . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حافظ رجال القانون الكنسى ، العاملون تحت حماية البابوية، على هذه السلطة النظرية السياسية فى صياغة جديدة تمثلت فى مذاهبهم القانونية عن السلطة البابوية المطلقة .

ولكن تدعيم السلطة العلمانية في المجتمع على الصعيد الواقعي ، وبشكل مطرد ، جاء مناقضا لتراث السلطة الكنسية . ومنذ منتصف القرن الثاني عشر بدأ تيار جديد في الفكر السياسي بين كبار مفكري أوربا يطفو على السطح رويداً رويداً ... ودون التخلي عن نظرية السمو النهائي للكنيسة ، تمت محاولات لصياغة نظرية الدولة يمكن أن تتوافق بشكل أكثر واقعية مع الظروف الاجتماعية الفعلية ، تكون فيها الحكومة الملكية ضرورة لاغنى عنها . وقد خطا حنا السالزبوري ، وأوتو الفريزي ، في القرن الثاني عشر ، الخطوات الأولى في هذا الاتجاه الجديد ، وبقى على توماس أن يصوغ الاتجاهات الفكرية الجديدة في القرن الثاني عشر في مذهب محدد ، مثلما فعل في مجالات الفكر الأخرى .

وكما كان الحال في أعماله الفلسفية واللاهوتية ، وجد توماس في العلم الأرسطي منطلقا لمذهبه السياسي . إذ كان تأثره بكتاب « السياسة » لأرسطو يعادل تأثره بما كتبه في الميتافيزيقا ، والمعرفة ، والأخلاق . وعليه فإنه كان مستعداً لتقبل وجهة النظر الإغريقية عن الضرورة الأخلاقية للدولة ، ولتقبل مذهب أرسطو القائل بأن الإنسان كائن سياسي يمكن أن تتحق قواه الكامنة في مجتمع سياسي . وهكذا كان مذهب أكويناس السياسي ثورة ضد تراث الأوغسطينية السياسية ، واستعادة للرؤية الإغريقية عن المضمون الأخلاقي لسلطة الدولة . ولكنه لم يكن يريد الإطاحة بما توصل إليه آباء الكنيسة . مثلما حاول في مؤلفاته اللاهوتية حين رفض الأوغسطينية روحا ومنهاجا ، وإنما كان يريد أن يتوصل في الفكر السياسي إلى نقطة لاتبعد كثيراً عن التراث الأوغسطيني ، وتستفيد ، فقط ، من حقائق العلم الأرسطي . وبعبارة أخرى ، كان توماس أكويناس يريد أن يحافظ على الخاصية الأخلاقية للدولة كما يقول بها أرسطو إلى جاب الاحتفاظ للكنيسة بالسمو النهائي في المجتمع . وقد حاول توماس هذا المزج الاستفزازي الجسور بين القديم والجديد في فكر العصور الوسطى السياسي من خلال فلسفته القانونية . فقد أكد أن قانون الدولة يجب أن يتوافق مع القانون الطبيعي ، الذي هو إنعكاس للقانون السماوي ، وحين يتوافق القانون الطبيعي للدولة بهذه الطريقة مع قانون الرب، تكون خاصيته الأخلاقية كاملة مطلقة . وبهذا المذهب القانوني كان أكويناس يظن أنه أعطى للسلطة السياسية خاصيتها الأخلاقية الضرورية ، كما أنه أخضعها في الوقت نفسه لوكالة الكنيسة عن الإرادة الإلهية . وكان يعتقد أنه اعترف بقيمة الزعامة العلمانية في المجتمع المسيحي ، وحافظ مع ذلك على المذهب الجيلازي التقليدي .

كان هذا التوازن الهش ، والمزج الواهي بين السلطة الكنسية والسلطة العلمانية في النظرية السياسية التي وضعها توماس أكويناس ، يتناغم مع طبيعة العلاقات بين الملكية والكنيسة في منتصف القرن الثالث عشر من عدة وجوه . ولاشك في أن حقائق الحياة السياسية قد شجعت أكويناس على أن يصوغ هذه النظرية التي يتخلى فيها عن الرؤية الأوغسطينية للدولة؛ فإن ماكان يجرى في إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا في أيامه كان يبدو منسجما مع فلسفته السياسية بشكل ملحوظ . فقد كان الملك الإنجليزي ، هنري الثالث ، رجلا قديسا طيعا استمر على نفس الموقف الودي الذي كان أبوه الملك جون قد أجبر على اتخاذه تجاه الكنيسة في السنوات الأخيرة من حياته . وفي باريس نفسها تأكد المذهب التوماسي في شخص لويس التاسع وموقفه، فقد بدا هذا الملك في ناظري توماس وكأنه تجسيد لمثاله السياسي . فقد ذاع صيت لويس بسبب الحملة الصليبية التي ضحى فيها بنفسه ، وبسبب اضطهاده للهراطقة ، وكراهيته لليهود . وتتكشف الصورة الشعبية للملك في سيرته التي كتبها أحد نبلاء شمباني البارزين ، وهو أمير جوانفيل ، وهي أول سيرة ملكية يكتبها رجل علماني في العصور الوسطى . وفي قصة جوانفيل عن لويس ، يبدو الأخير رجلا قديسا ، ولكنه شجاع ليس له من طموح سوى خدمة الرب ورفاهية شعبه . فهو يتحمل ، دونما شكوى، معاناة كبيرة أثناء حملته المنكوبة على مصر ، ويقضي نحبه في تونس شهيداً ، وهو يحاول مثل سان فرنسيس ، تنصير المسلمين. وفي فرنسا يتحمل لويس ، دونما تذمر ، المعاملة السيئة من أمه حين كانت هي الوصية على المملكة ، ويتغاضى عن عصيان الأمراء المشاغبين دون أن يفكر في الانتقام . وهو يصر على أن حكومته تحقق أسمى مثل العدالة المسيحية ، ولكي يؤكد هذا يجلس الملك تحت شجرة بلوط ويفصل بنفسه في القضايا التي يرفعها إليه رعاياه المحبون له . لقد كان الدكتور الملائكي (توماس أكويناس) والملك القديس (لويس التاسع) متعاصرين تقريبا ، وكانت هناك حركة قوية فعلا لتقديسهما قبل موتهما . لقد كان سان لويس يبدو وكأنه التطبيق الحي للتوماسية السياسية .

وقد تأكد مثال أكويناس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة بطرق أخرى أيضا . فقد شن الإمبراطور فردريك الثاني حربًا ضد البابوية في إيطاليا ، ولكن البابا خرج ظافراً من هذا الصراع ، وخلال حياة أكويناس ، أزيحت أسرة الهوهنتشاوفن المتمردون الطغاة من على وجه البسيطة ، وسلم البابا أملاكهم إلى الأخ والملك المسيحي المثالي لويس التاسع . كما أن

التداخل بين السلطة البابوية والسلطة الملكية قد تكشف بوضوح خلال القرن الثالث عشر فى منح الحكومات الملكية نصيبًا من الضرائب الكنسية ، عندما يقوم الملوك بمغامرات تحبذها البابوية وتحث عليها . وقد تجلى هذا واضحا أيضا من خلال تزايد التدخل البابوى فى التعيينات الكنسية فى شتى أرجاء أوربا على أساس من سوابق القانون الكنسى . وفى سبيل الحفاظ على سيطرتهم الكاملة على المناصب الكنسية ، وجد الحكام العلمانيون أن من المفيد لهم أن يمنحوا البابا حق تحديد ووضع « شروط » ملء بعض الوظائف الكنسية داخل ممالكهم .

وهكذا بدت فلسفة توماس السياسية تعبيراً عن الوفاق السياسى الجديد فى الحياة الأوربية وجاءت تكملة لأعمال إنوسنت الثالث خلال نصف قرن بعد وفاته ، على الرغم من أنها كانت فلسفة ثورية استفزازية فى بعض جوانبها . فقد قام خلفاء هذا البابا بمواصلة العمل بسياسته ، ومنهم جريجورى التاسع (١٢٧ - ١٢٤١) ، وإنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) اللذان كانا يماثلان إنوسنت الثالث من حيث دراستهما القانونية ، وتجربتهما الدبلوماسية والإدارية ، ودفاعهما المستميت عن المصالح البابوية . وقد أحرزا بعض الانتصارات المدوية ، وتمكنا بشكل عام من تقوية صرح البابوية الذى كان إنوسنت الثالث قد شيده . وعلى أية حال كانت هناك نواحى معينة فى علاقة البابوية بالملكيات الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، وجدتها البابوية مزعجة فى حياة توماس أكويناس ، وسان لويس ، ولم يكن الوفاق السياسى الجديد ، الذى كان مؤثراً إلى حد كبير ، خاليا من نواحى القصور القاتلة وأوجه الضعف الخطيرة ، فقد كانت هناك خلافات بين النظام المثالى التوماسى وحقائق الحياة السياسية لم يكن بوسع الدكتور الملائكى أن يستوعبها وهو قابع فى موقعه الممتاز فى جامعة باريس . إذ كانت هناك تغيرات تجرى فى المؤسسات والأيديولوجية التى قامت عليها ملكية القرن الثالث عشر ، وهى التغيرات التى لم تكن أهميتها قد اتضحت تماما حتى العقود الأخيرة من ذلك القرن .

كان الموقف السياسى الإنجليزى ، منذ السنوات الأخيرة من عهد الملك جون ، مثيراً لسخط البابوية على نحو خاص ، إذ كان قد تم إخضاع الملك الإنجليزى ، ولكن ماكان يحير الكرادلة الإيطاليين ويضايقهم هو اكتشافهم أن السلطة الملكية لم تعد تتحكم فى الحياة الإنجليزية . فقد كان للبابوية آنذاك فصل إقطاعى هو الملك الإنجليزى ، ولكنه كان عاجزاً عن فرض النظام داخل وطنه . وبدلا من ذلك كان البارونات الإنجليز ، بتشجيع ومساندة بعض رجال الكنيسة ، يضرمون نار التمرد والعصيان بغرض إحكام السيطرة على حكومة الملك . وروجوا

لنظريات قانونية تخضع الملك لسلطة القانون الذى لايمكن تغييره دون موافقة «مجمع المملكة» ، كما كانوا يزعمون . وكانت أنباء هذه التجارب السياسية والأفكار الدستورية تبدو غريبة على مسامع زعماء البلاط البابوى الذين التصقوا بالتراث الرومانى - الكنسى عن السلطة المطلقة . ولم تكن هذه مجرد صدمة لمشاعر الكرادلة وأفكارهم عن النظام الصحيح ، وإنما كانت أيضا خطراً يهدد سلطة الملك (الفصل البابوى) ، ومن ثم فهو يهدد التدخل البابوى فى انجلترا بطريق غير مباشر . ونتيجة لهذا ، وعلى مدى ستين سنة بعد خضوع الملك جون للبابوية ، ظل البلاط البابوى يساند السلطة الملكية فى انجلترا ويعادى التجارب والأفكار الجديدة فى مجال الدستور ، مما كانت له نتائج بالغة الأثر على العلاقات البابوية الإنجليزية .

وفى سنة ١٢١٤ لقى جون هزيمته الثانية ومهانته الكبرى على يد عدوه اللدود فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، إذ كان قد تحالف مع قريبه أوتو الرابع لشن هجوم على جبهتين على مملكة آل كابيه . وكان المفروض أن يأتى أوتو من ألمانيا عبر الفلاندرز ، أى عبر الطريق الذى كان على الجيوش الألمانية أن تعتاده فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، على حين يندفع جـــون من بواتو Poitou فى حركة تطويق كبيرة . وأحرز جون بعض الانتصارات الأولية ، ولكنه لم يلبث أن انهار تحت وطأة إحدى نوبات الإحباط التى كانت تعتريه . وظل بلا حراك على حين جرد فيليب معظم جيشه ضد أوتو وألحق بالإمبراطور الألمانى هزيمة نكراء فى بوفينيس . هذه الكارثة العسكرية الثانية كانت إشارة لبلورة عصيان البارونات ضد سلطة آل أنجو فى إنجلترا . وكان جون قد دأب منذ زمن طويل على استغلال حقوق التاج : مثل ضريبة الاقطاع ، والخدمة العسكرية ، والبدل النقدى بطريقة قاسية للغاية لكى يزيد من دخل الملكية عن طريق الضرائب . وكانت حكومة جون تواجه ضغطا هائلا ؛ فقد كان لدى الملك جهاز إدارى ينمو باطراد ، كما أنه كان مشغولا فى مغامرات عسكرية ودبلوماسية بعيدة المدى . ومع التطور فى مجال التسليح ، مثل الدروع المعدنية الثقيلة وغيرها من جوانب التحسين فى التكنولوجيا العسكرية ، فقد كانت نفقات الحرب تتزايد باستمرار ، وعلى أية حال ، لم يكن زعماء البارونات متعاطفين مع جون فى ورطته ، إذ لم يكن لديهم استعداد لدفع الضرائب الباهظة لتأييد ملك فاشل فى ساحة الوغى ، جعلهم يخسرون أراضيهم فى نورماندى ، كما أنه أفسد ساحات القضاء فى البلاد لاستصدار أحكام ضد عائلات البارونات الذين كان يشك فى ولائهم لأسباب تافهة ، أو دونما سبب فى كثير من الأحيان . فضلا عن أن الملك كان قد

لقى الهزيمة والإمتهان على يد البابا ، كما أنه دخل فى علاقة تبعية للبابا ، وهو الأمر الذى كان منعطفا خطيراً فى العلاقات الإنجليزية - البابوية منذ زمن وليم الفاتح .

كانت غالبية البارونات الكبار ، بقيادة بعض العائلات الشمالية التى عانت بشكل خاص من الإجراءات الفاسدة فى المحاكم الملكية ، قد أعدوا العدة لأول عصيان حقيقى ضد الملك فى إنجلترا منذ الغزو النورمانى . ويبدو أن الحركة البارونية كانت ذات أهداف محددة واعية حددها لها ستيفن لانجتون كبير أساقفة كانتربورى الذى كان أبعد مايكون عن التزلف إلى البابوية ، كما كان متوقعًا ، وإنما صار رجلا ذا موقف مستقل وقوى . وقد نسق ستيفن موقف الكنيسة الإنجليزية مع الزعامات العلمانية فى الشكل الذى عرف فيها بعد باسم «جماعة المملكة الإنجليزية » . متجاهلا بذلك حقيقة أن الملك جون هو الفصل الإقطاعى للبابا. ويبدو أن ستيفن هو الذى اقترح على البارونات أن يصوغوا شكاواهم فى شكل « وثيقة عظمى » أجبروا الملك على الموافقة عليها وختمها فى سنة ١٢١٥م . وكانت السابقة التى صاغ ستيفن على نسقها « الميثاق الأعظم » "Magna Carta" هى وثيقة تتويج هنرى الأول والوعود الى قطعها على نفسه فى هذه الوثيقة تجاه الكنيسة والشعب فى سنة ١١٠٠م. ويتضمن الميثاق الأعظم Magna Carta قائمة طويلة بحقوق البارونات والإمتيازات التى وعد الملك بعدم انتقاصها . وبطبيعة الحال ، كان الميثاق وثيقة فى صالح طبقة البارونات ، ولكن هذه الطبقة زعمت أنها تتحدث نيابة عن « الشعب الإنجليزى بأسره » . وقد وضع « الميثاق الأعظم » قيوداً صارمة على السلطات المالية للملك ؛ وقد حذفت قيود كثيرة منها فى الإصدار النهائى للميثاق على يد هنرى الثالث سنة ١٢٢٥ . وعلى أية حال ، فإنه لأمر بالغ الأهمية أن البارونات لم يحاولوا تدمير النظام العام القانونى الذى كان هنرى الثانى قد أكمله، كما أنهم لم يحاولوا أن يستعيدوا للمحاكم الإقطاعية الخاصة ماكان لها من سلطات واختصاصات انتزعتها منها المحاكم الملكية . كذلك لم يحاول أحد من كبار النبلاء أن يحصل على تنازلات خاصة له ؛ فقد كانوا يتحدثون كمجموعة تختلف حرياتهم من مكان لآخر فى سائر أرجاء المملكة . لقد كان هذا نتاجا لمائة وخمسين سنة من الحكم المركزى القوى فى انجلترا أدى إلى توحيد البلاد لدرجة أن كبار الأمراء المحليين لم يكونوا يقدرون على تصور حرمان أنفسهم من الإدارة الملكية والقانون الملكى الكفء ، على الرغم من أنهم كانوا يريدون تغيير السلطة الملكية . بل إنه حتى لم يرد بخاطرهم أن يقيموا إمارات تتمتع بالحكم الذاتى .

وأهم ما فى الميثاق الأعظم Magna Carta يتمثل فى النظرية القانونية التى تجسدها العبارة القائلة بأن على الملك أن يراعى « قانون الأراضى » ، وأنه لايستطيع أن يتصرف ضد

أحد دون اللجوء للإجراءات الواجب اتخاذها فى القانون العام ... وإذا رغب الملك فى أن يفعل شيئا يتخطى قانون الأراضى السائد ، مثل فرض ضريبة جديدة ، فإنه لايستطيع أن يفعل ذلك إلا بموافقة مجموع الأمة . وهكذا أعاد الميثاق الأعظم تأكيد المبدأ الدستورى الجرمانى الذى أدمج فى القانون العام : وعلى حد تعبير أحد كبار القانونيين الإنجليز فى القرن الثالث عشر « **فى إنجلترا حكم القانون لا الإرادة** » . ولأن الميثاق الأعظم يعبر عن فكرة سمو القانون فوق الإرادة الملكية ، فقد صار بمثابة صيحة تنبيه هامة لأجيال الإنجليز اللاحقة فى نضالهم ضد السلطة الملكية . وإبان القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر كان السخط والغضب الناجم عن استبدادية سلطة الحكومة الملكية يعبر عن نفسه فى المطالبة بالتأكيدات الملكية للميثاق الأعظم . وقد رأى رجال القانون العام الإنجليز فى القرن السابع عشر أن الميثاق الأعظم قلعة تحمى الحرية الإنجليزية فى مواجهة الطغيان الملكى ، بل إنهم قالوا إن الميثاق الأعظم أكد المحاكمة عن طريق المحلفين بمعنى الكلمة . وعلى الرغم من أن نظام المحلفين الذين يصدرون الحكم لم يكن قد تطور فعلا حتى أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لتحريم مجمع اللاتيران الرابع للمحنة كطريقة للتحقيق ، فإن التفسير الذى صدر فى القرن السابع عشر للميثاق الأعظم لم يكن تفسيراً عبثيًا كما قال كثيرون من النقاد المحدثين . فالمذهب الأساسى فى الميثاق الأعظم هو أن الملك لايستطيع أن يتصرف حيال أى فرد حر فى مملكته سوى باتخاذ الإجراءات الواجبة فى القانون العام السائد أيا كانت مؤسساته .

والعبارة الأخيرة فى الميثاق الأعظم تؤيد قيام البارونات بالتمرد العام diffidatio ضد الملك وعصيانه إذا لم يف بوعوده . وسرعان ماتوفر للبارونات السبب اللازم لتنفيذ هذا الشرط . فقد لجأ الملك جون إلى البابا إنوسنت الثالث ، سيده الإقطاعى ، لكى يحله من إيمانه التى قطعها على نفسه للبارونات ، والتى زعم أنها كانت على كره منه ، وسرعان ما استجاب البابا الذى لم تكن تروق له المدلولات النظرية فى الميثاق الأعظم ، كما أنه لم يكن راغبًا فى أن يقلل من سلطة الملك الإنجليزى . بل إن إنوسنت وبخ لانجتون على صياغة الميثاق وأوقفه عن ممارسة مهام منصبه . وحمل البارونات السلاح ضد الملك وطلبوا من ابن فيليب أوغسطس أن يساعدهم ، ولكن موت جون يسر السبيل لإعادة إقرار السلام بين الحكومة الملكية والأمراء. إلا أن هنرى الثالث ، وريث جون ، لم يكن أكثر نجاحا منه فى ممارسة السلطة الملكية . وبعد أن وصل إلى السن القانونى فى عشرينيات القرن الثالث عشر توالت الكوارث، الواحدة تلو الأخرى ، لتدمر علاقاته مع زعماء المجتمع فى المملكة ، حتى قام مؤتمر من

البـارونات فى سنة ١٢٥٨ بانتـزاع سلطة الإدارة الملكيـة ، وفى سنة ١٢٦٤ حـاول هنرى أن يستعيد السيطرة المباشرة على الإدارة الملكية ولكنه هزم فى معركة أمام البارونات ووقع فى الأسر .

كـانت الأزمة الدستورية فى عـهد هنرى الثـالث نتـيجـة لضـعـفه كـملك ولتطور الأفكار الدستورية الواردة فى شروط الميثاق الأعظم . كان هنرى رجلا مخلصا للغاية وذا ذوق جمالى. وكـان هو المسـئول إلى حد كبـير عن بناء دير ويستمنستر فى شكله الحالى . ولكنه فشل كجندى؛ فقد خسر بواتو أمام لويس التاسع ، الذى كان زوجا لأخت زوجته ، والذى كان يكن له قدراً كبيراً من الاحترام ويعامله بكل التبجيل والإكرام . بل إن هنرى كان أكثر خضوعًا للبابوية بحيث سمح لنفسه بالتورط فى الخطط البابوية الرامية إلى استبدال الحاكم الألمانى من الهوهنشتاوفن بملك آخر أكثر خضوعًا . وقدم البابا عرش صقلية لابن هنرى لقاء ثمن باهظ دفـعه الملك من دخل الخزانة الملكيـة . وكانت الوسيلة الوحيـدة ، لكى تحصل الحكومة الملكية على دخل غير عـادى لهذا الغرض وغيره ، فرض أشكال جديدة من الضرائب . وكـان الجهاز الإدارى للملك جون قد جرب استغلال المبدأ القديم الخاص بالضريبة الإقطاعيـة المعروفة باسم «المساعدة اللطيفة» . وكانت هذه ضريبة خاصة على الأفصال أن يدفعوها لسيدهم لغرض معين ، ولكن بموافقتهم ورضاهم . وقد استطاع الملك جون ، باعتباره السيد الإقطاعى الأعلى لجميع الأمراء الإنجليز ، أن يحصل على موافقة الأمراء على مساعدته لقتال الملك الفرنسى . واستغلت حكومة هنرى الثالث هذه السابقة عدة مرات للحصول على الموافقة بفرض ضريبة عى موارد وممتلكات الأمراء وأفصالهم . وكان موظفو الأقاليم الذين لايتلقون أجوراً عن وظائفهم، هم المسئولين عن جباية هذه الضريبة .. وكانت الأساليب التى استخدموها مشابهة لتلك التى استخدمت فى جباية ضرائب العشور التى كانت الكنيسة قد فرضتها سنة ١١٨٨ لتمويل الحملة الصليبيـة الثالثة . وحين زاد ضيق الأمراء من حكومة هنرى ، لم يستطع الملك أن يحصل على موافقتهم بفرض ضرائب جديدة . واضطر إلى أن يقصر فى الدفع للبابوية ، مما جعل البابا يسلم صقلية إلى أخى الملك الفرنسى . وقد أدى هذا إلى وضع هنرى الثـالث فى وضع لايحسد عليه . فقد كانت خزائنه خاوية ، كما كان البارونات ينتقدون إدارته بعنف . وكانوا غاضبين من جراء موقفه المتخاذل من البابوية ، وبسبب الوظائف الملكية والكنسية التى كان يهبها لأقاربه الفرنسيين ومؤيديه . وكما حدث سنة ١٢١٥ ، قام بعض رجال الكنيسة ، ومنهم رئيس الفرنسسكان فى انجلترا بتوجيه السخط المضطرم فى انجلترا . إذ أحس كثيرون

من الزعمـاء الكنسيين أن البلاط البابوى فى روما يتجاهلهم ويسلبهم حقوقهم ، ويسئ معاملتهم ، لاسيما وأن البلاط البابوى عقد الصفقات مع الملك لفرض الضرائب على رجال الكنيسة ، كما أنه ملأ الوظائف الكبرى فى الكنيسة الإنجليزية بالإيطاليين .

وقد وجد البارونات ورجال الكنيسة الساخطون إلهامهم فى شعور وطنى جنينى اتخذ شكل كراهية الأجانب ، وظهر أيضا فى تأكيدهم لضرورة مراقبة الملكية عن طريق ممثلى مجموع سكان المملكة . بيد أنه لم يعد بوسع البارونات أن يزعموا أنهم وحدهم المتحدثون باسم البلاد ككل . إذ كان أبناء الشرائح الدنيا من النبلاء وفرسان المقاطعات يلعبون دوراً هاما فى شئون الإدارة والضرائب فى المقاطعات . وكانوا فى سبيلهم لأن يصبحوا طائفة متمايزة ، أو طبقة ، فى المملكة . ولم يعد باستطاعة البارونات الكبار أن يزعموا أنهم ينوبون عنهم . كذلك فإن البورجوازيين ، ولاسيما فى لندن ، قدموا إسهامات تجارية هامة فى البلاد . وعلى الرغم من أن وضعهم القانونى والاجتماعى كان مايزال أدنى من وضع ملاك الأراضى ، فإنه كان من المفيد ربطهم بحركة البارونات ، بسبب مايتمتعون به من ثروة . وفى سنة ١٢٦٥م قام زعماء البارونات ، وربما كان ذلك بمشورة أصدقائهم الفرنسسكان ، بدعوة ممثلى الفرسان والبورجوازيين إلى اجتماع لمجلس المملكة الكبير ، وهو المجلس الذى يحضره أعيان الأمراء العلمانيين والكنسيين حتى اليوم . كان هذا هو أول مجلس مشترك للطائفتين اللتين كانتا تتقاربان سويا فى هذه اللقاءات التى كان المجلس فى أواخر القرن الثالث عشر يعقدها بين الحين والحين ، والتى عرفت باسم « البرلمانات Parliaments » . وفى سنة ١٢٦٥ اجتمع الفرسان والبورجوازيون للدعاية ، ولكن مجرد حقيقة أنهم دعوا إلى هذا الاجتماع تكشف عن وعى جديد من جانب البارونات بأنهم لايمكن أن يتحدثوا نيابة عن شعب المملكة بأسره . وكان المذهب الدستورى للبارونات هو أنه فى المسائل التى تخص المملكة كلها - مثل التشريعات ، والضرائب ، والسياسة الخارجية - يجب على الملك أن يتصرف بموافقة المملكة ككل . وكانت دعوة الفرسان والبورجوازيين تعبيراً عن هذا الرأى .

كانت المؤسسات النيابية شائعة فى أوربا القرن الثالث عشر . فقد استخدمت فى الاجتماعات الإقليمية لأمراء فرنسا ، وفى مجلس الضياع الأسبانى Spanish Cartes ، وفى حكومات المدن . وهناك رأى يقول إن هذا التطور كان نتاجا لنشر الفكرة القانونية الرومانية عن المراقبة القضائية والتفويض القانونى . وكانت انجلترا هى البلد الأوربى الوحيد الذى كانت فيه المؤسسات النيابية ، التى بدأت فى ستينيات القرن الثالث عشر ، تلعب دوراً بالغ الأهمية

فى الحياة السياسية ، مع أن إنجلترا هى البلد الوحيد الذى بقى خارج منطقة تأثير القانون الرومانى . فقد كان غالبية القضاة الإنجليز قبل نهاية القرن الثالث عشر من رجال الكنيسة المعتادين علي القانون المدنى والقانون الكنسى . ومن الممكن أن تكون فكرة النيابة قد تسربت إلى المملكة عن طريق أولئك المشرعين . ولكن بينما يحتمل أن تكون فكرة الوكالة قد ساعدت على إعطاء الشكل الرسمى للحياة النيابية الإنجليزية ، فمن الواضح أنه كانت لهذا النظام جذوره العميقة في انجلترا . ففى صياغة القانون العام كان المفروض أن تقوم هيئة المحلفين بالكلام نيابة عن « البلاد » بأسرها فى المقاطعة . وكان المحلفون يحضرون سجلات جميع القضايا من المقاطعات إلى المحاكم الملكية ، كما كان أولئك المحلفون يمثلون البلاد أمام القضاة الملكيين . وكان اجتماع عموم المملكة من الناحية الفنية اجتماعا موسعًا للمحكمة الملكية Cu-ria regis ومن ثم فإن زعماء البارونات حين أرادوا فى سنة ١٢٦٥ عقد اجتماع موسع لمجلس عموم المملكة ، كانت فى أذهانهم فكرة وتجربة النيابة التى عرفوها من خلال ممارسات القانون العام التى خبروها بالفعل . وكان البرلمان فى القرن الثالث عشر عبارة عن اجتماع خاص للبلاط الملكى لبحث الأمور العظمى فى الدولة ، وكان من الممكن أن يدعى إليه ممثلون عن الفرسان فى المقاطعات وعن البورجوازيين أيضا ، من أجل استغلال هذه الفرصة الكبيرة للحصول عى موافقة جميع طوائف المملكة على سياسة الحكومة المركزية .

كان زعيم البارونات سنة ١٢٦٥ هو سيمون المونتفورتى Simon de Montfort الذى كان ابنا لسيد إقطاعى فرنسى يحمل نفس الاسم كان قد تولى قيادة الحملة الصليبية الألبيجنسية. وقد صار سيمون إيرل earl إنجليزيا عن طريق وراثة جدته ، وتزوج أخت الملك . وقد أهله ذكاؤه وقدرته ، وصداقته مع الفرنسسكان لأن يكون زعيما للحركة البارونية . وعلى أية حال، كان كثيرون من الأمراء الآخرين يفتقرون إلى سجاياه الممتازة ، وحين صارت لهم السيطرة على الإدارة المركزية وجدوا أن العمل شاق ويبعث على الضجر . ومن ثم بدأت الحركة البارونية تتحطم غداة انتصارها ، وتحول كثيرون من الأمراء عن شئون الحكم المركزى سعيا وراء مصالحهم الخاصة . وفى سنة ١٢٦٥ نجح جيش ملكى يقوده إدوارد ، وريث هنرى الثالث ، فى هزيمة سيمون المونتفورتى وقتله . واستعاد هنرى سيطرته على الجهاز الإدارى . ولكنه متاعبه كانت درسا لابنه إدوارد الأول Edward 1 حين اعتلى العرش سنة ١٢٧٢ . فقد كان إدوارد قد رأى مدى ما سببه الفشل العسكرى والخضرع لبابوية من خراب لأبيه . كما أنه صار على وعى بالمشاعر الجماعية والوطنية السارية فى البلاد ، وعقد العزم على توجيه هذه المراقف لإعادة بناء السلطة الملكية فى انجلترا .

وفى نصف القرن الذى أعقب وفاة إنوسنت الثالث كانت البابوية تنعم بإخلاص الملك الإنجليزى وولائه المطلق ، وهو ماكان يتناقض تماما مع طبيعة العلاقات البابوية الإنجليزية خلال السنوات المائة والخمسين السابقة . ولكن البلاط البابوى أحس بخيبة الأمل وهو يكتشف أن هذه الميزة الكبرى كانت ، فى جانب كبير منها ، ميزة تافهة بسبب الظروف الداخلية فى انجلترا التى كانت كل طوائف المجتمع فيها ، ومنهم رجال الكنيسة ، تريد تقييد السلطة الملكية . وكانت علاقات البابا بالإمبراطورية فى تلك الفترة تختلف من جميع الجوانب تقريبا . ففى هذا الاتجاه كان على البلاط البابوى أن يناضل ضد عدو فائق القدرة هو الإمبراطور الذى أعاد ذكرى الأيام الرهيبة لهنرى الرابع . وقد انتهى هذا النضال بأكبر وأكمل نصر أحرزته البابوية على الملكية فى العصور الوسطى .

إذ أن الحل الذى كان إنوسنت الثالث يعتبره حلا نهائيا للمشكلة الإمبراطورية لم يستمر زمنا طويلا . فقد كان قد أعطى التاج الإمبراطورى لفردريك الثانى (١٢١٥ - ١٢٥٠) شريطة أن يتنازل عن مملكته فى صقلية حالما يضمن ولاء الأمراء الألمان . وهذا ماتم له فى سنة ١٢١٨ عندما مات أوتو الرابع ، الذى كان المرشح الأصلى للإمبراطورية . بيد أنه لم تكن لدى فردريك أية نية للتنازل عن نابولى وصقلية ، اللتين كانتا بمثابة المعقل القوى لسلطته . والحقيقة أنه لم يكن مهتما بألمانيا على الإطلاق ، فلم يزرها سوى لتقديم تنازلات ضخمة للأمراء الألمان ، والأساقفة ، والمدن ؛ إذ اعترف لهم جميعا بالسيادة الإقليمية الكاملة ، وأطاح تماما بما كان باقيا مما فعله فردريك بربروسا وهنرى السادس لدعم السلطة المركزية . فقد كان فردريك إيطاليا ، وأراد أن يجعل من نفسه حاكما على إيطاليا كلها ، وأن يخضع مدن الشمال الكبرى ، التى نجحت فى مقاومة جده ، تحت سيطرته الكاملة . واتخذ موقفا غامضا حيال مسألة إدماج الدويلات البابوية ، وفى عشرينيات القرن الثالث عشر وجد أعضاء البلاط البابوى أنفسهم فى مواجهة احتمال بلويان البابوية فى إيطاليا التى يحكمها آل الهوهنشتاوفن مرة أخرى .

لقد كان فردريك يزعم أن هدفه من غزو شمال إيطاليا لم يكون خطراً على استقلال البابوية، وربما كان صادقا فى هذا القول . ولكن البلاط البابوى لم يكن ينوى أن يختبر هذا على الصعيد الواقعى ، لأن فردريك كان رجلا غريبا ؛ فهو « عجيبة الدنيا » الذى يخرج على النظام الأخلاقى فى زمانه . فقد تربى يتيما فى صقلية على أيدى عدد من الأمراء ،

ولقى معاملة سيئة فى شبابه . إذ كان إنوسنت الثالث هو الوصى عليه رسميا ، ولكن البابا لم يبذل جهداً كبيراً لحماية مصالح القاصر الذى يتولى الوصاية عليه . وحين كبر فردريك صار رجلا وسيما ذكيا موهوبا للغاية : فقد كان جنديا قديراً ، وراعيا للفنون والعلوم . كما ألف مقالة ممتازة فى فن الصيد بالصقور . ولكنه كان مصابا بجنون العظمة يعتبر نفسه فوق المستويات الأخلاقية المسيحية اللاتينية . ومن المناسب أن نشير إلى تأليه النازيين لفردريك فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ، بل إن أشهر وأفضل سيرة حديثة له هى تلك التى نشرت فى ألمانيا سنة ١٩٢٧ وعلى غلافها الصليب المعقوف . لقد كان فردريك الثانى نمطًا من الفاشيين الثقافيين ، إذ كان رجلا ذا حس متأنق ، ولكنه مع هذا كان بلطجيا شرسا وكان بلاطه وجهازه الإدارى يغلب عليه طابع الاستبداد الشرقى . فقد تأثر كثيراً بالبيزنطيين والعرب الذين كانت أعداد كبيرة منهم تعيش فى مملكته ، وقد راق له التزلف والخضوع الذى كان الحكام فى البلاد الإسلامية يتمتعون به . ولم يكتف فردريك بتصوير نفسه كتجسيد متجدد للأباطرة الرومان ؛ بل إنه صور نفسه أيضا كزعيم ذى خصال مسيحانية . وكان هو ودعاته فى البلاط لايتورعون عن انتهاك الحرمات برسم جوانب التشابه بين حياة فردريك وحياة المسيح .

وإذ كانت هذه هى مواقف فردريك وشخصيته ، وموارده ، فقد اعتبرته البابوية عدوها اللدود ، وبعد عشرين سنة من التباطؤ دخلت البابوية دوامة العنف ضده فى أربعينيات القرن الثالث عشر . وكانت المناوشات الأولية بين فردريك والبابوية قد اندلعت حول مسألة تافهة ولم تكن تخلو من روح الفكاهة . إذ كان فردريك قد أخذ شارة الصليب ليضمن تأييد إنوسنت الثالث ، ولكنه كان عازفا عن الوفاء بقسمه الصليبى لأنه كان يتوق إلى شن حملته على شمال إيطاليا . وأخيراً ، فى سنة ١٢٢٨ ذهب فعلا إلى الأرض المقدسة وهو مايزال تحت وطأة الحرمان البابوى بسبب عدم وفائه بالقسم الصليبى من قبل . ولم يفعل شيئًا سوى التظاهر بقتال المسلمين[٤] ثم هرول عائداً إلى جنوب إيطاليا حيث قام جيش بابوى بغزو أراضيه ، على

---

٤ - تولى فردريك الثانى هوهنشتاوفن العرش الإمبراطورى سنة ١٢١٥ وفى عنقه قسم بالذهاب فى حملة صليبية ، واستطاع فردريك أن يؤجل الوفاء بنذره مرة بعد أخرى بسبب مشاغله الداخلية ، ثم تغير الموقف تماما سنة ١٢٢٥ بعد زواجه من يولاندا ابنة الملك حنا برين ، والوريثة الشرعية لمملكة عكا . وبحق الزواج صار فردريك صاحب مملكة عكا ، فقرر أن يذهب إلى الشرق للوفاء بنذره القديم المؤجل ، وللإطلاع =

الرغم من أن نجاح الغزو كان محدودا . وتم عقد معاهدة بين الإمبراطور والبابا ولكنها إنهارت حين أحرز فردريك نصراً ساحقا على جيوش العصبة اللمباردية سنة ١٢٣٩ ، وباتت سيطرته على شبه الجزيرة الإيطالية احتمالا قريبا . ذلك أن المدن الإيطالية لم تعد متحدة فى وجه السيادة الإمبراطورية كما كانت زمن فردريك بربروسا . ففى كثير من المدن كانت توجد عائلات أوليجاركية من الجبللينيين ، وهو الاسم الذى كان يطلق على أتباع الحزب الإمبراطورى فى المدن الإيطالية . وحين وجد البابا جريجورى التاسع نفسه فى مواجهة هذا الخطر ، استغل كل الموارد المتاحة للبابوية . فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور وأدانه بالهرطقة ، ودعا إلى مجمع كنسى فى روما ليكون لهذه الإجراءات وقع أكثر فعالية . ولم يكن الإمبراطور الذى يعتبر نفسه فوق الخير والشر ليهتم كثيرا بالسلطات الدينية . فأمر قائد أسطوله بإغراق أو أسر عدد كبير من السفن التى كانت تقل رجال الكنيسة من كافة أنحاء أوربا فى طريقهم إلى روما . هذا التصرف الوحشى أقنع البابوية بأن الإجراءات المتطرفة فقط هى التى يمكن أن تنجح ضد فردريك . وفى سنة ١٢٤٥ عقد إنوسنت الرابع مجمعا فى ليون ، أى فى أرض آمنة بالقرب من حدود مملكة لويس التاسع ، ودعا إلى حملة صليبية ، ولكنها لم تكن « حملة صليبية سياسية » تماما ، كما يطلق عليها فى بعض الأحيان . ذلك أن فردريك

= على شئون مملكته الجديدة فى الوقت نفسه . وفى الوقت الذى كانت البابوية تحث فردريك على الوفاء بقسمه الصليبى ، كان السلطان الكامل الأيوبى قد بدأ فى المراسلة الودية بينه وبين الإمبراطور على يد سفيره فخر الدين يوسف بن حمويه . وفى سنة ١٢٢٧ أبحر الإمبراطور بأسطول صغير من ثغر برنديزى بإيطاليا ولكنه مالبث أن عاد إلى إيطاليا مريضا ، وكان رد الفعل البابوى عنيفا حين وقع البابا قرار الحرمان على الإمبراطور.

وفى سنة ١٢٢٨ توفيت يولاندا بعد أن خلفت لفردريك ولداً هو كونراد ، وبدأ فردريك يطالب بمملكة عكاء بحق زوجته المتوفاة ، فضلا عن حق الوصاية على ابنه منها وكان الملك العجوز حنا برين مايزال حيا . وفى تلك الأثناء كانت المراسلات بين الكامل وفردريك قد وصلت إلى مرحلة الاتفاق . فقرر الإمبراطور أن يذهب إلى الشرق لتوقيع الهدنة وتنفيذ شروطها - وغادر إيطاليا فى اسطول صغير وستمائة فارس . ومن المثير للسخرية أن البابوية أصدرت قراراً ثانيا بقطع الإمبراطور من رحمة الكنيسة لأنه قرر الوفاء بقسمه الصليبى دون إذن منها ، بل أنها دعت إلى حملة صليبية ضده وهو غائب فى فلسطين . وفى الشرق تمكن الطرفان من عقد معاهدة سلام على أساس الشروط التى كان السلطان قد عرضها على زعماء الحملة الخامسة ، وأهمها أن يتسلم فردريك مدينتى القدس وبيت لحم ، وأن تكون مدة المعاهدة عشر سنوات وهكذا عاد الإمبراطور بمكاسب ضخمة لم تستطع أية حملة أخرى تحقيقها دون أن يريق الدماء الإسلامية أو المسيحية .

(المترجم) .

كان قد اغتال رجال الكنيسة وصدم المشاعر الأخلاقية فى العالم المسيحى ، وكانت معتقداته الشخصية تقترب كثيراً من الهرطقة ، إن لم تكن تخرج عن نطاق العقيدة المسيحية تماما فى الواقع . لقد كانت دعوة إنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك إجراء متطرفا ، ولكن لم تكن هناك أية بدائل فى ظل الظروف السائدة ، كما كان من الممكن تبريرها على أساس دينى .

وعلى أية حال ، كان إعلان الحملة الصليبية ضد فردريك شيئا ، والعثور على حاكم كبير فى أوربا يقبل المخاطرة ضد الإمبراطور الذى يتحكم فى معظم موارد إيطاليا شيئًا آخر . وفى السنوات الخمس الأخيرة من حياة فردريك كانت الحملة الصليبية ضده عملا يتسم بالعشوائية إلى حد كبير ، وكانت فى أغلبها مجرد حرب دعائية . وحين اختفى رجل القرن الثالث عشر الخارق من على المسرح أخيراً فى سنة ١٢٥٠ ، عقدت البابوية العزم على مواصلة الحرب لتجعل منها حربا ضد أسرة الهوهنشتاوفن بأسرها حتى لايظهر وحش آخر مثل فردريك ليهدد نائب المسيح . وعلى أية حال ، فإن كونراد الرابع (١٢٥٠ - ١٢٥٤) الإبن الشرعى الوحيد، قد أبدى مقاومة عنيفة للغاية . ولكن موته ، دون أن يخلف لوراثته أحداً سوى طفل صغير أنهى خط الهوهنشتاوفن على العرش الإمبراطورى . وكانت هناك فترة من المشاجرات التافهة بين الأمراء الألمان وغيرهم من الحكام الأوربيين الذين رشحوا أنفسهم للعرش بانتخاب رودلف هابسبرج ملكا . وكان أميراً صغيراً متواضعا . وقد فرض الواقع على ألمانيا أن تكون عبارة عن مجموعة مختلفة من الدويلات المستقلة على مدى القرنين التاليين .

أما فى صقلية ، فقد استمر خط الهوهنشتاوفن فى مانفرد Manferd (١٢٥٤ - ١٢٦٦) ، الابن الشرعى لفردريك ، والذى صار زعيما قادراً مثل أبيه ، وأخيراً قدمت البابوية اليائسة تاج صقلية إلى أخى لويس التاسع ، شارل دوق أنجو Charles of Anjou الذى وصل إلى إيطاليا مع جيش قوى فى حملة خاطفة وقتل مانفرد ، آخر حاكم من الهوهنشتاوفن فى صقلية . وبعد ذلك بعامين ، أى فى سنة ١٢٦٧ ، ظهر كونرادين Con-radin ، الإبن الأصغر لكونراد بجيش صغير فى جنوب إيطاليا ، وقضى عليه الحاكم الفرنسى بسهولة . وتم أسر كونرادين الذى أعدم علنا فى نابولى بإذن من البابا .

وتبدو أهمية النضال البابوى ضد فردريك الثانى وآخر ملوك الهوهنشتاوفن واضحة فى عدة جوانب . ففى المحل الأول انتهى هذا النضال بنصر درامى كامل كشف عن قوة البابوية

وقدرتها على تدمير الملكية التى انتهكت القانون الأخلاقى وازدرت بالكنيسة . ومن هذه الناحية أكدت التوماسية السياسية عندما أوضحت أنه حتى أقوى الأسر المالكة التى تحدت نائب المسيح كان لابد لها من السقوط فى قرار الهزيمة أمام السيوف الروحية والمادية المترابطة، والتى تمسك البابوية بها جميعا . ولكن البعض استطاعوا أن يخرجوا بدلالات أخرى من سلسلة الأحداث ؛ فعلى مدى خمس وعشرين سنة استطاع أحد الملوك أن يصمد لكل أنواع الأسلحة التى كانت بحوزة البابوية . فهل كان الكيان الضاغط للبابوية ، والذى أقامه إنوسنت الثالث وخلفاؤه ، هو الذى سهل سبيل الهجوم على الملكية والنيل منها ؟ وكانت النتيجة الثالثة للصراع البابوى الإمبراطورى فى القرن الثالث عشر هى حقن الحياة آنذاك بموقف جديد من العنف القاسى الذى بدأ يُسمم الجو الأخلاقى فى أوربا . فقد استخدم الإمبراطور ، ثم البابا ، أكثر الوسائل تطرفا وبعدا عن الأخلاق ، وهى وسائل كان من الصعب تبريرها حتى من جانب أخلص شركاء كل منهما . فقد اغتال الإمبراطور الأساقفة ، كما أن البابا اقتنص ابناء فردريك بدلا منه ومارس انتقاما دمويا ضد الشاب الذى كان آخر من بقى من سلالة الهوهنشتاوفن . وكما هى الحال دائمًا فى الحروب الطويلة اليائسة ، يستخدم المدافع، فى نضاله المحموم من أجل البقاء نفس الوسائل القاسية التى يستخدمها المهاجم .

كان تعيين البابوية لشارل أنجو حاكما لجنوب إيطاليا وصقلية بمثابة الهبة الثانية من البلاط البابوى لحليفه الملك الفرنسى فى القرن الثالث عشر . فقد كانت الهبة الأولي هى كل الجنوب الفرنسى تقريبًا ، نتيجة للحملة الألبيجنسية التى شنها إنوسنت الثالث . وكان الحدث الأخير هو أهم نقطة تحول فى تاريخ الملكية الكابية . ذلك أن فيليب أوغسطس قد جعل من نفسه حاكما لشمال فرنسا بجهوده الخاصة ولكن مهمة غزو أغنى مناطق فرنسا وأكثرها سكانا كان يمكن أن تكون مهمة جسيمة ، وربما مستحيلة ، دون الحملة الصليبية البابوية ضد الألبيجنسيين . ولم يكن فيليب قد شارك فى الحملة الألبيجنسية ، ولكن عندما قتل سيمون المونتفورتى سنة ١٢١٨ ، الذى كان زعيم بارونات الشمال الذين يستولون على أراضى الجنوب لحسابهم الخاص ، بات ضعف الحركة الصليبية واضحا بحيث برزت الحاجة إلى الزعامة الملكية . أما نبلاء الجنوب ، الذين كانوا يحاربون لأسباب شخصية ووطنية أكثر منها دينية ، فقد قاموا بآخر تحرك هام لهم . وأدى هذا إلى دخول جيش الأمير لويس ، وريث العرش الفرنسى ، فى الحرب حيث ارتكب مذبحة بشعة فى إحدى المدن الجنوبية . وخلال حكمه

القصير ، تحت اسم لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) بدأ هذا المحارب المتوحش فى عملية ضم المقاطعات الجنوبية للتاج الفرنسى ، ووصل قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان مع المندوبين المحليين الفرنسيين ، وفى غضون ربع القرن التالى دمروا ماكان قد بقى من الروح الاستقلالية لثقافة الجنوب الفنسى التى كانت عظيمة يومًا ما . وفى سنة ١٢٤٩ ، صار أحد أخوة ملك فرنسا كونت تولوز ، وبذلك حققت الملكية الكابية هدفها بالامتداد صوب البحر المتوسط ، على الرغم من أنها لم تكن قوية حتى فى المنطقة المتاخمة لباريس قبل قرن من هذا الزمان .

وسنحت الفرصة الأخيرة للإقطاعيين الفرنسيين لإيقاف تقدم السلطة الكابية فى القرن الثالث عشر فى السنوات الأولى من حكم لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ، عندما كان الملك مايزال قاصراً ، وكانت الحكومة تحت وصاية أمه بلانش Blanche of Castile ، التى كانت أول أميرة من تلك السلالة من الأميرات الأسبانيات التى أثرت على الحياة السياسية فى أوربا على مدى القرون الخمسة التالية . فقد انضم الشاب هنرى الثالث ملك انجلترا إلى الدوقات والكونتات المتمردين فى شمال فرنسا فى محاولة واهية لتقويض ماتم فى نصف القرن السابق ولكنهم لم يكونوا أنداداً لبلانش وابنها . وزاد من ألم هنرى أنه فقد المزيد من أملاكه الفرنسية ، وباستثناء دوق بريتانى المتوحش ، أظهر الأمراء الفرنسيون ، بما فيهم كونت شمبانى زعيم حركة التمرد عجزهم عن التصدى للسلطة الملكية ، حتى عندما يكون آل كابيه فى وضع سيئ .

كانت الصفة القديسية فى لويس التاسع هى ماتحتاجه الحكومة الملكية خلال نصف القرن التالى لكى تطور مؤسساتها وتعزز سيطرتها على الجيوب الباقية من السلطة الإقطاعية فى كل من الشمال والجنوب . فمع منتصف القرن الثالث عشر كانت محكمة الملك Curia regis الفرنسية قد بدأت تفرق بين الفروع المالية والقانونية المختلفة . ومن الفرع القانونى تطور برلمان باريس ؛ الذى كان يتألف من قضاة وقانونيين محترفين مما شجع المتقاضين من شتى أرجاء المملكية على اللجوء إليه ، وبذلك مد من نطاق السلطة القضائية الملكية وقلل من شأن محاكم البارونات . كذلك أكد البرلمان سيطرته على المحاكم الكنسية . كذلك عمل البيروقراطيون الملكيون بجد لتقليل استقلال المدن الفرنسية ، التى كانت أعدادها وثرواتها قد زادت كثيراً نتيجة لغزو الجنوب . وكان السخط الذى عم الكثير من المدن ضد الحكومات الأوليجاركية الفاسدة التى كانت تتحكم فى كومونات المدن هو الذريعة الى تذرعت بها

الملكيـة للتدخل فى شئون المدن وإخضاعـها للسلطة المركزية . واستمرت الخصائص المميزة للبيروقراطية الفرنسية ، والتى كانت قد ظهرت فعلا فى عهد فيليب أوغسطس ، على حين زادت مسئولياتها وكبر حجمها . وكانت عبارة عن مجموعة قائمة بذاتها من رجال القانون الذين كان مبدؤهم المرشد الوحيد هو تنمية السلطة الملكية التى ربطوا أنفسهم بها ومدوا نطاقها بكل ذريعة قانونية كان يمكن لعلمهم وعبقريتهم أن تهتدى إليها . هذا الموقف القابض ربما كان هو السبيل الوحيد لبناء الدولة الفرنسية . ذلك أن المقاطعات الكثيرة التى ضمت إلى فرنسا كانت تحتوى على خليط من التقاليد الإقليمية ، والسلطات الإقطاعية المتضاربة ، والقوانين والعادات المحلية ، والامتيازات الأسقفية والبورجوزاية ، لدرجة أرهقت الملك فى محاولة بناء الهوية السياسية الخارجية الواحدة لهذا الكيان . وكان وجود ملك قديس على عرش البلاد واجهة أخلاقية مثالية أتاحت للبيروقراطية الملكية أن تستخدم مافى جعبتها من حيل وسلطان لخلق أقوى سلطة استبدادية فى أوربا . فالبارون ، والأسقف ، والبورجوازى الذين جربوا تجريدهم من امتيازاتهم السابقة باستمرار ، كانت تريحهم دائما حقيقة وجود سان لويس تحت شجرة بلوط لكى يحكم بالعدل . فهل كان الملك دائما هو الذى أمر بما فعله وزراؤه، أو هل كان يدرك مايفعلونه ؟ يبدو أنه لم يكن مجرد رئيس رمزى . إذ أنه كان يرسل « المحققين » ، الذين برز الفرنسسكان بين صفوفهم للكشف عما كان المندوبون الملكيون فى الأقاليم Baillis ومساعدوهم يفعلونه باسمه ، ولكى يسجلوا شكاوى الناس المحكومين . هذه التحقيقات كشفت ، تقريبا ، كل صنوف الاحتيال الذكى والقسوة الفظة التى عرفت عن البراعة الإنسانية. ويبدو أن سان لويس كان متعاطفا مع رعاياه ، ولكن أساليب الموظفين الملكيين هى التى لم تتغير .

وإذا كان امتداد السلطة الملكية الكابية على المملكة بأسرها يرجع إلى حد كبير إلى ماقام به الموظفون القانونيون الأفظاظ ، الذين يبدو أن سان لويس لم يكن يمارس عليهم رقابة شديدة، فإن توجيهه الشخصى للسياسة الملكية تجاه الكنيسة واضح تماما . فقد كانت تلك سياسة لم تجعل من الملكية الفرنسية خادما مطيعًا للبابوية ، على الرغم من أن هذه السياسة ربطت الحكومة الفرنسية مع البلاط البابوى بعلاقة تحالف قوية . ذلك أن هنرى الثالث ملك انجلترا ، وقريب لويس التاسع ، كان أكثر خضوعا فى علاقته مع البابا . فلم يحدث أبدا أن ضحى سان لويس بمصالح الملكية الفرنسية فى سياسته تجاه الكنيسة . وقد أكد على حق الملكية الفرنسية فى السيطرة على رجال الكنيسة الفرنسيين . ورفض مساعدة الأساقفة فى مصادرة أملاك البارونات الذين وقع عليهم قرار الحرمان كما تحدث بحدة إلى عدد من أبرز

رجال الكنيسة لأنه اعتبرهم مقصرين فى القيام بواجبات مناصبهم . كذلك فإنه طلب من البابوية والكنيسة الفرنسية مطالب مالية باهظة لتمويل حملته الصليبية ضد مصر . ولم يستجب لدعوة إنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك الثانى . لقد اتضح تماما مفهوم سان لويس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة حين أزعجه استغلال المثال الصليبى للهجوم على ملك شرعى . بل إنه احتج على الضرائب البابوية على الأكليروس الفرنسى لتمويل هذه الحملة الصليبية . ولم يسمح لأخيه بغزو جنوب إيطاليا سوى بعد إملاء شروطه الخاصة حول هذه المغامرة . ذلك أن البابا جعل لشارل كافة الحقوق على ماكان يشكل مملكة فردريك ، وكان هذا البابا فرنسيا مثل سلفة الذى سبقه على العرش البابوى ، وبنهاية عهد لويس التاسع كان هناك حزب فرنسى قوى بين الكرادلة ، وكان لابد أن يتطلعوا صوب باريس طلبا لمن يتزعمهم.

كانت السيطرة الأنجوية على جنوب إيطاليا هى فصل الختام فى صعود السلطة الفرنسية فى أوربا ، وهو الصعود الذى بدأ بغزو فيليب أوغسطس لنورماندى ١٢٠٤ . وقد حدث تغير فى ميزان القوى فى أوربا سنة ١٢٧٠ . فقد كانت الملكية الألمانية قد فقدت أهميتها تماما فى صياغة السياسة الأوربية . وحلت محلها الملكية الفرنسية الكابية ، حليف البابوية القديم . أما البابوية ، التى حارب دهراً لكى تبقى الإمبراطور الألمانى خارج إيطاليا فكانت تواقة إلى تتويج أخى أقوى ملك أوربى على المملكة الإيطالية بدلا من الهوهنشتاوفن البغيضين . وبفضل موارد أغنى دولة فى أوربا . وبولاء الأكليروس الفرنسى ، وبوجود معقل فرنسى قوى فى صقلية ، وحزب فرنسى فى هيئة الكرادلة نفسها ، توفرت للملك الفرنسى الكابى القوة اللازمة للسيطرة على البابوية أكثر من أى ملك آخر منذ منتصف القرن الحادى عشر . ولكن فى سنة ١٢٧٠ لم تكن البابوية لتهتم باحتمال تعرضها للهجوم . وإنما على العكس ، تولت قيادة عملية التهليل للملك الفرنسى الذى ظهر وكأنه ملك مسيحى كامل . ولم يكن ثمة سبب يدعوها للخوف من حاكم أكد الثقة التوماسية فى الخاصية الأخلاقية للدولة .

٣ - اهتمامات المجتمع :

بينما كان الزعماء الفكريون والكنسيون والسياسيون لأوربا القرن الثالث عشر يسعون لمواجهة التحدى المطروح بسبب الروح الإبداعية فى القرن الثانى عشر ، كان السيد الإقطاعى والبورجوازى والفلاح يسعون إلى أن يلائموا بين مصالحهم وأهدافهم الخاصة وبين التغيرات الاجتماعية بقدر الإمكان . وحتى زمن قريب جداً كان من السهل على المؤرخين أن يصفوا نموذج النظام الاجتماعى والاقتصادى فى القرن الثالث عشر . فقد كتبوا عن حياة النبلاء ،

وعن مدينة العصور الوسطى ، وعن الضيعة . وكان هنرى بيرين هو النموذج الأمثل والأفضل لمؤرخ العصور الوسطى الاجتماعى من النمط القديم . وكان هذا المدخل يقوم على قدر كبير من الاستنباط التخيلى للأنماط الاجتماعية المثالية . وإبان السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية تحول اتجاه تاريخ العصور الوسطى الاجتماعى صوب الدراسات الإقليمية والمحلية المكثفة بعيداً عن التعميمات العريضة . وكان الفضل فى هذا يرجع أساسا إلى العلماء الفرنسيين الذين ألهمهم مارك بلوك . وكما هو الحال فى التطور العام لعلم الاجتماع فى العشرين ، تحولت الحركة عن التأملات الجسور للأنماط الاجتماعية المثالية إلى الجمع المكثف للمعلومات . ومن وجهة نظر أفقية عريضة للبناء الكلى لمجتمع العصور الوسطى ، صوب نظرة رأسية ، واقعية فى تفاصيل الحياة الاقتصادية والسياسية فى إقليم بعينه ، أو بلد محدد ، أو مدينة معينة . وتمثلت النتيجة الرئيسية لمثل هذا النوع من البحث المكثف المحدد فى طرح التساؤلات حول النماذج القديمة الموسعة ، وإعطاء الإنطباع بمدى جسامة التنوع والاختلاف فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى . لقد طرحت التعميمات القديمة للتساؤل ، وبدأت تعميمات جديدة تظهر فى بطء وعلى استحياء . ومع ذلك ، فإنه ليس مؤكداً بعد إلى أى مدى كان هذا الاختلاف الواضح مجرد نتيجة للمنهجية التطبيقية (الإمبريقية) الشائعة حاليا - وعما إذا كان الهجوم على صلاحية النموذج الذى صاغه المؤرخون القدامى للاقتصاد والمجتمع فى العصور الوسطى نتيجة ميل إلى التعميم وهوى إلى التشتت بالاختلافات الصغرى والتغاضى عن أوجه الشبه الهامة . وعلى أية حال ، فإن الدراسات الحديثة عن المجتمع في القرن الثالث عشر كان لها أثرها على الأقل من حيث التحذير من مغبة الخلق السهل للنماذج العامة ، ومن حيث تأكيد وجود فروق إقليمية قوية فى حياة كل من السيد الإقطاعى ، والبورجوازى ، والفلاح .

كانت جميع الطوائف والطبقات فى شتى أنحاء أوربا القرن الثالث عشر تجد أن حياتها محكومة بأربعة عوامل عامة . كان العامل الأول منها هو الزيادة الكبيرة فى السيطرة الاجتماعية بسبب نمو الحكومة والمؤسسات القانونية . وثانيا أن المجتمع كان فى سبيله للتحول من مجتمع يقوم على أساس المكانة الاجتماعية إلى مجتمع يقوم على أساس المال . إذ كان ميلاد الإنسان مايزال عاملا هاما فى تحديد مسار حياته ؛ فقد كان من الصعب تماما فى كثير من مناطق أوربا على أكثر البورجوازيين ثراء أن يتمتعوا ببعض الإمتيازات التى كانت أمراً

مسلمًا به لابن السيد الإقطاعى . ولكن المكانة الاجتماعية ، من ناحية أخرى ، لم تكن كافية لضمان حياة سعيدة آمنة . فلم يعد يهم مايمكن أن يكون عليه أصل المرء من عراقة ، ولكن القدرة المالية كانت هى المعول عليها فى الأوقات الصعبة . وكانت السنوات السبعون أو الثمانون الأولى من القرن الثالث عشر هى المرحلة النهائية لفترة من الإزدهار ، والنمو السكانى والغلاء الذى ميز الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر . هذا الوضع الاقتصادى العام كان له تأثير عميق على كافة الطوائف فى المجتمع . ورابعا ، وأخيراً ، كان القرن الثالث عشر هو عصر السلام الطويل المدى ، وهو أمر لم يتحقق ثانيا على مدى عدة قرون تالية حتى الفترة مابين سنة ١٨١٥ وسنة ١٩١٤ . فمنذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤ م حتى بداية الصراع المدمر بين إنجلترا وفرنسا فى تسعينيات القرن الثالث عشر لم تنشب أية حرب كبرى فى أوربا ، وقد كان لحالة السلام هذه نتائجها الهامة والمختلفة على طبقات المجتمع .

ولم يكن النبلاء وملاك الأراضى المنحدرون من نسل السادة الإقطاعيين فى القرن العاشر يتمتعون بنفس الأهمية التى كانت لهم قبل سنة ١١٠٠ ، سواء فى مجال الحكم أو فى المجال الاقتصادى . بيد أنهم كانوا مايزالون هم الطبقة السائدة فى المجتمع ، وهو وضع احتفظوا به لأنفسهم حتى القرن التاسع عشر . فقد كان ثمة تغير مطرد فى حياة النبلاء وتنظيمهم على المستوى الأفقى والمستوى الرأسى على حد سواء . ومن الممكن أن نبرز نماذج إقليمية محدودة. ففى إيطاليا وجنوب فرنسا كان النبلاء يعيشون حياة حضرية راقية . أما السادة الألمان فكانوا أقرب إلى الطبقة المحاربة فى العصور الوسطى الباكرة : إذ أن تفكك ألمانيا إلى إمارات صغيرة مرتبكة أتاح للنبلاء الألمان فرصا عديدة للتصرف المستقل والدخول فى الحروب المحلية. ولم تكن للحياة الحضرية أى تأثير يذكر على ملاك الأراضى فى شمال فرنسا وإنجلترا . فقد نأوا بأنفسهم تماماً عن الطبقة البورجوازية التى كانوا يعتبرون أبناءها فى مكانة اجتماعية أدنى . وكان هناك استقطاب متزايد بين النبلاء من كبار الارستقراطيين من جهة ، وأولئك الذين يقلون عنهم ثراء من جهة أخرى . فقد صار كبار الارستقراطيين طائفة مغلقة من ذوى الدماء الراقية والأخلاق والمراسم الخاصة ، على حين أخذ صغار النبلاء يتحولون إلى سادة محليين ، يتسمون فى كثير من الأحيان بنفس الغلظة والجهل اللذين يتميز بهما الفلاحون الذين عاش صغار النبلاء بينهم .

كان السيد الإقطاعى فى القرن الثالث عشر ، ولاسيما فى إنجلترا وفرنسا ، محدداً بنظم حكومية وقانونية وضريبية قوية . وكان شخصا يختلف تماما عن أولئك البلطجية الذين عاشوا فى القرن العاشر ، بل وعن كثيرين ممن اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، ينطبق بصفة خاصة على الشريحة العليا من النبلاء . إذ كانوا ، عموما ، ذوى حظ من التعليم قليل - بحيث يكفيهم لأن يكتبوا الخطابات باللهجات المحلية ، ويقرأوا روايات الفروسية الخيالية ، أو المقالات الصغيرة عن حياة أحد السادة أو أحد نظار الضياع . وكان معظم إنتاج هذا الأدب مكتوبا باللغة الفرنسية ، التى كانت قد صارت هى اللغة الدولية للطبقة الارستقراطية وظلت كذلك حتى القرن العشرين . وقد عرف القرن الثالث عشر ثلاثة ، على الأقل ، من النبلاء الفرنسيين كانوا أصحاب ثقافة عالية وعقليات راقية . فقد كتب وليم اللوريسى William of Lorris النصف الأول من « رواية الزهرة » ، وهى عبارة عن نوع من الموسوعات فى القصة الرمزية كانت محبوبة جداً فى أوساط القراء الأرستقراطيين ، ولايزال البعض يعتبرونها عملا أدبيا عظيما . وثمة نبيل فرنسى آخر هو فيلهاردوين Vil-lehardouin الذى كتب تقريرا أمينا وافيا عن الحملة الصليبية الرابعة التعسة ، لأنه كان أحد المشاركين فيها . وكتاب « سيرة القديس لويس » الذى كتبه جوانفيل يعتبر مذكرات شخصية كتبها أحد المقربين إلى الملك الفرنسى . وهى من بعض الجوانب تعتبر سيرة مثالية مثل السير الملكية السابقة التى كتبها مؤلفون كنسيون فى العصور الوسطى الباكرة . إلا أنها تقدم لنا الكثير من التفاصيل عن الظروف المحيطة بحياة لويس ، وماتزال هى السيرة الوحيدة التى تستحق القراءة من بين السير التى كتبت عن هذا الملك . وثمة سيد إقطاعى صغير عاش فى إنجلترا فى منتصف القرن الثالث عشر ، هو سير والتر هينلى Sir Walter Henley كتب لابنه مقالة عن إدارة الضياع . وهى منظمة جيداً وحافلة بالمعلومات العامة عن المحاصيل . وتربية الأغنام ، وإدارة الضياع الإقطاعية . وفى القرن الثالث عشر كان السادة الإقطاعيون يتلقون تعليمهم فى المنازل فى أغلب الأحوال . ولكن بعض النبلاء الحضريين فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا كانوا يتلقون تعليما جامعيا ويتشغلون بالقانون المدنى . ومنذ نهاية القرن الثالث عشر كان من الشائع فى إنجلترا أن ترسل الأسر النبيلة أبناءها إلى مدارس القانون العام فى لندن ، والتى عرفت باسم الهيئات القانونية Inns of Court لكى يتلقوا تعليما أوليا فى القانون ، يسمح لهم فيما بعد أن يكونوا فى موقف جيد فى قضاياهم التى لم تكن

تتوقف تقريبا حول حقوق الملكية . وكان الكثير من أبناء النبلاء الصغار ، بطبيعة الحال ، يعدون للعمل في الكنيسة ويرسلون إلى الجامعات ؛ حيث صار عدد قليل منهم علماء وأساتذة.

كانت الحرب هي السبب الجوهري raison d'être لوجود النبلاء أصلا ، ولكن خلال فترة السلم الطويلة في القرن الثالث عشر لم تكن هناك فرص كثيرة لإظهار المهارة العسكرية - كذلك بدأت ثورة بطيئة تأخذ مجراها في الحياة العسكرية . فالفارس ، المحارب المسلح على صهوة جواد ، صار أكثر تكلفة بسبب التسليح الثقيل المعدني الذي بات يشكل نسبة متزايدة من تجهيزاته . ومن ثم فإن الفارس الذي كان يمكنه تجهيز نفسه كان عليه طلب كثير . وعندما كان أحد الملوك يضطر إلى أن يجهز جيشا كاملا ، كان ذلك يستنزف موارده ويجهدها تماما . ونتيجة لذلك ، اضمحل تقليد جمع الأفصال على حين تزايد الإعتماد على المرتزقة المأجورين. وفي مطلع القرن الثالث عشر كان الفارس ذو التسليح الثقيل هو اللحمة والسداة في الشئون الحربية . وعند غروب شمس هذا القرن ، وعندما كان الفارس مازال هو العمود الفقري للجيش، قلت قيمته الإستراتيجية بسبب الإعتماد المتزايد على المشاة . وكان لظهور أسلحة جديدة أثره في تضاؤل قيمة الفارس تدريجيا على مدى القرنين التاليين . فقد أظهر المرتزقة الفلمنكيون والسويديون في العقود الأخيرة من هذا القرن أن الفلاحين المنظمين جيداً والمسلحين بالحراب الطويلة يمكنهم صد أي هجوم يقوم به جيش إقطاعي . وفي القرن الثالث عشر إتضح أيضا أن الدرع يمكن أن يخترقه نصل معدني يطلق من أي قوس منجنيقي . ولهذا أضاف القادة العسكريون في جميع أنحاء أوربا فيالق رماة الأقواس المنجنيقية إلى جيوشهم . وكانت نقطة الضعف الرئيسية في القوس المنجنيقي أنه يجب ملؤه في نفس اللحظة التي يكون الرامي « قد أطلق مافي جعبته » ، وعادة ماكان يتواجد خارج نطاق المعركة ؛ وكان تأثير سلاحه المرعب الجديد ، الذي يعتبر سلفا للبندقية من بعض الوجوه ، محدوداً كذلك بمداه القصير وعدم دقته . وفي منتصف القرن الثالث عشر ، توصلت الجيوش الإنجليزية المحاربة في ويلز إلى القوس الطويل ، وهو سلاح سريع الإطلاق طويل المدى استخدمه الإنجليز ضد الفرنسيين في القرن الرابع عشر . وكان النصل المنطلق من السهم الطويل لايخترق الدروع في أغلب الأحوال ، ولكن كان ييسر إمكانية إطلاق السهام بكثرة تثير الفزع والفوضى في صفوف الفرسان المشتبكين في المعركة . ونتيجة لهذه التغيرات في التكنولوجيا العسكرية صارت

الدروع أكثر ثقلا والخيول أكبر حجما ، ولكن هذا لم يحفظ للفارس تلك الأهمية الفائقة التى كانت له من قبل . وبنهاية القرن الثالث عشر كان الفارس يرقد بلا حراك إذا أسقط من فوق فرسه بسبب الثقل الكبير للباسه المدرع .

وعلى الرغم من التضاؤل المستمر فى أهمية الفارس ، فلم يكن يخطر على البال إمكانية شن الحرب دون أن يكون النبلاء هم ضباط الجيش . فقد احتفظ النبلاء بسيطرتهم على الحرب، على الرغم من التغير التكنولوجى ، بسبب التقاليد والقيم الاجتماعية . وفقد صغار الأفصال الإقطاعيين ماكان لهم من أهمية ؛ إذ كان من قبيل المخاطرة أن يذهب المرء إلى الحرب برجال لايلتزمون بأداء الخدمة العسكرية سوى أربعين يوما فقط فى السنة ، وربما يكونون فى حال سيئة من الإستعداد والتجهيز والتدريب . وبمنتصف القرن الثالث عشر كان المرتزقة قد صاروا هم الوحدة الأساسية فى الحياة العسكرية فى أوربا . ولكن الملك كان يرسل أبرز النبلاء لتجنيد فيالق المرتزقة وإعدادها للخدمة فى جيشه . وبسبب فترة السلام الطويل التى سادت فى القرن الثالث عشر لم تكن هذه الخدمة مطلوبة كثيراً من الأرستقراطيين حتى تسعينيات هذا القرن ، مما أدى إلى شعورهم بالمهانة والإحباط . إذ لم يكن الفرد الأرستقراطى يعرف سوى القليل في مجالات كثيرة جداً – مثل شئون الحكم ، والقانون ، والأدب ، والزراعة – ولكنه كان خبيراً بشئون الحرب فقط .

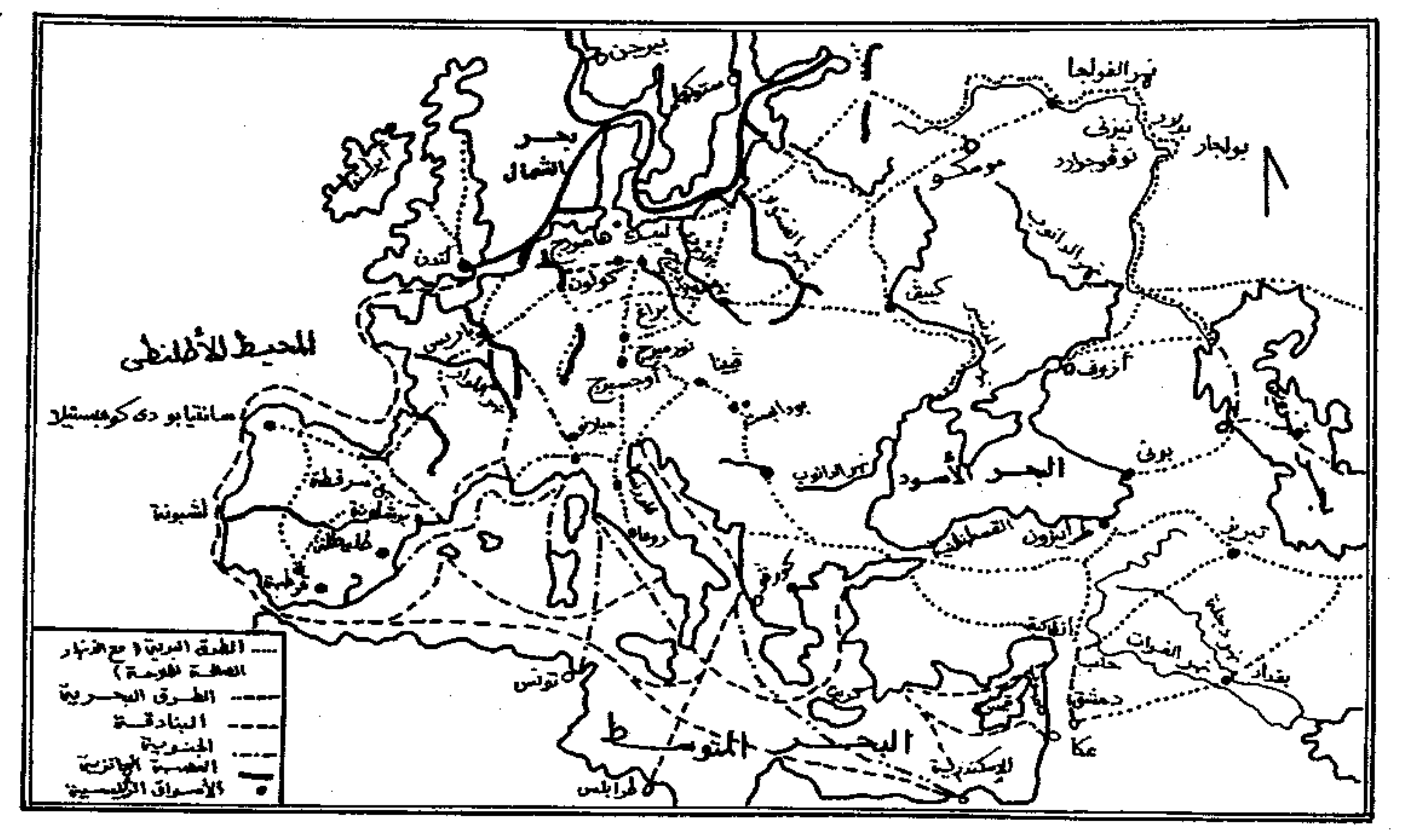
وبسبب عدم استطاعة الكثيرين من كبار نبلاء القرن الثالث عشر إظهار تفوقهم العسكرى على غيرهم من فئات المجتمع ، فإنهم أخذوا يبحثون عن وسائل اجتماعية وإحتفالية يعبرون بها عن مكانتهم . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت الأرستقراطية قد تحولت إل فئة منغلقة على نفسها ، وكانت لها مفاهيم ومراسم لم يكن باستطاعة الإقطاعيين الأجلاف وعامة الفرسان أن يشاركوهم إياها . فقد تطور علم كامل عن الأنساب وفن شعارات النسب ، مما كان تعبيراً عن الإعتقاد بأن النبالة مسألة تتعلق بالدم والوراثة دون غيرها . وصارت طقوس الفروسية أكثر زخرفة وتعقيداً ، كما تم وضع قانون يحكم التعامل بين كبار الإقطاعيين على أسس أكثر شمولا ، وكان الصبى الكريم المحتد يرسل فى سن السابعة أو الثامنة ليكون وصيفا فى بيت أحد كبار الأرستقراطيين حيث يتلقى تعليمه الأولى . وبعد ذلك بسنوات سبع يصبح تابعا ويتلقى تدريبه على السلاح . وأخيراً وعندما يستطيع دفع التكاليف « يرتدى شعار الفروسية » فى إحتفال كبير يقسم فيه يمين الفروسية ثم يمنحه السيد الكبير لقب فارس . هذه الطقوس ومثيلاتها – التى ارتبطت فى أذهان العامة غالبا بالإقطاع – كانت فى حقيقة

أمرها نتاجا لمرحلة التدهور فى النظام الإقطاعي . إذ كانت هى الوسائل التي حاولت الطبقة الحاكمة من خلالها أن تحافظ على مكانتها السابقة ، وأن تستعيض بالإمتياز الطبقى عن فائدتها الاجتماعية .

وقد أدى إرتفاع منحني الزيادة السكانية والتضخم الذى ساد إبان الشطر الأعظم من القرن الثالث عشر إلى جعل هذه الفترة فترة رواج لملاك الأراضى . وعلى أية حال ، فإن ملاك الأراضى كانوا قد وقعوا فى براثن الديون الشخصية ، ولاسيما كبار النبلاء منهم . ذلك أن الإنفاق على البيت الأرستقراطي ومواصلة الحياة بأسلوب الإسراف الذى كان كبار السادة الإقطاعيين قد إعتادوه كان أكبر من مواردهم الشاسعة في كثير من الأحيان . فقد أفسدت الملكية النبلاء . إذ كان لدى الملك مصادر دخل كبيرة ، وكان يستطيع استغلال دخله من الضرائب الخاصة للإنفاق على حياته ، ويعيش حياة الفخامة والأبهة . وتورط النبلاء فى الديون وهم يحاولون تقليد الملك ، كما أن السادة الصغار ، الذين كانوا بدورهم يقلدون كبار الأرستقراطيين ، دمروا أنفسهم وهم يحاولون الحفاظ على أسلوب المعيشة الذى يخرج عن نطاق إمكانياتهم . وثمة سبب آخر لمتاعب النبلاء الاقتصادية تمثل في سوء استغلالهم لمواردهم . فقد تفوق بعضهم فى الزراعة ، ولكن غالبية كبار النبلاء كانوا مشدودين إلى البلاط والمبارزات طوال يومهم بحيث لايهتمون بالطريقة التى كان وكلاؤهم ونظار ضياعهم يديرون بها ممتلكاتهم الشاسعة . وربما كان كثيرون من نبلاء القرن الثالث عشر المرهقين يستغلون أراضيهم التى كانت غير خصبة ، بجهود بائس لحل مشكلاتهم المالية . ولكن هذه المحاولات لم تكن تؤدى سوى إلى تصعيد مشاكلهم الاقتصادية . وبنهاية القرن الثالث عشر كانت الأراضى التى اشتهرت بالخصوبة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا قد أنهكت بحيث لم تعد تصلح للزراعة .

كانت الاهتمامات السياسية لنبلاء القرن الثالث عشر تختلف من بلد إلى آخر إختلافا بينا. ففى إيطاليا كانت الحياة السياسية لكبار الأرستقراطيين مرتبطة بتطور المدن بطبيعة الحال . وحينما حدث فى أواخر القرن الثالث عشر أن اكتشف البورجوازيين أنهم لايستطيعون إدارة حكوماتهم بإقتدار ، رحبوا بدفع ثمن الاستعانة بالنبلاء وقبلوهم حكاما طغاة فى سبيل النزر اليسير من السلام والنظام . وهذا هو أصل « أمراء للنهضة » ذائعى الصيت . وقد أتاح تفكك ألمانيا السياسى الفرص لتقديم كبار النبلاء ، بل وصغارهم أيضا . إذ كان هناك دائما بلاط يمكن لأى نبيل متعلم ، ذكى وجرئ ، أن يجد لنفسه مكانا هاما فيه ، حتى ولو كانت

إمكانياته متواضعة . وظل هذا هو الوضع السياسى والاجتماعى السائد فى ألمانيا حتى القرن التاسع عشر . أما فى فرنسا وإنجلترا ، فإن حياة النبلاء كانت محكومة بمؤسسات الملكية الوطنية . إذ أن نبلاء فرنسا القرن الثالث عشر وجدوا إختصاصاتهم الإقطاعية تتبخر على حين تتحكم فيهم الإدارة الملكية الصارمة فى كل مجال . ولكن الضرائب الملكية لم تكن باهظة ، كما أن التاج أرسى دعائم السلام ، والنظام ، والأمن ؛ وهو ماكان الإقطاعيون يرونه ميزة فى صالحهم ، لاسيما أن الحرب لم تكن فى صالحهم . وبالنسبة للنوع الأكثر عدوانية بين النبلاء الفرنسيين فى القرن الثالث عشر ، كان ثمة متنفس لطاقتهم العدوانية فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين وحملة غزو صقلية . وبسبب إتساع مساحة الريف الفرنسى ، وتنوع التقاليد الريفية ، لم تكن الأرستقراطية الفرنسية أبدا مجموعة متقاربة سياسيا . كانت الحكومة الملكية هى التى تستطيع أن تجسد وحدة المملكة ، أما النبلاء فقد ظلوا يفكرون فى أنفسهم باعتبارهم نورمان ، أو بريتونيين ، أو برجنديين ... أو غير ذلك . ولم يكن هناك مجلس عام للنبلاء الفرنسيين حتى أجتماع الهيئة العامة Estates Generale فى القرن الرابع عشر ، وكان هذا الاجتماع مجرد إجراء دعائى ولم يكن بداية لمؤسسة فعالة . وكانت المجالس الهامة الوحيدة لدى النبلاء الفرنسيين هى المجالس المحلية ، ومجالس المقاطعات ، والمجالس الإقليمية . ولم تكن الملكية الكابية تجمع النبلاء سويا للحصول على موافقتهم على الضرائب؛ وإنما كانت تتعامل معهم بطريقة جزئية تقسيمية ، وهو ماكان إنعكاسا لحقيقة أن النبلاء كانوا يميلون إلى التفكير فى ضوء مشاكلهم الخاصة دون الاهتمام بمشاكل المملكة ككل . أما الموقف فى إنجلترا ، فكان مختلفا تمام الاختلاف ، لأنها كانت بلادا أصغر مساحة من فرنسا من ناحية ، وبسبب التقاليد الأطول عمراً عن وحدة السلطة الملكية وإنسجامها والقانون العام الذى يحكم المملكة بأسرها من ناحية ثانية ، لأن كبار النبلاء غالبا ماكانوا يمتلكون الضياع فى مقاطعتين أو أكثر من ناحية ثالثة . ولم يكن النبلاء الإنجليز يفكرون فى أنفسهم باعتبارهم من كنت ، أو ديفون ، أو يوركشاير ، وإنما باعتبارهم زعماء للمجتمع فى المملكة ككل . ومنذ زمن الغزو النورمانى كانت تتم دعوتهم من كافة أركان المملكة لحضور الاجتماعات الكبرى فى محكمة الملك Curia regis ، وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا التقليد إلى استشارة كبار النبلاء حول الضرائب والتشريعات والحصول على موافقتهم عليها . وكانت الأرستقراطية الإنجليزية تعرف عن أعمال الحكومة الملكية قدراً أكبر بكثير مما يعرفه أقرانهم الفرنسيون ، وكان هذا من بين أسباب محاولتهم توجيه الإدارة الملكية فى عهد هنرى الثالث .



طرق التجارة فى القرن الثالث عشر الميلادى

كانت مشاعر المرارة تضطرم فى صدور البورجوازيين فى إنجلترا وشمال فرنسا من جراء استمرار سيطرة النبلاء على المجتمع ، وإستئثار كبار السادة الأرستقراطيين بالإمتيازات القانونية والسياسية . ويتسم الأدب البورجوازى بصوره الناقدة الساخرة من النبلاء ورجال الكنيسة الذين كانوا ينعمون بالإمتيازات الطبقية التقليدية ، والتى كانت فى نظر البورجوازيين ، شيئا لايستحقونه . فالقصص الرمزية التى تحمل قدراً من التمويه ، مثل القصص الخرافية الشائعة التى تدور حول رينارد الثعلب Reynard the Fox كانت تنفيسا مريرا عن مشاعر البورجوازيين وإحساسهم بأنهم ضحية الإستغلال وكانت نظرتهم للحياة بالضرورة أكثر عقلانية ، وأقل خيالية من تلك النظرة الى كانت سائدة فى آداب الفروسية . هذه العقلانية والسخرية هى التى تميز الجزء الثانى من « روايات الزهرة » التى كتبها جان دى مـــين Jean de Meun ، الذى كان بورجوازيا فرنسيا تعلم فى الجامعة ، عن مثالية أدب البلاط التى يتميز بها الجزء الأول من هذه الروايات . ولم يكن باستطاعة البورجوازيين عموما فى القرن الثالث عشر أن ينظروا إلى الحياة نظرة خيالية ؛ فقد كان عليهم أن يعتمدوا على مواهبهم الخاصة وطاقاتهم حتى يتجنبوا الوقوع فى فخاخ الفقر المزرى . لقد كانت أسوار المدينة فى العصور الوسطى تضم مجتمعا متنافسا للغاية ، على الرغم من الجهود التى كانت نقابات الحرفيين القديمة تبذلها للسيطرة على الحياة الاقتصادية ، وهو مجتمع كان فيه الإحسان إلي الضعيف والعاجز قليلا . ومع هذا فإن التاجر نفسه والذى كان ناقداً متشككا ، بلا أوهام ، وكان مخلصا تماما لزعامة الرهبان الفرنسسكان على الكنيسة ؛ إذ كان يقف ساعات طوال لكى يستمع إلى خطب الرهبان الحماسية ، أو لمشاهدة المسرحيات التى تتناول المعجزات والأخلاق ، والتى كانت موضوعاتها الرئيسية مأخوذة من قصص الكتاب المقدس . وكان البورجوازى يطلق نكاتا فجة عن رجال الكنيسة ، ولكن السماء والجحيم كانا مكانيين حقيقيين ولاشك فى وجودهما بالنسبة له . لقد كانت مدن العصور الوسطى المزدحمة غير الصحية ، والقيود السياسية والقانونية التى كان البورجوازى يناضل ضدها ، هى التى جعلت الناس المقهورين يتأرجحون ما بين التطرف فى السخرية والتهكم ، والإخلاص الدينى .

وإبان القرن الثالث عشر كان هناك تزايد مستمر فى ثروات المدن وتطور فى مؤسساتها ، ولكن هذا جلب فى أعقابه مشكلات جديدة للحياة البورجوازية التى كانت موبوءة بالفعل . ففى مدن الفلاندرز وشمال إيطاليا حيث الإنتاج الضخم للأقمشة الصوفية ، وحيث تزدهر

التجارة العالمية فى هذه الأقمشة ، كان ثمة استقطاب متصاعدة للثروة ، وتصعيد الصراع الطبقى . إذ كان هناك شعور بالكراهية المتبادلة بين المعلمين المسيطرين على النقابات الحرفية وبين العمال والصبيان فى كل من هذه النقابات . كما كانت هناك عداوة متبادلة بين النقابات الغنية التى تشتغل بتجارة الأقمشة الدولية والنقابات العادية التى تنتج البضائع للاستهلاك المحلى . ففى مدن النسيج الفلمنكية مثل غنت Ghent ، وفى المراكز الصناعية الإيطالية ، ولاسيما فلورنسا ، ظهرت طبقة بروليتارية كبيرة فى القرن الثالث عشر . وعلى الطرف الآخر من الميزان الاجتماعى كانت تتربع أقلية من المقاولين والمتعهدين الذين جعلوا همهم السيطرة على حكومات المدن ، وضمان الترتيبات التى تتناسب مع مصالحهم الخاصة ، وأخيراً نشب صراع مرير بين هذه الأسر الحاكمة فى سبيل الفوز بالسلطة . وكلما كانت المدينة فى العصور الوسطى كبيرة ، كلما كانت الصراعات السياسية والطبقية فيها أشد مرارة .

لقد حقق البورجوازيون فى القرن الثالث عشر تقدمًا فى مجال التطور الاقتصادى . ذلك أن حجم تجارة البحر المتوسط ، والبحر البلطى ، والشرق الأوسط ، وأواسط آسيا وروسيا كان يتزايد بشكل مطرد . فقد استغل تجار شمال إيطاليا تجربتهم فى التبادل التجارى العالمى لتطوير المؤسسات المصرفية ، بل أنهم صاروا أكثر ثراء باعتبارهم الوكلاء الماليين للبابوية . وفى منتصف القرن الثالث عشر أعادت أوربا استخدام العملات الذهبية فى التجارة العالمية على نطاق واسع ، وقد صار الفلورين الذهبى ، الذى سك للمرة الأولى لسد حاجة التجار الهولنديين سنة ١٢٦٥ ، بمثابة العملة القياسية لأوربا . وقد حقق البورجوازيون مستوى عاليا من التعليم العام ، ولم ينعكس هذا فى مجال الأدب فقط (فى فرنسا أولا ثم إيطاليا) وإنما انعكس أيضا فى تطوير نظام الموثق المحترف الذى كانت مهمته كتابة أعداد لاتحصى من الوثائق التى صارت ضرورة لازمة لهذا المجتمع التجارى المتعلم .

ولكن البورجوازيين لم يكونوا قادرين على حل مشكلاتهم السياسية ، وعانت المدن الاضطراب الداخلى المستمر ، ولأن المدن كانت منقسمة على نفسها كما كان بنيانها طبقيا للغاية ؛ فقد صارت نظمها الانتخابية نظما غير مباشرة ؛ لأنه لم يكن هناك أحد يثق فى أحد آخر بحيث يعطيه صوته . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت كثير من المدن الإيطالية تتخلى عن حرياتها الكومونية ، التى ناضلت قرونا فى سبيل الحصول عليها ، وهو أمر كثيراً ماتحسر عليه المؤرخون الليبراليون المحدثون . فقد تخلى البورجوازيون عن السلطات السياسية إلي

بودستا Podesta ، أى دكتاتور خرج من صفوف الطبقة الأرستقراطية المحلية ، بحيث أنشأ أسرة وراثية فى المدن التجارية الغنية .

وفى بعض مناطق أوربا حافظت الكومونات على استقلالها . إذ كانت ماتزال هناك « مدن حرة » فى أراضى الراين فى القرن الرابع عشر . وأبرز مجموعة من الكوميونات المستقلة هى مدن البلطيق الألمانية التجارية التى تألفت منها العصبة الهانزية . فلم يكن تجار شمال إيطاليا يشتغلون بالتجارة الواسعة فقط ، والتى كانت تمتد من روسيا حتى انجلترا ، ولكنهم كانوا أيضا يشلون تحالفات سياسية وعسكرية ، وحاربوا الملوك الاسكندنافيين فى سبيل الهيمنة على البحر البلطى . وحينما كانت توجد سلطة ملكية قوية ، كان الاستقلال الذاتى للبورجوازيين قليلا . فقد كانت المدن الفرنسية فى القرن الثالث عشر ، وكذلك بعض مدن الجنوب وإقليم الراين التى تتمتع بالامتيازات الكوميونية ، قد خضعت للإدارة الملكية الناهضة . أما فى انجلترا ، فإن الامتيازات السياسية والقانونية للبورجوازيين كانت أقل كثيراً من تلك التى حصل عليها نظراؤهم فى القارة . فد كان تجار لندن ، حتى نهاية القرن الثالث عشر تقريبا ، ساخطين من جراء إصرار وزير المالية على أن وضعهم القانونى لايكاد يختلف عن وضع الفلاحين فى الضياع الملكية ، وهو مايعنى أن يخضع كل البورجوازيين للضرائب الاعتباطية .

كانت إحدى الحقائق الأساسية فى حضارة القرن الثالث عشر تتمثل فى فشل الطبقات التجارية والصناعية فى إحراز قدر من الزعامة السياسية فى المجتمع . بل إن الكومونات الإيطالية كانت قد بدأت تفقد حريتها السياسية . فقد كانت حكومات الملكيات الصاعدة بأيدى ملاك الأراضى وخريجى الجامعات الذين لم يكونوا يهتمون بشئ سوى مصالح سادتهم الملكيين ، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا من أبناء الطبقة البورجوازية . وكان الملوك . والسادة الإقطاعيون ، والعلماء مايزالون قادة المجتمع الأوربى . ولم تترجم الأهمية الاقتصادية للبورجوازيين إلى زعامة سياسية واجتماعية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر .

أما أكبر طبقات المجتمع فى العصور الوسطى ، والتى كانت تضم غالبية السكان فقد كانت طبقة خرساء . فليس ثمة أدب يعبر عن الفلاحين فى القرن الثالث عشر . ولم يحدث سوى فى القرن الرابع عشر أن ظهر نوع من الكتابة يمكن اعتباره معبراً عن وجهة نظر

الفلاحين. فالمرجح أن القصيدة المعروفة باسم Piers Plowman[٥] كتبها أحد القساوسة الإنجليز الفقراء ، الذين غالبا ماكانوا هم أنفسهم من أبناء طبقة الفلاحين . ذلك أن نغمة هذه القصيدة المتاعبة ، المريرة ، الأخروية ، تشي بأن الفلاح كان يدرك تماما أن الطبقة الحاكمة فى المجتمع تستغله ، كما أنه كان فى الوقت نفسه مخلصاً لتعاليم الكنيسة التى كان ينقلها إليه القساوسة الأبرشيون والرهبان الجوالون . وليس أمامنا من سبيل يجعلنا نعرف على وجه التأكيد كم كانت آراء وليم لانجلاند William Longland ، مؤلف قصيدة Piers Plowman متوافقة مع آراء الفلاحين .

إذ يخبرنا المؤرخون الاقتصاديون ، من واقع دراستهم للسجلات الاقطاعية ، أن الأحوال الاقتصادية للفلاحين كانت آخذة فى التحسن فى معظم أنحاء أوربا ، ولاسيما في فرنسا وألمانيا ، فى القرن الثالث عشر . ذلك أن التأثير المركب للاقتصاد النقدى ، وحركة التعمير ، أتاحت للفلاحين سبيل الهروب من الواجبات القنية والخدمات الاقطاعية القديمة . فقد بنى البعض « قرى جديدة » فى الأراضى الخالية ، على حين انضم البعض الآخر إلى حركة الزحف صوب الشرق حيث كان السادة الألمان يمنحونهم شروطا مغرية للاستقرار . أما أولئك الذين بقوا فى قراهم ذات الحقول المفتوحة ، فغالبا ماتمكنوا من التوصل إلى اتفاق مع سادتهم باستبدال الخدمات الإقطاعية بإيجارات نقدية . وهكذا ، كان القن فى فرنسا وألمانيا فى طريقه لأن يصير مزارعا صغيراً مستقلا . حقيقة أنه كان مايزال عرضة للاستغلال على أيدى السادة الإقطاعيين المحليين ، وكان محطا لإزدراء البورجوازيين ، وكان كبار القساوسة يتجاهلونه ، بيد أنه كان أفضل حالا مما كان عليه قبل قرنين من الزمان .

ويبدو أنه كانت هناك اختلافات أفقية ورأسية كبيرة فى وضع الفلاح . إذ كان الأقنان الإنجليز أقل توفيقا في تحقيق حريتهم ، ربما لأن الفرسان الإنجليز كانوا أشخاصا قساة قبعوا فى بلادهم واعتنوا بإدارة ضياعهم أكثر مما فعل السادة الفرنسيون . أما فى إيطاليا فقد كان

---

٥ - قصيدة Piers Plowman قصيدة رمزية انجليزية طويلة تنسب إلى وليم لانجلاند (حوالى سنة ١٣٣٠ - ١٤٠٠) . وهى عبارة عن قصيدة دينية تجسد الكنيسة ، والحقيقة ، والعقل ، والغش ، والجوع .. وما إلى ذلك . وهى فى معظمها مكتوبة بلغة الحياة اليومية البسيطة ، ولكنها غنية بالمضامين ويكونها مصدرا للبحث العلمى . كما أنها كانت مفيدة كمصدر للمعلومات عن الحياة اليومية ، والجوانب المادية فى حضارة القرن الرابع عشر فى الريف الإنجليزى .

انظر : The Illustraed Ency . of Med . Civilization . (1980)

(المترجم)

الفلاحون يعانون من سيطرة البورجوازيين الذين كانوا يشترون الأرض ويستغلونهم دونما شفقة. وكان هناك تدرج عميق داخل طبقة الفلاحين نفسها - مابين أولئك الفلاحين الأثرياء الذين يملكون المحاريث ، والحيوانات ، والمزارع وأولئك العمال اليوميين ممن لايملكون أرضا والذين كان وجودهم هامشيا .

والتحسن العام فى أحوال الفلاحين إبان القرن الثالث عشر لاينبغى أن يعمينا عن حقيقة أنهم كانوا هم « الطبقة الداكنة dark people » فى حياة العصور الوسطى . فلم يكن أمام الفلاحين مهرب من مسار حياتهم الذى كان يبدأ بالميلاد ، وينقضى فى العمل ، وينتهى بالوفاة ، فقد كان هذا يبدو مساراً بلا نهاية . ولأن الفلاح لم يكن يملك العلف الكافى لحيواناته فى الشتاء ، فإنه كان يضطر إلى ذبح معظمها فى ديسمبر . وبعد أن يتخم نفسه بالأكل فى عيد الميلاد الذى يمتد إثنى عشر يوما ، لم يكن يتبقى له شيئ من اللحم الطازج حتى زمن الربيع ، وعبر سنوات طوال كان شبح الموت جوعا يحوم حول كوخه المتداعى . وكانت تسليته الوحيدة هى خدمة يوم الأحد الصباحية التى يقوم بها قسيس نصف متعلم ، أو موعظة يلقيها أحد الرهبان الجوالين . وبين هذا الفلاح البهيم الغبى ، والذى لم تكن شرارة الذكاء تبرق فى ثنايا عقله المعتم إلا فى أحيان متباعدة ، وكاتدرائيات الفكر التى كان الجامعيون يشيدونها فى المدن الجامعية النائية ، كان الجسد الكلى للتقدم الإنسانى يتثاءب نافضا عن نفسه غبار الرقاد الطويل .



الجزء الثامن

الإنهيار

أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر

« إن من يعمل لصالح الدولة يكون الحق غايته » .

– دانتي أليجيري

« لكل كاثوليكي الحق في أن يستأنف القرار الصادر عن بابا مهرطق » .

– وليم اوكامي



الفصل الحادي والعشرون
فشل الوفاق الجديد

١ - رغبة الموت في مجتمع العصور الوسطى :

في سنة ١٢٧٠ ذهب الملك المسيحي المثالي ، لويس التاسع ملك فرنسا ، للقاء ربه ، ثم لحق به بعد عامين هنري الثالث ملك انجلترا الذي كان خادما مطيعا للبابوية . وغلب على سياسة خلفائهما طابع جديد من الوحشية والعناد طوال السنوات العشرين التالية . ففي سنة ١٢٧٢ اختفى الدكتور الملائكي توماس أكويناس هو الآخر من مسرح الأحداث . وبينما واصل تلاميذه الدومينيكان سيطرتهم على كلية اللاهوت في الجامعة ، كان عليهم أن يدافعوا عما قام به توماس من المزج بين العلم والدين . وفي سنة ١٢٧٧ قام أسقف باريس بحركة طائشة غير محسوبة ؛ إذ نشر عدة فرضيات وأدنها على أساس أنها أفكار رشدية خاطئة ، ولكنها من بعض الوجوه يمكن أن تفسر على أنها إدانة لبعض التعاليم التوماسية ؛ ومن الواضح أن هذا التلميح كان مقصوداً تماما . وقد أخذ بعض الفرنسسكان الشبان في أوكسفورد ، ممن فرضت عليهم القيود بعد موت بونافنتيرا سنة ١٢٧٤ ، من الإدانة التي نشرت سنة ١٢٧٧ نقطة انطلاق للهجوم على التوماسية ، وبدأوا يتحركون نحو موقف رمزي ثوري . ففي سبعينيات القرن الثالث عشر ، أو بعدها بقليل ، كان النمو السكاني والإزدهار التضخمي الذي تميز به الاقتصاد الأوربي منذ منتصف القرن العاشر قد بدأ في التلاشي والضمور ، وانزلقت أوربا شمال الألب في تدهور طويل ومُرْبك استمر حتى منتصف القرن الرابع عشر ، مما جلب السخط الاجتماعي والتمرد الذي يشيع في مرحلة الانكماش الاقتصادي .

هذه الحوادث تميز سبعينيات القرن الثالث عشر باعتبارها الخط الفاصل العظيم في التاريخ الوسيط . ذلك أنها كانت بداية فترة مدمرة من الإنهيار والعنف استمرت نصف قرن ، ولم تنته تماما حتى أخريات القرن الخامس عشر . وبحلول سنة ١٣٢٥ كان العمل الذي استغرق قرونًا قد انهار وتبعثرت أشلاؤه ، كما تحلل النظام الفكري والأخلاقي لمجتمع العصور الوسطى. ففي غضون هذه السنوات الخمسين انقلبت الملكية الفرنسية على حليفتها (التي كانت من أسباب وجودها إلى حد ما) ، بابوية العصور الوسطى ، واغتالتها ببساطة لتحطم هيبتها وسلطانها في سنوات قلائل . ولم يتمرد أكبر المفكرين في نصف القرن الذي أعقب

وفاة توماس أكويناس ضد العالم الفكرى المنظم الذى خلقة فحسب ، وإنما هاجموا الكنيسة فى سلطانها ورجالها . كما أنهم كانوا يبجلون الدولة باعتبارها القائد الوحيد للمجتمع الأوربى . ومع شروق شمس سنة ١٣٢٥ أخذت رياح الهرطقة الشعبية العاتية ، التى كانت قد سكنت منذ منتصف القرن الثالث عشر ، تهب من جديد على أوربا . لقد أصيبت حضارة العصور الوسطى بجرحها فيما بين سنة ١٢٧٠ وسنة١٣٢٥ ، وبقى عليها أن تعانى من العذاب الطويل القاتل الناجم عن الفوضى والمصاعب خلال السنوات المائة والخمسين التالية .

فلماذا تحللت حضارة العصور الوسطى ، التى كانت من نتاج عمل إبداعى خلاق على مدى قرون عديدة ، فجأة وبمثل هذه السرعة ؟ من الممكن أن نجرب إجابة عملية جداً مؤداها أن الأخطاء فى السياسة البابوية ، وطموحات بعض الملوك ونزوات بعض المفكرين البارزين - كانت كلها من أسباب ماحدث .فلو أن سان لويس وسان توماس كانا ما يزلان يتحكمان فى عالمى السياسة والفكر فى العصور الوسطى ، لما حدثت هذه الكارثة على الإطلاق ! ولكن الحقيقة أن أولئك الزعماء الذين تولوا قيادة المجتمع فى السنوات الخمسين التى تلت سنة ١٢٧٠ ، كانت لهم أهداف وأساليب غير أهداف وأساليب أسلافهم . فلم يكونوا أقل قدرة من الدكتور الملائكى والملك القديس ، ولكنهم أرادوا أن يتصرفوا بوسائل مختلفة . وطريقة أنف كليوباترة لاتؤدى إلى شئ سوى تجنب السؤال الكبير فى التاريخ والقائل : لماذا اختلف زعماء المجتمع الأوربى فى سنة ١٣٠٠ بهذه القوة فى مواقفهم عن جيل منتصف القرن الثالث عشر؟.

من الممكن أن نطرح إجابة حتمية على أساسا افتراض أن الحضارات كائنات عضوية تمر بدورة حياتية ثم تختفى . فكل حضارة تمر بالميلاد ، والشباب ، والنضج ، والكهولة ، ثم الموت . ويعتقد فلاسفة العالم القديم فى هذه النظرية ، كما أن شبنجلر Spengler وكثيرين غيره من مفكرى القرن العشرين يؤمنون بدورة الحضارة فى الربيع ، والصيف ، والخريف ، ثم الشتاء . والحقيقة أن الحضارة لاتظهر لتكون كائنا عضويا يمضى فى مساره ثم يختفى ، على الرغم من أنه قد يكون ذا تأثير قوى على الأفكار والمؤسسات فى الحضارات المتأخرة ، ومن خلال تراثها ، تصبح خالدة ، ويخطئ التفسير الحتمى للتاريخ فى أنه ينكر الحرية الإنسانية . ولايجب الظن بأن الإنسانية تفتقر إلى القوة للسيطرة على مصيرها ، وعلى صيانة الحضارة التى أوجدتها قوى الإبداع البشرية . والمعالجة الحتمية للتاريخ معالجة معقولة ، بيد أنها تسئ إلى الأخلاقيات .

فالحضارة ، شأنها شأن أى إنسان لها إرادة الحياة ، ولكنها أيضا قد تصل إلى حال عصابية تجعلها راغبة فى الموت[1] . وحضارة العصور الوسطى ، خلال نصف القرن الذى أعقب سنة ١٢٧٠ ، بعنفها وتطرفها ، وتدميرها الانتحارى لقيمها ومثلها العليا، كشفت عن أن لديها الرغبة الانتحارية فى تدمير نفسها ، تماما مثلما حدث فى العصور الوسطى الباكرة ، عندما أظهرت إرادة الحياة فى مواجهة العقبات المادية الرهيبة . فما هو أصل الرغبة العصابية للإنتحار لدى مجتمع العصور الوسطى ؟ لقد كان ذلك ناتجًا عن القمع والكبت ، كما هو الحال عند الأشخاص المصابين بالعصاب . ذلك أن الكبت المستمر للمشاكل الصعبة والمستعصية قد يؤدى فى النهاية إلى نقطة تصبح عندها هذه المشكلات صراعا لايمكن إخماده ، وتكون النتيجة إنهياراً مفاجئًا قاتلا . وهذا هو ماحدث لحضارة العصور الوسطى . ذلك أن الروح الإبداعية التى تجلت فى القرن الثانى عشر قد خلقت صراعات معينة وأساسية جداً ، دون أن تجد لها الحل فى المجتمع والفكر الإنسانى : مثل الصراع بين الدين والعلم ، والصراع بين الكنيسة وحرية التجربة الدينية الفردية ، والصراع بين سلطة الكنيسة وسيادة الدولة . وخلال السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر بذلت حضارة العصور الوسطى أقصى مافى طاقتها لحل هذه الصراعات وكانت النتيجة وفاقا أوجد الهدوء المؤقت لكنه لم ينه هذه الصراعات .

والجزء الثانى من « روايات الزهرة » ، الذى كتبه بورجوازى جامعى فرنسى ، فى أواخر سبعينيات القرن الثالث عشر ، والذى يعتبر من أعظم ما أنتجته القرائح الفرنسية فى مجال الأدب فى القرن الثالث عشر – هذا الجزء يكشف فى كل صفحة من صفحاته عن أن السلام الذى أرساه إنوسنت الثالث ، والصياغة التوفيقية لفلسفة توماس أكويناس لم تكن ترضى المفكرين من جيل جان دى مون الذى ألف هذا الجزء . إذ أن المثالية الرومانسية التى عرفها القرن الثانى عشر كانت قد صارت باردة قاصرة « وكم هو منحط ذلك العالم الذى جعل الحب

---

١ – نحن لا نوافق المؤلف على هذا الرأى الذى يبسط مسيرة البشر الحضارية ، ومن خلال كلامه فى الصفحات التالية نجده يناقض هذا الكلام . وفى تصورنا أن إتساع الفجوة بين المثل العليا والقيم من ناحية والممارسات على أرض الواقع من ناحية أخرى من أهم أسباب سقوط الحضارات ، على أنه ليس السبب الوحيد بطبيعة الحال .فإن الفشل فى إدارة المجتمع ، والعجز عن حل المشكلات التى تواجهه ، وقصر النظر السياسى والاجتماعى لدى الحكام – كلها من بين الأسباب الرئيسية فى سقوط الحضارات .

(المترجم)

للبـيـع » على حد تعبير مون الذى رأى الطمع والفساد والعفن يسرى في جميع الاتجاهات . فهو يقول إن العلماء والقانونيين « يبيعون مهاراتهم لقاء المال » ، وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان بورجوازيا فإنه لم يكن يرى أية إمكانية في حصول أبناء طبقته على الخلاص «فليس هناك تاجر على الإطلاق يعيش فى راحة ؛ لأنه يمضى عمره فى حرب من أجل الربح ، ولكنه لايحصل على كفايته أبداً » ولايشعر دى مون تجاه زعماء مجتمع العصور الوسطى بشئ سوى الاحتقار . فالملوك والأمراء « أوجدوا الاستبداد والطغيان وسرقوا الشعب » ، وفى كل اتجـــاه يرى « قساوسة أشرار يهيمون على الأرض ، ويبشرون لكى يكسبوا الرضاء ، والشرف ، والمال » كما أن المثل الأعلى الفرنسسكانى أخفق إخفاقًا ذريعًا « الفقر ... مكروه بسببه جميع الناس » . كذلك كانت كافة الجهود التى بذلت لخلق كومنولث مسيحى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تبدو عبثًا لاطائل وراءه فى نظر دى مون .

لقد وجد الجيل الذى عاش أواخر القرن الثالث عشر أنه يستحيل الحفاظ على النسيج المتهافت الواهى لذلك الوفاق الحاذق الذى شيده الجيلان السابقان عبر الألم والمعاناة . فقد كان النظام العالمى الذى تم بناؤه مع مطلع القرن الثالث عشر دقيقا فى توازنه بدرجة جعلتهم يكتشفون أن بقاءه ضرب من ضروب المستحيل . فضلا عن أنه لم تكن هناك أية حاجة للإبقاء عليه ، لأنه فشل فى تحقيق السعادة الإنسانية . لقد أرادوا إنهاء حال الكبت المرهقة والتى أجلت حسم الصراعات بحيث تراكمت من سنة ١١٩٨ إلى سنة ١٢٧٠ ؛ أى أنهم أخذوا يبحثون عن مخرج عدوانى صوب هدف واضح وثابت . لقد كانوا يريدون إما العلم أو الدين ، إمّا التدين الشخصى أو السلطة الكنسية ، وإمّا الدولة الحاكمة أو تفوق السلطة الكنسية . أرادوا إنهاء حال التركيب ، والدهاء والحلول التوفيقية التلفيقية ، وتعقيدات حضارة الحلول الوسط . أرادوا ترسيخ بعض الأهداف الثابتة الواضحة التى يمكن أن تكون نقط إنطلاق جديدة نحو العقيدة والحب . وإذ وجدوا أن التوازنات الحاذقة والحلول التوفيقية فى زمن توماس أكويناس لم تخلص المجتمع من الجشع والفساد ، كان لابد لجيل الفترة الأخيرة من القرن الثالث عشر أن يلقى باللوم فى الفشل الأخلاقى الذى حاق بمجتمعهم على التوليفة التوماسية نفسها . فعلى مرّ السنوات المائة والخمسين السابقة أجريت دراسات كثيرة ، وطرحت أفكار عديدة ، وراودت الناس أحاسيس كثيرة ؛ ومع ذلك لم تتحقق السعادة للبشرية ولم يتحقق الكومنولث المسيحى . لقد كان الناس فى أواخر القرن الثالث عشر يأملون فى أنهم إذا ما

اتبعوا أحد الطرفين - بدلا من الوسط الذى خذلهم - يمكن أن يجدوا الحب الجديد والمثالية الجديدة . وفى غمرة تطلعهم المشتاق إلى بساطة التطرف ، أخذوا يسعون نحو موت حضارة العصور الوسطى ، التى كانت قد باتت عبئا غير محتمل .

٢ - تفكك العالم الفكرى فى العصور الوسطى :

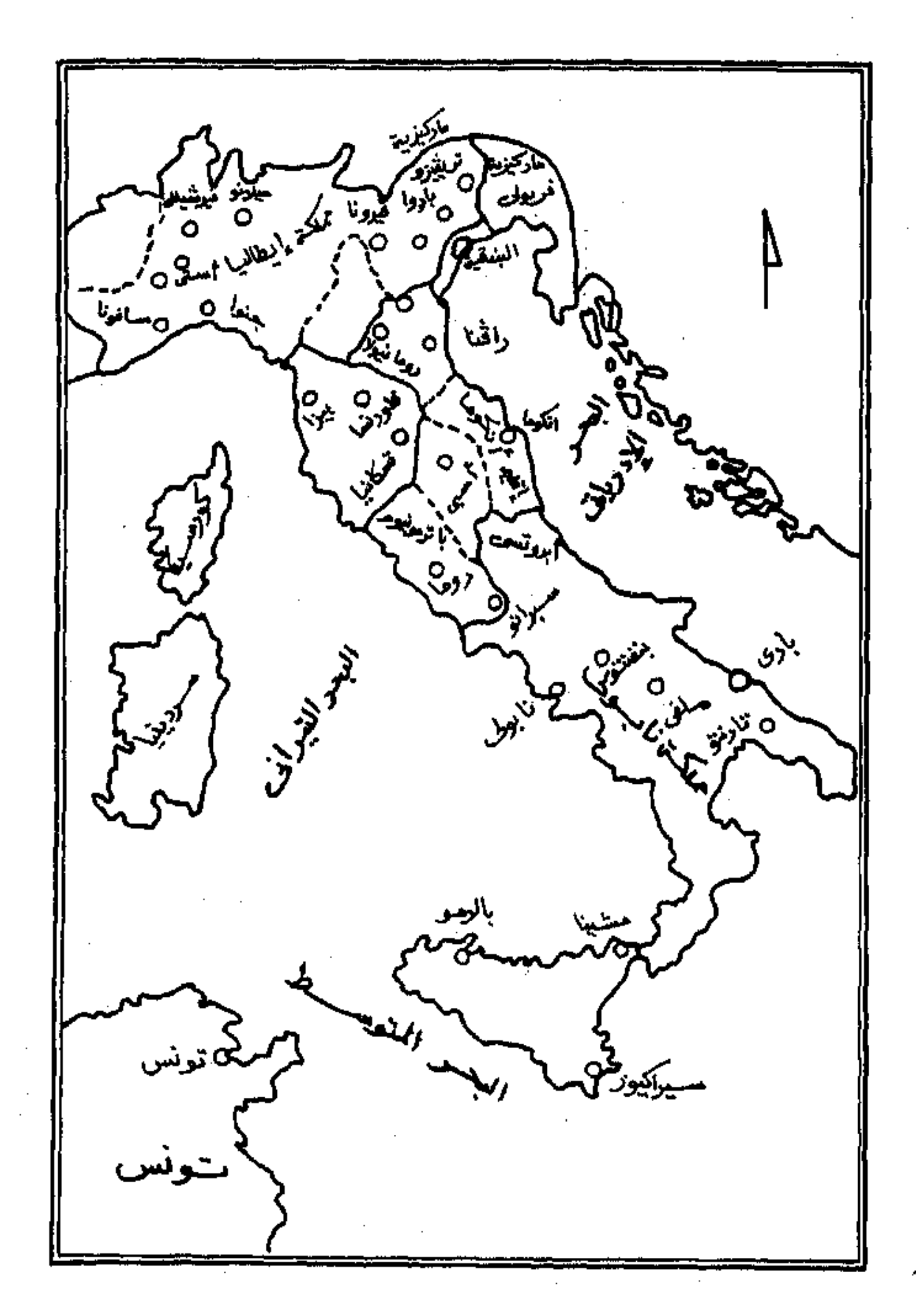
أقام الدومينيكان التوماسية مذهبا رسميا لجماعتهم فى سنة ١٢٨٤ م . وسعوا لكى تقبلها الكنيسة لاهوتا رسميا لها . وكانوا يعتقدون أن نظام توماس أكويناس قد حل المشكلات الفكرية الى ظهرت فى القرن الثالث عشر . وزعموا أن سان توماس قد جعل الأرسطية ، التى هى أفضل ماعرفه الإنسان من علم ، تتناغم مع حقائق الحياة المسيحية ، وبرهن على صحة العقيدة المسيحية بالعقل . فقد أوضح أن الإنسان يقف على قمة النظام الطبيعى ، ومع ذلك فهو على اتصال بما هو وراء الطبيعة « **لأن هدف الإنســان هو تأمل الحقيقة والتفكير فيها** » . ولكن هذا النظام العقلى المهيب لم يرض بعضا من أفضل المفكرين فى الجيل الصاعد . ففى كل من شمال إيطاليا وانجلترا فى السنوات الخمسين التى أعقبت موت توماس قام المفكرون البارزون بإضعاف النظام التوماسى ، ثم هاجموه علانية ، وطرحوا مذاهب ذات طبيعة مختلفة تماما . وانتهى بهم الأمر إلى الفصل بين العلم والدين ، ورفع الدولة خارج وفوق النظام الأخلاقى كقانون قائم بذاته ، من خلال إنكارهم للأسس التى تقوم عليها السلطة الكنسية ، وإحيائهم لتعاليم الهرطقة الشعبية فى القرن الثانى عشر . وبعبارة أخرى ، فإنهم هجروا كاتدرائية الفكر التى قامت على اللاهوت التوماسى وتسببوا فى انفصام عرى العالم الفكرى فى العصور الوسطى .

ويمكن أن نتلمس بدايات التمرد ضد التوماسية فى فكر دانتى أليجيرى Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) بجوانبه المتعددة ، باعتباره صاحب الاسم الأشهر فى مجال الأدب فى العصور الوسطى . وكثيراً ماعرف دانتى بأنه الشاعر الذى صاغ خلاصة اللاهوت Summa Theologica فى منظومة شعرية ، وبأنه تلميذ من أتباع توماس أكويناس ، وهناك بعض الجوانب المعقولة فى هذا الرأى ، فلاشك فى أن دانتى تأثر كثيراً بالمذهب التوماسى . ولكنه أيضا كان متعاطفا مع بعض آراء الرشديين ، وفى تناوله للفكر السياسى نجد نغمة ثورية جديدة تتعارض بشدة مع المذهب السياسى التوماسى . لقد كان دانتى رجلا عالى التعليم عميق التدين . ولكن ثورية كومونات الشمال الإيطالى تتبدى واضحة أيضا فى

كتاباته . فقد كان يصل إلى آفاق فكرية جديدة لم تكن مفهومة تماما . إذ أنه يتذبذب ما بين طرفى مذهب العصور الوسطى التقليدى ، والثورية الجسورة ، مجسداً بذلك حيرة الجيل الجديد من مفكرى العصور الوسطى .

كان دانتى مواطنا فلورنسيا قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته منفيا خارج مدينته، التى كان يحبها حبا عميقا ، نتيجة إحدى المعارك الفكرية التى سممت حياة كومونات الشمال الإيطالى . وكان هو الذى جعل من اللغة الإيطالية الدارجة لغة للأدب . كما أدخل العناصر الرومانسية ، التى سادت الشعر الفرنسى مايزيد على قرن من الزمان ، فى الأدب الإيطالى . وفى قصائده يتجلى ذلك المزج الحاذق بين الحب الدنيوى والحب الإلهى الذى كانت الروايات الفرنسية والألمانية قد جعلته محوراً لبنائها الدرامى بالفعل ، كما أنه كان يجل فرجيل وغيره من عظماء الأدب اللاتينى والكلاسيكى ، وكان من رواد التوحيد بين الرومانسية والإنسانية .

والكوميديا الإلهية ، أكثر مؤلفات دانتى طموحا ، تعتبر أعظم ما كُتِب من أشعار فى العصور الوسطى بوجه عام . وهى ملحمة شعرية رمزية كانت نتاجًا لقدر هائل من الثقافة ، ومهارة أدبية لايشق لها غبار . وهى فى رأى البعض تلخيص للفكر المسيحى فى العصور الوسطى ، وصياغة رمزية فى شكل شعرى للمبادئ الجوهرية فى الفلسفة التوماسية . وهناك الكثير من جوانب القصور فى هذا الرأى . إذ أن دانتى يصف كيف أنه أقتيد فى رحلة من أعماق الجحيم ، عبر المطهر ، إلى الجنة ، فى صور جمالية أخاذة . وكان مرشدوه الثلاثة فى هذه الرحلة رموزاً لثلاث مراحل صاعدة من المعرفة . إذ أن فرجيل هو الذى يقوده عبر دوائر الجحيم حتى المراحل الدنيا من المطهر ؛ وقد قصد دانتى أن يرمز بهذا الشاعر الرومانى الذى كان يهيم به إعجابا إلى العقل الذى يمكن أن يعلم الناس بجهوده الخاصة كيف يهربون من اللعنة بالحياة الطيبة الخيرة . وفى المراحل العليا من المطهر ، وفى كافة مراحل السماء ، باستثناء المرحلة العليا ، تتولى إرشاد دانتى سيدة تدعى بياتريس ، وهناك سيدة بذات الاسم لعبت دوراً هاما فى حياة دانتى ، على الرغم من أنهما كانا يلتقيان نادراً ، كما أنها تزوجت من أحد المصرفيين الأثرياء فى فلورنسا . وهى ترمز إلى النموذج الرومانسى للحب الدنيوى والإلهى فى نظر دانتى ، كما أنها تمثل الرحمة أو الحب الإلهى فى الكوميديا الإلهية ، أى أنها تمثل الدين أو الكنيسة ، التى كانت خدماتها وطقوسها السبيل الوحيد إلى الخلاص



إيطاليا فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى

والدخول إلى السماء. وأخيراً ، كان دليله لمواجهة الروح القدس هو سان برنار الذى يرمز إلى التجربة الصوفية . وهناك تشابه بين الحج الدينى على هذه الصورة وبين الفلسفة التوماسية . إذ كان توماس ودانتى يتفقان على قدرة العقل لإرشاد الناس إلى مبادئ الحياة الطيبة وضرورة وجود الكنيسة لتحقيق هذه الإمكانية وفهم الحقائق السامية . وتحديد دانتى للصوفية بأنها أسمى أشكال المعرفة مستمد من تعاليم الفرنسسكان وليس من الفلسفة التوماسية الدومينيكانية . ويظهر كل من سان فرنسيس ، وسان دومينيك فى نفس الدائرة من السماء ، وأخيراً تنتهى الملحمة الشعرية بصلاة للعذراء .

وعلى أية حال ، فهناك بعض جوانب فى الكوميديا الإلهية تختلف كثيراً مع مابها من تعاليم مسيحية وتقليدية عامة . إذ أن سيجيه البرابنتى Siger of Brabant ، الفيلسوف الرشدى المعارض لسان توماس أكويناس يسكن فى سماوات دانتى . كما أن الملحمة حافلة بالتعبيرات التى تجسد العداء تجاه مزاعم البابوية . إذ يضع دانتى إدانة مريرة على لسان القديس بطرس « **للذئاب النهمة التى تتخفى فى زى الحملان** » ، والذين خانوا مناصبهم ، كما أنه لم يكن راضيا عن معاصره بونيفاس الثالث بصفة خاصة ، فأرسله إلى الجحيم . ويرى دانتى أنه من المؤسف أن قنسطنطين أعطى هبته للبابا ، وبذلك ورط نائب المسيح فى الأمور الدنيوية . وهناك قصور أكثر عمقا يشوب إيمان دانتى ، كما أن رؤيته للجحيم ، والمطهر ، والنعيم تشى بأن المذهب الأخروى كان فى طريقه نحو الزوال . لقد كشف البناء الشعرى لهذه الصورة التفصيلية للكوزمولوجيا الدينية عن أن المذاهب التقليدية قد فقدت حيويتها وطرافتها، وصارت أنماطًا عرفية . وليس معنى هذا أن دانتى لم يكن يؤمن بوجهة النظر الكاثوليكية عن الخلاص ، ولكنه أوغل فى هذه المذاهب بحيث أن الخط الفاصل بين الخيال الأدبى والحقيقة اللاهوتية بات غير واضح .

والمضامين الثورية فى فكر دانتى تتبدى أكثر وضوحًا فى مقالته عن « الملكية » . والظاهر أنها كتبت للدفاع عن حقوق الإمبراطور وسلطاته فى إيطاليا ، لأن دانتى كان يعتبره حاكم إيطاليا الشرعى . لأنه كان يعتمد عليه فى استعادته لمركزه . والحقيقة أن الملك الألمانى هنرى السابع جاء بالفعل إلى إيطاليا فى حياة دانتى ، ولكنه لم يلبث أن عاد دون أن يفعل شيئًا لإنهاء نفى دانتى وإعادته إلى فلورنسا مدينته المحبوبة . وأهمية الكتاب لاتكمن فى مناقشاته التقليدية المستمدة من التراث القانونى والتاريخى حول سمو سلطة الإمبراطور

الروماني في العالم ، وإنما تتمثل بشكل أكثر وضوحا في موقفه الجديد . ويلمح دانتي بصورة طيبة إلى المذهب الرشدي عن الخلود الكلي للروح ، وهو أمر يتناقض بشكل غريب مع موقف دانتي نفسه من الخلود الشخصي والذي بنى « الكوميديا الإلهية » على أساسه . إذ أنه يناقش التفسير البابوي التقليدي للنص الوارد في الكتاب المقدس عن بطرس ، وفي رأيه أن كلمات المسيح لبطرس « لايترتب عليها أن البابا يمكن أن يحل أو يربط في أمور الإمبراطورية» وهو ينكر صحة المزاعم البابوية المؤسسة على هبة قنسطنطين لأن «قنسطنطين لايملك سلطة نقل المنصب الإمبراطوري ، كما أن الكنيسة هي الأخرى لاتملك قبوله؟ » وأهم ما في الأمر هو دفاع دانتي عن السلطة الإمبراطورية ، ليس فقط على أساس التراث والقانون ونصوص الكتاب المقدس ، وإنما أيضا إنطلاقا من مذهب بسيط وثوري عن الضرورة النفعية ؛ فهو يقول إن مصلحة الجنس البشري تتحق على نحو أفضل في ظل الحكم الملكي . ويعتبر هذا انعطافا جديداً في الفكر السياسي في العصور الوسطى . وما يلمح إليه دانتي في مجادلاته هو أن السلطة السياسية لاتقوم على أساس من القانون الطبيعي والإلهي فقط ، وإنما تتأسس أيضا على الضرورة الاجتماعية .

والنظرية النفعية للقانون التي طرحها دانتي تتمثل على أوضح صورة في كتاب « المدافع عن السلام » الذي نشره مارسيليو البادواني Marsilio of padua (ت ١٣٤٣م) في عشرينيات القرن الرابع عشر وهو نتاج آخر للحياة الكوميونية في شمال إيطاليا . وما لم يرد صراحة في كتاب « الملكية » لدانتي ، ناقشه مارسيليو بالتفصيل الشديد . فهو يقول بأن أساس القانون يكمن في خاصيته الآمرة الملزمة . ولايحتاج القانون إلى أن يكون ذا محتوى أخلاقي ؛ إذ أن إرادة الشارع هي التي تصنع القانون وهكذا يعارض مارسيليو ، بأوضح صورة ، المذهب التوماسي القائل بأن سلطة الدولة تخضع لنظام خالد ومطلق من القيم والمثل العليا التي تجعل للقانون الوضعي قيمته . فليست للقانون ، في رأي مارسيليو ، أية فعالية بدون الإرادة المطلقة للدولة . وهو بهذا يقترب من مذهب السيادة الذي عبر عنه بودين Bodin ونظرية هوبيز Hobbes النسبية عن القانون في القرن السابع عشر . فالكنيسة ، مثل أية هيئة أخرى في الدولة ، تخضع للقانون . وهكذا يقلب مارسيليو مذهب السلطة الكنسية القائل بتفوق سلطة البابا رأسا على عقب . فبدلا من أن تكون الدولة خاضعة تماما للمساندة المعنوية من الكنيسة ؛ كانت الكنيسة هي التي تخضع لإرادة الدولة المطلقة . والسماح

للكنيسة بأية سلطات تشريعية ، أيا كانت ، « **أمر لايتوافق مع سلام البشر** » . وفى كتاب مارسيليو البادوانى تأخذ النزعة الثورية لدى أبناء الكوميونات الإيطالية شكلا فكريا محدداً ، وتعبر عن مذهب سياسى يهاجم الرابطة بين الدولة والسلطة الأخلاقية هجوما عنيفا للغاية . وكتاب « المدافع عن السلام » Defensor Pacis يجعل من الدولة قانونا بحد ذاتها .

وثمة نزعة رشدية ثورية تكمن خلف محاولة مارسيليو لفصل الدولة عن النظام الأخلاقى . ذلك أن نظرية ابن رشد عن الحقيقة المزدوجة ، وفصله بين دنيا العلم ، وعالم الدين ، تتجلى واضحة فى الفلسفة السياسية لنظرية مارسيليو النفعية التطوعية للقانون . فقد وقع مارسيليو تحت تأثير الفلسفة الرشدية فى شمال إيطاليا ، التى كانت عند مطلع القرن الرابع عشر قد تأثرت بتعاليم الفيلسوف العربى . وخلال القرنين التاليين كانت الفلسفة الرشدية تمثل تياراً هاما فى فكر العصور الوسطى ، حيث كانت تشع من إيطاليا ليصل نورها إلى بقية أنحاء أوربا .

وقد تأكد مذهب ابن رشد عن ازدواج الحقيقة عندما روج زعماء جامعة أوكسفورد الفرنسسكان لمذهب مماثل يفصل بين الدين والعقل ، فى الوقت الذى كانت الفلسفة الرشدية تنتشر من إيطاليا صوب الشمال فى القرن الرابع عشر . ولكن أولئك المفكرين الفرنسسكان فى أوكسفورد لم يكونوا رشديين ؛ فالواقع أن إدانة أسقف باريس للفلسفة الرشدية سنة ١٢٧٧ ، كانت بمثابة نقطة البداية التى انطلقوا منها لتحقيق تطورهم الفكرى . ومع هذا فإن جامعة أوكسفورد الفرنسسكانية توصلت إلى نفس النظرية التى روج لها الرشديون بعد نصف قرن من هذا التاريخ ؛ هذه النظرية مؤداها أن العقل والدين ينتميان إلى عالمين مختلفين ولايمكن أن يتحقق لهما الإندماج .

ومنذ البداية لم يكن الفلاسفة الفرنسسكان سعداء بفلسفة توماس أكويناس الأرسطية المسيحية . وانسجاما مع الموقف العام لجماعتهم ، كانوا يتطلعون صوب الفلسفة الأوغسطينية القديمة أكثر من تطلعهم إلى الفلسفة الأرسطية الجديدة . وكان سان بونافنتيرا قد طرح مذهبا يؤكد من جديد تراث العصور الوسطى بالأفكار الإلهية ، ونتيجة لهذه النظرية الأفلاطونية عن المعرفة تأكدت فلسفة سان أنسلم الواقعية بفضل الفلاسفة الفرنسسكان ، وخصوصا بونافنتيرا . فقد كان يؤمن بأن هذه الفلسفة الأوغسطينية - الأفلاطونية - الواقعية تقدم أرضية فكرية أكثر صلابة من الحتمية الأرسطية ، والإصرار الفرنسسكانى على القدرة

الإلهية وأولوية الإرادة . وقد تابع خلفاؤه نفس الهدف ، كما أنهم عارضوا أرسطية سان توماس المسيحية . بيد أنهم تخلوا أيضا عن واقعية بونافنتيرا الأفلاطونية المحافظة ، وتوصلوا إلى فلسفة رمزية ثورية قادتهم إلى الحل الواقعي .

كانت وفاة بونافنتيرا سنة ١٢٧٤ ، من جميع الجوانب ، خطا فاصلا فى تاريخ الجماعة الفرنسسكانية فقد كان هو الفيلسوف المسيطر بين الفرنسسكان ، وعندما اختفى من على المسرح انطلقت الفلسفة الثورية التى يمثلها الفرنسسكان الشبان لاتلوى على شئ . فقد شدتهم إدانة الرشدية فى سنة ١٢٧٧ ، وكانت هذه أيضا هى أداتهم فى انتقاداتهم القاسية للفلسفة التوماسية . إذ كانوا يعتقدون أن التوماسية قد أخضعت قدرة الله الواسعة وحرية الإرادة الإنسانية لنظام آلي من الحتمية الأرسطية . ولذا فإنهم عملوا على الفصل بين الفلسفة والعلم من ناحية ، والدين من ناحية أخرى . وعلى أية حال ، فإن بونافنتيرا لم يكن أكبر فيلسوف فرنسسكاني فحسب ، وإنما كان أيضا الأستاذ العام لجماعته ، كما أنه كان زعيم حزب المحافظين بين « الأخوة الصغار » . وكان المحافظون يتقبلون التغيرات التى شجعتها البابوية فى الحياة الفرنسسكانية ، وأهمها السماح للجماعة بالامتلاك . وهناك مجموعة صغيرة فى الجماعة عرفت باسم « الروحانيين » رفضوا قبول هذه الانحرافات عن تعاليم سان فرنسيس الأصلية ، وبدأ نضال مرير قسم الجماعة إلى جناح ثورى وجناح محافظ . وبدأ «الروحانيين»، بإصرارهم على فقر الجماعة ، يطالبون بالفقر الحوارى للكنيسة بأسرها ، وأخذوا يطرحون التساؤلات عن السلطة العلمانية للبابوية وعن ممتلكاتها المادية على نحو خاص .

وفى خمسينيات القرن الثالث عشر أعاد « الروحانيون » الإيطاليون بعث أفكار يواقيم الفلورى الهرطقية والتى كانت الكنيسة قد أدانتها منذ زمن طويل على أساس أنها من أشد الهرطقات خطورة . وطبقوا أفكار يواقيم على الموقف الذى كان قائما داخل جماعتهم ، فقالوا بأن البابا هو المسيح الدجال ، وأن المحافظين هم عملاؤه . وزعموا أن عصر الروح القدس سوف يجئ ليطيح بالمسيح الدجال ، وينهى حكم القساوسة المعيب . وأن جماعة رهبانية متسولة جديدة ، سوف تنبثق من الفرنسسكان الروحانيين ستجلب العصر الجديد للروح القدس . وقد تسبب إخلاص الروحانيين للمثل الأعلى الفرنسسكاني الأصلى وإحيازهم لمذهب الفقر الحوارى للكنيسة ، والهرطقة اليواقيمية - تسبب فى حدوث فوضى خطيرة بين الرهبان الفرنسسكان . ففى سنة ١٢٥٧ أدين الرئيس العام للجماعة بسبب تعاطفه مع الروحانيين وخلع من منصبه .

وخلفه سان بونافنتيرا ، الذى قبل الموقف المحافظ ولكنه حاول أن يلين عريكة الروحانيين ويعيد توحيد الجماعة . وتم ترتيب ذريعة قانونية أتاحت للبابا فرصة التحفظ على أملاك الفرنسسكان حتى يمكنهم أن يحتفظوا بوضعهم الرسمى كمتسولين . وفى الربع الأخير من القرن الثالث عشر أمكن تجنب تفكك هذه الجماعة الرهبانية التى كانت أداة فعالة فى استعادة هيبة الكنيسة بين العلمانين . فقد انسحب كثيرون من الروحانيين إلى حياة النسك ، وظل المحافظون يسيطرون على الجماعة . ولكن الروحانيين لم يتخلوا عن إيمانهم بمذهبهم الثورى ؛ إذ كان يساندهم بعض من أقدر الرجال فى الجماعة ، وبعد سنة ١٣٠٠ امتزج تيار الثورية الروحانية بين « الأخوة الصغار » بتيار الثورية الفلسفية بين أساتذة أوكسفورد الفرنسسكان .

بدأ تقدم فرنسسكان أوكسفورد صوب الرمزية بالعالم دونس سكوتوس (١٢٦٦ - ١٣٠٨) Duns Scotus الذى كان أعظم علماء المنطق فى العصور الوسطى ، وقد ولد باسكتلندا كما يتضح من اسمه ؛ وانضم إلى الفرنسسكان ، ودرس فى باريس ، واشتغل بتدريس اللاهوت فى أكسفورد . وهو يبدأ باستفسار علمى خالص حول قوة العقل الإنسانى ليخرج من نطاق المعلومات المحسوسة ويصل إلى استنتاج يتناقض مع التفاؤل التوماسى الذى كان يعتقد أنه يمكن أن يقيم بنيان معرفة عقلانية بالله على أساس معرفى مستمد من التجربة الحسية . والله قادر على كل شئ ، وهو حر فى إرادته ؛ أما العقل الإنسانى فعلا يمكنه أن يعمل خارج سلسلة من السببية حتى يمكنه أن يتعرف على الوجود الداخلى لله . ولم يكن سكوتس يحاول الحط من شأن الدين ، وإنما كان يحاول إبراز أهميته المتفردة ؛ لقد كان يحاول أن يجعل الدين هو المصدر الوحيد لمعرفة الوجود الإلهى . وكان يظن أنه قد حمى القدرة الإلهية وحرية الإرادة من تأثيرات الفلسفة التوماسية التى تضع القيود فى سبيلهما .

ومات دونس سكوتس وهو فى قمة قوته العقلية ، وقبل أن يتمكن من استكمال كتابد . وأهم دلالات مذهب سكوتس هى التى أبرزها وليم الأوكامى William of Occam (ت. ١٣٥٠) وهو فرنسسكانى من أكسفورد أيضا ، ولم يكن يتعدى الثلاثين من عمره . لقد أحدث وليم أوكام ثورة فى الفلسفة المدرسية حيث فصل تماما بين المنطق والميتافيزيقا . وكان سكوتس قد اقترح هذا بالفعل ، ولكن أوكام هو الذى جعل الفصل بينهما مطلقا وتاما . فقد قال بأن المنطق لايتعامل مع الوجود بافتراضات تبدأ من نقطة بداية بالتوافق مع الحقيقة أو الوجود . فالفروض العقلية هى أشكال خالصة من الفكر فارغة من كل محتوى ميتافيزيقى ،

ولاتربطها بالحقيقة النهائية رابطة . « ووجودها هو وجودها المدرك » . فالمنطق إذن لايتناول سوى صيغ المغزى ، أو « المصطلحات » ، ولكننا حينما نتساءل عما إذا كانت المعرفة الميتافيزيقية ممكنة ، أو إذا كان من الممكن للإنسان أن يعرف الحقيقة النهائية بالعقل ، يجيب أوكام على هذه الأسئلة بالنفى . فالكليات مجرد رموز عقلية ، بعيدة تماما عن الحقيقة الكلية، وهى رموز تتشكل بواسطة العقل خارج الحواس المتكررة والذاكرة المضطربة التى لاتصلح سوى للأشياء الفردية فقط . ومفاهيمنا عن السببية متوقفة على هذه العملية العقلية وليس لها وجود حقيقى خارج العقل . وبهذا يتوصل أوكام إلى فلسفة اسمية متطرفة تقترب من فلسفة هيوم الإمبريقية الراديكالية والتى ينادى بها أيضا بعض فلاسفة القرن العشرين .

كان هدف أوكام هو نفس هدف سكوتس ؛ إذ كان يريد أن يؤكد مازعمه الفرنسسكان من أن معرفة الله لايمكن أن تتأتى سوى من خلال الدين والفطرة فقط ، وأن الوجود الإلهى لايمكن معرفته بأية وسيلة عقلية . لأن ذلك يعنى بالنسبة له تحديد الوجود الإلهى . لقد استغل الفلسفة للقضاء على مكانة الفلسفة ولكى يعزز الأسلوب الفرنسكانى فى معالجة الألوهية باعتباره السبيل الوحيد إلى ذلك . وسرعان ماكان لرمزيته المتطرفة ، التى تجادل بقوة وفطنة، تأثير كبير على المدارس التى كانت فى ثلاثينيات القرن الرابع عشر مسرح نقاش وجدل كبير بين « المجددين » الأوكاميين ، كما عرفوا آنذاك ، وبين مؤيدى التوماسية « الطريقة القديمة».

كان أوكام يؤمن بأنه استخدم أسلحة المدارس الجدلية ضد رجال المدارس . إذ أنه كان قد أوضح أن نفس الفلسفة تدعم تعاليم سان فرنسيس عن المعرفة النظرية بالله . وقد أدى إخلاص أوكام لسان فرنسيس إلى تشككه فى عقائد الجناح الراديكالى من الرهبان الفرنسسكان . ففى نهاية القرن الثالث عشر كان الروحانيون قد نشطوا من جديد ، وأخذوا يبشرون صراحة بالفقر الحوارى للكنيسة وبالهرطقة الأخروية التى نادى بها من قبل يواقيم الفلورى . وإذ لم يقنع أوكام بهجومه على التوماسية بدأ يهاجم سلطة البابا الدنيوية ويطالب بالفقر الحوارى للكنيسة . وجلب على نفسه غضب البابا حنا الثانى والعشرين . وقضى السنوات الأخيرة من حياته فى بلاط الملك الألمانى لويس ، ملك بافاريا ، الذى كان هو الآخر على خلاف مع البابا . وانضم لأوكام الرئيس العام لجماعة الفرنسسكان الذى كان قد انضم إلى الروحانيين ، وأحدث بذلك الإنشقاق الذى كان يتهدد الجماعة الفرنسسكانية منذ منتصف

القرن الثالث عشر ، وكان السبب فى انضمامه إلى أوكام هو رغبته فى التمتع بالحماية الملكية، وفى سنة ١٣٢٣ أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة ، وأخذت محاكم التفتيش تطارد أكثر الروحانيين تطرفا فى إيطاليا ، وهم الذين عرفوا باسم الفراتيشيللى Fraticelli[٢] . وكانت هذه الصراعات بداية لتدهور حاد فى حيوية جماعة الفرنسسكان وزعامتهم لحركة التدين الأوربية .

وفى بلاط لويس البافارى تقابل أوكام مع مارسيليو البادوانى ، الذى كان هو الآخر قد هرب إلى هناك بحثا عن الحماية ضد الغضب البابوى . وواصل الإثنان عملهما فى ظل الحماية الملكية ، ويبدو أن أوكام قد تقبل مذهب مارسيليو عن تفوق سلطة الدولة على الكنيسة . فقد زعم أوكام أن البابوية ليست هى فقط التى يمكن أن تخطئ ، بل ويمكن أن يخطئ المجمع الكنسى العام أيضا . وبذلك جعل الضمير الفردى هو السلطة الدينية النهائية ، وزاد كثيراً فى سلطة الدولة . ولأنه أنكر عصمة البابوية والمجامع الكنسية العامة من الخطأ والزلل ، فقد جعل سيادة الدولة هى القوة العامة السائدة فى المجتمع . لقد كانت الفردية الدينية وسيادة الدولة وجهين مختلفين لعملة فكرية واحدة .

وهكذا التقى رافدان من روافد الفكر الثورى سويا . إذ أن مارسيليو كان قد بدأ بالفصل الرشدى بين العلم والدين ، وانتهى أوكام إلى مذهب مشابه عن الحقيقة المزدوجة ، وأنكر إمكانية معرفة الوجود الإلهى عن طريق العقل . وقد أدان هذان التياران سلطة البابا الدنيوية، وجعلا الكنيسة مؤسسة روحانية خالصة ، وسمحا بسمو سلطة الدولة وتفردها فى المجتمع . لقد شنت الحركات الفكرية الكبرى فى غضون نصف القرن الذى أعقب وفاة توماس أكويناس هجماتها على كاتدرائية الفكر من كل جانب ، وذلك بالتأكيد على تفوق الإرادة - تفوق الإرادة البشرية على العقل البشرى وتفوق إرادة الله المطلقة على العلة الضرورية الأولى المدركة عقليا والتى تنادى بها التوماسية ، وتفوق إرادة الدولة على النظام الأخلاقى .

---

٢ - فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر أطلق هذا الإسم على الأخوة الفرنسسكان فى إيطاليا . وفى بداية القرن الرابع عشر أصبح مرادفا للفرنسسكان الروحانيين الذين أدانوا اتجاهات الجماعة وتوافقها مع اتجاهات الكنيسة التقليدية وفى سنة ١٣١٧ بعدأن أدان البابا حنا الثانى والعشرون جماعة الروحانيين أسس انجيلو كلارينو Angela Clareno (ت ١٣٣٧) ، الراهب الفرنسسكانى جماعة الفراتسيللى كجماعة مستقلة .

٣ - العنف الجديد :

كان تجريد مارسيليو البادواني للكنيسة من سلطتها المعنوية المهيمنة هو الصياغة النظرية للحوادث الرئيسية التي جرت في أيامه . ففي السنوات الخمسين التي تلت وفاة سان لويس كانت الدولة ، التي تحدد شكلها في الملكية الفرنسية والملكية الإنجليزية ، قد صارت قانونا بحد ذاتها . إذ رفضت أن تعترف بسلطة الكنيسة وزعامة نائب المسيح ، وأخذت حكومة حفيد لويس التاسع على عاتقها مهمة اغتيال بابوية العصور الوسطى وإخضاعها . ذلك أن الكيانات السياسية البارزة في الحضارة الأوربية آنذاك - وهي انجلترا وفرنسا والدولة الكنسية العالمية التي خلقتها البابوية - كانت قد طورت مؤسساتها وحددت أيديولوجيتها نهائيا في نهاية القرن الثالث عشر . ولكنها اكتشفت أن أهدافها متضاربة . فقدت أدت الاتجاهات التوسعية لكل من الملكية الفرنسية والملكية الإنجليزية إلى نشوب صراع لايمكن التحكم في مساره بين القوتين الكبيرتين في أوربا . كما أن اتجاه الحكومة الملكية لفرض سيادتها على كافة الطوائف داخل المملكة كان يتعارض مع مزاعم البابوية عن سلطتها على الكنائس الإقليمية وسلطتها الأخلاقية على المجتمع . وكانت الترفيقات وعمليات التقارب قد فشلت كوسائل لحل هذه المنازعات ، واشتبكت انجلترا وفرنسا في العقد الأخير من القرن الثالث عشر في حرب مدمرة أنهت السلام الطويل الذي ساد في القرن الثالث عشر ، واستمرت هذه الحرب بشكل متقطع على مدى مائة وخمسين سنة ، وانتهت بفوضى سياسية واجتماعية أدت إلي تدهور كل من المملكتين . وتم إقرار الصراع بين البابوية والملكية الفرنسية باستخدام العنف المادي ضد البابوية نفسها في العقد الأول من القرن الرابع عشر ، وهو أكبر عمل لا أخلاقي في التاريخ الطويل للعلاقات بين الكنيسة والدولة في العصور الوسطى .

وهكذا كان زعماء المجتمع الأوربي في أخريات القرن الثالث عشر يحاولون حل مشكلاتهم عن طريق أكثر الإجراءات تطرفا وقسوة . وهو موقف من العناد والعنف حكم تصرفات كل من زعماء الكنيسة والدولة إبان تلك الفترة . ولم يكن هو ذلك العنف الناجم عن البداوة . والذى عرفته العصور الوسطى الباكرة ، وإنما كان عنفا ناتجا عن تفكك نظام متحضر وإنهيار المقاييس الأخلاقية . لم يكن عنف البرابرة ، على حد تعبير جاكوب بوركهارت ، ولكنه عنف « المتطرفين المرعبين » الذين لايستطيعون احتمال الحلول الترفيقية وصراعات الحياة المتمدينة، ولايشفي غليلهم سوى عدوان الوحشية المنظمة .

لقد وصلت ملكية العصور الوسطى إلى قمتها فى إنجلترا وفرنسا أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ، ولم تشهد أوربا ممارسة السلطة السيادية على هذا النحو حتى قبل سنة ١٥٠٠ بقليل . ذلك أن متاعب الملكية الإنجليزية فى السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر كانت ، إلى حد كبير ، نتاجا للقصور فى شخصية الملك ، ثم وجدت الحكومة الملكية فى إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧) ، مرة أخرى ، الزعيم الذى يستطيع استغلال السلطة التنظيمية للملكية الإنجليزية ، وهى السلطة التى كان الملوك النورمان والإنجويون قد أرسوا دعائمها من قبل . كان إدوارد يختلف عن أبيه هنرى الثالث ، التقى الطيع ، من جميع الوجوه تقريبا . فقد كان تدين الملك الجديد نوعا من التدين الرسمى ، الذى ينفع واجهة مفيدة لسياسة عدوانية ، دون أن يشكل عقبة فى سبيل ممارسة هذه السياسة . فقد كان إدوارد صليبيا ذكيا ، وجنديا عظيما استثار حماسة جميع الطوائف فى المجتمع الأوربى . كما أنه حقق إنتصاراً عظيمًا حين أخضع ويلز للمرة الأولى تماما للتاج الإنجليزى ، وحاول غزو اسكتلندة ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولة حققت قدراً أقل من النجاح ، فإنها زادت من شهرة إدوارد كجندى .

كان إدوارد قد وعى تماما ذلك الدرس البائس الذى تعلمه من عجز أبيه عن السيطرة على البارونات والمجتمع فى مملكته . وبدلا من العودة إلى الممارسات الاعتباطية التى شهدها عصر الملك جون ، فإنه عقد العزم على الإفادة من التجارب الدستورية التى قام بها البارونات المتمردين لإحكام سيطرتهم على الإدارة الملكية ، ولكنه كان يهدف إلى استخدام هذه الإبتكارات التنظيمية لزيادة السلطة الملكية بدلا من تحديد نطاقها . فاستمر على نهج سيمون المونتفورتى من حيث الدعوة إلى اجتماع خاص فى البلاط الملكى ، يتم فيه عقد اجتماع كبير للأعيان بحضور ممثلين عن فرسان المقاطعات وعن البورجوازيين . هذه المناسبات الخاصة عرفت باسم البرلمانات ، وعند نهاية حكمه كانت هذه الاجتماعات تستغل كثيراً ، وبنجاح كبير ، لدرجة جعلت منها نظاما ملكيا لاغنى عنه - فالملك يحتفظ ببلاطه من خلال اجتماعات البرلمانات .

وكانت وظيفة برلمان إدوارد الأول ذات جوانب أربعة : قضائية ، وتشريعية ، ومالية ، ودعائية . فمن الناحية الرسمية كان هو المحكمة العليا ، وبذلك كان هو أعلى هيئة قضائية فى المملكة ، حيث يمكن نظر القضايا الكبرى بين الملك والأعيان وكبار السادة ، وحيث يمكن

للفرسان والبورجوازيين تقديم الإلتماسات بدلا عن الشكاوى . ويمكن أن يكون البرلمان تعبيراً عن إرادة أهل المملكة باعتباره مؤسسة تضم ممثلين عن كل الطبقات في المملكة . ومن ثم ، كان يمكن استغلاله ، وفقا للنظرية السياسية والقانونية في الميثاق الأعظم Magna Carta في سبيل الحصول على الموافقة على التغييرات في القانون العام . وفي سلسلة من التشريعات البرلمانية العظيمة قضى إدوارد على كثير من مظاهر الفوضى ، وملأ كثيراً من الثغرات في القانون العام ، الذى عانى من قلة اهتمام الملكية خلال العهد السابق . كذلك استغل إدوارد البرلمان في الحصول على الحقوق الملكية ؛ مثل الرسوم الجمركية ، والضرائب المفروضة على البورجوازيين ، التى كانت تتم بعد الموافقة البرلمانية . وكان من الأسهل كثيراً فرض ضريبة سبق أن حازت على موافقة ممثلي الأمة ، ولاسيما لأن جباة الضرائب كانوا في معظمهم من فرسان المقاطعات الذين لايتلقون أجوراً ولم يكن من السهل إستمالتهم لتنفيذ سياسة ملكية لايوافقون هم أنفسهم عليها . وربما كانت الوظيفة الأخيرة للبرلمان ، في نظر إدوارد هى أهم وظائفه . إذ كانت تيسر السبيل للإعلام عن السياسة الملكية وتتيح لوزراء الملك أن يخطبوا في السادة الروحيين والعلمانيين ، وممثلي الفرسان والبورجوازيين بل وصغار رجال الكنيسة ، الذين كانوا يجتمعون من حين لآخر ، حول جدارة وصلاحية المسار المقترح للعمل الملكى . ومع بداية تسعينيات القرن الثالث عشر كان إدوارد قد جعل من نفسه أقوى ملك إنجليزى منذ هنرى الثانى . فقد استطاع تقليم سلطة البارونات بتشريع برلمانى يطلب منهم إيضاح المبرر الذى يبرر لهم حق الإحتفاظ بالسلطة الإقطاعية الخاصة ، وهو أمر كانوا يجدون صعوبة بالغة في إثباته أمام المحاكم .

وإعادة تثبيت الزعامة الملكية في إنجلترا على يد إدوارد هو الذى أتاح الموارد اللازمة لخوض الحرب ضد فرنسا سنة ١٢٩٤م . وقد نشبت هذه الحرب بسبب مزاعم كل من الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية حول كونتية الفلاندرز الغنية ، ولكن إدوارد دافع عن سياسته أمام البرلمان عى أساس أن الملك الفرنسى عدو للثقافة الإنجليزية . وكان هذا الزعم يحمل قدراً من المبالغة لأن الملك الإنجليزى والأمراء كانوا عادة يتحدثون الفرنسية ، بيد أن هذا الزعم يشى بأن إدوارد كان يرى في نفسه ملكا وطنيًا .

ورحبت الحكومة الفرنسية بالتحدى الذى طرحه الملك الإنجليزى . فقد كان الفرنسيون يأملون في انتزاع آخر الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوربية ، في مقاطعة جاسكونى Gas-cony ، وبهذا يستكملون توسع الدولة الفرنسية إلى ما يمكن اعتباره الحدود الطبيعية

للمملكة . ذلك أن شمبانى ونافار كانتا قد صارتا من أملاك التاج الفرنسى نتيجة لزواج تحالف ، كما كانت ليون وغيرها من المدن المستقلة فى إقليم الراين قد ضمت بموجب ذريعة قانونية من تلك التى برع فيها الإداريون الملكيون . وكان فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥)، ابن سان لويس ، رجلا خامل الذكر ترك الحكومة بأيدى وزرائه الرئيسيين ، وسمح لهم بمواصلة الإجراءات التعسفية التى كان لويس التاسع نفسه يعارضها . واستمرت عملية إحلال مؤسسات التاج المالية والقانونية الشاملة محل الاختصاصات الإقطاعية ، والأسقفية دونما توقف . وكان أى سيد إقطاعى أو هيئة تقاوم الإرادة الملكية تتعرض للاضطهاد والملاحقة حتى لايكون هناك من سبيل سوى الاستسلام . ولم تكن الحكومة الملكية قادرة على التغلب على النزعات الإقليمية لدى الأمراء الفرنسيين ، مما كانت نتيجته عدم استطاعتها الحصول على الموافقة على الضرائب فى مجلس واحد ، كما كان الحال فى انجلترا ، وحتى عندما اجتمعت الهيئة العامة Estates General فى سنة ١٠٣٢ م للمرة الأولى ، كان ذلك لأغراض دعائية خالصة ، ولم تكن لهذه الهيئة أية وظيفة من وظائف البرلمان الإنجليزي . وعلى الرغم من أن المملكة الفرنسية كانت أغنى وأكثر سكانا من انجلترا ، فإن الحكومة الكابية لم تكن تستطيع أن تجبى ضرائب كاملة على المملكة . ولكن الحصول على الموافقة من خلال مجال الأمراء الإقليمية ، والمفاوضات مع حكام المدن ، كانت توفر للملك الفرنسى من المال مايكفى لكى يجعله أغنى ملوك أوربا . فضلا عن أن الخزانة الفرنسية كانت تستطيع أن تحصل على نصيب من الضرائب البابوية المفروضة على الأكليروس بحجة أن هذه الأموال ينبغى أن تستخدم للأغراض الصليبية فقط .

كانت للسلطة الهائلة التى تمتعت بها الملكية الفرنسية عند ارتقاء فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) العرش تأثير مفسد على العاملين فى الجهاز البيروقراطى الملكى ، خاصة الوزراء الرئيسيين للتاج . فقد كان أولئك رجالا ذوى أصول اجتماعية متواضعة ، من أقاليم الفرسان أو من المناطق البورجوازية ، وشقوا طريقهم فى الحياة بفضل معرفتهم القانونية ومقدرتهم الإدارية بعد نضال مرير فى مطلع حياتهم . والموارد الهائلة التى كانوا يتحكمون فيها باسم الملك ، وقدرتهم اللامحدودة على تدمير من هم أرقى منهم اجتماعيا ، جعلت منهم أوغاداً متغطرسين بلا مبادئ ، ومنذ عهد فيليب أوغسطس اشتهرت البيروقراطية الفرنسية بمواقفها الصعبة ، وكان ذلك أمراً ضروريا لكى تتوحد البلاد حقا تحت حكم التاج . ولكن جنون

العظمة عند وزراء فيليب الرابع كان شيئًا جديداً . فإلى جانب القسوة والمراوغة ، كانوا يتصفون كذلك بالافتراء ، والابتزاز ، والاغتصاب . فقد اكتشفت حكومة فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر أسلوب « الكذبة الكبرى » ؛ وهو مايعنى أنه كلما كان الاتهام خياليا كلما كان من السهل تدمير الخصوم العاجزين . وتعلمت هذه الحكومة كيف يمكن تحويل الإجراءات القانونية إلى مؤسسة استبدادية حصينة . إذ كانت الإدارة الملكية تتصرف دائما ضد ضحاياها العاجزين فى إطار شكلى من الرسميات القانونية ؛ لأنها كانت قد اكتشفت أن مجرد استغلال الحكومة لواجهة المؤسسات القانونية فى توجيه أكثر الاتهامات كذبًا وزوراً كفيل بأن يغير الحقيقة ويلونها فى عقول العامة المظلمة . وليس من السهل أن نحدد الدور الذى لعبه الملك فى هذا كله - فإلى أى مدى كان هو يوجه فعلا هذه السياسة الشريرة ، أم أنه كان مجرد ضحية مكر وزرائه وخداعهم ؟ ويبدو أن الاحتمال الأخير هو الأرجح . فقد كان فيليب تقيا شجاعا كشخص ، ولكنه كان أيضا صامتا غبيا مما يجعل منه أفضل واجهة يمكن للبيروقراطية أن تنفذ خططها فى سترها . وكان وزراؤه وحوشا وغاية فى الاستهتار ، ولكن يبدو أن الملك كان يصدق أكاذيبهم الكبيرة بالفعل . ولم تكن ثمة صعوبات تواجههم فى إقناعه بشرعية هجماتهم على من يقف فى طريقهم ، بما فى ذلك نائب المسيح نفسه .

بعد موت سان لويس وجدت البابوية نفسها فى مواجهة صعوبات تتصاعد باستمرار . ذلك أن مؤسساتها القانونية والمالية كانت محل الانتقادات من سائر أنحاء أوربا ، بما فى ذلك رجال الكنيسة الذين وجدوا أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم البابوية، كما أنهم غالبا ماكانوا يلاقون الاضطهاد فى المحاكم البابوية . كان الكرادلة متعلمين وإداريين على مستوى طيب ، ولكنهم استحقوا سمعتهم السيئة بسبب المحسوبية والرشوة . إذ أن الإجراءات المتطرفة التى أتخذت ضد الهوهنشتاوفن أزعجت أصحاب العقليات الحساسة الذين كانت تراودهم الشكوك حول سلوك من يحتفظ بمفاتيح السموات (البابا) والذى يستخدم أساليب تناسب الطغاة الإيطاليين المشاغبين . فقد كان الفرنسسكان الروحانيون قد غرسوا بذور الفوضى حين قالوا إن الكنيسة والبابوية فشلت فى أن تسير على مبدأ الفقر الحوارى . ومرة أخرى ظهرت نزعة معاداة رجال الكنيسة ، ولكنها كانت فى هذه المرة موجهة بشكل مباشر ضد « الذئب » البابوى بشكل جعل من هذه النزعة العنصر السائد فى الأدب الغربى آنذاك . فضلا عن أنه كانت هناك مشكلات خطيرة داخل البلاط البابوى نفسه . فمنذ

القرن العاشر ، كان العرش البابوى محل نزاع بين الأسر الرومانية الطموحة على فترات متقطعة ؛ إذ كانت هذه الأسر ترى فى العباءة البابوية وقبعة الكردينال وسيلة للحصول على ثروات ملكية جديدة . وبالإضافة إلى الأحزاب التى ألفتها العائلات الأرستقراطية البارزة داخل هيئة الكرادلة ، كانت هناك أيضا مجموعة من الكرادلة الفرنسيين الذين تحمسوا لمطالب الملكية الفرنسية والحكم الأنجوى فى جنوب إيطاليا . وفى ظل هذه الظروف ، كانت تنتج عن كل انتخابات بابوية أزمة صغيرة وإشاعات فاضحة . وفى أوائل الثمانينيات من القرن الثالث عشر كانت البابوية فى وضع تسهل مهاجمته للغاية إذا ما ظهرت أية مشكلة كبرى فى أوربا يمكن أن تؤثر على مصالحها وتختبر عزم البلاط البابوى . وقد ثارت مشكلة من هذا النوع نجمت عن سلسلة غريبة وغامضة من الأحداث فى صقلية ، وظهر عجز البابوية من خلال ردود فعلها تجاه هذه الأزمة .

كان حكم أنجو صقلية وجنوب إيطاليا كريها فى نفوس المواطنين منذ البداية . فقد كان شارل أنجو ، بخلاف الحكام الهوهنشتاوفن السابقين ، لايستطيع أن يزعم أنه من سلالة البيت النورمانى الأصلى ، على الرغم من أنه تولى حكم هذه المناطق الغنية بترخيص من البابوية . ولم تكن معاملته لشعب صقلية وجنوب إيطاليا أفضل من معاملة نبلاء شمال فرنسا لأهالى لانجدوك فى مطلع هذا القرن . إذ كان ذلك مجرد اغتصاب جديد للأراضى على يد النبلاء الفرنسيين الذين لم يكن لديهم أدنى قدر من الاهتمام بصالح الشعب الذى قهروه وداسوا كرامته . وكان الحكم الأنجوى فى جنوب إيطاليا علامة البداية فى رحلة الأفول الطويلة التى قطعها هذا الإقليم ، الذى كان مزدهراً من قبل ليسقط فى هوة البؤس والفقر . وربما لم تكن كراهية الإيطاليين لتظهر لو لم يكشفوا عن كراهيتهم لطمع شارل أنجو فى امتلاك القسطنطينية . ففى سنة ١٢٦١ ، كانت المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، والتى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة ، قد قضت نحبها ، واستعاد أمراء باليولوجوس عرش القسطنطينية . وكانت موارد الدولة البيزنطية المحياة من جديد ضئيلة ، بحيث لم يستطع البيزنطيون كلهم أن يصمدوا فى وجه الأتراك حتى استطاع المسلمون فى نهاية الأمر أن يستولوا على المدينة الذهبية النائمة على ضفاف البسفور سنة ١٤٥٣م . وهكذا باءت بالفشل الخطة التى كان إنوسنت الثالث قد وضعها لإعادة توحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية نتيجة للغزو اللاتينى للقسطنطينية . وعلى مدى عشرين سنة أخرى اشترى الحاكم البيزنطى الحماية من

الهجوم المضاد ، بالموافقة على اتحاد شكلى بين الكنيستين . ولكن فى سنة ١٢٨١م أدان شارل أنجو سلوك الحاكم البيزنطى التظاهرى ووضع خطة لمهاجمة القسطنطينية . كان البيزنطيون قد نسوا كيف يحاربون ، ولكنهم لم يكونوا قد نسوا كيف يتآمرون . ولعب الجواسيس البيزنطيون والذهب البيزنطى دورهم فى توجيه الكراهية المريرة التى كانت تضطرم فى وجدان أهل صقلية، الذين هبوا سنة ١٢٨٢ ليذبحوا الحامية الفرنسية فى تمرد وحشى عُرف باسم الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers . والتفاصيل الدقيقة لحركة الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers [٣] حيرت الباحثين المؤرخين : إذ تجلت العبقرية التآمرية لأهل صقلية للمرة الأولى فى سنة ١٢٨٢ . ولكن من الواضح أن البيزنطيين كانت لهم الزعامة فى إشعال نار التمرد . وعلى أية حال فإن الصقليين أعلنوا ولاءهم لملك أرغونة الذى كانت زوجته هى ابنة مانفرد ، الإبن غير الشرعى لفردريك الثانى وآخر حاكم من الهوهنشتاوفن ، وقبل الملك الأسبانى صقلية ، وبعد أن نزل على أرض الجزيرة منع شارل أنجو من إعادة فتحها .

كان على العرش البابوى فى الوقت الذى حدثت فيه « الصلوات المسائية الصقلية » رجل فرنسى كان أداة بيدة شارل أنجو . فلم يكتف بتكريس موارد البابوية المالية لمساندة شارل فى حربه الاستردادية ، ولكنه أعلن أن عرش أرغونة يعتبر شاغراً ، وأعلن عن شن حملة صليبية

---

٣ - عرفت هذه الحركة الثورية المضادة للفرنسيين فى صقلية بهذا الإسم لأنها اندلعت فى يوم الإثنين عيد الفصح سنة ١٢٨٢ ، وبمجرد أنه دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء . وبشروق شمس الصباح كان كل الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم . وانتشر التمرد الذى عرف باسم صلوات المساء الصقلية فى سائر أنحاء الجزيرة . وكان هذا التمرد في جانب منه نتيجة للغزو الفرنسى للجزيرة فى سنة ١٢٦٦ حيث تم القضاء على حكم أسرة الهوهنشتاوفن . إذ كان يتزعم حركة التمرد مستشارو الملك مانفرد السابقون الذين ظلوا على ولائهم لابنته كونستاس زوجة بطرس الثانى ملك أرغونة الذى قدم مساعدته لأهل صقلية ضد الفرنسيين . ومن ناحية أخرى كان الإجراءات القهرية التى إتخذها شارل أنجو ضد أهل الجزيرة والضرائب الباهظة التى فرضها عليهم ، فضلا عن محاباته للتجار القادمين من بلاده ، واعتبار صقلية مجرد مورد للدخل - كان لكل هذا أثره فى غضب الصقليين . وانتهى التمرد بسقوط حكومة الأنجويين فى الجزيرة على حين فشلت جهود شارل فى سحق الحركة على الرغم من أنه كان يلقى التأييد والدعم من البابوية. ومن فيليب الثالث ملك فرنسا . وتم إعلان بطرس الثانى ، ملك أرغونة ، ملكا على صقلية بشرط أن يحكمها وفقا لقوانينها الخاصة وأن يعامل أهلها باعتبارهم سكان مملكة قائمة بذاتها .

انظر :

Robert S . Hoyt/Stanley Chodorow , Europe in the Middle Ages , pp.. 488-ff;S. Runciman , . The Sicilian Vespers (1957) .

ضد الجالس على هذا العرش . ولم يكن هناك أي مبرر أخلاقى أو دينى لهذا الإجراء المتطرف. فقد كان تجريد الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة شيئًا (بل إن الحملة الصليبية ضد الهوهنشتاوفن كانت على أساس معقول) ولكن تجريد حملة صليبية ضد أرغونة كانت شيئًا مختلفًا ؛ فقد كانت حملة صليبية سياسية تماما ، وكشفت عن مدى هوان المثال الصليبى . إذ كان ملوك أرغونة دائما طليعة الجنود المسيحيين ؛ وها هو الحاكم الأرغونى يجد نفسه الآن يعامل كما لو كان عدواً للكنيسة ولأسباب سياسية خالصة . ولكى يضمن الاستجابة الفرنسية للحملة الصليبية خلع البابا لقب ملك أرغونة على ابن فيليب الثالث ، بل إنه قدم للملك الفرنسى الدخل الذى توفر للكنيسة من الضريبة الصليبية التى فرضت على الأكليروس الفرنسى . وتقدم فيليب الثالث صوب أرغونة ، على حين كان شارل يحارب الصقليين والأسبان لكى يستعيد صقلية . وقد لقى الفرنسيون هزيمة مخزية فى كلتى الجبهتين بسبب قوة الأساطيل الصقلية والأسبانية ، والمرض الذى تفشى فى صفوف جيش فيليب ، فضلا عن شجاعة الأسبان ومهارتهم العسكرية .

كانت الحملة الصليبية الثانية ضد أرغونة هى الفصل الثانى فى المأساة التى أدت إلي تدمير بابوية العصور الوسطى . فعلى مدى السنوات العشرين التالية أرهقت البابوية مواردها فى جهد يائس لاستعادة صقلية لحليفها الأنجوى . ثم كان عليها فى النهاية أن تعترف بانقسام جنوب إيطاليا إلى مملكتين هما صقلية الأرغونية ، ونابلى الأنجوية . وكان فيليب الثالث قد مات وهو فى طريق العودة من حملته الصليبية الخائبة ضد أرغونة ، وقرر وزراء ابنه الذين كدرتهم الهزيمة الأولى للجيوش الفرنسية فى القرن الثالث عشر أن يجعلوا من البابوية كبش فداء . وزعموا أن البلاط البابوى لم يلتزم بتعهداته فى تأييد المشروع الفرنسى ، وأقنعوا فيليب الرابع بحقيقة هذه الافتراءات . وبعد سنة ١٢٨٥ صار موقف الملكية الفرنسية تجاه البابوية أكثر قسوة وأشد عناداً . ومن الواضح أن الوزراء الملكيين كانوا ينتظرون فقط حتى تسنح الفرصة المناسبة لسحق البابوية مثلما أخضعوا كل شئ فى بلادهم .

ولم يكن عليهم أن ينتظروا طويلا . ذلك أن الخصومات والمنازعات التى نشبت داخل هيئة الكرادلة بين العائلات الأرستقراطية الرومانية جعلت من كل انتخاب بابوى أمراً صعبا ومحفوفا بالمخاطر والفضائح . وأخيراً فى سنة ١٢٩٢ ، عندما كان العرش البابوى شاغراً ، قام كل من الفرقاء فى هيئة الكرادلة بإلغاء الفريق الآخر ، ولم يستطع أى مرشح أن يحصل

على ثلثى الأصوات اللازمة لفوزه . وعلى مدى عامين كان العالم المسيحى ينظر بهلع إلى الكرادلة الذين ظلوا يتشاجرون ويحيكون الدسائس حول عرش القديس بطرس الذى كان مايزال شاغراً . وتم التوصل إلى حل توفيقى مؤقت فى سنة ١٢٩٤ عندما وافق جميع الفرقاء على انتخاب البابا كلستين الخامس Celestine V الذى كان ناسكا إيطاليا مشهوراً وزعيما روحيا ذائع اليت . وقد ارتبك كلستين تماما بواجبات منصبه ، وبعد شهور قلائل من الفوضى فى البلاط البابوى هجر العرش البابوى . وكان « رفض كلستين العظيم » ، على حد تعبير دانتى ، فضيحة مدوية تسببت فى نزاع مرير ، لأنه لم يحدث أبداً أن تنازل البابا عن عرشه ، وزعم كثيرون من المخلصين أن وريث القديس بطرس لايمكنه الاستقالة من منصبه لأن البابا تختاره العناية الإلهية . وقال كلستين أن صوتا ملائكيا طلب منه التنازل ، على الرغم من الشائعات التى انتشرت لتقول أن هذه الرسالة إنما جاءت فى الحقيقة من الكردينال بندكت جايتانى Benedict Gaetani ، زعيم إحدى الفرق المتنازعة فى هيئة الكرادلة ، عن طريق أنبوب خفى . وتوقفت هذه الشائعات عندما انتخب جايتانى للعرش البابوى تحت اسم البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) ، وعندما توفى كلستين بعد ذلك بقليل ، زعموا أنه مات مسموما بأوامر من جايتانى .

ولم يكن هناك شئ يفوق الفضيحة التى ارتبطت ببابوية بونيفاس الثامن سوى انتهاك حرمة البابوية بالشكل الذى أودى بها . ذلك أن البابوية فى سنة ١٢٩٤ م كانت فى وضع مكشوف للغاية . إذ كان سلطانها على العالم المسيحى قد تضاءل إلى حد كبير ، كما كانت الملكيات فى شمال أوربا قد تطورت إلى النقطة التى تجعل أى خلاف مع البابوية يترجم فى الحال إلى عداء وعنف ضد روما . ولكن بونيفاس كان مفتونا بنظرية سمو السلطة البابوية وبمؤسسات الحكم الأوتوقراطى البابوى بحيث أنه لم يستطع أن يواجه حقائق الموقف ويكبح جماح نفسه عن التصرف الأخرق . وكان متطرفا عديم المسئولية مثل أى وزير من وزراء الملك الفرنسى . كما كان قانونيا ماهراً ، وإداريا ممتازا ، وصادقا فى إخلاصه للكنيسة . ولم يكن مفهومه عن المنصب البابوى يختلف بشكل أساسى عن مفهوم إنوسنت الثالث ؛ ولكنه كان يفتقر إلى مهارة إنوسنت السياسية وأسلوبه الدبلوماسى ، والواقع أنه واجه موقفا محفوفا بالمخاطر التى تهددت البابوية ، وكان هذا الموقف أخطر من الموقف الذى واجهه إنوسنت الثالث. ولم ينل بونيفاس الثامن سمعة طيبة ، سواء فى زمانه ، أو بعد ذلك ولكن بعض

الانتقادات التى وجهت إليه كانت انتقادات ظالمة . فليست غلطته أن الحكومة الفرنسية كانت تحت سيطرة رجال مخادعين غلاظ الأكباد ، فقد كان تجردهم الأخلاقى أمراً جديدا على العالم المسيحى . ولكنه أخطأ لأنه لم يعترف بوجود هذا الوضع الجديد وفشله فى تعديل السياسة البابوية بحيث تتناسب معه . وبدلا من ذلك اندفع بلا روية ، وادعى للسلطة البابوية أكثر الدعاوى تطرفا (على الرغم من أنها لم تكن هى المرة الأولى فى هذا الصدد) ، فلقى هزيمة مروعة .

ففى سنة ١٢٩٤ م كانت الحرب الحتمية بين المملكتين التوسعيتين فى انجلترا وفرنسا قد بدأت ولم تكن قد نشبت حرب كبرى فى أوربا منذ ثمانين عاما ، وسرعان ما اكتشفت كلتا الحكومتين أنها أخطأت فى تقدير النفقات العسكرية ، واستنزفت الحرب مواردهما بشكل قاس . وتطلعت كل من الحكومتين بحثا عن وسائل لزيادة الدخل الملكى . وكان المورد الأكثر وضوحًا هو فرض الضرائب على رجال الكنيسة ، وهو أمر كانت له سوابق مريبة فى مناسبات عديدة حين كانت الكنيسة تعطى للدولة نصيبا كبيراً من الضرائب الصليبية . وأدعت الحكومتان الملكيتان فى انجلترا وفرنسا أن هذا يعطيهما الحق فى فرض الضرائب على الأكليروس لأى غرض حربى ، وكانت ثمة حجة معقولة تدعم هذا الرأى . فقد بدا الفرق ضئيلا بين فرض الضرائب على رجال الكنيسة الفرنسيين من أجل الحرب ضد أرغونة من ناحية ، ومطالبتهم بتمويل الحرب ضد انجلترا من ناحية أخرى . أما الفرق الكبير ، فكان يتمثل فى أن البابا رفض الترخيص بالضريبة الجديدة واعتبرها خروجا صارخا على القانون الكنسى . ونشر المرسوم البابوى المعروف باسم Clericis Laicos[٤] ، الذى يقضى بعدم فرض أية ضرائب على رجال الكنيسة من قبل العلمانيين دون إذن بابوى ، وإلا كان العقاب هو الحرمان. وقد اتسم المرسوم البابوى بنغمته الحربية العنيدة . فالجملة الافتتاحية فيه تؤكد على أن «العلمانيين كانوا أعداء لرجال الكنيسة منذ أقدم العصور » ، وهى أكذوبة واضحة بالنظر إلى الحماسة الهائلة والإخلاص الذى أظهره العلمانيون ، وكانوا مايزالون يظهرونه ، نحو

---

٤ - أصدر بونيفاس الثامن هذا المرسوم فى ٢٥ فبراير سنة ١٢٩٦ لكى يحمى رجال الكنيسة فى انجلترا وفرنسا ضد الاستغلال المالى من جانب السلطات العلمانية . ويقضى المرسوم بمنع الأكليروس من إعطاء الدخل الكنسى إلى الحاكم العلمانى دون الحصول على إذن من البابوية بذلك ، كما يحرم على العلمانيين قبول هذا الدخل ونظراً لأن لهجته كانت قاسية وعنيفة فقد أثارت كلاًمن فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا . وبذلك كانت مقدمة لصراع عنيف طويل المدى . (المترجم)

الكثيرين من رجال الكنيسة . وكان لافتقار بونيفاس للقدرة على ضبط النفس والاعتدال أثره في رسم الحدود بين السلطة البابوية والسيادة الملكية ، وكان رد ملكي انجلترا وفرنسا على التحدى الذى طرحه مماثلا فى عنفه . فقد أثار إدوارد الأول مشاعر الرعب والهلع فى قلوب الأكليروس الإنجليزى حين سحب منهم الحماية التى كان يوفرها لهم القانون العام ، وأظهر وزراء فيليب الرابع نذالتهم بحملة شاملة من المضايقات والسباب من النوع الذى كانوا خبراء فيه . كما طردوا المصرفيين الإيطاليين من باريس وفرنسا ومنعوا تصدير أية أموال خارج المملكة لكى يحرموا البابوية من شطر كبير من مواردها ، وأصدروا وابلا من المنشورات ضد بونيفاس يؤكدون السلطة السيادية للملك على رعاياه وعلى وجوب التزام رجال الكنيسة بالمشاركة فى الدفاع عن المملكة . وتم إرغام البطريركية الفرنسية على إخبار البابا بأن رجال الكنيسة سوف يعتبرون أعداء الدولة إذا لم يدفعوا الضرائب لتمويل الحرب الوطنية . وارتبك بونيفاس وارتعدت فرائصه ، وسرعان ما استسلم واعترف بأن ملك فرنسا له الحق فى فرض الضرائب على رجال الكنيسة فى مملكته ، وكان معنى هذا التسليم بحق جميع الحكام العلمانيين فى فرض الضرائب من أجل الدفاع عن ممالكهم . كان هذا اعترافًا صريحًا من البابوية بسيادة سلطة الدولة على الكنيسة الوطنية . وكانت تلك هى غلطة بونيفاس الثانية ، لأنها كشفت لوزراء شارل الرابع أنه يمكن إجبار البابوية على الخضوع بسهولة ، مما حفزهم على القيام بإجراءات أكثر تطرفا .

وحانت الفرصة للعنف الجديد فى سنة ١٣٠١ . فقد كانت سنة ١٣٠٠ مناسبة عيد كبير للكنيسة . وكان آلاف من الحجاج قد شقوا طريقهم صوب روما وهللوا للبابا فى غمرة المهرجانات الدينية . هذه المظاهرات أعادت لبونيفاس ثقته وغطرسته . فإذا كان شعب أوربا يدين بمثل هذا الولاء لنائب المسيح . فما الذى يدعوه للخوف من الملوك ؟ وكان على استعداد للدخول فى صراع جديد ضد الملكية الفرنسية ، على ألا يستسلم هذه المرة . وفى الوقت نفسه كانت الإدارة الملكية قد وجدت أن أحد أساقفة لانجدوك شخص متعب وصعب المراس ؛ فقد كان هذا الأسقف جنوبيا متعصبا يكره الشماليين لأنهم غزوا بلاده . قرر وزراء فيليب أن يجعلوا من هذا الأسقف المتمرد عبرة لمن يعتبر . وباستخدام أساليبهم المعتادة من الكذب والافتراء والحيل والذرائع القانونية ، تسببوا فى القبض عليه بتهمة الخيانة ، وطلبوا من البابا ، بصفاتهم المستهترة المعتادة ، عزل سجينهم من منصبه الأسقفى حتى يمكن عقابه على

جريمته الملفقة . وردّ بونيفاس على الاستفزاز بنفس الطريقة المتطرفة . إذ أوقف تنازله السابق للملك فرنسا بفرض الضرائب على رجال الكنيسة ، ووجه انتقادات قاسية إلى فيليب بسبب النهج اللاأخلاقي الذى تنتهجه إدارته ، ثم دعا إلى عقد مجمع لرجال الكنيسة الفرنسيين فى روما لإصلاح الكنيسة فى مملكة فيليب . وفى سنة ١٣٠٢ أصدر مرسوما بابويا آخر لإرساء السلطة الكنسية عرف باسم Unam Sanctam[٥] يزعم فيه أن كلا من السيف الروحى والسيف الزمنى بيد نائب المسيح على الأرض ، وإنه إذا كان هناك ملك لايستخدم السيف المدنى الذى أعير إياه على نحو صحيح يمكن للبابا أن يخلعه عن عرشه . وخلص من هذا إلى تأكيد وتوطيد السلطة البابوية : « **ونحن نعلن ، ونصرح ، ونحدد أن الخضوع لبابا روما ضرورى جداً لخلاص كل مخلوق بشرى** » .

وقيل إن أحد وزراء فيليب الجميل علق عند قراءة مرسوم بونيفاس الأخير بقوله : « **سيف سيدى من الصلب ، وسيف البابا من ناقلة القول** » . ويبدو أن لهجة المرسوم البابوى العنيفة قد صدمت الملك نفسه ، ولكن وزراءه لم يخشوا شيئًا . فقد كانت ثقتهم كاملة فى فعالية أساليبهم الاستبدادية التى سحقت العديد من خصوم سلطة الدولة فى غضون العقدين السابقين، فأخذوا يوجهون سلاح الكذبة الكبيرة ضد البابا ، وهو سلاح مسموم . كانت القوة الرئيسية فى الإدارة الملكية آنئذ متجسدة فى شخص وليم النورجارتى William of No-garet ، الذى كان رجل قانون معاديا لرجال الكنيسة ، عنيفا من أهل الجنوب ، ويبدو أن تصرفه كان رد فعل تجاه محاكم التفتيش العاملة فى موطنه ، فقد كان يتصرف بدافع من الكراهية العمياء للكنيسة . وفى أول اجتماع للهيئة العامة Estates General قرأ قائمة طويلة من الاتهامات الموجهة ضد بونيفاس ، واتهمه بكل جريمة ممكنة ؛ بداية بالهرطقة

---

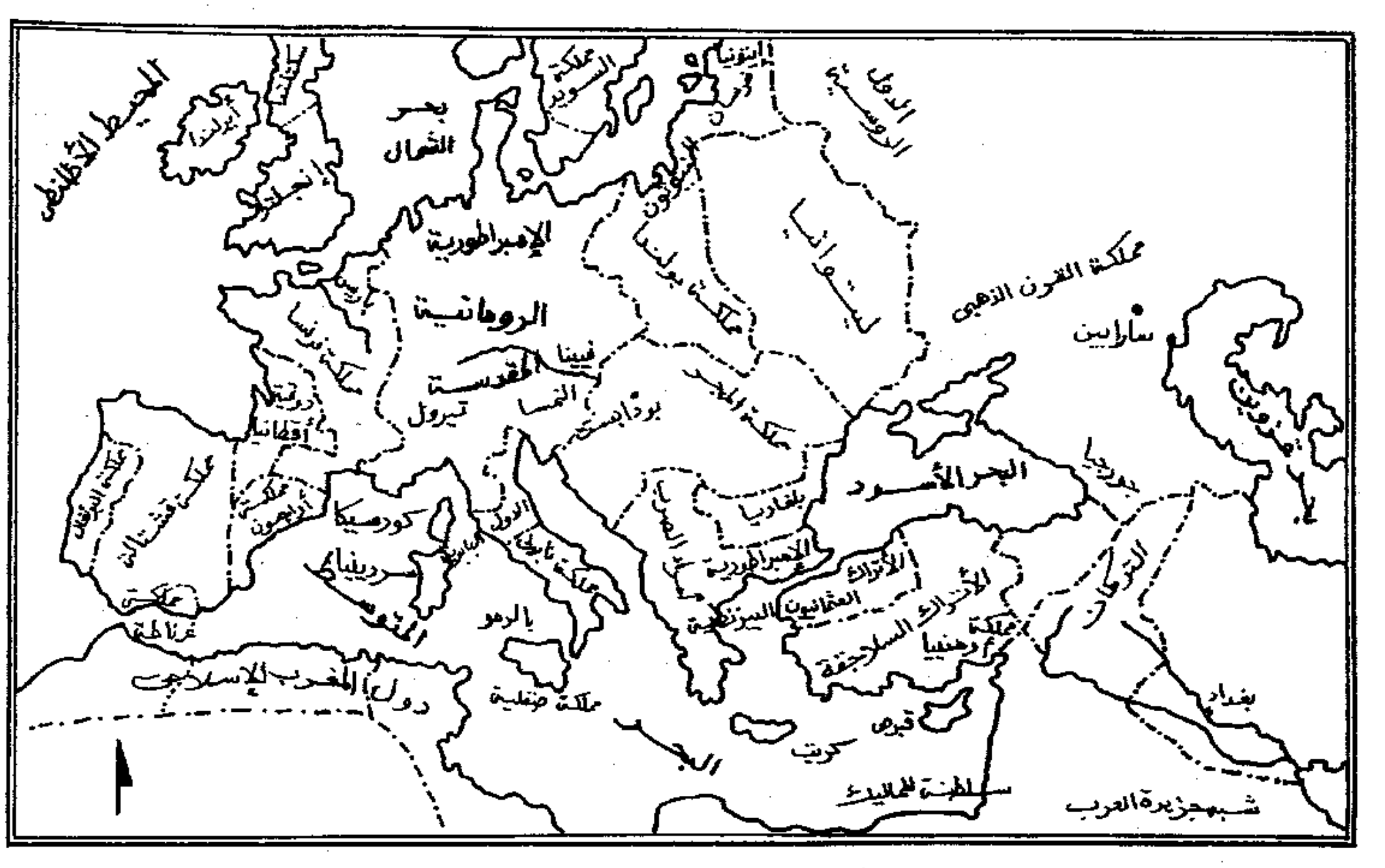
٥ - صدر هذا المرسوم البابوى سنة ١٣٠٢ لتأكيد تفوق السلطة البابوية ، وقد صدر بمناسبة الصراع بين بونيفاس الثامن وفيليب الرابع حول فرض الضرائب على رجال الكنيسة ، وولاء الكنسيين فى فرنسا . والمرسوم عبارة عن تجميع لعملية استمرت مائتى سنة ، وهو يجمع كل الحجج والقرائن التى تؤيد السمو البابوى منذ حركة الإصلاح الجريجورى فى منتصف القرن الحادى عشر . ويؤكد المرسوم على وضع البابا باعتباره زعيم الكنيسة وواجبه فى حماية مصلحة الكنيسة وتوجيه الشئون العلمانية فى خدمة الهدف الكنسى « فمن الضرورى أن يخضع كل مخلوق بشرى لبابا روما حتى يحصل على الخلاص لروحه » .

T.S.R. Boase , Boniface VIII (1933) ; H. Bettenson , (ed), Documents of thr Christian Church, (1943) .

والاغتيال حتى انعدام الخلق وممارسة السحر الأسود . وصور البابا على أنه عدو للكنيسة ، وأكد أن من واجب « كل ملك مسيحى » يحكم فرنسا أن ينقذ الكنيسة من هذا الوحش . وكان عامة العلمانيين يصدقون أن اتهامات نوجاريه للبابا صحيحة ، كما أن رجال الكنيسة سايروا هذه الأكاذيب المختلقة ، من ناحية لأنهم ارتبكوا بسبب عنف الاتهامات ، ولأنهم كانوا خائفين من ناحية أخرى . وعلى مدى نصف قرن من الزمان تعودت أوربا على اللغة المتطرفة والإدانات التى تبادلها كل من الحكام العلمانيين والبابوية ، بل تبادلها الكنسيون أنفسهم فيما بينهم . هذا التراث من التهم القاسية زادت من سرعة التصديق حتى بين المخلصين والأذكياء من الناس ، كما أن الاستخدام المستمر للسباب والشتائم فى المجادلات والمناقشات ترك أثراً سلبيا على المسار الأخلاقى فى أوربا لدرجة أن الناس صاروا على استعداد لقبول أكثر الاتهامات شذوذا حتى ضد البابا . وحين قال نوجاريه أن دليله على ما أدعاه من أن البابا مهرطق هو ما كان البابا قد أعلنه من قبل عندما صرح بأنه يفضل أن يكون كلبا على أن يكون فرنسيا ، مما يشير إلى أنه لم يكن يؤمن بالروح - حين قال نوجاريه هذا أومأ الرجال المخلصون الأمناء برؤوسهم معلنين موافقتهم الأكيدة على هذا .

لقد سيْقَ بونيفاس إلى الحائط أمام الحكومة الفرنسية ؛ ولم يترك له سوى السلاح الأخير فى الترسانة الروحية البابوية . فذهب إلى قصر عائلته فى أناجنى Anagni لكى يجهز مرسوما بابويا بقرار الحرمان وخلع الملك الفرنسى . ولكنه لم يتوقع العنف المادى الذى كانت الحكومة الفرنسية تعده ضده . فقد تم ارسال نوجاريه فى مهمة سرية إلى إيطاليا للقبض على البابا والعودة به إلى فرنسا لمحاكمته . واستطاع نوجاريه أن يعتقل البابا فى أناجنى بفضل مساعدة الأعداء الشخصيين من النبلاء الإيطاليين ، وبفضل تعمد بعض الكرادلة لتجاهل الأحداث ، ومضى فى طريقه صوب الشمال . ومن الصعب أن نقول إن نوجاريه كان يأمل فى العودة ببونيفاس إلى فرنسا ، إذ أن أهل أناجنى وأقارب بونيفاس من النبلاء استطاعوا تحريره وأعادوه إلى روما ، حيث مات بعدها مباشرة ، حزين الخاطر كسير الفؤاد . والشاعر دانتى ، الذى كان قد أدان بونيفاس ورفض الاعتراف بشرعيته ، فهم أن الأحداث التى جرت فى أناجنى كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحضارة . فقد قال أن « بيلاطس الجديد » هو الذى سجن المسيح فى شخص نائبه وتسبب فى موته . وكانت أوربا تنتظر فى شغف لترى الفصل التالى من هذه المأساة المروعة .

كانت الكنيسة آنذاك فى حاجة إلى إنوسنت الثالث أو جريجورى السابع من جديد ، ولكنها بدلا من ذلك حصلت على بندكت الحادى عشر ؛ وهو راهب دومينيكانى هياب ، وقع قرار الحرمان على نوجاريه ، ولكنه برأ ساحة فيليب . وعلى امتداد سنة كاملة نشب صراع مرير بين الحزب الموالى للفرنسيين فى هيئة الكرادلة والحزب المعادى لهم . وتم عقد اتفاق وسط أدى إلى انتخاب كبير أساقفة بوردو تحت اسم كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤) ، وهو رجل كان يفترض أن يكون تلميذاً مخلصا لبونيفاس ، ولكنه أقام علاقة سرية مع الإدارة الملكية الفرنسية . وعلى أية حال فإنه كان يخشى الملك الفرنسى ، كما كان يعانى المرض باستمرار طوال بابويته تقريبا ، وربما كان مصابا بالسرطان . وسيكون من الصعب أن نتخيل اختياراً أسوأ من هذا ؛ إذ أن كليمنت جعل من مأساة أناجنى كارثة دائمة على البابوية . بل إنه لم يذهب قط إلى روما ، وإنما أقام فى مدينة أفينون Avignon الصغيرة التابعة للإمبراطورية الألمانية ، والتى تقع عبر نهر الرون خارج خط الحدود الفرنسية مباشرة ، بحجة الظروف السياسية المضطربة فى الولايات البابوية ، مما جعله داخل نطاق النفوذ الملكى الفرنسى تماما . وكان « **الأسر البابلى** » للبابوية تعجيلا بتدهور هيبة البابوية فى شتى أنحاء أوربا . ذلك أن الحكومة الإنجليزية ، بصفة خاصة ، اعتبرت بابوية أفينون مجرد أداة فى يد الملكية الفرنسية ، وكانت تلك هى الحقيقة . وقد شجع هذا على إنسحاب الكنيسة الإنجليزية من نطاق السيطرة البابوية وزاد من سرعة هذا الإنسحاب . ولكن وزراء فيليب لم يقنعوا بهذا الهوان الذى حاق برأس الكنيسة ، وهددوا بمحاكمة بونيفاس غيابيا إذا لم يستسلم كليمنت لمطالبهم تماما . وقام البابا المغلوب على أمره بتبرئة نوجاريه وألغى مرسوم السلطة المقدسة الواحدة Unam Sanctum بل وأعاد الكرادلة الذين تواطأوا على اعتقال نوجاريه لبونيفاس إلى مناصبهم . ومضى نوجاريه ومساعدوه ، بعد أن تخلصوا من أى تدخل بابوى ، فى استخدامهم لأسلحة السباب ، والابتزاز ، واتخاذ الذرائع القانونية للقضاء على فرسان الداوية فى سبيل الاستيلاء على ودائع بنك الداوية فى باريس لصالح الخزانة الملكية . فاتهموا الداوية بالهرطقة واللواط ، واقتنع قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان بإدانة زعماء الداوية بناء على شهادة بعض شهود الزور . وقام كليمنت الخامس بدوره الصورى فحل جماعة الفرسان الداوية ، على حين استولت الخزانة الفرنسية على أكبر بنك فى شمال أوربا من أجل الحصول على مزيد من الموارد لتمويل الحرب ضد انجلترا .



أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى

وهكذا ، عندما أخذت شمس العقد الأول من القرن الرابع عشر تميل نحو الغرب كانت الدولة فى أوربا قد حققت لنفسها وضعا سياديا وأجهزت على بابوية العصور الوسطى . ولم تكن البابوية بقادرة على التصدى لإرادة الملوك الفرنسيين والإنجليز ، الذين كانوا آنذاك يمارسون سلطانهم على الشعب دونما قيود الموافقات الأخلاقية . إلا أن ملوك انجلترا وفرنسا لم ينعموا بسلطتهم المطلقة طويلا . إذ أن إدوارد الأول ، ووزراء فيليب الجميل كانوا قد أساءوا حساب مواردهم وبالغوا فى تقديرها . لقد كانت أدوات الإستبداد أموراً جديدة على حضارة العصور الوسطى ، ولم يكن الناس قد تعلموا بعد كيف يسيطرون على هذه الأدوات . وتحولت الحرب بين ملوك انجلترا وفرنسا إلى حرب جلبت الدمار على كل من الطرفين . ذلك أن الضرائب الباهظة للغاية التى كان لابد من فرضها على السكان أدت فى النهاية إلى تفشّى مشاعر السخط والتمرد . وواجه إدوارد الأول ، فى سنى حياته الأخيرة ،معارضة قوية من الأمراء الذين اعترضوا بمرارة على محاولاته لفرض ضرائب جديدة أشد وطأة ، واكتشف خليفته إدوارد الثانى أن البرلمان يمكن أن يستخدم كوسيلة للحد من السلطة الملكية ، مثلما استخدم من قبل لتعزيز هذه السلطة . ففى سنة ١٣١١ انتزع مجلس البارونات حق إدارة المملكة ، كما كان الأمراء قد فعلوا من قبل فى عهد هنرى الثالث . وفى سنة ١٣١٥ ، أى فى السنة التى أعقبت وفاة فيليب الجميل أجبرت مجالس النبلاء الساخطين فى الأقاليم الفرنسية الملك الجديد على إصدار مواثيق تؤكد امتيازاتهم الإقطاعية . وتاريخ كل من انجلترا وفرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لايتميز باستمرار نمو السلطة الملكية وإنما باعادة تأكيد الامتيازات الأرستقراطية ، وإحياء زعامة كبار النبلاء فى المجتمع . فقد تعلمت الطبقة الارستقراطية من الملكية فى أواخر القرن الثالث عشر مواقفها العنيفة وأساليبها القاسية واستخدمتها ضد السلطة الملكية . ولأن الزعماء الملكيين فى المجتمع كانوا قد هدموا المستويات الأخلاقية ، فقد شاعت التصرفات المخادعة الأنانية فى المجتمع آنذاك . لقد كانت الدولة الأوربية فى القرن الثالث عشر قد تمادت كثيراً بانتهاكها لكل مستويات التحضر والأمانة بحيث أفسدت الأسس الأخلاقية للحياة الاجتماعية وجعلت الناس أنانيين غلاظ الأكباد في علاقاتهم بالحكومة الملكية . وكان على قادة المجتمع الأوربى أن يعوا الدرس المرير بأن السلطة المطلقة تدمر نفسها ، لأنه لايوجد مجتمع يمكنه أن يتحمل غياب قدر من النظام الأخلاقى دون أن يتردى فى هوة الفوضى واليأس .

الجزء التاسع

نهاية وبداية

القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

« فى إيطاليا ... يصبح المرء فرداً روحيا ويتعرف على نفسه » .

– جاكوب بوركهارت

« القرن الخامس عشر فى فرنسا والأراضى الواطئة مايزال من قرون العصور الوسطى قلبا ... ولكن كافة هذه الأشكال والصياغات كانت فى سبيلها للزوال ... إن المد يتحول ونغمة الحياة توشك أن تتبدل ... » .

– يوهان هويزنجا



الفصل الثانى والعشرون
بين عالمين

١ - « الخريف » و « النهضة » :

عرفت الفترة التى تمتد ما بين الربع الثانى من القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر بالعصور الوسطى المتأخرة ، كما عرفت باسم عصر النهضة أيضا . وكان المصطلح الأخير شائعا للغاية بين المؤرخين فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يواجه أي تحد حتى أربعين سنة خلت . هذه الرأى عن الفترة ما بين سنة ١٣٢٥ وسنة ١٥٠٠ كان محكوما بكتاب واحد هو كتاب جاكوب بوركهارت « حضارة النهضة فى إيطاليا » الذى نشر سنة ١٨٦٠ م . فقد كان بوركهارت نفسه إعادة تجسيد لحركة النهضة Der Renaissancemensch التى أعجب بها كثيراً ، لأنه كان حضريًا ، صاحب ذوق جمالى ، عارفًا بمعظم ميادين الثقافة الراقية دون أن يتشبث إطلاقا بأى منها . كان هذا الرجل الذى هو من سلالة الأرستقراطية فى باسل Basl يقدر الفردية ، والتعبير الحر ، وتطور العقل ، ويعلى من شأنها فوق كافة القيم ، فظن أنه رأى فى إيطاليا القرنين الرابع عشر والخامس عشر المكان والزمان اللذين شهدا تحرر الفردية من أغلال حضارة العصور الوسطى التى كانت نتاجا لخضوع الفرد للجماعة والكل . ويقول بوركهارت أن المدن الدول City-States الإيطالية خلقت نوعا جديدا من الصفوة الاجتماعية التى كان أفرادها يفكرون فى ذواتهم باعتبارهم أفراداً ، وليس باعتبارهم أعضاء فى مجموعة جامعة . لقد وجد الإيطاليون فى الناس فى العالم القديم أرواحا شبيهة بأرواحهم ، لأنهم كانوا نتاج نفس الحياة الحضرية المتحضرة ، كما أنهم استخدموا التراث الكلاسيكى كمرشد لهم إلى معرفة العوالم المادية والفكرية ، مما تمثلت نتيجته فى أنهم تخلوا عن النظرة « الخيالية » و«الطفولية» التى عرفتها أوربا العصور الوسطى و « أعادوا اكتشاف الإنسان والعالم » .

ولم يكن تفسير بوركهارت مبتكراً تماما ؛ إذ أن جزءاً من مفهومه عن تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر يمكن أن نجده فى كتابات الرومانسى الفرنسى جوليه ميشيليه Jules Michelet الذى عاش فى مطلع القرن التاسع عشر ، وفى كتابات الإنسانيين الإيطاليين أنفسهم بطبيعة الحال . ذلك أن المفكر الإيطالى الكبير بترارك ، الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، كان مدركا تماما للفاصل الثقافى بين زمانه وبين « العصور المظلمة » .

كان تفسير بوركهارت موضوعا لمجادلات ومناقشات واسعة وحامية بين المؤرخين على مدى سنوات طوال ؛ ومضى وقت كانت فيه الجمعية التاريخية الأمريكية تضع فى جدول أعمالها للاجتماع السنوى جلسة موضوعها « النهضة - هل كانت أم لم تكن ؟ » وكان المتخصصون فى تاريخ العصور الوسطى حساسين تجاه الاحتقار المزرى الذى كان مؤرخو عصر النهضة يبدونه تجاه العصور الوسطى ، وكان بهم شغف إلى إيضاح أن الفترة العظمى فى الإنجاز الثقافى جاءت فى القرن الثانى عشر وليس فى القرن الرابع عشر ، وأن العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أبعد من أن تكون فترة بعث وإحياء ، كانت فترة من التفكك والفوضى ، والظلام ، والفشل . وكان أعظم نقاد بوركهارت هو المؤرخ وعالم الاجتماع الهولندى يوهان هويزنجا Huizinga ، الذى كان يشبه بوركهارت من حيث كونه صاحب أسلوب حيوى ، ومن حيث ميله إلى بناء دراسته حول أنماط نموذجية مستمدة من سياق الفترة التاريخية . وكتاب هويزنجا « خريف العصور الوسطى » (الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان Ahe Waning of the Middle Ages أى شحوب العصور الوسطى) لم يسترع الانتباه كثيراً حين نشر للمرة الأولى فى عشرينيات القرن العشرين ؛ إذ كان المؤرخون آنذاك واقعين تحت تأثير الوضعية تماما ، ولم يكن بهم ميل إلى تقدير باحث يستخدم الآداب والفنون التشكيلية كبرهان تاريخى، وبعد ربع قرن من نشر الكتاب فى أول مرة ، لقى كتاب هويزنجا اعترافا واسع النطاق بصلاحية منهجه وتمكنه . وقد زعم هويزنجا أنه بفحص فرنسا والأراضى الواطئة فى القرن الرابع عشر لم يستطع أن يجد دليلا يؤيد رأى بوركهارت عن النهضة ؛ بل أنه بدلاً من ذلك وجد اليأس والهزيمة فى كل مكان . فرقصة الموت ، على سبيل المثال ، كانت عنصراً شائعًا للغاية فى الفن والأدب فى العصور الوسطى المتأخرة . وقد كشفت دراسة هويزنجا لبلاط برجنديا عن أن الأرستقراطية كانت تحيا حياة نمطية تماما تخلو من الفردية ؛ والحقيقة أن بلاط برجنديا قد اشتهر باتباع تقاليد عفا عليها الزمن ، وهى علامة أكيدة على التحجر الثقافى . بل أن هويزنجا يقول إن المذهب الطبيعى الذى حكم الفن فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لايدعم الرأى الذى يزعم بأنه كانت هناك نهضة آنذاك . فالنزعة الطبيعية التى بدأت بجيوتو Giotto[1] عند نهاية القرن الثالث عشر فى إيطاليا ، وبلغت أوجها فى الفن الفلمنكى فى

---

١ - هو جيوتو دى بوندون Giotto di Bondone (١٢٦٦ - ١٣٧٧) ، وهو رسام ولد فى كول Cole بالقرب من فلورنسا التى عمل فيها وفى روما ونابولى وغيرها من المدن الإيطالية . وفى سنة ١٣٣٠ عينه =

أخريات القرن الخامس عشر ، إنما هى فى الواقع من أعراض التحلل الثقافى - فالحقيقة أن المجتمع الأوربى بصفة عامة لم يعد يستطيع التمسك بالرموز .

وليس من الضرورى أن نتطرف فى الاتجاه المضاد لبوركهارت بحيث لانعزى إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أى قدر من الأصالة ، مثلما فعل بعض المتخصصين فى العصور الوسطى ، لكى نتفهم خطوط التطور فى تلك الفترة . ولامهرب لنا من أن نعترف بالحقيقة الأولى القائلة بأن منطقة شمال الألب كانت تشهد حضارة قديمة تتمزق ، ولم تكن تشهد حضارة جديدة صاعدة . إذ أن النغمة السائدة فى الحياة كانت نغمة يأس وخيبة أمل ، ولم تكن نغمة إبداع وعزم على النجاح . وليس معنى هذا أن دلائل النجاح والإرادة كانت غائبة ، وإنما يعنى أنها كانت أقل أهمية من دلائل اليأس والخيبة . وتبدو إيطاليا كحالة خاصة ، على الرغم من كونها حالة هامة للغاية ، لأن اقتصادها ومؤسساتها السياسية مهدت لظهور نموذج الحضارة الحديثة . وفى المدن الإيطالية استمر تطور المؤسسات الرأسمالية وتزايد الولاء للدولة مع هبوط طفيف فى القوة الدافعة . وفى مناطق شمال الألب كان الموقف جد مختلف . ففى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، والفلاندرز كانت حضارة العصور الوسطى تعانى سكرات الموت التى كانت هى نفسها آلام المخاض الذى سبق مولد العالم الحديث . وعموما فإن القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانا بمثابة عصر ينظر فى اتجاهين ، مثلما كان فى الحال فى القرن الرابع .

ولايقلل من قيمة بعض الأفكار والمواقف التى سادت فى مدن الشمال الإيطالى - التى كانت تطلعا واستشرافًا لآفاق العالم الحديث على الرغم من أنها لم تكن جديدة - أن نصف نموذج التطور العام فى أخريات العصور الوسطى بأنه تطور يتميز بالحرب ، والعنف ، والمرض،

= روبرت ملك نابولى عضوا فى بلاطه الملكى Familiaris regis ثم ترك بلاط نابولى فى سنة ١٣٣٤ حين قدمت له مدينة فلورنسا منصب المشرف على الأعمال الفنية . وكان يستلهم موضوعات الكتاب المقدس ، واستخدمت هذه الرسوم فى تزيين العديد من الكنائس الإيطالية ، ولاسيما فى فلورنسا . وعينه البابا بونيفاس الثامن لكى يرسم صور كنيسة القديس بطرس فى روما . وكان جيوتو يرسم أيضا على الخشب واستحدث أسلوبا جديداً لحفظ الألوان على اللوحات الخشبية . وبدأ عصراً جديداً فى الرسم حين تخلى عن الأسلوب البيزنطى ، وحاول أن يجذب الانتباه نحو تصوير أكثر واقعية للموضوعات الإنسانية ، مع التزامه بالمثل الفرنسسكانية . ولكى يحقق هذا استخدم الملامح المكانية ، وكان أول من ينتج التأثيرات الفراغية ، وهو أسلوب عرف به عصر النهضة . وكان مشهوراً جداً فى زمانه لدرجة أن دانتى ذكر اسمه فى الكوميديا الإلهية .

(المترجم) .

والتمرد الاجتماعي ، فضلا عن القلاقل السياسية ، والتعاسة والبؤس العام . فقد كشفت البحوث التي أجريت في السنوات العشرين الأخيرة عن أن المتاعب الاقتصادية كانت هي سبب السخط والمرارة الواضحة في العصور الوسطى المتأخرة . ففي انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا كانت هناك حال من الإنكماش والهبوط الطويل المدى منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر حتى مابعد سنة ١٤٥٠ بقليل . كما أن منحنى السكان الذي كان يرتفع باطراد منذ منتصف القرن العاشر ، هبط فجأة عن مستواه ، وربما يكون قد تدهور حتى قبل ذلك الوباء الكاسح الذي حمل في طياته أكثر من ربع سكان أوربا . وهو الوباء الأسود Black Death الذي اجتاح أوربا في منتصف القرن الرابع عشر . إذ توقفت حركة بناء الضواحي الجديدة والأسوار الجديدة في مدن أوربا ، وربما كان حجم التجارة العالمية في سنة ١٤٠٠ أقل منه في سنة ١٣٠٠ ، على الأقل في مناطق شمال الألب . ومن المؤكد أن الأرض قد صارت بوراً في انجلترا وألمانيا ، كما أوضحت الدراسات الاحصائية . ويبدو أن هذا كان نتيجة إنهاك التربة والتدهور السكاني.

هذا التدهور الطويل المدى يفسر الحدة والقلق اللذين اعتريا الناس في أوربا أواخر العصور الوسطى ؛ فقد وجد السادة الإقطاعيون أن ايجاراتهم تتضاءل قيمتها ، كذلك واجه البورجوازيون وقتا عصيبا . وإذا ما عرفنا النتائج المدمرة للهبوط الاقتصادي الكبير الذي حدث في ثلاثينيات القرن العشرين ، فلن يدهشنا أن الناس في القرن الرابع عشر كانوا يلجأون إلى جميع الوسائل اليائسة لحل مشكلاتهم التي كانت أسبابها غامضة بالنسبة لهم ، بقدر أكثر من غموض أسباب الانكماش الاقتصادي في القرن العشرين بالنسبة لنا . فقد خانوا ، وخلعوا الملوك عن عروشهم ، واغتالوهم ؛ واشتبكوا في حروب وحشية ضد بعضهم البعض ، وحاولوا الحصول على المساعدة الإلهية من خلال التجارب الصوفية أو عن طريق المذاهب الهرطقية ؛ كما أنهم كانوا يحرقون السحرة . ولكن شيئًا من هذا لم يكن ذا فائدة بالنسبة لهم .

لقد كان العالم على بداية طريق الشيخوخة في عيون الناس في العصور الوسطى المتأخرة ، مثلما حدث مع الرومان في القرنين الثالث والرابع . وبدت متاعب زمانهم وكأنها تمهيد لنهاية العالم وتمهيد للأشياء الأخيرة ، تمهيد ليوم القيامة وقدوم المسيح لذبح المسيح الدجال . وكان العصر مناسبا لتكاثر المذاهب الصوفية ، والأخروية ، فضلا عن المذاهب الهرطقية . وتكلم

بعض المؤرخين عن « نمو الروح العلمانية » فى القرن الرابع عشر . وهذا العصر يتميز حقا بتعزيز الثقافة الدنيوية ، ولكنه كان أيضا عصراً أستشرت فيه المذاهب الدينية فى أكثر أشكالها كثافة وتنوعا . إذ أن الناس فى العصور الوسطى عادوا إلى البحث عن ملاذ ومهرب من إخفاقهم وبؤسهم فى مجال الحكم والاقتصاد عن طريق اللجوء إلى مملكة الرب بداخلهم . وكان بهم شغف إلى سماع المعلمين الدينيين الجدد ، كما كانوا تواقين إلى سماع الخطب والمواعظ الدينية العاطفية ، فقد كان الفن الدينى يهزهم من الأعماق . وبقدر ماكان عنفهم وانشقاقهم فى كثير من العلاقات الاجتماعية ؛ كانوا مخلصين ومبالغين فى علاقتهم بالرب ، وهذه خاصية من خصائص عصر كان يحفل بالعذاب والغموض ، عصر انتقال وتحول ، وهو عصر إما تطرح فيه القيم والمثل العليا جانبا ، وإما يلتزم الناس بها فى تعصب شديد .

أما الكنيسة فكانت بحاجة إلى رجل من طراز إنوسنت الثالث وآخر من طراز سان فرنسيس لكى يتحكما فى هذه الانبثاقات الجديدة لمشاعر التدين فى العصور الوسطى المتأخرة ، ولكن الزعامة الكنسية كانت عاجزة عن أداء المهمة المطلوبة . ولم تكن هذه غلطة الكنيسة وحدها . لأن البابوية كانت قد أسرت فى أفنيون وتحولت إلى دمية بيد الملكية الفرنسية . وكانت النتيجة إنهياراً سريعًا للنظام ، إذ أخذ الصرح العظيم الذى كان إنوسنت الثالث قد أقامه يتصدع باطراد ثم انهار تماما . وإذ أنهار المركز الحيوى حدث التدهور العام فى كافة جوانب الحياة . فقد تجاهل الكنسيون القيام بزياراتهم الرعوية ، وأتيح للأساقفة أن يهتموا بمصالحهم الخاصة ، وفى كثير من الأحيان لم يكن قساوسة الأبرشيات يخضعون لأى إشراف؛ كما أن النظم الرهبانية فقدت حماستها وشهرتها ، بما فى ذلك الفرنسسكان والدومينيكان . وحاول بعض المؤرخين أن يحطوا من شأن بابوية أفنيون ؛ فهناك من المؤرخين من يحاولون الحط من قيمة أى شئ . كانت بابوية أفنيون مسيحًا دجالاً جاء ليحط على الكنيسة كالوباء ؛ فقد كان بابوات أفنيون إداريين مهرة ، ولكنهم كانوا أيضا أنانيين ، وكانوا رجالا قصار النظر لم يكن يعنيهم شئ أكثر من ملء خزائنهم بعوائد الضرائب الكنسية ، التى كان يتم تحصيلها عادة من خلال الصفقات المشبوهة مع الحكومات الملكية . ولكن ماهو أسوأ من ذلك كان مايزال مخبوءاً فى المستقبل . ففى سنة ١٣٧٨ م عاد بعض الكرادلة إلى روما لينتخبوا بابا آخر ، على حين استمرت بابوية أفنيون ، وفى ذلك الحين كان الانشقاق العظيم فضيحة ووصمة عار فى جبين العالم المسيحى ، وبذر الشك فى جميع الاتجاهات . ولم ينته الانقاق العظيم سوى فى مطلع

القرن الخامس عشر بإجراء إصلاحي تمت مناقشته طويلا من جانب رجال القانون الكنسي ونقاد سلطة البابوية المطلقة : فقد تم عقد مجمع كنسي عام لإنهاء الانشقاق وإصلاح الكنيسة . وقد أنهى مجمع كونستانس Gonstance (١٤١٤ - ١٤١٨م) الإنشقاق ، ولكنه اخفق في محاولة إصلاح الكنيسة؛ فما كاد المجمع يختار نائبًا واحداً للمسيح حتى أعاد هذا البابا تأكيد السلطة البابوية المطلقة . ذلك أن الإمبراطور الألماني دعا إلى مجمع كوني آخر تحت ضغط التوفيقيين ، ولكن البابا طوقه في سهولة ، وكسب مساندة الملوك ضد الحركة التوفيقية لقاء اتفاقات تعترف بالشخصية الوطنية للكنائس الخاضعة لهم . وفي منتصف القرن الخامس عشر سقطت البابوية بعد عودتها إلى روما ، مرة أخرى ، في براثن الأرستقراطية الرومانية التي حولت صاحب مفاتيح السموات إلى طاغية إيطالي من طغاة عصر النهضة . ولم كن أسوأ من غيره من هذا الصنف ، كما أنه لم يكن أفضل منهم .

هذه الفضائح والإخفاقات التي حاقت بالقيادة الكنسية أوجدت متنفسا لموجة جارفة من موجات العداء لرجال الكنيسة سرعان ماتحولت في سهولة إلى حركة لمعاداة سلطة الكنيسة كما حدث في القرن الثامن عشر . ولكن الهرطقة لم تعد تعتمد على المبشرين الفقراء الجوالين في تحديد مذاهبها وتعريفها ؛ ففي ذلك الحين كانت الهرطقة تجد أقدر من يتحدث باسمها من بين أفضل المفكرين في الجامعات . وتفكك عالم الفكر في العصور الوسطى ، الذي كان كتاب وليم الأوكامي هو بدايته ، سار شوطًا أبعد على يد من خلفوه . والفلسفة الأوكامية تكشف عن التاريخ الفكري في العصور الوسطى المتأخرة ، ولاسيما في انجلترا وفرنسا . ولاينبغي أن نندهش حين نكتشف أن مارتن لوثر ، الذي لم يكن راهبا بسيطا كما يعتبره البعض ، قد أعلن أنه أوكامي . إذ أن التراث الفكري لهذا الراهب الفرنسسكاني الكبير يعتمد كثيراً على ثقافة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ويصل إلى اتجاهات كثيرة : مثل تدمير الفلسفة ، ووضع العلم على بداية طريق الانطلاق ، والإلهام المستمد من التصوف والهرطقة .

والخاصية العقيمة لمدرسية القرن الخامس عشر كانت في الأساس نتاجًا لمذاهب أوكام . إذ أن إصراره على أن المنطق هو الشكل الوحيد الصالح في الفلسفة ، وأنه ليست للميتافيزيقا واللاهوت العقلي أية صلاحية ، كان هو السبب في أن خلفاء « الإصطلاحيين » ، أو الاسميين، كرسوا أنفسهم تماما للسلطة الغامضة المبهمة على حين لم يمسوا المشكلات التي كانت تثير خيال الأذكياء وتسترعي انتباههم ، إلا مسًا هَيِّنًا ، ولاغرو في أن المدرسيين كانوا

محط احتقار الإنسانيين الذين تحولوا عن الجدل صوب أعمال أفلاطون ذات الطابع الأدبى لتكون لهم نبراسا يرشدهم ويهديهم .

ومع ذلك ، فإنه بينما كانت استهانة الإنسانيين بالمدرسيين ، كحمقى تافهين ، استهانة مبررة إلى حد كبير ، فإن هجومهم على رجال المدارس (الجامعات) كان يشبه فى أحد جوانبه عجز الرجل العادى عن فهم رجل العلم وإدراك قيمة استدلاله المنطقى الذى يبدو للرجل العادى أمراً غير عملى . فإن أوكام لم يتنته إلى تقوقع كامل ؛ وإنما كان يعتقد أن هناك أنواعا بعينها من المعرفة الإنسانية يمكن التوصل إليها . وقد استبعد الميتافيزيقا ، ولكنه أرسى الأسس المعرفية للعلم الحديث الذى كان سلفاه الفرنسسكان جروستست وروجر بيكون يعملان فى اتجاهه . وخلص أوكام إلى أنه بينما العلاقة بين الأشياء الفردية نتاج عقلى ، فإن الأشياء الفردية نفسها موجودة بالفعل ويمكن معرفتها . ومن خلال معلومات حسية بسيطة يمكن للعقل البشرى أن يتعلم إدراك هذه الأشياء الفردية الثابتة فى الطبيعة ، وهو الأمر الذى جعل العالم الفكرى لكل من جاليليو ، وكوبر نيكوس ، ونيوتن ممكنا . وقد اقترح عالم أوكسفورد الفرنسسكانى نفسه (أوكام) قانون القصور الذاتى ، على الرغم من أنه لم يكن هناك من معاصريه من يفهم مايقوله سوى مجموعة صغيرة فى كلية ميرتون Merton College فى أوكسفورد . وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر كانت المدرسة الأوكامية الباريسية ، التى سار أفرادها على خطى معلمهم فى رفضه للميتافيزيقا ، والاهتمام بملاحظة الأشياء وتحليلها ، حتى تقدموا إلى بدايات الميكانيكا ، والفيزياء ، والهندسة التحليلية الحديثة . فقد اقترح نيقولاس لورسمى Nicholas of Oresme[٢] ، الذى كان أبرز أعضاء هذه المدرسة دون شك ، مبدأ الدوران اليومى للأرض قبل كوبرنيكوس ، كما اكتشف قانون الأجسام الساقطة قبل جاليليو .

---

٢ - هو فيلسوف واقتصادى فرنسى (١٣٢٠ - ١٣٨٢) . بعد أن أتم دراسته فى باريس شغل عدة مناصب كنسية ، كان آخرها منصب أسقف ليزييه Lisieux (١٣٧٧) . كما كان مستشارا للملك شارل الخامس . ومؤلفاته التى كتبها باللاتينية والفرنسية تتناول السياسة والاقتصاد والعلوم الطبيعية . وأشهر مؤلفاته مقالته عن العملة De L'origin , nature, et mutation des monnayes وقد كتب أيضا باللاتينية De Montete ، وكان له تأثير كبير على النظريات الاقتصادية فى العصور الوسطى وكتابه عن السماء والعالم Livre du Ciel et du Monde عن حركات الكواكب توصل إلى بعض النظريات التى توصل إليها كوبرنيكوس فيما بعد . (المترجم) .

وهكذا كان تلاميذ أوكام يمتلكون كل الوسائل الفكرية التى تمكنهم من تحقيق انطلاقة علمية عظيمة مثلما حدث فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . فلماذا لم يمضوا قدما فى عملهم ؟ لماذا أضمحلت هذه الدراسات العلمية على هذا النحو الكلى فى القرن الخامس عشر لدرجة أن اكتشاف أعمال نيكولاس الأورسمى وزملائه استغرق جهداً جهيداً من العلماء والباحثين ؟ تكمن الإجابات على هذه الأسئلة فى الخلفية الاجتماعية التى كان أولئك العلماء يعملون فى إطارها ، فلم يكن هناك أحد فى القرن الخامس عشر ، ولا حتى بين العلماء المدرسيين ، يدرك القيمة التطبيقية والفائدة الاجتماعية لقانون الأجسام الساقطة . والرجال الذين واصلوا هذه الدراسات الجديدة كانوا يفعلون هذا فى ظل معرفتهم بطبيعة عصرهم ، ولم يكن هناك أى تشجيع اجتماعى لهم . فلم تكن هناك كراسى خاصة بالعلوم فى الجامعات ، وإنما كانت توجد كراسى عديدة للاهوت والمنطق ؛ وكان من الأربح للعالم أن يشتغل فى مجال اللاهوت والمنطق بدلاً من أن يشتغل بالبحث العلمى الذى لم يكن يحظى بتقدير أحد ؛ اللهم إلا دائرة ضيقة جداً من العلماء. وكان التغير فى التكنولوجيا العسكرية فى القرن السادس عشر هو الذى جعل من الميكانيكا علما ذا فائدة اجتماعية ، كما شجع على إحياء البحث العلمى . فقد كان استخدام بارود البنادق قد بدأ لتوه فى القرن الرابع عشر ، وكان الأوربيون مايزالون غير ماهرين ومبتدئين فى استخدامه . وبحلول القرن السادس عشر كانت الجيوش قد صارت ماهرة تماما فى إطلاق قذائف المدافع . لأن صياغة معادلة للقذائف الساقطة كانت مساهمة يدرك الناس مدى فائدتها التطبيقية .

والعامل الثانى فى إحباط الحركة العلمية الكبرى فى القرن الرابع عشر هو قصور المعلومات الرياضية ، لاسيما فى علم الجبر . فقد كان مفكرو العصور الوسطى المتأخرين يعرفون أن العلوم الطبيعية تتطلب التحديد الكمى للظاهرة الطبيعية ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق هذا الهدف سوى بشكل جزئى . ويتمثل السبب الإضافى فى إجهاض الإنطلاقة العلمية فى القرن الخامس عشر فى عداء الإنسانيين للمدرسيين ورفضهم النظر إلى ماتحت السطح لكشف ماهو قيم فى أعمال ألمع رجال المدارس . وكثيرون من الإنسانيين فى إيطاليا تلقوا تعليما جامعيا بالفعل ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن الأعمال التى تمت فى باريس وأوكسفورد على الرغم من قيمتها العالية . وكان بين الإنسانيين عند نهاية القرن الخامس عشر عدد من أبرز مفكرى أوربا وعلمائها ؛ ولكن عدم تعاطفهم مع الفكر الأكاديمى كان من

العوامل المساعدة فى إخفاق الثقافة الأوربية فى تحقيق الإنطلاق فى العلم حتى عندما كان أوكام وتلاميذه يمتلكون رؤية جيدة لهذا البعد الفكرى الجديد ، وهو البعد الذى قيض له أن يميز الحضارة الأوربية تماما عن غيرها من الحضارات .

ومما يكشف عن تزايد التدين فى أوربا أواخر العصور الوسطى أن المجتمع لم يستمد من الأكاومية فهمها لإمكانية قياس الخصائص الكمية فى الطبيعة ، وإنما استمد منها التشجيع على الاتجاه صوب الفردية الدينية . إذ كان أوكام قد بدأ بفرض يتعارض مع فروض ابن رشد الفلسفية تماما ، ولكنه فى الحقيقة توصل إلى ذات النتيجة : وهى أن العقل لايمكنه أن يرقى إلى الجلالة الإلهية ، ولايمكنه أن يقول شيئًا أكيداً فى المسائل اللاهوتية . وكان للأثر الناتج عن رفض الأوكامية للعقل كطريق لفهم الألوهية أن يؤكد التجربة الصوفية الفردية باعتبارها ركيزة للحقائق المستقاة من خلال الدين . وكتاب توماس آكمبيس Thomas á Kempis «تقليد المسيح » بما فيه من نزعة غيبية ومعاداة للعقل ، كان مترافقا مع تعاليم أوكام . كذلك فإن كتاب « التعاليم الجاهلة » الذى ألفه نيكولاس كوسا Nicholas of Cusa كان نتيجة حتمية للفلسفة الإسمية nominalism . فقد قال نيكولاس إن الموقف الصحيح للإنسان من الله هو موقف التقوى والخضوع ؛ وعلينا أن نقبع فى الظلام وننتظر صابرين فى انتظار « رؤية الرب » . كذلك انتشر الأدب الصوفى على نطاق واسع فى شتى أرجاء أوربا فى العصور الوسطى المتأخرة . ولايبدو أنه كن من قبيل المصادفة أن هذه المذاهب المتعلقة بالتجربة الروحية الفردية شاعت خصوصا فى انجلترا وألمانيا ، حيث لقيت الأوكامية أيضا أكبر قدر من التأييد . فقد كانت الأوكامية والصوفية متقاربتين إلى حد كبير .

كان المتصوفة فى أواخر العصور الوسطى موالين للكنيسة ورجالها بشكل عام ، ولكنهم ، كما حدث فى القرن الثانى عشر ، تجرأوا على انتقاد الأكليروس بسبب التأكيد الشديد على العلاقة بين الله والإنسان، وسرعان ماتجاسر بعض الأتقياء على إنكار صلاحية السلطة الكنسية . وكان أوكام نفسه قد زعم أن البابا ، والمجمع المسكونى ، يمكن أن يخطئ . ويبدو أنه قد استنتج أن المصدر الثابت للحقيقة هو الكتاب المقدس . وكان هذا الرأى يتضمن المدلول الثورى القائل بأن السلطة الدينية ينبغى أن تكون داخل الضمير الفردى لكل إنسان . وقد صار مذهب سلطة الكتاب المقدس أكثر أهمية بفضل زعيم هراطقة القرن الرابع عشر ، وهو جون ويكلف John Wycliffe (١٣٢٠ - ١٣٨٤) الذى كان أستاذاً بارزاً من أساتذة

اللاهوت فى أوكسفورد . وكان ويكلف شخصا مغرورا ، تعيسا ، عصابيا ، ولكنه كان رجلا ذا تعليم راق ومهارة لاتبارى . لم يكن أوكاميا ، ولكنه كان أفلاطونيا ؛ ومما يشى باستمرار انفصام عالم الفكر فى العصور الوسطى المتأخرة أن هذا المفكر الهرطقى العظيم الذى ظهر فى أخريات القرن الرابع عشر كان واقعيا . ويبدو أنه اقتنع بالكتاب المقدس كانبثاق عن العقل وإنعكاس للشكل الروحى ، باعتباره سلطة لاتقبل المناقشة . ومن هنا مضى فى تأليف موسوعة ضمت المذاهب الهرطقية التى ظهرت على مدى القرنين السابقين ، وجمعت مابين تعاليم بطرس الوالدوانى ، ويواقيم الفلورى ، ومارسيليو البادوانى . وأنكر سلطة القساوسة ، وعملية تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، كما هاجم البابا على أنه المسيح الدجال ، ودعا إلى خلق كنيسة روحانية خالصة وذلك بإعطاء الأراضى الكنسية للعلمانيين . وكان طبيعيا أن يكون هذا المبدأ الأخير من بواعث سرور الحكومة الإنجليزية والنبلاء ، ولم تستطع الكنيسة أن تضطهده . ولكن ويكلف فعل ماهو أكثر من مجرد نشر مكتبة صغيرة من اللاهوت الهرطقى ؛ فقد ترجم الكتاب المقدس للإنجليزية ، وألهم المبشرين الجوالين الذين عرفوا باسم اللولارد Lollards[٣] ، وشجعهم بشخصه على السفر والترحال فى كل مكان لنشر مذاهبه . وفى ثمانينيات القرن الرابع عشر كانت انجلترا ، التى خلت تماما من الهرطقة فى القرن السابق بحيث لم تعقد بها أية محكمة من محاكم التفتيش ، قد صارت مركزاً لأقوى حركة هرطقية فى أوربا .

وليس هناك شئ ، فى كتابات مارتن لوثر ، أو أى من المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر ، لايمكن أن نجده فى القرن الرابع عشر . ليس السؤال هو لماذا حدثت ثورة البروتستانت والإنشقاق فى القرن السادس عشر ، وإنما السؤال هو لماذا لم يحدث هذا قبل مائة أو مائة وخمسين سنة ؟ وربما يكون هذا هو أهم سؤال يمكن طرحه فيما يتعلق بالعصور الوسطى

---

٣ – أطلق هذا الاسم فى القرن الرابع عشر على أتباع ويكلف ، ثم امتد ليشمل نقاد المؤسسة الكنسية ، قد برزت جماعة أوكسفورد من مثقفى جامعة أوكسفورد ، ونظمهم نيكولاس هيرفورد أحد أتباع ويكلف . وكانوا يبشرون بتعاليمه وجذبوا إليهم أتباعا كثيرين من شتى أنحاء إنجلترا . قد أدين اللولارد بعد إخماد ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ ، لأن الطبقات العليا اعتبروهم من دعاة الثورة . وعلى الرغم من أن الكنيسة بدأت تضطرهم منذ سنة ١٣٨٢ فصاعداً ، فإنهم اكتسبوا شعبية بين البورجوازيين وأهالى الكوميونات . وفقدوا نفوذهم بعد تمرد قاموا به بقيادة جون أولد كاسل فى سنة ١٤١٤ م عندما أخمد هنرى الخامس عصيانهم بقسوة – انظر :

K.B. McFarlane , John Wycilffe and Beginning of the English Nonconformity "1953" .

(المترجم)

المتأخرة . ويمكن أن نقدم خمسة أسباب لفشل الحركة الهرطقية فى القرن الرابع عشر فى أحداث الإنشقاق فى العالم المسيحى . أولا لم يكن القرن الرابع عشر يعرف آلة الطباعة ، التى لم تستخدم حتى سنة ١٥٠٠م . وكان من الصعب تماما على المنظرين الهراطقة أن ينشروا مذاهبهم . ففى مطلع القرن السادس عشر انتشرت الأفكار نفسها انتشار النار فى أرجاء أوربا . فقد حملت مذاهب ويكلف إلى بوهيميا ، نتيجة لإحدى زيجات التحالف وماترتب عليها من علاقات بين انجلترا وهذه البلاد النائية ، ولكنه لم يكسب أى أتباع فى فرنسا وألمانيا . وثانيا إن الإنكماش الطويل الذى حدث فى العصور الوسطى المتأخرة ، أنتج مشاعر السخط ، وسلب من الناس طاقتهم ، وجعلهم فى حال من اللامبالاة بحيث لايتورطون فى صراع كبير ضد السلطة الكنسية . وثالثا ، هناك حقيقة تناقضية مؤداها أن البابوية كانت فى حال من الضعف فى القرن الرابع عشر بحيث لم تبذل سوى جهد قليل لغاية فى ضرب الحركات الهرطقية ، وإذ لم تستخدم البابوية القوة ضد الهرطقة الجديدة فإنها تركتها تستهلك نفسها بنفسها .

ولاشك فى أن السببين الأخيرين هما أكثر الأسباب أهمية . ذلك أن الطبقات الثرية فى أوربا كانت تخشى المدلولات الاجتماعية الواضحة فى الهرطقة . ويدا أنها سوف تثير التمرد الاجتماعى ، وكان هذا هو سبب تحول أبناء هذه الطبقات ضد الحركات الهرطقية حوالى سنة ١٤٠٠ . لقد كان القرن الرابع عشر هو عصر الثورات الاجتماعية الأولى فى أوربا . إذ كانت البروليتاريا الصناعية ، التى تكاثرت بفضل صناعة النسيج فى الفلاندرز وفلورنسا ، مشتبكة فى صراعات مريرة وفاشلة ضد الأوليجاركيين الذين يتسيدون الحياة فى المدن . بل إن الفلاح، الذى كان وضعه الاقتصادى قد تحسن فى مناطق كثيرة من أوربا بسبب نقص العمالة ، قد رفع رأسه للمرة الأولى . وحيثما كان فلاح ذلك الزمان الطيع الصامت يشعر بأن أحداً قد أساء إليه ، أو أن الحرية الجديدة التى أخذ ينعم بها تتعرض لعدوان أصحاب الأراضى اليائسين ، فإنه كان يلجأ إلى العصيان الوحشى - مثل ثورة الفلاحين Jaquerie[٤] فى

---

٤ - إندلعت هذه الثورة سنة ١٣٥٨ فى شمال فرنسا نتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى فرضها النبلاء على الفلاحين عقب الوباء الأسود . وارتبط هذا التمرد أيضا بالصعوبات التى عانت منها فرنسا فى أعقاب هزيمتها فى بواتييه سنة ١٣٦ ، وقد إتسمت بالعنف الشديد وحاول المتمردون مهاجمة باريس بزعامة وليم كال Guillaume Cale على أمل الانضمام لثورة البورجوازيين بزعامة مارسيل Marcel Etien ولم تنجح حركة الجاكرى هذه سوى فى توحيد النبلاء والبورجوازيين ضدها بحيث تم سحق التمرد فى

فرنسا وتمرد الفلاحين فى إنجلترا . ولاشك فى أن تمرد الفلاحين فى انجلترا قد لقى تشجيعا من المبشرين الجوالين الهراطقة ، وربما يكون قد تم تحت زعامتهم ، وأدى هذا إلى تحول الحكومة الإنجليزية والنبلاء ضد أتباع ويكلف . كذلك فإن أسلاف البروتستانت فى بوهيميا حولوا مذاهبهم إلى ديانة وطنية ، ورفعوا السلاح ، وأخافوا ألمانيا . وحتى بعد إحراق الزعيم الهرطقى جون هس John Huss ، بناء على أوامر مجمع كونستانس ، ظل تلاميذه وأتباعه يضايقون مناطق جنوب ألمانيا . وماحدث آنذاك هو أن الحركات الهرطقية ألهبت مشاعر السخط الاجتماعى والكراهية الوطنية ، كما قدر لها أن تفعل فى القرن السادس عشر . ولكن لم يكن هناك لوثر فى أواخر العصور الوسطى لكى يوقف مد رد الفعل بحيث يفصل الراديكالية الدينية عن التطرف الاجتماعى والسياسى ، ولم تكن مذاهب معاداة سلطة الكنيسة قد اختفت تماما فى القرن الخامس عشر ، ولكنها أدينت بسبب الأحداث المرعبة مثل ثورة الفلاحين والحروب الهسية ، وبذلك نزلت تحت الأرض لتختفى لمدة قرن آخر من الزمان .

والسبب الأخير فى عدم حدوث الإصلاح الدينى فى القرن الرابع عشر أو فى بداية القرن الخامس عشر ، هو أن الحكومات الملكية كانت مشغولة ومتورطة فى مشكلات أخرى بحيث فشلت فى إنتهاز فرصة الموقف الدينى كما فعل كثيرون من ملوك القرن السادس عشر . ففى العقود الأولى من القرن الرابع عشر بدا وكأن قدر الملكية الوطنية فى كل من فرنسا وإنجلترا أن تستمر فى زيادة سلطانها ، ولكن السنوات المائة والخمسين التالية تحولت إلى فترة حافلة بالمصائب للحكومة الملكية فى كل من البلدين . وكان على أوربا أن تنتظر حتى أخريات القرن الخامس عشر حتى تستطيع الدولة الإقليمية الحاكمة أن تضمن زعامتها فى المجتمع الأوربى . وفى الفترة الحاسمة سنحت للأرستقراطية فرصتها الأخيرة لكى تتحكم فى حكومتى دولتين مركزيتين ؛ ولكن كبار السادة الإقطاعيين لم يظهروا من جراء سيادتهم وتحكمهم فى الحياة السياسية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر سوى دلائل الطمع والكسل . وكانت النتيجة فوضى اجتماعية لم تعرفها أوربا منذ القرن العاشر .

= بقسوة الغة . والجدير بالذكر أن مصطلح Jaquerie مستمد من مصطلح Jacque الذى كان اسما عاما يطلق على الفلاحين - انظر .

G. Duby and A . Mandrou , History of French Civilization, (1963) .

(المترجم)

وهناك قدر كبير من اللوم يقع على الملكية فى كل من فرنسا وإنجلترا بسبب الظروف الخطرة التي وجدتا نفسيهما فى غمارها سنة ١٤٠٠ م . فقد استنفدتا مواردهما المالية والمعنوية ، وارتكبتا كل خطأ كان من الممكن أن يفتح الباب لصعود الأرستقراطية من جديد . إذ كان إدوارد الأول وفيليب الجميل قد اندفعا إلى مدى بعيد ، ومن ثم كان كل منهما يتصرف بطريقة طائشة ، لاسيما فى مجال الحكومة الفرنسية ، مما كان له أوخم العواقب على خلفائهما . فالملكية التى كانت محبوبة للغاية فى القرن الثالث عشر كانت تواجه الإفلاس الأخلاقى عند نهاية حكم إدوارد الأول وفيليب الجميل . وكان من الواضح أن الإدارات الملكية قد إهتبلت الفرصة لنفسها . وهكذا ، فإذا كان الملوك قد ألفوا أنفسهم في موقف صعب ، فلماذا لاينتهز الجميع الفرصة ليأخذ كل لنفسه أكثر ما يمكنه ؟ وكان إدوارد الثانى ابن إدوارد الأول ، جنديا فاشلا ، كما كان مصابا بالشذوذ الجنسى ؛ وبذلك تم إجباره على التنازل عن العرش ثم اغتالته مجموعة من السادة الإقطاعيين المتآمرين مع الملكية الفرنسية . وقد إنتهى خط أسرة كابيه نهائيا في سنة ١٣٢٨ ؛ وكان أبناء عمومتهم من أسرة فالوا Valois ضعفاء مرتبكين . وفى ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، كان ملك انجلترا إدوارد الثالث ، وملك فرنسا فيليب السادس يخوضان حربا حمقاء نزقة سعيا وراء المجد فى ساحة القتال متجاهلين المشكلات التى سوف تنجم عن تجدد الصراع . وأدى هذا إلى المزيد من استنزاف الخزانة الملكية وتعريض الإدارة الملكية لمخاطر العصيان الأرستقراطى . فضلا عن أنه كان من المحتمل أن يزيد من أهمية السادة الاقطاعيين فى البلاد .

وخلال السلام الطويل الذى ساد فى القرن الثالث عشر ، كانت وظائف النبلاء العسكرية قد تقلصت ؛ ولكنهم فى أتون الحرب اللانهائية التى نشبت آنذاك صاروا هم القادة الذين لاغنى للمجتمع عنهم . فقد عهد الملوك للسادة الإقطاعيين بتكوين الجيوش ؛ وصارت هذه الفيالق هامة للأرستقراطيين فى الوطن بقدر أهميتها فى ميدان القتال . ذلك أن امتلاك جيوش خاصة أتاح لكبار السادة الإقطاعيين أن يجابهوا الجميع ، وأن يتدخلوا فى الشئون الملكية . لقد كان نظاما عسكريا مدمراً ذلك الذين أعاد أسوأ الأيام الإقطاعية القديمة ؛ وقد أطلق عليه بحق «الإقطاع ابن الزنا » .

وكان الأرستقراطيون من جانبهم غاية فى الجذل والسرور بزعامتهم المتجددة للمجتمع ؛ فقد وجدوا أنفسهم مساقين إلى الحائط بسبب تدهور الاقتصاد الريفى ، وكان ملاذهم الوحيد هو تجريد حملات للنهبوالتدخل فى الشئون الملكية . وفى القرن الرابع عشر وأوائل القرن

الخامس عشر لاحت للأرستقراطية الإنجليزية والفرنسية فرصة ممتازة للمشاركة فى الشئون السياسية ، ومساومة المرشحين للعرش ، كما أن السادة الإقطاعيين الفرنسيين تآمروا مع الغزاة الإنجليز . وانتهجت كل من الحكومة الإنجليزية والحكومة الفرنسية سياسة إنتحارية حين سمحت بتكوين الممتلكات الشاسعة للأمراء داخل كل من المملكتين . ففى كل من البلدين حصل الأمراء على هذه الامتيازات ، ثم أخذوا يحاربون بعضهم بعضًا فى سبيل الفوز بالعرش. وكان هذا النظام الذى يمنح الاقطاعات لأبناء الملك الصغار ويؤكد ملكيتهم لها وهو نظام الأباناج appanage ، نظاما خاصا بفرنسا ؛ كذلك عانت إنجلترا من الممتلكات والضياع الأرستقراطية الكبيرة فى مناطق الحدود .

وعندما بدأ إدوارد الثالث حرب المائة عام فى أواخر ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، كانت هذه العوامل قد بدأت تفعل فعلها . وفى غضون نصف قرن كانت الفوضى السياسية والاجتماعية قد أنشبت مخالبها فى فرنسا وإنجلترا . وقد أحرز الإنجليز إنتصارات باهرة على الفرنسيين ، بسبب استخدامهم المتطورة لرماة السهام من ناحية ، ولكن الحكومة ، من ناحية أخرى ، لم تكن تستطيع أن تستمتع بفتوحاتها فى القارة . إذ أنها كانت مشغولة بتمرد الأرستقراطيين وحروب الأمراء داخل الوطن . فقد جلبت الجيوش التى استخدمها السادة الإقطاعيون فى ضرب الفرنسيين إلى أرض الوطن لكى تخوض المعارك فى سبيل طموحات الأمراء وتنافسهم على العرش . أما البرلمان ، الذى استخدمه إدوارد الأول كأداة فى خدمة السلطة الملكية ، فقد تحول إلى أداة بيد الفريق الأرستقراطى . وفى خمسينيات القرن الخامس عشر بلغت هذه الحروب ذروتها فيما عرف باسم « حروب الوردتين » ، وهى حرب أهلية بكل معنى الكلمة نشبت فيما بين الأرستقراطيين فى سبيل السيطرة على العرش الإنجليزى والحكومة الملكية . ولفترة من الوقت كانت فرنسا أسوأ حالا . ذلك أن أحد فروع الأسرة المالكة رمى بثقله مع الغزاة ، وأخذت الجيوش الفرنسية تعانى من هزيمة تلو الأخرى ، ولم ينقذ تاج فالوا ، الأسرة الحاكمة المرتبكة ، سوى متاعب المملكة الإنجليزية الداخلية . لقد أتاحت هذه المشاجرات الإنجليزية الفرصة للصحوة الفرنسية التى بدأت فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر، وبعد قرن من النهب الذى ارتكبه الإنجليز ، إتفق الفرنسيون أخيراً على أمر واحد ؛ هو أنه يجب طرد الإنجليز . ووجد الفرنسيون زعامتهم فى فتاة ريفية هستيرية اسمها جان دارك . وأخيراً اغتنم لويس الثامن ، بحركته البطيئة ، فرصة هذا الشعور الوطنى لطرد الإنجليز المنقسمين على أنفسهم وأعاد بناء السلطة الملكية .

لقد طرحت حلول كثيرة للمشكلات السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية التى عانت منها أوربا فى أواخر العصور الوسطى . إذ وجد الكثيرون راحتهم فى التجربة الدينية العميقة ، والعلاقة الشخصية مع الله . وقد طرح الإنسانيون الإيطاليون رأيا متفائلا عن قوى الذكاء الإنسانى النقدية والإبداعية ، كما زرعوا التراث الكلاسيكى والأفلاطونية المسيحية كموارد وينابيع للمستويات الأخلاقية التى يمكن أن تعيد الإستقرار إلى الحياة الأوربية . وفى أواخر القرن الخامس عشر ، اكتسبت هذه الإنسانية المسيحية ، كما قدمها العالم الهولندى ارازموس Erasmus ، أتباعها من أفضل مفكرى شمال أوربا . ولكن الجانب الآخر من برنامج الإنسانيين هو الذى لم يلبث أن تحقق على أكمل صورة فى الحياة الأوربية . فقد كان الإنسانيون الإيطاليون وطنيين غيورين متحمسين لمدنهم ، وقادتهم وطنيتهم إلى الترويج لمذهب raison d'état الذى أقره ميكافيللى بشكل محدود فى مطلع القرن السادس عشر .

كانت الدولة السيادية التى لاتعترف سوى بمنطقها هى التى اتجهت نحوها شعوب أوربا المرهقة الواهية فى نهاية القرن الخامس عشر . فقد أسس إدوارد الرابع وهنرى السابع فى إنجلترا ولويس الحادى عشر فى فلورنسا مايعرف باسم « الملكيات الجديدة » التى كانت فى حقيقة أمرها عوداً إلى حكومات إدوارد الأول وفيليب الرابع ، ولكن مع مزيد من الاهتمام بالواجهة الأخلاقية وتأكيد أكثر على المشاعر الوطنية . وبعد قرنين من الفوضى بدا أن الحل الوحيد هو إعادة زعامة الدولة . وقد هلل الإنسانيون لمجد الملكية التى أعيد إحياؤها ، والتى ستحفظ المستويات الأخلاقية وترعى الفنون . وبالنسبة للعلماء الذين تأثروا بالتراث الكلاسيكى إلى حد كبير ، بدت السلطة المطلقة هى الشكل الوحيد للحكومة التى يمكنها الحفاظ على النظام الاجتماعى والصالح العام . وبالنسبة لكثيرين ممن وقعوا تحت تأثير الأشكال المختلفة للفردية الدينية ، كانت الدولة السيادية محل ترحيب لأن الملك يستطيع أن يقف عقبة كأداة فى مواجهة السلطة الكنسية ، أو مايكون قد تبقى منها .

وفى سنة ١٥٠٠ م كانت جميع البلدان الأوربية فى حاجة ملحة إلى السلام الداخلى . فبانتهاء الإنكماش الكبير الذى عرفته العصور الوسطى المتأخرة ، وما نتج عن ذلك من زيادة فى السكان ، صار الإزدهار ممكنا فى المدينة والريف على السواء بشرط إعادة القانون والنظام وبدا أن الملكية هى المبدأ الوحيد للنظام ، ومن ثم تفشت موجة جديدة من الحماسة لحقوق الملكية . قد عمل ملوك أواخر القرن الخامس عشر فى كل مكان على نفس النموذج الأساسى

للحكومة ، بلاط صغير وبيروقراطية ملكية صغيرة تنشر السلام بين الأرستقراطيين ، أو ، عندما تفشل هذه السياسة ، تقاتل كبار الإقطاعيين لمصلحة الكل الوطني .

كان مؤرخو لقرن التاسع عشر يظنون أن ظهور « الملكيات الجديدة » قد تم بتأثير تحالف كبير بين الملك والبورجوازية ، وهو رأى لايصمد أمام الفحص الدقيق . ففى إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، حيث انتعشت الملكية كان المجتمع محكوما بالملكية الزراعية . وكانت أموال البورجوازيين تفيد الملك فى تكوين جيوش المرتزقة ، ولكن أهمية التجار والصيارفة فى الحياة السياسية كانت ضئيلة بالفعل . فقد كان الصراع بين البلاط الملكي ، والمجلس ، والبيروقراطية من جهة ، والأرستقراطية من جهة أخرى . وكانت كافة طوائف المجتمع الأخرى - أى الغالبية العظمى من الشعب - تظل خارج الوطن السياسى . لقد هللوا للملك لأن إعادة السلطة الملكية كان يعنى ضمانا للسلام والنظام ، ولكنهم لم يكن لديهم سوى القليل من الكلام حول مسار التغير السياسى .

كانت علاقة الملك بالأرستقراطية علاقة مبهمة . فقد كان يشاركهم رؤيتهم وأسلوب حياتهم، وإذا كانوا راضين عن مراكزهم فى البلاط والحكومة كان يتوق إلى التعاون معهم ويعطيهم مكانهم المعتاد على قمة المجتمع . وفقط عندما يهدر كبار الإقطاعيين القانون والضرائب الملكية ، لاسيما حين يظهر كبار النبلاء طموحا لإعتلاء العرش ، كان الملك يوجه جيوشه من المرتزقة ضد قلاع وحصون عائلات كبار ملاك الأراضى . فالبناء السياسى والاجتماعى لممالك الشمال ، باستثناء انجلترا ، لم يتغير بشكل أساسى على مدي القرنين التاليين .

وعند نهاية القرن الخامس عشر كان هناك شعور واسع النطاق بأن النظام الاجتماعى يتطلب خضوع كافة الطبقات ، والطوائف ، والهيئات للسيادة المطلقة والقانون . وهكذا تم استئناف الإتجاه السياسى الذى عرف القرنان الثانى عشر والثالث عشر ، وتم تصعيده . ومع هذا فقد كانت هناك قيود عملية قاسية سنة ١٥٠٠ تحد من ممارسة السلطة الملكية ، بغض النظر عما يقوله المنظرون عن حق الملوك الإلهى . فقد كانت الإتصالات والمواصلات فى سنة ١٥٠٠ على ماكانت عليه سنة ١٣٠٠ تقريبا . إذ كانت شبكة المواصلات النامية ماتزال تعنى أن الحكومة الملكية ، بصرف النظر عن أيديولوجيتها السلطوية ، لم تكن تستطيع أن تفعل سوى القليل جداً للتأثير على الحياة اليومية للغالبية العظمى من الشعب . فقد كان الملك يقدم العدالة القانونية فى ساحات القضاء ، ويجمع الضرائب ، ويقود الجيوش ضد أعداء الوطن . ولكن

أوربا سنة ١٥٠٠ كانت ماتزال بعيدة عن الدول المركزية الحاكمة العاملة للصالح العام ، والتى عرفها العالم الصناعى الحديث ، مثلما كان الأمر سنة ١٣٠٠ . لم يتم تقليم الاستقلال الذاتى للعائلات ، والطوائف ، والهيئات ، والجماعات المحلية سوى بقدر محدود جداً ، وكان خضوع الفرد للدولة مباشرة فى نطاق ضيق للغاية . إذ كانت هذه النظم الثانوية المباشرة هى المعول عليها فى حياة ٩٥٪ من الناس ، ونادراً ماكان الناس فى حياتهم العادية يشعرون بهيبة الدولة ، بالصالح أو بالطالح . وبهذا المعنى كانت أوربا سنة ١٥٠٠ ماتزال مجتمعا ، ينتمى إلى العصور الوسطى أساسا ، ولم يحدث التحول الكبير فى النظام السياسى والاجتماعى سوى إبان الثورة الصناعية .

وفى المدن الإيطالية كانت الدولة بالضرورة قريبة من حياة الناس بسبب صغر حجم هذه الكيانات السياسية . ولكن هذا الموقف الخاص لم يكن ذا أهمية كبيرة بالنسبة لأوربا ككل . أما ماساهمت به إيطاليا فعلا فى الحضارة الأوربية سنة ١٥٠٠ ، فكان نوعا جديدا من الثقافة الدنيوية يمكن أن نسميها بالإنسانية . فقد كانت النهضة الإيطالية تطوراً هاما فى الحياة الأوربية لأنها أقامت النظام التعليمى وأسلوب الحياة الذى شاع فى أوساط الأرستقراطية والشريحة البورجوازية العليا فى جميع أنحاء أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . فلكى يكون المرء عضوا فى الصفوة يجب أن يعتمد على المكانة الاجتماعية الموروثة ، وليست الثروة أيا كانت وسيلة جمعها . إذ كان ينبغى للمرء أن يكون عارفا بالكلاسيكيات ، وأن يكون رفيع الأدب ، وصاحب ذوق رفيع فى الفن ، والموسيقى والملابس، كما يجب أن يستخدم أسلوبا مهذبا بليغا فى الحديث . وقد استعار البورجوازيون الإيطاليون هذه المثل والأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية فى القرن الثالث عشر ، وتشربوها كى يبرهنوا على جدارتهم بالإنتماء إلى صفوة الحضارة الأوربية . ولكنهم هذبوا الأسلوب الأرستقراطى القديم . وأثروه كثيراً ، لدرجة أن الأرستقراطية الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر كان عليها أن تتعلم كيف تعيش وتتفوق على الإنسانيين الإيطاليين .

ومن السهل تماما أن نلم هذه الثقافة الإنسانية باعتبارها أيديولوجية الطبقات العليا ، ولكن هذا التعريف يخطئ إدراك النهضة الإيطالية وامتدادها صوب الشمال فى أواخر القرن الخامس عشر . ففى المحل الأول ، كانت هذه الإنسانية هى الثقافة الوحيدة المقبولة ، والأسلوب الوحيد الذى كان واعيا بذاته ، والذى استمر بفضل النظام التعليمى . ولم يحدث

حتى الثورة الصناعية وتطور التعليم الجماهيرى أن تطورت ثقافة واعية بذاتها ومتداخلة فى الحضارة الأوروبية مثلما حدث فى ذلك الحين . وثانيا ، أنه على الرغم من أن الإنسانيين الإيطاليين والإنسانيين فى الشمال كانوا مسيحيين أتقياء ، فإن الأخلاقيات الإنسانية كانت دنيوية فى جوهرها : فقد كان الرجل يحقق الواجبات الدينية المسيحية ، ولكن كبرياءه ، وقيمته فى المجتمع لم تكن ترتبط كثيراً بالهيراركية الثيوقراطية . لقد كان معيار إنتساب المرء للصفوة هو الجانب العلمانى فيه - أى تعليمه ، وأسلوبه وسلوكياته ، وهى أمور لم تكن متاحة سوى للأغنياء بطبيعة الحال . لقد كان ظهور هذه الأخلاقيات الدنيوية مؤشراً على تدهور الزعامة البابوية وصعود السلطة الملكية ، ولكنه كان كذلك مؤشراً على نهاية حضارة العصور الوسطى وبزوغ فجر عصر جديد . وأخيراً يجب أن نؤكد على أن الأخلاقيات الإنسانية، على الرغم من أنها تختلف عن أخلاقيات كنيسة العصور الوسطى ، كانت نتاجا لحضارة العصور الوسطى نفسها ، كما أنها كانت فى التحليل الأخير نتاجا للنمو الفكرى والثورة الرومانسية فى القرون الثانى عشر .

وبينما كانت الثقافة الإنسانية تمثل أيديولوجية الطبقات الحاكمة سنة ١٥٠٠ ، فإنها كانت بالفعل مؤشراً على تقدم كبير فى تاريخ الغرب : إذ أنها أكدت على القيم الفردية ، وعلى غرس نزعة التفوق الفردية وتحقيق عقلية حساسة متطورة . وأحد الموضوعات الكبري فى تاريخ القرن الماضى هو ما إذا كانت هذه النزعة الفردية والكبرياء الشخصى يمكن تلقينها للجماهير ، أو بعبارة أخرى ، ما إذا كان تهذيب العقل والأخلاق الإنسانية ، الذى جعلته النهضة الإيطالية وقفا على الأقلية الثرية ، يمكن أن يتحول إلى تراث عام للإنسانية .

٢ - أفكار ختامية فى تاريخ العصور الوسطى :

من الشائع أن ننهى مسح تاريخ أوربا فى العصور الوسطى بتقارير ثابتة عن « تراث العصور الوسطى » إذ يتجشم الكتاب عناء إبراز حقيقة أن كثيراً من المؤسسات والمواقف التى ظهرت فى أوربا العصور الوسطى ماتزال معنا إلى اليوم : فالكنيسة الكاثوليكية ، والحكومة النيابية ، والجامعة ، والنزعة الرومانسية ، والعلم التجريبى ، والمؤسسات الرأسمالية ، وغيرها مما نعتز به ، من نتاج العصور الوسطى . وإنها لحقيقة أن وجود العصور الوسطى معنا أكبر من وجود التراث القديم ، كما أن حياتنا فى النهاية محكومة فى كثير من الجوانب بتراث العصور الوسطى . ولكن ، من ناحية أخرى ، فإن هذه المؤسسات والمثل العليا التى يمكن أن نجد أصولها فى العصور الوسطى ، قد تغيرت بشكل ذكى منذ القرن الثالث عشر ، وعلينا أن

نعترف بالفروق الأساسية بين عالمنا وعالم توماس أكويناس وسان لويس . ويمكن أن نجمل هذا في القول بأنه إذا استطعنا أن نرجع القهقرى إلي القرن الثالث عشر ، فإننا سوف نجد الناس في العصور الوسطى يختلفون عنا بالفعل . ولسوف تروعنا الروائح الكريهة المنبعثة من أجسادهم ، وعاداتهم الشرهة في الأكل ، وإفتقارهم للراحة البدنية ، وتدينهم المتعصب ، وإعتقادهم العميق في الخرافات ، فضلا عن العنف والقسوة اللذين يسودان حياتهم اليومية. وبعبارة أخرى فإن حضارة العصور الوسطى كانت في كثير من جوانبها حضارة مجتمع ماقبل التصنيع . وحضارة العصور الوسطى لم تحقق التطبيق الكامل للعلم على التكنولوجيا ، وهو ماجعل اقتصادنا الاستهلاكي ممكنا . وهنا يكمن أوضح الخطوط الفاصلة بين الناس في العصور الوسطى وبيننا . ومع هذا ، فإننا أقرب إلى أهل العصور الوسطى منا إلى أية حضارة أخرى في الماضي . إذ أننا نستطيع أن نشارك في تجاربهم أكثر مما نستطيع أن نفعله بالنسبة لإنسان العصور القديمة أو الشعوب الشرقية . لقد كانت العصور الوسطى تجربة طويلة جداً وحاسمة في تطور الحضارة الغربية ، ومن ثم فهي جديرة تماما بأن تكون موضوعا للدراسة . ذلك أن فهم الماضي الوسيط أمر لاغنى عنه لكي نتعرف على هويتنا .

وعلى أية حال ، فهناك سبب آخر لدراسة تاريخ العصور الوسطى : ذلكم هو الدرس الذي يمكن أن نتعلمه من دراسة المسار الكلي لحضارة العصور الوسطى . قد عبر الفيلسوف سانتيانا Santayana عن واحدة من أكثر الحقائق عمقا حين لاحظ أن أولئك الذين يجهلون الماضي يدينون أنفسهم بتكراره . فماذا في تاريخ أوربا العصور الوسطى يمكن أن نتمثله ونترسم خطاه أو نتجنبه ؟ من حسن الحظ أننا نعرف عن حضارة العصور الوسطى أكثر مما نعرف عن أية حضارة أخرى ماتت ومضت ؛ ونحن نستطيع ، بثقة في الصفة الترجيحية لمعلوماتنا عن التغير التاريخي ، أن ندرس نموذج تطور أوربا في العصور الوسطى وأن نتعلم من هذه الدراسة دروسا تلهمنا وتمنحنا الوعي . فتاريخ العصور الوسطى يعلمنا أن الإنجازات الهائلة بمتناول مجموعة صغيرة من الصفوة التي ترشدها المثل العليا والقادرة على تحقيق هذه المثل ، أمر ممكن . وأكثر ما يبعث على السرور في هذه الدراسة يأتي من التأمل في الشخصيات والأعمال التي أتاها أولئك الرجال العظماء الذين قادوا أوربا على مدى قرون عديدة –من قسطنطين ، إلى جريجوري السابع ، حتى سان لويس – أولئك الرجال الذين كانت لديهم الجرأة على تحقيق أشياء عظيمة لأنهم أخذوا الرب مأخذ الجد .

وفى تاريخ العصور الوسطى كذلك درس نتعلمه عن انهيار الحضارة ، وفى تجاهلنا لهذا الدرس خطر كبير على ثقافتنا وعلى مجتمعنا . فقد خلقت حضارة العصور الوسطى ، بعد صراع طال خمسة قرون على أساس توليفة معقدة وعقلانية بين الروح التى تمثلها الكنيسة والعالم الذى تمثله الملكية . وقد رأينا فى هذا الكتاب كيف أن إنهيار التوازن فى القرن الحادى عشر ، حدث حين استهان هذا التوازن بمبادئ بعض الرجال الغيورين الدينية والأخلاقية، ففشلت محاولتهم لإعادة بناء المجتمع وفقا لمثلهم التطهرية . وقد تمت صياغة توازن أقل كمالا فى القرن الثالث عشر وضع فى حسبانه نتائج الإبداعية فى التعليم والتدين والسلطة . ولكن هذا الوفاق الجديد كان قائما على توازن دقيق وحساس بين الأطراف بحيث لم يستمر طويلا . وكانت النتيجة إنهياراً عصبيا اجتماعيا ، وبدأ السعى إلى إشباع رغبات المستهترين المرعبين الذين انتهكوا مبادئ النظام فى العصور الوسطى .

وهكذا ، فإن دراسة التاريخ الوسيط تعلمنا أن الحضارة نتيجة للتداخل المركب بين الروح والسلطة ، بين الموارد الروحية والموارد المادية ؛ وأن هذا الوفاق الحساس يصعب الحفاظ عليه ، لأن الحفاظ يتطلب ذكاء ناضجا ، وإعتدالا عاقلا ، ويقظة مستمرة ؛ وأن أعداء الحضارة ، بغض النظر عن البدائيين الذين لايفهمون ، هم أولئك الغلاة غير المسئولين والهازئون العصابيون .

دليل للقراءة فى التاريخ الوسيط

هذه محاولة للإشارة إلى أهم وأحدث الدراسات والبحوث التى تتناول الموضوعات الواردة فى كل فصل من فصول هذا الكتاب .

الجزء الأول : المصير الرومانى .

الفصل الأول : الاضمحلال والسقوط .

Bury, J.B. History of the later Roman Empire , New York ; Dover , 1957 .

وهو عبارة عن تاريخ سياسى شامل .

Gibbon Edward . The Decline and Fall of the Roman Empire, D.Saunders, ed . New York : Viking 1974 .

وهو مايزال يحمل طابعا قصصيا داخليا على الرغم من مضى مائتى سنة على تأليفه .

Rostovtzeff M.I. The Social and Economic History of the Roman Empire . London : Oxford University Press , 1957 .

وهو موضوع يتميز بالأصالة والعبقرية ويتناول الصراع فى العالم الرومانى . وهو كتاب مثير

المصادر :

Apuleius . The Golden Ass. R. Graves . trans . Nork : Farrar , Straus and Givaux , 1945 .

وهى عبارة عن رواية رومانية تكشف عن الاضطراب الكامن فى الإمبراطورية المتأخرة .

Casson , L.. , ed . Selected Satires of Lucian . New York : Norton . 1968 .

يتناول فترة الإمبراطورية المتأخرة والحماسة الدينية فيها .

الفصل الثانى : الإمبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية .

Alfoldi , A. The conversion of Conastantine and Pagan Rome , London : Oxford University Press , 1948 .

يصور قسطنطين فى صورة المسيحى المخلص ؛ وهو كتاب دينى الطابع ولكنه مثير للاهتمام .

Burckhardt,I. The Age of Constantine the Great. New York : Pantheon 1949.

يصور قسطنطين فى صورة الانتهازى السياسى المخادع ؛ وهو من أهم مؤلفات القرن التاسع عشر ، يلقى إدانة مستمرة من الباحثين ولكن لايمكن تجاهله .

Jonas, H. Gnostic Religion . Boston : Beacon 1963.; Lietzmann , H. History of the Early Church . 4 vols . Cleveland : Publishing , 1961 .

كتاب ذو طابع محافظ يروى بالتفصيل قصة ظهور المسيحية .

MacMullen , R. Constantine . New York : Harper and Raw , 1971 .

ترجمة ممتازة وشاملة ومحمة لقنسطنطين ، تركز على الطبيعة المعقدة لشخصية قنسطنطين وسياسته .

Momigliano , A.The Conflict Between Paganism and Christianity in the Fourth Century , London : Oxford University Press , 1961 .

Nock, A.D. Conversion . New York . Cambridge University Press , 1961 .

Piganiol, A.L'empire chrétien , Paris : Presses Universitaires de France, 1933 .

وهو عبارة عن تحليل ممتاز .

مصادر :

العهد الجديد ، طبعة أورشليم .

Eusebius, Bishop of Caesarea . Eccleesiastical History . Grand Rapids : Baker Books , 1974.

وهو تاريخ الكنيسة كما يراه واحد من أهم أساقفتها ؛ وهو بمثابة الأيديولوجية للملكية القسطنطينية .

الفصل الثالث : بناء المسيحية اللاتينية .

Bolgar , R.R. The Classical Heritage and its Beneficiaires , New York : Cambridge University Press , 1954 .

كتاب هام جدا يكشف القيمة الاجتماعية للتراث الكلاسيكي في عام العصور الوسطى .

Brown , P.R. Religion and Society in the Age of St.Augustine . London Feber , 1972 .

وهو عبارة عن مسح مفيد لعالم آباء الكنيسة .

St.Augustine of Hippo , Berkeley : University of CaliFornia Press .

Cochrane , C.N. Christianity and Classical Culture . London : Oxford University Press , 1959 .

من أهم الكتب التي تتناول حلول المسيحية محل قيم الثقافة الكلاسيكية ، وهو عبارة عن رؤية أكثر راقعية للإنسان تعكس الأوغسطينية الجديدة التي شاعت في ثلاثينيات القرن العشرين ، ولكنه مايزال من أكبر المؤلفات في هذا المجال .

Ladner, G.B. The Idea of Reform , Cambridge , Mass : Hervard University Press , 1944 .

كتاب هام لدراسة فكر آباء الكنيسة .

Meer , F., van der . Augustine the Bishop . New York : Sheed and Ward, 1962 .

Mommsen, T.E. Medieval and Renaissance Studies . Ithaca, N.Y. : Carnell University Press , 1959 .

Morey , C.R. Christian Art. New York : Norton , 1962 ; Nygren , A. Agape and Eros , New York : Harper and Row , 1969 .

دراسة راعية لمكانة الحب الإنساني والإلهي في المسيحية .

Palanque, J.R. Saint Ambrose et l'empire romain . Paris : L. de Bocard, 1933 .

يصور القديس أمبروز كرجل من رجال الحكومة الكنسية .

Prestige , G.L. God in Patritic Thought , 2nd ed . Noperville , Ind : Allenson , 1952 .

Smalley , B. The Study of the Bible in the Middle Ages . Notre Dame , Lnd. : University of Notre Dame Press , 1952 .

Walson , H. The Philosophy of the Church Fathers 3rd ed . Cambridge Mass. : Harvard University Press , 1970 .

دراسة هامة جداً ، وذات تأثير هام .

المصادر :

Saint Augutine . The City of God . D.Knowles, ed . Baltimore : Penguin , 1972 .

من أهم كتب العصور الوسطى عمقا وتأثيراً .

Saint Augustine . Confessions . F.Sheed, trans . New York : Sheed and Wad . 1942 .

يتناول الحج النفسى والروحى للمعلم الأكبر للكنيسة الغربية موضحا الجوانب المذهلة فى هذه الشخصية .

الجزء الثانى : تحول الحكومة والمجتمع الأوربى .

الفصل الرابع : عصر الغزوات الجرمانية .

Bury , J.B. The Invasion of Europe by the Barbarians : New York : Norton 1967 .

وهو عبارة عن سرد ممتاز للتاريخ السياسى .

Chadwick , H.M. The Heroic Age , Cambridge : Cambridge University Press , 1926 .

مقارنة حاذقة بين العالم الجرمانى والعالم البطولى .

Courcelle , P.P. Histoire literaire des grands invasions germaneques . paris : Hockette , 1948 .

وهو بحث مقنع وأصيل فى الثقافة الجرمانية ؛ ودراسة لم يسبق لها مثيل .

Dopsch , A. The Economic and Social Foundations of Europe . New York : H.Eertig , 1969.

مناقشة مكثفة تحاول إثبات أن الغزوات الجرمانية لم تحدث سوى القليل من الضرر الاقتصادى والاجتماعى . وهو دراسة تاريخية ذات اتجاهات نازية .

Latouche , R. Les grands invasions et le cris d'occident au Viem Siécle . paris : Aubier , 1946 .

أحسن تاريخ كتب عن الكوارث التى نجمت عن الغزو والتفكك الاجتماعى ، وهو دراسة ذكية بشكل يثير الدهشة .

Lott, F. The end of the Ancient World and the Beginning of the Middle Age. New York : Harper and Row , 1974 .

أحد المؤلفات الكبرى حول هذه الفترة التى تميزها الفوضى ، كتب فى العقد الثانى من القرن العشرين ، وهو يعكس عصره ؛ ومن آثار عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة .

Salin , E. Le civilisation merovingienne . 5 vols . paris : A. et J . Picard 1959 .

محاولة بالدليل الأثرى والعملات وبالدليل الأدبى لإثبات أن الغزوات كانت كارثة مطبقة .

Wallace-Hadrill,J.M. The Babarian West, New York : Harper and Row 1952 .

المصادر :

Beowulf . M.Alexander, trans . Baltimore : Penguin , 1973 .

وهذه الملحمة عبارة عن واحد من أفضل موضوعات البطل الشعبى الجرمانية ؛ وهو كتاب معقد للغاية .

Gregory , Bishop of Tours . History of the Franks . L.Brehout , trans. New York : Norton , 1969 .

والكتاب يحكى قصة الفوضى ، والعنف ، والقسوة التى اتسم بها مجتمع بلاد الغال الفرنجية كما رآها أسقف أرستقراطى وهو مدهش .

Tacitus . Germania . H.Mattingly , ed . Baltimore : Penguin , 1971 .

وهو يمثل وجهة نظر أرستقراطى رومانى عن أساليب الحياة البدائية لدى الشعوب الجرمانية – وربما يكون هجوما على التدهور الرومانى .

الفصل الخامس : بيزنطة والإسلام .

بيزنطة .

Baynes , N., and Moss . H. Byzantium : Introduction to Eastern Roman Civilization . New York : Oxford University Press , 1948 .

Diehl , Ch. Byzantium : Greatness and Decline . New Brunswick , N.J.: Rutgers University Press , 1957 .

مقدمة طريفة عن الحضارة البيزنطية .

Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State . New Brunswick, N.J. Rutgers University Press , 1969 .

كتاب تاريخ نادر المثال فى معالجته لأحوال بيزنطة ، وبه قائمة شاملة من المصادر والمراجع .

Vasiliev , A.A. History of the Byzantine Empire , 2vols. Ann Arbor : Univesity of Michigan Press , 1968 .

ملئ بالتفاصيل ومفيد .

المصادر :

Hull , D.B.Digenes Adritas , The Two Blood Border Lord . Athens Ohio University Press , 1972 .

أعظم ملحمة بطولية .

Procopius . The Secret Histories , R. Atwater , trans . Ann Arbar : University of Michigan Press . 1964 .

صور بلا رتوش للإمبراطور جستنيان والإمبراطورة تيودورا .

The Institutes of Justinian . T.C. Sandars trans . 7th ed . London . Longmans, 1948 .

أكبر مجموعة قوانين تم جمعها ، وهي عالم قائم بذاته ، وقد تحولت لتخدم أوربا القرن الثاني عشر .

الإسلام :

Gibb , H. Mohammedanism . 2nd ed . London : Oxford University Press , 1953 .

Goitein , S.D. Studies in Islamic History and Instituions . New York : Humanities , 1966 .

مجموعة من المقالات الهامة حول جوانب مهمة من الحياة الإسلامية .

Grunebaum , G. von , Medieval Islam , 2nd . ed . Chicago : University of Chicago press 1953 .

Hitti , p.K. A history of the Arabs . 10th ed . New York : S.Martin , 1970 .

Rodinson . A . Mohammed .. Now York : Pantheon , 1971 .

سيرة للنبي (ﷺ) كتبها يساري فرنسي ، وهو كتاب مثير .

Saunders , J . A history of Medieval Islam . New York : Barnes and Noble , 1965 .

Watt, W.M. A history of Islamic Spain . Chicago : Adline , 1965 .

كتاب مفيد يعالج واحدة من أزهى فترات الحضارة الإسلامية .

الفصل السادس : نمو الزعامة الكنسية .

Casper El Geschichte des Papstumo . 2vols . Tubingen , West Germany : Mohr , 1930 .

أفضل ماكتب عن البابوية في القرن السادس ؛ وهو كتاب كلاسيكي ؛ مذهل في معلوماته، رائع ويكشف عن رؤية داخلية للأحداث .

Dudden , H. Gregory the Great . 2vols . London : Russel , 1967 .

كتاب كئيب ولكنه مفيد .

Schmitz , P . Geschichte des Bendicktinerordens . Zurich : Benziger , 1960 .

Ullman , W . The Growth of the Papal Government in the Middle Ages London : Methuen , 1965 .

عمل يقنعك بأن نمو الكنيسة اللاتينية كان عملية عضوية ، وهو يمتاز بالحرفية وهام .

المصادر :

Gregory the Great . The life of St. Bendict . M.L. Uhlfelder , trans . Indianapolis : Bobbs-Merrill , 1966 .

The Rule of St.Benedict-Excerpts from the Holy Rule of St.Benedict . St.Charles III. : St.Charles House , 1974 .

Waddell , H. The Desert Fathers . Ann Arbor : University of Michigan Press , 1957 .

الجزء الثالث : أوربا الأولى .

الفصل السابع : بناء الملكية الكارولنجية .

Bieler , L. Ireland Harbinger of the Middle Ages . London : Oxford University Press , 1966.

Bair P.N. Introduction to Anglo-Saxon English . New York : Cambridge University Press , 1954 .

Chadwick , N. Celtic Britain . New York : Praeger , 1963 .

كتاب يتسم بالأصالة ، ودراسة قيمة .

Hanning , R. The Church in the Early Irish Society . Ithaca , Oxford University Press .

كتاب يكشف عن الإبداعية والحيوية والأصالة التى تميزت بها الكنيسة .

Huges K. The Church in the Farly Irish Society . Ityaca , N . Y . Cornell University press . 1966 .

استكشاف للتغيرات الثقافية فى القرن الثامن ، وهو كتاب هام يمتاز بالحرص والاتزان .

Schieffer , T. Winfred Bonifatius und die Cheistliche Grundle,gen Europas . Eng . : Pelican , 1950 .

مقدمة مفيدة جداً عن انجلترا الأنجلوسكسونية .

المصادر :

Bede . The Ecclesiastical History of the English People . L . Shirley - Price trans . Baltimore , Penguin , 1974 .

أحسن مؤلف تاريخى كتب فى العصور الوسطى الباكرة .

الفصل الثامن : الثقافة والمجتمع فى أوربا الأولى .

Bronsted, J, The Vikings. Balitmore : Penguin 1973 . Burns , C.D. The First Europe , London : Allen and Unwin , 1974 .

Caulburn , R, Feudalism in History . Princeton , N . J. : Princeton University Press , 1957 .

Fichtenau , H.The Carolingian Empire. P. manz , trans . New York : Harper and Row , 1963 .

Ganshof , F.Feudalism , P. Grierson, trans New York : Harper and Row 1961 .

__________, Frankish Institutions Under Charlemagne , New York:Norton, 1970 .

عبارة عن مجموعة مقالات عن جوانب مختلفة من الإمبراطورية الكارولنجية .

Halphen , L. Charlemagne et l'empire carolingien . Paris : A.Michel , 1949 .

أحسن كتاب كتب فى هذا الموضوع : وهو عبارة عن توليفة جميلة .

Hinks, R. Carolingian Art. Arbor : University of Michigan Press , 1962 .

Laistner , M.L.W. Thought and Letters in Western Europe, Ithaca, N.Y. Cornell University Press , 1966 .

Latouche, R., The Birth of the Western Economy . London : Methuen 1961 .

Pirenne , H., Mohammed and Charlemagne . New York : Norton , 1939 .

علامة على طريق البحث التاريخى يتناول تأثير الإسلام على أوروبا الغربية ، ومؤلفه واحد من أعظم علماء التاريخ الوسيط : اقرأه ولكن لاتصدقه بالضرورة .

Turville-Perte , G., The Heroic Age of Scandinavia . New York : Hutchinson's University Library , 1951 .

White, L., Mediveal Technology and Social Change. New York : Oxford University Press , 1966 .

كتاب هام يحلل بذكاء تأثير تكنولوجيا الحرب على التنظيم الاجتماعى فى أوروبا .

المصادر :

Einhard and Notker the Stammerer . The Lives of Charlemagne. L. Thorpe : Penguin 1966 .

صورتان مثيرتان لأعظم ملك فى العصور الوسطى الباكرة .

Lupus of Ferrier . Collected Letters. G.W.Regenos , Trans . The Hague: Martinus Nijhoff , 1967 .

عبارة عن مجموعة كاملة من الخطابات التى كتبها أحد الأعضاء الثانويين فى « النهضة الكارولنجية ».

الجزء الرابع : التوازن فى العصور الوسطى الباكرة .

الفصل التاسع : الكنيسة والعالم .

Barraclough , G., the Origins of Modern Germany . New York : Putman , 1963 .

Focillon, H. The Year 1000 A.D. Wieck, trans . New York : Harper and Row 1969 .

عن تأثير إلهامات الألف الأولى على الفن فى العصور الوسطى ، عقلى ومقنع .

Kantorowicz , E., Laudes Regiae , Berkeley : University of California Press , 1958 .

يتناول أيديولوجية الملكية الثيوقراطية ، وهو كتاب غير عادى ، وهام .

Schramm , P.E.Kaiser , Rom , und Renovatio . Berlin : B.G. Teubner , 1929.

Tellenbach , G.,Church, State, and Christian Society at the time of the investitiure Contest . New York : Harper and Row , 1970 .

أحسن دراسة عن الأسس الأيديولوجية للسياسة فى القرن الحادى عشر ؛ وهو الكتاب الوحيد الذى يجب قراءته عن الإصلاح الجريجورى .

Thompson , J.W. Medieval Germany . Chicago : University of Chicago Press , 1928 .

الفصل العاشر : بيزنطة والإسلام ، والغرب .

Geanakopolos , D.J., Byzantine East and Latin West . New York : Harper and Row , 1966 .

Grabar , A. , Byzantine and Early Medieval Painting . New York : Viking , 1973 .

Hussy , J., Church and Learning in the Byzantine Empire . New York : Russell and Russell , 1963 .

مجموعة من المقالات تبحث فى العلاقة بين الدراسة ، والدين ، والسياسة فى العالم البيزنطى .

Lewis , B., The Arabs in History . New York : Harper and Row , 1966 .

Obolensky , D., The Byantine Commonwealth . London : Weidenfeld , 1972 .

كتاب مفيد ، يتضمن آراء أصيلة عن الثقافة البيزنطية والمؤثرات البلقانية فيها .

Southern, R.W., Western Views of Islam in the Middle Ages . Cambridge , Mass : Harvard University Press , 1962 .

المصادر :

Comnena , Anna . Alexiad , A.S. Dawes , trans . New York : Barnes and Boble , 1967 .

Hitti , P.K., Usamah ibn - Munqidh An Arab - Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades . New York : Columbia University . Press , 1929 .

كتاب « الاعتبار » للفارس السورى أسامة بن منقذ تعبير عن الرؤية الإسلامية للصليبيين .

ابن خلدون ، المقدمة .

الجزء الخامس : عصر الإصلاح الجريجورى .

الفصل الحادى عشر : على مشارف العصور الوسطى العالية .

Bloch , M. Feuda Society . L. Manyan , trans Chicago : phoenix 1966 .

Brooke, Z.N.Z. History of Europe 911 - 1198 . London : Methuen , 1938 .

Duby , G., Rural Economy and Country Life in the Medieval West . G. Postan , trans . London : Arnold , 1968 .

Focillen , H., The Art of the West in the Middle Ages . 2vols . New York : Phaidon , 1969 .

Hallinger , K. Gorge - Kluny . Rome : Studia Anselmiani , 1950 .

عن الإصلاح الديرى .

Kern , F. , Kingship and Law in the Middle Ages . S.B. Chrine , trans . New York : Harper and Row , 1970 .

مناقشة ذكية واعية عن نظريات الملكية ، والقانون المدنى ، والنظرية التشريعية فى العصور الوسطى .

Leclerq , J., The Love of Learning and the Desire for God , New York : Mentor , 1962 .

Lopez , R.S. The Birth of Europe . New York : M. Evans , 1967 .

كتاب واسع الأفق ، حافل بالمعلومات ، وهو عبارة عن تاريخ اقتصادى واجتماعى جيد .

Sackur, E., Die Cluniacenser . Darmstadt , Germany : Wissenchaftliche Buchgesellschaft , 1968 .

أشمل وأعمق ماكتب حتى الآن حول تأثير الإصلاح الديرى فى القرن الحادى عشر ؛ وهو مبهر من حيث مداه ومعلوماته الغزيرة . (طبعته الأولى سنة ١٩١١) .

المصادر :

The Song of Roland. D.L. Sayers , trans . Baltimore : Penguin 1968 .

قصيدة ملحمية تكشف عن أخلاقيات ثقافة الطبقة الأرستقراطية المحاربة فى القرن الحادى عشر .

الفصل الثانى عشر : الثورة الجريجورية العالمية .

Fliche, A. Le Reform grégorienne et la reconquête Chrétienne, Paris : Bloud et Gay , 1950 .

على الرغم من أنه كُتب منذ أكثر من خمسين عاما ، فإنه مايزال واحداً من أحسن ماكتب من المؤلفات عن عصر الإصلاح الجريجورى ، ومؤلفه كاثوليكى محافظ .

Fournier ,p . and Le Bars , G., Histore des collections canoniques en Occident . Paris : Sirey , 1932 .

Klewitz, H.W., Reformpapstum und Kardinalkolleg . Darmstadt Germany : H. Center , 1957 .

دراسة ذكية للأيديولوجيات المتصارعة فى مجتمع الكرادلة .

Marrison, K.F., Tradition and Autority in the Western Church . Princeton N.J. Princeton University Press , 1969 .

Prinz, J., Popes from the Ghetto . New York : Schocken , 1968 .

رواية مشيرة للمشكلات عن العائلة اليهودية المتنصرة التي يقال إنها كانت تمول حركة الإصلاح الجريجوري.

Tierney , B. The Crisis of the Church and State . Englewood Cliffs , N.J.: Prentice-Hall, 1964 .

مقدمة مفيدة عن مسائل ومشكلات النزاع حول التقليد العلماني .

Whitney ,J.P., Hidebrandine Essays . Cambridge Univ . Press , 1923 .

المصادر :

The Correspondence of Gregory VII . E.Emerton, trans . New York Norton , 1966 .

الفصل الثالث عشر : الملكية الأنجلو - نورمانية وظهور الدول البيروقراطية .

Brooke, Z.N., The English Church and Papacy from the Conquest to the Reign of John . Cambridge : Cambridge University Press , 1939 .

Cantor , N.F., Church , Kingship , and Lay Investiture in England .New York : Octagon Books , 1967 .

______, ed. William Stubbs on the English Constitution , New York : Crawell , 1966 .

Davis , R.H.C. , King Stephen . Berkeley : Univ . of California Press, 1967 .

Dougla , D.C. , William the Conquereor . Berkeley : University of California Press , 1969 .

سيرة جيدة ومحبوكة لواحد من أعظم ملوك إنجلترا وأكثرهم حيوية .

Haskins , C.H., The Normans in Europrean History New York : Norton , 1966 .

دراسة تفيض بالإعجاب عن طاقة ، وقدرة ، وكفاءة النورمان ، وهو كتاب ساذج ولكنه ممتع .

John , E., Orbis Britanniae . New York : Humanities , 1966 .

مجموعة مقالات تعالج موضوعات في تاريخ انجلترا في أواخر العصر الأنجلو سكسوني .

Knowies , D.,The monastic Order in England , Cambridge : Cambridge Univ . Press , 1940.

عمل هام يعالج كافة جوانب الحياة الديرية في انجلترا ؛ وهو عام قائم بذاته ، وقراءاته ممتعة .

Maitland , F.W., Domesday Book and Beyond . Cambridge : Cambridge Univ . Press 1907.

من أهم ما كتب في التاريخ القانوني والاجتماعي .

Richardson , H., and Sayles, G.O. The Governance of Medieval England Edinburg : Edinburg University Press , 1963 .

Sayles , G.O. The Medieval Foundations of England , New York : A.S. Barnes , 1950 .

المصادر :

The Ecclesiatical History of Odericus Vitalis . M. Chibnall , Trans , and ed . Oxford : Clarendon Press , 1964 .

كتاب شامل وساحر عن تاريخ الدوقات النورمان منذ مطلع القرن الحادى عشر حتى سنة ١١٥٤ .

الفصل الرابع عشر : الحملة الصليبية الأولى ومابعدها .

Alphandery , P. and Dupont , A., La Chrétienté et l'idée de Croisade . Paris A. Michel , 1954 - 59 .

Erdman, C., Die Enstelung des Kes Kreuzugsgedankens . Stuttgart : Kohlhammer , 1965 .

دراسة ذكية عن أصول وأسس المثال الصليبى . كتاب بالغ الأهمية .

Krek , A.C., The First Crusade . Gloucester , Mass . : Peter Smith , 1955 .

Runciman , S., A Hist . of the Crusades . 3 vols . New York : Harper & Row , 1955 .

Throop , p.A., Criticism of the Crusades . Amesterdam : N. Swets and Zeitlinger , 1940 .

المصادر :

Gesta Francorum , R.Hill , ed . Camden , N.J. : Nelson , 1962 .

Joinville , Jean de , and Villehardouim , Geoffri de . Chronicles of the Crusades . M. Shaw , ed . Baltimore : Penguin , 1963 .

الجزء السادس : التعليم ، والدين ، والسلطة .

الفصل الخامس عشر : النمو الثقافى لأوربا .

Cantor , N.F., The Meaning of the Middle Ages . Boston : Allyn & Bacon , 1973 .

Chenu , M.O., Nature , Man , and Society in the Twelfth Century . Chicago : University of Chicago Press , 1968 .

Chodorow , S.A., Christian Political Theory and Church Politics . Berkeley : University of California Press , 1972 .

Curtius , E.R. , European Literature and the Latin Middle Ages . New York : Harper & Row , 1963 .

Denomy , A.J., THe Heresy of Courtly Love . Gloucester , Mass . : Oeter Smith , 1965 .

دراسة تثير الجدل حول دلائل ومغزى الغراميات فى البلاط .

Dranke , P ., Medieval Latinand the Rise of the Love Lyric . New York : Oxford University Press , 1966 .

كتاب هام يتناول أصول ، وتطور ، وموضوعات شعر البلاط .

Ghellink , J . de. L'essor de la Literature latin au XII ie Siécle . Brussels Desclee de Brouwer , 1955 .

Gilson , E. A History of Christian Philosophy in the Middle Ages . N.Y. : Randon House , 1955 .

كتاب يمتاز بالحرص ، والتفصيل ، وهو فائق الأهمية .

______ , The Mystical Theology of St.Bernard . New York : Sheed & Ward , 1955 .

تحليل هام لمواقف سان برنار اللاهوتية .

Heer , F. The Medieval World . New York : Mentor , 1964 .

محاولة مثيرة لدمج السياسة ، والدين ، والفكر فى القرن الثانى عشر .

Kuttner , S., Harmony from Dissonance . Latrobe , pa . : Archabbey Press 1960 .

محاولة لفهم مكونات وبنية القانون الكنسى .

Le Bras , G., Lefebure , C., and Rambaud , J., L'âge classique . Paris : Sirey , 1965 .

Leff , G. Medieval Thought . Chicago : Quadrangle , 1959 .

مناقشة حاذقة للاتجاهات الرئيسية فى الفلسفة واللاهوت فى العصور الوسطى .

Lewis , C.S. The Allegory of Love . New York : Oxford Univ . Press , 1967.

Morris , C. The Discovery of the Individual . London : S.P.C.K., 1972 .

Panofsky , e. Abbot Suger and the Abbey Church of St. Senis . Princeton : Princeton University Press , 1948 .

Sikes , G. Peter Abelard . New York : Russell & Russell , 1965 .

سيرة جيدة تصف حياة أحد القادة الثقافيين فى القرن الثالث عشر .

Southern , R.W. The Making of the Middle Ages . New Haven : Yale Univesity Press , 1953 .

Vinogradoff , p. Roman Law in . Medieval Europe . New York : Barnes & Noble , 1968 .

Wolff , P. The Cultural Awakening . New York : Pantheon , 1968 .

المصادر :

Abelard , Peter . Historia Calamitum . Toronto : Pontifical Institute , 1964 .

إنتصارات ومآسى واحد من أعظم مفكرى العصور الوسطى ؛ قطعة من التاريخ النفسى .

Eschenbach , Wolfram von . Parzival . New York : Random House . 1973 .

قمة الرومانسية الوسيطة : وربما يكون هذا الكتاب هو أكثر كتب العصور الوسطى خيالية.

John of Salisbury . The Statesman's Book . J. Dickinson , trans . N.Y. : Russell & Russell , 1963 .

أحسن مثل على التراث الإنساني في العصور الوسطى .

The Letters of St.Bemard . B.S. James , trans . Chicago : Regenery , 1953 .

الفصل السادس عشر : الفكر الإسلامي واليهودي : التحدي الأوسطي .

Baron , S.A. Social and Religious History of the Jews . 9 vols . N.Y. : Columbia University press , 1952 .

Husik , I.A. History of Medieval Jewish Philosophy N.Y. : Atheneum , 1966.

Katz , J. Tradition and Crsis . New York : Schocken , 1971 .

دراسة ممتازة للمشكلات التي واجهت الحياة اليهودية في العصور الوسطى .

Peters , F.E. Aristotle and the Arabs . New York : N.Y. University Press 1968 .

Sharif , M.M. A History of Muslim Philosophy . 2 vols . Wiesbaden : Harrassowitz , 1966 .

كتاب جيد جداً عن تاريخ مشكلات ومدارس وتطورات الفلسفة الإسلامية في القرن الثاني عشر .

المصادر :

مؤلفات ابن رشد .

Halevi , Judah . The Kuzari . into . by H.Slonimsky . New York . Schocken , 1964 .

Maimondes , oses . The Guide for the Perplexed. M. Fridlander , Trans . New York : Dover . 1904 .

الفصل السابع عشر : تنوع التجربة الدينية .

Borst , A. Die Catherer . Stuttgart : Hiersemann , 1953 .

Cohn , N. The Pursuit of the Millennium . N.Y.: Oxford Uinv . Press . 1970 .

دراسة اجتماعية للحركات الأخروية في أوربا ماقبل العصر الحديث ، لايعتد به ولكنه مثير.

Grundmann , H. Religiose Bewegungen in Mittelatter . Hildesheim , West Germany : G.Olm , 1961 .

Koch , G. Frauenrfage und Ketzertum . Berlin : Deutsche Verlage , 1966.

تحليل اقتصادي اجتماعي لمكانة المرأة في الحركات الهرطقية .

Lea , H.C. Inquisiton of the Middle Ages . N.Y. : Harper & Row , 1974 .

Leff , G. Heresy in the Later Middle Ages .N.Y. : Barnes & Noble , 1967.

Runciman , S. The Medieval Manichee . Cambridge : Cambridge Univ . Press , 1955 .

مقدمة جيدة عن تاريخ الهرطقة .

Russel , J.B. Witchcraft in the Middle Ages . Ithaca , N.Y. : Cornell Unversity Press , 1972.

Thouzellier , Co Catharisme et Valdensianisme en Languédoc Louvain , Belgium : Nauwe-laerts , 1966 .

Wakefield , W. Heresy , Crusade , and Inquisition in Southern France . Berkeley : University of California Press , 1974 .

أفضل مقدمة فى هذا الموضوع لما تتسم به من إتزان ووفرة فى المعلومات .

المصادر :

Evans , A.P., and Wakefield , W., eds . Heresies in the the High Middle Ages . New York : Columbia University Press , 1969 .

مجموعة شاملة وقيمة للمصادر الأصلية .

الفصل الثامن عشر : تعزيز الزعامة الدنيوية .

Cantor , N.F. The English . New York : Clarion , 1976 .

محاولة الربط بين السياسة ، والمجتمع ، والثقافة .

Chrimes , S.B. An Introduction to th Administrative History of England . Oxford University Press , 1962 .

Fawtier , R. The Capetian Kings of France . New York : St. Martin , 1960 .

Hyde J.K. Society and Politics in Medieval Italy . New York : St. Martin , 1973 .

Kantorowicz , E. The King's Two Bodies . Princetion , N.J.: Princeton Univ. Press 1957 .

Keily , A.Eleanor of Aquitaine and the Four Kings . Cambridge , Mass . : Harvard University Press . 1950 .

Jolliffe , J. Angevin Kingship : London : A . and C.Black , 1963 .

Knowles , D. Thomas Becket . London : British Academy , 1949 .

Lot , F. and Fawtier , R . Histoira des institutions francaises au moyen age . Paris : Presses Univeritaires de France , 1957 .

Maitland , F.W. and Pollock , F. The History of English Law , 2vols. Cambridge : Cambridge University Press , 1973 .

دراسة ذكية ومركبة للقانون والمجتمع الإنجليزى فى العصور الوسطى .

Muntz , P. Frederick Barbarossa . Ithaca , N.Y.: Cornell University Press, 1969 .

Painter , S. French Chivalry . Ithaca . N.Y.: Cornell Univ . Press , 1957 .

____ , William Marshal . Baltimore : John Hopkis University Press , 1933 .

سيرة لفارس بارز من فرسان أواخر القرن الثانى عشر .

Schramm , P.E. Der Konig von Frankreich . Weimar : H. Bohlaus , 1960.

Warren, W.L. Henry II. Berkeley University of California Press , 1973 .

المصادر :

Fitzeale , Richard . The Course of the Exchequer . C.Johnson , ed . Camden . N.J. : T. Melson , 1950 .

العقلية البيروقراطية فى العصور الوسطى .

John of Salisbury . Historia Pontificalis . M. Chibnall , trans . Camden , N.J. : T. Nelson , 1962 .

مذهل من حيث أنه يكشف عن أساليب السياسة القذرة فى روما .

الجزء السابع : البحث عن توازن جديد .

الفصل التاسع عشر : سلام إنوسنت الثالث .

Brentano , R. The Two Churches . Princeton , NJ. Princeton Univ . Press , 1968 .

Jungmann , J. The Mass of the Roman Rite , New York : Benziger , 1955 .

Lambert , M. Franciscan Poverty . London : S.P.C.K. , 1961 .

بحث فى المسألة التى خلقت النظام الفرنسسكانى ، وأدت فى النهاية إلى حدوث الإنقسام فى صفوفه ، هام .

Luchaire , A. Innocent III .5 vols . Paris : A . Picard , 1925 .

Mortimer , R. Western Canon Law . Berkeley : A. and C. Black 1953 .

Packard , S.R. Europe and the Church Under Innocent III . New York : Russell & Russell , 1968 .

Pool , A . L. Lectures on te History of the Papal Chancery . Oxford : Clarendon Press , 1922.

دراسة عن الجهاز المحرك للحكومة البابوية .

Powice , F.M. Stephen Langton . Oxford : Clarendon Press , 1982 .

Sabatier , P. Saint Francis of Assisi . New York : Scribner , 1894 .

المصادر :

Brown, R.., ed . The Little Flowers of St.Francis . Garden City , N.Y.: Doubleday , 1971 .

الأيديولوجية والأساطير الفرنسسكانية : وثقافة نقابات البورجوازيين . تجدها فى هذا الكتاب الذى يعطيك صورة قوية عن تأثير الفرنسسكان على المجتمع الحضرى .

الفصل العشرون : الرفاق الجديد وعيوبه .

Baldlwin , J.W. The Scholastic Culture of the Middle Ages . Lexington , Mass . : Heath , 1972 .

Branner, R. Gothic Architecture . New York : Braziller , 1961 .

Carté, M.H. Realists and Nominalists . New York : Oxford University Press , 1947 .

Carsten, F.L. The origins of Prussia . New York : Oxford Univ . Press , 1954 .

دراسة لحركة الزحف الألمانى صوب الشرق .

Copleston, F. Aquinas . Baltimore : Penguin , 1955 .

دراسة مفيدة عن حياة وفكر أعظم فيلسوف فى القرن الثالث عشر .

Cromble, A. Robert Grosseteste and the Origins of Experimental Sience Oxford : Clarendon Press , 1962 .

Easton, S. Roger Beacon . New York : Columbia University Press , 1952.

Gilson, E.The Philosophy of St. Bonaventure . Paterson, N.J.: St. Anthony Guild Press , 1956 .

Gimpel, J. The Cathedral Builders. C.F. Jones, trans . New York : Grove, 1961.

Grabmann, M. Die Geschichte der Scholastichen Methode . Berlin : Akademie Verlag, 1966 .

Holt, J.C. Magna Carta . New York : Wiley , 1969 .

كتاب حديث ممتاز يناقش مشكلات وتفاسير الميثاق الأعظم .

Homans, G. English Villagers of the Thirteenth Century London : Russell & Russell , 1960.

دراسة اجتماعية متميزة للرجل العادى فى أوربا العصور الوسطى .

Kantorowicz , E.Frederick II. E.O. Lorimer , trans . New York : Ungar 1957.

تصوير للفاشية فى العصور الوسطي .

Leff, G. Paris and Oxford Universities in the Thirtennth and Fourteenth Centuries Grand Rapids , Mich Krieger 1968 .

كتاب محكم يجمع فى ذكاء بين كافة جوانب الحياة الجامعية .

Luchaire, A. Social France at the Time of Philip Augustus . New York : Harper & Row , 1970 .

Mâle, E.The Gothic Image . New York : Harper & Row , 1973. McKechnie, W.S. Magna Carta. New York, Franklin , 1958 .

تقرير كامل وشامل للغاية عن الميثاق الأعظم ، ولكنه غير عصرى إلى حد ما .

Noonan, J.T. The Scholastic Analysis of Usury . Cambridge, Mass . Haverd University Press , 1957 .

كتاب هام يتناول بالمناقشة التحليل المدرسى وأساليبه .

Painter, S. The Reign of King John . Baltimore : Johns Hopkins University Press 1941 .

كتاب فى التاريخ السياسى من الدرجة الأولى .

Panofsky, E. Gothic Architecture and Scholasticism . New York : World Publishing , 1967.

استكشاف داخلى لتأثيرات العادات المدرسية العقلية على فن البناء ، وهو كتاب مثير للجدل .

Powicke, F.M. Henry II and the Lord Edward . Oxford : Clarendon Press, 1950 .

______ , The Thirteenth Century . Oxford : Clarendon Press , 1962 ; Rashdall, H. Universities in the Middle Ages .E. Emden and F.M. Powicke , eds. Oxford : Oxford University Press , 1936 .

دراسة مضنية عن الجامعات والحياة الجامعية فى العصور الوسطى.

Sarton, G. An Introduction to History of Sience . Baltimore : Williams and Williams , 1927.

Simson, O. von . The Gothic Cathedral. New York :Pantheon 1962 .

Steenbergen, F. von , Aristotle in the West . Louvain , Belgium : Nauewelaerts, 1955 .

Strayer , J.R. The Albigensian Crusade . New York : Dial 1971 .

تاريخ ممتاز يطرح أفكاراً حول السيادة والوجه القبيح للإستعمار الكابى فى جنوب فرنسا ، وهو كتاب صغير الحجم عظيم القيمة لواحد من أعظم المتخصصين الأمريكيين فى تاريخ العصور الوسطى .

Temko, A.Notre Dame of Paris . New York : Viking , 1955 .

Thorndike, L.A. History of Magic and Experimental Sience . New York : Macmillan , 1941

Waddell, H. Wandering Scholars . Garden City, N.Y Doubleday, 1955 .

ترجمات ممتازة لمؤلفات العلماء - الشعراء الراديكاليين الذين عرفوا باسم الجولياردين .

Young, K. The Drama of the Medieval Church, Oxford : Clarendon Press , 1967 .

المصادر :

Lorris, Gillaum , and Meun Jean de. Roman de la Rose. S.G. Nichols, ed. New York : Appleton - Crofts, 1967 .

الجزء الأول عبارة عن تلخيص للمثل والقيم السائدة فى البلاط ؛ أما الجزء الثانى فكشف مثير عن تحلل الثقافة والمجتمع فى العصور الوسطى ؛ وهو كتاب هام للغاية .

Pegis, A.C., ed. The Basic Writing of St.Thomas Aquinas. New York : Modern Library , 1945 .

الجزء الثامن : الإنهيار .

الفصل الحادى والعشرون : فشل الوفاق الجديد .

Boase, T.S.R. Boniface VIII. London : Constable and Co., 1933 ; Hilton, R. Bond Men Made Free . London : Smith, 1973 .

تحليل ماركسى قيم لعصيان الفلاحين فى العصور الوسطى .

Leff, Gordon. Heresy in the Late Middle Ages . Manchester : University Press , 1967 .

دراسة واعية لأسس التحلل والثورة .

Macfarlane, B. John Wycliff and the Begining of English nonconformity . Londn : English Universities Press , 1952 .

Mollat, G. The Popes of Avignon. Camden, N.J. : T. Nelson, 1963 .

Perroy, E. The Hundred Years War. New York : Putnam , 1965 .

دراسة تنجح فى رصد بعض مظاهر الفوضى والعنف التى سادت إبان حرب المائة عام .

Runciman, S.The Sicilian Vespers. Cambridge : Cambridge University Press , 1958 .

مكتوب بطريقة جميلة .

Ullmann, W. The Origins of the Great Schism . Hamden , Conn : Anchon Books , 1976 .

Wilkins, E.H. The Life of Petrarch . Chicago : Chicago University Press , 1961 .

سيرة شاملة لأول العلماء الإنسانيين .

المصادر :

Dante Alighieri . The Divine Comedy . D.L. Sayers , ed. 3 vols . Baltimore , Penguin , 1954.

تعتبر عادة أعظم المؤلفات الأدبية فى العصور الوسطى - وهو كتاب يجسد تراث العصور الوسطى الذى يتطلع صوب عصر جديد .

Froissart, The Chronicles of England, France , and Spain. G.W. Dunn, ed . New York : Dutton 1961 .

Marsilius of Padua . Defender of the Peace . A. Gewirth , ed. New York ; Harper &Row 1964 .

هجوم راديكالى جذرى على مزاعم وإدعاءات الكنيسة فى العصور الوسطى ؛ وهو تعبير عن النزعة العلمانية الجديدة .

Petrarch . Selected Sonnets, Odes, and Letters. F.G. Bergin, ed. Northbrook, Ill. : AHM Publishing Company , 1966 .

الجزء التاسع : نهاية وبداية .

الفصل الثانى والعشرون : بين عالمين .

Baron, H. The Crisis of the Early Italian Renaissance. Princeton, N.J. Princeton University Press , 1966 .

بحث دقيق فى القوى السياسية التى ولدت إزدهار فلورنسا .

Bloomfield, M. Piers Plowman as a Fourteenth Century Apocalypse . New Brunswick , N.J. Rutgers University Press , 1962 .

كتاب رائد فى دراسة التيارات الدينية فى القرن الرابع .

...er, G. Renaissance Florence. New York ; Wiley 1969 .

تقرير ممتاز عن أحد مراكز النهضة الإيطالية ، قوى فى عرضه للسياسة والمجتمع .

Burckhardt J. The Civilization of the Renaissance in Italy . New York : Wiley , 1969 .

من أكبر مؤلفات القرن التاسع عشر ، يرى أن النهضة جاءت بنظرة جديدة للإنسان . مايزال مثيراً للجدل .

Burke, p. Culture and Society in Renaissnce Italy . New York : Scribner , 1972 .

تفسير بنائى ذكى ، أصيل ، وفائق الأهمية .

Calmette, J. The Golden Age of Burgundy . New York, Norton . 1963 .

Chrimes , S.B. Lancastrians, Yorkists , and Henry VII. New York; Macmillan , 1967 .

Clagge, M. The Science of Mechanics in the Middle Ages . Madison : University of Wisconsin Press , 1961 .

Du Boulay, F. An Age of Ambition . New York : Viking , 1970 .

دراسة ممتازة مقنعة للمجتمع والثقافة والسياسة فى انجلترا فى أواخر العصور الوسطى ، هام .

Ferguson, W.K. The Renaissance in Historical Thought, Boston : Houghton Miffilin, 1948 .

Hay, D. The Italian Renaissance in its Historical Bechground . New York : Cambridge University Press , 1961 .

Huizinga, J. The Waning of the Middle Ages . Garden City, N.Y.: Doubleday , 1924 .

عمل شامل يستكشف تغلغل النماذج القديمة من فكر العصور الوسطى وسلوكياتها فى القرن الخامس عشر . وهو يكشف بطريقة مؤثرة عن التدهور فى العصور الوسطى المتأخرة .

Lewis C.S. The Discorded Image. New York : Cambridge University Press , 1968 .

مناقشة ذكية للنماذج الفكرية ، والرموز ، والخيال فى أواخر العصور الوسطى .

Mcluhan, M. The Gutenberg Galaxy . New York : New American Library , 1969 .

Meies, M. Painting in Florence and Siena After the Black Death , New York : Harper & Row , 1964 .

Oberman , H. The Harves of Medieval Theology . Cambridge , Mass : Harvard University Press , 1963 .

أزمة الفكر فى اعصور الوسطى المتأخرة .

Oman, G. The Great Revolt of 1381. Oxford : Clarendon Pres , 1906 .

Owst, G. Pulpit and Preaching Medieval England. Cambridge University Press , 1926 .

Robertson, D.W., Jr.A Preface to Chaucer, Princeton , N.J.: University Press, 1963 .

كتاب هام للغاية ، فهو دراسة أصيلة مقنعة لبناء الأدب فى العصور الوسطى المتأخرة .

Stadelann, Rudolf. Vom Geist des Ausgebenden Mittelalters. Stuttgart Framman , 1966 .

على الرغم من أنه كتب فى عشرينيات القرن العشرين ، فإنه مايزال هو الكتاب الكلاسيكى الذى يقوم بمسح شامل لأدب العصور الوسطى المتأخرة .

Tieény, B. Foundations of the Conciliar Movement, Cambridge : Cambridge University Press , 1955 .

المصادر :

Baccacio , Giovanni . The Decameron, G.H. Mcmillian , trans . Baltimore : Penguin, 1972.

مثال على الروح العلمانية الإيطالية .

Chaucer, Geoffrey , Chaucer Reader . C.W. Dunn, ed. New York : Harcourt Brace Jovanavich , 1952 .

عموما يعتبر أعظم كتاب فى الشعر الإنجليزى فى العصور الوسطى .

Thomas a Kempis . Imitation of Christ .L. Shirley-Price, trans. Baltimore : Penguin 1973 .

Langland, William . Piers Plowman . Goodridge , J.F. Baltimore : Penguin 1966 .

تعليق لاذع على المجتمع فى أخريات العصور الوسطى هو صوت الرجل العادى . هام جداً.





التاريخ الوسيط

قصة حضارة البداية والنهاية



للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES